مختارات الفكر المسيحي/٨

المختار من الأعداد الخاصة

١٩٧٤-١٩٩٤

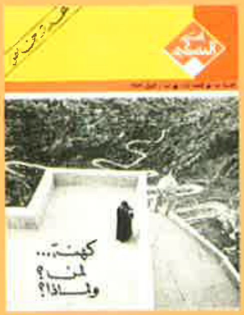

إعداد وتقديم
الأب بيوس عفاص

دار بيبليا للنشر
الموصل ٢٠١٠

مختارات الفكر المسيحي

سلسلة تثبت وتوثق ما نشرته مجلة الفكر المسيحي، في ابوابها الثابتة، بين الاعوام ١٩٧١-١٩٩٤، فاصبح مرجعا ثمينا...

صدر منها، أولاً، ٣ كتب غطت ٣ أبواب، قبل ان تعمد دار بيبليا عام ٢٠٠٦ الى مواصلة نشر ابواب اخرى، بدءا من الرقم ٣ -وكلها من اعداد وتقديم الأب بيوس عفاص.

(-) تاريخ الكنيسة الشرقية/ج١ (ركن التاريخ)	الاب البير ابونا ٢١٦ص، الموصل ١٩٧٣	نفد
(١) همسات ابو فادي/ج١ (الزاوية ذاتها)	الاب (المطران) جرجس القس موسى ١٦٨ص، بغداد ١٩٨٥	١٥٠٠د
(٢) ابت، هذه مشكلتي (الزاوية ذاتها)	الابوان عبدالسلام حلوة ويوسف توما ١٠٠ص، بغداد ٢٠٠٤	٢٠٠٠د
٣. اسئلة واجوبة (صندوق الاسئلة...)	مشترك بين اكثر من ٥٠ كاتبا (١٢٠ اجابة) ٢٢٨ص، الموصل ٢٠٠٦	٢٥٠٠د
٤. افتتاحيات (٢٠٢ افتتاحية)	الابوان بيوس عفاص وجرجس القس موسى ٥٠٠ص، الموصل ٢٠٠٧	٣٥٠٠د
٥. همسات ابو فادي/ج٢ (الزاوية ذاتها)	الاب (المطران) جرجس القس موسى ١٧٨ص، الموصل ٢٠٠٧	٢٠٠٠د
٦. من وحي الانجيل (الزاوية ذاتها)	مشترك بين ٢٥ كاتباً (١١٧ مساهمة) ٢٩٤ص، الموصل ٢٠٠٨	٢٥٠٠د
٧. خواطر وشذرات	١٦٨ خاطرة لكتاب من كل أفق ٢٠٨ص، الموصل ٢٠٠٩	٢٠٠٠د
٨. المختار من الأعداد الخاصة	٦٦ مقالة لـ ٢٧ كاتباً من كتاب الفكر المسيحي ٥٠٨ص، الموصل ٢٠١٠	٣٥٠٠د

سعر خاص لمن يرغب للحصول على الكتب الثمانية معا: ١٨,٠٠٠د.

المختار من الأعداد الخاصة

... كانت الأعداد الخاصة اسلوبا ومنهجا وبرنامجا لتمرير وتمكين مفاهيم متجددة في الايمان والحياة وقضايا الانسان الخ... في ضوء توجهات المجمع وباتجاه رؤية مستقبلية متفائلة للكنيسة في العالم، والعراق خاصة. فكل عدد كان اشبه بكتيّب احاط بالموضوع المطروح، وفتح آفاقا واسعة باتجاه المستقبل، ومجموعها شكل شبه "موسوعة" في مواضيع حيوية عدة كانت وما زالت مرجعا!

من كلمة التقديم

الأعداد الخاصة

على مدى ٢٤ عاماً (١٩٧١-١٩٩٤) اصدرت "الفكر المسيحي" ١٩ عدداً خاصاً (١٥٤٢ص) يشكل كل منها مرجعاً ثميناً في مواضيع هامة تناولها بالبحث كتاب وضعوا قدراتهم في الاحاطة بالموضوع المطروح من كل جوانبه... وما زالت كلها محتفظة بتميزها وجدتها واصالة طروحاتها...

و "المختار من الاعداد الخاصة"، مع اهميته، لا يعفي ولا يغني عن قراءة كل عدد خاص برمته، والاعداد الخاصة كلها!

١٩٧٤:	المسيحي في مجتمعه	١٠٠ص
١٩٧٦:	قضايا الجيل الجديد	١٠٨ص
١٩٧٧:	كنيسة العراق	٨٢ص
١٩٧٨:	بولس السادس	٤٨ص
١٩٧٩:	كهنة، لمن؟ ولماذا؟	٦٤ص
١٩٨٠:	شخصية يسوع المسيح	٨٠ص
١٩٨١:	كشاف ١ (١٩٧١-١٩٨٠)	٥٦ص
١٩٨٢:	الكتاب المقدس	٩٦ص
١٩٨٣:	الاسرة المسيحية	٨٠ص
١٩٨٤:	الانسان... على صورته ومثاله	٩٦ص
١٩٨٥:	الشباب... وعي وطموح	٩٦ص
١٩٨٦:	كنيسة العراق: ٢٠ عاما بعد المجمع	٩٦ص
١٩٨٧:	ام الفادي (رسالة بابوية)	٥٦ص
١٩٨٨:	الاطفال... امل المستقبل	٩٦ص
١٩٨٩:	الفكر المسيحي... ربع قرن في خدمة الكلمة	٩٦ص
١٩٩٠:	الحركة المسكونية: ٢٥ عاما بعد المجمع	١٠٠ص
١٩٩١:	كشاف ٢ (١٩٨١-١٩٩٠)	٦٤ص
١٩٩٢:	الاوخارستيا... شركة اقتسام	٤٨ص
١٩٩٤:	المسيحي والمعاصرة	٨٠ص
	كشاف ٣ (١٩٩١-١٩٩٤) ضمن العدد ٣٠٠	يعطى مجانا

تتوفر الاعداد الخاصة (١٦ عدداً) للسنوات ١٩٧٨-١٩٩٤ (١٦ عدداً/١٢٥٢ص): ٨٠٠٠د. فقط

[سعر خاص للاعداد الخاصة للاعوام ١٩٨٣-١٩٩٤ (١٢ عدداً): ٥٠٠٠د. فقط]

سعر العدد الخاص بالمفرد: ٥٠٠ دينار

اعداد الفكر المسيحي

للسنوات ١٩٧١-١٩٩٤

تتوفر نسخ من اعداد المجلة للأعوام ١٩٧١-١٩٩٤، وبمجموعات محدودة:

- المجموعة الكاملة ١٩٧١-١٩٩٤ (٢٤ عاماً/ محدودة): .... ٢٥٠،٠٠٠د.
- المجموعة الكاملة عدا ١٩٧٥-١٩٧٧ (٢١ عاما): .... ١٠٠،٠٠٠د.
- مجموعة اعداد ١٩٨١-١٩٩٤ (١٤ عاما): .... ٥٠،٠٠٠د.

(ويمكن الحصول مجانا على اعداد متفرقة)

تطلب من مكتبة بيبليا/ كنيسة مار توما-الموصل (العراق)
e-mail: bibliamosul@yahoo.com

مختارات

الفكر المسيحي ٨

AL-FIKR AL-MASIHI

NUMEROS SPECIAUX

Articles Choisis

الفكر المسيحي

1974 - 1994

بقلم كتّاب الفكر المسيحي

٢٠١٠

يطلب من مكتبة بيبليا ومن مكتبات الكنائس
سعر النسخة: ٣٥٠٠ دينار

مركز الدراسات الكتابية
كنيسة مار توما
الموصل-العراق

المختار
من
الأعداد
الخاصة

سلسلة "مختارات الفكر المسيحي" /٨

المختار

من

الأعداد الخاصة

١٩٧٤-١٩٩٤

اعداد وتقديم

الاب بيوس عفاص

دار بيبليا للنشر

الموصل-العراق

٢٠١٠

كلمة الناشر

... وسرعان ما أصبحت "مختارات الفكر المسيحي" سلسلة ظهرت فيها، بالتتالي، كتب دسمة وثقت ابواب المجلة الثابتة بين السنوات ١٩٧١-١٩٩٤، بدءًا بركن "تاريخ الكنيسة الشرقية" -ولم يُحتسب، مع انه كان الاول في "منشورات الفكر المسيحي" عام ١٩٧٣- وزاوية "همسات ابو فادي" (١٩٨٥)، ومن ثم باب "ابت، هذه مشكلتي" (٢٠٠٤).

ومع عام ٢٠٠٦، عمدت دار بيبليا للنشر الى مواصلة اصدار "مختارات" من ابواب "الفكر المسيحي" الثابتة، فكانت الباكورة "اسئلة واجوبة" (٢٠٠٦)، متخذة الرقم ٣ -وكان المفروض ان تتخذ الرقم ٤!- تلتها "افتتاحيات" رئيسي التحرير (رقم ٤/٢٠٠٧)، ومن ثم "همسات ابو فادي"/ج٢ (رقم ٥/٢٠٠٧). وفيما ظهر كتاب "من وحي الانجيل" (رقم ٦/٢٠٠٨)، وتلته "خواطر وشذرات" (رقم ٧/٢٠٠٩)، هوذا "المختار من الاعداد الخاصة"، بـ ٥٠٨ صفحات، للاعوام ١٩٧٤-١٩٩٤، يتخذ الرقم ٨ ويتزامن مع مرور ١٥ عاماً على صدور آخر عدد خاص في مسيرة "الفكر المسيحي"!

و"المختار من الاعداد الخاصة" الذي تزفه دار بيبليا للنشر يوثق مجموعة من ابرز المقالات التي تضمنتها الاعداد الخاصة -وقد كانت مبادرة رائدة في تاريخ مجلة "الفكر المسيحي" في سنواتها السمان -حين كان العدد غالباً ما يغطي شهرين (التشرينين) من اعداد المجلة الشهرية، ويتناول موضوعاً حيويا راهنا يعالجه من كل جوانبه ويحيط بكل ابعاده وملابساته، وذلك عبر تحليل جاد ومعالجة دقيقة ونظرة ناقدة ورؤية مستقبلية..ولا نغالي اذا قلنا بان الاعداد الخاصة التسعة عشرة اصبحت تُعدّ اليوم "موسوعة" هي مرجع، واي مرجع!

الموصل في ٢١ تشرين الأول ٢٠٠٩

دار بيبليا للنشر

وهذا كتاب آخر

اليكم كتاباً آخر في سلسلة "مختارات الفكر المسيحي"! كتاب لم يكن بوسعه ان يضمّ بين دفّتيه ١٥٤٢ صفحة، هي مجموع صفحات الاعداد الخاصة التسعة عشرة التي كانت "الفكر المسيحي" قد اصدرتها خلال عشرين عاماً، ما بين ١٩٧٤-١٩٩٤، وكانت ولا تزال تُعَدّ قلادة رائعة رصّعت صدرها في السنوات الخوالي!

وكانت فكرة نشر "مختارات" من الاعداد الخاصة مغرية، بادئ ذي بدء، ولكن سرعان ما انتصبت الصعوبات: أي المقالات تُختار؟ ولماذا؟ بأية معايير؟ ومَن مِن الكتّاب؟ ولماذا؟ وعلى حساب مَن؟ ذلك ان الاعداد الخاصة برمتها كانت مميَّزة، ذات طابع جاد وشمولي، أفرغ فيها كتّابها عصارة فكرهم وذروة جهودهم... فكان لا بد من اجراء اختيار يتصف بالموضوعية والجرأة، يعتمد اولاً -في ما عدا الهدف التوثيقي- مبدأ احتفاظ المقالات بجودتها وجدّتها، بعمقها وشموليتها، وبشكل خاص، بصلاحيتها لقارئ اليوم الذي يهمه ان يقرأ ما دبّجته الاقلام بين السبعينات والتسعينات، ويهمه كثيراً -كما يهمنا بالاكثر- ان يتاح له من خلالها ان يغرف ما يَهدي ويفيد، وما ينير ويبني... وكان لا بد لنا ان نُسقط الافتتاحيات -وقد سبق ان ظهرت مجتمعة، عام ٢٠٠٧، في الرقم ٤ من سلسلة "مختارات"- كما اسقطنا الطاولات المستديرة واللقاءات والاحاديث والاستفتاءات...

وذهب اختيارنا باتجاه تنوع المواضيع، ولا سيما في القضايا التي لم تفقد شيئاً من جدّتها وحداثتها، لا بل هي قضايا ما زالت مطروحة في ايامنا -وإن مضى اكثر من ٣٠ عاماً على اول عدد خاص، وحوالي ١٥ عاماً على آخر عدد!- من مثل الالتزام المسيحي ورسالة العلمانيين والحركة المسكونية وشؤون الحب والشباب والزواج والاسرة والتربية... فضلاً عن الكتاب المقدس وقضايا الايمان والاخلاق والكنيسة والاسرار... وفوق

ذلك ما يمتّ الى كنيسة العراق بصلة، في واقعها ومعاناياتها، في حاجاتها وتطلعاتها... وليس بقليل ان تُخصّ بعددين (١٩٧٧ و ١٩٨٦) وضعا الاصبع على جرح كنيستنا من جرى تململها في مراجعة الذات ومراوحتها في عملية التجدد الذي اطلقه المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني وواكبت **"الفكر المسيحي"**، طيلة ٣٠ عاماً، توجهاته وانعكاساته ومردوداته في حياة الكنائس في العالم اجمع... ولا نخفي كم تبدو آنيّة الطروحات والتحليلات والمعالجات، وعلى اكثر من صعيد، للنهوض بكنيستنا باتجاه الاصالة والتجدد، من اجل مزيد من الفاعلية والاشعاع -وحتى المقالات التي تبدو وكأن الزمن قد تجاوزها، يطيب لنا ان نستذكر كم كانت في أوانها مؤثرة!

٦٦ مقالة... ٢٧ كاتباً

وهكذا وقع اختيارنا على ٦٦ مقالة، من اصل حوالي ١٠٠ -ولم نتجاوز ست مقالات في كل عدد خاص- آخذين بعين الاعتبار مشاركة واسعة لكتّاب (٢٧ كاتباً) ألِفَ قراءُ **"الفكر المسيحي"** اسماءَهم، بعضهم سبقونا الى دار البقاء: عبد السلام حلوة، نجيب فاقو، فرنسيس المخلصي، بهنام كجو، نعمان اوريدة، يوسف حبي. وعلى ذكر الكتّاب، نقول باننا أثبتنا مقالات لـ ١٤ كاتباً اخترنا لهم مساهمتين فما فوق -ولم نتجاوز السبع!- فيما لم نثبت لـ ١٣ كاتباً آخر سوى مساهمة واحدة، مع اعتذارنا اليهم؛ علماً بان هناك مساهمات اخرى كثيرة ادلى بها هؤلاء الكتّاب انفسهم، بالاضافة الى مشاركة عدد لا بأس به من الاساقفة والكهنة والعلمانيين (حوالي ٥٠ مشاركاً)، عبر المقالة او المقابلة او الحديث او الطاولة او الاستفتاء... لذا ارتأينا ان ندرج الفهرس الكامل للاعداد الخاصة كي يطّلع القارئ على ما تضمنه عدد تراوح معدّل صفحاته بين ٤٨-١٠٠، ولا شيء يُغني عن قراءته برمته، وعن قراءة الاعداد الخاصة كافة واقتنائها!

وتجدر الاشارة الى ان ما بين الـ ١٩ عدداً خاصاً، هناك كشاف ظهر في ايلول ١٩٨١ (٥٦ص) وثّق وصنّف اعدد السنوات العشرة الاولى (١٩٧١-١٩٨٠)، وعدد خاص تضمن رسالة البابا يوحنا بولس الثاني بمناسبة السنة المريمية بعنوان "ام الفادي"

(ت١ ١٩٨٧/٥٦ص)، وكشاف العقد الثاني من المسيرة ظهر في ايلول ١٩٩١ (٦٤ص) وغطى السنوات العشرة الثانية (١٩٨١-١٩٩٠). واكتفينا بادراج صفحة اصدت لكل من هذه الاعداد الخاصة الثلاثة.

وبالرغم من عملية الاختيار التي اجريناها بين المقالات، فلقد اصبحنا بازاء كتاب ضخم تجاوز الـ ٥٠٠ صفحة! ولكنه جاء بحلة قشيبة رائعة، وان خلا من الصور المعبِّرة التي كانت تدعم المقالات في حينه. كما تعمّدنا الا نجري عليها أي تعديل او تحديث، الا في ما ندر، وذلك بهدف الامانة على طابع كاتبها، ولكي يتجلى تنوع الطرح والاسلوب واللون والرّنة... الا اننا عمدنا الى تحديث عدد من المقدّمات التي كانت تتصدر المقالات، فيما انكببنا على وضع مقدّمات مكثّفة للمقالات التي كانت قد خلت منها -وصحّ ذلك بنوع خاص في الاعداد الاولى والاعداد الثلاثة الاخيرة. وسعينا قدر المستطاع الى ادراج تقديم موجز لكل كاتب، مع اول مقالة اثبتناها له، واكتفينا باحصاء عدد من مساهماتهم وذكر ابرز ما تميزت به حياتهم، ولا ندّعي قط اننا وفيناهم حقهم، ولا سيما اولئك الذين غادرونا، وقد سبق للفكر المسيحي ان قيّمتهم يوم رحيلهم.

قراءنا الاعزاء

ستجدون في هذا "المختار من الاعداد الخاصة" متعة حقيقية ولا شك، بما فيها من ذكريات عزيزة على الذين منكم، من مواليد الخمسينات، واكبوها وهم في أوَج شبابهم؛ او الذين من مواليد السبعينات، كانوا في عمر الشباب هم ايضا، حين لحقوا بها في سنواتها الاخيرة؛ ونحن على يقين من ان الشباب من مواليد التسعينات سيجدون في قراءتها لذة وفائدة معاً، سيما وان الكثير من الطروحات والتطلعات والاماني، وعلى الاصعدة كافة، ما زالت محتفظة بفرادتها وتميّزها.

"موسوعة" من ١٩ عددا خاصا

ويطيب لي ان اذكر للتاريخ بان فكرة اصدار "عدد خاص" ترجع الى الاب (المطران) جرجس القس موسى لدى توليه رئاسة التحرير في اوائل السبعينات، فكان للفكر المسيحي في حينه عددان مميزان خصّا "المسيحي في مجتمعه" (١٩٧٤) و"قضايا

الجيل الجديد" (١٩٧٦). ومنذ اواخر السبعينات (١٩٧٧) كان للقراء موعد مع عدد خاص في كل عام -وهي اعداد تنافست في الجودة والعمق... وفيما نذكر باعتزاز بالعدد الخاص بمناسبة اليوبيل الفضي (١٩٨٩) بعنوان "الفكر المسيحي: ٢٥ عاما في خدمة الكلمة"، كان آخرها "المسيحي والمعاصرة" (١٩٩٤)، وقد تضمّن ملزمة وسطية حكت مغامرة ٣٠ عاماً من المسيرة الصحافية في خدمة الانجيل.

وهنا، ليسمح لي ان اقولها صراحة: كانت الاعداد الخاصة اسلوبا ومنهجا وبرنامجا لتمرير وتمكين مفاهيم متجددة في الايمان والحياة وقضايا الانسان الخ... في ضوء توجهات المجمع وباتجاه رؤية مستقبلية متفائلة للكنيسة في العالم، والعراق خاصة. فكل عدد كان اشبه بكتيّب احاط بالموضوع المطروح، وفتح آفاقاً واسعة باتجاه المستقبل، ومجموعها شكل شبه "موسوعة" في مواضيع حيوية عدة كانت وما زالت مرجعا!

واستميحكم عذراً لأقصّ يوم قَدِم الاب منصور المخلصي من بغداد ليرافق كهنة يسوع الملك في حلقتهم الدراسية حول الافخارستيا، وكان في جعبته العدد الخاص لعام ١٩٩٢ "الاوخارستيا: شركة واقتسام"، قائلاً: ماذا تريدون ان احكي لكم وانتم قد اصدرتم عددا يحيط بها، وبشكل ممتاز؟!

لقد بدت فكرة هذا الكتاب، لأول وهلة، مشروعاً عسيرا ومعقدا... ولكنه كان مطلبا ينسجم ويتوافق مع مشروع "مختارات الفكر المسيحي"، فتمخض عن "المختار من الاعداد الخاصة"! وانطلقت عملية الاعداد له، عبر اعادة تنضيد المقالات المختارة وتصحيحها، ومن ثم تنسيقها واخراجها ... وقرّ الرأي ان تتصدر "المختار" من كل عدد صفحة تثبت عنوانه وصورته ومحتواه، الى جانب تقديم موجز عنه ومقتطف من افتتاحيته.

ففيما نزف اليكم، قراءنا الاحباء، قدامى وجدداً، هذا الكتاب الثمين الذي يحمل الرقم ٨ في سلسلة "مختارات"، نأمل ان يحمل اليكم المتعة والفائدة...

الاب بيوس عفاص

الموصل في ١٨ ايلول ٢٠٠٩

١ المسيحي في مجتمعه

السنة العاشرة: ت١ - ت٢ ١٩٧٤

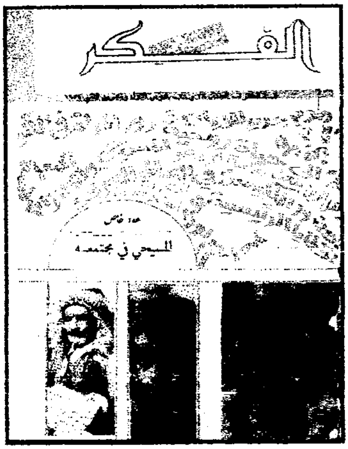

الفهرس

- افتتاحية: لماذا هذا العدد؟ — رئيس التحرير
- أمتفرج أم مبحر أنت؟ — منصور يعقوب
- هل من مفهوم جديد للإيمان؟ — أ. يوسف حبي
- الهي — جاك لوف
- ما هي "الحياة الروحية"؟ — الحاج الى المطلق
- الايمان المسيحي وتطلعات الانسان المعاصر — أ. جان كوربون
- اذا كان الله موجودا — بيتر حبشي
- حول الخطيئة وحرية ابناء الله — أ. ألبير أبونا
- الامل المسيحي — وجيه غاوري
- الله يفهم كل اللغات/مقابلة حول الصلاة — ك.ق.م.
- اسقف يرى ذاته في المرآة — م. جان كسباريان
- مفهوم السلطة الكنسية — أ. لوسيان جميل
- ما هو دوري في كنيسة الله — نجيب قاقو
- دور المرأة في الكنيسة — ايميه عازوري
- خاطرة مسيحي — أفرام عبدو العوزي
- الصحافة المسيحية — أ. يوسف عفاص
- ملتقى: من طالبة جامعية — ابو فادي
- الالتزام السياسي والانسان الانجيلي — أ. عبد السلام حلوة
- حضور الكنيسة اليوم في العالم العربي — انطون مقدسي
- العربي المسيحي — الشهيد كمال ناصر
- الاحتلال الصهيوني والكنيسة — عصمت عنابي
- الحياة المسيحية (الاخبار) — ...
- الى المطران كبوجي — نجم الدين عبدالله سليم

جاء هذا العدد الخاص في الذكرى العاشرة لميلاد "**الفكر المسيحي**"، فكان باكورة الاعداد الخاصه التي نسجت سنواتها السمان، بحيث اصبح كل عدد خاص بمثابة كتيّب في موضع حيوي، تناوله من جوانبه المختلفة... وتوزعت مقالاته على قسمين: قسم تناول الابحاث التي تعالج الالتزام المسيحي في وجهيه الديني الرسولي، في نطاق الحياة الشخصية والجماعة المسيحية؛ وقسم تناول الابحاث التي تعالج الالتزام المسيحي الزمني في نطاق حياة الوطن والامة. الى جانب مقابلة مع اسرة فرنسية حول الصلاة، ومساهمات متفرقة وخواطر.

من مقالاته الدسمة (١٠٠ ص) اخترنا اربعاً فقط! وهي لا تغني قط عن قراءته برمته...

(...) "في هذا العدد الخاص نهدف، إذن، إلى المساهمة في استكشاف آفاق هذا المسيحي المعاصر الذي يريد أن يعي ويحيا ايمانه المتطور بكل أبعاده، ويبقى في الوقت نفسه ابن عصره ومجتمعه، ابن تراثه ووطنه، فيتحسس قضاياه وطموحاته ويساهم في تطويره وفي بنائه. والمجتمع الذي يتجسد فيه ايمان هذا المسيحي، والذي نقصده في هذا العدد، هو المجتمع العراقي بنوع خاص، ومن خلاله المجتمع العربي، بمعانياته وتطلعاته الروحية والمادية، الوجودية والحضارية، الاقتصادية والسياسية...

فاذا ساهم هذا العدد في توضيح موقع المسيحي في مجتمعه لاتخاذ دوره الطبيعي في الحياة العامة، وساعده على اكتشاف هويته في كنيسته، سيكون قد حقق بعضاً من مطامحه"(...)

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٥٤)

تساؤلات جادة طرحها الاب يوسف حبي حول ظاهرة التدين مقابل الايمان الصافي والملتزم...

وفيما دحض كل ما ليس بايمان، عبر استعراض مسهب لعدد كبير من التصورات الخاطئة التي شوهت اصالته وعتّمت على جوانبه النيّرة، مبرزاً ملامح الايمان الحق عبر علاقة تتسم بالصدق والشفافية بين الله والانسان، وعبر تعبير دينامي عنه، بوجهيه الشخصي والجماعي، خلُص الى الدعوة الى ايمان جديد هو "امل يحرر ويخلّص، لا في العالم الآتي، بل منذ اليوم"، وهو بالتالي فرح ونور وحب....

الاب يوسف حبي (مواليد ١٩٣٧) الذي خطفه الموت عام ٢٠٠٠، وهو في اوج عطائه، ترك وراءه عدداً من الكتب القيمة في قضايا الايمان والتاريخ والتراث، فضلاً عن المقالات الدسمة في كثير من المجلات، وفي المقدمة "الفكر المسيحي" (٣٥ مقالة، فضلاً عن مساهماته في بابي "من وحي الانجيل" و"سؤال وجواب") ومجلة "بين النهرين" التي اسسها عام ١٩٧٣ ورئس تحريرها ورفدها بالعديد من المقالات التاريخية القيمة.

وكان منذ عام ١٩٦٦ -بعد دراسته في روما وحصوله على الشهادات العالية- محركاً للعديد من النشاطات في الموصل ودهوك، ومن ثم في بغداد حيث كانت له اليد الطولى في تأسيس كلية بابل وتأمين عمادتها بجدارة عالية وعزم متميز ... وكان له حضور فاعل في النشاطات الكنسية وفي مجال التعليم في الدورة اللاهوتية التي اسسها عام ١٩٨٣، وفي المؤتمرات الوطنية والدولية. وكان عضواً في المجمع العلمي العراقي.

الالتزام المسيحي في وجهيه الديني والرسولي

هل من مفهوم جديد للايمان؟

✲مشاهدات

– البناية واسعة وشيقة، مكتظة بالناس. عجائز بيدهن سبحات يتمتمن ويتأوهن. أنثتان أمام شخص شاب وسيم من الجبس الملون. رجال أعناقهم مشرئبة الى الأمام أو ضجرون من الجلوس. شباب من كلا الجنسين بثياب زاهية أنيقة. أولاد منهم اللاهون ومنهم النائمون. أولاد بحلل بيضاء وكبار يؤدون حركات متنوعة. الحان متقطعة شموع، بخور... ما إن تنتهي الحفلة حتى يتسابق الجميع لمغادرة الكنيسة.

– يصوم، يصلي، يكمل الفرائض الدينية، أفليس مؤمنا؟

– ظالم، جشع، بخيل، متكبر، أناني، ولكنه أوقف للكنيسة بعض المال فأقامت له الكنيسة نصباً...

– نزيه في حياته، مخلص في عمله، متفان في خدمة الآخرين، يعطي من ماله ووقته وطاقاته، ولكنه لا يصلي الصلاة القانونية الرسمية، ولا يصوم الأصوام المفروضة ولا يكمل واجباته الدينية إلا في ما ندر...

– ألم تعمد طفلك بعد؟ أيمشي كاهن واحد في جنازة والدك؟ اليوم يوم عيد ولا تقصد الكنيسة؟...

ازاء هذه وأمثالها يحق لنا أن نتساءل :مَن المتدين؟ من المؤمن؟ ما الايمان؟

❋آراء

قد يجيب البعض أن المتدين الحقيقي هو من يكمل الواجبات الدينية. وكثيراً ما نسمع هذا القول: كان الناس متدينين سابقا، فكانت الكنائس تزدحم، والحفلات تستمر ساعات، والأصوام لا تعد، أما اليوم، فماذا بقي؟ كل شيء قد أختصر... طار الايمان! وقد يضيف بعضهم -مجاراة لعقلية العصر- فيقولون: المتدين من تكون حياته حبا وخدمة ونزاهة، علاوة على تكميله واجباته الدينية.

ان أول ما أود التركيز عليه هو أن القضية ليست قضية تباين جيلين وانما تباين عقليتين، والبون شاسع بين التعليلين تعاقب الأجيال أمر طبيعي، فليس الشيوخ كالشباب، ولا الجيل الماضي كالحاضر... أما ظاهرة عصرنا، فشيء جديد يختلف عما سبقه، يمكننا حصره في أمرين: النقد والرفض. اننا اليوم ننقد كل شيء وكل شخص ونرفض كل ما لا يقنعنا. قديما كان "يقال" و "يقرر"، وعلى الآخرين التصديق والتنفيذ، أما اليوم فالقول والقرار، أياً كان مصدرهما، بحاجة الى توثيق واعتماد. ولا يسعنا أن نطيل في تحليل هذه الظاهرة، فنوجزها في نقطتين: جذرية البحث وأصالة الحياة. وهذا اذ يسري على سائر الأبعاد الانسانية، ينطبق على الايمان أيضا. فقديما كنا نسمع مثل هذه الأقوال: يقول الانجيل، تقول الكنيسة، يقول الكاهن، وكفى! أما اليوم فلا تؤخذ هذه الأقوال على علاتها، بل هي بحاجة الى نقد وتقييم. حين يبطل الدين المسيحي أن يكون موضوع ايمان، يصبح نظاماً وتقاليد وتشريعات ومعلومات، فيتشوه جوهره ويفقد تجدده، ويمسي قضية اجتماعية لا قضية شخصية. إلا أن رقي العالم يهدم الدين الاجتماعي والتقليدي، فلا بد من العودة الى الأصول.

❋تصورات خاطئة

ليس الايمان علما، لاهوتا كان أو فلسفة، ولا الدين مجموعة عقائد وتعاليم؛ وبوسع الملحد أن يعرف عن الدين أكثر من المؤمنين. لا ينبغي أن نفهم بهذا أن في "التعمق" بالدين ضررا قد يقود خطره حتى الكفر، فان مسيرة العلم الصحيحة تقود الى الاستنارة، انما تأكيدنا هو في أن ثمة بونا شاسعا بين الايمان/الحياة والعلوم الدينية المختلفة. لذا نرتكب خطأ فادحا عندما نظن أننا رسخنا الايمان في نفوس الصغار اذ نحشر أدمغتهم بمعلومات فلسفية/لاهوتية عن الدين. وكثيرا ما تكون كتب التعليم المسيحي موجزاً مركزاً جداً للنظرة الفلسفية الكلاسيكية.

وليس الايمان كتابا، حتى وإن كان مقدساً: فالكتاب حرف، والحرف يقتل، أما ما يحيي فهو الروح. ومن الخطر والخطأ أن نتقيد بنص الكتاب الحرفي ونجعل منه مجموعة

سنن وركائز نظام معين، وكأن الكتاب شرعة لتسيير البشر في مسيرة حياقم وتنظيم علاقاقم الاجتماعية.

وليس الايمان مراسيم وطقوساً وصوراً وثياباً، وهذا أمر مفهوم. الا انه صعب التطبيق واقعياً، اذ ما تلبث -في كل عصر ومجتمع- أن تغدو الشعائر والممارسات الدينية هي التعبير عن الدين، وحين يسعى أحدهم للتخلص منها أو إبدالها يتهم بقلة الايمان، بل بالكفر والزندقة. وليس الايمان ديناً نرثه عن أهلنا ومجتمعنا، أو عماذا نصطبغ به في الطفولة فننتمي الى جماعة أو دين أو كنيسة بشكل اجتماعي رسمي لا وعي لنا فيه ولا قناعة ولا تفاعل... كم منا يقوم بهذا الانتماء عن التزام واعٍ وحر فيما لو عرضت عليه الأمور عرضا ولم تفرض قسراً؟

وليس الايمان فروضاً أو واجبات تكملها فيرتاح ضميرك ولا يستطيع أحد؛ حتى الله عينه، أن ينحي عليك بلائمة، وكثيراً ما يكون تكميلك اياها على سبيل العادة ليس الا.

هذا ما يدفعنا أيضاً الى القول: ليس الايمان ثقة عمياء. لقد لقنونا معلومات شتى، وعودونا على شعائر معينة، وأرغمونا باسم السلطة الوالدية أو الكنسية أو المجتمعية على نمط خاص من الاعتقاد والممارسة، وأخذنا كل ذلك ونحن صغاراً، فقلدنا الكبار، وبقينا أطفالا، ولم نتساءل يوما: هل علمنا صحيح؟ وهل ممارستنا صائبة؟ هل حياتنا مستنيرة؟ بل ان استلامنا الأمور الدينية على علاقما، دونما نقد وتقييم، قادنا الى الأخذ بالهالة القدسية للدين، بعصمة الكتب المقدسة، بعصمة رجال الدين، بسحرية الأسرار...

ليس الايمان وهما أو خيالا، فناخذ باله متعال بعيد عن العالم، غريب عن قضايانا وحياتنا، دين صارم وسيد مطلق. هذا الاله ليس من عالمنا، فهو ليس لنا، وليس من داعٍ للايمان به. غير أننا قد دبجنا المجلدات الضخمة بأبحاث مسهبة عن طبيعة الله وصفاته، وحشونا الأدمغة بتعابير مثل هذه: الله تعالى، اللامتناهي، الكلي القدرة والجبروت، الذي هو بكل شيء عليم، لا حركة في الكون وفينا الا بارادته القدوسة... العمر بيده، والرزق عليه، قسمتنا في الحياة منه، والخير والشر بسماحه... لا شك أنه يمكننا تفسير ذلك بنوع مقبول، ولكن بصعوبة، والانكى أننا كثيرا ما نأخذها بمعنى القضاء والقدر، وتقودنا الحتمية والاتكالية الى الظن أن الله كائن يصنع ما يشاء وكيفما يشاء، وأننا أشبه بأحجار شطرنج يحركنا وفق هواه، فنسيء هكذا الى الله، ونسيء الى الانسان. وبعيدة هي جذور هذه العقلية، اذ تمتد الى الوثنية بسبب النزعة النظرية والفوقية لله، كما ترجع الى اليهودية بسبب نزعة التسامي المقدس، فاليهود لم يكونوا يلفظون اسمه (يهوه) بل يقولون الرب (أدوناي)، وكان موسى يضع برقعاً على وجهه عقب مكالمته لله. ان هذا المفهوم عن الله يشوه مفهوم الانسان أيضا. فقد ظن البشر لأجيال أن الله انما يخلق الانسان كاملا حين يلفظ النفس البشرية في عالم مليء بالشرور، هو عالم المادة والجسد، وأن ما ينشده المرء من حياة الدنيا العودة الى باريه طاهرا غير منتقص كما أتى: "انا لله وانا اليه راجعون"! وما أعسر طريق

العودة هذه، فيأتي الدين، بممارساته خاصة، عونا لانتشال الانسان بطرق سحرية من ورطاته العديدة وواقعه المرير. وحقا قيل: "من يمس الله يمس الانسان، ومن ينتقص من الانسان ينتقص من الله أيضاً".

وليس الايمان هربا أو تخديرا، كأن يقال لك: "ان حياتك شقاء وتعب، ولكن ماذا بوسعك أن تفعل؟ احتمل... انك فقير أو منكوب أو مظلوم، او مريض أو مضطهد، ولكنها ارادة الله... ولك الحق في التشكي من شريكة الحياة والأولاد أو الشغل أو المجتمع، ولكنها قسمتك في الحياة، والحياة وادي الدموع... ألم تر كيف انتهت حياته، انما قسمته، انتهى خبزه... آمن فتحظى بالحياة الأخرى. حياة السعد والهناء، ستنال السماء...". ويظل الفقراء فقراء والمضطهَدون كذلك، ويظل المستبدون الجشعون والمعتدون يمارسون اعتداءاتهم، والا أختلت الموازنة -حسب ادعاءاتهم- و لم يبق من طعم للصبر والأستسلام، وتغدو الحياة جحيما. أكان ماركس على خطأ حين قال بأن الدين أفيون الشعوب، وهو كان يعني هذا المفهوم المشوه واللانساني للدين؟

وليس الايمان مصلحة نفعية، فنعبد الله لأننا نخشاه، ونقوم بأفعال الخير لكي نحصل على ثواب، ونصوم ونصلي لكي ننال صحة ورزقا وراحة بال، جاعلين من ديانتنا مقايضة وتجارة، فنمسخ هكذا مجانية العطاء بعد أن نكون قد انتزعناها عن الهنا أيضا، فكل عطاء -حسب فكرنا- يجب أن يقابله أخذ، وإلاّ فما نفع الايمان؟

❋الايمان الحق

هذا كله ليس بالايمان الحق. انما الايمان حب كبير يوحد شخصين: الأول قلبه كله خير وعطاء وحنان، كامل الشخصية، قدير متسام، قريب، متأنس، كله حضور هو الله؛ والثاني شخص في نمو وتكامل، فيه من الطاقات والامكانات ما يؤهله لكي يغدو عظيما، ولن يحقق ذاته الكبيرة الا بمقدار تعرفه وانفتاحه على الله، وتمثله به، واتحاده بأبناء الله، أصدقائه البشر والخلائق كافة، بحب متجسد ذي ركيزة واقعية وابعاد شاملة. انه الانسان الذي لكي يكون مؤمنا ينبغي أن تغدو حياته حبا، "وأنا" "نحن". ليس الله والانسان قطبين متنافرين، بل كائنين يوحدهما الكنه عينه، ويجمعهما الى الآخرين والكل عن وعي وحرية.

الايمان شخص يتحدث الينا من خلال كتاب كتب قبل نيف والفي سنة ويكتب كل يوم من جديد، لأن صاحبه حي بيننا وفينا، فالكتاب المقدس محرك وموجه. انه نداء واشارة وأمل ومشعل. الكتاب المقدس يحررنا من اله الخيال والخوف فنعرف أله الحب ونقيّم الانسان.

والايمان قضية شخصية، فلا يكفي أن نرثه عن الآخرين، ولا يحق لنا أن نقلد الغير في العادات والشعائر دونما استيعاب وتمثل ذاتي وتجديد. لا بد لنا من حياة ايمان شخصية،

تختلف في كل منا، ولا تبقى جامدة بل تنمو، متخذة أوجها وأبعاداً مختلفة. ولا بد لكل منا من تعبير شخصي خاص به عن الايمان، سواء كان ذلك بالفكر أم بالممارسة. هذا ما يدلل على وجوب الأخذ بتعدد النظرات الفلسفية واللاهوتية وكثرة التفاسير وتنوع الطقوس. وهذا ما يدفعنا منطقيا الى تجديد متواصل في الممارسات، كما إلى تنظيم رتب تلائم الصغار والشباب مع الحفاظ على رتب للكبار، اذ ليس من المعقول أن نجمع في الاحتفال عينه أطفالا وشبابا وكبارا ونريد منهم جميعا أن يفهموا ويشتركوا بما يتم أمامهم. وليست الطقوس والأسرار ممارسات سحرية يكفي حضورها جسميا لكي تفعل فينا...

والايمان فعل جماعي. أن نؤمن وحدنا، فيه من النقص والخطأ. انما أنانيتنا في الدين أودت به الى وضع مذموم. وقد تتجسم أنانيتنا في مظاهر شتى من التقولات والشعائر، وكأن الانسان صندوق مقفل أو ساكن الجزيرة الأوحد، أو أن علاقته بالله لا يجب أن تلتقي حتما بعلاقاته بالآخرين، فنعتمد وحدنا، ونصلي وحدنا، ونصوم وحدنا، ونعترف وحدنا، ونقدس وحدنا ولنا...

✻ السبيل الى الايمان الجديد

ثمة سبل عدة تتناسب وكل عصر وبيئة وفرد، ولكن لا بد من تحرير الايمان بتحرير الله والانسان من قيود عقليات الماضي وترسباته، بما في ذلك جمود وتزمت اللاهوت والطقوس والقوانين والتقاليد، والخيال والصبيانية والتهرب والتخدير، وازدواجية الفكر والحياة ونفاق الظاهر والباطن، والفصل بين الله والانسان، والسماء والأرض، والروح والمادة. ان هذا الفصل خاصة هو كفر وهرطقة فوق كل الهرطقات، لأننا نقسم ما وحده المسيح، وكأن التأنس غير موجود، ولم يكن الكلمة جسداً. وليس الملكوت فينا... لا بد إذن على صعيد الشمول من تجدد دائم يلائم الانسان في وجوده الواقعي.

ولئن كان من الضروري، على الصعيد الفكري، الأخذ بكل ذلك في سبيل تعميق أسس دين صحيح متجدد، فلا بد على الصعيد الواقعي من نضوج في الحب للعيش بحسب حياة الأيمان، اذ بدون مفهوم حق للحب، بل من دون حب كبير وعميق، لا معنى للدين ولا وجود لحياة الايمان.

هذا المفهوم للايمان هو شيء جديد، لو قارناه بما نحمله في ذهنيتنا من أفكار ومفاهيم، أو بما نقوم به من ممارسات وعادات، أو بما نرضخ له من نظم وتقاليد. ولكن، أليست المسيحية ديانة تجدد؟ وهل يبطل التجدد يوما أو تتوقف مسيرته؟ أليست الولادة الجديدة ما دعا اليها المسيح؟ أليس الانسان الجديد ما ينشده بولس؟ ألم تدق ساعة تموت فيها المسيحية التقليدية الاكليريكية لتعطي الحياة لمسيحية عصرية ناضجة؟

أذكر يوم كنا صغاراً وكان يقال لنا: "لا تقل هذا، لا تفعل ذلك، سر كذا، أتمم هذا فهو واجبك وستنال مكافأة..." اننا لا نقبل ذلك اليوم. أيام كنا أطفالا كان الحليب

طعامنا، اما اليوم فلا يسد الحليب جوعنا. فهلا ولّى عهد طفوليتنا الدينية؟ ومتى عسانا نرفض الاستعباد وننضج في الحب؟

أنا لا أقسم الناس الى الصنفين المعروفين: مؤمنين وملحدين، بل الى صنفين آخرين: ملتزمين ولا أباليين. وبالنسبة لي: كل ملتزم هو مؤمن، حتى لو كان غير متدين على الطريقة المعتادة. بينما كل لا أبالي هو ملحد نظريا أو واقعيا، حتى ولو قام بممارسات دينية شتى. اذ ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات، بل من يعمل ارادة الاب السماوي، والعابدون الحقيقيون هم الذين يعبدون الله بالروح والحق. وكثيرون هم اليوم من يعبدون الله بالروح والحق بالتزامهم قضايا هامة ومفيدة، لا بل القضية الأساس: الانسانية. فما أبعدنا عن التشاؤم لو تخلصنا من أغلال السطحية التي بها نحكم على العالم والعصر...

الايمان أمل يحرر ويخلص، لا في العالم الآتي أو لحياة ما بعد الموت، بل منذ اليوم وفي واقعنا الحياتي. والايمان ذ ـ لا يوصف للانسان الذي يحياه عن وعي، وبحرية. والايمان نور وهدى. والايمان أسمى اختبار شخصي لأنه اختيار الوعي الحر والحضور والحب.

ان ايماننا بالله والسماء منوط بايماننا المطلق والأبدي بقيمة الانسان، كل انسان وكل الانسان. ويكتمل ايماننا بفضل حياة حب تبنى مدى العمر بمعية الآخرين وتبذل في سبيل الكل.

لعلنا لن نكون حيال جماهير من المتدينين التقليديين، بل ستكون نخبة من المؤمنين الحقيقيين. لا تفاؤل ولا تشاؤم، بل واقعية. ما يميز المؤمن المعاصر: الأصالة والالتزام والجدية.

ايمان جديد؟ أجل، ايمان بالانسان لكي يحيا الانسان حب الله مع إخوته لبنيان الكون بنوع أفضل.

الاب يوسف جبر

حول الخطيئة وحرية أبناء الله

رسم الاب البير ابونا في هذا المقال وجهاً للانسان يتسم بالطابع القدسي، كونه صورة الله، ومن هذا المنطلق يكمن جوهر كيان الانسان في صلته بالله: تلك هي دعوته في التبحر في كل ما يهدده بالسقوط، وقبول افتداءه بنعمة المسيح التي تنتزعه من الشر لتسمو به الى الله...

هكذا يبدو مفهوم الخطيئة مرتبطاً بالدعوة الى الحياة مع الله ... فالله يعرض صداقته على الانسان، ويبقى الانسان حراً في التجاوب مع هذه الدعوة او التصدي لها، بحيث تمسي الخطيئة، في هذا المنظار، عملاً يتنافى مع الحرية الحقة... حرية ابناء الله.

الاب البير ابونا (مواليد ١٩٢٨)

خريج معهد مار يوحنا الحبيب عام ١٩٥١ واستاذ اللغة السريانية فيه. اتحف الفكر المسيحي، في باب "ركن التاريخ" (ك٢ ١٩٧١- حزيران ١٩٧٢) بمقالات متتالية عن تاريخ الكنيسة الشرقية -وقد جمعت في كتاب ظهر عام ١٩٧٢، كان الاول في "منشورات الفكر المسيحي"- فضلاً عن اكثر من ١٥ مقالة منوعة. الى جانب مساهماته الكثيرة في العديد من المجلات الدينية والتاريخية والتراثية.

ولا سيما في اعقاب توليه رئاسة تحرير مجلة بين النهرين. ناهيك عن حوالي ٨٠ كتاباً قيماً، تاليفاً او ترجمة، وفي مختلف المجالات -نذكر منها في "سلسلة أبحاث كتابية": لوقا-الاعمال، من اجل ايمان جاد. له حضور فاعل في العمل الراعوي عبر الارشاد والمواعظ والرياضات الروحية والمحاضرات والخدمات الروحية...

ان في العالم أسراراً ومآسي يعاني منها الانسان دون أن يتوصل الى سبر كنهها أو الى اعطاء شرح حقيقي لها. ومنها مأساة وجود الشر في العالم، ولو أن الفلاسفة يحددون الشر بعدم وجود الخير أو بنقص في الوجود ذاته. إلا أن مظاهر الشر بادية للعيان، ولا أحد ينكر نفوذه الكبير أو نتائجه الوخيمة في العالم. لا سيما في حياة الانسان، سواء تجلت هذه النتائج في شقاء الأجساد أم في تعاسة النفوس. فلم يعط أحد شرحاً وافياً للشر ولم يتغلب عليه أحد في جذوره.

لقد اعتاد الناس النظر الى الخطيئة كفعل مخالف لارادة الله، سواء جاءت هذه الارادة بصيغة الأوامر أم النواهي، وسواء جاءت ضمن الشرائع المكتوبة أم الشرائع المرسومة في تضاعيف الضمير الانساني.

الا أن لهذا التحديد جذوراً عميقة في طبيعة الانسان وفي علاقته بالله. فان الانسان هو هذا المخلوق الفريد الذي جعل كحد فاصل بين عالمين: الروحي والمادي أو بالأحرى، لقد أقيم ليجمع في ذاته هذين العالمين. انه عالم مصغر (مكرو كوسم) كما حدده الفلاسفة، فيه يتجسد العالم الروحاني، وفيه يتروحن عالم الأجساد.

أجل، ان الانسان لسر عظيم! ولا يحق لنا أن نضعه في صنف "المعضلات" كما يتوهم البعض. أنه يتسم بطابع قدسي، اذ هو روح، ومن ثمة صورة الله، وقد خلق ليحيا حياة سرية مع الله، لكي يفتش عنه بالفكر والحب، لكي يخدمه ويبذل ذاته في سبيل مجده بغية الوصول الى تحقيق الوجه الأكمل لهذه الصورة الالهية في ذاته.

ان هذه الطاقة وهذا الاتجاه كامنان في تركيب الانسان ويحددانه في سره الجوهري. فهو من جراء صلته الحية بالله، وعلى شعاع الوجه الالهي الذي يسمه وسماً أبدياً، يتعدى كل الأذهان والأحكام، ولا شيء يمكنه ملاشاته. وحتى موته ليس الا بدء دخوله الحقيقي في سر الله وفي صحبة الأرواح الخالدة.

ان جوهر كيان الانسان هو صلته بالله، أي دعوته الالهية. وهنا تظهر فيه عناصر متناقضة: انه ساقط ومفتدى.

فالانسان ساقط، وهو من ثمة عرضة لقوى الشر الكامنة فيه، والتي تحاول اجتذابه واثارة أغرب الغرائز فيه، حتى لـ ل له أنه مجبول بالشر المتدفق من قلبه والذي تنضح به حياته كلها. وكلنا نشعر بثقل هذا الشر الذي نحمله في ذاتنا والذي نئن ونرزح تحت وطأته، اذ يحجب أمامنا أشعة النور الالهي ويهوي بنا الى أسفل.

الا أن الانسان مفتدى أيضاً. فقد استحوذت عليه نعمة المسيح وأثارت فيه قوى أخرى أولته طاقات داخلية هائلة، وجاء حب آخر لينتزعه من الشر ويدفعه الى الله. ففي غمرة الشهوة، يثور فيه شوق متواضع وطاهر وقوي الى الله الذي هو الحقيقة والمحبة والقداسة. ففي هذه المرحلة، يصبح سر الانسان تواجد هاتين القوتين اللتين تتنازعان حب الانسان وحريته. فتحاول الخطيئة اغواءه واقتحامه، وتحاول النعمة هدايته وانقاذه. فيصبح الشخص كله، بنفسه وجسده، بغرائزه وأهوائه، بحبه وعقله، ميداناً واسعاً لهذا الصراع الدامي بين قوى الشر، بزعامة "رئيس هذا العالم"، وقوى الخير المنبثقة من قلب "ملك الملوك". وتحمي وطيس هذا الصراع قوى أخرى خارجية تأتيه من عالم الأشياء وعالم الأشخاص وعالم الكائنات اللامنظورة التي تحاول إعاقة مسيرة الانسان.

ومهما بدأ الأمر متناقضاً، فان السقطة علامة على كون الانسان مقدساً. فالسقوط يعني الانفصال عن الله. ولا ينفصل عن الله الا الكائن الذي يحمل الطاقة على الاشتراك مع الله، ويجد في انفصاله عنه مصدر شقاء عظيم له وسبب موته الأبدي. فان السقوط للانسان لا يعني السقوط من أسفل، أي من العالم المنظور ومن كل الوثاقات التي تربطه بهذا العالم، انما يعني السقوط من فوق، من العالم الالهي ومن وثاقات النعمة التي تدمجه مع الله. ولهذا فمن الممكن للانسان أن يسقط من عالم الله ويستمر مع ذلك في العالم المنظور ويزهو فيه. واذا فقد هذا العصر المعنى القدسي للانسان، فلن يتسنى له ادراك معنى سقوطه أيضاً. انه يجهل شقاء الانسان لجهله عظمته الحقيقية.

الا أن الله قد أدرك الانسان واقتداه بالمسيح. فهو ليس مقدساً فقط لكونه يحمل هذه الطاقة الجذرية التي تجعله قادراً على الاستجابة الى الدعوة التي يوجهها الله اليه ليحيا معه، بل هو أيضاً مقدس بهذه الدعوة الناجعة الى الحياة في الله بيسوع المسيح الذي يدخله الى عالم المحبة الالهية. فهو اذا مرتبط بمحبة الله وباختياره الأزلي اللذين يتسربان بصمت في عمق كيانه. ومهما بلغت درجة الانحطاط والتلوث عند الانسان فانه يحتفظ في عمق نفسه، ما دام حياً، بسمة من هذا الحب الفادي وهذه الدعوة الى التجدد في يسوع المسيح.

فنرى أن مفهوم الخطيئة مرتبط ارتباطاً كلياً بدعوة الانسان الى الحياة الفائقة الطبيعة، ومرتبط بحب الله اللامتناهي لكل انسان. هذا الحب الذي له المبادرة الأولى في الخلق وفي العناية وفي التقديس وفي التمجيد، أي انه يشمل مراحل حياة الانسان كلها منذ بدء تكوينه حتى بلوغه الى الكمال، الى المجد. فحياة الانسان كلها نعمة وكلها نداءات تدعوه الى الصداقة مع الله والى العيش معه. ان الله يعرض على الانسان هذه الصداقة التي من شأنها أن ترفع حياة الانسان الى أسمى درجة من العظمة. ويبقى الانسان مع ذلك حراً في التجاوب مع رغبة الله هذه أو في رفض صداقته والميل الى اتباع ارادته الشخصية.

فالخطيئة اذا هي عمل ضد الحرية البشرية في مفهومها الصحيح. لأن الحرية هي وضع كل القوى والامكانات للانطلاق طوعاً نحو تحقيق المثل السميا للحياة الانسانية. الحرية هي العمل على رفع جميع العوائق وازالة كل العقبات التي تحاول صد مسيرة الانسان نحو هذه الأهداف العالية. أما الخطيئة فتقيد هذا الانطلاق وتدفع الانسان الى الانحراف عن الدرب المؤدي الى أهدافه السامية، والسير وراء السراب والأوهام التي تبدو له براقة جذابة، الا انها ليست في الواقع الا فخاخا توقعه في أقسى أنواع الذل والاستلاب الروحي، اذ تخضع الانسان لما فيه من الأهواء الدنيا والغرائز السفلى والرغبات المنحرفة. انه يصبح عبداً رقاً: "ان كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة" (يوحنا ٨:٣٤). وهل يمكننا أن نحسب سعيداً الطائر المسجون في قفص، وإن كان هذا القفص من ذهب؟ كلا! فان الطائر لا يجد نعيمه الا في تحليقه في الأجواء العليا وفي استقراره على الأغصان التي يختارها. كذا الشأن مع الانسان الذي خلق لكي ينعم بالاجواء الالهية فهو لا يجد سعادته الحقة الا في التوجه بحرية مطلقة شطر هذه الاجواء السامية، بعد أن قطع المسيح كل القيود التي كانت تربط وتحد من حريته: "ان حرركم الابن كنتم في الحقيقة أحراراً" (يوحنا ٨:٣٦).

فنظرتنا الى الله ليست نظرة الى كائن جبار يترصد أعمالنا ونوايا قلبنا ليجد تهماً يرشقنا بها أو هفوات يسجلها علينا ليوم الحساب العسر حيث لا موضع للرحمة والغفران، وحيث سيحاسبنا على كل شاردة وواردة، وكأن شغل الله الشاغل هو اصدار الأوامر والنواهي الينا ومراقبة أعمالنا ومدى مطابقتها هاتيك الأوامر والنواهي. ما أضيق الديانة حينما تقتصر على هذه النظرة السلبية التي تخلق الوساوس والقلق في حياة الانسان الذي يرى والحالة هذه أشباح الخطيئة المرعبة في كل شيء وفي كل مكان!

اننا ننظر الى الله كأب عطوف خلقنا لنسعد معه الى الأبد. وهو يريد أن يقودنا نحو هذه السعادة الحقة بتوجيهات أبوية جاءت بصيغة الأوامر والنواهي، ولكنها في الحقيقة دعوة لنا الى التجاوب مع محبته العظيمة لنا، وهذه المحبة تغمر حياتنا وتفعمنا دالة وثقة بالله أبينا. فاذا لقيت هذه المحبة فينا تجاوباً صادقاً، كنا حقاً أبناء الله، وسرنا حسب رغبته وحققنا بحريتنا، بالتعاون مع نعمته، كل الأهداف التي وضعها الله لحياتنا. فلا خوف علينا اذا تصرفنا مع الله تصرف الأبناء المخلصين الصادقين الذين يضعون ذواتهم في خدمته وخدمة مصالحه السامية، لا خوفاً من العقاب أو طمعاً بالثواب، بل حباً بالله أبينا وتجاوباً مع محبته الأبوية لنا... اما اذا اصطدمت محبة الله فينا بالرفض أو اللامبالاة، وفضلنا ذواتنا عليها وسرنا وراء ما يرضينا ويشغلنا عن الله، فأن رفضنا هذا يغلق نفسنا عن الله وعن نعمته، ويحقق فينا انفصالاً أليماً عن أهداف حياتنا الجوهرية فنعيش في حالة لا منطقية ويتفاقم فينا عنصر السلبية وتفقد حياتنا اتجاهها الصحيح وغايتها الحقيقية.

وما أكثر المسيحيين الذين تتسم حياتهم الروحية بهذه السلبية المؤسفة. فانهم يرون أشباح الخطيئة في كل شيء ويسردون على مسامع المعرِّفين سلاسل طويلة من الاحداث الصغيرة الدقيقة، والأمور التافهة التي تعاد وتكرر في كل مرة، وهم ينسون أن الحياة المسيحية لا تتوقف على السلبيات، انما تبنى على المحبة. فان محبتهم لله وللقريب يجب أن تكون المقياس الحقيقي لصلاحهم وقداستهم، وليس تجنب الخطايا والهفوات. انهم غالباً ما ينسون حقيقة تجاوبهم مع محبة الله والقريب، فلا يفكرون بمواقفهم الداخلية تجاه اخوتهم البشر وبمدى تجاوبهم مع متطلبات هذه المحبة الأخوية. انهم يهملون التفكير بالتزامهم بواجباتهم العائلية أو الاجتماعية. أما السعي في التقدم في المحبة وازالة العوائق من حياتهم لخلق جو مؤات لتفتح النعمة فيهم، فهذا أمر قلما يخطر ببالهم. ولهذا فقد يصبح جو المسيحية جواً ثقيلاً يملأه القلق والتوتر والخوف، وتسوده فكرة الخطيئة والمخالفة والتشاؤم واليأس. الا أن المسيحية الحقة براء من هذه البعابع الرهيبة وهذه الحسابات الدقيقة لمعرفة وزن الخطيئة!

فان المسيحية ديانة المحبة. وقد تأسست على محبة الله أبينا لنا وعلى محبتنا البنوية له. فاذا عرفنا هذه المحبة وتجاوبنا معها، عشنا كالبنين الأحرار وجاءت تصرفاتنا مصداقاً لمحبتنا، وسرنا في طرق هذه الحياة الوعرة واثقين بنعمة الله ومتضامنين معها ومتعاضدين مع كل ذوي الارادة الصالحة لدعم هذه المسيرة التي لا بد أنها ستُفضي الى المشاهدة السعيدة.

الأب ألبير أبونا

مفهوم السلطة الكنسيّة

انكب الاب لوسيان جميل على مفهوم السلطة في الكنيسة في ضوء تعليم المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، محللاً الملابسات التي رافقت هذا المفهوم بين ما هو اصيل فيه وما هو دخيل عليه. واقتصر بحثه على نقطتين مترابطتين: السلطة الكنسية هي من المسيح، لكنها تتم بمشاركة الجماعة المسيحية. فبصدد النقطة الاولى، شدد على ان السلطة، في جوهرها، رسالة وخدمة، وان الرئيس خادم ومبشر ومرشد في خدمة الايمان والمحبة -مستشهداً بنصوص من الانجيل، ومشيراً الى ما تعرضت له السلطة من انحرافات وتشوهات، وطارحاً تساؤلات حول شرعية الرئيس في حال عدم اهليته ...

اما النقطة الثانية، فقد ركّزت على ان مشاركة الجماعة المسيحية عنصر من عناصر الاصالة في السلطة الكنسية، ولاسباب تتعلق بطبيعة السلطة الروحية، مع كل ما تفرضه من التزامات من جهة، ولاسباب تتعلق بطبيعة الجماعة المسيحية، مع ما تمليه الدعوة المسيحية من متطلبات المشاركة الفاعلة من جهة اخرى ...

الاب لوسيان جميل من مواليد ١٩٣٤، خريج معهد ما يوحنا الحبيب. ما زال يخدم رعية تلكيف منذ رسامته عام ١٩٦٠ -وهو على ابواب اليوبيل الكهنوتي الذهبي! مفكّر وكاتب، له نظرة ناقدة على الحياة، وحياة الايمان بنوع خاص، تحمل في طياتها بذار ثورة على الموروث... وقد اسهم كثيراً، بمحاضراته وكتاباته، في توسيع آفاق المؤمن باتجاه القيم الجوهرية الانسانية والمسيحية. دبج العديد من المقالات المثيرة (٤٢ مقالة، ما عدا مساهماته في باب "من وحي الانجيل") على صفحات الفكر المسيحي، وكان احد المستشارين البارزين في هيئة التحرير.

الكلام عن السلطة الكنسية واسع متشعب الجوانب لا يمكن حصره في مقال واحد مهما كان مكثفاً. وهو في الوقت عينه معقد للغاية لأنه يجب أن يأخذ بعين الاعتبار كل الأمور التي تتعلق بعلم الكنيسة وما طرأ على هذا العلم من تطور وتعمق لا سيما أثناء وبعد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني. ويزداد هذا التعقيد حينما يتوجب على الباحث أن يميز بين ما هو أصيل وما هو دخيل في مفهوم السلطة الكنسية.

في هذا المقال سأقتصر على مفهوم السلطة الكنسية بشكل عام تاركاً مسائل أخرى فرعية مهمة، على أمل أن تجد من يتعرض لها يوماً. أما معنى هذه السلطة فيشمل، أضافة الى صلاحية الترؤس، جميع الصلاحيات التي منحها المسيح لكنيسته، أي صلاحية التعليم والرعاية ومواصلة أعماله الخلاصية. وبديهي أن هذه الصلاحيات أو المهام لا تمارس كلها على نمط واحد وان تمازجت كلها في بعض القضايا، لأنها تختلف الواحدة عن الأخرى بطبيعتها، ولأن طبيعة الصلاحية هي أحد العوامل المهمة في تحديد طريقة ممارستها، اضافة الى ما ورد عنها في الانجيل وممارسة الرسل. الا أننا رغم ذلك سنتجنب الدخول في التفاصيل رغبة في

الايجاز، مؤكدين على القضايا المشتركة في هذه الصلاحيات.

ان كل متتبع لمسألة السلطة الكنسية لا بد أن يلاحظ أن مفهومها قد مر بتطور خلال العصور المسيحية المتعاقبة حسب حضارة تلك العصور وعقليتها. الا أن هذا المفهوم يتمتع بأصالة فريدة تحفظ وحدته وكيانه عبر أشكال مختلفة من الممارسة للسلطة التي شوهت أحيانا صفاء هذه الأصالة ونقاءها. وفي هذا البحث سأسعى الى كشف وابراز هذه الأصالة، عسى أن تجد كنيسة العراق سبيلها الى الممارسة المثلى للسلطة بكل حرية وبروح العصر الذي نعيش فيه، وكمنهج للبحث، يمكننا أن نلخص أصالة السلطة الكنسية في نقطتين أساسيتين هما:

أولاً: السلطة الكنسية هي من المسيح.
ثانياً: السلطة الكنسية تقضي بمشاركة الجماعة المسيحية.

وقبل أن نأتي الى شرح هاتين النقطتين لا بد أن نشير الى وجود علاقة ديناميكية وثيقة بينهما، نابعة من صميم طبيعتيهما ومن مشيئة مانح السلطة الكنسية نفسه. فلا يمكن لاحد إذن أن يفصل الواحدة عن الأخرى أو أن يتجاهل احداهما دون أن يتعرض الى تشويه المفهوم الذي تعبران عنه.

أولاً: السلطة الكنسية هي من المسيح

انه لأمر بديهي أن لا يختلف المسيحيون حول هذه المسألة أبدا. فان مفهوم "السلطة من الشعب" لا معنى له في الأديان، لأن الانسان ليس مستعداً لقبول استلاب جديد بخضوعه للبشر في أمور ليست من صلاحياتهم. فاما أن يكون الله مصدر كل سلطة روحية، واما لا تكون مثل هذه السلطة موجودة اطلاقاً. والسلطة من المسيح تعني في نظر المسيحيين السلطة من الله، ليس بسبب عقيدة وحدانية يسوع الابن والله الاب فحسب، بل لأن يسوع كان في كل أقواله وأعماله يؤكد على علاقته القوية مع الآب وينتسب اليه على أنه مرسل من قبله وهو يعمل باسمه: "ليس تعليمي من عندي بل من عند الذي أرسلني"، و " طعامي أن أعمل بمشيئة من أرسلني"، و "من سمع منكم فقد سمع مني، ومن سمع مني فقد سمع ممن أرسلني".

لقد فهم الرسل، ومن بعدهم جميع المسيحيين، أن المسيح كان له القدرة على نقل سلطته الى كنيسته. فقد رأوا فيه رجلا يحمل رسالة الهية هي نشر ملكوت الله في أرجاء المعمورة، وعرفوا أنه من أجل هذه الرسالة جمعهم حوله وعلمهم، فتأكدوا أنه، باختياره لهم، قد منحهم سلطانه للمشاركة في عمله الخلاصي ولمواصلة هذا العمل. إلا أن الرسل ازدادوا يقيناً عندما تلقوا هذا السلطان بصورة واضحة وعلنية في مناسبات عديدة كقوله لهم: "اني أوليت كل سلطان في السماء والأرض فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمذوهم

باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، وهاءنا معكم كل الأيام الى أنقضاء الدهر". (متى ٢٨:١٩-٢٠). وأيضاً قوله: "كما أرسلني الآب أرسلكم... خذوا الروح القدس. من غفرتم له خطاياه تغفر له ومن أمسكتم عليه الغفران يمسك عليه". (يوحنا ٢٠:٢١-٢٣). أما في العشاء الفصحي، فقد خولهم سلطانه الكهنوتي الأعظم ليقربوا ذبيحة العهد الجديد، ذبيحة جسده ودمه التي قربها هو لغفران الخطايا بقوله لهم: "اصنعوا هذا لذكري".

يشمل مفهوم السلطة الكنسية كما نرى، في جوهره، فكرة الرسالة والخدمة. رسالة مصدرها المسيح وغايتها الانسان. والرئيس في هذا المفهوم ليس سوى خادم ومبشر ومرشد ومحرض على الايمان ومحبة الله، وأداة بيد المسيح لمنح مواهبه وعطاياه الكثيرة. وقد بين المسيح المعنى الحقيقي للسلطة حينما وقع جدال بين تلاميذه في من يعد أكبرهم، فقال لهم يسوع: "ان ملوك الأمم يسودونها وأصحاب السلطة فيها يريدون أن يدعوا محسنين، أما أنتم فليس الأمر فيكم كذلك، بل ليكن الأكبر فيكم كالأصغر والمترئس كالخادم. فمن هو الأكبر؟ أمن جلس للطعام أم الذي يخدم؟ أما هو الجالس للطعام؟ فأنا بينكم مثل الذي يخدم" (لوقا ٢٢:٢٤-٢٨). وبعد أن غسل يسوع أقدام تلاميذه قال لهم: "أتفهمون ما صنعت اليكم؟ أنتم تدعونني معلماً ورباً وأصبتم في ما تقولون، فهكذا أنا. واذا كنت أنا الرب والمعلم قد غسلت أقدامكم فيجب عليكم أنتم أيضاً أن يغسل بعضكم أقدام بعض. فقد جعلت لكم من نفسي قدوة لتصنعوا ما صنعت اليكم. الحق أقول لكم: ما كان عبد أعظم من سيده، ولا كان رسول أعظم من مرسله. قد علمتم الآن هذا الأمر فطوبى لكم اذا عملتم به". (يوحنا ١٣:١٢-١٧).

أما في انجيل متى، فيؤكد يسوع بأن "ابن الانسان لم يأت ليخدم بل ليخدم، ويفدي بنفسه جماعة كثيرة". وقد كان المسيح نموذجاً حقيقياً في ممارسة سلطانه الالهي. فقد علم وعمل "كمن له سلطان"، الا أن هذا السلطان كان أدبيا يتوجه الى الارادة الحرة لتلاميذه ومستمعيه. كان المسيح قائدا حقيقياً وراعيا صالحا، كما لقب نفسه، وقد "عرف خرافه وعرفته خرافه وسمعت صوته" لانه "بذل نفسه من أجلها" بسخاء. وقد مارس المسيح كافة مواهبه الالهية والبشرية، لا ليدهش الجماهير ويجذبها، إلا ان الجماهير كانت تؤمن به وتمجد الله الذي "أعطى مثل هذا السلطان". وقد استند يسوع الى ما كان في كلامه من قوة الحقيقة الالهية ووضوحها وجاذبيتها، لأنه لم يكن يعلم "ككتبة اليهود". كما استند الى صفاء سيرته واستقامتها لكسب ثقة جماهيره: "من منكم يستطيع أن يثبت علي خطيئة؟" (يوحنا ٨:٤٦). وهكذا أعطانا المسيح أعلى نموذج في السلطة الحقيقية التي تحفظ للانسان حريته وكرامته، وتوجهه الى طريق الحق والخير بدون عنف أو اكراه. وهذا النموذج هو الوحيد الذي يمكن أن تمارس بموجبه سلطة روحية بشكل سليم. أما النموذج السلطوي القانوني الذي مارسته الكنسية طويلاً، ولا زالت تمارسه حتى الان في أماكن عديدة من العالم، فهو يبدو

باهتا وجامدا بلا روح ازاء نموذج المسيح، حتى ليمكن التأكيد بأنه نموذج غير شرعي أحيانا.

ان ما يؤسف له حقا هو أن الانسان قد استغل سلطان المسيح في حالات كثيرة بشكل يتنافى مع معناه الحقيقي، فأصبح أداة للسيطرة والتحكم بيد الاكليروس، وصار خير واسطة لهم لفرض آرائهم واحترامهم على الناس، وللحصول على كثير من الامتيازات المادية والمعنوية. وقد انقلب مفهوم الهيراركية (الخدمات المتسلسلة أو المتدرجة) بمرور الزمن من معنى الخدمة المنظّمة والرسالة الموحدة الى تسلسل الامتيازات والمكانة والألقاب حسب تسلسل الدرجة، يقابل ذلك تمييز في الهندام والمظاهر الخارجية. وهكذا أصبحت السلطة في خدمة الرئيس بدل أن يكون هو في خدمتها؛ ومع الرئيس أضحت السلطة في خدمة نظام ومؤسسة وكأنها غاية في ذاتها، عوض أن تكون السلطة والمؤسسة في خدمة الروح والحياة لدى الانسان المدعو للارتباط بيسوع المسيح. ان مفهوم السلطة هذا مفهوم مشوه لا علاقة له بالمفهوم المسيحي الأصيل، لأنه في احسن أحواله مفهوم نرجسي يحقق الرئيس ذاته من خلاله باسم المسيح حينما يفرض أرادته ووجهة نظره، وحينما يعتقد نفسه أنه "الملتزم" الشخصي لكافة صلاحيات المسيح، يفتح لمن يشاء ويغلق الأبواب بوجه من يشاء، وكأنّ لا خلاص خارجا عنه هو. لقد جدد الاكليروس نظرية "الحق الالهي" في الكنيسة رغم البون الشاسع بين هذه النظرية ومفهوم السلطة الكنسية، وكان العامل المشجع الأكبر على ذلك هو الذهنية التي كانت السلطات الزمنية تمارس بها سيطرتها على الناس في عهد المسيح، وطيلة القرون الوسطى، وبعد ذلك بزمان طويل.

في نظرية الحق الالهي يكون الرئيس هو المحور الأساسي في السلطة، فهو وحده يملك الحق بأن يأمر ويقرر، بتخويل من الله طبعا! وأن ما يهم هو سلطته وأوامره وامتيازاته والنظام الذي يسهر عليه ويدافع عنه. أما في مفهوم السلط الكنسية، فان المسيح هو المحور. فهو المصدر والغاية والمؤثر الوحيد؛ وبما أن الانسان هو غاية التجسد الاولى، فان الانسان يصبح هو الآخر مع المسيح محورا للسلطة الكنسية. وعندما نقول الانسان، فانما نعني الانسان الحر الواعي الذي لا يجوز أن تؤثر عليه أية سلطة مهما كانت الهية، الا اذا كانت في خدمته وعن طريق مشاركته والحوار معه.

من المفيد أن نطرح الان سؤالا حول شرعية الرئيس في حالة عدم أهليته للسلطة وعدم التزامه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه. فهل يبقى رئيسا أم يفقد شرعيته؟ يظهر تاريخ الفكر الكنسي أن الاجماع لم يحصل في هذه القضية. فبعض اللاهوتيين والمعلمين، سيما بعد حركة الاصلاح اللوثري قالوا، بأن الرسامة تخول الشرعية وجميع الحقوق والصلاحيات بغض النظر عن أهلية مقتبلها. ومنهم من ذهب الى أن الرئيس الذي لا يتحلى بصفات الرئاسة الأساسية ليس رئيسا. وللاهوتي الكبير توما الأكويني رأيه في هذا الصدد حيث يقول ان الرئيس ليس مقياسا مطلقا للحقيقة لانه مقياس ثانوي، ويفقد قيمته كمقياس حين يبتعد عن المقياس الأول. وعن المقياس الأول للحقيقة يقول القديس توما بأنه المقياس

الرسولي، أو الكتب الرسولية على وجه التحديد. ويقبل القديس توما بما يسمى الاصلاح الأخوي للاساقفة، ولا يرى مانعا من أن يكون هذا الاصلاح علنا اذا كانت المسألة تعود الى الايمان. وهكذا نرى أن القديس توما يقبل بمبدأ المشاركة للسلطة والمعارضة لها باسم مقياس أعلى.

أما بالنسبة لي شخصيا، فاني أعتقد بأن أوامر معينة تفقد شرعيتها حين لا تكون بالتاكيد بحسب الحقيقة والخير. أما اذا وصل الأمر بالرئيس درجة لم يعد بامكانه، بشكل خطير، أن يكون بعد معلما وراعيا، فحينئذ يفقد شخص الرئيس نفسه شرعيته، على أن تكون الكنيسة ككل هي الحكم وليس فئة من الأكليروس فقط، لأنه قد يحدث أن تكون طغمة من الرؤساء خارج الشرعية في بعض الظروف والأزمنة، كما قد حدث ذلك مرارا في التاريخ الكنسي ويحدث الان أيضا. لقد أيدت الكنيسة في الواقع هذا المبدأ في حالات معينة ولا سيما في حالة انفصال أحد الرؤساء عن الشركة الكنسية أو وقوعه في الهرطقة. فلماذا لا يعم هذا المبدأ في حالات أخرى وأهمها الاستبداد والاستغلال ونقص كبير في الكفاءة والتصرف المخالف لروح الانجيل بشكل دائم؟ ان المجمع المسكوني لم يكن واضحا في هذه المسألة. الا أنه قد خطا خطوة الى الأمام في هذا الطريق حين أعلن عن أولوية الغاية والخدمة على التنظيم والشرعية بقوله: "ان السيد المسيح قد أسس في كنيسته، تأمينا لرعاية شعب الله ونموه على الدوام، خدمات متنوعة، تهدف الى خير الجسد السري كله. فالخدام الذين قلدوا سلطانا مقدسا يخدمون اخوتهم، حتى يصل الى الخلاص كل الذين هم من شعب الله، ومن ثم يتمتعون بالكرامة المسيحية الحقة، بسعيهم الحر والرامي الى الغاية نفسها". (الدستور العقائدي للكنيسة ٣:١٨).

ثانياً: السلطة الكنسية تقضي بمشاركة الجماعة المسيحية

ان مشاركة الجماعة المسيحية عنصر آخر من عناصر الاصالة في السلطة الكنسية. فلا سلطة ولا كنيسة بدون مشاركة، ولا معنى للطاعة بدونها. أما الأسباب التي تجعلنا نعتقد بأن المشاركة جوهرية وأساسية فمنها، ما يتعلق بطبيعة السلطة الروحية ومنها ما يتعلق بطبيعة الجماعة المسيحية. وسنتكلم عن هذه الأسباب بالتتابع.

١. الأسباب التي تتعلق بطبيعة السلطة الروحية

في القرن السادس عشر نشب خلاف بين لوثر والكنيسة كانت مسألة السلطة الكنسية محوره. ولقد كان من الطبيعي أن يزيح لوثر وأنصاره، عن طريق اصلاحهم، العقبة الأساسية المتمثلة بالسلطة الكنسية آنذاك، المتمادية في تصرفاتها الخارجة عن الروح المسيحي ومنهجه. اننا وان كنا اليوم لا نؤيد عمل لوثر الانفصالي وطريقته الاصلاحية التي أرادها "خارجا عن الكنيسة" والمبادئ اللاهوتية التي دعم بها هذا الانفصال، الا أننا نفهمه أكثر من أي يوم مضى بسبب أوجه شبه عديدة بين ظروفه وظروفنا في الكنيسة الجامعة وفي غالبية الكنائس المحلية، وأهمها يأس الطليعة في الكنيسة من امكانية تغيير الوضع لصالح التقدم.

وكامتداد لفكر لوثر، يؤكد اللاهوت البروتستانتي اليوم بان المسيح قد أعطى سلطته: سلطة التعليم والرعاية والتقديس للجماعة المسيحية مشاعة في جسم الكنيسة. والكنيسة كجماعة هي التي تفوض من تراه مناسبا ليقوم بالخدمات الكنسية. الا أن هذا التفسير يبدو غير منسجم مع معطيات الكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة، وهو سبب للانقسام والتشتت، اضافة الى كونه لا يعطي النتيجة المطلوبة من الناحية العملية.

ويعتقد اللاهوتيون الكاثوليك المعاصرون، ومن بينهم الاب كونكار الدومنيكي الذي استعنت بمؤلفاته في هذا المقال، بأن الحل السليم الذي يضمن الممارسة الجيدة للسلطة الكنسية ويقرب في الوقت نفسه وجهتي نظر الكاثوليك والبروتستانت يكمن في الربط الديناميكي بين دور الهيراركية القيادي ودور الجماعة المسيحية المتفاعلة أيجابيا مع قياداتها الروحية. فلا يمكن أن تتخلى الهيراركية عن مسؤولياتها التي استلمتها من المسيح عن طريق التفويض الرسولي بالرسامة، لتصبح مجرد شاهدة على ارادة الجماعة المسيحية ومنفذة لها، على أساس نسبة الأصوات في الاقتراعات، كما انها لا يمكنها أن تمارس مسؤولياتها خارجا عن الجماعة المسيحية ولا بمعزل عنها ولا فوقها. فالهيراركية تقبل مع الرسامة المقدسة موهبة القيادة، الا أن أحد الشروط الأساسية لاقتبال هذه الموهبة هو الالتحام العضوي مع الجماعة والاصغاء اليها والالتزام بمتطلبات حياتها الروحية التي هي علامة على أرادة المسيح التي يجب أن تكون دليل الهيراركية في القيادة.

اننا لا نريد أن نناقش هنا عصمة البابا، ولكننا متفقون على أن الهيراركية لا تتمتع بالعصمة في أمور الرعاية، كما لا تستلم نداءات سماوية بطريقة الوحي لتنقلها للجماعة على أنها صادرة من المسيح، ولا جدال ولا مكان لتدخل الجماعة فيها. لذا يمكننا أن نجزم بأن الالتحام العضوي بين الهيراركية والجماعة المسيحية هو السبيل الوحيد لحفظ الهيراركية من الزلل ومن سوء استعمال السلطة، والتصرف الاعتباطي بها، وهو الطريق الأمين لاعطاء أوامر وتوجيهات الهيراركية حظا أوفر من الصحة والفائدة. وواضح أن غالبية مشاكل الكنيسة قد نجمت عن تقصير في مشاركة الجماعة وعدم أخذها بنظر الاعتبار، ولا زالت هذه المشكلة تسبب اليوم كثيرا من الضيق والحساسية بين الهيراركية والجماعة المسيحية في كنائس عديدة من العالم.

وتميل الهيراركية عادة الى اتهام أفراد الجماعة المسيحية بعدم الخضوع والامتثال لأوامرها، ولكنها تنسى بأن سبب عدم الامتثال هذا قد يكمن في كونها قد انفصلت هي عن القطيع و لم يعد بامكانه أن يسمع صوتها لأنها اصبحت بعيدة عنه بتصرفها وعقليتها وطريقة قيادتها. ولا يسعنا هنا الا أن نشير الى الهوة السحيقة التي تفصل اليوم بين جيل الشباب وطبقات العمال والفئات الفقيرة من جهة، وبين القيادة الروحية من جهة أخرى. كل ذلك لأن القيادة في الكنيسة تتصرف من منطلقاتها الذاتية، وهي عادة منطلقات قد عفا عليها الزمن بسبب أعمار المتنفذين في الهيراركية، ولأسباب أخرى تتعلق بالبنى الفكرية

لهؤلاء المتنفذين. وأمرّ من هذا كله هو أن الهيراركية تنسب الى المسيح، بكل عفوية وبساطة، ما ليس سوى منطلقاتها وأفكارها، أعني أنها تجعل من نفسها وسيطة بين الجماعة المسيحية وبين المسيح بحيث لا يمر شيء من المسيح الى الجماعة الا من خلالها، وهذا أمر مخالف لطبيعة العلاقة بين المسيح وجماعته، وهو بالتالي مخالف لطبيعة السلطة التي أعطاها لكنيسته. فالمسيح هو بمثابة الرأس في جسم الجماعة المسيحية، فهو الذي يحركها ويعمل فيها داخليا بواسطة انجيله وأسراره وسائر أشكال حضوره الأخرى. لذلك لا يمكن حصر تأثير المسيح في الأدوات التي اختارها أصلا لتمثيله كرأس بين الجماعة، أي للقيادة والترؤس وليس للوساطة. ان مفهوم الوساطة يلغي في الواقع دور المسيح المباشر في علاقته مع الجماعة لأن الوسيط هو الذي يأخذ مكانه، كما يلغي دور الجماعة بقطع علاقتها المباشرة مع المسيح، هذه العلاقة التي لا تتم إلا عبر كيانها الشخصي في واقعه الحقيقي.

٢. الأسباب التي تتعلق بطبيعة الجماعة المسيحية

هل يمكن اعتبار الجماعة المسيحية مؤهلة للمشاركة في السلطة الكنسية، وللدخول بعلاقة روحية مع المسيح مباشرة وبدون وسيط، وعلى أي أساس يكون هذا؟

الجواب هو نعم وعلى أساس طبيعة الجماعة المسيحية الروحية نفسها. فالجماعة المسيحية لا تقسم الى قسمين: الهيراركية والشعب، أو الاكليروس والعلمانيون، لأن هذا التقسيم متأخر تاريخياً ولا ينسجم مع معطيات العهد الجديد، فهو تفسير اكليروسي في أصله ولا علاقة له بحقيقة الأمور. فالجماعة المسيحية هي وحدة واحدة غير منقسمة، هي كلها متدرجة في الخدمات والمواهب، (وهذا هو معنى كلمة هيراركية)، كلها جسد المسيح السري، وكلها كهنوتية وملوكية وأمة مختارة (١بطرس ٢:٩)، تتمتع بكرامة مسيحية واحدة، أما الصلاحيات التي منحت لبعض أفراد الجماعة، فليست سوى خدمات داخل الجماعة لبنيان الجسد كله. ولقد عبر القديس أوغسطينوس عن حقيقة أولوية الجماعة المسيحية على الخدمات الموضوعة داخلها بقوله: "قبل أن أكون أسقفاً لكم، لهذا السبب بعينه، ومن أجل ذلك، أنا مسيحي معكم، خاطيء وتائب معكم، تلميذ وخادم معكم". أما القديس بولس، فله كلام بليغ بهذا الخصوص اذ يقول: "فأنتم جسد المسيح وكل واحد منكم عضو منه، وقد أقام الله في الكنيسة الرسل أولا والأنبياء ثانياً والمعلمين ثالثاً، ثم منح هبة المعجزات والقدرة على الشفاء والاسعاف وحسن الادارة والتكلم بمختلف اللغات..." (١قورنتس ١٢:٢٧-٢٨). فعلى هذا الأساس إذن يمكننا أن نؤكد أهلية الجماعة المسيحية للمشاركة في السلطة الكنسية. فقد منحها الروح الواحد مواهب مختلفة حسب مشيئته (١قورنتس ١٢:٤-١١) للمساهمة في بنيان شعب الله الجديد ولأجل الخير العام. والجماعة المسيحية جديرة بهذه المواهب لأنها كما قلنا "شعب الله" و"جسد المسيح السري"، وهي جماعة كهنوتية في طبيعتها.

أن دور المواهب في حياة الجماعة المسيحية لم ينته بانقضاء الأجيال الاولى للمسيحية. فقد لا نشاهد اليوم مواهب خارقة كالتي ورد ذكرها في العهد الجديد الا ما

ندر، لكن مواهب الروح مع ذلك موجودة، وعلى السلطات الكنسية والجماعة المسيحية أن تحترمها بتواضع وتوليها المكانة اللائقة بها. من هذه المواهب ما يعطى بشكل فردي كتلك التي يملكها اللاهوتيون والمفكرون والقديسون وأصحاب المدارس الروحية وغيرهم. ومنها ما يعطى بشكل جماعي كنتيجة للتطور الذي يحصل في المجتمع ولا سيما في فترة التحولات الحضارية، كما يحصل اليوم في مجتمعنا. فعلى الكنيسة إذن أن تقرأ "علامات الأزمنة" وتكشف بروح نبوية عن المعنى الحقيقي والعميق لكل التطورات التي تجري في المجتمع الانساني بشكل عام وفي المجتمع المسيحي بشكل خاص، في الفكر والذهنية والعمل. وفي رأيي ان مشاركة الجماعة المسيحية عن طريق مواهبها لا يشترط فيها أن تتم دائما بالخضوع السلبي والمطلق للسلطات الكنسية. فان هذا النوع من الخضوع الذي كان يطلب في السابق من المؤمنين لا يعبر سوى عن مفهوم خاطئ وقديم عن السلطة والطاعة، ولا يدع مجالا في الواقع لاية مشاركة حقيقية، لانه لا يعتمد الا على قناعة الرئيس الشخصية. فالمشاركة الحقيقية لا تتم الا اذا توفرت الحرية لآراء اللاهوتيين الجريئة وتجارب التنظيمات المسيحية المختلفة مهما بدت غريبة وشاذة عن التقليد، ولمقترحات الفئات المسيحية المختلفة التي تبديها بأشكال شتى.

ان مشاركة الجماعة هذه لا يجب أن تبقى نظرية ولا أن تقتصر على السماح للجماعة المسيحية بالتعبير عن آرائها، بل يلزم أن تترجم الى صيغة أو صيغ عملية قابلة للتجدد، تمارس الجماعة ضمنها مواهبها وحقوقها المشروعة في كنيستها حتى لا تكون غريبة في هذه الكنيسة ولا تكون الكنيسة غريبة عنها. هذه الصيغ يمكن أن ندعوها بالصيغ الديمقراطية في الكنيسة. أما أهم هذه الصيغ فهي المجالس الكنسية على مختلف مستوياتها، مع صلاحيات واسعة تعطى لها لادارة الشؤون الروحية والاجتماعية والمادية للكنيسة، وللاشتراك في كل ما يخص تنظيم الطقوس وتعيين المسؤولين الروحيين، وحتى في اختيار الأساقفة.

واذا كانت الجماعة المسيحية مؤهلة للاشتراك في السلطة الكنسية، فهي مؤهلة بالأحرى للتصرف بحرية فيما يخص شؤونها الزمنية وشؤونها الروحية الخاصة، بعيدا عن أوامر ونواهي الاكليروس، فكما توجد صلاحيات تتمتع بها الهيراركية دون سواها من أبناء الجماعة، كصلاحية الترؤس وتقديس جسد الرب، وغيرها، فهكذا توجد صلاحيات هي من صلب واختصاص كل فرد من أبناء الجماعة المسيحية، بحسب المواهب التي أعطيت له؛ وكل تجاوز على هذه الصلاحيات يعتبر مساسا بحرية أبناء هذه الجماعة وسيطرة عليها واستلابا لحقوقها. وانني لا أدعو بالطبع الى الانعزال في هذا المجال بين السلطات الكنسية والجماعة المسيحية، لكنني لا أرى أن من حق هذه السلطات أن تشرف على نشاط الجماعة المسيحية الخاص بها وتوجهه، بل تكتفي بالحوار معها لتلهمها روح الانجيل ومثاليته، ثم تترك لها حرية الاختيار التي كثيرا ما تحددها قوانين علمية لا يعلو عليها أي مبدأ آخر.

ان من يدرس تاريخ المنظمات الرسولية القريب ليشعر حقا بفقر الــدور الــذي كانت الجماعة المسيحية تلعبه حتى في ما يخص حياتها الزمنية، في الوقت الذي كان يقال لها أن مكانة الجماعة عظيمة في الكنيسة، وفي الوقت الذي كان اللاهوتيون يبنون ما يســمى بـــ (لاهوت العلمانيين). لكن التطورات الأخيرة، ولا سيما بعد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، تمنحنا الأمل، رغم مرارة الوضع في كنائس كثيرة ومنها كنيسة العراق، في أن يأخذ أبناء الجماعة المسيحية دورهم شيئا فشيئا في الكنيسة، لا كظل للاكليروس وكمعاونين لهم ينفذون الأوامر بالشكل الذي يرتئيه الاكليروس، ولكن باستقلال حقيقي في الشخصـــية وكطرف جوهري في السلطة الكنسية في ظل وحدة الايمان.

الأب لوسيان جميل

الصحافة المسيحية رسالتها ومقوماتها

المقال عن "الصحافة المسيحية، في رسالتها ومقوماتها" كتبه رئيس التحرير، ابان دراسته في جامعة لوفان ببلجيكا/قسم وسائل الابلاغ الاجتماعية (١٩٧٢-١٩٧٦)، وقد ألقى فيه نظرة شاملة على واقع الصحافة بين الطموح والحدود، ليصل الى الصحافة المسيحية التي غالباً ما كانت سجينة ضغوط من قبل السلطة الكنسية -ولكم رأت فيها وسيلة للتعليم والدفاع عن الايمان، بينما هي في الاساس وسيلة اعلام يجب ان تتصف بالموضوعية والنزاهة....

وبعد استعراض سريع للوثائق الكنسية بشأن الصحافة وموقف السلطة الكنسية منها، خلص المقال الى رسم الصفة التي يجب ان تتسم بها الصحافة المسيحية في عصرنا: صحافة ملتزمة وثورية ... تقدم اعلاماً كاملاً وموضوعياً حول الكنيسة والعالم، وتكون اداة في خدمة الرأي العام في الكنيسة...

الاب بيوس عفاص من مواليد ١٩٣٩. تخرج في معهد مار يوحنا الحبيب ورسم كاهناً عام ١٩٦٢. هو أحد مؤسسي جماعة كهنة يسوع الملك. ماجستير وسائل الاعلام من جامعة لوفان (١٩٧٦)، رئيس تحرير "الفكر المسيحي" منذ تأسيسها ولحوالي ٣٠ عاماً، وله فيها، الى جانب الافتتاحيات (١٩٧١-١٩٩٤ ما عدا الاعوام ١٩٧٣-١٩٧٦)، مقالات ومساهمات عدة (اكثر من ١٣٠). كاهن رعية في كنيسة مار توما، له نشاطات مختلفة، لعل ابرزها تأسيسه حركة الشبيبة الطالبة المسيحية والندوة الدينية للجامعيين في الستينات. وهو مدير مركز الدراسات الكتابية واستاذ العهد الجديد فيه، وعنه ظهرت وتظهر اصدارات كثيرة ومتميزة، له منها الكثير، تأليفاً (قراءة مجددة للعهد الجديد/١٩٩٩) ولا سيما ترجمة، سواء في "ملفات الكتاب المقدس" ام في سلسلة "ابحاث كتابية"...

له مشاركات في مؤتمرات الاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة والرابطة الكتابية العالمية والشرق اوسطية.

قيل في الصحافة الكثير مما يشجع ويحبط معاً، ونعتت بأطيب النعوت وأقساها معاً، ولكنها ستبقى مع ذلك القوة الرابعة بين قوى العالم! وستظل وسيلة من أبرز وسائل الابلاغ وأكثرها طاقة على مد الجسور بين الناس، وأداة للحوار بين أعضاء الأسرة البشرية. واذا كانت الوسائل السمعية-البصرية قد قفزت قفزات هائلة في السنوات الأخيرة بفضل التقنية بحيث أصبح الراديو والتلفزيون أداتين هامتين في تقصير المسافات بين الشعوب؛ غير أن الصحافة -وهي أول وسيلة من وسائل الأبلاغ- ستبقى تتمتع بميزها الرئيسة التي هي قدرها على القاء الأضواء على الأحداث واستقصاء أبعادها تاركة لقرائها الحرية في تسليط أحكامهم على ما يتلقونه من أنباء فيضحون مشاركين لا مستهلكين وحسب، بينما يخضعهم الراديو، ولا سيما التلفزيون، لسلبية قتالة! ومهما قيل في منافسة الردايو والتلفزيون للصحافة، فستبقى الصحافة تتمتع بدور الصدارة بين كل وسائل الابلاغ.

* الصحافة بين طموحاتها وحدودها!

لن تؤدي الصحافة دورها في الابلاغ الا متى اعترف لها القراء بهذا الدور

وأتاحوا لها أن تمارسه بحرية. فاذا طالبوها –وذلك من حقهم- أن تكون في خدمة الاعلام وخدمة الرأي العام، كان عليهم أن يضمنوا لها حرية التعبير ويمكنوها من تقديم اعلام موضوعي.

فالأعلام ليس هو حاجة وحسب بل هو حق يجب أن يتمتع به كل انسان يعيش في مجتمع؛ لا شك أن مهمة الاعلام تقع بالدرجة الأولى على المحررين، خدام الإعلام، ولكنها مهمة يتقاسمها معهم القراء الذين من حقهم أن يعبروا عن ارائهم عن طريق وسائل الاعلام فيصبحون قادرين على المشاركة في بناء المجتمع؛ ومتى تم هذا التبادل في الاعلام، أصبح من اليسير أن ينشأ الرأي العام الذي ما هو الا ثمرة هذا التبادل في وجهات النظر المختلفة بين الناس، وحيث يكون الرأي العام غائباً فهناك مساس بالحرية يشكل خطراً في حياة ذلك المجتمع؛ لذا على الصحافة أن تساهم في خلق الرأي العام وتكون في خدمته والا تنكرت لرسالتها. ولكي يتسنى للصحافة أن تقوم برسالتها، يجب أن تتمتع بحرية التعبير والموضوعية؛ فالموضوعية هي من اصعب المشاكل التي تصادفها الصحافة، ولا ينبغي ان نرى فيها قيمة مجردة بحيث نطالبها بالحياد وعدم الانحياز... ذلك ليس من مكونات الموضوعية: فأن تفسّر الأحداث وتضعها في أطارها الواقعي وتتخذ موقفا منها، فتلك رسالتها ولا يمكننا، باسم الموضوعية، أن نطالبها بالتخلي عن ذلك؛ أما أن نطالبها بعدم تشويه الأحداث وباحترام الحقيقية مهما كلفها الأمر، فتلك هي الموضوعية؛ وهذا الاحترام يجب أن يتحلى به الصحفي تجاه الحدث وتجاه نفسه وتجاه قرائه. ويقول كريستيان جينيكو: "اذا كان هناك عدة أشكال لاعلان الحقيقة، فليس هناك سوى شكل واحد للموضوعية يقوم في تقديم كل الحقائق"! أما حرية التعبير: فهي ميزة الصحافة الرئيسة، فاذا فقدتها فقدت معنى وجودها؛ انها ضرورية للقارئ والمحرر معاً، وإلا انتفى الحوار بين الناس! ومتى غاب الحوار عن الصحافة، فالاجدر بها حينذاك أن تصمت! فيجب أن يتمتع الصحفي بحرية التعبير التي تمكنه من أن يعكس آمال قرائه وتطلعاتهم، وهذا يتطلب منه أن يحب قراءه ويتفاعل مع حاجاتهم ومطاليبهم، كما ينبغي على القارئ أن يكون قادراً على ممارسة حرية التعبير بحيث يُشعَر أن اراءه التي يعبر عنها عن طريق الصحافة هي علامة التزامه ومشاركته في حياة مجتمعه.

❋ الصحافة المسيحية سجينة تريد التحرر!

ونأتي، بعد هذه المقدمة الخاطفة في الصحافة، الى موضوع الصحافة المسيحية ونحن ندرك أن في الحديث عنها شجوناً... واذا كان في الحديث عن الصحافة المسيحية شجون، فذلك لأنها ابت في الماضي أن تواكب مسيرة الصحافة، ولأنها شاءت أو بالأحرى شاءوا لها أن تكون وسيلة للتعليم والدفاع عن الايمان وحسب وتناسوا أن للصحافة دعوة خاصة. وهكذا سُخِّرت في حمل أعباء لم تكن قادرة على حملها، وفرض عليها أن تتنكر

لدعوتها، فتناست مهمتها في إعلام موضوعي وتجاهلت دورها في خدمة الرأي العام، وكثيراً ما أُلزمت على التنازل عن حريتها في التعبير ولم يعد للموضوعية فيها مكان... فلا عجب اذا شاهدنا اليوم تحول المؤمنين عن صحافة مسيحية لم تعد تجيب الى آمالهم ولم تعد تتجاوب مع مطاليبهم وتطلعاتهم، وليس غريباً أن يمل القراء من مطالعة الصحف والمجلات الدينية لأنها لم تعد قادرة على اقامة حوار بينها وبين قرائها، ولأنها لا زالت تتكلم لغة لم يعد قراؤها يفهمونها، وتستعير أسلوباً لم يعودوا يستسيغونه. فعوضاً عن أن نتحي باللائمة على القراء ونتهمهم بالفتور وهجر الايمان، علينا أن نعيد النظر في صحافتنا ونتساءل عما قدمته وتقدمه لقرائها، فان كل صحافة لا تعبر عن آمال قرائها ولا تكون صدى لتطلعاتهم من حقهم أن يهجروها...

ستفهم، أيها القارئ اللبيب، ما وراء هذا الحديث من قصد، وستنتقل معنا بالفكر الى أحداث صمتت عنها الصحافة المسيحية أو أُكرهت على الصمت حولها، والى أحداث مرت عليها مر الكرام وكان ينبغي أن تُنقل بموضوعية، والأنكى انها ألبستها حلة شوهتها وأفقدتها أبعادها الحقيقية... ستفكر في مواضيع لم تطرقها الصحافة المسيحية، إما بحجة أنها غير "جديرة" بصحافة مسيحية! وإما بحجة الفطنة القتالة التي يتمسك بها أولئك الذين يخافون على الناس من العثار، وتناسوا أن للناس عيوناً تبصر وآذاناً تسمع... ستذكر مقالات كان ينبغي لها أن تبصر النور وحكم عليها "بالاعدام" وكتب على حاشيتها: "غير صالحة للنشر"! لا لسبب إلا لكونها جاءت من قلم كاهن أو علماني جريء يفكر بصوت عال... وستذكر مقالات استعار أصحابها لغة الأنبياء فوضعوا أصابعهم على مواطن الضعف في الكنيسة وكشفوا عن الداء والدواء، فثار ثائر أولئك الذين يريدون دوماً أن يتركوا الناس في غفوة ويخافون من يقظتهم، ووراء هذا الخوف مخاوف مصطنعة على ايمان الناس يتذرعون بها ليحافظوا على مراكزهم ونفوذهم... وقد تتساءل عن صمت الصحافة المسيحية عن الأزمات التي تعيشها الكنيسة على مختلف المستويات الفكرية والفلسفية واللاهوتية والأدبية والاجتماعية، ولا تدري العبرة من هذا الصمت، ومن حقك أن تقول ان مؤامرة الصمت هذه هي أكثر المؤامرات خطراً! وتتساءل، من وحي مواقف المسيح الحازمة وصرخاته الى جانب الحق والعدل والكرامة والحرية، تتساءل لمَ سكتت وتسكت الصحافة المسيحية عن المظالم الاجتماعية وعن المعضلات العالمية التي تستصرخ الضمير البشري وعن الأحداث التي كان ينبغي على الصحافة المسيحية ان تشهرها وتدينها وتتخذ موقفاً جريئاً تجاهها...

✲ أية صحافة مسيحية نريد!

مشكلة الصحافة المسيحية هي في كون الكنيسة اعتبرتها "أداة" في خدمتها، ليس أننا ننكر على الكنيسة حقها في أن يكون لها صحافة تنطق بأسمها وتكون لسان حالها فتنشر

تعاليمها وتعبر عن مواقفها ازاء معضلات العالم، انما لا نرضى أن تُسخِّر الكنيسة الصحافة المسيحية لمهمات لم تخلق لها، فلقد مضى الزمن الذي كانت فيه الصحافة المسيحية مجرد وسيلة لا غير للدفاع عن الايمان واعلاء شأنه بوجه أعدائه وأداة لدحض "الهرطقات" وإعلان الحرومات بوجه الفلسفات والأيديولوجيات... فاذا طالبت الكنيسة وتطالب بحقها في صحافة مسيحية واكدت تعاليم أحبارها بنوع عام والمجمع الفاتيكاني بنوع خاص على هذا الحق، فعليها أن تقبل بنتائج مطالبتها هذه، بحيث تفسح المجال للصحافة أن تقوم بمهمتها الاعلامية كاملة وتكون أسينة على دعوتها، فترضى أن تغير وسائل الأعلام، ولا سيما الصحافة، الصورة التي كانت قد خلقتها لدى الجمهور. فالصحافة المسيحية، اذا شاءت اليوم أن تكون على مستوى رسالتها ودعوتها ومسؤولياتها في الكنيسة والمجتمع، عليها أن تجدد مفاهيمها وتتخلى عما خلفه لها تاريخها، فتواكب الصحافة العامة في مهماتها الانسانية وتحقق الآمال التي يعلقها عليها قراؤها وتجيب الى ما يحق لهم أن ينتظروه منها.

فاذا سلمنا بضرورة الصحافة المسيحية، فنحن نريد لها أن تكون صحافة ملتزمة وثورية في كنيسة ملتزمة وثورية بكل ما في الالتزام والثورة من معان وأبعاد، تساهم في خلق مجتمع أفضل وكنيسة متجددة تكون علامة حضور الله بين الناس، تعرف أن تتبين علامات الأزمنة وتفسرها على ضوء انجيل المسيح، وتميز كل ما من شأنه أن يساعد على بناء ملكوت الله على أرض البشر، فتعطي للقيم الانسانية مكانتها في هذا البناء، وتشارك بكل طاقاتها في بناء عالم تسوده العدالة والأخوة والمحبة والسلام، مدركة أنها تسلمت من السيد مسؤولية الخدمة وأنه أرادها خادمة لا مخدومة... فمتى قبلت الكنيسة بدور الصحافة في التجدد المنشود، ومتى اعترفنا بدعوتها الخاصة وميزاتها وأسلوب رسالتها وطرائق عملها، استطاعت الصحافة المسيحية أن تكون "أداة" في خدمتها.

* الصحافة المسيحية من خلال الوثائق الكنسية

لو استعرضنا الوثائق الكنسية بشأن الصحافة، قلما نجد وثائق تعترف لها بالاستقلال التام وتعتبرها ميداناً له كيانه الخاص وطبيعته الخاصة، انما نشتم دوماً فيها التأكيد على واجباتها والصمت حول حقوقها! ولو اكتفينا بتصفح وثيقة المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني بشأن وسائل الابلاغ التي أعلنت في ٤ كانون الاول عام١٩٦٣ وما جاء فيها بصدد الصحافة، لوجدنا، مع الأب إميل كابل، أنها تركت فجوات كثيرة، مما أثار النقد حولها في الأوساط الصحافية: فهي من جهة متخلفة بالنسبة الى الوثائق المجمعية التي تلتها وبالأخص وثيقة "الكنيسة في عالم اليوم"، إذ اعتبرت وسائل الابلاغ كوسائل للتعليم، متناسية طبيعتها الخاصة ومهماتها الأخرى؛ ومن جهة أخرى ظهرت الوثيقة متراجعة عما جاء في رسالة البابا بيوس١٢ عام١٩٥٠ بشأن الرأي العام الذي لم تتطرق اليه البتة، ولزمت الصمت حول حق الاعلام داخل الكنيسة؛ كما ظهر تخلفها بالنسبة الى علم

الصحافة الذي يعتبر الصحافة شكلاً من أشكال الحوار الوجودي لكل جماعة بشرية، وهذا ما لم تتطرق اليه الوثيقة أيضا... غير أن هذا النقد لا يجردها من بعض النواحي الايجابية، وأبرزها أنها كانت أول وثيقة رسمية تصدر عن مجمع مسكوني، أكدت على ما لوسائل الأبلاغ من أمكانات تساعد الكنيسة على ممارسة رسالتها؛ ذلك أن الوثيقة، حين أكدت بوضوح على الحق في الاعلام واعتبرته ضرورة حيوية لكل مجتمع، فذلك يحملنا على استنتاج ضرورة تطبيق هذا المبدأ بعينه على شعب الله الذي من حقه أن يحصل على اعلام موضوعي حول الكنيسة، ومن واجبه أن يكون له أداة اعلام في الكنيسة؛ كما أنها حين شددت على واجب الدولة في أن تضمن للصحافة المسيحية حرية التعبير، فذلك يمكّننا من أن نطالب السلطة الكنسية بضمان هذه الحرية عينها وللصحافة المسيحية.

غير أن النقص الذي خلفته الوثيقة، سده الى حد ما الأرشاد الراعوي الذي أصدرته لجنة وسائل الاعلام الحبرية في٢٣ أيار١٩٧١، ولا يسعنا أن نستعرض كل ما جاء فيه من لمسات جديدة، أنما نكتفي بالاشارة الى اعترافه بأهمية الرأي العام وضرورته لخلق حوار بين أعضاء الكنيسة من جهة، وبين الكنيسة والعالم من الجهة الأخرى، اذ يرى فيه "شرطاً أساسياً لتقدم الكنيسة وعملها" (عدد ١١٤-١١٥)، مؤكداً أن هذا الحوار لا يمس وحدة الكنيسة والتحام مؤمنيها، وإن اختلفت وجهات نظرهم وتنوعت التيارات الفكرية التي يحملونها (عدد ١١٧)؛ لذا فهو يحمل الصحافة المسيحية على تنمية الرأي العام في الكنيسة ويدعوها الى أن تفتح صفحاتها ليبدي القراء آراءهم الحرة في القضايا التي يدور عليها النقاش (عدد ١٤١).

* الصحافة المسيحية والسلطة الكنسية

غير أن المشكلة الكبرى هي في علاقة الصحافة المسيحية بالسلطة الكنسية، فالوثيقة المجمعية ميزت بين صحافة أسمتها "كاثوليكية"، رسالتها أن تساعد المؤمنين على أن يكون لهم حكم مسيحي على الأحداث، وبين صحافة "كاثوليكية بكل معنى الكلمة" تشرف عليها السلطة الكنسية وتكون الناطقة بلسانها؛ وتظهر المشكلة حين تريد السلطة الكنسية أن تمارس عين الرقابة على هذين الشكلين من الصحافة! وهنا تجدر الاشارة الى أن كل صحيفة أرادت لنفسها أن تكون "مسيحية" لا ينبغي أن تخضعها السلطة لعين الالتزامات والقيود التي تمارسها على الصحافة الناطقة باسمها... فأنْ يكون للسلطة الكنسية حق الاشراف على صحافتها الرسمية، فذلك أمر "طبيعي"؛ أما أن تمارس هذا الحق على كل صحافة "مسيحية"، فذلك يتنافى مع مفهوم الحرية التي يجب أن يتمتع بها كل أبناء الله، سيما اذا ما أرادت السلطة أن تمارس هذا الأشراف ليس على مضمون الصحف والمجلات المسيحية وحسب بل على كيفية انتقائها الأحداث ونوعيتها وطريقة عرضها الخ... وقد تبالغ في ارادتها هذه الى حد أنها تفرض على الصحافة المسيحية وجهة نظر معينة وتطالبها بحقها في الرقابة، فتضع لها حدوداً تنتزع عنها حرية التعبير مما يظهرها بمظهر الابتذال ويحمل قراءها على التحول عنها...

نحن لا ننكر واجب الصحافة "المسيحية" في أن ترجّع، في مقالاتها وأبحاثها وأخبارها، صدى القيم المسيحية وتعاليم الكنيسة بحيث تصبح اداة ابلاغ وحوار بين السلطة والمؤمنين، غير أن لها في الوقت عينه واجبات ليست أقل شأناً وهي أن ترجع صدى آراء قرائها وآمالهم وأحاسيسهم؛ فينبغي عليها أن تحترم قراءها، مؤمنين وغير مؤمنين، وتقدم لهم ما يحق لهم أن يتوخوه من صحافة مسيحية ملتزمة تتحدث بلغة العصر، وتعلن الحقيقة عاليا ولا تضحي بها مهما كان الثمن، وتتمسك بحريتها في التعبير كأقدس ما لديها، حتى وإن حملت اليها هذه الحرية متاعب جمة... وغني عن القول أن ما تكتبه الصحافة المسيحية وما تعكسه في مقالاتها من آراء لا ينبغي أن تأخذه السلطة الكنسية على حسابها: فليست كل صحيفة "مسيحية" الناطقة الرسمية بلسان السلطة. وليس بالغريب أن تختلف وجهة نظر المحرر الصحفي عن وجهة نظر الأسقف، سيما وان الصحافة بطبيعة أسلوبها الأدبي تتخذ حديثا يختلف عن حديث الوثائق والارشادات الرسمية؛ وعلى سبيل المثال نذكر معضلة تنظيم الولادات ورسالة البابا بولس السادس في "الحياة البشرية" التي أثارت ولا تزال تثير الجدل: فلا يمكن أن نطالب الصحافة المسيحية بأن تستعير عين الأسلوب الذي جاء في الرسالة؛ ولا ضير أن نعالج الموضوع بأسلوب آخر يأخذ بعين الاعتبار آراء القراء وردود فعلهم، فتبحث المعضلة من كل جوانبها النفسية والاجتماعية والاقتصادية والخلقية؛ وهكذا الأمر بالنسبة الى المعضلات الكبرى في الكنيسة والعالم كموضوع العزوبة في الكهنوت وقضية التزام المسيحيين السياسي ومعضلة العدالة في العالم والمظالم الاجتماعية التي تضطر الصحافة المسيحية الى التزام النضال من أجل تحرير العالم من العبوديات... وبكلمة يجب أن نقبل أن تتخذ الصحافة مواقف قد تختلف عن مواقف السلطة، ولا ينبغي أن نرى في ذلك مساساً بوحدة الايمان، فليست الوحدة تجانساً في الآراء!

✻ دعوة الصحافة المسيحية

لنعد الى مهمات الصحافة وميزاتها التي أخذنا اليها في أول المقال لنرى صداها في الصحافة المسيحية:

فبالنسبة الى الاعلام، يجب على الصحافة المسيحية أن تقدم لقرائها اعلاما كاملا وموضوعياً حول الكنيسة والعالم بحيث تقدمه لهم، كما هو، في اطاره الواقعي وليس كما يراد له أن يكون، فتتجنب تسخيره لغايات دفاعية مما يشوهه ويجعله مبتذلاً. فعلى الصحفي المسيحي ألا يخاف، بأية حجة من الحجج، من تقديم اعلام كامل وأمين حتى اذا لم يكن دوماً في صالح الكنيسة، فالفطنة وتجنب عثار الضعفاء لا يمكن أن يكونا على حساب الحقيقة والأمانة على ابلاغها، اذ ليس الحل في اخفاء الحقائق أو طلاوتها بل في تقديمها في كل أبعادها، فاحترام القارئ يضطر الصحفي الى احترام الحقيقة وابلاغه أياها كاملة.

وعلى الصحافة المسيحية أن تكون صدى للرأي العام في الكيسة، فتنشئ حوارا

بينها وبين القراء اذ تمكنهم من التعبير عن ارائهم على صفحاتها بحيث يشعرون أنهم يعيشون مشاركتهم كاملة في حياة الكنيسة، ولقد قال البابا بيوس ١٢: "الكنيسة جسم، وحي ستفتقر حياتها اذا انحجب عنها الرأي، وذلك نقص تقع مسؤوليته على الرعاة والمؤمنين معاً". غير ان السلطة الكنسية لا زالت تنظر الى الرأي العام بعين الحذر وترى فيه ما يهدد وحدتها، بينما ترى فيه الصحافة عنصراً من عناصر الوحدة لأنها تثق بامكانات القراء وقدرتهم على المشاركة في حمل المسؤولية وتؤمن بأن التبادل في وجهات النظر المختلفة عامل من عوامل الغنى، كما تؤمن بأن النقد ذاته، من أية جهة جاء، يشكل عنصراً ايجابياً في تقدم الكنيسة، ذلك لأن كل مؤسسة تخاف النقد الذي يأتيها من أعضائها، أقل ما يقال فيها أنها ضعيفة!

أما الموضوعية في الصحافة المسيحية، فالمشكلة هي في كون السلطة الكنسية تبالغ في المطالبة بها متناسية ان الصحفي المسيحي لم يَدّعِ العصمة وأنه، كزميله الآخر يخضع لحدود مهنته ولا يمكنه أن يتخلى عن أحكامه الشخصية التي ترافقها النسبية، وأنه، وإن حاول بكل طاقته أن يرجع صدى الحقيقة فيما يكتبه وينقله من أحداث، فقد يقع في أخطاء، سواء في انتقائه الأخبار وتفسيرها أم في اصداره أحكاماً سريعة، غير أننا نعتقد أن سعيه الدائم وراء الحقيقة لا بل وراء كل الحقائق يضمن له الموضوعية.

وماذا نقول عن حرية التعبير! نحن نشهد ضغوطاً على حرية الصحافة المسيحية من جانب السلطة الكنسية والمؤمنين أنفسهم، ونرجع سبب ذلك الى جهل بعضهم بطبيعة الصحافة وأسلوبها وطريقة ممارستها لرسالتها ورغبتهم في وضع حدود وكأن الحدود التي تخضع لها لكونها "مسيحية" لا تكفي!! فيرون في كل خبر أو مقال خطراً على الايمان والأخلاق! وينحون باللائمة على الكاتب أو الصحيفة بشأن عبارة أو علامة استفهام وضعها حول معضلة شائكة أو داء لفت اليه أنظار القراء، فيعلنون "حالة الخطر" ويحذرون ويهددون وقد يحرمون! ومبررهم هو الحفاظ على سلامة الايمان: بينما ترى الصحافة المسيحية أنها بقدر ما تريد أن تحرص على أمانتها على الايمان المسيحي الأصيل، بقدر ذلك تريد أن تبرهن بأن الايمان انفتاح حر على الحقائق وبحث دائم عن حضور الله في أحداث العالم، فلا يمكن أن تشل السلطة الكنسية حركة الصحافة المسيحية أو تعقل لسانها أو تسخرها لما لم تخلق له، بل أن ترى فيها وسيلة مثلى تساعدها في مهمتها لخدمة شعب الله، فتلفت أنظارها الى آماله وصرخاته وتمكنها من الاستجابة اليها. فاذا ضمنت السلطة للصحافة المسيحية حريتها في التعبير، كانت هذه الصحافة عاملاً من عوامل تجدد الكنيسة وتقدمها.

الأب بيوس عفاص

٢ قضايا الجيل الجديد

السنة الثانية عشرة: ت١ - ت٢ ١٩٧٦

الفهرس

افتتاحية: الجيل الجديد	الرئيس احمد حسن البكر
علاقة الجيلين	أ. لوسيان جميل
انفتحوا على العالم	الاخت فداء الدومنيكية
المسيحية وتطلعات الشباب	سناء حنا
طاولة مستديرة حول ايمان الشباب	نهير بردي
بناء الذات عبر المطالعة والمتابعة	ميشال كواست
الحب ومفاهيمه لدى الشباب	أ. منصور الدومنيكي
صلاة مراهق	نعمت بطرس نحاس، أكرم
	نحاس، البنات الصالح،
	ماهر حبي، فريال توزي
هل يمكن التحدث بعد عن "الخطيئة"؟	سليم عنيشا
من دفتر مذكرتي	أ. عبد السلام حنوة
اومن ان لي رسالة في الحياة	خليل الخوري
آفاق انجيلية في الالتزام السياسي	خاتم محمد شكري
أبو الطيب/قصيدة	هيثم بردي
حدث ذات يوم/قصة قصيرة	جان -ماري اوبيرت
المرأة وواقعها ضمن تجربة صحفية	محمد شعبان
المرأة في الفكر المسيحي... واقع وطموح	امل زيا، نوئيل الطباخ
أبي وامي، كيف هما، كيف اريدهما؟	سفر نشيد الاناشيد
فترة الخطوبة بواكير الحب؟	عواطف بدرية
صوت حبيبي	ايف كونغار
الحياة، الحب، المال، الايمان	ابو فادي
انفضوا الغبار الامبراطوري	اعداد جرجس القس موسى
ملتقى: كان يا ما كان	الرئيس احمد حسن البكر
اخبارنا	أ. لوسيان جميل

(...) هذا العدد "منبر حر" يعبر فيه الجيل الجديد عن بعض آرائه وتصوراته وطموحاته في المجتمع الجديد ازاء الجيل القديم والمجتمع التقليدي.

ولكن من نقصد بالجيل الجديد والمجتمع التقليدي؟

الجيل الجديد الذي نقصده هنا هو الجيل الذي يعيش في داخله ثورة فكرية وثقافية، ويطمح إلى مجتمع متطور يحاور ذاته -والعالم- باستمرار ليبلغ إلى الأفضل؛ وهو الجيل الذي يذهب به هذا الطموح وتلك الثورة الداخلية إلى نفض نير الخمول والحذر وبناء حياة جديدة وعلائق جديدة متحررة من الاستلاب والكبوتات، حتى وإن تضمن هذا المشروع عناصر المجازفة واحتمالات الزلل -مما لا يقره بسهولة مجتمع الكبار التقليديين "العقلاء".

فليس الجيل الجديد -والقديم- حقبة زمنية معينة، ولا هو جيل "الصغار" وجيل "الكبار" سنا بالضرورة؛ فثمة "كبار" يزخرون بدماء وأفكار الجيل الجديد، و"شباب" متخلفون ومتخلقون بنظريات الجيل القديم. (...)

(راجع كتاب "الافتتاحيات" ص ٧٤-٧٥)

جاء هذا العدد الخاص (١٠٨ ص)، تواصلاً مع سابقه وفي خطاه، ليلقي الضوء على "قضايا الجيل الجديد" ويرهف السمع الى ما يعبّر عنه هذا الجيل ذو التطلعات والطموحات الكثيرة، في مشروع كبير يتعلق به مستقبل الكنيسة والمجتمع، ألا وهو ان نجعل الانجيل يخاطب انسان اليوم. وبعبارة اخرى هو تساؤل مطروح: كيف تتجدد الكنيسة لتلتقي البشر في معاناتهم وتطلعاتهم...

انها "آفاق" تُفتح للجيل الجديد: في الايمان والحب وبناء الذات وموقع المرأة... تتحمله على التزام الحياة، على المستويين الاجتماعي والسياسي. وكان لشهود من هذا الجيل مساهمات في العدد.

المسيحية وتطلعات الشباب

هذا المقال يريد ان يضع الاصبع على الجرح حين يشخّص التفاوت بين الايمان المسيحي وبن ما تعكسه المؤسسة الكنسية! ونثبت ادناه عين المقدمة التي كات قد تصدّرت المقال:

الاب لوسيان اعتاد ان يقدم لنا، من وقت لآخر، ابحاثاً لا يمكن ان نمر عليها مرّ الكرام. فالمؤيد والمعترض، كلاهما متفقان على انها تثير نقاطاً هامة تستحق المتابعة.

"المسيحية وتطلعات الشباب"! يكتبه بايمانه الملتزم الذي لا يخاف مجابهة واقع طالما باعدَ بين روح الانجيل وممارسته داخل المؤسسة الكنسية. ولكن هذا الايمان نفسه يدعوه الى التفاؤل لان الربيع الذي خطه يوحنا ٢٣ وكرّسه المجمع –كما يشير الكاتب– لا يمكن الا ان يزهر، و"سيكون عصرنا شاهداً لميلاد كنيسة جديدة لعالم جديد". كنيسة لا يشعر فيها الجيل الجديد بالاغتراب!

عندما شرعت أضع على المسودة الأفكار الرئيسية لهذا المقال، عثرت في مجلة فرنسية معروفة على شهادة لأحد مشتركيها بشأن نظرته الى المسيحية. وقد رأيت أن أضعها في مقدمة الموضوع لأنها، في رأيي، خلاصة لما سأقوله، كما انها انعكاس لمواقف غالبية الشباب في العالم تجاه الأمور الدينية. يقول صاحب الشهادة: "... أثبت لي مكوثي في الحزب الشيوعي لمدة طويلة بان الشيوعيين لا يرون أية فائدة في المسيحية. واني أعترف باني أفهمهم حين أضع نفسي ازاء موقف الكنيسة الرسمية. وهم لا زالوا يعتقدون بأن الدين "أفيون الشعوب"، وهم على حق في أن يعتقدوا ذلك بشأن الكنيسة الرسمية التي هي وحدها أمام أنظارهم. إن هذا الأمر لم يكن ليؤثر في حين كنت في الحزب الشيوعي، إلا اني أعتقد الآن أن المسيحية شيء آخر يختلف عما تقدمه لنا الكنيسة الرسمية. وأرى أن الكنيسة ستتغير في المستقبل، بعد أن تتألم بمقدار ما تألم المسيح حتى النزاع، كما كان يقول هـ. بيران، وسيكون لها وجه آخر ألمحه أنا، وقد رآه غارودي، وسيراه آخرون". (مجلة الشهادة المسيحية: الخميس٥ شباط ١٩٧٦ ص١٨).

وبما اني أشاطر صاحب الشهادة رؤيته للأمور وتفاؤله في مستقبل الكنيسة

المسيحية، فأني أسمح لنفسي، ومنذ البداية، كمؤمن يعبر من "الداخل" عن واقع الحياة المسيحية التي ورثناها جميعاً عن السلف، أن أؤكد على التناقض الصارخ بين المسيحية التقليدية وبين تطلعات الشباب وآمالهم، وأن أعلن في الوقت نفسه عن أملي ببزوغ الشمس المشرقة من خلال الغيوم المنتشرة في فضاء اليوم.

❋ التناقض وملامحه

أن يكون التناقض قائماً بين المسيحية التقليدية وبين تطلعات الشباب، فذلك أمر غني عن البيان. إن رعاة الكنيسة الرسميين يشعرون أكثر فأكثر بأن المشكلة الأساسية في كنائسهم هم الشباب الذين ينعتون غالباً بقلة الايمان وعدم الاكتراث بأمور الدين، وينعت جيلهم بالجيل الفاسق واللاأبالي. ويعتبر رعاة الكنيسة التقليديون هجر الشباب للممارسة الدينية علامة جلية لابتعادهم عن الدين.

أما ملامح هذا التناقض، فقد تكون قريبة من تلك التي تميز حياتهم الاجتماعية برمتها. ولربما كان بالامكان حصر هذه الملامح بكلمة واحدة هي الرفض بوجهيه السلبي والايجابي. فحياة الأجيال الجديدة، المدنية والدينية، تبنى في الواقع على هذا الرفض: رفض لنمط معيشة الوالدين وتفكيرهم، رفض للواقع الطبقي الجائر سواء كان ذلك في الدول النامية أم في الدول المتقدمة، ورفض لكل أشكال الاستعمار والامبريالية في دول العالم الثالث بشكل خاص. أما على الصعيد الديني، فقد يكون الرفض أحياناً أكثر جذرية من الرفض في نواحي الحياة الاخرى: ففي قطاعات لا بأس بها من الاجيال الحديثة يمتد هذا الرفض حتى الالحاد أو اللامبالاة الشديدة تجاه الله والتي تسمى احياناً بـ "الالحاد العملي". أما الشبيبة التي لا زالت مؤمنة، فهي الأخرى ترفض أسلوب التدين التقليدي المعتمد بصورة كبيرة على العاطفة الدينية البدائية وعلى النفعية: الوصول الى المراد في هذه الحياة عن طريق الطلب الى الله والصلوات، والخوف من النار والطمع والثواب في العالم الآخر. كما ترفض هذه الشبيبة أي أسلوب آخر للتدين لا يرتبط بشكل فعال بحياة الانسان الحقيقية وبمشاكله وآماله.

ان الشباب يرفضون ذلك الاعتماد الكلي التقليدي في الحياة المسيحية على الشرائع في المجال الأخلاقي، وعلى الطقوس الدينية في المجال الروحي، وعلى توجيهات رجال الدين في المجالات الأخرى للحياة. كما انهم يرفضون مجمل الفكر اللاهوتي التقليدي وأشكال تفسير الكتاب المقدس الاعتباطية وتطبيقاته العملية التي انطلت في الماضي على العلماء والمفكرين المسيحيين بسبب العقليات الحضارية السائدة آنذاك. ومع الكتاب المقدس يرفضون أيضاً كثيراً من القيم الدينية السلوكية التي كانت مفروضة باسم الدين على أبناء المسيحية.

❋ أسباب التناقض

ان أسباب التناقض تكمن في كل من المسيحية التقليدية والشبيبة معاً: في المسيحية التقليدية بسبب تزمتها ومحافظتها الشديدة، وفي الشبيبة بسبب وعيها الجديد ورغبتها في التغيير نحو الأحسن.

شيء من التاريخ

المسيحية التقليدية وليدة الصراع بين الفكر الانجيلي الذي ينتمي الى حضارة عصره ويتجاوزها، وبين الحضارة اليونانية–الرومانية. فقد بقيت المسيحية في مجابهة نقدية مع هذه الحضارة ما يقارب الـ ٣٠٠ سنة حتى انتصرت عليها أخيراً، وكان هذا الانتصار فاتحة عهود جديدة هي القرون الوسطى بعد أن مرت البشرية بفترة تمهيدية. وقد شرعت المسيحية تجسد قيمها وشعاراتها بعد أن خرجت من "النضال السلبي" فبنت حضارة جديدة تسمى أحياناً بالحضارة المسيحية، كما بنت مجمل فكرها في الله والانسان والأخلاق البشرية. وقد وجدت المسيحية نفسها في هذه الفترة المهمة من تاريخ نضالها، عكس ما كانت عليه ابان النضال السلبي، في موقف الحليف مع السلطات المدنية من حيث النظرة الى الحياة والمجتمع، وانقلب دورها من المعارضة الى التأييد والى المساهمة، دينياً واجتماعياً، فكراً وتنظيماً، في تثبيت دعائم المجتمع القائم وزرع الهدوء والسكينة فيه وتطويق حياة المسيحيين بسلسلة من المثل والممارسات التي تجعلهم فرحين وقانعين وملتفين حول سلطاتهم الدينية والمدنية معاً. وبما أنه كان لا بد للحماس الأولي أن ينتهي بانتهاء أسبابه، أي بزوال ارادة التغيير لخلق الانسان الجديد والمجتمع الجديد، ابان النضال السلبي، فكان لا بد للمسيحية أن تمر بفترة الجدالات العقائدية العقيمة وفترة الانشقاقات؛ وبعد ذلك وجد رعاة المسيحية ومفكروها في فكرة "العالم الآخر" خير تعويض عن فكرة النضال الاولى. فقد كان على المسيحي أن يعيش على الأرض وعيونه شاخصة الى السماء، وأن يجعل تصرفه كله موجهاً لكسب الحياة السعيدة في العالم الآخر. وكانت القناعة شعاره الكبير كما كان لعاملي الخوف والترغيب أثرهما البالغ في حياته، وهكذا تمت السيطرة على المسيحي وتم تدجينه وتربيته على العيش في المجتمع الذي خلقته المسيحية بحسب الفضائل التي كان يتطلبها ذلك المجتمع.

في هذا المناخ تم تزييف الأسس المسيحية الكبيرة وتبدلت معاني الأشياء. فقد أصبح الله ويسوع والقديسون المناضلون وأسرار الكنيسة وطقوسها مجرد وسائط لبلوغ "العالم السعيد". فاخذت العاطفة محل الفكر والايمان، وانحصر مستقبل الانسان "بالعالم الآخر" مما أنساه حياته الأرضية الحقيقية وأبعده عن آماله الانسانية التي كانت قد انتعشت باكتشافه المسيحية. فلا عجب اذن اذا سيطر الحرف على الروح وأصبحت حياة الناس مجرد شعائر تقام كفريضة مطلوبة وكافية في حد ذاتها، ولا عجب اذا كانت الطاعة لرجال الدين من أهم فضائل ذلك العصر.

ومرت الأيام وتفاقمت الأمور في هذا الاتجاه بتفاقم السوء في الحياة الاجتماعية وبالوعي بزيف الحياة الدينية والروحية والكنسية التي يعيشها الناس. وظلت الكنيسة متعلقة بالبنى الفكرية والروحية التي كانت قد بنتها في ما مضى. وكانت الخضة الاحتجاجية على يد لوثر في القرن السادس عشر. ثم قامت الكنيسة ببعض الاصلاحات بعد هذه الخضة. الا أن هذه الاصلاحات لم تكن جوهرية ولا جذرية: فقد أفرطت الكنيسة، في هذا العهد،

في الانغلاق على نفسها والتأكيد على القضايا التي كانت موضوع جدل بينها وبين البروتستانت مما جعلها تتبنى روحانية دفاعية خصامية. وكانت النتيجة الافراط في ترسيخ عادات وممارسات وأفكار كان يجب أن يعاد النظر فيها. وهكذا نجد أن الاصلاح الكاثوليكي جاء خالياً من الروح يحمل في ذاته أسباب فشله. واليوم عندما نتذكر المجمع التريدنتيني الذي صار فيه الاصلاح الكاثوليكي فقضى فعلاً على بعض أوجه الفساد في الكنيسة آنذاك، لا يسعنا الا أن نتهمه أيضاً بأنه كان على رأس مشاكلنا المسيحية الراهنة ولا سيما في ما يخص البنى الروحية والتنظيمية التي جاءتنا من وحي ذلك المجمع.

اننا نعرف اليوم بأن الاصلاحات البسيطة التي تحققت بعد لوثر لم تكن مستندة الى رؤية حقيقية للداء، وهو أن عهداً برمته كان قد صار بائداً اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ومسيحياً، وكان يجب أن يزول. فلا عجب اذا جاءت الثورة الفرنسية فيما بعد وضربت الاقطاع والكنيسة معاً باعتبارها حليفة الاقطاع الى ذلك الحين.

في أيامنا

ان المسيحية التي رأينا نبذة تاريخية عنها هي التي ورثناها "جوهرياً"، وهي التي تسود حتى الآن في الكنيسة الرسمية ويراد لها أن تسيطر على حياة الناس وتصرفاتهم. صحيح أن بعض الاصلاحات قد أدخلت على هذه المسيحية من عهد البابا لاون الثالث عشر في الشؤون الاجتماعية، ومنذ الحرب العالمية الثانية في بعض المسائل التي لها علاقة بالتشريعات الكنسية وفرائضها وفي بعض البنى الفكرية، إلا ان هذه المسيحية، لأسباب دفاعية أيضاً، وازاء المد العلمي المتصاعد والحركات الالحادية والمادية، تبنت مواقف تشنجية غير منفتحة وأبقت على الفكر والممارسات التقليدية. واذا ما جئنا الى ذكر المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، فلا بد أن نعترف باصلاحاته الكثيرة. لكن هذه الاصلاحات جاءت وجلة حذرة، وكأنما كان هناك إجماع على الابقاء على جوهر الأيديولوجية القديمة والاكتفاء بصبغها بصبغة معاصرة. ومع ذلك فقد شهدت سنوات ما بعد المجمع تراجعات كثيرة في أوساط الكنيسة الرسمية عن المجمع أو عن بنوده الحرفية. وقد تجاهلت كنائس عديدة، عن عمد وسبق اصرار، كل الاصلاحات الواردة في المجمع، مستغلين جهل شعوبهم ومعتمدين على الفئات الكبيرة التي كانت قد تربت في الأيديولوجية القديمة.

لقد سبق أن قلنا بأننا اليوم نمر بمرحلة تحول حضاري. وبما أن الشباب جيل وليس مرحلة كالطفولة أو المراهقة، فان ذلك يعني أن الشباب خطوة متقدمة في تاريخ البشرية، تاريخ نضالها وتقدمها وأفكارها وممارساتها. لذلك يمكننا الجزم بان شبيبتنا هي التي تمثل قفزتنا الحضارية خير تمثيل، وان كانت أعراض هذه القفزة قد بدأت منذ حوالي نصف قرن تقريباً. ان هذه الشبيبة تعي البعد الشاسع الذي يفصل بين حضارتها والحضارة التي تنقلها اليها المسيحية التقليدية عبر الدين وممارساته. وهذا البعد هو الذي يشكل أساس

التناقض بينها وبين المسيحية التقليدية فيدفعها الى التصرف ازاء هذه المسيحية بأشكال متباينة، من عداء الى لا مبالاة، الى اخلاص يدفع الى الرجوع الى "الينابيع" الانجيلية الأصيلة لعيش الأصالة المسيحية بحسب مفاهيم العصر وقيمه.

✻ خصائص التناقض في أيامنا

تنبع خصائص التناقض بين المسيحية التقليدية والشباب من خصائص الحقبة الحضارية التي نمر بها وتكوينها. وهذه الحقبة هي حصيلة تطورات هائلة حدثت في العالم في حقول مختلفة من حياة الانسان. وتتلخص خصائص الحقبة التاريخية التي نشهدها في نقطتين أساسيتين هما: العلمانية والنزعة الانسانية.

١. العلمانية:

بعد الحرب العالمية الثانية، برزت اهمية العلم والتنمية بشكل لا نظير له سواء كان ذلك في المجال العسكري أو المدني، مما خلق عقلية معينة تثق بالعلم الى أبعد الحدود وتبجله. انها العقلية الوضعية التي تأخذ اسم العلمانية في المجال الديني. هذه العقلية تتوخى الانتاج والفاعلية وترفض كل ما يظهر دون جدوى في هذا الباب على أنه "غير حقيقي". وقد كان من نتائج هذه العقلية رفض الله نظرياً وعملياً باعتباره غير مجد. فقد ظهر للجيل المعاصر أن من يجلب الرفاهية والسعادة هو العلم والتقنية وليس الله. فكان منطقهم أن الله غير مفيد، فهو بالتالي غير موجود. وحتى لو كان موجوداً فما شأننا معه؟ هكذا قالت وتقول فئة من الشباب غير قليلة. لا شك اننا نعرف نحن المؤمنين بأن الاله الذي يرفضه هؤلاء ليس هو الاله الحقيقي، انه فقط اله الأقدمين النفعي. ولكن أنّى لهم أن يميزوا، وهذا الاله النفعي لا يزال اله المسيحية التقليدية التي لا يعرفون غيرها لسوء حظهم؟

هناك فئة أخرى من الشباب تؤمن بالله ويسوع المسيح. الا أن هؤلاء قد هجرت غالبيتهم الممارسة الدينية التي كانت عماد الحياة المسيحية التقليدية. فالعقلية العلمانية تأبى قضاء وقت مهما كان قصيراً في أمور لا تظهر ذات منفعة، وفي طقوس وممارسات قد فقدت معناها الحياتي منذ زمن بعيد. ان "العالم" الديني المرتبط بحضارة بائدة بدأ بالافول بسرعة حركة العالم نفسه الى الأمام.

ان العقلية العلمانية ليست سبباً للتناقض في مجال التدين والممارسة الدينية حسب، بل في مجالات أخرى فكرية وسلوكية. فالشباب المؤمن بالعلم يرفض اليوم أن يكون الدين —الكتاب المقدس— واللاهوت، علم العلوم، يُفرض عليه، اذا كان مناقضاً لقناعاته الفكرية والعلمية. واذا ذكرنا اليوم في هذا الباب بكوبرنيكوس وغاليلو وداروين، ممن ردت لهم المسيحية اعتبارهم بعد فوات الأوان، فلأن غيرهم كثيرين يلاقون صعوبات مماثلة على يد المسيحية التقليدية في حقول علمية مختلفة: في السياسة وعلم الانسان وعلم النفس والجنس الخ... لأنهم يأبون التفكير على النمط الاكليروسي.

٢. النزعة الانسانية

ان النزعة الانسانية تعني أن يكون الانسان الفرد أو الجماعة في مركز الاهتمام، وأن يكون غاية لا وسيلة، وأن تنال الأفكار والقيم التي تهتم بالانسان وتمجده وترفع من شأنه وتسعى الى سعادته كل تقدير واحترام.

قد تكون النزعة الانسانية اليوم وليدة العقلية العلمانية التي تحاول التخلص من الاستلاب الفكري والحياتي والسلوكي الذي كان مفروضاً على الانسان باسم قيم ومبادئ غيبية تنتمي الى عصر آخر. الا أن أزدياد الوعي التلبقي والرفاهية الاقتصادية قد ساهما مساهمة جدية في خلق هذه الجذرية التي نشهدها في النزعة الانسانية في أيامنا. ان انسان اليوم لم يعد يرضى بان يضحي بذاته، بحقوقه، بسعادته وبرغباته عبثاً وبدون مبرر حقيقي واضح، بعد أن انفتحت أعينه على هذه الحقوق ووعى إمكانيات سعادته الروحية والجسدية، الفردية والاجتماعية. ان الشباب يلجأ عادة الى تعبير الحرية ليفسر به موقفه الجديد من المسيحية التقليدية. ولكني أرى في الواقع، أن هذه الحرية ليست هنا هدفاً بقدر ما هي وسيلة لتحقيق الذات بحسب رؤية جديدة دون عائق، مهما كان نوعه.

ضمن العقلية ذات النزعة الانسانية، لا بد أن نفرد مكاناً لخاصيتين مهمتين لدى الجيل الحديث تشكلان عاملاً مهماً في التناقض بين هذا الجيل والمسيحية التقليدية. وهاتان الخاصيتان هما انعطاف الشباب التلقائي نحو الجنس بحرية ونحو الحياة السياسية. هاتان الخاصيتان لا تخرجان في الواقع عن مجمل الخصائص الأخرى التي تكلمنا عنها أعلاه بشكل عام، الا أننا نذكرهما بالتفصيل لأهميتهما في الحياة المعاصرة. فالجنس أصبح ظاهرة عامة في أغلب بلدان العالم، وإن كان شكل ممارسته يختلف حسب الأشخاص. ولقد اختلفت النظرة الى الجنس حتى في البلدان التي ما زالت تعاني من التخلف الاجتماعي والمحافظة ولا يسمح المجتمع بقدر كبير من الحرية بهذا الخصوص. أن الجنس لم يعد بعبعاً ومقياساً لأخلاق الناس كما كان في السابق، لسبب بسيط هو أنه لم يعد له من مبرر ليكون كذلك. فالجنس هو احدى امكانيات الانسان الأساسية، له أهدافه ومبرراته ودلالاته الخاصة به، ولم يعد من الجائز، لأسباب لا مجال للاسهاب فيها، أن يكون موضوع القهر المجحف والقمع الاعتباطي. كما لم يعد من الجائز أن يكون مادة للدين، يخلص المرء بموجبها او يهلك.

أما الحياة السياسية، فأهميتها نابعة من كونها العامل الأول المؤثر في حياة الانسان والذي يمكن للمرء من خلاله أن يشعر أنه يعيش حياة فعالة هادفة تضعه في طريق طموحاته الحقيقية الملموسة. وبهذا المعنى تقوم منافسة بين الحياة المسيحية التقليدية وممارساتها وبين الحياة التي تعطي للسياسة أهمية مكثفة. ومع هذه المنافسة يظهر التناقض حتماً، لا كعامل أصيل يتعلق بصلب الحياة المسيحية والحياة السياسية، بل كسقط تطرحه المسيحية التقليدية بسبب أفكارها وممارساتها البعيدة عن حياة الناس. كما تطرحه الحياة السياسية عندما يعيشها أناس ليس لهم العمق الكافي للتمييز. ان هذا التناقض، وإن كان غير أصيل، يعيه

رجال الاكليروس التقليدي بقلق بالغ مما يدفعهم الى الحذر من الحياة السياسية —وخاصة اذا كانت مستقلة عنهم— كما قد يدفعهم الى توجيه المؤمنين توجيهاً سلبياً ازاء الحياة السياسية بحجة أن الأولوية يجب أن تعطى "للباقي"، أي لحياة ما وراء الطبيعة. والجيل الجديد هو الآخر يعي هذا التناقض ويعيشه ويحاول التخلص منه بطريقتين: فإمّا أن يتجاهل الحياة الدينية تماماً عملياً وفكرياً، وبذا تزول المشكلة. وإما أن يناضل من أجل أن يخلص المفهوم المسيحي من شوائبه التقليدية فيرده الى صفائه الأصيل، كما يعمل على اكتشاف البعد المسيحي الروحي في الحياة السياسية نفسها. وبذا تقترب الحياة المسيحية كثيراً من الحياة السياسية دون أن تمتزج معها ودون أن تخنق احداها الأخرى. ان الحياة السياسية يمكن أن نعيشها "مسيحياً"، كما يمكن أن نعيش الحياة المسيحية "سياسياً" أو حياتياً، اذا جاز لنا أن نستعيض عن الكلمة بأخرى مقاربة لها.

✽ آفاق المستقبل

في بدء هذا المقال أعلنت عن تفاؤلي "ببزوغ الشمس المشرقة من خلال الغيوم المنتشرة في فضاء اليوم". وفي أعتقادي أن هذا التفاؤل له ما يبرره. فأنا لا أتجاهل المشاكل والأسئلة التي تجابه المسيحية والدين عموماً، وهي مشاكل وأسئلة جذرية وجدية لا نظير لها في تاريخ الأديان، وعلى رأسها مختلف الفلسفات الوضعية والمادية والداروينية والفرويدية. إلا أنني في الوقت عينه ألاحظ بوادر القناعة بامكانية تخطي هذه المشاكل، وذلك بفضل جهود العلماء المؤمنين وأبناء الجماعة المسيحية الذين يشهدون لايمانهم ورجائهم في كل مكان وفي صلب الحياة البشرية بصعوباتها ومشاكلها، وكذلك بفضل المحاولات اللاهوتية التي تسعى الى اكتشاف كنه وأصالة الانجيل وأبعاده الحياتية المعاصرة. ولا يمكننا طبعاً أن ننسى التقدم الكبير الذي طرأ على تفسير الكتاب المقدس مما يبشر بإمكانية فهم موضوعي ومعاصر لهذا الكتاب، بعد تخليصه من الفهم الحرفي الذي كان يقبل الأسطورة على أنها حقيقة واقعة، بينما لم تكن في الواقع سوى وسيلة تعبير أو "أسلوب أدبي" كما يقال، سواء كان الكاتب يعي ذلك أم لا.

ويمكنا أن نبرر التفاؤل على صعيد الكنيسة أيضاً. فهناك كنائس عديدة في العالم، سواء في الدول المتقدمة أم في العالم الثالث، قد خطت خطوات لا بأس بها في سبيل التطور. واننا نجد أساقفة كثيرين قد فهموا أن التعليم التقليدي والممارسة التقليدية ليست قدراً على المسيحيين، وأن المسيحية بامكانها أن تحافظ على أصالتها عندما تنير تراثها بنور الواقع وتتبنى حضارة جديدة. صحيح أن كنيسة روما تعتبر نفسها مسؤولة عما يجري في العالم المسيحي وهي ليست نموذجاً في التطور، إلا أن الكنائس المحلية —وهذه علامة مضيئة— قد تمتعت بنوع من اللامركزية يسمح بالتعددية وبمساهمة جميع الكنائس، حسب امكاناتها، في بناء الفكر المسيحي وتطوره، وأملنا أن يزداد هذا الاتجاه رسوخاً وثباتاً لخير المسيحية وديمومتها.

وكما تمتعت الكنائس المحلية بنوع من اللامركزية، فان الفرد المسيحي، أو الجماعات المسيحية، أي القاعدة، قد حصلت هي الأخرى على شيء من الحرية يمكنها أن تعطي للكنيسة جمعاء ما منحها الروح من "المواهب". إن الحرية التي يتمتع بها أبناء الجماعة المسيحية ليست دائماً حرية "موهوبة"، إنما هي حرية أُستردت، "بالنضال" ضمن منطق الأشياء وسير التاريخ. فقد تمكن أبناء الجماعة المسيحية، بسبب الوعي الجديد الذي ساد العالم، من أن يتخلصوا من مفهوم الكنيسة الاكليروسية الأحادية الفكر والممارسة والهرمية التنظيم، وتمكنوا أن يتخلصوا من استلاب السلطة الدينية بتحديد مفهوم هذه السلطة وتحديد شموليتها ومدى كفاءتها لاحتكار الحقيقة المسيحية وبثها من دون محذور. وهكذا أخذ أبناء الكنيسة يفرضون مساهمتهم، وعن طريقهم أصبح للحضارة الجديدة حظ في الانتشار، شاءت السلطة الرسمية أم أبت. لقد فقدت التدخلات السلطوية القمعية كثيراً من تأثيرها على سير الأمور، لأن هذه التدخلات غالباً ما تكون قائمة على أسباب واهية غير مدعومة بقوة الحقيقة الانجيلية، بل بقوة السلطة الدينية والمركز الرئاسي فقط، أو أنها مبنية على تعليم تقليدي قد فقد كل أسسه.

إن عصرنا سيكون في الواقع شاهداً لميلاد كنيسة جديدة لعالم جديد، كنيسة سيزول فيها كل تناقض بين المسيحية وبين الشباب والأجيال المتأثرة بالحضارة المعاصرة، لأن المسيحي سيرى في كنيسته، الى جانب صورة يسوع، صورة انسانيته بكل آمالها وتطلعاتها المشروعة.

الاب لوسيان جميل

آفاق انجيلية في الالتزام السياسي

في العدد الخاص لعام ١٩٧٤ (ص ٣٩٢-٤٠٠) كان الاب المرحوم عبد السلام حلوة قد رسم ملامح "الانسان الانجيلي" الذي يقيم في حياته انسجاماً بين متطلبات الانجيل والالتزامات العامة في المجتمع... وقد انكب في هذا المقال على دور الشباب بنوع خاص ازاء القضايا ذات الابعاد الشمولية، وفي المقدمة الالتزام السياسي بمعناه الواسع، بصفته مشاركة فاعلة في الحياة العامة.

وازاء التحفظ الذي تبديه السلطة الكنسية تجاه المشاركة في الحياة السياسية، خشية ان تتزعزع وحدة الفكر في الكنيسة، تساءل اذا كانت هناك دوماً وحدة مزعومة، واذا لم يكن من الافضل اقرار مبدأ التعددية في الفكر، ليفضي الى التساؤل الجاد: ألا يمكن ان يكون الالتزام السياسي طريقاً سليماً لعيش الانجيل، في توجهاته الكبرى؟

عبد السلام حلوة (مواليد ١٩٤٤) مهندس انتمى الى الرهبنة الدومنيكية عام ١٩٦٨ وابرز نذوره فيها ورسم كاهناً عام ١٩٧٣ وعمل ناشطاً في الحركات الشبابية والنشاطات الثقافية في مركز القديس يوسف ببغداد. كانت له مساهمات بارزة في الفكر المسيحي، عبر ٢٦ مقالة ذات لون خاص -وقد اصدر كتاباً بعنوان: "هل كان يسوع رجل سياسة؟" - فضلاً عن باب "ابت هذه مشكلتي"، وقد عُهد اليه منذ انطلاقته عام ١٩٨٠ وحتى وفاته المفاجئة عام ١٩٨٣. كان عضواً بارزاً في هيئة التحرير الاستشارية ببغداد، مع عدد من العلمانيين الناشطين من امثال سهى رسام ويعقوب افرام منصور وبرناديت عفاص وماجد عزيزة...

في دراسة سابقة[١] كنا قد تطرقنا الى قضية الالتزام السياسي وأبعاده الحقيقية في الوجود الانساني ومعناه لدى الانسان الانجيلي، وبينا فيها، بصورة موجزة، مفاهيمنا عن السياسة وعن المواقف السياسية الممكنة تجاه أية قضية تخص الانسان ومجتمعه المنظم. وفي تلك الدراسة حاولنا طرح بعض القيم الانجيلية الأصيلة ذات العلاقة مع الالتزام بكافة أشكاله، لا سيما الالتزام السياسي. ونعود اليوم من جديد، في هذه المحاولة، الى القضية الحياتية المهمة التي تمس كل مواطن يشعر بدوره في المجتمع؛ وهذه القضية تمس الشباب بصورة خاصة، كونهم، بطبيعة تكوينهم النفسي ودورهم المتقدم في الحياة السياسية، يعطون لهذه القضية أهمية خاصة، لأن الشباب حساسون عادة تجاه القضايا ذات الأبعاد الشمولية، كالقضايا الدينية والثقافية والسياسية، لاتصالها اتصالاً مباشراً مع الحياة العملية والنضج الذاتي.

❋ الالتزام ما هو؟

الالتزام قبل كل شيء هو أخذ موضع الجدية والمسؤولية من الوجود

(١) راجع "الفكر المسيحي" عدد٣٨ و٣٩ ت١ و٢- ١٩٧٤ ص٣٩٢

الانساني، أو، بعبارة أخرى، هو الحياة المسؤولة والهادفة. والالتزام هو أيضاً الانحياز واتخاذ موقف معين من قضية ما، فمن التزام شيئاً انحاز له وتبناه.

وفي الواقع لا يمكن أن يكتمل تعريف الالتزام من دون ربط جدلي بين المعنيين الوارد ذكرهما، أي المسؤولية والانحياز، حيث لا يستطيع عبثي غير مسؤول وغير ناضج انسانياً ان ينحاز الى جهة معينة، أو أن يتخذ موقفاً واضحاً من أية قضية. فالالتزام بهذا المعنى له تأثير ايجابي على العلاقات الانسانية داخل المجتمع.

ولكننا اذ نطرح قضية الالتزام السياسي وعلاقته بالانجيل وبحياة المؤمنين، نواجه إشكالاً طالما جوبهنا به كنقد شديد لما نعرضه من مفاهيم قد تبدو جديدة في الحياة الانجيلية، ألا وهو أن الالتزام اذا كان انحيازاً، فالانحياز يسوق الى التفرقة بين أعضاء الجماعة الواحدة، فكيف يمكن أن نربط بين الالتزام —والالتزام السياسي خاصة— وبين متطلبات الانجيل؟ الانجيل يدعونا الى المحبة والتوافق، والالتزام يضطرنا الى أبراز مواقفنا الحقيقية المنسجمة مع اعتناقاتنا، وهذا بدوره قد يقود الى التفرقة والى تنمية الأحقاد بين الجماعة. هذا التعارض الشكلي المزعوم يقود الضعفاء والسطحيين الى مواقف مغلوطة أخرى، من حيث المبدأ، يقولون فيها بأننا، نحن المسيحيين، ننتمي الى كنيسة واحدة، ولا يمكن أن نقبل بما يقود الى تقسيم الجماعة المؤمنة، لذا يجب الابتعاد عن السياسة وعن الالتزام السياسي، لأن ذلك لا يتفق والوحدة المطلوبة في الكنيسة!!! ويستطردون في زعمهم بأن التزام مواقف سياسية مختلفة تجاه أية قضية اجتماعية أو اقتصادية سوف يقسم المؤمنين الى جماعات متناحرة: وهذا لا يمكن قبوله مطلقاً من وجهة النظر المسيحية!

انطلاقاً من المفهوم الخاطئ، أو الناقص على الأقل، نجد كثيراً من المؤمنين الذين تطلق عليهم صفة "المسيحيين الصالحين"، ينظرون بريبة وحذر الى الاخوان الأخرين الذين التزموا سياسياً ويعتبرونهم كمن تخلوا جزئياً عن مسيحيتهم وكمن فضلوا العالم الفاني على الروح!!

لنحلل الآن هذه المواقف والمعطيات: عند مواجهتنا مثل هذه التساؤلات نجد أنفسنا أمام ثلاثة أسئلة تطرح نفسها علينا:

١) هذه الوحدة الكنسية الفكرية المفترضة التي يجب المحافظة عليها بأي ثمن: هل هي موجودة فعلاً؟ وهل كانت موجودة في يوم ما في تاريخ الكنيسة؟

من يطلع على تاريخ الكنيسة، منذ نشأتها الى يومنا هذا، يرى بأن قضية الوحدة النظرية بين المؤمنين لا يسوغ طرحها على أساس أنها كانت موجودة في يوم من الأيام وفقدت من ثم. فمنذ أن بدأ المسيحيون الاوائل بتنظيم أنفسهم على شكل جماعات محلية متأثرة بكل ما يمكن أن يؤثر على جماعة من البشر، في زمان ومكان معينين، من تأثيرات حضارية وفكرية وثقافية واقتصادية وسياسية، نشأت الفروقات والتباين. ومع الزمن تحولت بعض هذه الفروقات الى انقسامات نتيجة للواقع الحضاري المختلف وطبيعة المجتمعات التي

انتشرت فيها المسيحية، بالاضافة الى العوامل العرقية والقومية والتأثيرات السياسية. فهذه الوحدة المنشودة لم توجد أبداً في الأبعاد المذكورة سلفاً، ولكنها تبقى الهدف الذي يجب أن تسعى الى تحقيقه الجماعات المسيحية. واليوم نفهم، أكثر من أي وقت مضى، أن أي مفهوم واقعي للوحدة هو أن نعتبرها قضية مستقبلية تهدف اليها الجماعات المسيحية المختلفة. أما كون هذه الجماعات تشتاق وتتوق الى الوحدة الكاملة في الهدف وفي الصفوف، فهذا أمر يعتبر أساسياً ومن مقومات الحياة الانجيلية. ولكن لا ينبغي أن يؤخذ هذا الهدف بشكل مثالي غير واقعي، أعني بغضّ النظر تماماً عن الاختلافات والانقسامات الفكرية والفلسفية الموجودة داخل الجماعة المسيحية الواحدة وفي الأساليب المطروحة.

ان تجاهل المشكلة لا يعتبر حلاً لها، وانما الحل يكمن في المواجهة الشجاعة والموضوعية وفي الثقة بأن المسيح أراد من تلاميذه أن يكونوا واحداً (يوحنا ١٧) وأن يبحثوا بايمان وعزم عن الطرق الموصلة الى هذه الوحدة. مثل هذه المواجهة والثقة والعزم لا يمكن الحصول عليها إلا بالتزام عملي متجسد. فالابتعاد عن الالتزام اذن، لا سيما الالتزام السياسي، بحجة انه يهدد وحدة المؤمنين، لا يتبرر، إضافة الى أن الايمان بحد ذاته لا بد أن يكون ايماناً ملتزماً اذا أراد أن يكون ايماناً حقيقياً فعالاً وله تأثير في الحياة الانسانية.. وإلا لكان، بالفعل، استلاباً وهرباً من أكثرية القضايا الحياتية التي تواجه الانسان المعاصر؛ بكلمة أخرى ان الايمان غير الملتزم، "المجرد"، هو عبارة عن ارتياح الى مجموعة من المفاهيم والأفكار المجردة التي قد تكون جديرة بحد ذاتها، إلا أنها من دون فعالية واقعية، غير "متجسدة". ومن الصعوبة بمكان أن نجد في حياة المسيح وفي خبرته التبشيرية ما يبرر ايماناً راكداً من هذه الطينة؛ في حياة يسوع نرى عكس ذلك تماماً: فالمسيح الذي نؤمن به انحاز الى الانسان، والى قضاياه، والتزمها ومات من أجلها، وأعطاها ديناميكية الانبعاث والتجدد غير المحدودة بقيامته. اضافة الى ذلك، ومن وجهة نظر انسانية بحتة، يجعل الالتزام من العلاقات الفعلية بين المؤمنين علاقات ناضجة ومسؤولة تمتلك القدرة على مواجهة مشاكل الحياة على كافة المستويات الانسانية والايمانية والسياسية.

٢) إقرار مبدأ التعددية[٢]، هل من الممكن ان يكون حلاً؟

السؤال الثاني الذي يطرح نفسه علينا ويشكل قضية مهمة بالنسبة لكثير من المؤمنين في العالم هو: اذا كان لا بد من الاختلاف في الموقف الفكري والسياسي بين أعضاء الجماعة الواحدة، فهل يكمن الحل باقرار مبدأ تعددية المواقف؟ هذا ما يبدو منطقياً، فالانجيل هو للجميع، وكل يفهمه بحسب اجتهاداته، وبذلك يجد الجميع في الانجيل التبريرات اللازمة لاقرار مواقفهم الخاصة، وهذا ما دعا اليه الأساقفة الكاثوليك في فرنسا في

(٢) أي مبدأ تعدد المواقف الفكرية والفلسفية والسياسية وتواجدها سلمياً وجدلياً في المجتمع الواحد (ف. م.).

اجتماعهم الراعوي في لورد سنة ١٩٧٢، كحل انجيلي واجهوا فيه قضية الالتزام السياسي للمسيحيين وما ينتج عن هذا الالتزام من مسائل واقعية تدعو الى التفكير والى اعطاء الموقف الرسمي المناسب من قبل السلطات الكنسية التي يمثلونها.

ولكن اقرار هذا المبدأ لا يخلو، لأول وهلة، سيما اذا أخذ بحرفيته، من اشكالات عديدة. فقد يعتبر حلاً على الصعيد المثالي والنظري، ولكنه يعني واقعياً وعملياً دعوة المؤمنين إلى أن يعيشوا مواقف فعلية داخل المؤسسة الواحدة ليست مختلفة حسب، بل قد تكون متناقضة، فهل هذا ممكن، وكيف؟!

فاذا اعتبرناه من الأمور الممكنة، فذلك يعني أن الاختلافات والتناقضات ما هي الا أمور ظاهرية، والانجيل يبقى هنا هو نفسه، خارج هذه الظواهر، من دون تغيير: انجيل للجميع. أو قد يحدث العكس، أي أن يصبح الانجيل غطاء ظاهرياً لواقع متناقض جوهرياً، وفي كلتا الحالتين يعني ذلك تجريد الانجيل من أية فعالية أصيلة، وجعله وسيلة للوصول الى غايات أيديولوجية معينة، تستعمل حين الطلب!!

واذا أخذنا بالاحتمال الاخير، أي ان الحياة الانجيلية والالتزام السياسي ينتميان الى عنصرين مختلفين جوهرياً، مستقلين عن بعضهما، وبوسع كل منهما أن يحيا بذاته، منفصلاً عن الآخر، من دون أن يؤثر هذا الفصل على حياة الانسان الواحدة... اذا أخذنا بهذا الاحتمال، فسرعان ما نرى أنفسنا أمام ثنائية عند المؤمن كنا قد تطرقنا اليها في دراسة سابقة[٣]. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لا بد ان نعترف بان الانجيل ليس حيادياً تجاه القضايا الانسانية: فهناك خط انجيلي أصيل من الممكن رسمه، ولو بصورة تقريبية، لا يمكننا تشويهه، لأن فيه تكمن صورة المسيح الذي اتخذناه لحياتنا مبدءاً ومحوراً لكل قضايانا الحياتية:

فالانجيل، لا يمكن أن يبرر الاستغلال والعبودية.

الانجيل، لا يمكن أن يدعو الى اللاعدالة والتمييز العنصري بين البشر.

الانجيل، دعوة الى أن يتقاسم البشر خيرات الأرض بصورة عادلة وانسانية.

الانجيل، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون منطلقاً للتعصب الديني أو الطائفي، فهو في الأساس دعوة الى أخوة متفتحة متحاورة.

الانجيل أخيراً، يعلم الكل بأنه بشارة سعيدة للفقراء والمقهورين، لذا ليس بامكانه التزام جانب الأغنياء الانانيين والمتسلطين والعتاة.

وهكذا فالانجيل هو فعلاً للجميع، من دون شك، ولكن لكي يدرك الجميع بأن الانسان خلق لكي يصبح أخا للانسان، ولكي يصبح الجميع أحرارا ذوي كرامة انسانية، وهذه الحرية والكرامة لا يمكننا التخلي عنها.

---

(٣) انظر "الفكر المسيحي" عدد ١١٢ – شباط ١٩٧٦ ص ٨٠.

والآن، بعد هذا التوضيح وهذه النظرة الصافية الى الانجيل، يمكننا القول بأن مبدأ التعددية هو مبدأ مقبول، ولكن ضمن الخط الانجيلي، أي ضمن خط يسمح للمواقف المختلفة بالظهور بعد أن تكون قد مرت في بوتقة النقد الانجيلي بصورة مخلصة وجادة، وان لا يكون فيها تناقض في الاساس مع هذا الخط الانجيلي.

٣) الالتزام السياسي، ألا يمكن أن يكون طريقاً سليماً لعيش الانجيل؟

في مقالنا السابق "الالتزام السياسي والانساني الانجيلي"(٤)، بيّنا معنى هذا الالتزام على الصعيدين الانساني والانجيلي، وبقي علينا هنا أن نتطرق الى نقطة أساسية في هذا المجال وهي ضرورة تجسيد الروح الانجيلية التي أعطيَت للمؤمنين كافة، لكي يستمر العمل الخلاصي والخلاق الذي قام به المسيح، أي موته وقيامته عن البشرية جمعاء؛ فهذه الروح لا يمكن لها أن تبقى مجردة في عالم غير عالمنا المحسوس. لقد منحت لنا ولعالمنا، وهي بذلك تدعونا الى أن نجعل من حياتنا البشرية الواقعية موقعاً أصيلاً لها حتى تعمل على قلب وخلق هذه الحياة من جديد، وبصورة أكثر انسانية. فعلى هذا الصعيد لا بد لحياتنا أن تكون حياة مندمجة، ملتزمة، متجسدة في الواقع الذي يحتويها، لتكون لها قابلية المشاركة الفعالة في عملية تغيير هذا الواقع وأخذ مسؤوليتها كاملة رغم الصعوبات الناجمة من التزام عملية تطوير هذا الواقع وتحريره وخلقه ليكون لائقاً بابن الانسان.

لهذا نستطيع أن نقول بأن الالتزام السياسي هو احدى الوسائل الاصيلة والفعالة في التزام الواقع، أي بكلمة أخرى، ومن وجهة نظر لاهوتية، يعتبر هذا الالتزام شكلاً من أشكال تجسيد الروح الانجيلية وأنسنتها ("الكلمة صار جسداً وسكن في ما بيننا").

وفي الختام، هناك كلمة لا بد منها وهي أن هذه المفاهيم ليست نظريات جديدة يتم تطبيقها على واقع الحياة بعد أن وضعها مفكرون تعاملوا مع الواقع من وراء مكاتبهم الأنيقة، بل هي نظريات انجيلية صادقة انطلقت من واقع المؤمنين الملموس الذين مارسوا فيه واختبروا هذا الالتزام فعلياً في بلدان كثيرة كأميركا اللاتينية وفي الدول العربية المناضلة، وعلى الأخص فلسطين. في دول عدة، في الشرق والغرب، نجد مؤمنين ملتزمين سياسياً يشاركون في إحداث التغييرات اللازمة في البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لمجتمعاتهم، ويسيرون بها، جنباً الى جنب، مع ملتزمين آخرين من أديان وأيديولوجيات أخرى، لتصبح مجتمعات أكثر انسانية وأكثر انسجاماً مع ما أظهره لنا المسيح في انجيله من قيم انسانية ومن نموذج علائقي انساني دعانا الى تحقيقه في صميم حياتنا اليوم، وبناء ركائز "انسانية" للمستقبل المتجدد دوماً.

الاب عبد السلام حلوة

---

(٤) "الفكر المسيحي" العدد الخاص ت١و ٢ سنة١٩٧٤ ص٣٩٢.

المرأة في الفكر المسيحي واقع وطموح

المرأة؟! خصتها "الفكر المسيحي" بمقالات قيمة ولا سيما بمناسبة السنة العالمية للمرأة (١٩٧٥) حين لم يكن يخلو عدد من مقال أو اسهامة، عبر طاولة أو سؤال للمناقشة. وجاء هذا المقال في العدد الخاص ليرسم المحطات الكبرى من واقع المرأة وطموحها في الفكر المسيحي المعاصر - وهو عرض معرب لفصل من كتاب "المرأة، الحركة المناوئة للمرأة والمسيحية" بعنوان: المرأة تنادي الكنيسة، للأب جان ماري اوبيرت، الاستاذ في جامعة ستراسبورغ بفرنسا.

هل كان بوسع الكنيسة ان تبقى صمّاء ازاء ظاهرة تحرير المرأة، وتبادر الى ابراز مكانتها الطبيعية في حياة الكنيسة ورسالتها؟

تجسيد رسالة الانجيل التحررية في واقع اليوم

تحرر المرأة علامة الازمنة

منع الحمل والوالدية المسؤولة

التزام المسيحيين في تحرير المرأة

تلك هي ابرز النقاط التي تناولها المقال في خط المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) الذي خرج بندائه الختامي في ٨ ك١ ١٩٦٥ - وقد خص النساء بفقرة: "... ستأتي ساعة - وقد أتت فعلاً - حيث تتحقق دعوة المرأة بكاملها، ساعة تكتسب فيها في المجتمع تأثيراً خاصاً واشعاعاً واسعاً وقوة فعالة لم تنلها حتى الآن"!

في نطاق حركة التجدد الواسعة التي مهد لها المجمع الفاتيكاني الثاني، أثيرت بحماس متزايد قضية المرأة وتحريرها والمكانة التي يجب أن تحتلها في الكنيسة. فتطور أوضاع المرأة في المجتمع المدني لا يمكن إلا أن ينعكس في الكنيسة أيضاً. فالكنيسة أخذت تعي أكثر فأكثر بأن رسالتها تلزمها باعادة الاتصال والحوار مع العالم كي تعلن له الانجيل بأصالة، كما أنه عليها أن تساهم في بناء مجتمع أكثر عدلاً، وذلك بتوضيح القيم الجديدة (والمبهمة أحياناً) التي أخذت تفرزها حضارتنا شيئاً بعد شيء.

لذلك، انطلاقاً من منطق رسالتها، لا يمكن للكنيسة أن تبقى صماء ازاء هذه الحركة، ولا أن تتذرع (كما يفعل بسهولة وعفوية عدد من رجال الكنيسة) بأن هذه القضية لا تخص الا الحياة الاجتماعية المدنية التي لا تفهم شيئاً من الانظمة الكنسية، وبأن الكنيسة لا يمكنها اعادة النظر في الفكرة التي تحملها عن المرأة ضمن البنى الكنسية. غير أن ما عبر عنه البابا يوحنا الثالث والعشرون في رسالته "سلام على الأرض" له مدلوله حين رأى في تطور وضع المرأة احدى علامات الأزمنة الاساسية. من هذا التعليم استخلص المجمع الفاتيكاني الثاني، في الكثير من نصوصه، النتائج الايجابية حول المرأة، بصورة عامة، وموقعها في المجتمع المدني. واننا لنهدف

لنهدف الآن أن نوجز هذه النتائج ونرى بصورة خاصة مدى وجوب تطبيق الكنيسة لهذه الافكار والمفاهيم في نطاقها الخاص.

❋ تجسيد رسالة الانجيل التحررية في واقع اليوم

ننكبّ على هذا التوتر القائم بين هذين الواقعين:

من جهة تعليم الانجيل الصريح بالمساواة المطلقة بين الكائنات البشرية بغض النظر عن العنصر أو الجنس، ومن جهة أخرى ثقل الأنظمة الاجتماعية والثقافية، وريثة اليهودية والوثنية، هذه الأنظمة التي طالما كرست التبعية الكلية الواجبة على المرأة تجاه الرجل الذي وحده يملك ملء الطبيعة البشرية! وقد شهدنا الجهود التي بذلها العديد من رجال الكنيسة كي يبرروا عقائدياً امكانية التوفيق بين المساواة التي يعلنها الانجيل والتفرقة القائمة ضد المرأة...

ولكن، بالرغم من التطور الكبير الذي أحرزته الكنيسة تجاه الفكرة التي تحملها عن المرأة، فان الماضي لا زال يرزح بثقله، لا سيما عند المسيحيين الذين ما كاد يمسهم شيء من تيار التجدد الحالي في الكنيسة. ومما لا ينسى أيضاً أن المسيحية طالما قبلت، عبر الأجيال، المواقف المضادة للمرأة، وليدة الأنظمة الاجتماعية التقليدية؛ واذا ما لطفت هذه المواقف في الواقع متخذة جانب المرأة، في هذه الحالة أو تلك، فانها قد دعمتها "عقائدياً" بتحديدات، "فوقية" لاهوتية مفتعلة لكي يبرز بذلك مبدأ سيادة الرجل في المجتمع المسيحي... وفي هذا النطاق ظهرت فكرة حصر المهمة التربوية في الام... ومبدأ ابقاء المرأة في المنزل.

لا شك أن أوضاع المرأة كانت، قبل الحركة الصناعية، تابعة أساساً للرجل، وقد صب رجال الكنيسة كل جهودهم ليشرحوا ويبينوا أن هذه التبعية لا تتناقض ومبدأ الانجيل في المساواة بين الجنسين. ولقد فسرت هذه التبعية ببعض العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ونظراً لضعف الروح النقدية في تلك الحقبة المتأخرة، أعتبرت هذه الحالة لازمة وغير قابلة للتغيير وكأنها انعكاس لنظام طبيعي أراده الله. ان خطأ هذا المفهوم التقليدي للمرأة (قبل القرن التاسع عشر) يكمن في أنه أعطى بعداً مطلقاً لتلك البنى الاجتماعية والثقافية الناتجة عن نظرية السيطرة الأبوية، ومن هنا جاءت الحاجة الى تبرير ما لهذه "التفرقة الجنسية" غير المعلنة من تناقض مع تعاليم الانجيل.

لقد أدى هذا التعنت في المفهوم المسيحي للمرأة، في الواقع، الى قبول الانتقال من التبعية العشائرية الى جعل المرأة في هامش الحياة الاجتماعية، وحرمانها من حقوقها، وفرض الاقامة عليها في البيت ضمن دورها الالزامي في تربية الأطفال وادارة المنزل. وهكذا نفهم حدة الحذر الاكليريكي تجاه العمل النسوي الذي يبقى، بالرغم من ظروفه غير العادلة حتى الآن، الوسيلة الكبرى لتطوير وضع المرأة، وقد امتد هذا الحذر (في السابق وليس الآن) الى ناحية تعليم المرأة باعتباره تهديداً للنظام الاجتماعي.

أليس مدهشاً أن نشهد غياب فكر مسيحي أصيل عندما طرحت قضية المرأة في إطار جديد؟

في الواقع، لقد تحقق تقدم كبير منذ ذلك الحين وقضي على قسط وافر من التأخر الماضي، غير أنه يجب الاعتراف بان هذا التطور يمس بالدرجة الاولى المبادئ والاعتبارات العامة حول ضرورة تطور وضع المرأة في المجتمع المدني وفي نطاق العلمانيين، لأننا ما أن نصل الى التطبيق الفعلي حتى يظهر نوع من المقاومة: وتتجلى هذه المقاومة، إما في صعوبة قبول التطور في المفهوم المسيحي للعائلة -هذا المفهوم الذي انما هو وليد القرن الماضي- وإما، بنوع خاص، رفض أي بحث لقضية امكانية قبول النساء في الخدم الكنسية الكهنوتية. لذا يجدر بنا الآن أن نلج موضوع المساهمة القيمة التي أتى بها المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في هذا المجال، لنستخلص النتائج المنطقية ونتخلص من بقايا المواقف المضادة لحركة تحرر المرأة والتي تتعارض مع التبشير بيسوع المسيح في عالم اليوم.

* تحرر المرأة علامة الأزمنة

ان استئناف الحوار بين الكنيسة والعالم المعاصر يتطلب منها، كشرط أساسي، جهداً جاداً لفهم الأوضاع التي يوجد فيها هذا العالم الذي نما خارج التأثير الاكليريكي (وغالباً ما ضده)، وقد أصبح من ثم بالغاً بفضل الحريات المختلفة (السياسية والثقافية والدينية...) التي غزت كل ميادينه. لذا فقد صرح البابا بولس السادس في ختام المجمع الفاتيكاني الثاني: "ان كنيسة المجمع، والحق يقال، لم تكتف بدراسة طبيعتها الذاتية والعلاقات التي تصلها بالله، بل اهتمت أيضاً كثيراً بالانسان، الانسان حسبما يعيش في عصرنا في الواقع".

من هذا المنطلق ينبعث موقف جديد: ان المسيحيين مدعوون الى أن يتساءلوا، بكثير من الجد والأهتمام، عن غد العالم، وأن يقتنعوا من أن عليهم أن يتعلموا الكثير من مثل هذا التساؤل؛ بذلك سيساعدون الناس بصورة أفضل كي يدركوا البعد الالهي لتاريخهم الشخصي.

من هنا تأتي أهمية معرفة "علامات الأزمنة"، ونقصد "بعلامات الأزمنة" تلك الحوادث التي ترمز الى التغيرات التي يشهدها عصرنا وتطبعه بطابع خاص وبصورة أوضح. على الكنيسة أن تميز هذه العلامات لكي تفهم بصورة أدق طموحات وأمنيات ومشاكل انسان اليوم...

لقد اعتبر البابا يوحنا الثالث والعشرون نفسه، في رسالته الراعوية "سلام على الأرض" -وهي امتداد لتعليم بيوس الثاني عشر- تطور وضع المرأة إحدى علامات الأزمنة (ان كلمة "تحرر" كانت ولا زالت تبدو احتجاجية أكثر من اللازم)، كما اعتبر التطور العمالي وحركة ازالة الاستعمار بمثابة الصيغ العصرية للوعي الجديد للكرامة المتساوية بين جميع البشر.

ان هذا التطور يشمل الأسرة ويشمل الحياة العامة معاً، الأمر الذي يعني الادانة الرسمية من قبل الكنيسة للمفهوم الأبوي التقليدي عن الأسرة، كما يعني ادانة وضع المرأة على هامش الحياة الاجتماعية وكل أشكال التمييز العصرية التي تعتبر المرأة مجرد غرض وأداة لخدمة الرجل.

وهكذا وصل المجمع الفاتيكاني الثاني الى الاستنتاجات المنطقية، فأعلن نهاية تقليد عقائدي يعارض المرأة (نقول عقائدياً لأننا لا زلنا بعيدين عن التطبيق الواقعي). وقد أوردت هذا التعليم الوثيقة المجمعية "الكنيسة في عالم اليوم"، ويمكن ايجازه كالآتي: مساواة أساسية بين الرجل والمرأة (رقم ٤٩)، بحيث أن "كل تفرقة أو "تمييز" قائم على الجنس يجب أن نتجاوزه ونستأصله باعتباره مخالفاً لقصد الله" (رقم ٢٩). كما ان هذه الادانة نفسها جاءت في الرقم٦٠ ضد الأحكام المتحيزة بخصوص العلاقات الجنسية. فالمجمع يضع الرجل والمرأة على قدم المساواة التامة، داعياً اياهما أن يرميا "في عملهما" امتداداً لعمل الخالق ومساهمة شخصية في تحقيق مخطط العناية الالهية في التاريخ (الرقم٣٤)... فهذه النصوص تعترف اذن بشرعية تطور الحركة النسوية (الرقم٥٢). وقد لخص نداء المجمع في٨ ك١ ١٩٦٥ الخاص بالنساء كل هذا التعليم حيث جاء: "ولكن ستأتي ساعة، وقد أتت فعلاً، حيث تتحقق دعوة المرأة بكاملها، ساعة تكتسب فيها في المجتمع تأثيراً خاصاً، واشعاعاً واسعاً، وقوة فعالة لم تنلها حتى الآن".

✻ منع الحمل والوالدية المسؤولة

لقد اعترفت الكنيسة دوماً بعظمة الانجاب، ورأت أن ولادة طفل هي أجمل عمل يستطيع كائن بشري أن ينتجه على الاطلاق. ولكنها أدركت ازاء المشاكل الناجمة عن النمو السكاني وتقدم علم الكتاب المقدس واللاهوت -وقد ابرزا أهمية الحب في الحياة وفي العلاقات الزوجية- ضرورة التخفيف من حدة هذا التقليد الذي بالغ في التشديد على الناحية الانجابية في الزواج. وهنا نشير الى ان بيوس الثاني عشر كان قد سبق وأدخل مفهوم تنظيم الولادات وشرعية تحديدها، هذا المفهوم الذي يتضمن في الواقع الفكرة العامة لـ "منع الحمل" (أي رفض موضوعي للحمل). ان الفرق الوحيد بين التعليم الرسمي للكنيسة وبين ما يقصد عادة عند التحدث عن منع الحمل (بالمعنى الحصري للكلمة) لا يقوم حول النية لدى القيام بالفعل الزوجي في عدم الرغبة بالطفل، وانما حول الوسائل المستعملة لتحقيق هذه النية فقط. فالكنيسة تقف عند شرعية الطرق الطبيعية فقط (أي الاتصال فقط ابان الفترات غير المخصبة، لا سيما قبل وبعد الحيض). الا انه يجدر بالملاحظة أن غالبية اللاهوتيين والخبراء أعضاء لجنة رسمية اجتمعت لهذا الغرض، كانوا من مؤيدي توسيع هذه الشرعية الى الوسائل الاصطناعية (وبصورة خاصة حبوب منع الحمل). واذ لا يمكننا أن نسرد هنا كل المناقشات التي أثارتها رسالة بولس السادس في "الحياة البشرية"، نكتفي بذكر العنصر الجوهري الذي لا جدال فيه؛ والذي يعتبر تطوراً عقائدياً عظيماً، إذ انه تخلى عن تقليد

عريق دام أجيالاً كان، بموجبه يربط، بصورة لازمة، كل علاقة زوجية بقصد انجاب طفل.

من هذا الحق الأساسي للمرأة في تنظيم أمومتها، وبالتالي أن تكون هي المسؤولة عن جسدها، يؤكد هذا التقدم على وجود "الرجل والمرأة معاً"، فليس الانجاب مهمة تتحمل الام مسؤوليتها الاساسية وحدها، لأنه في منظور المساواة في المسؤولية يأتي مفهوم "الوالدية المسؤولة" وهذا هو تعليم المجمع الفاتيكاني الثاني القائل: "ان هذا القرار (حول واجب الوالدين في نقل الحياة) يعود بالدرجة الاولى الى الزوجين ذاتهما اللذين يتخذانه أمام الله... والقرار المتعلق بعدد الاولاد يعتمد على الحكم المستقيم للوالدين".

❋ التزام المسيحيين في تحرير المرأة

ان هذا الاتجاه الجديد في تعليم الكنيسة لا يأتي، في نهاية المطاف، إلا لتطبيق متطلبات الانجيل في عالمنا الحاضر، هذه المتطلبات التي طالما حال دون تحقيقها تقليد وأنظمة اجتماعية أبوية... انها دعوة موجهة الى كافة المسيحيين ليلتزموا باعلان وتحقيق الرسالة الانجيلية حيثما ساد الظلم والاستلاب وعدم المساواه والتفرقة، سواء كانت طبقية أو مؤسسة على المال أو العرق أو الجنس.

وهنا لا بد من نفس طويل لمواصلة المسيرة، لان العوائق كثيرة ومترسخة... فكما حدث لنا في حركة الدفاع عن حقوق الانسان الذي كان، في عصر ليس ببعيد، مرادفاً لمناوءة الكنيسة، وكما كان الأمر في قضية الدفاع عن العدالة في عالم العمال، حيث سبقتنا الاشتراكية بكثير، نجد انفسنا أمام تخلف يجب استدراكه؛ فاذا جئنا متأخرين على ساحة التحرير من كل أنواع العبودية، علينا أن نستعيد ثقة تزعزعت كثيراً.

هنا تأتي قضية طبيعة الالتزام المسيحي في المجال الاجتماعي: أن نعرف ما هو الطابع الخاص للمساهمة المسيحية في هذا المجال، وخاصة في ما يتعلق بتحرير المرأة. وليس مكان الان أن نبحث هذه القضية بأبعادها، لذا نكتفي بالقول بأن الفعل المسيحي هو قبل كل شيء فعل انساني بكل ما في هذه الكلمة من أبعاد: فنضاله من أجل العدالة ومن أجل التطور الانساني لا يختلف في موضوعه عن نضال غير المؤمنين، وانما الايمان المسيحي الذي من شأنه أن يعطي المعنى النهائي لمثل هذا العمل، يتيح للمسيحي أن يضع في التزامه بعداً خاصاً. فكما أن ليس هناك سياسة مسيحية، وانما طريقة مسيحية لممارسة السياسة، هكذا هو الحال في قضية تحرير المرأة، وحيثما يمكن أن يتحقق هذا التحرير، وجب على المسيحي أن يكون حاضراً مع غير المسيحي. غير أن المسيحي، لأنه يحيا في وحدة المسيح، وتحركه الفضائل الالهية، عليه أن يتميز في تحقيق مثل هذا المشروع المشترك، بمزيد من الحماس والصفاء؛ عليه ان يتميز بمزيد من الديناميه (فالمحبة التي تسكن فيه هي نار آكلة)، وبثقة ورجاء وطيدين بالمستقبل، وبتحقيق مواعيد الله عبر التزامه الشخصي.

الأب جان-ماري اوليرت

٣ كنيسة العراق

السنة الثالثة عشرة: عدد ممتاز - أيلول ١٩٧٧

الفهرس

- افتتاحية: هذا العدد — رئيس التحرير
- هوية العراق — الموسوعة السياسية
- لمحات من تاريخ كنيسة ما بين النهرين — م.ح.
- المجلات المسيحية في العراق — سالم شماس
- الاب انستاس ماري الكرملي — بهنام فضيل عفاص
- كنيسة العراق في ارقام — ...
- كنيسة ما بعد المجمع — أ. خليل قوجحصارلي
- مقابلة مع المطران عمانوئيل بني — أ. يونس عفاص
- هل سيكون لنا كهنة بعد اليوم؟ — أ. جرجس القس موسى
- العلمية في الفكر الكنسي العراقي — القس لوسيان جميل
- كنيسة امام عواصف التغيير — نقاش اجراه ماهر حبي
- الكنيسة في الواقع العربي — أ. ميخائيل جميل
- مقابلة مع الاستاذ عبد الرزاق البكري — أ. نعمان اوبيرة

لم يحمل هذا العدد رقماً لأنه شاء أولاً ان يكون اضافياً -لذا حمل عبارة "عدد ممتاز"! واعتبر من ثم عدداً لشهر ايلول. فكان جولة في رحاب كنيسة العراق ذات التاريخ العريق، ومسحاً لواقعها ومكوناتها -بطوائفها وابرشياتها واساقفتها- ومراجعة لما عانتها وتعانيه من مشاكل وتعثرات، ونظرة مستقبلية الى ما ينبغي ان تكون عليه كنيسة تخاطب انسان اليوم وبلغته، وتتجاوب مع امانيه وتطلعاته، اثر المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني وبوحيه والهاماته.

عدد -وقد تضمن مقابلة مع المطران عمانوئيل بني صاحب امتياز المجلة (+١٩٩٩)- عكس تجذّر **الفكر المسيحي** في كنيسة العراق وحرصها على خدمتها ورغبتها في دفعها نحو التجدد...

❖ (...) نتطلع إلى كنيسة تكون حقا ملتقى لكل شعب الله -علمانيين وكهنة وأساقفة- شعب يؤمن بأنه يؤلف جسد المسيح ويعي أن لكل عضو فيه دوره ومسؤولياته في بناء هذا الجسد ونموه.

❖ نتطلع إلى كنيسة تتخطى الجمود الفكري في تقاليدها وشرائعها، فتعود إلى ينبوع الانجيل الصافي تستلهم منه مواقفها وتستوحي منه معالجاتها لقضايا الانسان المسيحي.

❖ نتطلع إلى كنيسة تتغلب على تقوقعها على ذاتها من جراء انقساماتها الداخلية، وتعرف كيف تتخطى الانقسامات العقائدية أو الطائفية، فتوحد كلمتها وتنسق نشاطاتها فتصبح شاهدة لانجيل المحبة.

❖ نطمح في كنيسة تكون قريبة إلى كل الناس، بحيث يجد فيها كل انسان ما يروي عطشه إلى المطلق. كما نريدها كنيسة نبوية تتكلم باسم الفقراء وتكون إلى جانبهم ...

فمن اجل كل هذه الاهداف كان هذا العدد الممتاز من مجلتكم "الفكر المسيحي". (...)

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٩١-٩٢)

كنيسة ما بعد المجمع

من ظواهر الحياة في الكنيسة قدرتها على أن تتجدد وتبدع وتتقدم. وهكذا تحافظ على أصالتها وتبرهن على أمانتها نحو يسوع مؤسسها الذي أرادها امتداداً لشخصه، تشع رسالته بين شعوب العالم على مدى الأزمنة.

لم تأت العنصرة الاولى في فجر الكنيسة، حسب وعد المخلص، الا لتكون المصدر الدائم لهذا التجدد الحي، بقوة الروح القدس الذي عهد اليه أن يرشد "شعب الله" الى كل الحق، الحق الذي يحرر. فالعنصرة حقيقة ثابتة خالدة ترافق شعب الله في مسيرته الكبرى لتنيره وتقدسه. غير أن فعلها يتجلى، بصورة خاصة، في المجامع المكسونية التي كانت، عبر تاريخ الكنيسة، بمثابة منعطفات هامة أتاحت للكنيسة أن تحقق رسالتها بعمق وقناعة واقدام. ولا ريب في أن المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الأخير كان، حسب تعبير يوحنا الثالث والعشرين، عنصرة جديدة لعصر جديد.

السؤال الذي يطرح نفسه علينا، ونحن بصدد المجمع هو: ما هي التغييرات الهامة التي تمت في الكنيسة خلال الاحدى عشرة سنة من اختتام المجمع المسكوني الكبير؟

الاجابة على هذا السؤال ليست بالأمر الهين، نظراً للمواقف السلبية التي اتخذها بعض رجال الكنيسة وبعض العلمانيين:

لم تكن تمضي على المجمع المسكوني سوى اثنتي عشرة سنة حين قام الاب خليل قوجحصارلي بشبه "مراجعة حياة" لكنيستنا العراقية في اعقاب المجمع: كيف تقيس بدقة موقعها بين كنائس الله، وتتفحص دعوتها ورسالتها، وتضطلع بمسؤولياتها الجسيمة في عراق عرف تحوّلات كثيرة وعلى اكثر من صعيد. مراجعة من شأنها ان تمكّن كنيستنا من ان تتخذ وجهاً متجدداً كما يريده لها المسيح، وكما يتطلع اليه المسيحيون: كنيسة منفتحة، كنيسة في حركة، كنيسة الجماهير، كنيسة لا مركزية، كنيسة لا اكليريكية، كنيسة فقيرة.

الاب خليل قوجحصارلي

(مواليد ١٩٢١)، درس في معهد مار يوحنا الحبيب قبل ان يدخل الرهبنة الدومنيكية وفيها رسم كاهناً عام ١٩٥٠. عمل لسنوات طويلة في الموصل، واعظاً مفوّهاً في الكنائس، ومرشداً للراهبات الدومنيكيات، ومحاضراً في فرق الشباب والاخويات ... كان له دور كبير في تأسيس "كلية الموصل" في نهاية الخمسينات، واليه يعود الفضل في اطلاق "بيت الصلاة" بمعاونة الاخت ماريان البلجيكية.

استقر عام ١٩٨٣ في بلجيكا حيث انتخب رئيساً لدير الآباء الدومنيكيين في بروكسل، كما عمل ناشطاً في "دار الكلمة" للحوار بين المسيحيين والمسلمين. وفي بروكسيل وافته المنية عام ١٩٩٣. أُحصي له ١٤ مقالاً، فضلاً عن مساهمته في باب "من وحي الانجيل" الذي افتتحه عام ١٩٧٨ وعلى مدى العام. وكان عضواً بارزاً في هيئة التحرير الاستشارية بالموصل.

- هناك قسم بقي متحفظاً في تطبيق قرارات المجمع. هؤلاء هم الذين تعسر عليهم التمييز بين الجوهري والعرضي، بين الاساسي والثانوي، وخافوا أن يذهب بهم التجديد الذي دعا اليه المجمع الى ما لا تحمد عقباه! المهم، حرصا منهم على الجوهري، صعب عليهم قبول أي تبديل او تكييف في الامور التي، في الواقع، لم تتجاوز التعابير والمفاهيم المستمدة من العلوم الحديثة، الطبيعية منها والانسانية.

- قسم آخر لزم الصمت وتحصّن في مواقعه حرصا على تقاليد وعادات الاجداد. هؤلاء يحذرون الحركة ويخشون مواجهة الحياة ومتطلباتها، فآثروا الجمود والركود وأصبحوا أقرب من عالم الاموات، يتمسكون بالتقاليد، في الوقت الذي كان عليهم أن يتمسكوا "بالتقليد" وهو أمر أساسي في تقييم الايمان. ان في "التقليد" أصالة حسب القديس بولس: "سلمتكم ما قد تسلمته". أما التقاليد، اي العادات المتراكمة، فهي كثيرة وآنية وكلها نتيجة ظروف اجتماعية وثقافية وسياسية، ومن الضروري أن تزول أو تتبدل لئلا تخنق "التقليد" وتطفئ الروح وتقتحم المجال المحفوظ للقيم الجوهرية في الكنيسة، فتشوه نقاء الايمان وصفاء الرؤية الانجيلية للكنيسة.

> **"ان المحبة المسيحية تمتد حقا الى الجميع دونما تمييز في العرق والوضع الاجتماعي أو الديني، كما انها لا تنتظر اي مكسب او عرفان بالجميل...**
>
> **وكما ان المسيح كان يجول في كل المدن والقرى شافياً كل سقم ومرض دلالة على مجيء ملكوت الله، كذلك ترتبط الكنيسة، من خلال أبنائها، بكل البشر من اي وضع كانوا لا سيما بالفقراء والمعذبين، وتبذل للكل ذاتها بكل سرور من أجلهم. انها تشترك في أفراحهم وآلامهم، وتعلم اماني حياتهم ومشاكلها وتتألم معهم في ضيقات الموت. وانها تتمنى ان تجيب الباحثين عن السلام بحوار اخوي فتقدم لهم السلام والنور النابعين من الانجيل".**
>
> **(قرار في نشاط الكنيسة الرسولي)**

- وهناك أيضاً قسم ثالث قاطع كنيسة ما بعد المجمع مقاطعة علنية وفعلية وشكل تياراً مضاداً بحجة أن المجمع أفسد الكنيسة وأدى بها الى الانحراف والتدهور العقائدي والمسلكي. ان هذه المواقف الرافضة لقرارات المجمع هي تكرار لتلك المواقف التاريخية في الكنيسة حين خرج رجال عن الكنيسة بحجة اصلاحها، وبحجة الأمانة للكنيسة صاغوها حسب قامتهم، فشوهوا وحدتها.

فبالرغم من كل هذه المواقف السلبية التي وقفتها كنائس هنا وهناك، نرى أن مبادئ المجمع قد تمكنت في كثير من كنائس العالم، وأخذت هذه الكنائس، بوحي من المجمع، تسترجع أبعادها الاصيلة، وأبتدأ فيها التغيير المطلوب الذي لا يزال يتحقق ويتسع ويتعمق.

ويمكننا أن نحصر هذا التحول الذي طرأ على كنيسة ما بعد المجمع في الظواهر التالية:

١. كنيسة منفتحة

لسنين كثيرة ظلت الكنيسة منغلقة على ذاتها، مكتفية بارثها ومنجزاتها ومؤسساتها

"يعيش الجنس البشري اليوم طوراً جديداً من تاريخه يتميز بتغيرات عميقة وسريعة...
ان هذه التغييرات التي يحدثها الانسان بفضل ذكائه وعمله الخلاق تنعكس على الانسان نفسه، على أحكامه ورغباته الفردية والجماعية، وعلى طرق تفكيره وعلى تصرفاته...
... ان الأوضاع الجديدة تؤثر حتى على الحياة الدينية نفسها. فمن جهة تنقي انطلاقة الفكر النقدي الديانة من النظر الى الكون نظرة سحرية، كما انها تنقيها من الرواسب الخرافية والوساوس، وبالتالي فهي تقضي باعتناق الايمان اعتناقاً شخصياً وفعالاً يزداد يوماً بعد يوم...
ان شعب الله الذي يحركه الايمان يعلم أن روح الرب الذي يملأ الكون يقوده، ولذلك يجتهد في أن يميز في الحوادث متطلبات ومقتضيات عصرنا التي يتقاسمها وسائر الناس، ويجتهد أيضاً في أن يميز ما هي العلامات الحقيقية لحضور الله أو تصميمه".
(دستور راعوي "الكنيسة في عالم اليوم")

الوفيرة المختلفة، محتضنة اولادها المؤمنين لئلا يشردوا عنها، عائشة ضمن حواجز محكمة أشادها جهازها الاداري الثقيل.

ان روح المجع أسقط هذه الحواجز وأخرج الكنيسة من اطارها السميك ليجعلها تنفتح على كل الشعوب، وتكون في حالة انطلاق دائم للبشارة الانجيلية. ان كنيسة ما بعد المجمع تروم أن تكون "أم الشعوب" كلها وأن ترتبط مع جميع الناس برباط الصداقة، باسم يسوع المسيح الحي والحاضر في كل انسان.

في الواقع شعرت الكنيسة اليوم، في كل أقطار العالم، وبالأخص في أميركا اللاتينية، أنها كنيسة الرجاء، تبشر بانجيل الخلاص لكل الشعوب، خاصة للمجتمعات التي تعاني قسوة الطغيان السياسي والظلم الاجتماعي والتخلف العام الذي ينطوي على علل الفقر والجهل والأوبئة الأدبية والجسمية الأخرى.

غير أن تفتح الكنيسة يضاعف مسؤولياتها ويحملها على أن تكون أمام الجميع، شفافة في ضميرها واشعاعها، مؤمنة كل الايمان، متحررة من الزيف والمراءاة. ان طريق الاهتداء مفتوحة أمامها، فعليها أن تركز على الايمان. في الواقع، أخذت تظهر، في كل مكان، فرق من الجماعات المسيحية تتساءل عن ايمانها في قلق العيش حسب متطلبات الانجيل وتوجيه المجمع. على كنيسة ما بعد المجمع أن تكون مؤلفة من متطوعين ينضمون الى الكنيسة بدافع الايمان ويختارون أن يعيشوا فيها بالبهجة والسعادة، لانهم مؤمنون.

٢. كنيسة في حركة

كانت كنيسة ما قبل المجمع تخاف الحركة وتكتفي، بحرص شديد، بالمحافظة على تراثها ونماذجها الفكرية وصيغها في التبشير والعمل الراعوي، ذلك لأنها كانت ترى في الحركة مجازفة محفوفة بالمخاطر، فآثرت الا تتحرك خشية أن ينهار البناء الكنسي كله. لذا كانت تقف موقف الحذر والخوف من الحركات الرسولية التي نمت بين صفوف العمال والطلبة.

"... ويحق لهم (للعلمانيين) ان يفاتحوا رعاتهم بحاجاتهم وأمانيهم بكل الحرية والثقة التي تليق بأبناء الله واخوة المسيح... بل من واجبهم ان يبدوا شعورهم في ما يتعلق بخير الكنيسة.

... وعلى الرعاة المكرسين، من جهتهم، ان يفقهوا كرامة العلمانيين ومسؤولياتهم في الكنيسة، ويشجعونها. وليأخذوا عن رضى بآرائهم الفطنة، ويكلفوهم بثقة بمهمات في خدمة الكنيسة، تاركين لهم حرية العمل ومجاله، وليشجعوهم في ان يبادروا من تلقاء انفسهم الى العمل. وليعيروا، في المسيح، بمحبة ابوية، اهتماماً للمبادرات والتمنيات والرغبات التي يقدمها العلمانيون. وليحترموا الحرية العادلة ويعترفوا بها، تلك الحرية التي هي من حق الكل في المدينة الارضية".

(دستور عقائدي في "الكنيسة")

لقد كانت اولى أمنيات المجمع أن تضحي الكنيسة كلها، لا في جزء منها فقط، في حركة. لقد كان من الضروري أن تتحول الكنيسة الجامدة الى كنيسة متحركة لسببين: اولهما ان الكنيسة اكتشفت بأن عالم اليوم هو في تحول مستمر وحركة سريعة هائلة، وأن عليها أن تكون كنيسة لعالم اليوم تواكب البشرية المتبدلة في مسيرها وكافة تحولاتها وتطوراتها. أما السبب الثاني، فهو أن المسيح أراد أن تسير كنيسته مع الانسان في واقعه اليومي وتتبعه في تقلباته التي تثيرها الحروب والكوارث والاكتشافات والاختراعات. ففي كل جيل يكتسب الانسان وجهاً جديداً، وكان لا بد من أن يتبدل وجه الكنيسة بذات الفعل، دون أن تفقد كيانها ووجهها الاصيل، فتبتكر وسائل جديدة تتلائم وحاجات الانسان، من دون أن تتراجع في ايمانها أو تتنازل عنه، إذ لا مهادنة مع الحقيقة.

هناك في كنيسة ما بعد المجمع من التزم البديل من أجل البديل، دون الالتفاف الى ضرورته وأهدافه ونتائجه. ومن المؤسف أن نلاحظ بأن هذا المسلك شائع بين بعض الرعاة الذين يفرضون تبديلات كثيرة في حياة المؤمنين دون الأخذ برأيهم ودون اعتبار لظروفهم الخاصة. ان التبديل لا يبرَّر الا اذا خدم النمو الروحي وأدى الى تحرير الانسان وانعاش الكنيسة في صلاتها ورسالتها. والى جانب هؤلاء الرعاة، هناك رعاة يخافون من كل جديد، لانه جديد،

"ان كل الناس مدعوون ليكونوا شعب الله الجديد. ولذلك، على هذا الشعب ان يمتد الى العالم بكامله والى آخر الدهر مع بقائه واحداً...

فالكنيسة (...) لا تتنكر لشيء من ثروات الشعوب الزمنية بل، بالعكس تعززها وتتبنى مقدرات تلك الشعوب وثرواتها وطرق معيشتها بقدر ما هي خيرة...

... وتوجد شرعياً في الشركة الكنسية كنائس خاصة تنعم بتقاليدها الذاتية، مع الحفاظ التام على رئاسة كرسي بطرس الذي يرئس جماعة المحبة الشاملة ويضمن الفروقات الشرعية ويسهر ايضاً على أن تكون الخصوصيات مفيدة له دون أن تلحق اذى بالوحدة".

(دستور عقائدي في "الكنيسة")

فيحذرون من كل تجديد تقتضيه الظروف العصرية وتفرضه مصلحة الانجيل ويتطلبه خير المؤمنين.

٣. كنيسة الجماهير

ان الظروف التاريخية التي رافقت الكنيسة حتى السنوات الاخيرة جعلت منها واقعاً اجتماعياً هائلا، وكان للكنيسة واجهة محصنة منيعة تحميها سلطة مطلقة تحكم دون أن تُنتقد، وتقرر دون أن تُجادَل. لم يتردد أحد آباء المجمع المسكوني الاخير، المطران دي سمث، أسقف بروج، من أن يشير الى ثلاث نقاط ضعف في الكنيسة آنذاك: وهي الطغيان الاكليريكي، مركّب الغلبة وحب الظهور، اقتحام الذهنية الادارية.

ان صورة الكنيسة كانت شبيهة بالهرم: في القاعدة الكهنة، يعلوهم الاساقفة، وفي القمة البابا. أما الشعب المؤمن فكان كأنه يحوم حول الهرم دون أن يدخل في تركيبته.

كانت احدى معطيات المجمع الهامة اعتبار الكنيسة شعب الله، أي المجتمع الانساني الذي تلاقى وتآخى باسم المسيح ومن أجل الانجيل. ويسرنا أن نلاحظ اليوم أن الكنيسة، في أقطار كثيرة، اختبرت بصورة بارزة، العيش المسيحي المبني على الأخوة في المسيح، واكتشفت وحدة المؤمنين بالمسيح، بغض النظر عن الفوارق العنصرية والقومية والطبقية.

> **"في الكنيسة خدمات متنوعة ولكن الرسالة واحدة. فلقد أعطى المسيح رسله وخلفاءهم مهمة التعليم والتقديس والحكم باسمه وسلطانه. غير أن العلمانيين، وقد أشركهم المسيح في مهمته الكهنوتية أو النبوية والملكية، يقومون في الكنيسة، وفي العالم، بالدور الذي يعود لهم في رسالة شعب الله كله، فيمارسون تلك الرسالة بنشاطهم في التبشير وتقديس الناس ويعملون على بعث روح الانجيل في نظم الشؤون الزمنية..."**
>
> **(القرار المجمعي في رسالة العلمانيين)**

٤. كنيسة لا مركزية

الشائع قبل المجمع أن تسير كل كنائس العالم حسب نموذج كنيسة روما. لا شك أن كنيسة روما كانت تحترم العادات والتراث الثقافي والطقسي واللغوي للكنائس المحلية، غير أن المسؤولين عن ادارة القضايا الكنسية كانوا يميلون الى اعتبار كنيسة روما بمثابة المقياس الأفضل لكل الكنائس، غربية كانت أم شرقية. لقد حاول المجمع، بنجاح ضئيل، ان يحرر الكنيسة من هذه المركزية القاهرة، وأن يجعلها أكثر تنوعاً وقبولا للحضارات المختلفة. وهكذا شعرت الكنيسة أن التنوع فيها، عوض عن أن يضر بها، من شأنه ان يؤكد على وحدتها. وراحت كنيسة اليوم تحقق ما حققته، بصورة رائعة، كنيسة الاجيال الاولى، حيث كانت الوحدة في الايمان تستوعب شتى التنوعات والفوارق.

يطيب لنا اليوم أن نرى الكنيسة في أفريقيا أو أميركا اللاتينية قد أخذت تختبر دورها الكبير في أنعاش حياة الايمان انطلاقاً من المعطيات الحضارية في هذه البلدان، مع

الرغبة في العودة الى الينبوع، الانجيل. الامر الذي يدعو الى قبول مبدأ التعددية، واحترام الاختلافات القائمة التي، عوضاً عن ان تتحول الى صراع وتضارب، تؤدي الى تكامل وغنى مشترك.

٥. كنيسة لا اكليريكية

ان المسؤولين عن بنيان الكنيسة ومصير المسيحية ليسوا الاساقفة والكهنة وحسب، بل كل شعب الله مدعو الى المساهمة الفعلية في ذات المسؤولية المشتركة. وقد صرح المجمع بقوله: "ان العضو الذي لا يعمل بحسب طاقته لنمو الجسد يجب أن يعد غير مفيد للكنيسة أو لنفسه". هكذا تخرج الكنيسة من هيمنة الاكليروس وتؤكد على ضرورة مشاركة جميع المؤمنين في تنمية الحياة المسيحية، ليس فقط بصفة معاونين للكهنة، بل كمسؤولين بدرجة كاملة، كل في نطاق حالته الخاصة ودوره في المجتمع.

"... فالجماعة السياسية والكنيسة مستقلتان لا ترتبط الواحدة بالاخرى في الحقل الخاص بكل منهما. غير انهما تقومان، وإن بميزات مختلفة، بخدمة الدعوة الفردية والاجتماعية للناس ذاتهم. ... انها (الكنيسة) لا تضع رجاءها في الامتيازات التي تقدمها لها السلطات المدنية. وتتخلى عن ممارسة بعض الحقوق التي استحصلت عليها شرعياً اذا بدا ان في استعمالها مدعاة للشك في نقاوة شهادتها، او اذا قضت الظروف الجديدة باجراءات أخرى. لكنه من العدل ان تتمكن من التبشير بالايمان دائماً وفي كل مكان بحرية حقة... وانه لعدل ايضاً ان تتمكن من إصدار حكمها الأدبي حتى في القضايا التي لها علاقة بالحقل السياسي اذا اقتضت ذلك حقوق الشخص الاساسية".

(دستور راعوي "الكنيسة في عالم اليوم")

٦. كنيسة فقيرة

لمدة طويلة اعتمدت الكنيسة، في أقطار مختلفة من العالم، على السلطة المدنية وأصحاب النفوذ والمال، متخذة منهم ركائز مكينة تبني عليها مشاريعها ومؤسساتها، مما يضمن لها الانتشار والاستقرار. فتكونت "ايديولوجية البلدان المسيحية" على أساس التضامن المبدئي بين الكنيسة والسلطة الحاكمة، وذلك لمصلحة الطرفين. نعرف ايضاً ان هذا التواجد أدى أحياناً الى تدخل السلطة المدنية، بصورة غير مشروعة، في القضايا الكنسية لارغامها على أن تتماشى وسياستها.

لقد اكتشف المجمع أن خير الكنيسة يقتضي منها أن تضع حداً لهذا الوضع، ذلك لانه لا ينسجم والروح الانجيلية، فضلاً عن أنه يسلب الكنيسة حريتها المستمدة، لا من قوات أرضية، بل من حقيقة كيانها ومعنى رسالتها في العالم. ان كنيسة اليوم تريد أن تكون فقيرة، مجردة، غير متواطئة مع عظماء هذا الدهر، ومتحررة من كل ضغط مادي أو اجتماعي. انها حاضرة في قلب المجتمع البشري، لا لتتسلط عليه وتتحكم بمقدراته وتجلس على كرسي القضاء، بل لتخدم وتعمل من أجل تقدم البشرية وسعادتها. ان تحررها الارادي

من القوات المدنية والمادية جعلها اليوم تعتمد على ايمانها بالله ومعونة الروح القدس الـــذي وعد أن يكون معها الى الأبد.

لا يخلو هذا الاتجاه الجديد من متاعب ومصاعب. وكان لا بد للكنيسة أن تدفع ثمن تحررها اذ فقدت الهيبة السابقة، ولم تعد تنال، كما في الماضي، التبجيل والتوقير. والاكثـــر من ذلك، انها، بعد أن تحررت من ارتباطاتها بالسلطة المدنية، أضحت اليـــوم مضـــطهدة ومرفوضة ومطاردة، كما يجري حالياً في كثير من بلدان أميركا اللاتينية. وبالنتيجة، فـــان كنيسة ما بعد المجمع، بعد أن خرجت من قلاعها المحصنة وخلعت درعها الصلب، أضحت أكثر قوة وأكثر أشراقاً، وأصبح بوسعها أن تبلغ صوتها بشكل أوضح مما في الســـابق. ان قوتها اليوم هي في قدرتها على المجاهرة بالايمان، وعظمتها تكمن في الخدمة النزيهـــة الـــتي تقدمها لكل انسان أيا كان وطنه أو دينه أو لونه أو أيديولوجيته.

وهكذا أضحت كنيسة اليوم كنيسة الحرية والانطلاق. ان انفصالها عـــن مصـــادر النجاح والنفوذ لم يخرجها من المجتمع ولم يعزلها عنه، فهي فيه كطاقة تخمير للعجينة كلها. انها لا تنوي العودة الى الديماميس، بل تريد أن تعيش في وسط العالم، تمارس دورها النبوي، فتنير كل البشرية بضوء انجيل الحياة والخلاص.

أجل، اننا نعيش اليوم ضمن كنيسة حية متجددة، غير أنها لا تزال في بداية الطريق، وعليها أن تسعى دوماً، وبكثير من المثابرة، الى تحقيق كل ما أثاره المجمع المسكوني من وعي ويقظة وما دعا اليه من تغيير وتجديد على مختلف الأصعدة.

الاب خليل قوجحصارلي

الدعوات الكهنوتية؟ موضوع حيوي في حياة الكنيسة ورسالتها وديمومتها... ولقد عرفت هذه "الدعوات" تناقصاً ملموساً على صعيد الكنيسة الجامعة، اثر التحولات الفكرية والثقافية والاجتماعية، بحيث اخذ المؤمنون والمسؤولون يتساءلون: هل سيكون لنا كهنة بعد اليوم؟ ولهذا التساؤل في كنيسة العراق مبرراته عقب ما اصاب المعهدين الاكليريكيين من تعثر، من جرى مسالة "الكهنة والاكليريكيين الجنود"، واغلاق قسم الكبار في معهد مار يوحنا الحبيب، وضبابية الرؤيا بشأن ربط الاكليريكية بوزارة التربية... ومع ذلك لم تتم دراسة ملف "التنشئة الكهنوتية" بشكل جاد، وبنظرة مسؤولة... الاب جرجس القس موسى انكب على هذا "الملف"، في معالجة موضوعية.

الاب (المطران) جرجس القس موسى من مواليد ١٩٣٨. تخرج في معهد مار يوحنا الحبيب ورسم كاهناً عام ١٩٦٢، وهو احد مؤسسي جماعة كهنة يسوع الملك ومجلة الفكر المسيحي. ماجستير علم الاجتماع من جامعة لوفان (١٩٧٩). شغل منصب نائب رئيس التحرير، وترك في الفكر المسيحي بصماته الواضحة عبر باب "همسات" الذي أمنه لسنوات طويلة باسم "ابو فادي" -وقد ظهرت همساته في كتابين (١٩٨٥ و٢٠٠٧)- كما عبر العديد من المقالات (اكثر من ١٢٠)، فضلاً عن افتتاحيات اربعة اعوام (١٩٧٣-١٩٧٦) والعديد من الاجابات... شارك في النشاطات الشبابية والراعوية عبر حركتي الاخوية المريمية والشبيبة الطالبة المسيحية. اسهم في تاسيس مركز الدراسات الكتابية وهو فيه استاذ العهد القديم، وله من اصداراته عدد من "الملفات" ومن الكتب في سلسلة "ابحاث" آخرها "مذكرات مريم" (٢٠٠٩)، فضلاً عن كتب اخرى كثيرة، مؤلفة او معربة... له حضور فاعل في التجمعات والمؤتمرات ولا سيما في مؤتمر الاتحاد الكاثوليكي الدولي في بانكوك باحدى المحاضرات الاربع. انتخب مطراناً لابرشية الموصل للسريان الكاثوليك وتقبل الرسامة الاسقفية في ١٩٩٩/١٢/٩ ومنذئذ انطلق في مهماته الراعوية والادارية المتشعبة التي لم تثنه عن متابعة التعليم والكتابة...

هل سيكون لنا كهنة بعد اليوم لماذا؟ وكيف؟

ليس وقت الآن لننبش الوثائق والوقائع لتحليل مسيرة معاهدنا الاكليريكية في السنوات الاخيرة تحليلاً شاملاً كاملاً، والاطلاع على كل دقائق وأسباب التعديلات والتغييرات التي طرأت، للوصول الى ما آلت اليه الامور اليوم. غير أن ملاحظتنا القريبة ومعايشتنا للتجارب والازمات التي مرت بها تمكننا من القول بأن المعالجات جاءت فوقية وعاجلة، فرضتها الظروف والضرورة الآنية، فكانت ناقصة وعاجزة عن أن تعطي الدينامية اللازمة للحياة. وفي كل الاحوال افتقرت هذه المعالجات، برأينا، الى التخطيط البعيد والتنسيق، على صعيد كنيسة العراق ككل، لا كطوائف، والى الدراسة الجادة التي تعطي للواقع المسيحي في العراق وللتحولات الثقافية والفكرية والاجتماعية في قطرنا ثقلها الحقيقي. لا بل جاءت بعض منها بمثابة "التصليحات" التي تجرى على بيت عتيق بحلول كل موسم شتاء. وقد انفردت بعض الجهات الكنسية العليا بمعالجة الموقف على الطريقة البيروقراطية، فصارت تسلم التلامذة من ادارة الى أخرى، وتقر نظاماً ثم تنسخه بآخر. وبذلك تخرج من مأزق لتدخل في آخر، مما خلق التشويش لدى البعض، وحتى الترك بالجملة لدى البعض الآخر.. الى أن وصلنا الى شبه الفراغ الحالي.. وأمسى ما تبقى من معهدي مار يوحنا الحبيب بالموصل،

ومعهد شمعون الصفا ببغداد، أضعف من أن تعقد عليه آمال المستقبل اذا ما بقيا على وضعهما الحالي.

ولكن لماذا ولمن الكهنة؟

الفراغ، في نظرنا، ليس في غياب الدعوات أو قلتها، فهناك، رغم كل شيء، عدد من الفتيان والشباب لا زال الكهنوت من بين طموحاتهم. وفي معهد الموصل، ٤٥ طالباً، ومثله في معهد بغداد يتابعون دراستهم في المدارس الرسمية. ثم أن الازمة ليست أزمة عدد وحسب. السؤال هو: الى أين يتجهون؟ لماذا ولمن سيكونون كهنة؟ أي نمط من الكهنة نحتاج؟ السؤال جوهري لانه يتعلق بطبيعة رسالة الكاهن اليوم وموقعه في الكنيسة وفي العالم المعاصر.

* موقع الكاهن في العالم المعاصر وفي كنيسة اليوم

كان الكاهن سابقاً يقوم باكراً ويتلو صلاة الفرض الصباحية مع أقرانه أو شمامسته، ثم يقيم الذبيحة الالهية ويعود في ما تبقى من النهار ليستقبل زائريه حول فنجان القهوة المرة والاحاديث المتشعبة، أو ليقوم ببعض زيارات لا تخلو من صلاة على مريض أو بركة على مولود جديد أو سعي في مصالحة. ويعود عصراً الى الكنيسة من جديد لصلاة الرمش ثم يستأنف برنامجه الصباحي. في ما خلا ذلك ينتظر من يدعوه الى تعميذ طفل، أو بركة أكليل، أو دفن ميت فينشغل بشؤون قبره وجنانيزه وتعزية ذويه مدة ثلاثة أيام أو أكثر. واذا قرأ تفسيراً قديماً عن الكتاب المقدس، أو تصفح كتاباً روحياً من وحي القرن التاسع عشر أو ما قبله، أو اذا تصفح جريدة اليوم، أو استمع الى نشرة الأنباء، فهذا كاف لثقافته! وهل لروتين حياته أن يوحي له بأكثر من ذلك؟ وهل لطبيعة أعماله اليومية حاجة الى أكثر من ذلك؟ يفترض فيه التقيد بزيه الاسود ولحيته لأنهما علامة كهنوته وعكاز هيبته! يجب أن يتمسك بتقاليد الاباء الأقدمين ويكون متحفظاً في تصرفاته الى أبعد الحدود: لأنه شخص "يفوق بقية البشر" باعتباره "ممثل السيد المسيح على الأرض"...

هذا النموذج لا يخلو من "السحر"، فهو يجعل من الكاهن "شيخ" قبيلة محترم يزود الناس بما يتسرب من أخبار، واليه يعودون في ما يستعصي عليهم. واذا ساد هذا النموذج زمناً، فانه لم يتلاشَ تماما. ولكنه بالرغم من الجوانب الإيجابية التي يتضمنها –وأهمها الاحتكاك المباشر مع الشعب– فهو نموذج ناقص وعاجز عن أن يؤدي رسالة الانجيل بصورة صحيحة في عالمنا اليوم. ذلك لأن اليوم يختلف تماماً عن البارحة وحضارتنا غير حضارة أجدادنا الذين كانوا يبرمجون نهارهم وحياتهم كلها على دقات النواقيس. لأولئك كهنتهم؛ ولنا –ولأولادنا– يجب أن يكون كهنتنا، بحسب عصرنا وبحسب حاجاتنا. والا لبقي الكاهن –ومن ثم الكنيسة أيضاً– المغترب الأكبر في دياره، و "نبياً" تائهاً في أرض لا تفهمه ولا هو يفهمها.

ولكن ما هي سمات العصر، عصرنا؟
أولى سمات هذا العصر وقمتها:

* تمرد الانسان على واقعه المستغل والمتخلف.

ويترجم هذا التمرد على الصعيد العام بحركة تحرر الشعوب وتصفية الاستعمار، واستلام دول العالم الثالث ثرواتها الطبيعية بيدها تدريجياً، لتحقيق استقلالها الكامل والتخلص من سائر أشكال الوصاية السياسية. أما على الصعيد الفردي، فيترجم هذا التمرد بنزعة التحرر ذاتها التي تدفعه الى اعلان استقلاله الذاتي وتقرير مصيره بنفسه.

ومن السمات الملازمة أيضاً:

* يقظة الوعي القومي والثقافات المحلية الخاصة.
* دخول السياسة والاقتصاد كل ميادين الحياة.
* ظاهرة الاشتراكية، كنظام يطمح الى خلق مجتمع جديد في المساواة والحرية يرسو على مشاركة الكل، أفراداً وجماهير، في كل حياة الوطن النضالية ومقدراته، بما فيها من حلو ومر.
* الشمولية والتضامن. بحيث لم تعد الانفرادية أو الانعزالية مقبولة -لا على صعيد الدين ولا على صعيد العرق أو اللون-، بل ينزع الانسان المعاصر، أكثر فأكثر، الى الانضمام الى نضال أمته، والتضامن مع قضايا البشرية، مع قبول التعددية في الفكر والسلوكية.
* تقلص البعد "الروحي" و "القدسي" و "الاخروي" من حياة المجتمعات، ونعته "بالغيبي" للدلالة على غياب صلته بواقع الحياة البشرية.
* ظهور حضارة جديدة، حضارة الرفاهية والنفعية وتسخير الطبيعة وكل طاقاتها لخدمة الانسان.
* تقديس حقوق الانسان، وأهمها حقه في الحياة والكرامة وفي تقرير مصيره، وفي المشاركة في سلطة اتخاذ القرارات وابداء الرأي.
* الروح العلمية والنقدية التي تدفع الانسان المعاصر الى اعادة النظر في كل "مكتسباته" و"مقدساته"، حتى صار يغربل كل شيء. والدين نفسه سلطت عليه أضواء التساؤل.

هذا هو العالم الذي ينطلق اليه كاهن اليوم.. والغد.

وتزداد رسالته خطورة لعاملين أضافيين، أولهما لانه هو نفسه يبحث عن هويته في هذا الخضم، وثانيهما لان الكنيسة التي ينطلق منها، هي الاخرى في حالة مخاض وبحث عن الأصالة، في أفرادها ومؤسساتها، لا سيما بعد المجمع الذي كان بمثابة نقد ذاتي شامل قادها الى:

- التخلي عن الهالة الامبراطورية التي كانت تغلفها، والتحيز لدور "الام والخادمة" في سبيل إيصال البشرى للناس.
- إعادة "القدسية" الى المادة ورد الاعتبار الى كل القيم الانسانية و "العالمية" التي تساعد الانسان على تحقيق ذاته، والتضامن الفعلي مع نضال الشعوب لبناء عالم أفضل يسود فيه العدل والاخاء والمساواة.
- الخروج من برجها العاجي لتحاور الاديان الاخرى وتنفتح حتى على الملحدين وغير المؤمنين وعلى جميع ذوي الارادات الصالحة.
- اكتشاف الكنائس الشقيقة بحنين، والسعي لازالة كل العوائق في طريق الوحدة المنشودة—وهذا لا يتم بالانعزال والاكتفاء الذات.
- إعادة تقييم مفاهيم "السلطة"، و"المسؤولية"، و"الوحدة" الفكرية والايمانية، و"القوانين" الكنسية والرهبانية، و"النظم الليتورجية"، وحتى الزي الكهنوتي... واخضاعها كلها لبوتقة التجديد والتغيير، سيراً مع حركة الحياة...
- فتح صفحة جديدة من العلاقات بين الأساقفة وكهنتهم. فقد أسقط المجمع التعبير الذي كان ينعت الكهنة "بأبناء" لاسقف هو "أبوهم"، واستبدله بتعبير "المعاونين والأصدقاء والاخوة": "ليعتبر الأساقفة أن الكهنة قد أصبحوا ضرورة، بحكم موهبة الروح القدس المعطاة لهم بالسيامة الكهنوتية، معاونين لهم ومساعدين. على الأساقفة، من أجل الوحدة في الكهنوت عينه وفي الخدمة، ان يعتبروا الكهنة كاخوة لهم وأصدقاء (قرار في خدمة الكهنة رقم ٧).
- دعوة العلمانيين الى ممارسة حقهم الطبيعي الفعال في حياة الجماعة المسيحية، جنباً الى جنب مع أخوتهم الكهنة، وابراز دورهم كخميرة المجتمع وبناته.
- الاعتراف بحرية الانسان في اختيار قناعاته، وحتى دينه...

واذا كنا نعلم بأن الكنيسة انما تتجسد في أرض معينة وشعب معين، وبأن الكهنة هم رسلها الاوائل وروادها، وجب أن يتفاعل هؤلاء مع معانيات هذا الشعب وطموحاته.

من هنا نستنتج ان الكاهن الجديد (المعاصر) لن يكون، في العراق الجديد، رسولا حقيقياً للانجيل، ولا ابن كنيسة المجمع، إن لم يتحسس نضال وطنه ويلتزم قضاياه القومية في إطار رسالته الخاصة، ومن منطلق الانجيل دوماً.

ان هذه النقاط لا تشكل الا مؤشرات للمناخ الذي فيه يحيا الكاهن المعاصر رسالته، مناخ لا يمكن الا أن يتفاعل معه ويتحاور مع قيمه، إن هو أراد أن يشهد لانجيل يسوع. أوَليست دعوة الكاهن تلخص هذه الشهادة لانجيل يسوع وشخصيته وللقيم الروحية والالهية التي جاء بها في إطار دعوة الناس الى بنوة الله، وجعل الله حاضراً في مجتمع البشر (عمانوئيل=الله معنا)؟ فحقل رسالة كاهن اليوم هو هذا العالم كما هو الان، وكما سيكون غداً، وليس كما كان البارحة، وهو هذه الكنيسة المتحركة، المتجددة. وكلاهما

نسيج غير مكتمل وطموح يجب أن يساهم الكاهن في تحقيقه كل يوم، بالالم والتوقع.

لقد شرّع المجمع أبواب الكنيسة ونوافذها لرياح الدنيا الأربع، ونحن شهود على ان هذا التشريع، اذا زودها بالهواء النقي، على حد تعبير يوحنا الثالث والعشرين، فانه لا يمر من دون القاء بعض "الفوائض" والاثاث العتيق من النوافذ، تماماً كما يحدث لدى اعادة ترتيب البيت. ولكن تلك علامة صحة وحياة.

كيف يُهيأ هذا الكاهن الجديد؟

في هذا القسم من بحثنا نورد رؤوس نقاط لا تدعي أنها حلول جاهزة، بل نطرحها كمؤشرات أمام الجماعة المسيحية كلها للدرس وابداء الرأي. لأننا نؤمن أن قضية مستقبل الكهنة في بلادنا هي ذاتها قضية مستقبل الكنيسة عندنا، وهذه مسألة تهم المسيحيين كافة، وليس السلطة الكنسية فقط.

مما لا شك فيه أن الكاهن، كالطبيب، لا تكتمل ثقافته "المهنية"، ان صح القول، ولا يبلغ "ملء قامته" الكهنوتية، بحسب تعبير القديس بولس، يوم رسامته الكهنوتية. فازاء عالم متغير كهذا، وازاء كنيسة متجددة، يجب أن يجدد ذاته باستمرار، بالمتابعة وينتبه الى التيارات الفكرية والمسلكية المستجدة، وذلك عن طريق المطالعة والمؤتمرات أو الدورات الهادفة والحلقات الدراسية، بغية تجديد معلوماته اللاهوتية والكتابية وتطوير روحانيته.

أما في ما هو من صيغ التهيئة الكهنوتية المباشرة، فهناك ثلاث:

* صيغة أولى: الاكليريكيات

وهي الصيغة المتبعة الى الان، ولكنها بحاجة الى اعادة نظر جادة على ضوء كل ما تقدم، وعلى ضوء وضعها الدراسي الجديد في المدارس الرسمية. هذا ما فعلته بعض اداراتها، ولكنه تجربة ينبغي أن يعاد بناؤها باستمرار. أما عن تقسيم الاكليريكية الى مرحلتين، صغرى *(Petit Séminaire)* وكبرى *(Grand Séminaire)*، فاننا، اذ نؤيد ضرورتها واستقلالية كل منها روحاً وإدارة، لا نرى مدى نجاح الصغرى من دون الكبرى. انها كالجدول الذي لا مصب له.. فتتشتت مياهه حتما. واذا كان لا بد من الاختيار بين الاثنين، فاننا نفضل بالأحرى الكبرى.

* صيغة ثانية: انشاء معاهد كبرى

يقصدها الشباب الراغبون في الكهنوت من مرحلة الدراسة الثانوية، أو الجامعية، أو من الخريجين. يتبعون دراستهم الرسمية ويعودون الى المعهد حيث ينعمون بجو يؤهلهم للرسالة الانجيلية والحياة الكهنوتية. ويستفاد من العطل للتثقيف المسيحي المركّز، تضاف اليه سنتان بعد التخرج من الجامعة للتفرغ للدراسة الكهنوتية، ثم الرسامة. وهذه الصيغة التي

تدخل في باب الاقتراح بخريجين يوجد ما يماثلها في كنيسة مصر القبطية الارثوذكسية، حيث يتجدد الاكليروس تدريجياً ويتطعم بخريجين جامعيين.

وطلاب الكهنوت هؤلاء، سواء جاءوا فتيانا، كما في الصيغة الاولى، أو شباباً كما في الصيغة الثانية، يجب أن ينعموا بتربية كهنوتية منفتحة ومسؤولة تستند الى نضوج انساني وكنسي يمكّنهم من حمل الرسالة الكهنوتية بكفاءة ووعي. ولا ينبغي أن يُربَّوا في "أوعية مغلقة" كما يقال، أعني في أجواء تعزلهم نفسياً وفكرياً عن العالم الذي سيذهبون اليه. يقول القرار المجمعي في "التنشئة الكهنوتية": عليهم (طلاب الكهنوت) "الحصول على معرفة الانسان والعالم والله معرفة راسخة ومنسجمة، آخذين بعين الاعتبار الابحاث الفلسفية المتطورة لا سيما تلك التي تترك أكبر الأثر في بلدانهم الخاصة الى جانب التقدم العلمي الحديث. وهكذا اذا ما تفهم الطلاب عقلية العصر تفهماً صحيحاً، أصبحوا معدين اعداد موفقاً للحوار مع معاصريهم". كما ينبغي ان يكونوا على اطلاع مستمر بحياة الكنيسة الجامعة وفي أحتكاك مباشر مع مراكز الحركة والرسالة في كنيستهم المحلية، ليتدربوا على العمل ويختبروا أنفسهم: "يجب أن يطلع الطلاب على المهام التي سيتحملونها دون أن تخبأ عنهم صعوبة من صعوبات الحياة الكهنوتية" (قرار في التنشئة الكهنوتية رقم ٩). أما التنشئة الروحية، فيجب أن لا تنحصر في التمارين التقوية، بل أن تنمي فيهم روح الصلاة الشخصية والنضج الروحي المرتكز على الانجيل.

وغني عن القول أن مثل هذا الأعداد يتطلب مربين مختصين ومنفتحين، يكونون أصدقاء لا أوصياء، كفوئين من النواحي العلمية والانسانية.

* صيغة ثالثة: رسامة متزوجين كبار

ممن تتوسم فيهم الجماعة المسيحية المؤهلات الانسانية والاستعداد الفكري والروحي الى جانب الرغبة والسخاء في أداء الخدمة الكهنوتية؛ ويأتي هؤلاء من بيئات مختلفة كالوظيفة أو العمل الحر، اما بالنسبة لاعدادهم الكهنوتي، فيجب ان يكون جاداً لا يقل عن سنتين، لتلقّي الثقافة اللاهوتية والكتابية والكنسية الضرورية.

هذه الصيغة ليست بغريبة عن كنيستنا، أنما الاعداد لها كان دون المستوى المطلوب. اما بالنسبة للمرشحين من سن التقاعد، فينبغي، في نظرنا، ان يكون ذلك استثناء، لان الكهنوت لا يجوز أن يكون "ارض الراحة"، ولا يمكن ان يقوم بأعبائه، بحسب المنظور الذي رسمناه، من بلغ شوطاً من العمر.

من هنا نأتي الى طرائق حياة الكهنة:

اننا نتعمد أن لا نثير هنا طرائق عيش الكهنة من النواحي المادية، فقد فعلت المجلة ذلك غير مرة. انما نتحدث عن طرائق أداء الرسالة الكهنوتية وامكانية تعددها.

لقد بقيت صورة الكاهن عالقة في أذهان الناس بذلك النموذج التقليدي الذي أشرنا اليه أعلاه: رجل القداس والزيارات و "توزيع الاسرار"، وما خلا ذلك فمشكوك في سلامته وغير محبذ –اللهم الا اذا علّم التعليم المسيحي في المدارس. اما نحن، فنرى اربعة نماذج رئيسية يمكن للكاهن في كنيسة اليوم ان يؤدي رسالته في اطارها:

نموذج (١): كاهن متفرغ

كل وقته للخدم الرعائية والنشاطات الكنسية والروحية أو الرسالية المباشرة، ولا يزاول أي نشاط اخر خارجاً عن اطار المؤسسة الكنسية. وهذا هو النموذج السائد، ويجب أن تبقى له الأفضلية.

لا شك ان الكنيسة بحاجة الى كهنة متفرغين، وأن الخدمة الكهنوتية يمكن أن تملأ حياة برمتها. ولكن الذي يحدث الان هو أن هناك كهنة مثقلين بزخم من الاعمال الرعائية ومختلف أوجه الرسالة والانشطة وشؤون الاوقاف، وغيرهم لا يقتلون ضجرهم وفراغهم الا بقراءة الصحف وأحاديث الدواوين، ويكاد "عملهم الكهنوتي" يقتصر على قداس الصباح وشؤون الاكليل ودفن الموتى وعماذ الاطفال وتزويد الناس "بالشهادات". وهذه امور لا تشغل الا جزءاً من نهار الكاهن. والكاهن في مثل هذه الحال يبدو مرتزقاً خسيساً وطفيلياً ثقيلاً. ألهذا ترك كل شيء وكرس شبابه يوماً؟ هناك إذن سوء توزيع وتنظيم وعدم شعور بالمسؤولية لا يحاسب عليه.

نموذج (٢): التزام جزئي بالعمل.

نموذج (٣): التزام كامل بالعمل.

الى جانب الكاهن المتفرغ، نحن بحاجة الى كهنة يطرقون ابواب العمل اليدوي أو الوظيفي، جزئياً أو كلياً، ويحملون رسالتهم الكهنوتية وشهادة الانجيل حيث يعملون، في الورشة، أو المعمل، أو المكتب... وحينما نقول :جزئياً" نقصد ان يخصص الكاهن جزءا من وقته للعمل (نصف دوام مثلاً أو "أوفرتايم" فقط)، و"كاملاً" بمعنى أنه يعمل طيلة فترة العمل (دوام كامل) ويخضع لأنظمته كأي عامل أو موظف دائمي اعتيادي.

الى وقت قريب جداً، لم يكن لنا، الى جانب النموذج التقليدي (الاول) للكاهن، سوى الذي يعلم التعليم المسيحي في المدارس، الا أن حالات جديدة طرأت منذ مدة، حيث رأينا بعض الكهنة يشتغلون في شركات أو مؤسسات شبه رسمية أو يدرسون في الجامعة مواد لا تمت الى الدين بصلة. وقد رافق هذه التجارب الاستغراب أو الاستنكار.. أو القبول بحذر. أما نحن، فنؤيد تجربة العمل (الكلي أو الجزئي) للكاهن، ليس في التدريس فقط، بل في كل مرافق العمل والوظيفة. ففي نظرنا تقدم هذه التجربة للكاهن عمقاً انسانياً وخبرة شخصية لقيمة العمل، وتجعله في احتكاك مباشر مع معانيات الناس، فيتحسس قضايا المجتمع

بصورة أدق. هذه التجربة تغذي سخاءه الكهنوتي وتدعم روحانيته الانجيلية.

ولكن لكي تكون هذه التجربة سوية وانجيلية، لنا فيها ملاحظتان:

- الاولى: أن تتم بالتنسيق مع الاسقف، مع الأخذ بعين الاعتبار عدد الكهنة الموجودين وطبيعة العمل الجديد، ولا تكون مطلقاً خطوة فردية أو انهزامية.
- الثانية: أن يبقى الكاهن "العامل" في تصال طبيعي مع الكنيسة، ويستغل أوقات فراغه وعطله وقابلياته للرسالة والنشاطات الانجيلية المباشرة، كالخدم الخورنية، أو العمل مع الشبيبة، أو القاء المحاضرات، أو الكتابة والتأليف، أو الارشاد... بذلك يكون عمله منطلقاً انجيلياً، ويوفر له توازناً انسانياً، ولا يكون مجرد باباً للكسب، والا خرج هذا العمل عن اطار "الكهنوت". وهذا الكاهن "العامل" لا يستطيع حفظ توازنه الروحي من دون حياة ترتكز على الصلاة والانجيل والأوخارستيا.

نموذج (٤): الاختصاص

يكاد الكاهن عندنا يكون كقيّم البيت الذي يجب أن يلم بجميع المهن، ويلبي جميع الطلبات المستعجلة. فهو خوري الرعية ومحاسب الاوقاف، والمدرس والمعمار، والمؤرخ والمخرج، والواعظ والمدبر... اننا لا نقول بان على الكاهن أن يتروي في مرفق ويتجاهل كل ما سواه، غير أن لتنظيم العمل الانجيلي ونجاحه ولضرورة الاستفادة من القابليات والاختصاصات المتوفرة، ينبغي الاخذ، أكثر فأكثر، بمبدأ التخصص: فيتجه هذا، بصورة رئيسة، نحو التثقيف المسيحي، وذاك نحو العمل مع الشبيبة، والثالث يختص بالكتاب المقدس، والاخر بالصحافة والنشر، وغيره بالتجديد الليتورجي، أو حتى في الحقول العلمية المدنية والادب الخ... من هنا أيضاً تأتي ضرورة التخطيط في ايفاد الكهنة الشباب للتخصص في الخارج بحسب حاجات الكنيسة وظروف القطر وتطوير القابليات.

اما الآن فنأتي الى موضوع شائك، ألا وهو موضوع "الكاهن والزواج".. وما نضعه من أفكار هنا، نريده يخضع للمناقشة والتفكير الجدي:

لقد استأثرت هذه المسألة بأهمية خاصة، في السنوات الاخيرة، لا سيما في الكنيسة الكاثوليكية، لسببين أولهما قلة الكهنة، وثانيهما الاعداد الكبيرة (تقدر ببضعة آلاف) من الذين يهجرون الخدمة الكهنوتية. وجاءت معالجة الكنيسة الرسمية رافضة لأي تساءل أو تفهم، بل احتفظ البابا لنفسه بمسؤولية دراسة الموضوع والبت فيه. وكان الحل الوحيد "للكاهن المتزوج" أن يعفى من الكهنوت ومن العمل في المؤسسات الكنسية ويحال الى الحالة العلمانية. وهكذا خسرت الكنيسة أعداداً هائلة من الكهنة –ومنهم مفكرون ولاهوتيون– كان بالامكان الاستفادة منهم. ويذهب البعض الى التساؤل من حيث المبدأ: لماذا لا يجوز الزواج بعد الكهنوت مع الاستمرار على الخدمة، ومن دون اللجوء الى "الاحالة" على الحالة العلمانية، طالما ان لا مانع لاهوتياً هناك؛ فما هو مجرد قانون كنسي يمكن رفعه بارادة كنسية مماثلة.

ولكن، ما هي الاسس اللاهوتية والكتابية التي بموجبها لا يمكن الجمع بين الكهنوت والزيجة؟ - لا يوجد. ان "العزوبية الكهنوتية" مجرد اجراء كنسي، اذا لاءم حقبة تاريخية، قد لا يلائم غيرها، ويمكن اعادة النظر فيه. واذا كان لا يوجد أي تناقض انجيلي بين الحالتين، فهل يجوز فرضه بالقوانين والروادع؟ ومن أجل ماذا؟ الكاهن المتزوج "معضلة اقتصادية": ولكن هل هذا سبب كاف لاستبعاد القبول بالفكرة؟

يقولون بأن العزوبية تحرر الكاهن كي يتفرغ لرسالته بصورة أفضل. نحن لا ننكر أيا من قيم البتولية والسخاء الانساني الكبير الذي يحمله عزوف الكاهن عن تكوين الاسرة من أجل ملكوت الله، ولكننا نرفض أن ينظر اليها --كما يفعل الكثيرون- كما الى مجرد رادع خارجي يسهل تطويع الكاهن، تماماً كما يعتبر البعض الزواج رادعاً يقي الشاب من المزالق. ان حالة العزوبية تحرر الكاهن من الجوانب المادية والاقتصادية للزواج، ولكن هل تحرره حقاً -ودائماً- من العقد النفسية والكبت والانطواء والعزلة التي قد تطفو على السطح يوماً: أي من هذه الاشياء يكبل رسالته بالاكثر؟! ألا تقدم الحياة العائلية للكاهن توازنا نفسياً وعاطفياً هو أحوج من غيره اليه؟ هل يجوز أن نتجاهل الانسان في الكاهن؟

نحن لا نقول بان الزواج للكاهن سيقضي على كل مشاكله، (هناك مشكلة طبيعة العلاقة بين الاسقف وكهنته مثلا: نضرب صفحا عنها الان) وأنه الحل الوحيد. أنه سيبقى ككل حل، جزئياً، ولكنه مهم، وللأخذ به يجب شجاعة كبيرة وثقة بالروح القدس. فطبيعي ان الدعوات لن تتضاعف لمجرد السماح بكهنة متزوجين أو بزواج الكهنة (مثال الارثوذكس والبروتستنت). ان الكاهن، متزوجاً كان أم أعزب، لا يستطيع أن يعيش كهنوته بصدق، ان لم يرتكز على ايمان قوي وعلى حياة روحية عميقة ونضج انساني كاف. ان الكهنوت قضية حب ودعوة الى التزام، وكل التزام نضال وتضحية، لذا فاننا لنقول بأن أكبر دعاية للكهنوت هو الكاهن السعيد الذي يشع الفرح والمحبة والنشاط.

فما نقترحه هو اذن:

١) القبول بفكرة امكانية وجود حالتين من الكهنوت: كهنة متزوجون وكهنة عزاب. وينبغي أن يكون ذلك على قدم المساواة في الكرامة والالتزامات الانجيلية والثقافة، وإزالة أي شكل من أشكال الطبقية في الاكليروس.

٢) إعطاء الحرية الكاملة للاكليريكيين قبل رسامتهم أن يختاروا الكهنوت من دون زواج، أو الكهنوت مع الزواج. ان الحرية في الاختيار تجعل الالتزام الكهنوتي أكثر نضجاً وأوفر حظاً في الصمود أمام التيارات المعاكسة. فضلاً عن أن هناك شباباً يشعرون برغبة جادة في الكهنوت، ولكن ضمن الحياة الزوجية. ونحن الشرقيين أسهل علينا العودة الى تقليد عريق كان تقليدنا.

هذه دراسة نسوقها، علها تساهم في القاء بعض الضوء على مشكلة، قد لا نحس بخطورتها اليوم في كنيسة العراق، لوجود عدد لا بأس به من الكهنة بعد، ولكنها على الأبواب.

الاب جرجس القس موسى

في عدد خاص عن كنيسة العراق، كان لا بد من التطرق الى بعض جوانب الالتزام بالواقع الاجتماعي/السياسي، وعلى الصعيدين الوطني والقومي، العراقي والعربي... فكان مقال الاب ميخائيل جميل -وله في العدد ذاته "لمحات من تاريخ كنيسة ما بين النهرين" - دعوة الى الالتزام. ذلك لان على كنيستنا -وهي في بقعة من الارض تُعدّ مهد الحضارات ومهبط الوحي- ان تعي بان لها من تاريخها المجيد دافعاً الى اندماج اكبر بواقع الامة العربية، ومن انجيلها محركاً لدور نبوي تلعبه في حركة التحرير والبناء، وعلى اكثر من صعيد: دور يتخطى مواقف التأييد ليتبنى موقف الالتزام بقضايا الانسان العربي وطموحاته، وهو حق له عليها، هي التي يجب ان تؤدي الشهادة لانجيل الحرية والعدالة والمحبة.

الاب (المطران) ميخائيل جميل من مواليد ١٩٣٨، تخرج في معهد مار يوحنا الحبيب ورسم كاهناً عام ١٩٦٤ وانتمى الى جماعة كهنة يسوع الملك/ اخوة الحياة المشتركة. عمل كاهن رعية في كنيسة الطاهرة وبرز في خدمة الاخوية المريمية ونشاطات اخرى، وكانت له مساهمات في الفكر المسيحي، سلسلة ومجلة. وبعد دراسة الفلسفة وعلم النفس (١٩٧٤-١٩٧٦) في جامعة تولوز بفرنسا، تسلم امانة سر البطريركية السريانية، وانتخب اسقفاً معاوناً عام ١٩٨٦. وهو منذ ١٩٩٧ المعتمد البطريركي لدى الكرسي الرسولي في روما -حيث تابع الدراسة وحصل على شهادة عالية-، كما تعين عام ٢٠٠٢ زائراً رسولياً لسريان اوربا.

الكنيسة في الواقع العربي -دعوة الي الالتزام-

*الكنيسة نداء الروح في عالم اليوم

الكنيسة شعب الله وجماعة ايمان ورجاء ومحبة، تعيش وحدة مرئية من أجل تحقيق ملكوت الله. انها واقع بشري يتمتع بكل المقومات والابعاد البشرية والحضارية، ويسجل التاريخ وقائعها ضمن حدود المكان والزمان. فهي، وان لم ترتبط بأية سياسة أو حزب، تحمل وتتبنى حضارة الموقع الذي هي فيه، وتتفاعل مع معانيات المجتمع البشري وطموحاته كلها.

"ان آمال وأفراح البشر، في زماننا هذا، أحزانهم وضيقاتهم، وهل من شيء انساني حق الا ويرن صداه في قلوبهم؟ فجماعتهم تتألف من بشر يجمعهم المسيح، ويقودهم الروح القدس في سيرهم نحو ملكوت الاب. انهم يحملون رسالة خلاص عليهم أن يعرضوها على الجميع. ولذلك تعترف جماعة المسيحيين بتضامنها الحق والوثيق مع الجنس البشري وتاريخه". (دستور راعوي "الكنيسة في عالم اليوم" رقم ١).

والكنيسة، مع كونها مؤسسة بشرية لها قوانين ومراسيم وتقاليد ومؤسسات، لكنها تنبض بايقاع الروح الذي يحييها ويمكنها من أن تمارس رسالتها بوحي انجيل يسوع، ساعية الى تسليط أضوائه على سلوكيتها وعلى تعاملها مع كل انسان ومع البشرية جمعاء.

فما يجب هو أن تجتاز الكنيسة حدود التأييد الى مواقف الالتزام وتبنّي كل ما هو انساني وعادل لتنسجم سلوكيتها مع رسالتها النبوية المفعمة دينامية وأملا، فتضخم مسيرة أولئك المناضلين من أبنائها الذين يقودون حركة التحرير في أميركا اللاتينية وغيرهـا مـن بلدان العالم الثالث.

الكنيسة مدعوة اليوم، اكثر من أي عهد مضى، الى نكران ذات مستمر، لتتسع، وباستمرار، لكل الرؤى والامكانات، وتكتسب مرونة أصيلة لتتجاوب مع الواقع المتبـدل من حولها، ولا تخاف من مخالفة تيار الاغراء في الابقاء على النظم المتصلبة المتجمدة. دعوتها أن تنطلق، حيث يشاء الروح أن يهب، في عملية متواصلة من أجل تفكيك البنى واعـادة تركيبها بما يناسب الانسان في المكان والزمان، وذلك في حياتها الداخلية وفي انطلاقتها نحو العالم. فلا تتردد من أن تنبذ كل ما لم يعد ينفع لتأدية رسالتها، أو يعيقها. فالبنى الصحيحة للحياة الكنسية نجدها حيث تتحقق "الانسنة" لانسان اليوم.

لقد آن الأوان أن تعيش الكنيسة، مؤسسات وأفراداً، رعاة ومـؤمنين، واقعهـا التاريخي بروح النبوة. فاذا كانت الكنيسة امتـداداً ليسـوع، فيسـوع "جـاء ليخـدم لا ليخدَم، ويبذل نفسه فداءً عن كثيرين" و "لتكون لهم الحياة والحياة الفضلى".

* الكنيسة في الشرق العربي

اذا كان العالم ينقسم الى مواقع وشعوب، فان عمل الكنيسة —ما دام الانسـان موضوعه— لا بد ان يعانق كل موقع وكل شعب حيث هما في الواقع. أأفريقيا كان هذا الواقع، أم أوربياً أم أمريكياً، فالمسيحي يتبناه في كل مستوياته وأبعاده الحضارية وقضاياه الانسـانية العادلـة. أمتخلف هو الانسان في هذا الواقع؟ فالمسيحي يعمل، من منطلق التزامه الانجيلي على إزاحة الفقر عن كاهله، والجهل عن بصيرته، والاستغلال عن أرضه ومقدراته، ويقضـي علـى العنصـرية بالمساواة، وعلى الاستلاب بالتحرر، وعلى كل أشكال التخلف بالتقدم والبناء.

وكما في أفريقيا وأوربا وأمريكا، كذلك في العالم العربي. فالعروبة موقع من مواقع الوجود الانساني، وأمة لها حضارتها المميزة، وتاريخ جمع أقطاراً في مصير واحد، وصهر فيها الثقافات والتقاليد المتنوعة وجعل منها تراث شعب واحد ينبض بمعانيات واحدة وطموحات مشتركة.

وفي هذا الموقع العربي بالذات سبقت الكنيسة المشرقية فادت شهادة رائعة عـن حيوتها ونشاطها وتضامنها خلال العهود الاموية والعباسية، يوم كانت جسراً ناقلاً للعلـم والحضارة وعملت على صهرها في عبقرية شرقية عربية. فقد برز فيها كثيرون ممن لعبـوا أدواراً فعالة —وأحياناً رئيسة— في دور الخلفاء ومدارس الفلسفة ودواوين الثقافة والفـن، وحتى في أروقة السياسة والمال، من مثل عائلة حنين المترجمين، وعائلة بختيشوع الاطباء في

البلاط العباسي، ومن مثل سرجيوس المعتمد المالي ورئيس ديوان المال للجيش العربي وابنه يوحنا الدمشقي أمين خزانة عبد الملك ورئيس المستشارين لدى الخليفة... وغيرهم كثيرون ممن التزموا، بدافع ايمانهم، قضايا الامة وشؤونها، ودعموا التزامهم بقوة الايمان والامانـة، وعملوا على رفع شأن الثقافة والحضارة العربية واذكاء حركة العلم. فمدرسة الحكمة ومكتبتها الشهيرتان ببغداد خير شاهد لحركة التعليم والنقل والتعريب في ذلك الزمان. أجل لقد لعبت الكنيسة بالامس دوراً حضارياً بارزاً وكانت عنصراً يرفع الجسبين في التضامن والاخاء والاندماج حتى التفاني. ولا بد لنا من مواصلة هذا الدور، فنربط جيلنا بجيل بني أمية والعباسيين يوم كان الاسقف ابو قرة يجالس الخليفة المأمون، ويوم كان البطريرك طيمثاوس يتحاور والخليفة المهدي في بغداد، فنعطي لذلك الترابط مفهوماً معاصراً أكثر عمقاً وابعد التزاماً، وفق ما يتطلبه عصر الثورة الفكرية والعلمية والاقتصادية، وما يواكبها من استفاقة ووعي لبناء المجتمع الجديد الافضل. ذلك ما دعا اليه المجمع المسكوني أيضاً:

"ان من واجب الكنيسة... أن تتفحص في كل آن علامات الازمنة وتفسرها في ضوء الانجيل فتستطيع أن تجيب بصورة ملائمة لكل جيل على أسئلة الناس الدائمة حول معنى الحياة الحاضرة والمستقبلة وحول العلائق القائمة بينهما. فانه من الاهمية بمكان أن نطلع على العالم الذي نعيش فيه ونفهمه مع ما يحمل من أشواق ورغبات". (دستور راعوي "الكنيسة في عالم اليوم" رقم ٤).

* مساهمة الكنيسة في حركة النهضة العربية المعاصرة

ان الحضارة الحديثة والثورة المعاصرة تنعكسان علينا اليوم في كل تضاعيف حياتنا، وتسيلان في وجودنا كله. فنحن في "حالة ثورة" يجب -اذا اردنا ان لا نكون مغتربين وغرباء عن بيتنا- أن نواكب مسيرتها، بل ان نستبق الاحداث لنهيئ ذواتنا وذهنيتنا للمساهمة الجادة والفعالة في بناء وتثبيت دعائم هذا المجتمع الشرقي العربي. هذا المجتمع مجتمعنا، وترابه ترابنا، ومصيرنا مرتبط بمصيره، ونأبى أن نكون فيه الا من ابناء البيت الاصيلين. ولن يستقيم وجودنا الانساني، ما لم نتمكن من أن نستعيد، في لغة شعبنا اليوم، تراث آبائنا، ومنجزات الفكر الانساني فتتفجر الامكانات وندفع من جديد شعبنا صوب أهدافه في العدالة والحرية والاستقلال، الاقتصادي والسياسي، ونبعث شخصيتنا المميزة بين الامم. من أجل هذا الهدف بالذات قرنت أمتنا الاشتراكية بالقومية. فالاشتراكية طموح الى مجتمع جديد، سيد، أبي، وحر، يرسو على أسلوب العمل الجماعي بدلاً من العشائرية والطائفية والاقطاعية وغيرها من البنى البالية الانانية.

والكنيسة، كالثورة، اذا كانت مرتبطة بالشعب بكل فئاته، فهي تنحاز للفقير

والمظلوم والمستلبة حقوقه، لتعيد الى الجميع كرامتهم وحقوقهم. انها تمزج بين المحبة والعدالة، وبالعنف الثوري الكامن فيهما اذا تطلب الامر، فهي كالمسيح وديعة تجاه الضعفاء لا تهادن العقلية التجارية ولا تساوم مع الاستغلال.

وبدافع من هذه القناعة الجوهرية، هبّ أبناء منها، فادوا شهادة الحق من أجل هذا الوطن وما يزالون يناضلون متضامنين مع جميع ذوي النيات الحسنة في عملية النهضة العربية وتحرير الانسان العربي. كثيرة هي تلك الاسماء وغير خافية على المطلعين، ولكن الكنيسة كمؤسسة، وفي سلطتها الادارية، بقيت في كثير من الاحيان في مواقف حيادية أو تأييدية مع نوع من التحفظ، اللهم الا بعض الاسماء البارزة كالمطران كبوجي والمطران جورج خضر وكيرلس حجار وبضعة غيرهم. غير أن هذا لم يعد يكفي... وهذا التحفظ من جانب الكنيسة المؤسسة قد يكون مبعثه الخوف من ان التغيير الجذري في مواقفها وسلوكيتها يذهب بها في مجاهل مستقبل لا تعرف ما ينطوي عليه من مفاجآت. غير أن خوفها من المجازفة يحرمها في الوقت ذاته من تحقيق الوحدة بين واجبها في التنديد بالمظالم وبين مهمتها في التبشير بالمحبة والعدالة.

يجب أن تنفتح كنيستنا الشرقية لجميع قضايا الانسان العربي المعاصرة وتتحرك باتجاه الساحة حيث تتفاعل وتتضافر كل الجهود الطيبة في انطلاقة تقدمية هدفها أن تعتق الانسان من مخلفات الماضي وكبوتاته، وتشق طريقاً رحباً أمام قابلياته وطموحاته، فيحقق ذاته في الحرية والعدالة.

فاذا كان بلدنا اليوم يطمح الى أن يقدم للمجتمع كل سبل العيش الكريم ويحقق آماله الواسعة ويوفر مجالات العمل للجميع، اذا كان يطمح الى أن يبني واقعاً جديداً، بعيداً عن الفئوية، منفتحاً، وطناً للجميع، أفلا يجدر بالكنيسة المسيحية أن تضم جهودها وجهود جميع أبنائها الى جهود كل العاملين الطيبين في هذا الوطن مهدنا وأرض طموحاتنا.

الاب ميخائيل جميل

٤ البابا بولس السادس

السنة الرابعة عشرة: أيلول ١٩٧٨

الفهرس

• افتتاحية: مات البابا!	رئيس التحرير
• ملامح...	ايف كونكار
• البابا بولس السادس في سطور	...
• البابا الراحل في الصحافة العالمية	...
• بولس السادس، رجل الرجاء في عصرنا	أ. لويس ساكو
• بولس السادس كما يراه الاب كونكار	ايف كونكار
• الحركة المسكونية في مفهوم البابا بولس	فيه بوبير
• المنبر الحر: من سيخلف البابا الراحل؟	أ. بيوس عفاص
• الملف: الاباء والابناء في حوار	ماهر حني
• همسات: استغاثة حمار	ابو فادي
• انباء	...
• مجرد فكرة	هفلر

"وجه بولس السادس يبدو للحال، إن لم اقل قاسياً، فأقله جدياً الى اقصى حدود الجدية... ان ما جذب انتباهي فيه هي شدة انتباهه إلى الآخر..."! كتبها ايف كونكار احد ابرز لاهوتيي المجمع الفاتيكاني الثاني الذي افتتحه البابا يوحنا ٢٣ وترك لخلفه بولس السادس مهمة الاشراف على حسن سيره فجنى ثماره اليانعة. مجمع كان منعطفاً هاماً في حياة الكنيسة، وما زالت توجهاته فاعلة في جنبات الكنيسة الجامعة...

كان لا بد **للفكر المسيحي** ان تخص هذا الوجه الكبير بعدد خاص ظهر بعد وفاته بشهر(!)، فرسم بعض ملامحه وتوجهاته، والمسكونية منها بنوع خاص... وسيبقى اللقاء الكبير بينه وبين البطريرك المسكوني اثيناغوراس، في القدس عام ١٩٦٤، فاتحة مسيرة طويلة من التلاقي والحوار بين الكنائس.

(...) فكان على البابا بولس أن يواصل المسيرة بذكاء ودهاء وشجاعة، مقرونة بالحزم والفطنة معا. لقد عرف بولس السادس كيف يقود الكنيسة في طريق التجدد، بحزم لا يعرف التراجع، ازاء أولئك الذين خرجوا بعد المجمع في شبه وحشة على الماضي، فانقلبت مخاوفهم من التجدد إلى حرب ضده؛ وقادها بفطنة عرفت أن تحد من اندفاع أولئك الذين شاءوا للكنيسة قفزات سريعة لم تكن مهيأة لها...

واليوم، يعترف له العالم اجمع انه أنجز العمل الذي كان البابا يوحنا قد بدأه -المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني- فرعى، بشجاعة منقطعة النظير، البذرة التي زرعها سلفه، وأنماها وحصد ثمارها، وسيبقى اسم بولس مقترنا بالمجمع وما نتج عنه من تغييرات في حياة الكنيسة. كما سيبقى البابا الراحل نموذجا للرسول الذي دفعته غيرته على انجيل المسيح -وكان لاختياره اسم بولس مدلول واضح- إلى الالتقاء بالجماهير في مختلف القارات، ليحمل إليها بشرى الخلاص والتحرير (...)

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ١١١-١١٢)

بولس السادس
رجل الرجاء في عصرنا

كان المطران (الكردينال) روجيه اتشيغاراي قد وصف البابا بولس بانه حمل الى زماننا "رجاء كبيراً، ليس للكنيسة حسب بل للمجتمع ايضاً". وكلمة رجاء هي خير ما يوصف به هذا الوجه الكبير، بالرغم من التردد والتشاؤم اللذين أُلصقا به في نهاية حبريته! فلقد بنى حبريته على الرجاء المقرون بالايمان والثقة بقدرة المسيح، بالرغم من كل الازمات التي تعصف بها. فلقد قالها قداسته في مقابلة عامة عام ١٩٦٩: "تتطلع الكنيسة نحو المستقبل... انها كشجرة ذات جذور قوية وخصبة تستقي ربيعها الدائم من ذاتها، في كل حقبة من التاريخ". بابا التغييرات، بابا العدالة الاجتماعية، بابا السلام والحوار... بهذه العناوين رسم ملامحه الاب لويس ساكو.

الاب (المطران) لويس ساكو

من مواليد ١٩٤٨، خريج معهد مار يوحنا الحبيب وكاهن منذ عام ١٩٧٤. حاصل على شهادة دكتوراه من روما في علم "آباء الكنيسة" (١٩٨٣)، ومن جامعة السوربون في التاريخ (١٩٨٥). خدم كنيسة أم المعونة واشرف على ادارة الدورة اللاهوتية في الموصل، من بعد الاب يوسف حبي، وكانت له نشاطات راعوية ورسولية متميزة... انيطت به ادارة معهد شمعون الصفا الكهنوتي قبل ان ينتخب مطراناً على كركوك (٢٠٠٣) حيث اطلق عدداً من المبادرات المتميزة. له حضور فاعل في المؤتمرات العالمية... ومواقف جريئة في الصراعات الدائرة. كان عضواً بارزاً في هيئة التحرير الاستشارية في الموصل، واحصيت له ٥٠ مساهمة في الفكر المسيحي -ما عدا مشاركته في بابي "من وحي الانجيل" و"سؤال وجواب". له كتب قيمة، مؤلفة ومعربة، فضلاً عن مقالات كثيرة في عدد من المجلات... وهو عضو في لجنة الحوار المسيحي-الاسلامي التابعة للمجلس الحبري للحوار بين الاديان.

قيل أنه كان مصراً على آرائه. وقيل أيضا أنه متردد وقلق، وخائف، وأنه كان تحت تأثيرات معاكسة... ازاء كل هذه الأقاويل يصرح بولس السادس نفسه قائلا: "يحدث لي ان أقرا ما يقال عني... ربما اني بطيء في أخذ القرار، غير اني اعرف جيدا ماذا اريد. على كل حال: انه لمن حقي ان افكر". هذا الحق في التفكير مارسه البابا الراحل طيلة رئاسته: اما طلب من الكرادلة ناخبيه أن يعيدوا التصويت لكيما يفسح امامهم مجالاً للتفكير؟

لقد كان يتحسس المسؤوليات الثقيلة التي كانت تنتظره، واولها مهمة استئناف المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني. فبعد ارتقائه الكرسي الرسولي بثلاثة أشهر، أفتتح في ٢٩ أيلول ١٩٦٣ الدورة الثانية للمجمع وأكد، في كلمة الافتتاح، على الأهداف الأربعة التي كان قد رسمها سلفه "البابا الطيب" يوحنا الثالث والعشرون وهي:

- تعريف جديد للكنيسة الكاثوليكية.
- الاصلاح.
- الوحدة المسيحية.
- اقامة جسر يربط الكنيسة بالعالم المعاصر

ان هذه المهمات المنهكة لم تكن لترعب البابا الراحل، اذ كان يتمتع بنشاط وحيوية

واندفاع قبل أن تضعف صحته في السنين الأخيرة. كان قد اكتسب حنكة وخبرة سياسية من البابا بيوس الثاني عشر الذي عمل معه في الدوائر الرومانية فترة طويلة قبل أن يعينه رئيساً لاساقفة ميلانو -ايطاليا- عام١٩٥٤. كما تعلّم من البابا يوحنا الثالث والعشرين الارادة القوية. بفضل ذلك قدر أن يقود الكنيسة بحزم في عصر التحولات، والرجاء يملأ قلبه بكنيسة أفضل، تتجدد وتنمو رغم كل المعاكسات، ورغم عبء التقاليد التي ترسخت مدى القرون.

٭ بابا التغييرات

لقد أحدث البابا الراحل "ثورة" داخل الكنيسة بسبب التغييرات التي أجراها، ومن أبرزها أصلاح الليتورجية -الطقوس- لتتلائم ومتطلبات عصرنا الحاضر. فعمد الى تبسيط الطقوس واستبدال اللغة اللاتينية باللغات المحلية في القداس وبقية الأسرار والرتب، وشكل لجنة طقسية أصدرت رتباً جديدة للقداس والعماذ والتوبة والزواج... وشدد على دور العلمانيين في الاشتراك في حياة الكنيسة ونشاطاتها، وأنشأ لذلك "مجلس العلمانيين". كما فتح المجال أمام اللاهوتيين للبحث والتفكير، فأسس لجنة لاهوتية دولية عام ١٩٦٩ وأدخل بذلك التعددية في الكنيسة، وقلص الرقابة على الكتب واراء المؤلفين، ورفع الحرومات...

وشمل هذا التغيير الحياة الرهبانية أيضاً لتتلائم والعصر. فطلب الى الجمعيات الرهبانية مراجعة قوانينها ونظمها والسعي الى تطويرها وتكييفها كي تتمكن من أداء رسالتها بشكل أفضل. وأراد بولس السادس مواصلة روح المجمع الفاتيكاني الذي الح على "الجماعية" في ادارة الكنيسة في شتى المجالات، فأسس عام١٩٦٥ "سينودس الأساقفة" الذي تتمثل فيه جميع المجالس الأسقفية في العالم، ويجتمع كل ثلاث سنوات لدراسة أبرز قضايا الساعة في كنيسة اليوم، كما منح للاساقفة صلاحيات واسعة في أبرشياتهم ومجالسهم.

وقام بولس السادس باصلاح المجامع الرومانية "الكوريا"، وعهد برئاسة بعضها الى كرادلة غير ايطاليين، وحد من نفوذ البيروقراطية في دوائر الفاتيكان. ووسع مجمع الكرادلة بحيث شمل جميع القارات: فقد عين خلال رئاسته "١١٣" كرينالا، فتقلص بذلك عدد الكرادلة الايطاليين والاوربيين لصالح العالم الثالث الذي حصل على "٤٦" كردينالا. وذهب الى ابعد من ذلك حين طلب من الاساقفة تقديم استقالتهم عند بلوغهم سن الخامسة والسبعين واسقط حق الكرادلة في انتخاب البابا عندما يبلغون الثمانين من العمر.

واهم من كل هذا، سعى الى التقريب بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الارثوذكسية والانكليكانية والبروتستنتية، فاتحا قلبه للحوار والتفاهم بين جميع الاطراف. فبهذه الروح المسكونية صافح في القدس الشريف، عام ١٩٦٤، البطريرك المسكوني اثينا غوراس، والتقى بالدكتور رامسي رئيس اساقفة كونتربري وبخلفه دونالد كوكان، وزار مجلس الكنائس العالمي في جنيف...

وقد يكون ابرز ما قام به في هذا المضمار انشاؤه سكرتارية الوحدة المسيحية. ومن ثم ساهم في حد كبير في التقريب بين الاديان: الاسلام واليهودية وديانات الشرق الاقصى، وهذا يعتبر خطا جديدا انتهجته الكنيسة الكاثوليكية وذلك سواء بلقائه مع اقطاب هذه الديانات، ام بتأسيس سكرتارية العلاقات مع غير المسيحيين.

ان البابا الراحل -بالرغم من كل ما فعله- لم يستطع في الواقع تغيير الكنيسة في الداخل بحسب رغبة بعض الاساقفة والكهنة واللاهوتيين، وذلك لعدة اسباب ... فقد لاقى في ان واحد معارضة شديدة من قبل المطالبين بالمزيد من التغيير في البنى والنظم الكنسية، ومن قبل المحافظين المتطرفين الذين ارادوا البقاء على القدم وعلى رأسهم المطران الفرنسي اليميني المتطرف مارسيل لفيفر. كما ان بعض الكنائس في العالم بقيت على جمودها وتخلفها رغم حضور أساقفتها دورات المجمع الفاتيكاني والتوقيع على وثائقه، ومن بينها الكنائس الشرقية التي ما عرفت ان تستفيد من التغييرات التي أجراها بولس السادس في الكنيسة لتراجع نظمها وبنيتها على ضوئها، بل ظل التخلف والجمود يلفها، في حين حققت كنائس أخرى في العالم تطورات سريعة في كافة المجالات.

❋ بابا العدالة الاجتماعية

لقد اهتم بولس السادس اهتماما كبيرا ببسط العدالة بين الناس لأنه كان يدرك جيداً أن لا سلام بدون العدالة. وبرز أهتمامه هذا لما كان بعد رئيس أساقفة ميلانو، حين كان يزور عمال المصانع والمناجم، مشجعا اياهم ومظهرا لهم محبته وتضامنه معهم، وكان يقول لهم: "لستم أنتم العمال أول من ترك التعليم المسيحي، انما أرباب العمل.."! ولم يكن يتردد من زيارة الأحياء الشعبية والفقيرة –الشيء الذي لم يفعله أسقف قبله– وكان يردد: "ان رغبة العمال هي في ضمان عملهم وخبزهم.. والسير الحثيث نحو المشاركة في الخيرات. لذلك ينبغي لادارة المعامل مساندتهم". وامتاز جيوفاني مونتيني أيام شبابه باندفاعه ونشاطه وحيويته في أوساط العمال والفقراء والذين هم على الهامش في طول ايطاليا وعرضها. كما اشتهر بعمله في أوساط الشبيبة حين عين مرشدا عاما للطلاب، فجذبهم الى الدين والالتزام بقيمه.

ومما تجدر الاشارة اليه هو أن مونتيني ناهض بشدة الفاشية، وذلك من خلال عمله في الاوساط العمالية والطلابية مما أغاض موسوليني الذي صرح يوما: "اذا اضطررت على سجن الكهنة، فأول من أسجن هو جيوفاني مونتيني"!

وعندما أصبح حبرا أعظم لم ينس روحه الرسولية واندفاعه للاهتمام بفقراء العالم والمظلومين. فها هو يذهب ويقدس لعمال السكك في روما، ويقدس ذات يوم في أحد المناجم، ويزور منكوبي الفيضانات في نابولي مادًّا لهم يد العون.

وأبرز ما عمله في هذا الصدد هو رسالته العامة عام١٩٦٧ "في تقدّم الشعوب" التي كانت بمثابة استنكار صارخ في وجه الذين يبنون صرحهم على الام اخوتهم، غير مبالين بالعدالة. وشملت الرسالة دعوة الدول الغنية الى إقامة بنك دولي يموله جزء من ميزانيتها الحربية لتمكين بلدان العالم الثالث من النهوض والسعي الى النمو والترقي.

في خطاباته ونداءاته العديدة دافع بولس السادس عن حرية الأشخاص ضد النظم الدكتاتورية، ودعا الى التوازن والتكافؤ بين الشعوب، ونادى باحترام حقوق الانسان أينما كانت هذه الحقوق ممتهنة...

وكنا نتمنى أن يذهب البابا الى أبعد من الخطابات ويندد بصراحة وقوة أكبر بكل أنواع الاستلاب والاستغلال في العالم... وكنا نأمل أن يوفق "بابا العمال والفقراء" الى تحطيم كل مظاهر الغنى والقوة في الكنيسة ويسعى الى أن يجعل كنيسة المسيح تصبح "كنيسة الفقراء" ولا يكون لها، على مثال معلمها، "حجر تسند اليه رأسها".

* بابا السلام والحوار

لقد أدهش بولس السادس العالم برحلاته التاريخية متنقلا بين القارات وخاصة في بلدان العالم الثالث، فهو أول بابا يجتاز الحدود الايطالية ليحمل بشرى السلام والخلاص الى أرجاء المعمورة: من الشرق الأوسط الى لآسيا، ومن المحيط الأطلسي الى أمريكا اللاتينية والى الاوقيانوس، قام البابا "الرحالة" بتسعة أسفار، ساعياً وراء احلال السلام والعدل والاخاء والتوازن بين الناس. بدأ رحلاته بالحج الى الأرض المقدسة حيث صلى في كنيسة المهد والقيامة من أجل سلام عادل في المنطقة، ومن القدس بعث بـ "٢٢٠" برقية الى رؤساء الدول يناشدهم للعمل من أجل احلال السلام في وطن "رسول السلام". ثم نراه في بومباي (الهند)، في ختام المؤتمر القرباني، يندد بقوى الظلم والاستغلال في العالم، وفي بوغوتا (كولومبيا) يدعم الجهود الرامية الى التحرر في أمريكا اللاتينية.

ولعل أبرز رحلة قام بها كانت زيارته لهيئة الأمم المتحدة عام١٩٦٥ حيث القى فيها خطابه الشهير: "لا حرب بعد اليوم، لا حرب"؛ ولأجل السلام قام بأطول رحلة عام١٩٦٧ زار خلالها مانيلا -الفيليبين- حيث القى خطابا مؤثراً في الاشتراكية، واستراليا حيث أعلن ايمانه الثابت بالحركة المسكونية، وجزر ساموا وأندونيسيا تأكيداً على صداقته مع أصحاب الديانات غير المسيحية: الاسلام والبوذية والهندوسية... ومن هونغ كونغ بلّغ الشعب الصيني تحياته الحارة... وقام البابا الراحل بزيارة مكتب العمل الدولي في جنيف عام ١٩٦٩ بمناسبة الذكرى الخمسين على تأسيسه، معلناً اهتمام الكنيسة بالعمال ومساندتها لنضالهم في سبيل عيش أفضل. وتدخل عدة مرات لأجل سلام عادل في الأرض المحتلة وساهم كثيراً في اغاثة اللاجئين الفلسطينيين، كما تدخل لانهاء الحرب في نيجريا وفيتنام وأخيراً في لبنان.

ولم ينس بولس السادس الـ "٦٠" مليون كاثوليكي في بلدان المعسكر الشرقي، مستأنفاً الحوار الذي كان قد فتحه سلفه البابا يوحنا الثالث والعشرون. وأستقبل عام١٩٦٧ الرئيس بودغورني والسيد أندريه غروميكو وزير خارجيته وتداول معهما في الشؤون الدولية وفي أحوال المسيحيين هناك. وأجرى اتصالات مكثفة في كل من هنغاريا —حيث قدر أن يحصل على موافقة السلطة برسامة أساقفة جدد للابرشيات الشاغرة– وجيكوسلوفاكيا وبولونيا ويوغسلافيا... وبفضل هذه العلاقة الطيبة، قدر بولس السادس أن ينقذ الكنيسة من أن تكون "كنيسة الدياميس" في تلك البلدان.

ان بولس السادس مهما كانت الأقاويل والادعاءات، برهن خلال رئاسته، على شجاعة نادرة وارادة قوية في ظروف حرجة من حياة الكنيسة، في عهد التحولات والتطورات السريعة. ووسط عالمنا المضطرب، برهن على أن بامكان الانسان أن يكون سعيداً بايمانه، وان الرجاء يفتح امامه آفاقا جديدة يهتدي به زمن المحن. توفي بولس السادس، ولكن روحه وفكره وايمانه ورجاءه سيغذي الالاف من بني جيلنا ابان الصعاب.

الاب لويس ساكو

الحركة المسكونية
في مفهوم البابا بولس

"العمل المسكوني هو المشروع الاكثر اهمية والاكثر سراً خلال حبريتنا"! قالها البابا بولس السادس الذي راح يجسد، في افعال ومواقف، ما كان سلفه الطيب يوحنا ٢٣ قد بدأه حين فاجأ العالم عام ١٩٥٩ بعزمه على عقد مجمع مسكوني يكون في خدمة الوحدة المسيحية. وتمثلت الكنائس المسيحية المختلفة في المجمع عبر "مراقبين". واتسمت المناقشات الدائرة في المجمع بالروح المسكونية، بعيداً عن رواسب المركزية الرومانية... وتمت الخطوة الحاسمة في مجال التلاقي والحوار حين تحرك اسقف روما وبطريرك القسطنطينية عام ١٩٦٤ ليتعانقا عند سفح جبل الزيتون في القدس، معانقة ستسفر عن رفع الحرومات المتبادلة بين الكنيستين! ومنذئذ لم تتوقف اللقاءات بين رؤساء الكنائس...

الأب رنيه بوبير الدومنيكي يحدثنا عن "مسكونية" البابا الراحل، في مقال ظهر، في آن واحد، في مجلة (*I.C.I.*) الفرنسية وفي الفكر المسيحي، غداة نبأ رحيل بولس السادس في ٦ آب ١٩٧٨.

لقد كان المسيح محور تفكير بولس السادس ونقطة الانطلاق، على مثال المجمع الفاتيكاني الثاني الذي ركز، فيما يتعلق بوحدة المسيحيين، على يسوع المسيح وليس على الكنيسة الرومانية.

وفي افتتاح الجلسة الثانية من المجمع، وبعد مضي ثلاثة أشهر على انتخابه، القى البابا خطابا اعتبره الجميع آنذاك خطابا محوره المسيح. ففي معرض حديثه عن سائر المسيحيين قال: "هم الذين يؤمنون بيسوع المسيح، ويؤسفنا الا يكون لنا معهم شركة تامة في وحدة المسيح".

في ضوء هذه النظرة المسيحانية، علينا أن ننظر الى ذلك الحج الكبير الذي قام به الى القدس عام١٩٦٤، حين أراد أسقف روما أن يوجه أنظار الكاثوليك، لا الى روما، بل الى تلك النقطة الفريدة في الزمان والمكان، الى هذه الزاوية من العالم حيث، في ربيع ما، مات وقام يسوع المسيح ليجمع في ذاته أبناء الله المشتتين.

* رواسب المركزية!

لا ننكر أن بولس السادس كان يحمل في الوقت ذاته مفهوما "رومانيا" عن

الوحدة، ولهذا المفهوم صدى حتى في الفاتيكاني الثاني. فبعد يوم واحد من انتخابه بابا، صرح بولس السادس قائلا: "اننا نفتح ذراعينا لجميع الذين يفاخرون باسم يسوع المسيح (...) انهم سيجدون في روما ذلك البيت الابوي الذي يبرز ويثمن كنوز تاريخهم وغناهم الحضاري وتراثهم الروحي". وبعد ستة أشهر، في الخطاب الذي القاه في بيت لحم، بالرغم من ملابسات النص: "ان باب الحظيرة مفتوح (...). والمكان واسع ورحب"! كما أن رسالته الجامعة الاولى "في الكنيسة"، في اب ١٩٦٤، عرضت مفهوما للحوار يقوم في ابلاغ الحقيقة الكاثوليكية أكثر مما في ذاك الاصغاء المتبادل.

غير أن هذه العبارات "العودة الى الحظيرة" وما أشبه، أخذت تتلاشى تدريجيا لتحل محلها تأكيدات على "الشركة غير الكاملة" والتي هي شركة حقيقية بين جميع المسيحيين.

واذا كان المسيحيون غير الكاثوليك والناس عامة يقاسون –كما يستنتج من رسالته "في الكنيسة"– بحسب قربهم أو بعدهم من روما، واذا كانت كنيسة المسيح الحقة – حسب تعبير بولس السادس بعد صدور القرار المجمعي "في الحركة المسكونية"– تتجلى في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، فان البابا ابدى دوما احتراماً كبيرا تجاه القيم الموجودة في الكنائس الأخرى، ذاك "التراث الديني الأصيل والمشترك الذي يحتفظ به اخوتنا المنفصلون، وبعضه نما وازدهر" (الخطاب الافتتاحي في الدورة الثانية للمجمع).

كما أكد مراراً –ومع المجمع المسكوني– بان الكنيسة الكاثوليكية ذاتها أن تتجدد دوما على شبه صورة المسيح، وان كان هذا الاصلاح يقوم، ليس بثورة بل في الامانة المتجددة لتلك الدعوة الاولى التي شوهتها الاجيال. لقد بقي البابا أميناً على ما كتبه في رسالته الاولى: "اذا كنا نتكلم عن الاصلاح، فذلك لا يعني تغييراً بل تعزيزا لتلك الامانة التي تجعل الكنيسة تحافظ على الصورة التي تسلمتها من المسيح، هو الذي يريد ان يقود الكنيسة دوما الى ملء قامتها".

* تجديدات بخطوات تدريجية

التجدد ليس انقلابا بل اصلاحات تدريجية: تلك عبارات سلفه البابا يوحنا ٢٣، تبناها بولس السادس بشكل عميق. من هذا المنطلق اجرى البابا تغييرات عديدة في أسلوب حياة الفاتيكان كان لها أثرها على الصعيد المسكوني. لا شك ان قسماً كبيراً من هذه التغييرات لم يكن الا بمثابة مكنسة تنفض عن مقاعد الفاتيكان الغبار الذي تراكم عليها خلال الاجيال. وقد شبهت هذه الاصلاحات بالساعاتي الذي يصلح بعض الادوات في حين تبقى الساعة على ما كانت عليه! غير ان هذا التشبيه لا يخلو من خطأ: فلقد كان لانشاء سينودس الاساقفة والاصلاح في اسلوب زيارة الاساقفة الدورية والدعم الذي

حظيت به المجالس الاسقفية واصلاح الكوريا الرومانية وجعلها اكثر دولية... أثر كبير جدا وان كان من الممكن أن تذهب هذه الاصلاحات وغيرها الى أبعد.

كان لبولس السادس، في بعض الحالات، مواقف لاهوتية لها وزنها الكبير على صعيد الحركة المسكونية. انه، سيرا على خطوات يوحنا ٢٣، -وبالرغم من البعد الدولي الذي حققه للبابوية- قام برحلات عديدة في القارات الخمس وارتقى منبر مكتب العمل الدولي في جنيف ولا سيما منبر الامم المتحدة في نيويورك.... لقد اراد بولس السادس -بالرغم من الالتباس المحيط ببعض رحلاته بين دوره الروحي ودوره كرئيس دولة- ان يظهر بصفته "اسقف روما"، مؤكداً على ذلك مرات عديدة، وكان له الشعور العميق بأنه ما كان بابا لو لم يكن اسقف روما.

كانت هذه النقطة واضحة في القرار الذي أصدره سنة ١٩٧٥ حول طريقة انتخاب البابا: لقد رفض بولس السادس ان يضم الى لائحة ناخبي البابا بطاركة الشرق او الاساقفة، ورأى البعض في هذا الاجراء تحديداً، ولكنه على العكس اجراء ايجابي. ان بولس السادس رفض رفضاً باتاً المفهوم الذي يكون بموجبه البابا سكرتيراً عاما لكنيسة دولية. واذا كان هذا المفهوم يبدو جذاباً لاول وهلة، غير أنه يقود الى اعلاء دور الحبر الأعظم الشخصي: مفهوم كهذا لا يناقض التعليم اللاهوتي العريق حول الكنيسة وحسب، بل يسيء كثيراً الى الحركة المسكونية. فاذا كان هناك أمل في أن يعترف يوماً المسيحيون غير الكاثوليك، وبصورة خاصة الارثوذكس، بدور روما، فلن يتم ذلك الا في اطار لاهوت يؤمن بالشركة بين الكنائس المحلية، بحيث تمارس كنيسة روما مسؤولية خاصة على صعيد الوحدة الشاملة و "ترئس في المحبة" على حد تعبير القديس اغناطيوس اسقف انطاكية في مطلع القرن الثاني.

وانطلاقاً من هذه المفاهيم الايجابية على الصعيد المسكوني، أشار البابا مراراً الى الخلافة الرسولية ذات الوجهين والتي ترتكز عليها اولوية كنيسة روما. فلقد وصف نفسه يوماً في موعظته بعيد الرسل عام ١٩٧٦ بـ "خليفة الرسولين بطرس وبولس"، وليس بخليفة بطرس وحسب -متبنياً عبارة سلفه البابا يوحنا ٢٣ (الرسالة المذاعة في ١١ ايلول ١٩٦٢).

بهذا المنطوق، لن تكون البابوية سلطة شخصية ولا بنية فوقية في الكنيسة، انما تجد اساسها في كنيسة محلية تأسست على شهادة بطرس وبولس واستشهادهما، في شركة بالكنيسة جمعاء: هذا هو السبيل الوحيد لوفاق مسكوني حول البابوية.

✵ سلوكية مسكونية لها مدلولها

تبنى بولس السادس خطا مسكونياً عبرت عنه سلوكيته مرارا، أكثر مما عبرت عنه خطبه: اولا حجه الى القدس الذي، بفضل البطريرك المسكوني أثيناغوراس، أصبح "لقاء

قمة" من نوع عجيب! وبعد ثلاث سنوات —وحين كانت تعترض أثينا غوراس عراقيل جمة حالت دون رغبته في مغادرة اسطنبول للذهاب الى روما— قرر بولس السادس ان يذهب هو الاول الى الفنار، بدل ان ينتظر ضيفه في الفاتيكان. وفي عام١٩٧٥، وبمناسبة الذكرى العاشرة لرفع الحرومات بين روما والقسطنطينية، قام البابا بولس ببادرة "يوحنانية" حين جثا على الارض، على شبه خادم، ليقبّل قدمي ضيفه مبعوث البطريرك المسكوني...

الى هذه المبادرات يطيب لنا أن نضيف بوادر أخرى قام بها البابا الراحل: تبادل الوفود الرسمية مع مختلف الكنائس الشرقية لتعزيز الحوار، والبيانات المشتركة بين البابا ورؤساء هذه الكنائس، دون أن ننسى اعادة ذخائر القديسين التي كانت محفوظة في روما أو في ايطاليا منذ عدة قرون —وان كان الغربيون لا يعيرون كبير اهتمام لهذه البادرة—، كل ذلك خلق جوا من التقارب بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الارثوذكسية، بيزنطية كانت ام غير بيزنطية.

غير أن هناك قرارات أخرى تركت أثرا سلبياً، نذكر منها على سبيل المثال، تعيين —وإن بعد تردد— اكسرخوس جديد في اليونان للكاثوليك من الطقس اليوناني/البيزنطي. غير أن مثل هذه الافعال لم تعرقل مسيرة الوحدة، و لم تمنع كلا الكنيستين من أن تكتشف الواحدة في الاخرى "كنيسة شقيقة" على حد تعبير بولس السادس، للمرة الاولى، في الرسالة التي سلمها الى البطريرك اثيناغوراس في تموز ١٩٦٧. والدليل على ذلك، الخطوات الاولى للحوار اللاهوتي بين الكنيسة الارثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية الذي بدأ أخيرا بعد سنين من "حوار المحبة".

اما مع العالم البروتستنتي، فهناك بيانات مشتركة وحوار لاهوتي هام، ولا سيما مع الكنيسة الانكليكانية. ففي اثناء الزيارة التي قام بها الدكتور رامسي رئيس اساقفة كونتربري الى روما في ربيع عام ١٩٦٦، دعاه بولس السادس الى اعطاء البركة معه في آن واحد، ومن ثم قلده الخاتم الاسقفي الذي حمله حين كان رئيس اساقفة لميلانو. لم يكن البابا ليؤمل، عن طريق هذه المبادرة، ازالة الخلاف القائم حول الرسامات الانكليكانية، غير أنه كان يؤمن بأن في وسع هذه البوادر أن تشق طرقا جديدة الى الحوار اللاهوتي (...)

وهناك حوار ثنائي بدأ بين الكنيسة الكاثوليكية والعديد من المذاهب المسيحية في العالم (الاتحاد اللوثري، الكنيسة المصلحة، الميثودية، جماعة العنصرة...). ويختلف الموقف مع مجلس الكنائس العالمي كون الامور أكثر تعقيداً: فالزيارة التي قام بها البابا الى مقر مجلس الكنائس العالمي في حزيران ١٩٦٩ قيل بأنها تقررت عدة أشهر بعد قراره بزيارة مكتب العمل الدولي، ومع ذلك تبقى تلك الزيارة ذا بعد تاريخي. وبخلاف التعليقات التي أدلى بها بعض الصحفيين آنذاك، لم يكن الخطاب الذي القاه بولس السادس امام المجلس سلبياً بل جدياً ومدروساً. ولكن بعد مضي بضع سنين، جرت الامور خلافا لتوقعات المراقبين

المتفائلين حين توقف مشروع انتماء الكنيسة الكاثوليكية الى المجلس المذكور، ويعود السبب في ذلك الى المخاطر التي توقعها بولس السادس من تلك الخطوة –وقد يكون مستشاروه لم يحسنوا اطلاعه حول هذه النقطة بالذات–، فضلاً عن العقبات من الجانب الاخر أيضاً. ذلك لان كلا الجانبين كانا مدركين بأن بوسع هذه الخطوة –وان كانت ليست بمستحيلة– ان تحمل على أعادة النظر في كثير من الاسس الحالية، ولم يكن الطرفان على استعداد لمواجهة ما كان سينتج عنها من تغييرات. وفي الاخير اتفق الطرفان على قيام تعاون جانبي يكون جاداً ولكن بالتزامات أقل، وقد يكون هذا الاتفاق مؤسفا لكلا الطرفين (...)

✵ الى أمام، من دون تردد

قال بولس السادس، وبكثير من الصراحة –ليس في جنيف، في مجلس الكنائس العالمي، بل في عدة مناسبات أخرى –بان العقبة الاكثر صعوبة في طريق الوحدة هو البابا! ولقد حاول هو من جانبه ان يخفف، بتواضعه، من حدة هذه العقبة. لقد برهن، بالكلام والعمل، أنه خادم خدام الله. واذا لم يُسمع صوته او أُسيء فهمه، فلم يكن ذلك بسبب قلة اقناعه الداخلي. ولقد استطاع، من بعد يوحنا ٢٣، ان يخلق الثقة بمهمته الرسولية والراعوية في خدمة الوحدة والشهادة المسيحية. ويشهد على ذلك، الحوار اللاهوتي بين مختلف المذاهب والذي استطاع في السنوات الأخيرة أن يضع على بساط البحث مسألة رسالة الوحدة في الكنيسة الجامعة.

كثيراً ما قيل بأن البابا، في هذه السنوات الأخيرة من حبريته، وضع حدوداً للنشاط المسكوني. لا شك أن التوتر الذي عانت منه الكثلكة في سنوات ما بعد المجمع وظهور بعض التيارات المتطرفة وعلامات الانشقاق التي باتت تهددها... أقلقت الى حد كبير حبرا كان يدرك جيداً مسؤولياته بصفته راعياً للجميع. فقد حذر مراراً كثيرة، وبكلمات كانت غير موفقة على المستوى المسكوني، اولئك الذين كانوا يشرحون مقررات المجمع حسب (هواهم) أو "بروح الاصلاح البروتستنتي"! وكان يؤكد دوماً على مبادئ الايمان: غير أن قانون ايمانه الذي أعلنه في السنة المقدسة –وكان للتفاسير اللاهوتية فيه نصيب كبير– جاء خالياً من الروح النبوية التي كان من الممكن أن يبلغ صداها الى ما وراء حدود الكنيسة الكاثوليكية...

ومع أن بولس السادس كان يحمل بألم عبء الوحدة الكاثوليكية ويناضل على جبهات عدة، فهو لم يبق سجين ترمت سلبي، وكدليل على ذلك أذكر الخطاب الذي القاه أمام أعضاء سكرتارية الوحدة في تشرين الثاني سنة ١٩٧٦، أي قبل سنتين من وفاته، كي يحثهم على المضي قدماً. في هذا الخطاب الحماسي، كانت تتردد دوماً عبارته المشهورة:

"نعزز الجهود من اجل الوحدة"، بينما لم تظهر كلمة "فطنة" الاّ مرة واحدة، وجـــاءت في اطار ديناميكي: "علينا أن نمضي الى الامام، بفطنة ولكن من دون تردد".

في هذا الخطاب اضاف البابا هذه الجملة التي لم تكون مكتوبـــة: "ان العمـــل المسكوني هو المشروع الاكثر أهمية والأكثر سراً خلال حبريتنا". فلنف البابا الراحل حقه، هو الذي اعتبر وحدة المسيحيين احدى أبرز مسؤولياته الرسولية. ولكن نخطيء اذا ما نظرنا الى كل سني حياته من خلال هذه الزاوية. ولكن مهلاً: لقد كانت هذه المهمة بالنسبة لـــه بمثابة "سر"، هو الذي قاده الروح في طرق لم يخترها بنفسه، كما ستبقى سراً لنا نحن. هل كان عمل بولس السادس المسكوني سراً؟ نعم، مثلما نمو البذرة البطيء هو سر.

الأب رنيه بوبير

◆ كهنة لمن ولماذا؟

السنة الخامسة عشرة: آب-أيلول ١٩٧٩

الفهرس

• افتتاحية: كهنة، لمن؟ ولماذا؟	رئيس التحرير
• قالوا في الكاهن ...	...
• مفهوم الكهنوت في الكنيسة الاولى	أ. بهنام كجو
• ... من مذكراتي	لام
• الكاهن كما يراه عالم الاجتماع	أ. بيوس عفاص
• مستقبل الدعوات الكهنوتية في العراق	نجيب قاقو
• صلاة الكاهن يوم الاحد مساء	ميشال كواست
• رسالة الكاهن اليوم	أ. لويس ساكو
• العلاقة بين الاساقفة والكهنة	م. جان كسبايان
• الكاهن ... "موزع" اسرار؟	أ. يوسف عتيشا
• كهنة يتحدثون عن انفسهم	...
• كاهن الغد	أ. لوسيان جميل
• انباء	...

"كهنة... لمن؟ ولماذا؟ هذا العنوان المثير يحمل في طياته تساؤلات جادة حول مفهوم الكهنوت في الكنيسة، وحول واقع الكاهن في الجماعة المسيحية والدور الذي اضطلع ويضطلع به، ولا سيما في ضوء التحولات التي طرأت على هويته، وقد بدت وكأنها تمر في ازمة!

هذا العدد الخاص لم يدّعِ انه عالج ازمة الكهنوت في بعديها الكمي والنوعي، وانما حاول ان يسلط بعض الاضواء على جوانب من حياة الكهنة، في نظر الناس وفي نظرهم هم انفسهم. فمن المقالات القيمة التي تضمنها، اخترنا اربعاً تناولت مفهوم الكهنوت في الكنيسة الاولى، وعكست نظرة علم الاجتماع الى الكاهن وتساءلت عن مستقبل الدعوات، وناقشت دور الكاهن في "توزيع" الاسرار. وبدافع الامانة لفكرة، التوثيق، آثرنا، في مقالات هذا العدد، كما في سائر الاعداد الخاصة، ألا نحدّث المعلومات ولا نجري تعديلاً في الأرقام.

(...) لقد كان للكاهن، حتى عهد قريب، دور "اجتماعي" لعبه في عصر كانت الديانة ذاتها بنوع عام، والكنيسة بنوع خاص، تلعب فيه دورا اجتماعيا-حضاريا معينا في ظل الإيديولوجية السائدة. وما "أزمة" الكهنوت، في جذورها العميقة، سوى نتيجة للتحولات التي طرأت على توقعات المؤمنين ازاء دور للكاهن لم يعرف أن يواكب هذه التحولات (...)

فلا عجب اذا بتنا نشهد لدى العديد من الكهنة شعورا "بفقدان هويتهم". واذا اتسمت علاقات الكاهن بالمؤمنين بـ "أزمة ثقة"، وتعرضت السلطة في الكنيسة لصراع عنيف... وليس بغريب أن نكون الشهود على تناقص في الدعوات الكهنوتية، وأصبحنا أمام ظاهرة "هروب" وهجر العديد من الكهنة... كما لا ينبغي أن يأخذنا العجب حين نرى كهنة يبحثون، بنزاهة وإخلاص، عن "هوية جديدة" وعن "موقع" جديد في الكنيسة والمجتمع، ويسعون، بجد وإقدام، إلى إيجاد نمط جديد في أداء الرسالة الانجيلية، ويذهبون في استحداث أساليب جديدة للخدمة الراعوية تكون أكثر وقعا وأكثر فاعلية.

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ ص ١٣٤)

مفهوم الكهنوت في الكنيسة الاولى

لم يكن يسوع لاويا من سلالة الكهنة، ولا رسله... كما لم يكن المسيحيون الاولون يطلقون لقب "كهنة" على الرسل، سيما وان عبارة "كاهن"، في الديانات الوثنية، وحتى في الديانة اليهودية، كانت تشير الى الشخص "المفروز" للدخول في صلة مع "العالم القدسي"، عالم الالهة او الاله، عن طريق تادية فروض العبادة واقامة الذبائح ... وسيكون كاتب الرسالة الى العبرانيين اول من اطلق على يسوع صفة "الكاهن الاعظم" الذي كان ذبيحة ومقرِّباً، دخل بدمه الى "قدس الاقداس"، مرة واحدة، فأنجز ما لم تقوَ على انجازه الذبائح التي كانت تقرّب في الهيكل ...

المقال الذي كتبه الاب بهنام كجو -معتمداً مقالاً لأندريه ليمير بعنوان "الخدم في بدء الكنيسة"- يُدخلنا توًا الى مفهوم الكهنوت في الكنيسة الاولى، وقد اتسم حينذاك بالخدمة والشهادة.

الاب بهنام كجو من مواليد ١٩٣٤، تخرج في معهد يوحنا الحبيب عام ١٩٥٨. دكتوراه في الحق القانوني. خدم سكرتيراً في مطرانية السريان الكاثوليك بالموصل وكاهناً في رعية الطاهرة حتى وفاته في برطلة عام ١٩٩٨.

ان روح التجدد الذي هب على الكنيسة في فترة ما بعد المجمع الفاتيكاني الثاني دفع بالباحثين، على اختلاف اختصاصاتهم، الى الرجوع الى الأصول القديمة بلوغاً الى الينابيع الاولى الصافية ليرفدوا النقي والنافع منها لانسان اليوم.

ان هذه العودة الى الجذور لمراجعة ممارسات الكنيسة الاولى في ما يخص بنية الكنيسة الرئاسية-الكهنوتية، لا تعني طبعاً توخي حلول واجابات جاهزة كاملة، بل هي محاولة تقربنا من عهد الرسل والمسيح، فتعطينا بذلك نوراً يساعدنا على تمييز أعمق بين ما هو أصيل ونقي لارتباطه بارادة المسيح وبممارسة الرسل، وما هو من قبيل الاضافات البشرية والتنظيمات القانونية المتعاقبة التي فرضتها ظروف تاريخية ومكانية معينة، واقتضتها ثقافات عديدة [illegible] بها الكنيسة وتفاعلت معها عبر الزمن[1].

١-مفهوم الرئاسة-الخدمة في العهد الجديد:

من قراءة أولية للعهد الجديد نلاحظ أن لفظة "الكاهن" التي نستعملها اليوم لم

(١) يعتمد بحثنا مقالاً للاستاذ أندريه ليمير في مجلة (*Spiritus*) حول الخدم في بدء الكنيسة: العدد ٦٩ لعام ١٩٧٧، ص ٣٨٦-٣٩٨.

تطلق ابداً، في العهد الجديد، على أي مسؤول في الكنيسة، كما أن ذكر الكهنوت لم يرد صريحاً سوى عن المسيح في الرسالة الى العبرانيين ذات التركيب اللاهوتي، وعن الجماعة المسيحية التي سميت شعباً كهنوتياً لأنها أمة مختارة (بطرس الاولى وسفر الرؤيا). واللفظة المستعملة غالباً في هذه الفترة من حياة الكنيسة لوصف أي شخص يمارس دوراً ما في الجماعة كانت لفظة "الخادم"، والاسم منها: (الخدمة) (باليونانية والسريانية السائدتين في ذلك الحين: دياكون—دياكونية، ܡܫܡܫܢܐ—ܡܫܡܫܢܘܬܐ). واذا كان المسيح لم يؤسس (الكهنة) بالمعنى الحالي لهذه الكلمة، فأنه قد "أقام الاثني عشر" ليكرزوا ويعمنوا الخير (مرقس ٣:١٤-١٦والنصوص الموازية له)، مع أنه كان، بكل تأكيد، على علم بالكهنوت اليهودي وتنظيماته المعقدة. وبالعكس، فقد أظهر أرادته بأن تكون لكهنوته الجديد صفة البساطة حين طلب من الاثني عشر، بعدما ضرب لهم أروع مثل في التواضع بغسل أقدامهم، أن يكونوا هم أيضاً على غراره خداماً للكل (يوحنا ١٣؛ مرقس ١٠:٤٢-٤٤؛ لوقا ٢٢:٢٤-٢٧). فكلمة الخدمة أو الخادم وردت، لاول مرة، على لسان المسيح، مستهدفاً وضع الاثني عشر في جوهر رسالتهم المستقبلية وهو خدمة البشر.

ويوضح لنا لوقا مؤلف سفر الأعمال نوعية هذه الخدمة في سياق سرده لانتخاب ماتياس بديلاً ليهوذا إذ يقول: ان الانتماء الى فرقة الاثني عشر هو اشتراك في خدمة قوامها الشهادة للقيامة (اعمال الرسل ١:١٥-٢٦). فالخدمة في مفهوم العهد الجديد تقوم في اعلان المسيح والانجيل المبشر ووضع كل الطاقات في خدمتهما.

أما في ما يخص بنية الجماعة الاورشليمية الاولى وممارساتها الدينية والطقسية، فلم يذكر لنا كاتب سفر الاعمال تفاصيل كثيرة، سوى انها كانت تجتمع غالباً في أحد البيوت للصلاة والتعليم وكسر الخبز (أعمال الرسل ٢:٤٢-٤٦) دون أن يربط أداء أي من هذه الافعال بشخص مترئس أو بخادم مختص، مكتفياً بالاشارة الى أن جماعة المؤمنين كانت تجتمع وتعمل كجماعة اخوة. والقديس بولس ذاته لا يأتي على ذكر أي خادم خاص ومتميز لدى الاحتفال بعشاء الرب (١قورنتس ١١:١٧-٣٤)، رغم أنه يعترف بتعدد المواهب والادوار والوظائف في الكنيسة والتي تهدف الى بنيان جسد المسيح الواحد (١قورنتس ١٢-١٤)، وقد يعود ذلك الى صغر حجم الجماعة المسيحية من جهة، والى وجود الرسل الذي كان حتماً يطغي على الكل من جهة أخرى (راجع مثلاً أعمال الرسل ٢٠:٧-١٣).

ومع تزايد عدد المؤمنين وتكاثر الكنائس المحلية، لم بعد بوسع الرسل تلبية كل الحاجات وترؤس كل الجماعات والاجتماعات، بل بات من الضروري اقامة أشخاص غيرهم على رأس الكنيسة المحلية ليديروا أمورها ويقودوا اجتماعاتها ويترأسوا الصلاة والتعليم والاوخارستيا بالاشتراك مع سائر الاخوة. وهذا ما يشير اليه مار بولس، في أماكن

عديدة من رسائله، حين يقول ان تنسيق أمور الجماعة يعود الى رئيسها الذي يجب عليه ان يمارس "رئاسته" (أي مدبريته رومية ١٢:٨) بغيرة وتفان، فيلقى مقابل ذلك كل محبة واجلال (١تسالونيقي ٥:١٢-١٣).

من هذا التحليل السريع للنصوص يمكننا أن نستخلص بأن العهد الجديد يبقى صامتاً عن أية صفة كهنوتية معينة تؤهل صاحبها، دون غيره، للكرازة أو لترؤس الصلوات والاحتفال بسر الاوخارستيا. وكل ما نستطيع قوله هو أن من كان على رأس الجماعة، رسولاً كان أم نبياً أم معلماً، لم يكن يقوم لوحده بالافعال التي نسميها اليوم كهنوتية، بل بالتعاون مع مسؤولين آخرين. ويؤكد ذلك كتاب من أواخر القرن الاول[٢] الذي ينقل لنا أن الكل كانوا يشتركون في الصلاة والاوخارستيا نفسها اشتراكاً مترجماً بادوار مختلفة وبايحاء وتأثير من الروح القدس لبناء الجماعة بناءً منسقاً.

٢- مفهوم الرئيس–الاسقف والرئيس القسيس:

في الفترة التي أعقبت وفاة الرسولين بطرس وبولس في روما نحو عام ٦٤-٦٧، لم تعد المشكلة الرئيسية للكنيسة الامتداد والانتشار، بل ضمان قوتها وأصالتها، بالتركيز أكثر على التنظيم الداخلي لها وبالسهر على تأمين الخدمة في الكنائس المحلية.

لذا فان مفهوم الرئاسة–الخدمة والرئيس الخادم الذي برز تقريباً وحده حتى الان، أخذ يتجه قليلاً نحو مفهوم الرئاسة السلطة، ليس بمعناها القانوني الذي اتخذته بعدئذ، ولكن بالمعنى المكمل للمفهوم الانف الذكر. ومع هذا المفهوم الجديد، بدأت تظهر أيضاً تسميات جديدة للمسؤولين عن الجماعات والكنائس، منها اثنتان رئيسيتان هما: الاسقف والقسيس.

- الاسقف لفظة معربة عن السريانية: آفسقوفا وهذه بدورها ماخوذة من اليونانية *Episcope* ومعناها: الشخص المدبر لجماعة المؤمنين، المراقب، الحارس والساهر على أمورهم الروحية[٣].

- القسيس وهي تعريب للفظة سريانية أيضاً: قشيشا (ومقابلها في اليونانية: *Presbyteros*) ومعناها الحرفي: المتقدم في السن، الشيخ. لكن معناها المجازي المقصود: الاقدم، المتقدم بين الآخرين، الشيخ بمعنى عضو مجلس.

---

(٢) تعليم الرسل الاثني عشر *(Didaché)* الذي يعود الى العام ١٠٠: الفصل ١٠:٧.

(٣) انظر عبرانيين ١٣:١٧، ٢٤، ابطرس ٥:٢-٤.

بخصوص أصول الالفاظ، راجع يحيى بن جرير (القرن١١) في كتابه "المرشد": فصل٣١، ص١٧٨ (مخطوط محفوظ في الشرفة). أفرام رحماني: دراسات سريانية، مجلد٣، ص٥٥.

أما لفظة "مطران" فهي تعريب لكلمة يونانية–سريانية: ܡܝܛܪܘܦܘܠܝܛܐ أي رئيس الوحدة الادارية الكنسية كلها، ومركزها المدينة (يحيى بن جرير، ص١٨٧).

هل كانت هاتان التسميتان تعنيان نفس ما تعنيانه اليـوم؟ لا يبـدو ذلـك. لان استعمالهما كان متذبذباً غير مستقر. فقد وردتا في النصوص، الواحدة بمعنى الاخرى، دونما فصل وتمييز واضحين. هذا ما نلمسه في خطاب مار بولس التوديعي لقسس أفسس الـذين يدعوهم أيضاً "أساقفة" في سياق كلامه: "... الروح القدس الذي أقـامكم اسـاقفة..." (اعمال ٢٠:٢٨).

ومهما يكن من أمر هذا الغموض اللفظي والوظيفي معاً، فان التسـميتين تـدلان كلتاهما على وظيفة تتعلق أساساً بادارة الكنيسة وتدبير أمورها، بانتظار أن تتبلورا وتتوضحا فيما بعد. ومهما اختلفت التسمية، يبدو أن نوعية الخدمة هي واحدة: المطلوب من الاساقفة والقسس على السواء هو أن يمارسوا ولايتهم حسناً ويحسنوا تدبير بيعة الله (١طيمثـاوس ٣:٥؛ ٥:١٧).

وتؤيد الشهادات الاولى، من خارج العهد الجديد، عدم استقرار التسمية بين فـئتي الاساقفة والقسس، كما تؤكد تعيينهم من قبل الرسل تارة، أو انتخابهم من قبل الجماعـة تارة أخرى (تعليم الرسل الاثني عشر ١٤:١، ١٥:٢).

فرسالة أقليميس الروماني التي ارسلها مجلس القسس في روما لتوبيخ كنيسة قورنثة التي تمردت على قسسها وعزلتهم، ترى أن هذه العملية غير عادلة. طالما أن هـؤلاء قـد تقلدوا مهمتهم من الرسل أو من أشخاص أجلاء، بموافقة الكنيسة، وخدموا قطيع المسـيح بشكل حسن (٤٤:٣-٦).

ومع أغناطيوس الإنطاكي، في رسائله الشهيرة (حوالي العام ١٠٠). تظهـر بنيـة الكنيسة أكثر وضوحاً وتنظيما، من خلال الفكرة الرئيسية المسيطرة على كل رسائله، وهي الحفاظ على الوحدة في شخص الاسقف والقسيس: "اتبعوا كلكم الاسقف كما تبع يسوع المسيح أباه. واتبعوا مجلس القسس أتباعكم للرسل. أما الشمامسة، فاحترموهم احتـرامكم لشريعة الله" (الرسالة الى أهل أزمير ٧:١-٢).

من خلال هذه المراجعة للنصوص، نستطيع أن نخرج بهذه النتيجة: ان الجماعـات المسيحية أو الكنائس المحلية تظهر، مع نهاية القرن الاول، أكثر بناء وتنظيماً: كل كنيسـة محلية لها على رأسها أسقف (يدعى أحياناً قسيساً) ومجلس قسـس (يـدعون أحيانـاً أسـاقفة) وشمامسة: هؤلاء جميعاً أقيموا، اما بتعيين من الرسل، واما بانتخاب من قبل الكنيسة المحلية ذاتها.

٣- مفهوم الكهنوت المسيحي:

لا بد أن القارئ لاحظ غياب كلمة "الكاهن"، كصفة للشخص المقام للخدمة، من كل نصوص العهد الجديد ومؤلفات القرن الاول. فهل كان تعبير "الكاهن" مجهولاً عنـد

المسيحيين الاولين؟ ذلك من غير الممكن، لانه كان موجوداً في العهد القديم وفي ديانات الرومان واليونان.. فكيف نفسر ذلك؟

أن لفظة "الكاهن" ومرادفها بالسريانية كوّنا، (وبالعبرية: كوهين) كانت تعني، لدى جميع الشعوب القديمة، الشخص المفرز والمخصص لاتمام فروض الصلاة والعبادة وتقديم الذبائح.. فالكهنوت الوثني، وحتى اليهودي، كان ينظر اليه كوظيفة اجتماعية، قائمة بذاتها ومحصورة في نطاق معين.

أما الكهنوت المسيحي، فهو غير ذلك. وهذا ما أراد، بدون شك، أن يعبر عنه المسيحيون الاولون حين أطلقوا على مسؤوليهم صفة الاسقف أو القسيس بالمعنى الذي أوضحناه أعلاه، أي أنهم يتحملون عبء ادارة الجماعة وقيادتها. واذا بدأت لفظة الكاهن تطلق على المسؤولين عن الخدمة في نهاية القرن الثاني، فما ذلك الا تأثرا بما كان موجوداً لدى الشعوب التي انتشرت فيها المسيحية، فصار القسيس يدعى كاهنا، والاسقف رئيس الكهنة أو الكاهن الأعظم[٤]. وفي القرن الثالث ترسخ الاتجاه نحو "تكهين" الخدمة الكنيسة، شكلاً وتعبيراً، تحت اعتبارات وظروف عديدة، منها مماثلة العهد القديم وامتصاص معطيات الديانات والثقافات الرومانية والبيزنطية واليونانية.. تسهيلاً لتقبل أصحابها للديانة المسيحية الجديدة. ولم يغب عن كل ذلك العنصر السياسي حين فرض الامبراطور تيودوسيوس، بمرسوم سنة ٣٨١، على جميع شعوب مملكته "ديانة الرسول بطرس". فحل الكهنوت المسيحي رسمياً محل الكهنوت الوثني.

٤- أصالة الكهنوت المسيحي:

رغم ما طرأ على مفهوم الكهنوت المسيحي من تغييرات شكلية وتعبيرية، فانه حافظ على نقاوته وأصالته. ولقد بقي، في جوهره، مسؤولية شاملة مرتبطة بالجماعة والكنيسة: رئيس الكهنة (الاسقف) والكاهن (القسيس) هما شخصان يقامان مباشرة لخدمة الجماعة. وتشهد صلوات الرسامة الكهنوتية، منذ القديم، على أن الطابع الاول والمميز لهما هو أن مهمتهما راعوية، وأن لا وجود لهما بدون هذه العلاقة الوثيقة مع الجماعة. واليكم هذه الصورة الجميلة التي رسمها الاب بوت، أحد المختصين بالطقوس، عن خدام الكنيسة:

"الاسقف والكاهن، لا شيء عندهما من الكهنوت الروماني.. ولا من كهنوت العهد القديم.... رغم الشبه الشكلي. فالكهنوت المسيحي هو من نظام آخر: انه موهبة من الروح القدس (*Charismatique*). واذا كانت له امتيازات قانونية وطقسية، فهذا واضح. أما أن يرى فيه هذا الجانب فقط، فذلك تفقير لمفهوم الكهنوت المسيحي. أن

(٤) ترتليانوس: ضد الهراطقة ٤١: ٨. في العماذ ١٧. كتاب التقليد الرسولي٣.

الاسقفية والقسيسية والشماسية تظهر في الوثائق القديمة كمواهب مخصصة لبناء الكنيسة أكثر منها وظائف طقسية"(٥).

أن التقليد المسيحي الشرقي (والغربي أيضاً، ولكن حتى القرن ١٢، اذ حدث بعد ذلك تحول لاهوتي بقبول صحة الرسامة الكهنوتية طالما تتوفر فيها مادة السر وصورته، دون ربطها بجماعة معينة(٦) لم يقبل أي نوع من الكهنوت كحالة مستقلة قائمة بذاتها، تخلقها الرسامة بدون أية علاقة مع رعية ممثلة بكنيسة معينة، سائراً بذلك على آثار مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ الذي، في قانونه السادس، اعتبر الرسامة المطلقة باطلة: "يجب الا يرسم أحد بشكل مطلق، كاهناً كان أم شماساً (...)، اذا لم تعين له كنيسة.. فالمجمع المقدس قرر أن تكون رسامة من رسموا بشكل مطلق باطلة وغير حاصلة"(٧). ولنا مثل على تطبيق هذا المبدأ في الرهبان الذين لم يكونوا يرسمون كلهم كهنة، بل البعض منهم لفائدة الجماعة الرهبانية. كما أن طقس الرسامات عند السريان مثلاً، يؤكد مبدأ الربط بين الرسامة والجماعة، اذ ينص على أن يعلن المنادي وقت الرسامة اسم الكنيسة التي من أجلها يعطى المرتسم الكهنوت: "ينصب فلان أسقفاً (أو كاهناً أو شماساً) على الكنيسة الفلانية في الابرشية الفلانية".

❋ وماذا عنا نحن اليوم؟

على ضوء هذه الدراسة، تأكد لنا أمر واحد على الاقل هو أن قوة الكنيسة ونشاطها وحيويتها هي رهن الروح الجماعية التي هي قلبها النابض. هذا ما كان يدفع بأعضاء الكنيسة، مسؤولين ومؤمنين، للعمل سوية وبروح الاخوة والمحبة، سعياً لبناء الكنيسة.

وهذه الروح الجماعية عينها يجب أن تجد لها طريقاً الينا كي تنمو كنيسة المسيح من خلالنا جميعاً. فالاخ المؤمن الواعي يجب أن يحسب نفسه مشتركاً في الخدمة والواجب ولا يبقي نفسه بعيداً غريباً. والرئيس الاسقف أو الكاهن أو الشماس، يجب الا يحسب نفسه فوق الآخرين، بل عليه أن يؤمن بقوة أنه خادم للآخرين (متى ٢٣:٨-١١)، والا يسعى لتنصيب نفسه "أباً" (بمعنى السيطرة والتسلط: ١طيمثاوس ٥:١) للجماعة، بل راعياً وخادماً لها.

الاب بهنام كجو

---

(٥) ورد هذا النص في مقال للاب ليكراند عن "ترؤس الاوخارستيا في التقليد" في مجلة *(Spiritus)*، العدد٥٩، ص٤٢٤

(٦) راجع الاب ايف كونكار: *(L'Ecclesia)* ص٢٦١-٢٦٧.

(٧) أورد هذا النص الاب ليكراند في مقاله المذكور، ص٤٢٥.

الكاهن كما يراه عالم الاجتماع

في اعقاب المجمع الفاتيكاني الثاني، طرأ تطور ملموس على صورة الكاهن -صورته لذاته وصورته في نظر المجتمع- تطور أسفر عن ازمة هوية لديه، إذ برز شبه صراع بين الدور الذي يضطلع به وبين انتظارات الناس منه، والمؤمنون منهم بنوع خاص... ومنذئذ برزت حاجة الكنيسة في كل مكان الى عملية تسليط اضواء العلوم الانسانية على واقعها ورسالتها ومهماتها التربوية والرسولية والروحية، والدور الذي تضطلع به مؤسساتها وانشطتها... ولا سيما من خلال ممارسة كهنتها مسؤولياتهم الراعوية. وعمدت بعض الكنائس الى الاستعانة باختصاصيين في علم الاجتماع لرصد الظاهرات التي طرأت، واعادة النظر في كثير من المفاهيم السائدة...

المقال التالي للاب بيوس عفاص -وقد اعتمد دراسة في علم الاجتماع الديني *(sociologie religieuse)* للاب فرانسوا هوتار، وكتاباً مشتركاً له مع جان ريمي "الكهنوت، السلطة، والتجديد في الكنيسة" (١٩٧٠)- هو محاولة جادة، من وجهة نظر علم الاجتماع، للكشف عن دور الكاهن ورسالته في عصر التحولات الثقافية والحضارية الكبرى، من شانها ان تتحول الى دعوة لتفعيل هذا الدور.

"أزمة الكهنوت" باتت أمراً لا يشك فيه اثنان، وقد امتدت خيوطها الى الكهنة في كافة الكنائس وكان لها لون خاص بحسب أختلاف البلدان والحضارات والظروف. ولا نقصد بأزمة الكهنوت تناقص الدعوات وظاهرة هجر الكهنة لرسالتهم، أنما ظاهرة عدم الارتياح التي انتابت العديد من الكهنة، وتقوم في صعوبة تحديد مهمة الكاهن ودوره في أعقاب التحولات التي طرأت على المجتمع وامتدت الى الكنيسة غداة المجمع المسكوني...

كان من أبرز عوامل التحول الحضاري دخول مفهوم "العلمنة" (*Sécularisation*) والذي بموجبه لم تعد الديانة، في مجتمع يعتمد على العلم والتقنية، تلعب الدور الذي كان لها في السابق حين كانت تحتل المركز من الحياة الاجتماعية. وكان لهذا التحول أثره على الكنيسة ابان انعقاد المجمع، حين انكبت على تحديد ماهيتها من جديد، معلنة أنها "شعب الله"، ومؤكدة على دور المعمَّدين الكهنوتي والملوكي والنبوي، ومشددة على مفهوم "الخدمة" في كل البناء الكنسي بحيث أخذت القيم الاولوية على القوانين والانظمة، فوضعت الكنيسة بذلك نهاية للعهد القسطنطيني، عهد النظام والتسلط وعهد النظرة الهرمية الى البنية الكنسية.

وكان لهذه المفاهيم أثرها الكبير على مفهوم الكاهن عن ذاته ومفهوم المؤمنين عنه، فأخذنا نلاحظ قيام عدة أشكال من "الخدم" التي لم تعد وقفاً على الكاهن، ونشعر بتلاشي ما كان يسمى بـ "رجال الدين" أو بـ "طبقة الاكليروس"، وبتقلص –وإن الى حد ما– تلك الهوة بين الكهنة والعلمانيين من جهة، وبين الكهنة وأساقفتهم من الجهة الاخرى.

هدفنا من هذا البحث هو أن نرسم لوحة مقتضبة لدور الكاهن من وجهة نظر اجتماعية (*Sociologique*) نلفت فيها الانتباه الى جوانب من حياة الكاهن ورسالته، كما تبدو للمراقب النزيه.

❋ دور الكاهن في عالم اليوم

تعيش البشرية اليوم مرحلة جديدة من تاريخها بحكم التقدم العلمي والتقني الذي أحدث تغييراً جذرياً في علاقات الانسان بالطبيعة وفي علاقاته مع سائر البشر: فلقد تبدلت علاقته بالطبيعة منذ أن اصبحت السيطرة على الكون وقوى الطبيعة هدفاً يسعى اليه كافة البشر؛ كما طرأ على العلاقات الاجتماعية تطور كبير بحكم انتشار وسائل الابلاغ بحيث أصبح العالم كله أسرة واحدة وتداخلت الحضارات في بعضها، فنتجت عن ذلك تعددية (*Pluralisme*)، لا حضارية وحسب بل أيديولوجية ودينية أيضاً. وقد امتدت هذه التحولات الى القيم ذاتها، وأخذنا نشهد تقلصاً في ميدان "القدسيات" سيما بعد أن أصبح الكثير من الظواهر الغريبة يفسر تفسيراً علمياً. فلا عجب، من ثم، اذا كان لهذه التحولات مردودات على مفهوم دور الكاهن، وقد طرأ عليه تطور يرتبط بتطور مفهوم العلاقة بين الكنيسة والعالم.

❋ في الأمس...

ويجدر بنا أن نلقي نظرة الى الدور الذي كانت تلعبه الكنيسة في المجتمع قبل الصناعي: ففي المجتمع الاقطاعي كانت الكنيسة تقوم بدور حماية الانسان ضد عناصر الطبيعة، مما ساعد على قيام "طقوس" لمختلف الظواهر، لا يزال بعضها قائماً حتى اليوم! ولما كانت الكنيسة تُعتبر عاملاً هاماً من عوامل الوحدة الثقافية بين الجماهير، كان من الطبيعي أن تحرص الدولة على وجودها وقد رأت فيها وسيلة "ايديولوجية" لفرض النظام والانضباط في المجتمع. أما في المجتمع الليبرالي، فقد اتخذت علاقات الكنيسة بالدولة شكل عقود تلتزم بموجبها الدولة دعم المؤسسات الكنسية (كالمدارس والمستشفيات والمياتم الخ....) طالما أن الكنيسة تؤدي من خلالها دوراً اجتماعياً–ثقافياً، غير أن هذا الدعم أخذ يتقلص تدريجياً

بحكم اضطلاع الدولة بهذا الدور. وفي المجتمع الحالي لم تعد الدولة بحاجة الى المؤسسات الكنسية، و لم تعد هذه المؤسسات عينها تلعب دور "المعوض" سيما بعد ان اصبحت بالدرجة الاولى في خدمة الجماعة المسيحية. وراحت الدولة ترتضي بحضور الكنيسة وتسمح لها بممارسة نشاطاتها وتقبل —والى حد ما— أن تلعب دوراً نبوياً في المجتمع ولكنها تأبى عليها أن يكون لها دور مباشر في تسيير المجتمع.

✵ اما اليوم..؟

فما هو موقع الكاهن في المجتمع الحالي؟

يتحدد "الدور" *(Rôle)* في مفهوم علم الاجتماع، على أنه مجموعة سلوكيات وأفعال يقوم بها شخص له مهمة *(Fonction)* اجتماعية، وتطلق عبارة "الدور" على مجموعة الافعال التي يقوم بها الشخص لتحقيق تلك المهمة[1]. ومما لا شك فيه أن مهمة الكاهن الاساسية مهمة لاهوتية تقوم في نقل بشارة الانجيل، غير أن تحقيق هذه المهمة منوط بأفعال وسلوكيات تشكل دور الكاهن. وهذه السلوكية تختلف في شكلها وأسلوبها باختلاف المجتمعات التي يؤدي الكاهن دوره فيها، وذلك يعني أن هذا الدور مرتبط بالاطار الاجتماعي—الحضاري لبلد وكنيسة ما. واذا كان بوسعنا أن نحدد، من وجهة نظر لاهوتية، جوهر المهمة الكهنوتية، غير اننا لا نستطيع، من وجهة نظر اجتماعية، أن نحدد المهمة الكهنوتية لكاهن ما من دون اعتبار الظروف والأطر التي يؤدي مهمته من خلالها.

من هذا المنطلق يصبح بامكاننا أن نتبين تطوراً في الرؤية لدور الكاهن يواكب التطور الذي طرأ على المجتمع. ففي العصر الوسيط، مثلاً، كان للكاهن دور اجتماعي—ثقافي، وكان المجتمع يعترف له بهذا الدور ويعتبره وسيلة لتوطيد النظام والسلام بين مختلف الطبقات الاجتماعية! فيما يبدو دوره اليوم محصوراً داخل المجتمع الكنسي، وقلما يتاح له أن يلعب في المجتمع الدور النبوي الذي ينسجم وطبيعة مهمته الانجيلية. ولكي نفهم جيداً هذه الظاهرة يجدر بنا أن نلقي نظرة الى واقع المؤسسة الكنسية ذاتها.

✵ البحث عن علامة حضور..

فالكنيسة، من وجهة النظر اللاهوتية، هي علامة الخلاص بيسوع المسيح، ولكنها في الوقت ذاته، ومن وجهة النظر الاجتماعية، مؤسسة بشرية تسعى الى أن يكون لها فاعلية

---

(١) يعتمد بحثنا دراسة في علم الاجتماع الديني *(Sociologie religiuse)* على أستاذنا الاب فرانسوا هوتار (راجع المقابلة التي أجريناها معه—ف. م. أيلول ١٩٧٣ ص٢٨٥)، ونخص بالذكر كتاباً مشتركاً له مع جان ريمي *F.Houtart et J.Rémy: Sacerdoce, autorité et innovation dans l'Eglise, Mame1970, 268p.*

في العالم الخارجي، ومن أبرز علامات حضور الكنيسة في العالم اشاعة المحبة بين البشر. غير أن تطوراً طرأ على مدلول "العلامات" في مجتمع اليوم.

وعلى سبيل المثال نقول بأن الشهادة للمحبة التي كان يؤديها الكهنة والرهبان والراهبات عن طريق المستشفيات والمدارس والجامعات الخ... لم تعد اليوم شهادة أكيدة للمحبة. ويحدث أن تصبح هذه العلامات شهادة مضادة حين تكون، مثلاً، هذه المؤسسات في خدمة الطبقة الغنية! لذا كان على الكنيسة، ازاء هذا التطور في مضمون العلامات، أن تبحث عن علامات جديدة لحضورها في المجتمع. ومن هذه العلامات، على سبيل المثال، وقوف بعض الكهنة والاساقفة الى جانب الفقراء والعمال والفلاحين ودفاعهم عن حقوق الانسان ومقاومتهم لاشكال الظلم.. ومشاركة المسيحيين الملتزمين بحركات التحرر ومساهمتهم الفعالة في كل ما من شأنه أن يبني عالماً تسوده العدالة والمحبة.

✵ ... وعن اسس للفاعلية

غير أن الكنيسة-المؤسسة بحاجة ايضا الى أن يكون لها فاعلية على صعيد حياتها الداخلية كي تتمكن من أداء الغاية من وجودها. وهذه الفاعلية تشمل نظامها الراعوي وكل أوجه نشاطاتها الروحية والرسولية... وهنا أيضاً يحتم التطور الاجتماعي-الحضاري على الكنيسة أن تطور، هي الاخرى، النظم والقوانين وأساليب العمل بما يتيح لرسالتها أن تكون مقبولة وفعالة. فالانتقال من حياة الريف الى حياة المدينة أحدث تحولاً كبيراً في المفاهيم والعقليات وانقلاباً في الادوار الاجتماعية، ولا عجب أن يكون لهذا التحول أثره على الكنيسة وعلى الدور الذي يلعبه الكاهن: فلم يعد الكاهن يتمتع بعين السلطة التي كانت له في المحيط القروي، وبات عليه أن يسعى الى اكتسابها، و لم تعد هذه السلطة تشمل كافة القضايا كما كانت عليه في محيط كان المؤمنون يخلعون على الكاهن مجموعة من الادوار بغض النظر عن حقل اختصاصه... وبكلمة وضع المحيط المدني حداً لتلك الوصاية التي كان يمارسها الكاهن.

وعلى سبيل المثال نقول بأن ظاهرة توسع المدن ونمط العيش في المدينة ذات المسافات المتباعدة تحتم على الكنيسة استبدال الاساليب الراعوية التي كانت صالحة في المحيط القروي بأساليب تنسجم مع الحاجات الجديدة: فالوسائل التي كانت متبعة مثلاً لضمان التعليم المسيحي للصغار لم تعد قادرة اليوم على ضمانه بشكل مرضي، بحكم المسافات وقلة الكهنة ونقص في الوسائل السمعية — البصرية والافتقار الى الاساليب التربوية الحديثة...

✵ كاهن، لمن؟ ولماذا

نظرة فاحصة على تاريخ الروحانية والكرازة الانجيلية تكشف لنا عن الاختلاف

في تحديد مفهوم دور الكاهن. فالمفاهيم التقليدية كانت مستوحاة من لاهوت يؤكد على النظام الكنسي بهرميته، ويشدد على روحانية كهنوتية كان الكاهن بموجبها شخصاً "مفروزاً" عن سائر البشر، بما يتضمنه هذا المفهوم من "تنزه" عن كل ما هو أرضي وزمني، و "تعفف" عن كل ما هو عاطفي وبشري، و "تضحية" بحقوق لها مكانتها في التوازن الانساني.. وهذه المفاهيم كانت —ولا تزال في بعض البلدان— في الاساس من التربية الكهنوتية التي تشدد على الدور الاداري والتعليمي للكاهن وتؤكد على "الفضائل الكهنوتية" في الانضباط والطاعة، على حساب الالتزام بدوره النبوي في العالم. وأن هذه التربية —ونشهد آثارها في العديد من الكهنة— اتبعت في غالب الاحيان النموذج الرهباني في تهيئة الكهنة لدورهم، مؤكدة على الثقافة اللاهوتية الكلاسيكية، ومهملة العلوم الانسانية ونخص بالذكر علم النفس وعلم الاجتماع والانتروبولوجيا.. فلا عجب اذا ما وجد كهنة اليوم صعوبة في فهم التحولات التي طرأت على المجتمع والظاهرات التي رافقتها، ومن ثم صعوبة في التكيف معها.

* كاهن، لمن؟

لقد خلق التحول الثقافي والحضاري تنوعاً كبيراً في المستويات الفكرية والمهنية وكانت من نتائجه تعددية في الاراء والنظرات والمفاهيم بين مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية. وهذه التعددية خلقت تنوعاً في التوقعات التي ينتظرها المؤمنون من الكاهن: فالشباب يتوقعون من الكاهن دوراً غير الذي ينتظره منه الشيوخ، وينتظر الصغار منه، في الاحياء الشعبية الفقيرة، دوراً يختلف تماماً عن الدور الذي ينتظره الصغار في الاحياء الغنية. وهكذا الامر بالنسبة الى الطلبة، بمختلف أعمارهم ومستوياتهم الثقافية، والعمال والموظفين وذوي المهن الحرة الخ... وهناك توقعات لدى المؤمنين الممارسين هي غيرها لدى غير الممارسين أو الذين هجروا الايمان؛ كما أن لغير المسيحيين أيضاً توقعات في الكاهن غير تلك التي ينتظرها منه المسيحيون.. ويكمن الخطر حين لا يجيب الكاهن سوى الى مطاليب فئة واحدة هي في الغالب فئة "الممارسين" التي تنتمي الى عالم خاص، ثقافياً واجتماعياً، وبديهي أن اهتمامه بهذه الفئة ينسيه دوره تجاه شرائح من المجتمع ليست باقل أهمية، وقد تكون أكثر حاجة.

غير أن الخطر الكبير يكمن حين لا يكون التطور الفكري متوازياً لدى الكهنة والمؤمنين معاً، فيحدث انقسام في الرؤية وينشأ صراع عنيف بين الصورة التي يحملها الكاهن عن ذاته والصورة التي يحملها المؤمنون عنه؛ كما ينشأ هذا الصراع من جراء التناقض بين الصورة التي يريد الكاهن ان يحملها المؤمنون عنه والصورة التي يحملها هو عن المؤمنين! وتنشأ الازمة حين تصطدم توقعات المؤمنين بعدم التجاوب لدى الكهنة، وغني عن القول أن التوقعات تقابلها دوماً أدوار تجيب اليها. وكثيراً ما يعبر الكهنة عن أزمة الثقة هذه باتهام

المؤمنين بقلة الايمان، متجاهلين ان التحولات الاجتماعية احدثت تطوراً في مفهوم المؤمنين لدورهم، وأن عليهم أن يطوروا هم أيضاً مفهومهم لدورهم ويكيفوا أسلوب ممارستهم لهذا الدور.

✵ كاهن، لماذا؟

ان ما يتميز به الكاهن، بحكم تربيته، هو قدرته على اصدار أحكام على ضوء الانجيل، تجاه القضايا والاحداث، وقد تكون مساعدته للناس على تكوين هذه الاحكام، وما ينتج عنها من مواقف، احدى أبرز مهماته، طالما أن مهمته الرئيسة تقوم في جعل رسالة الانجيل تتغلغل في المجتمع. غير اننا نتساءل –ودوماً من وجهة النظر الاجتماعية– هل الكاهن مهيأ للقيام بهذا الدور في عالم اليوم؟

لنلق نظرة فاحصة على سلوكية الكاهن وردود الفعل لديه من خلال ممارسته لدوره.

كثيراً ما يبدو أن الكاهن يصدر أحكاماً تنقصها الموضوعية والنظرة الصائبة، ومرد ذلك: الخلط بين حكم "اجتماعي" (*Sociologique*) وحكم "أدبي" (*Morale*). ولنأخذ مثلاً يوضح لنا هذا الخلط بين هذين الشكلين من الحكم: فحين يشهد الكاهن تناقص عدد المواظبين على سماع القداس في خورنته، يميل للفور الى تفسير هذه الظاهرة بأنها دليل على نقص في الروح الجماعية (وهذا حكم أدبي)، في حين قد تكون هذه الظاهرة ذاتها دليلاً على رغبة المؤمنين في قداس يجيب بالاكثر الى تلك الروح الجماعية التي لا توفرها خورنته بأسلوب قداديسها التقليدية (وهذا حكم اجتماعي). وهكذا هي الحال حين يطلق الكاهن حكماً (ادبياً) على أولاد لا يترددون الى مركز التعليم المسيحي، متهماً اياهم وذويهم بقلة الالتزام وعدم الرغبة في الثقافة المسيحية، في حين قد يكون السبب مضمون هذا التعليم وأسلوب اعطائه، أو الى وقت غير ملائم أو بعد المسافة وقلة وسائل النقل.... وبوسعنا أن نكثر الامثلة!

ونصبح أحكام الكاهن في غير مكانها حين تكون رؤيته للانسان ناقصة أو جزئية، كأن يتجاهل البعد الكلي للمجتمع والقيود التي يفرضها المجتمع على الفرد، أو يتناسى الظروف الاجتماعية–الاقتصادية التي يخضع لها الناس ولا سيما في المحيط المدني. وتتضح هذه الرؤية الناقصة حين ينسب التغير الذي يطرأ على سلوكية المؤمنين الى الانفلات والانحدار الخلقي: فحين يرجّع، مثلا، تناقص الولادات أو تباعدها –تلك ظاهرة عالمية– الى نقص في السخاء أو الى الانانية، يكون قد تجاهل الظروف المجتمعية والصحية والتربوية والاقتصادية، ولا عجب اذا ذهبت توجيهاته أدراج الرياح، وبدا وكأنه يعظ في صحراء!

وكثيراً ما يساورنا الشك في مدى الموضوعية التي تتصف بها أحكامه، حين تذهب به أحكامه السريعة الى الجزم بين الخير والشر والى اقامة الحدود الفاصلة بينهما،

متناسياً أنه من الصعب جداً اصدار حكم قاطع من دون الاحاطة بكل جوانب قضية ما وأبعادها ونتائجها. ويحدث ذلك في العديد من القضايا السلوكية والنفسية وحتى الدينية، ونتسائل: الى أي مدى يستطيع الكاهن أن يحكم بموضوعية في الشؤون السياسية وفي قضايا العدالة، أو في ظاهرة الحب والعلاقات الجنسية وظاهرة الموضة الخ..؟ فلا عجب اذا بدا وكأنه في واد المؤمنون في واد آخر! ويتعرض الكاهن لخطر جسيم حين يحيط نفسه بأشخاص معدودين يقدمون له صورة للاوضاع قد تكون ناقصة أو خاطئة، سيما اذا كانت عقلية هؤلاء الاشخاص هامشية لا تمثل مختلف الطبقات ولا تعكس تعددية الاراء والمفاهيم.

* فلبل من علم الاجتماع!

فلكي تتصف أحكام كاهن اليوم بالموضوعية ومواقفه بالحكمة وتوجيهاته بالاستقامة، عليه أن يكون ملماً بجوانب من علم الاجتماع، بدءا بالقدرة على رصد الظواهر وتحليلها باسلوب علمي، فلا تضحي توجيهاته ومواعظه متخلفة عن مسيرة المجتمع ومن ثم غير فاعلة: فبوسع ملاحظة جادة ودائمة لردود الفعل المعاصرة أن تجعله يعيد النظر في المضمون اللاهوتي لرسالته ويكيف دوما سبل أدائها بما يتلاءم ومقتضيات العصر.

واذا كان يريد كاهن اليوم أن يكون له دور "المحرك" و"القائد" *(Leadership)*، لا يكفي أن يعتقد بأن بوسع المبادئ أن تعطي حلولاً لكل المعضلات، انما عليه أن يتبنى موقفاً "مستقبلياً"، أي أن يكتشف الابعاد التي تنطوي على الاوضاع المستجدة ويسلط عليها نظراً ثاقباً. فعلى سبيل المثال، يتوجب عليه، قبل أن يجزم بان التلفزيون يحطم الحياة العائلية، أن يتساءل كيف يمكن للتلفزيون أن يكون وسيلة لتنمية حياة عائلية جديدة، سيما وانه من العوامل التي تساعد على تبادل الاراء وتغذية الحوار في نطاق الاسرة. وهكذا الامر بالنسبة الى الموقف الذي عليه أن يتخذه تجاه العديد من ظواهر التجدد التي تبدو علاماتها في الكنيسة على الصعيد الروحي والراعوي والرسولي... مثل هذا الموقف "المستقبلي" يتطلب من الكاهن رؤية دينامية عن الله تمكنه من أن يكتشف عمله في كل انسان، مؤمنا كان أم غير مؤمن، وتحمله على تقييم كل ما هو حق وجيد وصالح في الديانات والحضارات والفلسفات... وبكلمة، في كل مظاهر الحضارة العصرية. وهكذا يتجنب الوقوع في خطر التزمت والتعصب.

وان بوسع هذا الرصد النزيه للظواهر المجتمعية —سيما اذا اقترن برغبة صادقة وجادة في فهم هذه الظواهر— أن يمكّن الكاهن من اعادة النظر في الكثير من أوجه نشاطه الراعوي والرسولي، والسعي الى تشخيص الحاجات الجديدة وتلبيتها. غير أن عليه أن يتغلب على التبعية وعلى مرض الابقاء على كل ما هو قائم، بحجة من الحجج الواهية، وأن تكون له القدرة على المبادرة دون انتظار "الضوء الاخضر" من الاسقف، واستنباط الاساليب الراعوية الملائمة للظروف والاوضاع المستجدة.

لقد حرصنا، طيلة هذا البحث، على الالتزام بوجهة نظر اجتماعية بشأن الكاهن ودوره ورسالته، غير أن هذا الالتزام لا يمنعنا من أن نعبر عن أمنية تقوم في توجيه الدعوة الى الكهنة في قطرنا الى اعادة النظر في دورهم انطلاقاً من فكر لاهوتي معاصر يكون بمقدوره الا يدعهم يكتفون "باصلاحات" شكلية لا تفي بالمرام، ويحملهم على تجنب "تمييع" الصراع الذي يعيشونه، ويمنع الاساقفة من الاعتقاد "بتصفية" الازمة بفضل بعض الاصلاحات التي لا تنفذ الى قلب الازمة والى جذورها العميقة....

وسيكون هذا البحث –الذي لم يدع تقديم حلول جاهزة– قد بلغ هدفه اذا حمل الاساقفة والكهنة والمؤمنين على رصد الواقع، ودفعهم من ثم الى اعادة تحديد دور الكاهن في كنيسة وعالم في تحول دائم وسريع.

الأب بيوس عفاص

في السبعينات من القرن الماضي، دق ناقوس الخطر في العالم اجمع بسبب ظاهرة التناقص في عدد الكاهن والانحسار الذي شهدته الدعوات الكهنوتية في كل مكان، فضلاً عن انخفاض ملموس في مستوى التنشئة في المعاهد الكهنوتية... انها صرخات استنفار واستنجاد على لسان المسؤولين في الكنيسة، امتزجت بها احكام مسبَقة بشأن قلة الايمان والانخفاض في السخاء لدى الشباب، الى غير ذلك من الاسباب... ولم يشأ اصحابها ان يطرحوا على انفسهم بعض التساؤلات الهامة التي بوسعها ان تدلهم على مكامن ما يسمى بـ "ازمة الدعوات"!

وكنيستنا في العراق، لَكَم بقيت بمنأى عن طرح التساؤلات الخطيرة بشأن مستقبل المسيحية فيه، وهو مرتبط بكيفية اعداد جيل من الكهنة يكون بوسعهم ان يواجهوا التحديات التي تنتظرهم -وتعكس الاحصاءات التي ابقيناها على حالها واقع الكنيسة في اواخر السبعينات. فالى الاحاطة بحجم الازمة وتداعياتها على مستقبل الكنيسة العراقية كان المرحوم نجيب قاقو قد لفت الانتباه وقدم بعض الحلول.

نجيب قاقو من مواليد ١٩١٦، ومن قدامى معهد مار يوحنا الحبيب. باحث ومترجم ومتتبع، ترجم عدداً من المسرحيات، وكتب في كثير من المجلات وفي مقدمتها الفكر المسيحي التي كان عضواً في هيئة تحريرها الاستشارية لاكثر من ٢٠ عاماً، وقد احصيت له فيها ٤٨ مساهمة، بينها ملفات وتحقيقات وتراجم... فضلاً عن المقالات التربوية والاسرية. توفي عام ١٩٩٤، تاركاً مكتبة عامرة اهدت عائلته جزءاً منها الى مكتبة المحبة في كنيسة مار توما. ولعل ابرز ما صدر عنه ترجمته كتاب "الاثار المسيحية في الموصل" للاب جان فيي الدومنيكي، ظهر عام ٢٠٠٠.

مستقبل الدعوات
الكهنوتية في العراق

يشكو المسؤولون الكنسيون في قطرنا من قلة عدد الكهنة العاملين ومن الانخفاض الذي طرأ على الدعوات الكهنوتية. ولكن هل فكر أساقفتنا -ومعهم الكهنة والمؤمنون- في الاسباب العميقة لهذه الظاهرة؟ وهل حظيت هذه القضية بدراسة موضوعية جادة بغية معالجتها وايجاد الحلول المناسبة لها؟

حتى عهد قريب، كنا نعتقد أننا بمأمن من الازمة التي اجتاحت الكهنة في الغرب في السنوات العشرين الاخيرة، والتي تمثلت بهجر المئات من الكهنة[1] -ولم يكن الزواج دافعهم في أغلب الاحيان- وبتناقص عدد الراغبين في الكهنوت، فضلاً عن التضايق الذي يبديه العديد من الكهنة حول مفهومهم عن الكهنوت وسبل تأديتهم لرسالتهم وأسلوب حياتهم الخ...

ها نحن نرى أن هذه الازمة هي على أبوابنا اليوم، ولاسباب يعود بعضها الى سوء تنظيم حياة الكاهن، على الصعيدين

(١) تشير الاحصائيات الى أن الكهنة الذين تركوا الخدمة أو توفوا عام ١٩٧٤، في بلدان أوربا، يشكلون ٨٩,٩% من نسبة الكهنة المرسومين حديثاً!
ففي عام ١٩٧٥ فقط، بلغ عدد الكهنة "التاركين" حوالي ٨٠٠ كاهن: ٢٥٧ في اسبانيا و١٥١ في فرنسا و١١٥ في ايطاليا.. فيما لم تسجل بلدان أوربا الشرقية الا نسبة ضئيلة من هذا العدد *(Pro mundi vita, n°73)*

الراعوي والمعاشي، أو الى علاقات بين الكهنة والاساقفة لا تتسم بالروح الانجيلية، أو الى سوء توزيع في المهمات الملقاة على عاتق الكهنة، فضلاً عن المواقف المتخاذلة من جانب السلطة الكنسية في مواجهة الصعوبات التي تعرضت لها معاهدنا الكهنوتية في السنوات الاخيرة... فلا ينبغي أن يأخذنا العجب ونحن نشهد "هروب" عدد من الكهنة الشباب -وبعضهم بحجة الدراسة-، و"جمود" عدد آخر انطووا على ذواتهم في عزلة مريرة، وكان بامكانهم أن يؤدوا خدمات جلى بحكم ثقافتهم اللاهوتية والانسانية؛ كما نشهد (تبعية) نفر آخر من الكهنة يواصلون السير حرصاً على "مصالح" لا يودون أن يخسروها أو طمعاً في مناصب ينتظرونها بصبر! وبات الكهنة الذين يعكسون صورة صادقة عن رسالتهم الكهنوتية يعدون على الاصابع!

أزمة ذات وجهين

ان أزمة الكهنة عندنا ذات وجهين: أزمة في الكم، وازمة في النوع، وكلا الوجهان خطيران، مما يهدد كنيستنا، في مستقبل قريب، بأوخم العواقب.

* أزمة في الكم

ان عدد الكهنة[٨] الحالي في العراق قد يوحي بان الازمة لا زالت بعيدة، وكنيستنا تستفيد الان مما قدمته لها السنوات الماضية. ويخيل الينا أننا لا زلنا بخير طالما أن هناك كاهناً لكل ٢٤٣٨ مؤمناً، اذا اعتبرنا أن عدد كهنتنا يبلغ ٢٠٨ وأن عدد المسيحيين نصف مليون نسمة، وإن كان هذا المعدل يتفاوت بين طائفة وأخرى، وبين أبرشية وأخرى وبين خورنية وأخرى. ويأخذنا التفاؤل حين نعلم بأن هناك بلداناً، ولا سيما أفريقيا وأمريكا اللاتينية، يحظى فيها كل خمسة الاف أو عشرة الاف مؤمن بكاهن واحد، كما في شيلي والمكسيك وكواتيمالا.

غير أن هذا العدد سيهبط الى حوالي النصف خلال السنوات العشر المقبلة طالما أن أكثر من ٥٠٪ من الكهنة تتراوح أعمارهم بين ٤٠-٦٠ سنة، وأن حوالي ٢٠٪ منهم قد تجاوزوا الستين[٢]، وطالما لا زلنا نفتقر الى رافد[٣] خصب يضمن لكنيستنا كهنة جدداً

(٢) للكنيسة الكلدانية حالياً في بغداد، على سبيل المثال، ٢٨ كاهناً في خدمة ٢٢ خورنية (بمعدل كاهن واحد لكل ٨٩٢٨ باعتبار ان عدد مؤمنيها ٢٥٠,٠٠٠): ٩ منهم دون الاربعين و١٤ بين ٤٠-٦٠، وخمسة تجاوزوا الستين.

(٣) هذا الرافد كان يتمثل، لسنوات خلت، بمعهدين اكليريكيين: المعهد الكهنوتي البطريركي الكلداني ومعهد مار يوحنا الحبيب للآباء الدومنيكيين، ويضمان كلاهما حالياً حوالي ٦٠ طالباً يتعابون دراستهم الاعدادية والثانوية في المدارس الرسمية، يترك معظمهم في منتصف الطريق. وليست هناك رؤيا واضحة حول متابعتهم الدراسة الفلسفية واللاهوتية بعد الحصول على البكلوريا!
(راجع المقال: "هل سيكون لنا كهنة بعد اليوم؟" -العدد الممتاز ١٩٧٧ ص٣٤١-٣٥٣).

يحلون محل العاجزين والمتوفين، لا سيما وأن التوسع الذي يطرأ على المدن سيتطلب المزيد من الكهنة لتأمين خدمة متكافئة مع حاجات المؤمنين، وبنوع خاص في بغداد حيث يؤلف المسيحيون ٧٢% من مجموع المسيحيين في القطر.

* أزمة في النوع

الاساقفة والكهنة في العراق

الطائفة	الاساقفة	الكهنة[٤]	كاهن لكل
الكلدان	٩	٩٥	٣٣٢٧
النساطرة الاثوريون	٤	٣٤±	٢٤١٢
السريان الكاثوليك	٢	٣٤	١١٩١
السريان الارثوذكس	٢	١٨	١٦٥٠
الارمن الارثوذكس	١	٥	٣٨٠٠
اللاتين	١	١٦	؟
الارمن الكاثوليك	١	٣	٧٢٧
الروم الارثوذكس	١	١	١٥٠٠
الاقباط الارثوذكس	-	١	١٥٠٠
الروم الكاثوليك	-	١	٥٠٠
	٢١	٢٠٨	٢٤٣٨

غير أن أزمة الكهنة من حيث النوع هي أكثر خطورة على مستقبل الكنيسة في قطرنا من أزمة انخفاض عددهم. ولهذه الازمة أسباب عديدة يتعلق بعضها بمفهوم رسالة الكاهن ودوره في عالم طرأت عليه تحولات عميقة على مختلف المستويات.. وتقع مسؤولية هذه الازمة على الاساقفة والكهنة والمؤمنين على حد سواء. وفي ما يلي نستعرض بعض جوانبها وكيفية معالجتها.

* مفهوم رسالة الكاهن

لا يزال الجزء الاعظم من المؤمنين والكهنة أنفسهم متمسكاً بالمفهوم التقليدي لرسالة الكاهن. انهم يرونها مقتصرة على "توزيع الاسرار" من اقامة القداس وعقد الزيجات ومنح العماذ والقيام بمراسيم الدفن وأصدار "الشهادات" الخ... والكاهن المثالي في نظرهم هو من كان يتقن الالحان الطقسية، وله صوت جميل! وينسون أو يتناسون أن هذه المهمات لا تشكل سوى جزء يسير من عمله. في حين أن الصق عمل بالكاهن هو حمل بشارة الخلاص الى كل الناس، بالتعليم والوعظ والارشاد: "اذهبوا في العالم اجمع، واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها" (مرقس ١٦:١٥)، "اذهبوا وتلمذوا كل الامم.. وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به..." (متى ٢٨:١٩-٢٠).

(٤) أثبتنا في هذا الجدول عدد الكهنة ومن ضمنهم أولئك الذين يتابعون دراستهم في الخارج. ولمزيد من المعلومات حول "كنيسة العراق"، يرجى مراجعة العدد الممتاز لعام ١٩٧٧.

وتجدر الاشارة الى أن ٣٦ كاهناً، من كافة الطوائف، توفوا منذ عام ١٩٧١ وحتى اليوم -ورد ذكرهم في الفكر المسيحي- ورسم في الفترة عينها ٣٥ كاهناً جديداً، ٥٠% منهم لم يتنقفوا ثقافة لاهوتية رصينة، مما ينبئ بانخفاض النوعية بين صفوف الكهنة!

ان عمل الكاهن الاساس هو تعليم الناس وارشادهم الى بشرى الانجيل، هذه البشرى التي تحرر الانسان من كل القيود التي تعيقه عن معرفة الله ومحبته، عبر معرفة الانسان وحبه له والتزامه قضاياه. ويتمثل دور الكاهن التعليمي والقيادي بما يقدمه من مواعظ وتوجيهات في قضايا الانسان اليومية على ضوء الانجيل، لا في المواعظ التقليدية التي ليس لها صدى في الواقع. كما يتمثل بما يحققه للمؤمنين، على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم الثقافية والفكرية. من لقاءات وندوات تخلق فيهم نظرة انجيلية الى الاحداث والقضايا. وتربي فيهم ضميرا مسيحيا حيا ويقظا...

أفلسنا ازاء أزمة في نوعية الكهنة حين تكون الجوانب الثانويه من حياة الكاهن قد تغلبت على الجوانب الجوهرية التي تقوم عليها رسالته؟

* أهناك أزمة ايمان لدى الشباب؟

ويسوغ لنا أن نتساءل: ما هي الاسباب التي تحمل شبابنا على الاحجام عن اختيار درب الكهنوت؟

كانت الثقافة الفلسفية والدينية هي السائدة في المجتمع حتى النصف الثاني من القرن١٨. وبقيام الثورة الصناعية في أوربا، انتقلت المجتمعات الى ثقافة علمية تركزت على دراسة المادة وكيفية تحويلها الى أشكال أخرى لخدمة الانسان. وكان من نتائج هذا التحول اندحار الافكار الدينية وتراجعها أمام المد العلمي. وهذا ما حصل في شرقنا أيضاً بعد أن عزته الصناعة والتقنية.

كان الكاهن عندنا، حتى عهد قريب، يتمتع بمركز مرموق بفضل ما كان يحظى به من ثقافة. في حين كانت جماهير الشعب غارقة في الجهل. وبانتشار الثقافة وتقدم الصناعة انفتحت أمام الجيل الجديد أبواب واسعة للعمل، وانصرف شبابنا عن الامور الدينية ولم تعد تستهويهم الحياة الكهنوتية وما تفرضه عليهم من التزامات وقيود.

* ما هي الاسباب التي تحمل شبابنا على التردد في اختيار الكهنوت؟

قد تكون هذه الظاهرة جزءاً من الازمة الايمانية لدى الشباب. ولكننا لا نستطيع أن نتهمهم بقلة السخاء والعطاء. ولو تفحصنا جيداً الاسباب التي تعدل بالشباب عن التفكير بعطاء الذات في الكهنوت، لوجدنا أن معظمها يعود الى ثقافة دينية هزيلة لم تواكب ثقافتهم العلمية، فضلاً عن أن الصورة التي يعكسها الكهنة حالياً بعيدة كل البعد عن الصورة التي يتوقعها الشباب، فلا عجب اذا ساورهم التردد في الانخراط في الكهنوت.

* مسؤولية الكهنة والاساقفة

ان الاختلاف في مفهوم الكهنة عن عملهم –وقد سبقت الاشارة الى ذلك– هو في أصل الارتباك الذي نشهده في حياة الكهنة ولا سيما على صعيد توزيع وتنسيق العمل الراعوي. فهناك كهنة مرهقون بكثرة الاعباء والمسؤوليات التي يقومون بها، ولا سيما في نطاق التثقيف المسيحي، الى جانب العمل الخوري المألوف، فيما يشكو كهنة آخرون من الفراغ والضياع! ومن المؤسف ان تكون النشاطات التي يزاولها الكهنة في مختلف أوجه التثقيف والعمل المسيحي –ولا سيما مع الشباب– مفتقرة الى الكثير من التنسيق والدعم من جانب الاساقفة.

ومن ناحية أخرى، يعاني الكهنة من ارتباك في حياتهم المعاشية سيما في الابرشيات التي لا يزال الكهنة فيها يعتمدون، في معيشتهم، على ما يقدمه لهم المؤمنون من هبات وحسنات بمناسبة الاعياد ومنح الاسرار، وأصبحوا من جراء ذلك موضوع سخرية وتندر! فضلاً عن أن هذا الاسلوب يحدو بالكاهن الى البحث الى تعيينه في خورنة "دسمة" ويترع به الى التكاسل عن الاعمال التي لا تدر عليه المال. كما أن هذا الاسلوب هو في أصل التفاوت في الغنى بين الكهنة، ولا تخفي الاثر السيئ الذي يتركه الكهنة الموسرون الذين يخلفون ثروة كبيرة لدى وفاتهم! فحبذا لو أخذت كافة الابرشيات في القطر بمبدأ مجانية الخدمة وتخصيص رواتب شهرية تغذى من أوقاف الكنائس ومن مساهمات المؤمنين السنوية، على غرار النظام الذي تبنته مؤخرا بعض الابرشيات (راجع ف. م. العدد ١٣١ والعدد ١٤٥).

ويضاف الى الاضطراب في مجالات عمل الكاهن وأوضاعه المعاشية خلل في علاقاته مع الاسقف، ويعود هذا الخلل في أغلب الاحيان الى نزاع حول مفهوم السلطة بين الاساقفة والكهنة، وقد يؤدي هذا النزاع الى أزمة حادة تهدد عمل الكنيسة كله بعواقب وخيمة. ونقولها صريحة بأن بعض الاساقفة لا زالوا يحملون مفهوماً بعيداً عن المفهوم الانجيلي الذي تكون السلطة بموجبه خدمة وليس تسلطاً أو تحكماً: "من كان فيكم كبيراً، فليكن لكم خادماً". وقد تدفع أحياناً مواقف بعض الاساقفة بالكاهن الى التخلي عن أبرشيته –إن لم يكن عن كهنوته– فيبحث عن عمل آخر، قد يكون خارج بلاده!

مستقبل الكاهن، الى أين؟

وهكذا فان افتقار المؤمنين ولا سيما الشباب منهم الى ثقافة دينية رصينة، والجوانب السلبية في حياة الكاهن على الصعيد الروحي والراعوي والرسولي والمعاشي، الى غير ذلك من الاسباب، تشكل عوامل تصد شبابنا عن التفكير في تخصيص ذواتهم في الكهنوت. والسؤال الذي يطرح ذاته الان هو: هل فكرنا جديا، أساقفة وكهنة وعلمانيين، في حجم الازمة التي تواجهها كنيستنا وستواجهها في مستقبل ليس ببعيد؟ ماذا اعددنا من خطط لمعالجة هذه الازمة بما يتناسب وحجمها وأهميتها؟ وبكلمة، ماذا سيكون مستقبل الكهنوت عندنا؟

لست أدري اذا كان السادة أساقفتنا الاجلاء من مختلف الكنائس في القطر قد أولوا مشكلة الدعوات الكهنوتية والرهبانية اهتماما خاصا وتدارسوها في كل جوانبها وتشعباتها؟ ولست أدري اذا كانوا قد انكبوا على دراسة جادة وشاملة لملف الكهنة وواجهوا الازمة التي اجتاحت الحياة الكهنوتية بوجهيها الكمي والنوعي، بما تقتضيه من رؤيا صافية تتسم بالرصانة والموضوعية؟

فرجائي الى أصحاب السيادة أن يسمحوا لي، من موقع عضويتي في كنيسة المسيح، أن أطرح بعض الاقتراحات آملا أن تلقى لديهم أذنا صاغية:

١- التركيز على التثقيف المسيحي المتواصل لجميع المؤمنين على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم الثقافية، بتنظيم دروس دين مبرمجة وندوات تستخدم فيها وسائل الاعلام العصرية، الصوتية منها والمرئية.. وحبذا لو يكون هذا النشاط التثقيفي مشتركاً بين كافة الطوائف، وتنسقه لجنة مشتركة يساهم فيها كهنة وعلمانيون من مختلف الطوائف[٥].

٢- السعي الى اشراك العلمانيين الملتزمين بمهمة التثقيف المسيحي، شريطة أن يكونوا مؤهلين لهذه المهمة. لذا يقتضي اعدادهم لها عن طريق دورات لاهوتية مركزة تمتد على فترة سنتين أو أكثر وتشمل كافة حقول الثقافة المسيحية.

٣- لما كنا نفتقر الى رافد يمد كنيسة العراق بكهنة جدد ذوي ثقافة لاهوتية وانسانية عالية، أصبح من الضرورة الحتمية دراسة مشروع تأسيس معهد اكليريكي متطور يكون قادراً على تلبية حاجات الكنيسة الراهنة والمستقبلة. ويحبذ الا يقبل فيه الا طلاب قد أكملوا الدراسة الاعدادية أو الجامعية، بحيث يكون اختيارهم للكهنوت اختياراً واعياً لا يعقبه ندم.

وأقترح أن يخير الكاهن، قبيل رسامته، بين البتولية والزواج، سيما وأن ليس هناك في كنيستنا الشرقية –بشطرها الكاثوليكي أيضاً– ما يمنع وجود كهنة متزوجين، شريطة أن يكون الكهنة المتزوجون قد تلقوا ذات الثقافة اللاهوتية، فيكلفون بذات الاعمال الراعوية والرسولية، ولا يعتبرون كهنة من درجة ثانية!

٤- السعي الى تنسيق العمل بين الكهنة والاخذ بمبدأ التخصص والتفرغ بحيث لا يكون كل كاهن مسؤولا عن كل شيء، انما يستفاد من قابليات واختصاصات بعض الكهنة لخدمة مختلف أوجه النشاط الكنسي والتي تتعدى "توزيع الاسرار"! وبات من الضروري أيضاً العمل على تحرير الكاهن من الاعباء التي بوسع العلمانيين أن يقوموا بها كادارة الاوقاف وصيانتها، الى غير ذلك من القضايا الادارية والمالية. ويتحقق هذا التنسيق عن طريق المجالس الابرشية والخورنية التي آن لها أن تبصر النور!

(٥) راجع مقال "من أجل تثقيف مسيحي متواصل للبالغين" (ف. م. العدد ١٤٥، ص٢٢٩).

٥- تعميم نظام معيشة الكهنة الذي تبنته بعض الابرشيات –وإن كان بحاجة الى بعض التعديلات– انطلاقاً من مبدأ مجانية الخدمة الروحية، كونه يضمن للكاهن عيشاً كريماً ويجنبه مخاطر الانزلاق في جمع المال ويحمله على الانصراف الى رسالته بتجرد واخلاص. وحبذا لو يصار الى تحقيق مشروع للكهنة الذين يعتزلون العمل بسبب المرض أو الشيخوخة، كاتخاذ أحد الاديرة لسكناهم، على أن توفر لهم فيه وسائل الراحة والعناية. غير أن مشروعاً كهذا لا يتم الا بتضافر الجهود ومساهمة كافة الطوائف فيه.

فالى جميع المعنيين بشؤون كنيستنا في العراق أسوق هذه المقترحات عساها تلقى لديهم صدى، فتحملهم على التفكير الجاد في مشكلة لها أثرها الكبير على مستقبل الايمان في هذا البلد، والاسراع في معالجتها قبل أن يستفحل الداء فتصعب معالجته.

نجيب قافو

الكاهن "موزع" أسرار؟

الصورة التي يحملها غالبا المؤمنون عن الكاهن تقتصر على كونه "موزع اسرار" يتقاضى لقاءها اجراً! وكثيراً ما يساهم الكهنة انفسهم في ترسيخ هذه الصورة حين يعمدون الى منح الاسرار بطريقة آلية رتيبة -وبلغة لم تعد مفهومة- تحمل على الشك في عمق ايمانهم بها، سيما حين لا يسبقها اعداد يتناسب وقيمتها، او حين تنتفي منها مشاركة المؤمنين...

هذا المقال للاب عتيشا يضع اصبعاً على الجرح في محاولة للكشف عن مكانة الاسرار في الحياة المسيحية -وسبق للفكر المسيحي ان تناولت بالبحث الاسرار بصفتها "ينابيع خلاص" بين الاعوام ١٩٧٤-١٩٧٦- بصفتها لقاء مع المسيح، داعياً الى ضرورة اجراء اصلاح ليتورجي في رتبها وممارستها، من شأنه ان يحافظ على اصالتها ويتلاءم في الوقت ذاته مع مقتضيات العصرنة.

الاب يوسف عتيشا من مواليد ١٩٢٩، خريج معهد ماريوحنا الحبيب حيث رسم كاهناً عام ١٩٥٨، بعد خدمة راعوية في البصرة، دخل الرهبنة الدومنيكية وابرز نذوره المؤبدة فيها. وخلال نصف قرن ادى خدمات روحية وثقافية للكنيسة في بغداد، وأحصي له عدد لا بأس به من الكتب المؤلفة او المعربة، فضلاً عن ٣٤ مساهمة في "الفكر المسيحي" بين الاعوام ١٩٧١-١٩٩٤.

يدّعي البعض ان الازمة التي تجتاح الكنيسة في عصرنا ناجمة عن قلة الايمان في قلوب المسيحيين الذين يبدون غير مكترثين للشؤون الدينية، لان المادة قد استحوذت على تفكيرهم فلم يعودوا يتذوقون طعم كل ما يمت الى العالم الروحي بصلة!

مثل هذا التحليل السريع للواقع لا يقنع مطلقاً ولا يعطي مفاتيح لحل المشاكل التي تعاني منها الكنيسة، وفي مقدمتها قضية الكهنوت التي تجتاز أزمة شديدة برزت بعنف في حقبة ما بعد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، وان لم يكن المجمع سببها المباشر. ولقد ظهرت هذه الازمة بنوع خاص في طريقة "توزيع" الاسرار وفي الدور الراعوي الذي يمارسه الكهنة، مما خلق بلبلة في صفوف الاكليروس وحملهم على التساؤلات حول نشاطهم الرسولي ومهمتم الراعوية في العالم المعاصر.

ويحق لنا ان نتساءل: ألسنا نتذرع بحجج وهمية حين نلقي اللوم كله على الشعب بسبب تهربه من كنائسنا وابتعاده عن قبول بعض الاسرار؟ أليس الاحرى بنا

أن نجابه هذا الواقع ونبحث عن أسبابه العميقة عن طريق دراسة جادة مستمدة من العلوم الحديثة؟

❋ أصبع على الجرح؟

قائمة طويلة من المشاكل تطرح اليوم حول الاسرار المقدسة: فالاسرار باتت مريضة لان الكهنة مانحيها أصيبوا بمرض الروتين القاتل لدى احتفالهم بها، بحيث لم يعد المؤمنون يقبلون عليها بشوق وحماس، ولم يعودوا يجنون الفوائد الروحية المنوطة بها، فضلاً عن أن الايمان نفسه يناله الضرر من جراء الرتابة التي تهيمن على طريقة منح الاسرار. فلا يكفي أن يفتخر المسيحي متى حضر القداس يوم الاحد واعترف بالطريقة السريعة التي اعتاد عليها وتناول القربان بمناسبة الفصح... ولا يمكن لاي كاهن أن يرضي ضميره بالشكل الذي به يعمذ الاطفال، دون أن يتلقى الاباء والامهات توجيهات حول مسؤولياتهم في رعاية بذرة الايمان التي يزرعها العماذ في نفوس اطفالهم. كما لا يمكنه أن يطمئن للاسلوب الذي به يتم الاعتراف حالياً، ولا سيما في مواسم الاعياد الكبرى.

وكيف يمكنه أن يرتضي باقامة القداس —وهو مركز الحياة المسيحية— بالصيغة الرتيبة التي يحتفل بها حالياً وبلغة لم يعد الشعب يفهمها[1]؟ ناهيك عن بركة الاكليل التي تمنح دون أن يسبقها استعداد روحي يمكن العروسين من مواجهة مسؤولياتهما الزوجية، وعن سر مسحة المرضى، هذا السر "المريض" الذي يشمئز منه المؤمنون لانهم لا يفقهون ما ينطوي عليه من أبعاد في مواجهة الالم والموت...

أين يكمن المرض؟

لا عجب أن تتعرض الكنيسة —ككل كائن حي— الى الامراض والاسقام والهرم، غير أن من ميزات الحياة في الكنيسة هي قابليتها على التجدد واستعادة ما فقدته من نشاط وحيوية. وما دمنا بصدد الاسرار وطريقة منحها، فلا ينبغي أن يأخذنا العجب حين نرى الروتين قد تسرب إليها مع مر الايام، وأضحت وكأنها طقوس جامدة خالية من الروح. فمن الضروري جداً أن تستعيد الاسرار روحها وتبحث عن أصالتها لتعود ينابيع نعم روحية تنعش حياة المؤمنين. ألم يكن أحد أبرز مواقف المسيح مقاومته للجمود الذي كان يطبع التقاليد اليهودية ومحاربته للتمسك الاعمى بحرف الشريعة دون روحها؟ ألم يشجب يسوع ذبائح العهد القديم الخالية من الروح البنوية، مردداً ما قاله أشعيا من قبل: "أيها المراؤون، هذا الشعب يكرمني بشفتيه، وأما قلوبهم فبعيدة عني جداً. فباطلاً إذن يعبدونني، إذ يعلمون تعاليم ليست سوى وصايا الناس" (مرقس ٧: ١-٧)؟

لقد أصبحت الكنيسة، مع مر الاجيال، ضحية لهذا الجمود في ممارسة الاسرار بأسلوب ضاعت معه القيم التي تنطوي عليها، وبات قبولها فريضة يكملها المؤمنون دون وعي عميق بأبعادها، وأضحى الكهنة يمنحونها بآلية مقيتة... وتقع مسؤولية هذا الجمود

---

(١) راجع مقال "القداس... حيرة وتطلع" ف. م. العدد ١٤٠- ص٤٤٦.

على الكهنة والمؤمنين على حد سواء، وفي ما يلي نستعرض بعض العوامل التي أفقدت الاسرار مكانتها في الحياة المسحية.

المؤمنون والاسرار

أ. عدم جدوى الاسرار

يسيطر على معاصرينا اهتمام كبير بالفاعلية والنفعية. هذه النظرة تحمل الكثير من المؤمنين على البحث في الاسرار عن وسيلة للنجاح المادي. وسرعان ما يخيب أملهم حين لا تحقق هذه الاسرار مطامعهم وينتهون الى القول: ما الفائدة من قبول الاسرار؟ وكثيراً ما يُمنون بخيبة أمل مماثلة حين لا يرون تقدماً ملموساً في حياتهم الروحية لدى قبولهم الاسرار، أو حين يكتشفون بأن الذين يقبلون عليها ليسوا أكثر صلاحاً أو أكثر التزاما بمتطلبات الانجيل!

ب. عالم غريب

ويشعر المؤمنون بانهم غرباء عن الرتب والطقوس التي تحتفل بها الكنيسة، سيما حين لا يجدون الصلة بين دور الاسرار ومسؤولياتهم الحياتية والمهنية. وكثيراً ما يشعرون بأن الصلوات الليتورجية التي تتلى عادة بلغة لا يفهموها، تنقلهم الى عالم غريب لا صلة له بالواقع الحياتي الذي يعيشونه، فلا عجب اذا أصابهم الملل وتحولوا الى مجرد متفرجين: فاذا حضروا القداس من دون أية مشاركة فعلية، فلا عجب أن ينشغلوا بتلاوة صلواتهم الفردية، واذا حضروا حفلة اكليل، فلا عجب ان هم توقفوا عند المظاهر الخارجية وانشغلوا بالاحاديث والاهازيج! وهكذا الامر بالنسبة الى بقية الاسرار.

ج. رتب سحرية!

ثمة خطر آخر أكثر انتشاراً، مرده مفهوم مشوه عن الاسرار، ترقى جذوره الى يوم شددت فيه الكنيسة —كرد فعل للاصلاح البروتستنتي— على مفاعيل الاسرار التي تتم باكتمال شروط منحها بما في ذلك "صورة" السر —وهي الكلمات التي تتلى لدى منحه— و"مادته" —أي العنصر الذي يمنح به (ففي العماذ مثلا: مادة السر هو الماء، وصورته هي كلمات "أنا أعمدك...")". ونتيجة لذلك، لم تعد تعطى الاهمية الكافية للاستعداد الروحي الذي يجب أن يسبق قبول الاسرار، وما يفرضه هذا الاستعداد من تثقيف عميق ونوعية جادة حول أبعاد هذه الاسرار والالتزامات التي تفترضها وتتطلبها. وعلى سبيل المثال يؤسفنا أن نشهد الاسلوب الآلي المقيت الذي يرافق قبول سر التوبة والعماذ ومسحة المرضى... وكأن هذه الاسرار رتب سحرية يؤديها الكاهن ويخضع لها المؤمنون!

❋ الكهنة والاسرار

نحن لا ننكر فاعلية الاسرار التي يمنحها الكاهن باسم المسيح والكنيسة، غير اننا

على يقيين بأن الفاعلية مرتبطة الى حد كبير بالاستعداد الذي يرافق منحها وقبولها لـدى الكهنة والمؤمنين، فبدون هذا الاستعداد تضحي رتبا جامدة لا تؤدي مفاعيلها. لذا يجب أن يرافقها مجهود راعوي مكثف من شأنه أن يجعلها تضحي مثمرة في قلوب المؤمنين الـذين يقبلونها، وفي الوقت ذاته فرصة ثمينة لتقديس الكهنة خدامها ومانحيها.

ويؤسفني أن أقول بان الطريقة التي اعتاد الكهنة عليها في منح الاسرار باتت مجرد تكميل وظيفة مملة ووسيلة يرتزقون بها! لست أبغي من كلامي هذا أن أنحي باللائمة على اخوتي الكهنة الذين أشاركهم هذا الوضع، انما هدفي هو أن أكشف ما يجري في كنائسنا، بروح النقد البناء، وأملي أن تحظى هذه الملاحظات المتواضعة باهتمام الاساقفة والكهنـة، فتحملهم على اعادة النظر في الاساليب الراعوية الحالية والسعي الى تطويرها بروح المجمـع المسكوني.

ان الاسلوب الحالي في منح الاسرار أسلوب عقيم لا يحمل الى المؤمنين الفوائـد الروحية المتوخاة من قبول الاسرار، وكثيراً ما يحملهم على الشك في جدواها ومن ثم على هجرها. فليست الاسرار آلة "لضخ" النعم السماوية بمجرد الاحتكاك بها، وليس الكـاهن رجل القدسيات الذي "يوزع" النعم التي تنطوي على الاسرار بطريقة آلية لا روح فيها ولا حياة. هذه النظرة الى الاسرار يوحي بها سلوك الكاهن ذاته حين نراه ينتقل مـن "سمـاع الاعترافات" الى اقامة القداس، الى العماد، الى بركة الاكليل، الى المسحة... وكل ذلـك بسرعة مذهلة وكأنه في صراع مع الزمن! وكثيراً ما يضطر كاهن الرعية، عن مضـض - سيما إذا كان وحيداً في ادارة الخورنة- الى القيام بهذه المهام دون استعداد شخصي، ودون أن يتاح له أن يعد المؤمنين اعداداً يتناسب وأهمية السر الذي يقتبلونه. وهل نحمّل المؤمنين مسؤولية هذه "الالية" حين يطالبون الكاهن بأن يكون رهن اشارتهم في أي وقت من النهار والليل، وهم لا يراعون للسر قدسيته، وانما يطالبونه بمجرد اتمـام فريضـة يريحـون بهـا ضمائرهم! كما أن الكاهن ذاته يحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية حين لا يكون قد عمـد الى تنسيق عمله الراعوي، والذي من شأنه أن يجنبه الخضوع لهذه الآلية في منح الاسـرار، فلا تصبح وقرا يخضع له بضجر ويؤدي به الى الملل، بل وسائل تغذي حياته الروحية.

❋ الاسرار لقاء مع المسيح

ويجدر بنا الان أن نلقي نظرة راعوية على الاسرار لنكتشف قيمتها ومكانتها في الحياة المسيحية. فبوسع هذه النظرة أن تملي علينا الوسائل والاساليب الكفيلة بأن تجعل من الاسرار فرصاً لاكتشاف المسيح واللقاء به وتوثيق العلاقة معه.

ليس المسيح شخصاً عاش في الماضي وسجل عنه التاريخ سيرة مذهلة، انما هـو شخص حي حاضر في عالمنا، وحضوره في ما بيننا حضور حي وفاعل. ومن ثم، فلا يمكننا

أن ندعي بأننا مسيحيون ما لم نكتشف حضور المسيح في حياتنا ونقبل أن يحقق فينا عمله الخلاصي. ومن بين علامات حضور المسيح، تحتل الاسرار مكانا مرموقا، كونها فرصا لا غنى عنها للقائنا بالمسيح على دروب الحياة؛ غير أن المشكلة الاساسية التي يصطدم بها المسيحي تكمن في كيفية اكتشاف حضور المسيح من خلال هذه الاسرار، ومدى تفاعلنا معه.

لنحاول تحديد السر: انه علامة تشير الى موهبة من الله يفيضها على المؤمنين الذين تجمعهم الكنيسة، وتتم هذه العلامة تحت ختم ونور الروح القدس لتلتقي بالانسان المؤمن في صميم حياته اليومية. لنر ما ينطوي على هذا التحديد:

في صميم حياة الانسان

ان السر المسيحي علامة أو رمز يتخذ معناه في حياة الانسان. فهو قبل كل شيء تجربة روحية ووعي عميق بالصلة التي تربط الانسان بالله. فالاسرار السبعة (المعمودية، الميرون أو التثبيت، التوبة، القربان المقدس، مسحة المرضى، الكهنوت، الزيجة) تنبثق من حقيقة واحدة، ألا وهي سر تجسد ابن الله الذي شاء أن يصبح انساناً ليؤله الانسان. وقد وضعت هذه الاسرار لتكون علامة محبة المسيح التي ترافق الانسان طيلة حياته، تمده بالعون والقوة لينمو ويتأصل في بنوة الله الى أن يبلغ الى ملء قامة المسيح.

✵ قبول موهبة الله

الايمان شرط أساسي لقبول السر. فمن خلال الرتبة الطقسية التي ترافق منح السر يتم حوار بين الله والانسان، بين نداء الله وجواب الانسان. فبدون الايمان يفقد السر معناه ويتحول الى شعوذة، لذا كان من الضروري أن تتم هذه الرتبة بلغة حية يعبر المؤمن بواسطتها عن ايمانه العميق بموهبة الله التي يمنحها السر.

ومن الجدير بالذكر أن الاسرار ليست رموزاً وحسب، انما تشير الى حدث تاريخي: فالاوخارستيا ليست طعاما مقدسا، على غرار الديانات التي استخدمت هذا الرمز، انما هي ذكرى عشاء المسيح الاخير الذي يجعل ذبيحة الصليب حاضرة عبر الاجيال. والعماد ليس رتبة غسل وتطهير، انما هو سر اتحادنا بموت وقيامة المسيح: "أم تجهلون أنّا، جميع من أعتمدوا للمسيح، قد اعتمدنا لموته؟ فلقد دفنا اذن معه بالمعمودية للموت، حتى اذا كما أقيم المسيح من بين الاموات بمجد الآب، كذلك نسلك، نحن أيضا، في جدة الحياة..." (رومية ٦:٣-٥). وهكذا تصبح كل الرموز التي تتضمنها الاسرار كشفا عن حضور المسيح السري الفاعل فينا.

* وسط جماعة مؤمنة

لقد دعيت الكنيسة منذ عهدها الاول "سر الشركة بين المؤمنين"، وذلك يعني أن الكنيسة ليست مجموعة أفراد يدخلون بعلاقة فردية مع الله، انما هي جماعة مؤمنة يطلق عليها بحق عبارة "شعب الله". ولقد شدد المجمع المسكوني على هذا البعد الجماعي في قبول الاسرار ولا سيما سر الاوخارستيا حيث يلتف المؤمنون، بقلب واحد ونفس واحدة، حول مائدة المسيح.

ويؤسفنا أن نقول بأن هذا البعد الجماعي يكاد يكون غائباً عن كنائسنا. فحبذا لو أعيد هذا البعد الى الاسرار، ونخص بالذكر سري العماذ والتوبة: فلماذا لا يتم عما عدة أطفال في احتفال كبير يسبقه اعداد رصين لذويهم..؟ ولماذا لا نعود الى ممارسة حفلة التوبة الجماعية، ولا سيما في الاعياد الكبرى، مع التأكيد على البعد الجماعي لهذا السر؟

وليسمح لنا، في نهاية هذا المقال، أن نعبر عن أمنية طالما عبرت عنها "الفكر المسيحي"، ألا وهي ضرورة التجديد الليتورجي في الاسرار. وهذه الامنية هي مطلب ملح دعا اليه المجمع المسكوني وتقتضيه متطلبات العصر ويتوقف عليه مستقبل الحياة المسيحية.

لقد أكد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني على اعادة النظر في رتب الاسرار: "انما على مر العصور، قد دخلت على طقوس الاسرار وأشباه الاسرار عناصر تمنع في أيامنا الحاضرة أن نرى بجلاء طبيعتها وغايتها. من هنا كانت الحاجة في أن تدخل عليها بعض التعديلات لكي تطابق حاجات عصرنا" (دستور في الليتورجيا المقدسة – رقم٦٢). ومنذئذ أنطلقت في العالم أجمع حركة تجديد نشطة في رتب الاسرار والطقوس والاحتفالات الكنسية، تخطت ترجمة الصلوات الى اللغات المحلية، الى اصلاح جذري كان بمثابة عودة الى الينابيع. وقد شهدت بلدان عديدة في السنوات الخمس عشرة الاخيرة انتعاشاً ليتورجيا مذهلا كان له أطيب النتائج على الكهنة والمؤمنين معا.

ويحق لنا أن نتساءل: الى متى تشعر كنائسنا الشرقية بالحاجة الى هذا الاصلاح الليتورجي في الاسرار والطقوس؟ أليست جزءاً من الكنيسة الجامعة؟ ألم يلتزم أساقفتنا بتطبيق قرارات المجمع المسكوني؟

نحن لا نجهل أن في طقوسنا الشرقية غنى كبيراً وأصالة لا شك فيها. غير أننا نطالب بتجديد يحافظ على هذه الاصالة ويتلائم في الوقت ذاته مع مقتضيات العصر وحاجات المؤمنين. وأملنا أن تعمد كنائسنا الى دراسة جادة وشاملة حول رتب الاسرار وطريقة منحها، بهدف تنقيتها من التشويه الذي أصابها عبر الاجيال وتطعيمها بعناصر تجعلها أكثر بهاء، فيقبل عليها المؤمنون بشوق.

الاب يوسف حبّي

٦ شخصية يسوع المسيح

السنة السادسة عشرة: كانون الأول ١٩٨٠

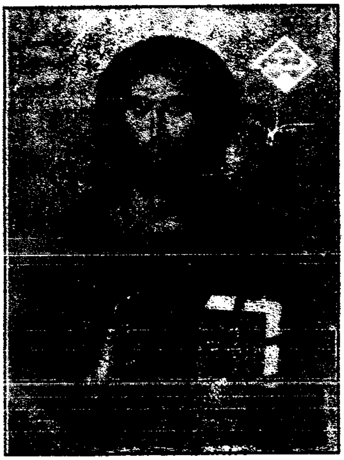

الفهرس

- افتتاحية: وأنتم من تقولون اني انا؟ — رئيس التحرير

زمن يسوع

- الوسط الفلسطيني في عهد المسيح — د. فرانسوا هوتار
- "يسوع التاريخ" — نجيب قاقو

يسوع البشرى

- يسوع، بشرى الله الجديدة — أ. خليل قوجحصارلي
- الانجيليون، شهود المسيح — أ. يوسف عتيشا
- شخصية يسوع المسيح بحسب انجيل يوحنا — أ. يوسف توما

يسوع الانسان

- انسانية يسوع — أ. جرجس القس موسى
- هل كان يسوع الناصري رجل سياسة؟ — أ. عبد السلام حلوة

شهادات

- من اكون في اعتقادكم؟ — شهادات
- قالوا في المسيح — شهادات

يسوع في الفن والادب

- المسيح من خلال لوحات فنية — ماهر حربي
- وجه يسوع من خلال الايقونات — الاخت ماريان - ابراهيم
- فيلم "يسوع الناصري" — أ. بيوس عفاص
- كتب عن المسيح — الاخت سانت آنيس
- من مساهمات القراء — ...
- فهرست عام ١٩٨٠ — ...

(...) وانتم من تقولون اني انا؟

سؤال طرحته البشرية على نفسها منذ ألفي عام، وما زالت تطرحه اليوم -وربما بقوة أكبر- وهو ينتظر من كل واحد منا جوابا شخصيا يكون قادرا أن يحملنا على اتخاذ موقف حياتي حازم يقلب حياتنا رأسا على عقب.

وهيهات لعدد -مهما تناهى في الحجم- أن يعكس، بأمانة، شخصية ذاك الذي كتب يوحنا الحبيب في خاتمة انجيله: "وصنع يسوع أشياء أخرى كثيرة، فلو انها كتبت واحدا فواحدا، لما خلت أن العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة"! فمنذ أن وطدنا العزم على إصدار هذا العدد، كنا على يقين من أننا لن نفي المسيح حقه: وان شخصيته، ليس بوسع الأقلام، مهما بلغت من القدرة والكفاءة، أن تطالها! الا اننا -واقتناعا منا بعجزنا عن مهمة كهذه- أبينا الا أن نقوم بمحاولة متواضعة... إن هي استطاعت أن تعكس بعض ملامح المسيح، تكون قد أصابت المرمى.

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ ص ١٧٠)

هذا العدد الخاص عن شخصية المسيح جاء مميزاً من حيث كثافة المضامين وتنوعها، الى جانب اناقة الاخراج، وقد تصدرته ايقونة بيزنطية رائعة...

وتوزعت المقالات بين محاور خمسة: فتناول مقالان الوسط الفلسطيني و"يسوع التاريخ"؛ فيما قدّم يسوع بصفته البشرى، وما عكسته عنه اقلام الانجيليين؛ وتحت عنوان "يسوع الانسان" تم القاء الضوء على انسانيته؛ الى جانب "شهادات" عكست آراء نخبة من القراء من جهة، ونخبة من المشاهير من جهة أخرى؛ وكان لا بد أن يبرز يسوع في الفن والادب عبر ما عكسته اللوحات الفنية والايقونات الفريدة من ملامحه...

المقالات الاربع التي اثبتناها هنا لا تغنينا البتة من الرجوع الى مقالات العدد الخاص برمتها، للاحاطة ببعض ملامح يسوع حاول ان يرسمها...

يسوع
بشرى الله الجديدة

من هو يسوع؟ أنبي قد خلت من قبله الانبياء؟ أكاهن خرج عن التقليد وأدار ظهره للشريعة؟ او واحد من دعاة الخير الذين يحفل بهم العالم في كل عصر ومكان؟ أو ملك سعى الى اقامة مملكة لم يكتب لها النجاح؟ ام مصلح اجتماعي قام بثورة اودت بحياته؟ ام رسول من الله مر بارضنا وما عتم ان توارى؟ ام انسان راى في ذاته اكثر من انسان فادعى الالوهية؟!...

تساؤلات كثيرة ترددت وما زالت تتردد على لسان اولئك الين لم يُوفَّقوا بعدُ الى الكشف عن ذاك الذي هو "ضياء مجد الله وصورة جوهره". يسوع الذي هو "البشرى" بملكوت جديد لانسان جديد: ملكوت، ابناؤه هم اولئك المساكين، الجياع والعطاش الى الحرية والعدالة، الذين يؤمنون بان "الله محبة" وان ملكوته هو ملكوت الحب والحق والعدل والمساواة والفرح والسلام. الخطوط العريضة لهذا الملكوت ومواصفاته، وفي مقدمتها المحبة، رسمها في هذا المقال الاب خليل قوجحصارلي.

كان مجيء يسوع الى العالم بشرى ترقبها كل الذين كانوا ينتظرون العزاء من الله، واستقبلها بفرح وارتياح صغار الناس والمساكين والمضطهدون، وان لم يدركوا عند ذاك كل معطيات هذه البشرى الجديدة. رب سائل يقول: وما الجديد في هذه البشرى؟ ألم يصرح المسيح نفسه: "لا تظنوا أني جئت لابطل الشريعة والانبياء: ما جئت لابطل بل لاكمل"(متى٥:١٧)؟

ان من يسمع كلام الانجيل ويحفظه غذاء لضميره ووقوداً لقلبه يصل حتماً الى الينبوع، مدفوعا بقوة داخلية. فالبشرى الجديدة التي غيرت وجه الارضِ ليست اعلانات مستحدثة، أو نظاماً خاصاً، أو شريعة أضيفت على مجموعة الشرائع القديمة، بل هي حضور يسوع، الاله-الانسان، في وسط الانسانية، ليكسبها وجوداً جديدا، ووجها جديدا، ومصيرا جديدا. "ما جئت لابطل بلِ لاكمل": ان هذا الكمال ليس كمالا زمنيا، بل من حيث نوعية الرسالة وفاعليتها. فبيسوع، ما كان ناقصا ورمزا اصبح كاملا وحقيقة، وما كان برعما صار غصنا مثمرا مكتملا.

ان "ملكوت الله" مفهوم محوري في الانجيل يعبر عن مضمون البشرى، وقد أعلن

عنه يسوع بعد عماذه المسيحاني على يد يوحنا الساعي، قائلا: "حان الوقت واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالبشرى" (مرقس ١:١٥).

❋ ملكوت جديد لانسان جديد

فما هو، يا ترى، ملكوت الله هذا؟

عاش اليهود، بعد انهيار مملكتهم، في تلهف بالغ لاعادة بنائها. فلا غرابة أن رأوا في نداء يسوع "حان الوقت واقترب ملكوت الله" البشرى الكبرى التي كانوا ينتظرونها لتحقيق أحلامهم وآمالهم، وانضموا الى هذه الحركة التحررية التي ستضمن لهم أستقلالهم عن الرومان، حسب توقعاتهم. ولكن أفكارهم غير أفكار المسيح. لم يأت المسيح ليؤسس لهم مملكة أرضية؛ وملكوت الله الذي يدعو اليه ليس أرضاً ولا سلطة ولا نظاما سياسيا. انه مجيء الله في قلب بشرية عزم أن يخلصها ويضمها الى حبه المطهر والمنور. من أجل بناء هذا الملكوت الالهي–الانساني أتى يسوع وعمل: هذه قضية الله التي كانت ولا تزال القضية الكبرى لانسان اليوم. لا يزال يسوع، بروحه القدوس يبث في ملكوته قدرة وحياة تسري في صفوف البشر، لتضمهم الى الشركة الالهية وتحولهم الى بنين أحرار مهيئين للعبادة بالروح والحق.

ان أبناء الملكوت هؤلاء هم الذين يصرخون في الواقع وبالحق من أعماق بؤسهم وفي ذل كبوتهم: "يا يسوع ارحمني"، انهم مساكين الانجيل الذين لا انجيل، أي لا بشرى من دونهم، لانهم علامة زمن الخلاص المسيحاني: "أتيت لابشر المساكين.." والجائعين والباكين واليائسين والزناة والمرفوضين من المجتمع والخاطئين، وأعلن لهم ساعة الخلاص. ان يسوع لم يتردد في أن يبحث عنهم ويعاشرهم ويجالسهم ليبني منهم ومعهم ملكوت أبيه: ملكوت الامتلاء الفياض عدلا ورحمة وحبا، ملكوت المصالحة والسلام، ملكوت يتوجه الى كل الذين استقبلوه واندمجوا به فانضموا الى موكب القديسين، وهذا الملكوت هو في الوقت ذاته ملكوت يأتي أبدا الى كل السائرين في الطريق و لم يصلوا بعد، العطاش الى البر والجائعين الى الحق: هؤلاء أيضا هم أبناء الملكوت.

ان لم نعش اليوم معطيات الملكوت المذكورة، سنعجز عن التمتع بالتجدد المنشود، ذلك لان بناء ملكوت الله عمل بطيء، تحول دون انجازه عقبات كبرى نتيجة صراعنا ضد "سلطان هذا العالم" ومملكته. غير أن المهم ليس الجانب الزمني والكمي، بل القيم التي تصوغ قلب الانسان وهي بمثابة مؤشرات لحضور الروح القدس الذي يعمل باستمرار فينا وفي العالم ليعجل مجيء الملكوت.

❋ الهيكل قلب الملكوت: ولكن أي هيكل؟

"فجدل يسوع سوطا من حبال وطردهم جميعا من الهيكل..." (يوحنا ٢:١٥).

ذلك ان يسوع، لما رأى ما حل ببيت أبيه، ثار ثائره واستشاط غضبا وأتى بعمل جريء استنكره رؤساء الكهنة بقوة: من ترى هذا ليتهجم على طقوسنا وعبادتنا في الهيكل؟ لقد أخذ يسوع على ذاته أن يحرر الانسان من نظم دينية خادعة جُعل الله فيها وسيلة رزق ومنفعة، وأن يعيد لابيه كرامة العبادة اللائقة النزيهة، فلم يخش مصارعتهم، اعلاء لمجد الله وتطهيرا للعبادة والصلاة. سوف لا يغفر له رؤساء الكهنة هذه الصفعة، وستكون قاضية للحكم عليه بالموت! لقد حل يسوع الهيكل الحجري الجبار وتنبأ عن سقوطه بحيث لم يبق منه حجر على حجر، ومعه اندثرت مقومات الشريعة بحرفها، وكافة التقاليد المصطنعة التي كبلت الانسان بدلا من أن تعتقه، وأضحى الهيكل الوحيد الذي فيه يتم ملتقانا مع الله، هو هيكل جسده، أي يسوع المسيح نفسه. لقد فهم بولس الرسول سر الهيكل الجديد فكتب للجماعة المسيحية الصغرى في قورنتس، من أفسس مدينة هيكل أرطميس العظيم: "أنتم هيكل الله"! ان هيكل الله الجديد مصنوع من "حجارة حية"! "حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون انا معهم". وهكذا ينمو المسيح في قلب البشرية رغم كثافتها. هذه البشرية ذاتها هي هذا الهيكل الجديد المصنوع من وجوه وأياد وقلب وروح، هيكل تصوغه قيم انجيلية نابعة من ضمير المسيح، تتسم باللقاء والاقتسام وقبول الكلمة والعطاء في الخدمة والشكر المشترك، قيم تربطها وتضيئها المحبة.

* المحبة شمس الملكوت الجديد

ان الصراع الذي يمزق الوجدان الانساني ينعكس ضرورة على المجتمع، لا بل، غالبا ما تتضاعف حدته ومتناقضاته. ولم يعل زعيم كرسي سلطة الا ووقف من جانب معين، فصار رائد حركة تنضم اليها فئات دون أخرى. ويسوع، هل بامكاننا تصنيفه؟ نحن لا نراه حاكما بين الحكام، ولا يعد من الثائرين السياسيين، أو من أئمة الفكر، أو من رواد الاصلاح، أو من حزب يميني أو يساري. ومع هذا فلا ينتمي يسوع الى تلك الجماهير الصامتة، الخائفة، البعيدة عن كل مطلب واع وكل أحتجاج عادل أو مقاومة أو التزام. أن يسوع يشمخ فوق التحيزات المتناقضة والمتضاربة: وأصالته تكمن في جذرية المحبة التي فيه والتي يدعو اليها لترافق الحياة ببساطتها وواقعيتها حتى أصغر الامور وأتفه الحالات، كالمبادرة بالسلام (متى ٥:٤٧)، وعدم الجلوس في أول المتكآت (لوقا ١٤:٧)، وعدم دينونة الغير ومعاملتهم برحمة (لوقا ٦:٣٦)، والتزام الصدق والاخلاص (متى ٥:٣٧). اما الظروف الكبرى حيث ينبغي على المحبة ان تتخذ مواقف حاسمة قد تكون باهضة الثمن، فهي ظروف استثنائية اذا ما قيست بعاديات الحياة، مثل الانفصال الطوعي عن الاهل والوطن والثروة في سبيل خدمة الرب او التفرغ الرسولي او للشهادة القصوى للمسيح حتى الموت.

✵ ميزات هذه المحبة

تتسم المحبة المسيحية بميزات ثلاث تعد من مقوماتها الاساسية التي تمنحها أصالتها وابعادها.

١. المحبة تصفح

ان المصالحة الاخوية تسبق العبادة وتبرهن على أصالتها، ولا تتحقق المصالحة مع الله الا على أساس المصالحة الاخوية: "أغفر لنا خطايانا كما نغفر لمن أخطأ الينا" (متى ٦:١٢).

سيظل المؤمن أبدا شاهد الحنان الالهي وعطفه الابوي الغفور، فلا ينال عفو الله من لم يسبق ان صفح عن أخيه الانسان (متى ١٨:٢١). ومن شروط هذه المغفرة أن تكون تامة وشاملة، من دون استثناء ولا تمييز، تنفي كلياً الثأر والانتقام.

٢. المحبة تخدم

كان الاهتمام بالعظمة والوجاهة من مشاغل التلاميذ، ولا شك أنهم في ذلك انما كانوا يسلكون بحسب عقلية الرؤساء والعظماء الذين كانوا يسودون صغار الشعب ويطالبونهم بالخدمة والاحاطة. أما يسوع، فبأقواله ومثل حياته، أشار الى أن العظمة الحقيقية وليدة الخدمة المتواضعة: "من كان كبيراً بينكم ليكن خادماً للكل..."، "لم يأت ابن الانسان ليُخدم بل ليَخدم...". أن الخدمة تستهدف توسيع منطقة الخير في المجتمع وزرع السعادة لدى الانسان، ومتى تأصلت المحبة في الواقع الحياتي أصبح من الممكن تحويل حالة المجتمع نحو الافضل. هذه هي صفات الخدمة الانجيلية بالذات، تتجاوز المصلحة الضيقة والفوارق الدينية والقومية والطبقية المنحازة أساسا: انها عطاء نزيه ومجاني.

٣. المحبة انكار الذات وزهد في النفس

في المحبة قدرة على أن تذيب الانانية الكامنة في كل انسان وأن تحمله على الانفتاح والتعاون ضمن علاقات مبنية على التضحية ونكران الذات، وذلك لازالة المعوقات التي تحول دون ممارسة المحبة: "اذا شككتك يدك فخير لك أن تقطعها..." قد تكون هذه المعوقات قضايا سلبية، كالخطيئة والانحراف، فلا بد، في هذه الحالة، من التضحية للتخلص منها. وقد تكون أحيانا قضايا ايجابية تمس الحق والقدرة. وعندئذ قد ندعى الى التنازل عن حقوقنا والذهاب الى أبعد مما هو مطلوب منطقياً، في سبيل خير أعظم: "من سخرك أن تسير معه ميلاً واحداً، فسر معه ميلين" (متى ٥:٤١). هكذا نجد أنفسنا مدعوين الى أن نرفض مجابهة العنف بالعنف والتزام جانب الوداعة والمسالمة (انظر متى ٥:٣٩).

من هذا المنطلق نستنتج بأن المقتضيات الانجيلية تتجاوز فرائض الوصايا العشر، وبأن البر الجديد الذي يدعونا اليه يسوع يجب أن يزيد على بر الفريسيين. هذا ما أعلنه يسوع في عظته على الجبل حيث ينقلنا من اطار خلقي صاغه حرف الشريعة الى صميم أسرار الملكوت التي أعطيت معرفتها للصغار والبسطاء واخفيت عن الحكماء. بموجب ما أتى في عظة يسوع، ليس المهم أطمئنان الضمير بتطبيق حرفي للشريعة والطقوس، بل قبول روح المسيح والامتثال، كابناء، لارادة الاب السماوي محب البشر والرحيم والغفور. ان الروح القدس يعمل في أعماق الضمير ويجعل في النوايا شفافية الماء الرقراق ويملأ العين نورا والقلب حبا يتدفق جودا وسخاء في عطاء دائم لا يركد. لذا فان الانسان الجديد انسان تولاه المسيح وطبع على وجهه ملامحه المشرقة وهيأه لينشد لسانه نشيد مريم اللامع: "تعظم نفسي الرب وتتهلل روحي بالله مخلصي..." نشيد الحرية التي لم تأت من البشر بل هي قبس من نار الله—المحبة.

الاب خليل قوجحصارلي

انسانية يسوع

من هو، يا ترى، يسوع هذا؟

أهو نبي نال من روح الكشف والوحي ما لم ينله نبي من قبله أو من بعده؟

أهو صوفي شغف بالله الى حدود الانعتاق من كل ما هو دنيوي؟ أم هو مجرد ابن اله بعيد، قد مر علينا مر الكرام، وشاءت حاجتنا الى رب قوي قدير أن نجعل منه موضوع ايماننا؟

اذا جعلنا من يسوع ذلك النبي المتميز وحسب، وذلك الروحاني المنسلخ عن المادة تماما، وابن اله سام لا شأن له بتاريخنا وطموحاتنا.. فقد جنينا عليه وعلى أنفسنا، وكنا كمن لفه بقماشة من المثالية والتجريد لا تصلح سوى للمتاحف ولبطون الكتب!

عبثا نحاول فهم واقع يسوع الحقيقي اذا اكتفينا بالحديث عن "مسيح صوفي" أو عن "مسيح الايمان" ولم نفطن الى ان هذا الايمان انما يستند على الوجود التاريخي ليسوع: يسوع انسان يحمل رسالة الهية الى البشر، أجل، ولكنه يحيا انسانيته بأعلى درجات الوعي والاحساس وبكل بلاغة أوتار النفسية البشرية. أنا لا أنكر "مسيح الايمان" وأتفق مع مضمون هذا الايمان كلياً، غير اني أعترف بان يسوع اقرب الينا مما نظن، واذا كان يحيا فينا بالايمان اليوم، فذلك بعد أن عاش مثلنا انسانا في التاريخ، وأرى أنه بقدر ما نتعرف بصدق

"عبثاً نحاول فهم واقع يسوع الحقيقي اذا اكتفينا بالحديث عن [مسيح صوفي] او عن [مسيح الايمان]، ولم نفطن الى ان هذا الايمان، انما يستند على الوجود التاريخي ليسوع: يسوع انسان يحمل رسالة الهية الى البشر. من هذه الزاوية انطلق الاب جرجس القس موسى ليرسم وجه يسوع، هذا الرجل من ناصرة الجليل. المتجذر في ارض البشر. فليس المقال دراسة تفسيرية عن شخصية يسوع، وانما رؤوس نقاط التقطها من قراءة تأملية في نصوص مرقس ويوحنا.

وموضوعية الى عمق شخص يسوع التاريخي، فبقدر ذلك نكتشف ذواتنا.. ونحبه بالاكثر.

ما هي سمات وجه هذا الانسان، يسوع؟

الافكار التالية ليست دراسة تفسيرية مقارنة ولا تحليلا نفسانيا فرويديا، وان استندت الى معطيات تاريخية اجتماعية انسانية، وانما اعتبرها رؤوس نقاط لبحث اوسع يبدو لي شيقا ومثيراً حول شخصية يسوع الانسانية[١].

❋ يسوع ابن الارض

اول ما ما يلفت النظر في هذا "الرجل"، يسوع، أنه انسان بسيط، ابن الارض والقرية، وككل ريفي، يحب الحقول (وكان مجتازا بين الزروع، فأخذ تلاميذه يقتلعون سنبلاً وهم سائرون (مرقس ٢:١٢) -تأملوا زنابق الحقل... (لوقا ١٢:٢٧). الاطار الجغرافي لكرازته يكاد يكون كله ريفيا، فهو يدور في القرى وعلى سفوح الجبال وفي الحقول والمزارع وبين الكروم وعلى شواطئ البحار (مرقس ٢:١٣؛ ٤:١؛ متى ١٣:١-٢). ولدى تتبعك تنقلاته من خلال الانجيل، تكاد تلمس حركة الحياة والدأب في هذه الارياف الفلسطينية الاهلة وكأنها خلية نحل في عمل لا يوقفها عن مسعاها سوى سكون الليل (مرقس ٦:٤٥). ويسوع كابن للطبيعة، كل الصور التي يتناولها لتوضيح أفكاره يستمدها من هذا الاطار: الرقعة الجديدة على الثوب العتيق (مرقس ٢:٢١-٢٢) — الزارع وشروط التربة للنمو (مرقس ٤:٣-٨) — السراج والمكيال (مرقس ٤:٢١) — الخردل (مرقس ٤:٣٠) — الخميرة (مرقس ٨:١٥) — الملح (مرقس ٩:٥٠) — الكرم والمعصرة (مرقس ٢١:١) — الراعي والخراف (مرقس ١٤:٢٧) الخ... انه يحب الجماهير المندفعة حوله ولا يخاف منها لانه منها أصلا (مرقس ٥:٣١)، وهو يجد الكلمات المناسبة لمخاطبتها بلغتها ومشاعرها وانتظاراتها، فتصغي اليه في ارتياح (مرقس ١٢:٣٧)، ويقدّر ايمان البسطاء —وان تردى هذا الايمان أحياناً برداء من الخشونة والسذاجة— لانه صادر من القلب مباشرة (إدلاء المخلع من السقف (مرقس ٢:٥) — المرأة الكنعانية (مرقس ٧:٢٩) — أعمى أريحا (مرقس ١٠:٥٢) الخ...

يسوع، ككل انسان، يجوع (مرقس ١١:١٢)، ويعطش (يوحنا ٤:٧)، ويشعر بالتعب من السير الطويل والعمل، فيأخذ قسطه من الراحة كما يتسنى له ذلك، شأنه شأن كل كادح، واضعا حجرة تحت رأسه عوض الوسادة، مرة، أو متكئا على شباك الصيد أو على وسادة مبللة في مؤخرة السفينة، مرة أخرى (مرقس ٤:٣٨)... أهله معروفون عند العامة ويقلقون عليه، ككل الناس، عندما يرونه في مأزق (مرقس ٣:٢١). أما هو، فحتى

---

(١) على ضوء ذلك قرأنا انجيلي مرقس ويوحنا باكملهما من جديد، وعليهما تستند النصوص.

رسالته لا تقطعه عن جذوره الانسانية والشعبية: انه من ناصرة الجليل، هذه المقاطعة الحدودية ذات السمعة الوضيعة التي تختلط فيها الاجناس ويتكثف التواجد الوثني، ويعرف بالنجار ابن النجار... ولامه مريم، ولبنات وابناء عمومته صلات قربى وجيرة ومصاهرة تجعلهم معروفين عند الكل (مرقس ٦: ٣-٤).

* يسوع: شخصية قوية وحرية داخلية

يتحلى يسوع بشخصية قوية وبعزة نفس لا تثلمها المهانة: فهو، اذ يغضب في غيرته على شرف الله وحرمة المقدسات وكرامة المستضعفين، لا يتردد من استعمال السوط ضد تجار الهيكل السماسرة (يوحنا ٢: ١٥)، يستعمل الحلم والتدليل تجاه فعلة يهوذا تلميذه الماضي في خيانته، ولا يشهره علانية صيانة لماء الوجه (مرقس ١٤: ٢٠، ٢٧؛ يوحنا ١٣: ٢٦)، وذلك بالرغم من الالم الذي يحز في قلبه من نكران الجميل (يوحنا ١٣: ٢١؛ ١٤: ٤٨؛ لوقا ٢٢: ٤٨) ، لان هذا يصيب القلب المحب في الصميم، كما في حادثة نكران بطرس له حين نظر اليه بشفقة وعتاب (لوقا ٢٢: ٦١). يسوع انسان له كرامته، وهو، إن استبعد الألم عنه لقساوته واشتدّ به جسده الشاب، لا تخور قواه المعنوية، فيصمت أمام الادعاءات ولا يتكلم في استجوابه الا متى شاء، وباباء: صلاة البستان (مرقس ١٤: ٣٣-٣٦) — المحاكمة (مرقس ١٤: ٦١) — أمام بيلاطس (مرقس ٤-٥) — امام هيرودس (لوقا ٢٣: ٩).

يسوع رجل يتمتع بحرية داخلية وتوازن نفسي عظيمين في كل الحالات، وليس معقداً تجاه أي شيء (مر٧: ١-٢٣) أو أي انسان مهما كانت مكانته الاجتماعية (مرقس ٢: ١٦-١٧) أو انتماؤه العرقي (يوحنا ٤: ٤٦) أو الديني (مرقس ٧: ٢٦)؛ يقدّر تكريم الناس له ويقبل استضافتهم، لا سيما البسطاء منهم، بارتياح. واذ يكنُّ للمرأة كل احترام، لا تجد في تصرفه أية عقدة تجاهها أو منها (المرأة والطيب (مرقس ١٤: ٣) — السامرية (يوحنا ٤: ٢٧) — مرتا ومريم (يوحنا ١١: ٥) الخ... وحتى في مسألة الطلاق حين يشدد على وحدانية الزواج، فانما يفعل ذلك —هو الرجل الاعزب— لاحترامه الكبير للرابطة الزوجية (مرقس ١٠: ٩)، ولرفضه القاطع ان يكون الزمام كله بيد الرجل على حساب المرأة، فالحب فوق الانانية المتمثلة في طلاق (مرقس ١٠: ١١-١٢) يكون فيه الشرع، في معظم الاحيان، الى جانب الرجل.

ويسوع، رغم وعيه بمحبة الجماهير له، ليس ساذجا ينساق وراء فورة المتحمسين (يوحنا ٦: ١٥، ٢٦؛ ٢: ٢٤). أما تجاه خصومه من المتنفذين والمتصيدين، فهو، في حذره اليقظ، يستخدم استراتيجية الدهاء والايقاع التي لا تخلو من روح الدعابة والاستدراج: للرؤساء الذين يسألونه عن أساس سلطانه (مرقس ١١: ٢٩) — اسلوبه في مثل الكرامين (مرقس ١٢: ١٢) — ما لقيصر لقيصر... (مرقس ١٢: ١٣، ١٧) — للصدوقيين حول

الزواج والقيامة (مرقس ١٢:٢٩) — اسلوب المبارزة في اجابته للكاتب حول أولى الوصايا — مداعبة نيقوديمس (يوحنا ٣:١٠) — استدراج السامرية (يوحنا ٤:١٠،١٦) الخ... انه يشفق على المعذبين والمستضعفين (مرقس ١:٤١) ويتحنن على كل متألم يقصده (مرقس ٦:٣٤)، وأصدقاؤه تراهم في صفوف البسطاء والهامشيين (مرقس ١٤:٣). أما المنافقون وذوو الوجهين والانتهازيون فيفضحهم أمام الجمهور —وتلك قوته— لان القاعدة الشعبية معه، ولا يستطيع اولئك الارتداد عليه بيسر وبمجابهة مكشوفة خشية أن يخسروا نفوذهم وبقية رصيدهم عند الناس (مرقس ١٢:٣٧-٤٠).

* علاقات يسوع الانسانية

ليسوع أصدقاء مقربون ينكشف لهم اكثر من غيرهم، ولهم حضور مميز في أحداث رسالته الكبرى وآياته الخاصة واحزانه، ويوحنا وبطرس ويعقوب في مقدمة هؤلاء (مرقس ٣:١٦؛٥:٣٧؛ ١٠:٣٥)، ومنهم يلتمس التشجيع والتضامن في محنه (مرقس ١٤:٣٣، ٣٧). ولقد حاول الاولان بصورة خاصة أن يكونا على مستوى الثقة، فجازفا بسلامتهما، ولربما بحياتهما، للبقاء معه حتى بعد القبض عليه (يوحنا ١٨:١٠،١٥-١٦؛١٩:٢٦). ولطالما أوى الى اصدقائه وتناول الطعام عندهم: لاوي بن حلفى (مرقس ٢:١٥) — بطرس وحماته (مرقس ١:٢٩) — سمعان الابرص (مرقس ١٤:٣) الخ... وعند أحد أصدقائه سيأكل الفصح مع تلاميذه (مرقس ١٤:١٤).

ولعل من أصدق أصدقاء يسوع، خارجاً عن ثلة الاثني عشر، الاشقاء لعازر ومريم ومرتا (يوحنا ١١:٥) من قرية بيت عنيا (يوحنا ١١:١،١٩)، وكان يسوع يتردد عليهم مع تلاميذه ليمسح عنه عناء الطرق وزحمة الجماهير، فيلقى لديهم قلوبا دافئة وبيتا مضيافا ليل نهار. ولما مرض "صديقهم" لعازر ومات، أرسلت الاختان في طلبه ضاربتين على الوتر الحساس، وتر القلب، قائلتين: "ان الذي تحبه مريض". ولما هرعت اليه مريم من مشارف القرية وهي تبكي وتقول في دموعها: "لو كنت هنا لما مات أخي!" رق قلب يسوع وارتعش وبكى —ويا لبكاء الرجل!— بحيث علق الحاضرون بتأثر: "أنظروا كم كان يحبه!" (يوحنا ١١:٣،١١،٢٢،٣٢-٣٨). ولعازر ومرتا ومريم هؤلاء انفسهم صنعوا مأدبة كبيرة ليسوع على شرف احياء لعازر، كانت فيها الاخت الكبيرة مرتا مهتمة بالخدمة، بينما لازمت الاخت الصغرى، مريم، قدمي يسوع وهي ترتشف كلامه ارتشافا (يوحنا ١١:٣٢؛ لوقا ١٠:٣٨-٤٢).

هكذا نرى أن يسوع ليس نبيا "درويشا" يتنكر للعلاقات الانسانية أو يتهرب من مجتمع الناس أو يحرم أفراح الحياة وأعيادها. لقد أشترك هو بنفسه في الاعراس —وعرس قانا واحد منها (يوحنا ٢:٢)— وشرب الخمر مع المدعوين. واذا كنا محقين في تصورنا يسوع وقورا وذا شخصية متزنة ورائقة في كل الاحوال، فلا أتخيله منسحبا في زاوية منعزلة مع

تلاميذ واجمين يبيعون الوقار على هامش "الفرحة"!

يسوع هذا، أراه شفاف القلب، رقيق الكلمة كلما لزم (يوحنا ١٣:٣٣)، يحس بتعب معاونيه فيدعوهم الى الراحة بعد اجهاد الرسالة (مرقس ٦:٣٠-٣١)، ويبني علاقته معهم على الالفة والصداقة (يوحنا ١٤-١٦)، فيطمئنهم اذا خافوا (مرقس ٦:٥٠)، ويرفع من معنوياتهم كلما وهنوا (يوحنا ١٨:١٤،٢٧؛١٦:٢٢). يسوع هذا أراه غامرا بعاطفة الابوة تجاه الاطفال (مرقس ٩:٣٦؛١٠:١٤-١٦) ويجعل منهم صورة لقلب الله ولقلبه (مرقس ١٠:١٤-١٥) ورمزا لشفافية الانسان.. لضعفه وقوته، لجماله ورقة أحلامه، لاستعداده الدائم للتحولات والبدايات والامكانات اللامحدودة (مرقس ٩:٤٢).

هذا هو يسوع الانسان: أراه كامل الانسانية عن غير انتقاص، متجذرا في الارض عن غير ضعف! الله أراه فيه، ومن دونه يستحيل علي الوصول الى الله الذي لا أراه، وعندما أراه هو، يسوع، أرى ذاتي، أنا، وينفتح الطريق الى اخوتي!

الأب جرجس القس موسى

هل كان يسوع الناصري رجل سياسة؟

قد يعتقد البعض بان بحث هذا الموضوع هو مسالة "تقليعة معاصرة"! فبما أن السياسة أصبحت شمولية بطابعها الحالي، وأن قسماً كبيراً من المسيحيين يعيشون واقعهم السياسي بالتزام يتصل بإيمانهم المرتكز على المسيح وعلى عمله الخلاصي، فهم يحاولون هكذا جعل المسيح رجلا سياسياً ملتزما لنفس المنطلقات التي يناضلون من خلالها وبأي ثمن كان!

وقد يعتقد البعض الاخر بأن طرح الموضوع بهذه الطريقة هو أمر غير سليم أصلا لاننا نقوم اذ ذاك، حسب ظنهم، "بعملية فرض" على الانجيل من دون الاخذ بنظر الاعتبار الاختلاف الكبير بين المناخ الثقافي المعاصر الذي أفرز مثل هذه التساؤولات وبين المناخ الثقافي في عصر المسيح نفسه. ولكن، قبل البدء بالاجابة، لا بد من الاشارة الى أن ما يدعو الى العجب حقا، هو مسألة رفض النظر الى المسيح من خلال هذه الزاوية الحيوية، أعني بها الزاوية السياسية. ولهذا قد يكون البحث في أسباب هذا الرفض، عند بعض المفكرين المعاصرين، أهم من بحث الابعاد السياسية لحياة المسيح في زمانه وفي زماننا.

اعلان يسوع نفسه "ابن الانسان"، كان يتضمن تهديداً واضحاً للسلطة الدينية انذاك؛ واعلان نفسه "ملكاً"، كان يشكل خطراً يهدد المملكة الرومانية التي كان يمثلها في فلسطين بيلاطس البنطي... وعليه، فلا عجب إذا لقي يسوع حتفه على الصليب لاسباب سياسية؛ بتواطؤ السلطتين الدينية والمدنية! ولكن هل معنى ذلك ان يسوع كان رجل سياسة؟

عن هذا التساؤل الخطير أجاب الأب عبد السلام حلوة حين ذهب في تحليل نص شهير أسال الكثير من الحبر طيلة اجيال: "اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله". فخَلُص الى القول بان يسوع —وإن اعدم لاسباب سياسية– فهو انما كان "رجل الله" الذي جاء يبشر بملكوت الحب والعدل والحق والحرية.

❋ يسوع الناصري أعدم لاسباب سياسية

ليس من باب مسايرة الافكار العصرية اذا ما قلنا بأن المسيح قد أعدم

لاسباب سياسية بحتة: فعند مراجعتنا لمحاكمة يسوع وطبيعة الحكم الصادر وكيفية تنفيذه، نجد أنفسنا أمام حدث سياسي من الدرجة الاولى. لنراجع قراءة بعض المعطيات الانجيلية حول الموضوع:

هناك فصلان في المحاكمة: الاولى أمام المجمع اليهودي المتكون من الصدوقيين الذين يعتبرون القادة الروحيين لليهود (السلطة الدينية) وينتمون اجتماعيا الى الارستقراطية الكهنوتية، والثاني تجري أحداثه أمام الوالي الروماني بيلاطس (السلطة المدنية). وسوف نعتمد في تحليلنا هذا نصوص المحاكمة بحسب انجيل لوقا لكونها الاقرب الى الحدث الواقعي للقضية، كما يعتبرها معظم مفسري الكتاب المقدس:

"ولما طلع الصبح اجتمع مجلس الشيوخ والاحبار والكتبة فاستحضروه لدى مجلسهم وقالوا: ان كنت المسيح فقل لنا! فقال لهم: لو قلت لكم لما صدقتم ولو سألتكم لما أجبتم. على ان ابن الانسان سيجلس بعد اليوم عن يمين قدرة الله. فقالوا جميعاً: أأنت ابن الله؟ فقال لهم: أنا هو كما تقولون. فقالوا: أي حاجة بنا الى الشهادة؟ وقد سمعنا ما نطق به لسانه... ثم قام الحضور بأجمعهم فمضوا به الى بيلاطس" (لوقا ٢٢:٦٦-٢٣:١).

كلنا نعلم أن ما أعلنه يسوع كونه المسيح المنتظر هو كفر بالنسبة لليهود، ويبدو هذا الاعلان، ظاهرياً، السبب المباشر الذي سيتيح لهم الحكم عليه. ولكن هناك أسبابا أخرى ذات رائحة سياسية تتخطى هذا الغطاء الديني، وهي أن شيوخ اليهود ورؤساء الكهنة يمتلكون معرفة واسعة باسفار العهد القديم، لذلك أدركوا بسرعة قصد يسوع العميق عندما أجابهم بأنه هو ابن الانسان. فجوابه هذا ذكرهم بكلام دانيال النبي حول صفات ابن الانسان الذي يعني مجيئه تهديدا مباشراً لسلطتهم الدينية والروحية على الشعب بالاضافة الى كونه كفرا: "ورأيت في رؤى الليل فاذا بمثل ابن الانسان آتيا على سحاب السماء فبلغ الى القديم الايام وقرب الى أمامه، وأُوتي سلطاناً ومجدا وملكا على جميع الشعوب والامم والالسنة، وسلطانه سلطان أبدي لا يزول وملكه لا ينقرض" (دانيال ٧:١٣-١٤).

ان اشارة يسوع الى القسم الاول من هذه النبوة واضحة جداً، وهذا ما يؤكده رد فعل الصدوقيين ورؤساء الكهنة. فاعلان يسوع بأنه ابن الانسان يعني مجيئه بقوة عظيمة مصدرها الله نفسه الذي سوف يعطيه سلطة على جميع الشعوب والممالك؛ وهذا يعني، لاول وهلة، أن المسيح سوف يمارس سلطة مباشرة على جميع ذوي السلطات القائمة، دينية كانت أم مدنية! ولم يكن اليهود في حالة روحية متفتحة تجعلهم يتفهمون طبيعة هذا السلطان والمجد اللذين اختصهما المسيح لنفسه، لا سيما وأنه ينقصهم الاستعداد الكافي ليقبلوا بانقلاب جذري لمقاييسهم ولتشريعاتهم ولمجمل المفاهيم الدينية التي يملكونها، اذا ما آمنوا بان يسوع الناصري هو المسيح المنتظر، ولهذا نرى المجمع يؤيد الموت ليسوع ويقتاده الى بيلاطس، وفي شكواه جملة من التهم التي يستطيع بها تشويه نية المسيح العميقة بعمله الخلاصي.

✵ أمام بيلاطس الوالي الروماني

نحن نعلم ان بيلاطس الوثني لا يهمه شيء من دانيال النبي بخصوص صفات المسيح المنتظر، ولهذا نجد الاتهامات التي وجهها اليهود الى المسيح أمام بيلاطس تأخذ شكلا يختلف عن تلك التي وجهت اليه في مجمعهم: "وابتدأوا يشتكون عليه قائلين: اننا وجدنا هذا يفسد الامة ويمنع أن تعطى الجزية لقيصر، قائلا انه هو المسيح—الملك" (لوقا ٢٣:٣).

افساد الامة، تحريض الناس على الامتناع من اعطاء الجزية لقيصر، اعلان نفسه ملكاً: هذه الاتهامات تشكل الاتهامات التقليدية الثلاثة التي يتصف بها اتباع منظمة ارهابية، في ذلك الزمان، كانت تدعى "الغيارى" وهم أولئك المتعصبون للدين الذين يستهدفون طرد المستعمر الروماني بقوة السلاح، ومنظمتهم منظمة سياسية — دينية مسلحة، غايتها مقاومة الاستعمار الروماني. لا شك أن هذا الاتهام كاذب من أساسه في ما يخص يسوع، ولا شك أن بيلاطس انسان ضعيف الشخصية وجبان كما هو معروف عنه تاريخيا. الا انه من المؤكد ان المسيح قد تم الحكم عليه بالاعدام من قبل اليهود، خوفا منهم على سلطتهم الدينية والادبية على ضمائر الشعب. وقد وافق بيلاطس على هذا الحكم خوفاً من أن يفقد منصبه في فلسطين المستعمرة الرومانية: فقد هدده اليهود بأنهم يشكونه عند قيصر إن هو لم يُلبِّ طلبهم باعدام يسوع، وهذه النقطة تتفق عليها الاناجيل الاربعة. فكل هذه الاسباب والمبررات التي أدت الى موت يسوع هي أسباب سياسية بحتة: ان بيلاطس خائف على منصبه ولا يستطيع مقاومة جماهير اليهود التي تصيح: "اقتله اقتله"؛ وهناك أيضا الكتابة المشهورة المعلقة على صليب يسوع "ملك اليهود" التي تشير بصورة واضحة الى احدى الشعارات السياسية المعروفة للغيارى آنذاك.

لقد أصبحت الصورة واضحة الان، وهي أن المسيح ابن يوسف النجار الذي من الناصرة والذي أظهر نفسه المسيح المنتظر، حكم عليه من قبل اليهود بالاعدام واستحصلت الموافقة على اعدامه من الوالي الروماني، لان عمله وكلامه هدد، حسب اعتقادهم، النظام السائد والسلطة الحاكمة في فلسطين آنذاك. ان التشكيك في هذه الصفة السياسية لاعدام المسيح يعتبر تشويها للحقائق التاريخية كما وقعت، وأفضل برهان على ذلك هو أن الجماعات الايمانية الاولى لم تكن مهتمة في مقاومة الاستعمار الروماني —باعتبارها مسألة ثانوية في عملية نشر ملكوت الله— ولهذا فهي لم تقم باستنباط هذه الامور التي ذكرناها، وانما نقلتها بحسب واقعيتها التاريخية.

ولكن اذا كان المسيح قد أعدم لاسباب سياسية، فهل يعني هذا أنه رجل سياسي وان مشروعه الخلاصي هو مشروع سياسي؟[١].

(١) نقصد هنا السياسة بحصر المعنى: فالسياسة بمعناها الشامل هي الحياة المنظمة داخل المدينة أو اية مجموعة بشرية؛ وبمعناها الحصري تعني ممارسة السلطة والحكم بصورة مباشرة داخل هذه المدينة أو المجموعة البشرية، أو ما نسميه بكلمة واحدة "المجتمع".

للاجابة على مثل هذا السؤال الجدي، لا بد لنا من العودة الى ما أظهره المسيح نفسه في ما يخص جوهر رسالته الخلاصية، ولا يسعنا في مثل هذه العجالة أن نوفي الموضوع حقه من البحث. مثل هذا البحث يعتمد على التحليل الاجتماعي/التاريخي والسياسي/الديني للمجتمع الفلسطيني في عهد المسيح لكي نستطيع اكتشاف أبعاد الكلمة الانجيلية الملقاة في ظروف كهذه، ومعرفة هوية صاحبها؛ لذلك سنقتصر على واحد من النصوص الشهيرة بهذا الخصوص ونحاول تحليلها لمعرفة شخصية يسوع المسيح العميقة وكشف طبيعة رسالته:

❋ أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله

"فذهب الفريسيون وتآمروا كيف يصطادونه بكلمة، ثم أرسلوا اليه تلاميذهم والهيرودسيين يقولون له: يا معلم عهدناك صادقا تهدي الناس سبيل الله هداية حق ولا تبالي أحدا لانك لا تراعي مقام العظماء. فقل لنا ما رأيك؟ أيحل دفع الجزية لقيصر أم لا؟ فتمعر يسوع بخبثهم فقال: لماذا تحاولون أحراجي أيها المراؤون! أروني نقد الجزية، فأتوه بدينار، فقال لهم: لمن الصورة هذه؟ والكتابة؟ قالوا: لقيصر. فقال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (متى ٢٢:١٥-٢٢).

ان جميع الذين عنوا بتفسير هذا النص يتفقون على الغاية التي من أجلها سأل الفريسيون والهيروديسيون هذا السؤال المحرج: انهم يستهدفون ازالة التأثير المتزايد الذي كان يحدثه يسوع على جموع الشعب التي رأت فيه الرجل الذي سيعيد اليهم الملك والمجد. فلو أن يسوع أجابهم برفض دفع الجزية لقيصر وحثهم على ذلك، لرأوا فيه "غيورا"، لان شعار "الغيارى" يقوم على عدم دفع الجزية، وعند ذاك يتاح للهيرودسيين المتعاونين مع السلطة الرومانية الحاكمة أن يستغلوا اجابته هذه ويتهموه بأنه عنصر مخرب يعرّض استمرار الاحتلال للخطر. الا أن الاجابة المعاكسة لا تخلو، هي الاخرى، من خطر: فلو اجاب بضرورة دفع الجزية لقيصر، لسقط فوراً في نظر الشعب، ولذهبت جهوده في اعلان ملكوت الله أدراج الرياح، لان الشعب كان ينتظر منه اعلان نفسه المسيح المخلص الذي سوف يحرره من سيطرة الرومان بحسب الاعتقاد السائد للمسيحانية آنذاك. ولكن يسوع يجيب: اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فكيف نفهم هذا الجواب؟

ان المسيح لم يهتم أصلا بالنقود، وله رأيه الواضح بالمال، كما يبدو ذلك في نصوص كثيرة من الانجيل. لذا فهو لم يهتم بقضية دفع الجزية لقيصر بحد ذاتها —بينما يعتبرها قيصر أمرا أساسيا— فجاء جوابه: فلندفع اذن ولا نضيع وقتنا في مثل هذه القضايا

الثانوية، فرسالتي تتجه نحو ملكوت الله، وهذا أمر مركزي. وانتم أيها السائلون الذين تعتبرون أنفسكم مؤمنين، عليكم أن تهتموا بشؤون السماء وتتركوا شؤون الارض لاهلها!

ان هذا العرض الاولي لتفسير النص يضعنا بصورة واضحة في الخط الانجيلي لتعليم يسوع (ولنا عودة الى ذلك). ولكننا جئنا بهذه المقدمة المبسطة لان هذا النص بالذات قد استغله بعض المفكرين كأساس لتعليم الكنيسة الاجتماعي وكقاعدة لعلاقتها بالدولة —وهذا خارج عن مدار بحثنا هنا. ولكن لا بد من الاشارة الى أن هذا النص لا صلة له أصلا بتنظيم علاقة الكنيسة بالدولة ولا يصلح لان يستنتج منه، بهذه السهولة، مبدا عام في رأي الدين عن الدولة، ولكنه نص قيل لغاية أخرى تخص عملية الكشف المسيحاني عن هوية يسوع الناصري الحقيقية.

* أطلبوا أولا ملكوت الله...

ان المسيح يرفض عادة الانزلاق في أسئلة من هذا النوع تبدو على شكل مصائد وشباك تتكرر في أماكن أخرى من الاناجيل، ولكنه في الوقت نفسه يظهر لنا ذاته العميقة من خلال الجواب الذي يقدمه والذي يكون عادة على شكل سؤال لا يخلو من التحدي واستلام المبادرة: "لمن هذه الصورة" —ويقصد الصورة المحفورة على العملة الرومانية. ولما كان جواب السائلين: "انها صورة قيصر"، أجابهم: "أعطوا ما لقيصر لقيصر"، أي ردوا له ما يستحقه وما صنعه من أمور زائفة. أما أنتم، يا معشرالبشر، فأية صورة تحملون؟ ألستم صورة الله؟ فردوا اذن "ما لله لله"! هكذا يكون فحوى كلام يسوع: ان رسالتي غايتها أنتم البشر، لان الله يريدكم أنتم، في جوهركم، لا في الرموز التي تقيمونها بينكم وتحجب ذاتكم الاصيلة. وبكلمة أخرى نرى المسيح يرفع النقاش من مستوى الايديولوجية السياسية الى مستوى رسالته الاصيلة والمتميزة والتي تخص ملكوت الله الذي موقعه بين البشر وله متطلباته التي توجز ببذل الذات المطلق لله، لان الانسان هو ملك الله، وكل ما سواه ينطلق من هذا المبدا الانجيلي الاصيل. وهذا يذكرنا أيضا بكلام آخر للمسيح: "أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره والباقي يأتي تباعا".

بمثل هذا الوعي الذي يحصل عليه الانسان المؤمن بانه ملك الله وصورته، يستطيع أن يعيش علاقاته الاجتماعية ويلتزم القضايا السياسية، وينحاز الى كل ما يجعل هذه الصورة الالهية واضحة المعالم لا تشويه فيها. فالمسيح، وان كان قد أعدم لاسباب سياسية، وان كان الشعب قد أنتظر منه أن يكون محرراً سياسياً، الا أنه يبدد سوء الفهم هذا ويضع نفسه على مستوى أخر أعمق بكثير من التفسيرات المختلفة التي أعطاها ويعطيها البعض لهذا النص الانجيلي المهم. ولكننا نسرع فنقول بأن هذا لا يعني أن المسيح لم يكن يبالي بما يحدث في المجتمع السياسي، غير ان رسالته لم تكن ذات علاقة مباشرة بالطروحات السياسية، وان

كانت لا تخلو من أبعاد سياسية: فلقد كان يجمع الجماهير حوله ويحثهم على الاهتمام بملكوت الله القريب جداً، وهذا يعني ضرورة التغيير وعمل ما يجب لكي تستعد هذه الجماهير لاستقبال هذا الملكوت.

عندما نضع أنفسنا في قلب الرسالة الانجيلية، أعني "الاهتداء" –اهتداء القلب، أي تغييره– نجد المسيح يضع حب الله فوق كل شيء. وحب الله يفترض بصورة لا تقبل الشك حب الانسان، وهذا يعني أن حب الانسان هو فوق كل شيء أيضا، وعلى الاخص فوق كل سلطة مهما كان نوعها، وهنا نشعر بالبعد السياسي لكرازة من هذا النوع. فعندما يقول يسوع: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، يعني هذا القول: اذا كان قيصر عقبة في طريق تحقيق انسانية الانسان، كما يريد لها الله أن تكون، فعلى الانسان أن يناضل ضد قيصر.

فالمسيح لم يكن اذن رجل سياسة، بل رجل الله بكل ما في الكلمة من معنى. حياته بأكملها هي بشرى سارة (انجيل) بمجيء ملكوت الله، ملكوت الحب والعدالة والحق. ولكن عيش هذه البشرى من قبل البشر المؤمنين لا يمكن أن يتم الا اذا تجسد في الواقع بكل أبعاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

الاب عبد السلام حاوة

وجه يسوع من خلال الايقونات

هذا المقال ما هو الا شهادة عن ان يسوع هو محور فن الايقونة وسبب وجوده، ولولاه لما ابصر هذا الفن. وفي تحليلنا لابعاد هذه العلاقة، سنستلهم الكتاب المقدس لينير رؤيتنا.

الايقونة، من حيث تركيبتها الفنية واللاهوتية والروحية، فن متميز ابصر النور في حضن الكنيسة الشرقية، والبيزنطية منها بنوع خاص، محوره المسيح الذي حاولت الايقونات ان تعكس وجهه الانساني دون ان تخفي ما في سيمائه من ملامح الجلال والمهابة المقترنة بالبساطة والعذوبة. وبالتالي تحملنا ايقونات المسيح، بمختلف اشكالها، على ان نرى فيه صورة الله اصبح منظوراً! وهي تدعونا بالتالي الى الغوص للتأمل في هذا الوجه المتألق بالمجد.

الاخت ماريان-ابراهيم

الدومنيكية البلجيكية (مواليد ١٩٤٢) التي عاشت في الموصل واشرفت على "بيت الصلاة"، ساهمت الى حد كبير في التعريف بفن الايقونة وتذوقها وانتشارها -وكان لها فيها باب ثابت على مدى سنة (١٩٧٩)- الى جانب عدد من المقالات القيمة ولاسيما عن المتصوفين. وهي حالياً تشرف على ادارة مركز الكلمة في بروكسل لتنشيط العلاقات المسيحية الاسلامية عبر لقاءات ومحاضرات ونشرات... كما ترئس لجنة الحوار المسيحي- الاسلامي للابرشيات الناطقة بالفرنسية في بلجيكا.

✵ الاسس الثابتة

"ها أنا معكم كل الايام والى منتهى الدهر" (متى ٢٨:٢٠)

يحرّم العهد القديم كل أشكال الصور (خروج ٢٠:٤؛ تثنية ٥:١٢-١٩)، لا سيما تلك الاصنام التي تكرم عوضاً عن الله، لان الله لا ينكشف لشعبه الا عن طريق الصوت والكلمة. انه لا يتراءى، بل يبقى خفياً. ولان الشعب لم يتمكن من رؤية الله، فانه كان عاجزاً عن أن يمثله، وجل ما كان بوسعه هو اثبات كلامه كتابة، وقد فعل موسى ذلك.

ان هذا الخطر من تمثيل الله الخفي يحتوي ضمناً ضرورة تمثيله عندما سيصبح في متناول الرؤية. لذا كان فن الايقونة من خواص المسيحية في طبيعتها، حيث أن المسيحية ليست فقط اعتلان كلمة الله، بل هي أيضاً اعتلان صورة الله التي كشفها يسوع

الاله–الانسان. فتحريم الصورة في العهد القديم تعتمده الكنيسة بالتأكيد اجراء مؤقتا وتربوياً. وهكذا يكون العهد الجديد صلة الوصل الوثيقة بين الكلمة والصورة، ومن ثم لم يعد ممكنا الفصل بين ما يراه الانسان وما يسمعه.

وكما رأى الرسل المسيح بأعينهم الجسدية، كذلك نتوق نحن أيضا بحرارة الى رؤيته وسماعه، لا سيما في عصرنا الذي يعتمد على الصورة بشكل واسع. اننا لا نرغب في سماع كلام المسيح عن طريق الكتب وحسب، بل نريد التأمل في مظهره الجسدي عن طريق الصورة أيضا. وهذا التأمل الجسدي يقودنا الى التأمل الروحي.

ان الكنيسة ترجِّع تكريم الايقونات الى عهد الرسل، يوم كانت تبشر العالم بالمسيحية عن طريق الكلمة والصورة.

فلنتبسط الان بهذا الاعتلان الالهي المرئي:

✵ التجسد

لقد كانت الايقونة منذ ظهورها تعبيراً لسر الله الذي صار انسانا من اجل ان يصبح الانسان الهاً.

- **الاله الذي صار انسانا:**

تأتي الايقونة كنتيجة للتجسد الالهي. فأيقونة يسوع، الاله–الانسان، تمثل شخص ابن الله المتأنس، المساوي للاب جوهريا، في طبيعته الالهية. والمشابه لنا في طبيعته البشرية: "انه شبيه بنا في كل شيء، ما خلا الخطيئة" حسب قول القديس بولس.

يقول القديس يوحنا الدمشقي: "اني أتجاسر وامثّل الله اللامنظور، ليس بصفته لا منظورا، بل من حيث انه أصبح منظورا من أجلنا، بمشاركته ايانا باللحم والدم. ان ما أمثله ليس لاهوته اللامنظور، فبالصورة انما أبرز "جسد" الله الذي كان منظورا. فالله، اذن، "أرى" ذاته في ملء التاريخ، من دون أن ينال خفاءه شيء، وذلك من خلال وجه، هو وجه يسوع، "هذا المنظور الذي كشف عن اللامنظور".

من هنا كان الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس هو الوحيد الذي صور تحت هيئة بشرية. فنحن نعرف الاب بالابن ("من رآني فقد رأى الاب" يوحنا ١٤:٣)، ونعرف الابن بالروح القدس (١قورنتس ١٢:١٣). وينتج عن ذلك أستحالة تمثيل صورة الاب غير المنظور، والذي لم يتجسد، وبالتالي لا يمكن أن يصور.

- **من أجل أن يصير الانسان الها:**

بالتجسد، يعيد كلمة الله خلق وتجديد الصورة الالهية في الانسان، تلك الصورة التي

وصمتها سقطة ادم. فالمسيح، آدم الجديد، يقود الانسان الى الهدف الذي من أجله خلق آدم الاول. ومن أجل الوصول الى هذا الهدف، كان لا بد من العودة الى الاصل. من هنا ينبغي على الانسان أن يكون، ليس بجرد صورة لخالقه وحسب (تكوين ١:٢٦)، بل صورة تشبهه. فأن يكون الانسان على شبه خالقه، تلك مهمة دينامية في عنقه: "لقد قلت انكم آلهة، وأبناء العلي كلكم". (مزمور ٨١:٦؛ يوحنا ١٠:٣٤).

ففي وجه يسوع يتحقق كل ما تخطه بخشونة سيماء وجه كل انسان، هذه السيماء التي تعتنق البشرية جمعاء والكون كله.

* أجمل وجه بين البشر

"أنت جميل، وأجمل أبناء البشر" (مزمور ٤٤:٣).

ان سيماء وجه يسوع تلقى ملامحها في ضياء الشمس –ملامح تنبيء بنور القيامة– كما أشرقت في التجلي على الجبل. فمن خلال يسوع نرى وجه الله في هيئة انسان، وجهاً مشرقا ومضيئا أكثر من الشمس: "وتجلى أمامهم، فأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور" (متى ١٧:٢). فعلى جبل طابور لم يتجل اللاهوت فقط للبشر، بل الناسوت أيضاً متسربلا بالمجد الالهي.

الايقونة لا تمثل الجسد الفاني المعد للانحلال، بل الجسد المتجلي، المضيء بالنعمة، الجسد الذي يحيا للدهر الاتي. فما كشفه الرب لتلاميذه حينذاك، يكشفه لنا الاب الان، وعلى الانسان بدوره أن يتقدس باشتراكه بهذا التجلي عن طريق الصلاة.

لا يمكننا التحدث عن يسوع من دون أن نذكر الثالوث الذي ظهر لنا بصورة علنية عندما حضر الى ابراهيم بهيئة ثلاثة ملائكة. على هذا الظهور المحسوس تستند ايقونة الثالوث (ف. م عدد١٣٥– أيار١٩٧٨ وعدد ١٥٣– آذار١٩٨٠).

وهكذا حافظت الكنيسة بأمانة على ذكرى وجه يسوع، وهي التي في ملئها الخفي، وفي أسرارها وروحانيتها، لا تني تتأمل وجه الله.

* وجه المسيح–الملامح التقنية للايقونة

ان الايقونة هي صورة اله أصبح منظورا، وبذلك، فهي أيقونة حية وانعكاس لوجه الله. في هذا الاله تستقر النعمة التي تقدس الكل، لذا فجسده لا يمثل اللاهوت، وانما يشير الى مشاركة الانسان بالحياة الالهية. كما أن الفنان في الايقونة يصور بعض الجوانب الغريبة، وبالخصوص الحواس، بطريقة غير دقيقة من حيث مظهرها التشريحي، وذلك لكي يشير الى عدم الاكتراث والتجاهل والتجرد تجاه مظاهر العالم كلها.

من هذا المنطلق صورت العينان واسعتين ومحاطتين بهالتين فسيحتين داكنتين، تفتحان الوجه نحو الداخل، أي نحو العالم الروحي. فالعين تتلقى النور من الداخل، وانطلاقاً من هنا تتلقى النور الخارجي أيضاً. والوجه منشرح ومشرق، وغالباً ما تنفرد خصلة من الشعر عالية وتستقر في وسطه وكأنها شعلة تشبه ألسن العنصرة النارية. أما المنخران، فيبدوان نحيفين ومنعتقين عن أي تشابه مع عالم الحيوان، وهكذا يبدوان بدقتهما ورقة خطوطهما المتداخلة كأشارة خفية الى الصليب الكبير الذي يرسمانه مع العينين. الفم مغلق يضم الصمت، ولكنه متحفز ليعطي الروح، كما تشير الى ذلك انتفاخة العنق. والاذنان آخذتان في الانحسار رمزا الى التوغل في العالم الباطني، وتكادان تبدوان أحيانا كصدفتين ناعمتين متجهتين نحو العلى لسماع الكلام الالهي، لان ليس بالخبز وحده يحيا الانسان...

ان الوان الارض المجبولة بالضياء ليست ألوان الجنس الابيض. ومسيح الايقونات يجابهك دوما وجها لوجه، ولا يدير ظهره لاحد: أنه كله استقبال، وحضور، ونظر، لا بل تخاله كله عينا تعانق... لان المظهر الجانبي للوجه يعد بحد ذاته بمثابة غياب.

ان غاية الايقونة ليست في أن تثير فينا احساسا انسانيا اعتياديا، بل أن تفعم بضياء التجلي جميع مشاعرنا وعقلنا وسائر جوانب طبيعتنا. فهي تعبر حقا عن "تأليه" الانسان من دون أن تبتر شيئا مما هو انساني فيه.

❋ خاتمة

ان الايقونة تشهد على الابدية التي تتفتح على أعماق الوجه الذي لا تنضب ينابيعه: وجه الله، والله صار حقا "الوجه الاسمى" كي يتيح لنا أن نستكشف فيه الوجه الانساني.

فالايقونة تحمل الى العالم بين حناياها شهادة عن نموذج آخر من الحياة، عن موقف آخر من الوجود. انها تنير الدرب أمام الانسان ليكتشف دعوته وما اليه ينبغي أن يؤول. الايقونة –أو الوجه– هي الموضع الذي فيه يكتشف الانسان صورة الله، وهي تعيننا على مقاومة عملية التحطيم اليومية التي يتعرض لها الحب، حيث يغدو كل معتد مخربا لصورة الله لدى أخيه.

الاخت ماريان ابراهيم

٧ كشاف ١٩٧١-١٩٨٠

السنة السابعة عشرة: أيلول ١٩٨٠

الفهرس

- افتتاحية ... اليكم هذا الكشاف
- لاهوت
- الكتاب المقدس
- الكنيسة
- الحركة المسكونية
- وثائق
- الكنيسة والمجتمع
- الكنيسة في العالم
- الكنيسة في العراق
- تراجم
- تربية
- فنون وآداب
- تاريخ
- سياسة
- مقابلات
- افتتاحيات
- همسات
- سؤال وجواب
- من نتاج القراء
- خواطر، شذرات، هل تعلم
- كتب وردت
- تعليقات واراء
- ملفات الفكر المسيحي

سجّل هذا العدد الخاص منعطفاً حين رصد عشر سنوات من مسيرة الفكر المسيحي كمجلة (١٩٧١-١٩٨٠)، وكان في حينه مبادرة نادرة. واغتنمت افتتاحيته الفرصة لتحكي قصة "الفكر المسيحي" منذ بداياتها المتواضعة -وقد خصّت حلقات "السلسلة" الست بصفحة عكست عناوين ٦٠ موضوعاً تناولته على مدى السنوات السبع (١٩٦٤-١٩٧٠)- وحتى نهاية عام ١٩٨٠، حين اصبحت بازاء نتاج نسم من حوالي ٥٠٠٠ ص كان اشبه بموسوعة! كما تضمنت الافتتاحية معلومات عن مسار "الفكر المسيحي"، سلسلة فمجلة، في علاقتها مع وزارة الاعلام ومع المطابع، وفي التطور الذي شهدته على صعيد الحجم وعدد الصفحات والمضمون والاخراج وعدد المشتركين...

واعتمد الكشاف تبويبا لكل ما نشر بحسب "الموضوعات"، اذ صنفت المقالات في ابواب رئيسة تضمنت فروعا -ولم يهمل التصنيف الابواب الثابتة او المتحركة. كما ادرج فهرس باسماء الكتاب ومقالاتهم، واقتصر على الذين كتبوا خصيصا للمجلة...

(...) عمدت المجلة إلى تحديد أهدافها من جديد، لتكون محكا نعود إليه كلما خُيِّل إلى بعضهم اننا شططنا أو كلما أساءوا فهمنا... وتلخصت هذه الأهداف في كون "الفكر المسيحي":

- مجلة مسيحية إعلامية ملتزمة تقدم لقرائها إعلاما جادا حول أحداث الكنيسة في العراق والعالم.
- مجلة ثقافية تسعى إلى تطعيم قرائها بروحانية الانجيل في بحث على الأصالة والتجدد في الايمان.
- مجلة تؤمن بالوحدة المسيحية فوق الفوارق الطائفية والمذهبية، وتسعى إلى بعث الحوار المسيحي-الإسلامي.
- مجلة لا تدّعي انها لسان الكنيسة الرسمي، بل تؤمن بتعددية الاراء ضمن وحدة الايمان.

فهذا "الكشاف" الذي نضعه بين أيديكم، إنْ هو إلا فرصة يتاح فيها، لكم ولنا، أن نقيس ما حققته المجلة لقرائها من خدمة إعلامية وثقافية طيلة السنوات العشر.

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ ص ١٨٩-١٩٠)

٨ الكتاب المقدس

السنة الثامنة عشرة: ت١–ت٢ ١٩٨٢

الفهرس

• افتتاحية: الكتاب المقدس... كلام الحياة	رئيس التحرير
تاريخية الكتاب المقدس	
• تاريخ الكتاب المقدس ومخطوطاته القديمة	نجيب قاقو
• الكتاب المقدس والتنقيبات الاثرية الاخيرة	تلخيص: يعقوب افرام منصور
مدخل الى الكتاب المقدس	
• الاساليب الادبية	أ. خليل قوجحصارلي
• الوحي والالهام في الكتاب المقدس	أ. افرام سقط
تاريخ الخلاص/العهد القديم	
• شمولية الخلاص من خلال الانبياء	أ. يوحنا عيسى
تاريخ الخلاص/العهد الجديد	
• مدخل الى العهد الجديد	(معربة عن الفرنسية)
• العهد القديم في العهد الجديد	أ. يوسف توما
• قراءة الكتاب المقدس على ضوء القيامة	أ. فرنسيس المخلصي
الكرازة الانجيلية	
• الانجيل والاناجيل	أ.م.
• قراءة في كتاب اعمال الرسل	أ. جرجس القس موسى
• القديس بولس في رسالته	أ. بيوس عفاص
الحياة المسيحية	
• الكتاب المقدس والتثقيف المسيحي	أ. يوسف عتيشا
• الكتاب المقدس غذاء الحياة الروحية	الاخت ماريان – ابراهيم
• لوحة تاريخية	...
• كتب في الكتاب المقدس	...

سنوات **الفكر المسيحي**، تخللتها مقالات كتابية كثيرة... ولكن كان لا بد لها ان تخص الكتاب المقدس بعدد لم يقوَ، مع دسامته وضخامته، سوى على رسم الخطوط العريضة له، فيصبح بمثابة "مدخل" اليه، يبدّد جزءاً من الظلال التي اكتنفته، ويذلل بعض الصعوبات التي اعترضته، ويجيب الى عدد من التساؤلات التي تثيرها قراءته...

فكانت هناك مقالات انكبّت على تاريخه، وسلطت اخرى الضوء على "الاساليب الادبية" فيه، فيما احاطت مقالات بتاريخ الخلاص عبر العهدين القديم والجديد... وكان للكرازة الانجيلية والحياة المسيحية في هذا العدد نصيب كبير.

(...) الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد، هو كتاب الله والانسان معاً! كتاب يحكي قصة العلاقة بين الله والانسان: إله يتكلم ويدعو ويناشد، وانسان يبحث ويتساءل ويردّ. فكتّاب الأسفار المقدسة كانوا على يقين من أنهم حاملو رسالة الله إلى الانسان: إنهم يبلغون، من خلال "مؤلفاتهم" الملهَمة، نداءات الله إلى البشر، ويعكسون تساؤلات البشر وردود فعلهم، ضمن التاريخ البشري وليس خارجا عنه. واذا كان "العهد القديم" برمته يحكي قصة الخلاص الذي أراد الله أن ينجزه في البشرية، من خلال شعب اختصه، وعبر "عهد" تخللته خيانات وانحرافات وتعثرات من جانب الشعب، ازاء حب الله وأمانته وطول أناته... فالعهد الجديد يكشف عن علاقة جديدة بين الله والانسانية، عبر ذاك الذي جاء إلى عالمنا يجسد حب الله وخلاصه: يسوع، كلمة الله التي بلغت إلينا في "ملء الزمان": (...) فكل قراءة للعهد الجديد تستغني عن العهد القديم تضحي قراءة مبتورة، وكل قراءة للعهد القديم لا تستلهم أضواء العهد الجديد تضحي هي الأخرى قراءة منتقصة (...)

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٢١٩–٢٢٠)

الأساليب الأدبية

الكتاب المقدس، كتاب عسير على الفهم! في "عهده القديم"، هو كتاب او بالاحرى كتب تذهب بنا في مآزق ومتاهات: يساورنا الشاك في "مصداقيته"، سواء حين تقع انظارنا على قصص غريبة تسبح في مناخ من الحروب والنزاعات، وتعكس صورة شعب بدائي رائده الاثنار والقتل والتدمير؛ ام حين نقرأ فيه اسفاراً هي اشبه بقطع شعرية فيها الحب والتمرد، وفيها الملاحم والحكم الشعبية الى جانب الاساطير... وحتى في "عهده الجديد"، هناك امور كثيرة يصعب فهمها و"اختلافات يصعب التوفيق بينها مما يثير تساؤلات جمة ...

كيف نقرأ الكتاب المقدس؟

الجواب الى هذا السؤال، بقلم الاب خليل، من شأنه ان يبدد الكثير من المخاوف والاشكالات والتحفظات التي تحدثها قراءة الكتاب المقدس، لا سيما حين نريد ان نقيم موازنة بين معطياته ومعطيات العلم... فلكي تضحي قراءتنا للكتاب المقدس سليمة و"علمية"، لا بد لنا من الاحاطة بمبدأ "الاساليب الادبية" التي دُوّنت بها الاسفار المقدسة والتي تكشف عن هوية الكاتب الملهَم وبيئته وثقافته ولغته واسلوبه والحضارة او الحضارات التي يسبح فيها ويتفاعل معها ويقتبس منها.

ان أخطاء عديدة في فهم الكتاب المقدس لا تزال عالقة في أذهان الكثيرين نتيجة اصرارهم على التفسير الحرفي في مادية الالفاظ والعبارات، وعلى حصر الاسفار كلها في أسلوب تعبيري معين ونوع أدبي موحد. فهم يقرأون سفر التكوين وكتاب المزامير وسفر طوبيا أو الامثال والانجيل ورسائل بولس ورؤيا يوحنا بالطريقة ذاتها وبالمفهوم التاريخي الحدثي الذي يعتمد الواقعية بكل جوانبها، بحجة أنها الاساس والمقياس الوحيد للحقيقة.

ان مثل هذا الموقف يؤدي حتماً الى تناقض واضح بين المضمون الكتابي والاثباتات العلمية المعاصرة. لنضرب مثلاً على ذلك: بحسب سفر التكوين، خلق الله العالم وما فيه في ستة أيام، بينما يثبت العلم، في معطيات صريحة لا مرد عليها، أن العالم تكوّن بملايين من السنين عبر تطور بطيء شمل الارض والنبات والحيوان والانسان ذاته. فأين الحقيقة؟ فاذا تمسك أولئك بالمعطيات الكتابية دون العلمية، رجعوا الى العهود المعتمة من التاريخ ورضخوا لتخلف خطير يعزلهم عن عالم التقدم والرقي؛ وإن تمسكوا بالمعطيات العلمية دون الكتابية اضطروا الى اعتبار الكتاب المقدس مجموعة من أساطير خيالية أقرب الى الخرافة والشعوذة مما الى الوحي الالهي! والحال ان الحقائق، دينية كانت أم عملية، تتلاقى وتتكامل دونما تناقض: لا ينفي الحقيقة الا الضلال!

ففي هذه الحال نحتاج، اذن، الى قراءة صحيحة للكتاب المقدس بشكل يرضي العقل والايمان معاً في آن واحد. والمفتاح لهذه القراءة الصحيحة وللفهم المقنع المتكافئ هو في الاخذ بمبدأ الاساليب الادبية في الكتاب المقدس.

✵ المبدأ العام

كل كتاب هو نتاج وسط اجتماعي معين وبيئة جغرافية وحضارية ولغوية خاصة. وكل كاتب يطبع على صفحات كتابه مزاجه ومركباته النفسية وقناعاته الفكرية، بالاضافة الى انعكاسات الظروف السياسية والعائلية والفنية التي تحيط به. كما أن غايته من الكتابة ونوعية الناس الذين يكتب لهم ومن أجلهم تقرران لغته وأسلوبه الانشائي والرموز والصور التي يستخدمها والصيغة الادبية التي يتبناها. فمفروض اذن على الكاتب أن يدرك تمام الادراك عقلية شعبه وتقاليده وعاداته وما في الفاظه وتعابيره من معان خاصة وما يعيشه من تراث وتاريخ وتطلعات، كي يصل الى نوع من التفاعل الفكري مع قرائه.

هذا يعني أن على القارئ أيضاً —اذا ما أراد أن يقف على حقيقة كتاب ما ويتفهم محتواه— أن يرجع بالكتاب الى عهده الذي كتب فيه، مستدركاً معنى الالفاظ والرموز والتشابيه حسبما كانت حين ظهور الكتاب. ثم، عليه خصوصاً أن يكتشف الاسلوب الادبي الذي اتبته الكاتب: هل نوى أن يكتب تاريخاً، أوقصة خيالية، أو مسرحية، أو ملحمة، أو قصيدة شعرية؟ هذه الطريقة متبعة، بصورة اعتيادية، في كل الاوساط الفكرية الجدية: فكتاب "كليلة ودمنة" لا يقرأ كما تقرأ "المعلقات" أوسيرة "الجاحظ"، ولكل من هذه المؤلفات أسلوبه الادبي والانشائي وانتقاء المعاني والصور التي تناسبه، وان أي خلط في الاساليب الادبية يبعد القارئ عن حقيقة الكتاب وغاية المؤلف. فلكل أسلوب أدبي حقيقته: ما يستوحيه الشاعر من الشمس، مثلاً، وما يصفه بلغة ملونة، هو حقيقة شعرية تختلف مضموناً وشكلاً عن تحليل علمي للشمس من قبل عالم فلكي يستهدف الحقيقة العلمية الموضوعية. فلا نطلبن من هذا خاصيات ذاك!

✵ في الكتاب المقدس اساليب ادبية متميزة

ان الكتاب المقدس هو أيضاً يخضع لهذه القاعدة —اليس هو كتاب الانسان؟— ولا يمكن فهمه من دون اطلاع واف على شخصية الكاتب وعلى مستواه الثقافي والاجتماعي، وعلى ما لديه من رسالة وأهداف، وعلى الاسلوب الادبي الذي أختاره أداة لنشر أفكاره وتعاليمه. هذه المعلومات الاولية لا ينالها المرء أعتباطياً، بل عن طريق الدراسة والمطالعة والاجتهاد الشخصي.

مع ذلك، وتحاشياً للالتباس، ينبغي أن نتنبه الى أمرين هامين هما:

أولاً: تختلف الاساليب الادبية المألوفة في الاداب المعاصرة، الى حد ما، عن الاساليب الادبية المستخدمة عند القدماء في الشرق. فعلى سبيل المثال: كانت للقدماء طريقة لكتابة التاريخ تخلو من الاستقصاء الدقيق والبحث المفصل عن الاحداث، كما هي الحال اليوم.

ثانياً: ان للاسفار المقدسة موقعاً متميزاً في الاداب القديمة ودوراً فريداً وسط شعب الله، بالرغم من امتلاكها جوانب كثيرة شبيهة بالعديد من المؤلفات القديمة في الشرق، وذلك لتلاحم الحضارات وللتقابس الفكري بين الشعوب وأئمة العلم.

هذا ما يدعونا الى القول بان للاسفار المقدسة أساليب ادبية متميزة وخاصة بها دون سواها، أو على الاقل بانها أضفت على الاساليب الادبية المألوفة معنى خاصا واتجاهاً جديداً، نظراً الى المناخ الديني غير المعهود الذي نشأت فيه، مما جعلها تلتزم أسلوباً انشائياً قادراً أن يعبر عن قضايا روحية الهية غير مألوفة.

❋ دور الجماعة في خلق الاسلوب الادبي

لقد جاءت الاسفار المقدسة جواباً على حاجات شعب الله وتساؤلاته. فمن الطبيعي، اذن، أن يعكس كل سفر صورة الجماعة التي نشأ فيها، وأن يحمل، في الوقت نفسه، بصمات هذه الجماعة من حيث الاسلوب الانشائي والادبي المختار والقضايا المطروحة. لذا فالجماعة أحق من غيرها في أن تقول رأيها في كتابها. من هنا نرى بأنه لا يكفي أن تُصنَّف الاسفار في جداول تعيّن لكل سفر أسلوبه الادبي مسبقاً، انما يجب العودة الى العوامل الداخلية والخارجية التي دخلت في تركيب السفر وتعيين موقعه ونوعه وأسلوبه الادبي.

اذ ذاك نكتشف بان أدبنا المعاصر والادب القديم —في شطريه الشرقي والغربي— تنقصهما عناصر كثيرة، وقد أغناهما الكتاب المقدس بانواع أدبية أصيلة ومتميزة. ويعود السبب الى كون شعب الله قديماً، والكنيسة الاولى من بعده، جماعات دينية تختلف، من جوانب عدة، عن جماعات الاديان الاخرى. فايمانها النابع من كلام الله الموحى يعتلن ويحافظ عليه بواسطة الادب النبوي؛ ولعبادتها من الاشكال والصيغ ما يحدد نوع التعبير الملائم. هكذا، في العهد القديم، مجاميع أدبية هامة، مثل سفر تثنية الاشتراع وغيرها، لا تفهم مضامينها الدينية والفكرية والاجتماعية بصورة صحيحة الا من خلال علاقتها بالجماعة اليهودية في ذلك العهد. والاساليب المستعملة تنقل بصورة أكيدة آثار الحقبة التي عاشتها تلك الجماعات.

كذلك الامر في ما يخص العهد الجديد، حيث أثرت حياة الكنيسة الاولى على انشاء الكتب المقدسة. فكتاب الانجيل ليس هو سيرة المسيح بالمعنى الحصري، ولم يكتب ليسرد حوادث تاريخية حسب مقتضيات علم التاريخ العصري. أنه البشرى السارة بملكوت

الله وبالخلاص الذي تم بيسوع المسيح حسب المواعيد النبوية. هكذا يمكننا القول بأن "الانجيل" نفسه "اسلوب أدبي" فريد من نوعه لا مثيل له في سائر الاديان. انه أسلوب أدبي مسيحي يعتمد الكرازة المسيحية كما نجدها في سفر أعمال الرسل وفي سائر رسائل بولس. وغني عن القول بأن لهذه الكتب مقاماً مركزياً في حياة الجماعة المسيحية التي منها تستمد التعاليم الاساسية والنظم التي تسوس ممارستها.

هذه الظروف كلها واكبت كتابة الانجيل وساعدت على ايجاد طرق متنوعة للتعبير ضمن الاسلوب الادبي الرئيس، أعني به "الاسلوب الانجيلي".

❋ الادب "الكتابي" وصلته بالادب القديم

ان الاساليب الادبية في كتاب العهد القديم تجد أصولها في الاساليب الادبية المألوفة في الادب القديم، وذلك بالرغم من ميزاتها الخاصة بها. ففي التاريخ القديم، ما قبل مولد شعب الله، نصوص كثيرة: فيها الشرائع، والنواميس، واقوال المنجمين، والتراتيل الطقسية، والامثال الحكمية الخ... فمن الطبيعي أن يكون لهذه الاساليب الادبية القديمة تاثير على الاساليب الادبية المماثلة في الكتاب المقدس، نظراً لسريان التيارات الفكرية والثقافية بين الشعوب المتجاورة. ولكن، الى جانب نقاط التشابه، هناك خواصٍ تتميز بها الاداب في الكتاب المقدس، لا وجود لها في غيرها من الاداب القديمة مطلقاً: فقد يكون ثمة، مثلاً، تشابه في العبارات والالفاظ والصيغ بين نصوص تمثل أجوبة الالهة للعرافين في بلاد ما بين النهرين، من جهة، وايات الانبياء لدى اليهود، من جهة اخرى. ولكن، بالرغم من ذلك، لا تعد الايات النبوية من أدب العرافين، لانها لا تستهدف استخدام المعرفة الالهية للمصالح الانسانية اليومية الضيقة، كما هو شأن العرافة، بل تنوي الكشف عن مقاصد الله الخلاصية في "التاريخ الانساني". وتلك قيمة جديدة تكفي لتحوّر كلياً الاسلوب الادبي.

هكذا الامر في ادب كتب العهد الجديد: فلقد نشأ ونما هذا الادب في وسط فكري يهودي/هيلليني، فلا نستغربن، اذن، من تقارب النصوص وتشابهها في التعبير مع كتابات قمران أو فيلون.. انما الاختلاف العميق هو في المضمون الروحي والفكري الذي اولى ادب العهد الجديد تلويناً خاصاً وصفات متميزة تتناسب وتعاليم المسيح ومناحها الروحي.

❋ الاساليب الادبية في سياق التطور الثقافي

منذ القديم وحتى ظهور الكنيسة الاولى خضع شعب الله لتطور ثقافي متواصل، أسوة بسائر الشعوب، على أثر احتكاكه بمختلف الحضارات التي تعاقبت في التاريخ: المصرية، والكنعانية، والاشورية، والفارسية، واليونانية، والرومانية...، وانتقل من ثقافة

شفوية الى ثقافة مكتوبة، وقد لعبت الكتابة دوراً هاماً في مسيرته الفكرية وأحدثت انعكاسات عميقة على أدبه. فوسائل التعبير التي كانت مألوفة في الحقبات السابقة اصبحت نافلة في العهد الملكي، وكذلك تلك التي كان يستعملها الكتبة في عهد الجلاء أصبحت غير مقبولة في العهدين الهلليني والروماني.

من ذلك نستنتج أن الاشكال الادبية لم تثبت بصورة استمرارية في العهود المتتالية، انما نلاحظ بان عملية "التحوير" أو الانتقال من أسلوب ادبي الى آخر هو الوارد: مثال على ذلك انتقال أسلوب "الاية النبوية" الى "أسلوب الرؤيا". ان فهم النصوص الكتابية يفترض أذن الانتباه الى هذا التطور في الصيغ والى تعددها وتنوعها للتعبير عن كلام الله الموجه الى شعب معين في أرض وعهد محددين، ووسط تشكيلات ثقافية تعاقبت في التاريخ، ثم أندثرت لتحل محلها محاولات جديدة لتكون بدورها أداة للكلام الالهي.

❋ الاساليب الادبية التي يحويها الكتاب المقدس

لقد استخدم الكاتب الملهم ما كان متوفراً لديه من امكانات مختلفة في الصيغ الادبية طبقاً لغايته ومضمون كتابه وطبيعة المجتمع الذي يكتب له. وكان عليه أن يتبع القوانين والعادات الخاصة بكل أسلوب، علماً بان الالهام يشمل كل صيغ التعبير، من دون أن يغيّر ما لكل أدب من شروط وخواص. من جهة أخرى، ليس من السهل أن تنتظم الاساليب الادبية المستعملة في الكتاب المقدس في جداول دقيقة ومستقلة عن بعضها تماماً، نظراً لتشابك الاساليب بين الاسفار، أو حتى السفر الواحد. فليس هناك اسلوب صاف تماماً، وقد يتأثر أسلوب ما بما يسبقه أو يلحقه، أو قد يكتسب خاصية فريدة نظراً الى الموضوع الجديد الذي يتناوله؛ ومع ذلك بوسعنا تحديد بعض الخطوط الكبرى لهذه الاساليب الادبية الواردة في الكتاب المقدس:

- الفصول الاحد عشر الاولى من سفر التكوين تنتسب الى أسلوب خاص يتصل باسلوب التاريخ (حسب العرف القديم)، والاسطورة الشعبية، والمثل التعليمي، والرؤيا الكونية. فكثير مما جاء في هذه الفصول كان متداولا في الاوساط السامية كآراء شعبية في أصل العالم أضيفت الى أحداث حقيقية، بعد أن جردت من مناخها الوثني والافكار الخرافية، لتعالج أهم المواضيع الدينية التي تتعلق بالخليقة والانسان والخطيئة والخلاص. فنحن هنا أمام "تفسير ملوّن" لواقع الانسان ازاء الله الخالق والمخلص، وليس أمام أنتروبولوجيا علمية، أو أساطير خيالية وقصص خرافية. أما الفصول الاخرى من سفر التكوين، فهي عبارة عن "تاريخ شعبي" لا يتقيد بمقتضيات علم التاريخ في مقاييسه العصرية.

- هناك التاريخ السياسي في سفر الملوك والمقابيين. والادب الجدلي الدفاعي في سفر الاخبار. أما سفر راعوث وطوبيا وأستير ويونان، فهي تتضمن عناصر عدة متغايرة.

ولكن الطابع البارز والثابت فيها هو الادب الاخلاقي والارشادي التقوي الذي يعتمد، لا على أحداث تاريخية وقعت —حتى اذا استندت في الاصل الى شيء من الواقع الحدثي— ولكن على أسطورة شعبية ذات غاية تعليمية ورسالة روحية.

– المجاميع الحكمية المنتشرة في أوساط حضارية مختلفة، أُستعملت، هي أيضاً، في أسفار الامثال، وابن سيراخ، والحكمة.. ضمن أسلوب أدبي خاص.

– اما سفر أيوب، فهو عبارة عن مسرحية شعرية فلسفية مبنية على محاجة جدلية بهدف حمل قلب الانسان على التأمل الهادئ في مقاصد الله وفي رحمته ازاء قضية الالم، وهي أعنف مشكلة يجابهها الانسان.

– كما أن للشعر بأشكاله المختلفة —من النشيد الطقسي الى الانشودة القومية، وحتى القصيدة الغزلية— محلاً واسعاً في الكتاب المقدس، كما في نشيد الانشاد، والمزامير، والمراثي: ذلك أسلوب أدبي شائع يعبر عن شجا الشعوب وفرحهم، عن ايمانهم وأملهم، وعن صلاة الضراعة الى إله العون والقدرة المملوءة عجباً وجلالا ورهبة ووقارا.

– أما اذا أتينا الى الايات النبوية، فهي تمثل اسلوباً أدبياً متميزاً، ولكن متشابكا. لان الاسلوب النبوي يتصل، في جوانب كثيرة، باسلوب "الرؤيا" الذي نشأ عنه، وبالكتب الحكمية التعليمية. ومن ذا ينكر ما لهذه الكتابات من روعة فنية متفوقة ودرجة عالية من البلاغة، بالاضافة الى أهدافها الروحية السامية التي تبعث في الضمير الثقة بالله وتعكس في أعماقه حنان الرب وحبه.

– أخيراً، هناك أسلوب الرؤيا (الابوكاليبتيك، أو الملحمي) مثل سفر دانيال ورؤيا يوحنا. فلقد شاع استعمال هذا الاسلوب الادبي في أواخر ايام اليهودية، بعد جلاء بابل، وهو أسلوب يصعب على الفكر العصري تفهمه، سيما وأن لا مقابل له في ادابنا الحاضرة بصورة مباشرة. انه غريب بأسلوبه الانشائي وصوره الخارقة ورموزه، وهو يشكل بذاته "لغة" منفردة بقواعدها وصيغها. المهم أن ندرك أبعاد هذا الاسلوب الخاص كشرط لفهم غاية الكاتب وطرقه ونواياه عبر عالمه الغريب.

ختاماً.. ان اكتشاف مبدا الاساليب الادبية وتطبيقه على الكتاب المقدس يعد، من دون أي شك. خطوة ثورية في تطوير العلم الكتابي. فقد أزاح كابوس قضية التوفيق بين العلم والايمان، ووجّه البحوث والدراسات نحو أنجازات هامة، علمية ودينية، كانت احدى نتائجها البارزة: اليقظة الشاملة في الكنيسة لمطالعة الكتاب المقدس في عهديه، والاهتمام الجدي في نشر كلام الله بين الاوساط والفئات المسيحية بأسلوب علمي وقريب المنال في آن واحد، لجعله قوتاً لضمير المؤمن وركيزة الحياة المسيحية الاولى.

الاب خليل قوجحصارلي

الوحي والالهام في الكتاب المقدس

هل الكتاب المقدس منزل، ام موحى به، ام ملهم؟ ما هو دور الله فيه؟ وهل للانسان فيه دور؟ وما هي الحدود بين الدورين؟ الا يرجع الكتاب المقدس صدى الحضارات التي شهدت نشوءه؟ وما هو الدور المتميز الذي لعبه الملهمون لدى استعانتهم واقتباسهم عناصر من بيئتهم وحضارتهم؟

أسئلة تتبادر الى الذهن لدى الحديث عن الكتاب المقدس، هذا "الكتاب" الذي هو حصيلة عمل مشترك بين الله والانسان، ضمن التاريخ وليس خارجاً عنه. انه عمل تترك الحضارة طابعها على اسلوب الكاتب، ولا تختفي شخصيته ومواهبه ازاء الله الذي يمرر، من خلاله، رسالة الى البشر. فالمهم هو ان نكتشف: ماذا اراد الله ان يقوله للانسان من خلال الاسفار المقدسة على اختلاف مضامينها واساليبها الادبية.

فعلى استجلاء هذين الدورين ينكب الاب افرام سقط ليخلص الى القول بان الكتاب المقدس مرآة يعكس الله فيها ذاته عبر التاريخ.

الاب افرام سقط من مواليد ١٩٤٨، تخرج في معهد مار يوحنا الحبيب كاهناً عام ١٩٧٢ ودخل من ثم الرهبنة الدومينيكية وابرز نذوره الرهبانية فيها. تخصص في الدراسات الكتابية ونال شهادات عالية. عمل لسنوات في دير الآباء الدومنيكيين في الموصل واعظاً ومرشداً ومحاضراً.

أُحصيت له ٣٦ مساهمة في المجلة عبر باب الكتاب المقدس، وبالاخص في باب "من وحي الانجيل" على مدى اكثر من عام، فضلاً عن اجابات عديدة في باب "اسئلة واجوبة". كان له بعد مغادرته العراق حضور في لبنان وفرنسا عبر المواعظ والمحاضرات والمبادرات ذات المنفعة العامة... وله بعض الكتب المترجمة.

اذا ما تصفح المرء "الكتاب المقدس" يكتشف انه ليس امام كتاب واحد، وانما امام مكتبة تحتوي على ٧٣ كتابا يختلف بعضها عن البعض الاخر بالحجم والمحتوى، وليس ثمة كتابان متشابهان. ويقسم الكتاب المقدس الى قسمين: القسم الاول، وهو الاقدم والاكبر حجما، ندعوه "العهد القديم"، وهو مشترك بين اليهود والمسيحيين مع بعض الفروقات البسيطة. أما القسم الثاني فندعوه "العهد الجديد" ويتألف من ٢٧ كتابا وهو خاص بالمسيحيين فقط.

هكذا، اذن، تشكل مكتبة المسيحي موسوعة ثمينة تتكون من كتب عديدة تضم اسفارا تاريخية ونبوية وحكمية ورسائل وسيرا ورؤى وشعرا وتعليما الخ... ولكن قبل ان نعتبر الكتاب المقدس مكتبة، ليس الا، فهو عالم غريب وثري يدعونا الى المشاركة في مغامرة شعب كان ولا زال في صراع مستمر مع الله. فهو، من ثم، قصة او تاريخ علاقات يبدأ بالعهد الذي قطعه الله مع شعبه وينتهي بتحقيق الخلاص الموعود، على يد المسيح، لهذا الشعب. شعب أمسى البشرية جمعاء، ولا تحده أمة أو عرق او ارض، والكتاب الذي

اليه هذا الشعب—البشرية هو بشرى الله عبر التاريخ والحضارات، في شمولية منفتحة على الانسانية كلها وعلى الابدية. بهذا المعنى لا يعود الكتاب المقدس مجرد كتاب كالكتب، وعبارة "أهل الكتاب" حين تطلق على المسيحيين، لا تصح اذا انطوت على "تحديد" انكمائي، أو "انتساب" مادي وحرفي، أو مجرد "اصطفاف" في دين معين.

ولقد كتب العهد القديم بالعبرية باستثناء بعض اجزاء كتبت بالارامية؛ وقد ترجم الى اليونانية، منذ القرن الثالث قبل المسيح في مدينة الاسكندرية بمصر. أما العهد الجديد فقد كتب بكامله باللغة اليونانية ما خلا انجيل متى الذي يقال انه كتب بالارامية. وسرعان ما ترجم الكتاب المقدس في عهديه الى عدة لغات منذ القرن الرابع—الخامس الميلادي.

* الوحي والالهام ماذا يكشفان؟

بعد هذه المقدمة الموجزة عن بنية الكتاب المقدس، ندخل في صلب الموضوع بالقاء السؤالين التاليين:

— الكتاب المقدس كتاب موحى. ما معنى ذلك، وما هو الوحي في المفهوم المسيحي؟

— ما هو الالهام، وما هي صلته بالوحي الكتابي؟

الوحي: مشتقة من فعل وحى يحي وحياً الى فلان أي اشار اليه: وأرسل اليه رسولا. ووحي اليه أو وحي كلاما او أوحي ايحاء الى فلان: كلّمه سراً، أو كلّمه بما يخفيه عن غيره. والوحي ما يلقيه الله الى انبيائه. اما باليونانية، فالعبارة تعني "كشف النقاب"، سواء بالكلام المباشر او من خلال الرؤى، وهي بذلك المرادف الاقرب الى فهمنا. كما ان المعنى قريب من العبرية والارامية "گلا": (ܓܠܐ). جَلا، كشف[1].

الالهام: تشتق لغة من فعل "ألهم" بمعنى "أبلغ"، فيكون "الالهام" هنا تورية بمعنى ان يلقي الله في نفس الانسان امرا يبعثه على فعل الشيء او تركه، وكأنه شيء ألقي في الروح فالتهمه.

في الحالتين نرى ان الفعل النهائي يكون حاصل انسجام فعل الفاعلين: الموحي والموحى اليه، الملهِم (بكسر الهاء) والملهَم (بفتح الهاء)، وفي الحالة التي نحن بصددها: الله والانسان. فكلاهما سوية "صاحبا" الكتاب المقدس، بنوع ما. وهذا ما ينفي النظرة السائدة عند كثير من المسيحيين —كما عند غيرهم— وهي اعتبار الكتاب المقدس كتابا خالدا، قد

(١) اننا نفضل كلمة "كشف" على كلمة "وحي"، لاستجابتها بصورة افضل للمضمون الديني الذي تحمله هذه الكلمة في التعبير عن طبيعة العلاقة بين الله والكاتب المقدس عندما يدون؛ بالاضافة الى ان كلمة "كشف" ترجع المعنى نفسه الذي تحمله الكلمة اليونانية المقابلة. واذا استبقينا على عبارة "الوحي" في هذه الدراسة فلتعوّد القراء عليها. غير اننا سنستخدم عبارة "الكشف" كلما اقتضى الامر دقة اكثر في اداء المقصود.

اعطاه الله بكل محتواه وسلمه للبشر كرسالة سماوية، بغض النظر عن دور الاشخاص الذين كتبوه، وكأن هذه الرسالة مجموعة من تعاليم وحقائق يسلمها الله للانسان الذي يكتشف قسما من الاسرار التي كانت خفية عنه. هذه نظرة لا نسلم بها لاننا لا نؤمن بفعل يقوم به الله للبشر ويكون هذا الفعل مستقلا عن حياة البشر. هذه النظرة الضيقة تعتبر الوحي كشيء مستقل انزل علينا، وليس لنا فيه الا نقله كما هو، كما يفعل ساعي بريد لا شأن له بمضمون الرسالة التي ينقلها. تلك نظرة مجردة تماما عن الواقع وعن التاريخ، تناقض اساسا، برأينا، جوهر المسيحية الذي هو "تجسد" الوحي الالهي في شخص يسوع المسيح، كلمة الله الذي عاش في أسرة بشرية ضمن شعب معين، وكشف عن الذات الالهية ضمن تاريخ انساني تفاعل واقعيا وحياتيا معه.

لنأخذ مثالا على هذا "التفاعل الحياتي" وذلك "الكشف" الوجداني بما يقرب المفاهيم من اذهاننا: عندما نتحدث عن لقاء الحب او الصداقة بين شخصين، نقول أن فلانا قد كشف ذاته لفلان أو فلانة، فالكشف من هذا النوع لا يأتي نتيجة لمعرفة مقتبسة بالتلقين، بل من خلال خبرة وجودية، اذ ان لقاء الحب يكشف عن وجود حياتي ينعكس الواحد لدى الاخر كما في مرآة؛ غير ان هذا الانعكاس المعنوي احساس وجداني عميق بالذات الاخرى أكثر مما هو انطباع بالمعنى المادي للكلمة، لذا يصعب على الكلام تصويره كما هو تماما. فاذا كان بالامكان ان يشرح المرء ما قد كشف عنه أو أنكشف له، فصلة هذا التعبير تكون ضعيفة بالنسبة الى حقيقة الخبرة المعاشة. هكذا عندما يحدثنا اشخاص عن خبرة حب عاشوها، لا يستطيعون التعبير عنها تماما وبشكل كامل. وهكذا الامر بالنسبة الى الوحي في المفهوم المسيحي: ان الوحي في جوهره لقاء شخصي وخبرة شخصية. ومن خلال هذه الخبرة يتم الكشف عن اللقاء الكبير والاساس مع الله: او مع "الاب" كما تسميه الاناجيل. فالوحي في المنظور المسيحي ليس وحيَ محتوى معلوماتٍ وأسرارٍ، بقدر ما هو اعلان خاص: خبرة الانسان المخلَّص او المحرَّر.

فالوحي هو اذن رسالة تحرير الانسان، وهذا التحرير يمس الانسان في كافة جوانبه، ويتم من خلال اللقاء بينه وبين الله. فالانسان مدعو، ومنذ الصفحات الاولى من الكتاب المقدس، الى ان يتحرر من نير الاستعباد (باشكاله المختلفة: السياسية والعنصرية والاجتماعية والثقافية والدينية)، والى ان ينجز هذا التحرير في العيش بموجب روح التطويبات الانجيلية. ولنا مثال في ذلك في خبرة الجماعات المسيحية الاولى التي كانت تلتقي مع بعضها وتجتمع باسم يسوع المسيح الذي حمل بنفسه الى البشرية رسالة البشرى السارة، رسالة التحرير. نحن ابناء تلك البشرى مرتبطون بصلة مباشرة مع تلك الجماعات التي كانت شاهدة له؛ وعلى خطاها، وباسم هذه الصلة العضوية بالذات، نستمر في اعلان الشهادة ذاتها، اذ ان تأثير المسيح المحرر يعمل فينا وسيعمل حتى تنجز عملية التحرير هذه.

وهذه الخبرة نعيشها بطرق مختلفة ونعبر عنها بأساليب متعددة، بتعدد الحضارات الانسانية واختلاف الازمنة، غير ان الانفتاح الى الوحي المسيحي الذي هو منطلق تلك الخبرة، ليس معناه ان نقبل برسالة عقلانية ومجردة عن التاريخ، بل ان نلحق بجماعة مؤمنة تشترك فعليا بعمل الخلاص الذي حققه يسوع المسيح للانسان ضمن التاريخ. فالامر الاساس ليس ان نسوق البراهين على ان المسيحية ديانة صحيحة، بل ان نعمل فعلا على تحرير البشر، وهذا المشروع ليس مشروعا فردياً يقوم به المسيحي وحده، وانما هو مشروع يشترك فيه مع الجماعات المسيحية الاخرى، ومع سائر ذوي الارادات الصالحة في العالم، ومع الله خصوصاً الذي يبقى حيا وعاملا وسط الجماعة. فليس مجرد الكلام هو الذي يحرر، بل الفعل!

* الوحي والاستيحاء والالهام والاستلهام

ازاء هذه النظرة "المؤمنة" التي تجعل من "الوحي" قناة حية لايصال فعل "الخلاص والتحرر" من قبل الله للانسان، عبر خبرة ولسان وقلم النبي او الكاتب المقدس، ومن ثم عبر خبرة الجماعة ذاتها، هناك النظرة المادية التي تتبنى العوامل الخارجية وحدها لتفسير الامور، كما يفعل علماء النقد والاثار: فدعاة هذه النظرة ياخذون على الكاتب استيحاءه أو استلهامه أو اقتباسه مما قبله أو حواليه، ويعتبرونه ناسخا، ليس الا، للنصوص التي كانت متواجدة في مكاتب الحضارات المحاورة. فبالنسبة الى هؤلاء لم يقدم الكاتب المقدس شيئا جديدا.

هذا النقد يوجَّه عادة الى كاتب العهد القديم، وبصورة خاصة الى كاتب سفر التكوين الذي قد تأثر مباشرة بالاساطير السومرية والبابلية والكنعانية، وهي شعوب مجاورة لفلسطين موطن الكتاب المقدس. وكذلك الامر بالنسبة للعهد الجديد الذي تأثر بالحضارة الهللينية. ان لمثل هذا التأثير وجهه الايجابي، لان الوحي، كما اسلفنا، فعل الله والانسان معا، ضمن التاريخ وليس خارجا عنه. اجل، ولكن حتى ان اكتشفنا فروقا مهمة في المبنى من خلال البحوث التي تعتمد في اسلوبها الدراسة المقارنة والنقد الداخلي، فاننا لا نُستَعْبَد للحرف: "الحرف يقتل والروح يحيي"، ونحن نؤمن بشخص اكثر مما بحرف!

ولكن مثل هذا الايمان لا ينفي الموضوعية حينما نضع انفسنا في وجهة نظر دراسية علمية. فالتقدم الذي طرأ على دراسات الكتب المقدسة بفضل الاكتشافات الاثرية الحديثة تدفعنا الى القول بأن الكتب المقدسة هي موضوع يدعو الى السؤال والمناقشة حقا، سيما وانه مضى زمن طويل على كتابتها، وانها تنتمي الى عهود وحضارات وأساليب تعبيرية تختلف عنا اليوم تماما. فمن وحي هذه الدراسات والاكتشافات والتحليلات ندلي بالملاحظات التالية:

أ. بعض الفقرات من الكتاب المقدس مترجمة أو منقولة بصورة او باخرى عن

أعمال ادبية وفكرية اخرى. ولكن بفارق واحد –وهو اساسي جدا– وهو ان كل كاتب اذ استعان بالمواد الاولية التي كانت في حوزته، فقد شذّبها ونقّاها من كل ما كان عالقا بها من الاسطورة المأسوية والابعاد الخرافية والشرك، ليعطيها معنى اخر وبعدا الهيا–انسانيا جديدا.

ب. لم يوحِ الله الكتب المقدسة، بل ألهمها. نقول ذلك بمعنى ان الله لم "يوعز" بفعل كذا او كتابة كذا على شاكلة من "يأمر بتنفيذ" بالصيغة الفلانية المحددة مسبقا، بل بمعنى انه "انار" ذهن الكاتب وتصوره للامور وقراءته للاحداث. وذلك للتأكيد على نقطة جوهرية وهي: بقاء المجال واسعا امام الكاتب وشخصيته وتفاعلاته في تأليف كتابه أو اعداده، مستعينا بمواد اخرى او نقلها مع تغييرات جوهرية او ثانوية، بحسب الظروف والاهداف المرسومة. وكل ذلك لاظهار ان الله يخاطب الانسان باشارات وعلامات من مستوى الانسان في كل جيل، يستخدمها الكاتب او النبي بأسلوبه الشخصي المعين.

فلا نعجبن، اذن، ان قلنا ان الله لا يتكلم باسلوب واحد ومتشابه في كل الحالات ومع كل المؤلفين، فان طريقة وحيه تختلف من كاتب الى اخر، واسلوب تخاطبه في كتاب اشعيا يختلف عما هو في عاموس، من حيث الاسلوب والشكل والمعنى والرسالة التي يحملها. فالوحي يعبر عنه من خلال تفاعلات نفسية بشرية ينفرد بها كل كاتب، وتتعدد بتعدد الاشخاص. ان الله "يوحي" الى البشر في أزمنة مختلفة، وكلامه "يتطبع" بحسب الاوساط والحالات الخاصة، وهذا صحيح من بداية الوحي وحتى نهايته.

مثال على ذلك: نقرأ في سفر الخروج (٢١: ٢٣-٢٦) نصوص قوانين سنة ١٠٠٠ قبل المسيح: "العين بالعين، والسن بالسن، واليد باليد، والرجل بالرجل، الكي بالكي، والجرح بالجرح، واللطمة باللطمة. وان ضرب انسان عين عبده أو عين أمته وفقأها فليعتقه بدل عينه...".

كيف تبرر مثل هذه القوانين البالغة القساوة، أو بالاحرى كيف نبرر موقف بعض المؤلفين عندما يخاطبنا الله على لسانهم ويأمر بقتل الاعداء مثلا؟

اذا بدت هذه الشرائع صارمة وخشنة، فقد سجلت في الواقع، يوم تبناها الكاتب المقدس، تقدماً ملحوظاً في وقت كانت العادة تقضي بأن تُفقأ كلتا عيني الشخص الذي يفقأ عيناً واحدة، كما كانت العادة ان تقتل عائلة القاتل بكاملها. ثم نفل هذا القانون وألغي بسبب تطور العقليات والنضوج الذي طرأ على العلاقات الاجتماعية. فكلام الله انما يقال في نطاق حضارة معينة ووسط وتاريخ معينين. ان كلام الله لا يتغير والحقيقة تظل ثابتة، ولكن صيغتها التعبيرية او التشريعية تتأقلم على مر العصور وبحسب تطور الانسان، وان محتواها يتحور بقدر ما يستوعب الانسان وبقدر تطوره عبر العصور. وهذا يعني انه قد

الترجمة السبعينية

كانت الاسكندرية تضم جالية يهودية مهمة، وقد كان هؤلاء اليهود قد تأثروا بالحضارة الهللينية وباللغة اليونانية -وقد كانت مدينة الاسكندرية منارتهما الكبرى المتألقة في الشرق. لذا اخذت هذه الجماعات تشعر بالحاجة الملحة الى ترجمة الكتب المقدسة من العبرية الى اليونانية بعد ان اصبحت لغة الشعب والطبقة المثقفة ولغة العلم. وتمّ ذلك على يد ابناء تلك الجالية، ودعيت ترجمة الاسكندرية "بالترجمة السبعينية".

وفي اساس هذه التسمية اسطورة وردت في رسالة أريسيس الى فيلوقراط -وهي رسالة منحولة كتبت في القرن الثاني- تقول ان رئيس الكهنة اليعازر ارسل، بتوجيه من الملك بطليموس الثاني (٢٨٥-٢٤٦ق.م)، ٧٢ شيخا من اورشليم الى الاسكندرية لترجمة كتب الشريعة. وقد جعل هؤلاء الشيوخ محل اقامتهم في جزيرة فاروس حيث انجزوا ترجمتهم في ٧٢ يوما.

هذه القصة بالرغم من كونها محض اسطورة، فقد ايدها عدد من الكتبة القدامى امثال فيلون الاسكندري، وفلافيوس يوسيفوس، وايريناوس، واقليمس الاسكندري، واعتبروا هذه الترجمة "ملهمة" على غرار النص العبراني القديم. غير ان مقدمة كتاب يشوع بن سيراخ المكتوب حوالي سنة ١٣٠ قبل المسيح تؤكد ان كتب الشريعة والانبياء والكتب الاخرى كانت متداولة باليونانية في ذلك التاريخ. وقد جاءت الاكتشافات الاثرية في السنوات الاخيرة لتدعم هذا القول. ففي سنة ١٩٥٢ اكتشف في خرائب قمران، وفي المغارة رقم٤ بالذات، قسم من المخطوطات المكتوبة باليونانية ترقى الى ما قبل نهاية القرن الاول الميلادي.

مهما كان امر الاسطورة، فما يبقى اكيدا هو ان المترجمين اعتمدوا النصوص العبرية القديمة، وان الترجمة تمت على يد كتبة يهود وقرأها يهود مهاجرون، وكانت معروفة في فلسطين في زمن يسوع، وقد استخدمتها الكنيسة، ولا سيما الاباء اليونان.

طرأ "تطور" فعلاً في الوحي. فبوسعنا، اذن، ان نقول بان الوحي قد اجتاز مراحل، هي المراحل التي قطعها الانسان بالذات منذ خلقته الى ان اكتمل الوحي بالمسيح. وهذا ما نسميه بالاسلوب التربوي الذي استخدمه الله لمخاطبة الانسان عبر الاجيال، ويصح القول لكلا العهدين، القديم والجديد.

من جانب اخر ان الحقائق الالهية التي تتضمنها وتعلنها اسفار الكتاب المقدس قد سطرت بالهام الروح القدس، ولكن الله لم يؤلفها بالمعنى الحصري الذي اعتدناه عندما نتكلم عن تأليف كتاب من قبل شخص ما. لقد اختار الله، لصياغة هذه الكتب، بشرا لكل منهم

امكاناته وقواه وجهوده وضعفه وميوله، وقد استخدمهم ليدونوا كمؤلفين حقيقيين ومسؤولين ما ألهمهم به. هكذا نجد حقائق تختلف بين كتاب واخر. غير ان ما يقوله ويؤكده المؤلفون الملهمون جاء بنور الروح بحسب اسلوب تربوي متدرج: بهذا المعنى نقول بان الكتب المقدسة ككل تعلم الحقيقة التي اراد الله ان تدرج في تلك الاسفار، كما اشار بولس الرسول في٢طيموثاوس ٣:١٦-١٧: "فان الكتاب كله قد اوحى به الله، وهو مفيد للتعليم وللحجاج وللتقويم وللتهذيب بالبر لكي يكون رجل الله كاملا متأهبا لكل عمل صالح".

ج. لا بد ان نوضح نقطة هامة اخرى وهي علاقة المعطيات الكتابية بالمعطيات العلمية.

لقد كانت الطريق شاقة وطويلة امام العلوم الكتابية قبل ان تثبت اقدامها وتفرض نظرياتها في استقلالية حقلي الايمان والعلم، وتخلص الى ان الكتاب المقدس، بالرغم من تطرقه الى مسائل كونية وتاريخية مصيرية، ليس كتاب علم او تاريخ بالمعنى المتداول. فلقد صار الكثير يتقبلون اليوم، مثلا، بأن الفصلين الاولين من سفر التكوين بخصوص الخلقة وأصل الكون يعرضان علينا عدة حقائق اساسية، ومن بين هذه الحقائق ان كل شيء يصدر عن الله، وان الكاتب الملهم يعبر عن هذه النظرية مستخدما صورا واساطير لا علاقة لها بالنظريات العلمية الحديثة ولا بالتاريخ الحصري[٢] غير ان امثال هؤلاء انفسهم، او غيرهم، اذ يقبلون مثل هذه الافكار والرؤية حول تكوين العهد القديم، لا سيما في مقدماته الاولى، يترددون في تطبيق الاضاءة ذاتها على النصوص الانجيلية التي هي، والحق يقال، كنسيج واحد متشابك ومتناسق، لحمته كلام الله وسداه المعطيات الحضارية والثقافية والجغرافية التي كتبت فيها نصوصه. ونحن، اذ نؤمن بأن يسوع هو انسان كامل وكلمة الله في آن واحد، نرى في الاناجيل ثمرة عمل روح الله وعمل البشر معا. فهي تعكس ثقافة الذين كتبوها تحت الهام الروح القدس والحضارة التي افرزتها وواكبت البشرى التي نقلوها، كما انها تعكس اهتماماتهم وتساؤلاتهم وطبيعة تأقلمهم مع الوضع الجديد.

د. فالشيء الذي نستخلصه من كل تحليلنا هذا هو:

اولا: انه من الممكن، بل من الضروري ان يكشف الله للانسان عن حقائق ضرورية لخلاصه، مستخدما بشرا مثلنا يعبرون عن هذه الحقيقة، عبر الزمان والمكان، بلغة انسانية نفهمها، كل بحسب اسلوبه وشخصيته.

ثانيا: أهمية وضرورة درس الاساليب الادبية في الكتاب المقدس[٣]، فهي التي تنير

(٢) انظر "سلسلة الفكر المسيحي" الحلقة الاولى (١٩٦٤) عدد ٨: "اصل الانسان".
(٣) انظر مقال "الاساليب الادبية في الكتاب المقدس" في هذا العدد.

دربنا في فهم اوجه الوحي المختلفة وتوضح لنا ماذا اراد الله ان يوصله الينا. فالحقيقة الواحدة تعرض وتفسر بصور مختلفة. فلا نعجبن، من ثم، اذا كان الله يخاطبنا بصور مختلفة في نصوص تاريخية متنوعة او نصوص نبوية او شعرية او غيرها من انواع التعبير. علينا ان نبحث عن المعنى المضمون في نية الكاتب والذي اراد ان يعبر عنه حقا في الظروف التي عاش فيها، وفقا لاوضاع عصره وثقافته ووفق الاساليب الادبية المتداولة اذ ذاك.

وما يصح للعهد القديم، يصح ايضا للعهد الجديد الذي يستخدم الاساليب الأدبية المتداولة في زمن الرسل والانجيليين، فلا ينبغي ان نعتبر هؤلاء صحفيين او مؤرخين قدموا لنا تقارير بكل الحوادث وحسبما وقعت ميدانيا في حياة المسيح!

❋ الوحي فعل يقع "ضمن التاريخ"

ان ديانة الكتاب المقدس تستند على وحي اتخذ من التاريخ الانساني مسرحا واداة لوصوله. فالوحي في الكتاب المقدس حقيقة تاريخية ملموسة، والتاريخ هنا نعني به المسيرة الحضارية للانسان عبر الزمان والمكان بكل مقوماتهما. اننا نعرف وسطاء هذا الوحي والاقوال التي قالها هؤلاء قد حفظت مباشرة او من خلال التقليد. والوحي لا يرتكز على تعليم معلم واحد، او مؤسس او مشرّع معين، ولكنه يتطور عبر خمسة عشر او عشرين قرنا الى ان بلغ اكتماله في المسيح الذي هو "كلمة" الله المباشرة. والايمان هو تقبل هذا الوحي الذي بلغ البشرية عبر مراحل التاريخ.

فالعهد القديم يكشف لنا عن سمو الله على البشر وعدم مقدرة الانسان على الوصول اليه تعالى من دونه، وان مقاصده تعتبر سرا غامضا. وفي غالب الاحيان يقود الله خطى الانسان من دون ان يسبر الانسان الطريق او الطرق المتشعبة التي يستخدمها الله. واذ ينشغل الانسان في التساؤل عن اسرار وجوده لا يجد الجواب مباشرة، وعليه ان يلتفت الى من هو الكشف الواضح والوحي الذي يزيل كل غموض. ولكن الوجه الاخر للحقيقة هو ان الانسان قبل ان يلتفت الى الله، يستبق الله الانسان ويأخذ زمام المبادرة فيخاطبه بصورة مباشرة او غير مباشرة. من اجل ذلك استخدم الله الاساليب المتبعة في تلك الازمنة، ومنذ القرون الاولى للوحي، لمخاطبة الانسان.

فالوسط الشرقي في حضارة ما بين النهرين وفي فلسطين كان يستخدم، لتقصي اسرار السماء، وسائل كالعرافة والتنجيم وتفسير الاحلام. وقد احتفظ العهد القديم في البداية بهذه الوسائل ونقاها شيئا فشيئا مما كان يعتبر اشراكا او سحرا. فيوسف يكشف عن المستقبل، مثلا، عن طريق استخدام كأس التنجيم او بطريقة تفسير الاحلام، والمعروف عند القدماء ان الاحلام تحتوي على اشارات من السماء، فكانت الاحلام ضرورية في البدء للانبياء لايصال رسالتهم "بلغة" زمانهم (انظر سفر العدد ٢٧:٢١: "يضع يديه على

الاوريم". ولكن بعد ذلك طرأ تغير في المفاهيم. وهذه الطرق نفسها شجبها الانبياء والحكماء لئلا يُنسب الى غير الله ما يعود اليه، ولكي يبقى هو "الوحي" الاوحد الذي لا شريك له. أما خبرة الانبياء، فقد تطورت على وجهين: خبرة الوحي بالرؤيا، وبسماع كلام الله مباشرة. اما الرؤيا فهي تحمل في غالب الاحيان عناصر الالغاز والرموز، ولم يكن النبي قادرا دوما على معرفة الحقائق الالهية الموحاة مباشرة، ولا ان يتفهم او يأخذ بتسلسل احداث التاريخ. فكل ما كان يراه كان محاطا برموز، وكانت هذه الرموز مستمدة، اما من الديانات الشرقية المجاورة، او مبتكرة واصيلة. وفي كلتا الحالتين كان يأتي كلام الله كمفتاح لشرح الالغاز والرؤى الرمزية. وكان يحدث ان النبي يتلقى كلام الله مباشرة، في احساس داخلي او وحي، من دون ان ترافقه رؤى ومن غير شرح مفصل.

أما الكتب الحكمية، فهي تقدم تفسيرا للوحي يختلف في الشكل والمحتوى عن الكتب النبوية. فتعليم الحكماء ليس حصيلة مباشرة للوحي، وانما للحكمة والفلسفة التي تستعين بخبرة الانسان. فالحكمة موهبة من الله، والمعرفة ثمرة من ثمار الحكمة المتسامية والادراك الذي يستنير بنور الله.

أما كتب الرؤيا، فتعود الى الاسلوب الملحمي الكشفي، وهو اسلوب ادبي يقوم على الكشف عن الاسرار الالهية، وتطغي عليه الرموز الايحائية والغرابة في التصوير.

هكذا، اذن، بطرق شتى وأساليب تعبيرية متنوعة، ومن خلال قصة شعب الله بثناياها المتشعبة، يوحي الله عن ذاته، وأعماله تُظهر من هو. فالخلقة تخبر عن عمل الخالق. والتاريخ يكشف عن طرقه الخفية، والكتب تحتوي على شريعته التي باتباعها يخلص الصديقون. وعبر هذه القصة المتشعبة، نكتشف بأن الله ديان ومقاتل، رؤوف ومعز، يشفي القلوب المنكسرة ويولي الفرح للصالحين، هو الاله القوي الذي ينصر ويخلص. والفهم الكتابي لابعاد الوحي ليس حصيلة نظريات، انما ثمرة خبرات طويلة تطلعنا على العلاقة التي عاشها الله مع شعبه. وهذه المعرفة التي تنطلق من الواقع الملموس والمعاش والتي تطورت وتعمقت عبر الاجيال، هي التي تحدد الموقف الذي ينبغي اتخاذه تجاه الله. وهذا الموقف معقد، إذ يمتزج فيه الايمان والتردد والخوف والحب... والله يظهر ذاته تارة كخالق وسيد، وطورا كمعلم وملك، واخرى كأب لشعبه وكزوج امين. لذا فالخوف الذي يرافق تقوى الانسان لا يعتبر ابتعادا عن الله، بل يقوّده الى الثقة به والاعتراف بوحدانيته.

ففي الوحي يقول الله من هو، ومن هو الانسان، وما هي العلاقة التي تربطهما. انه يكشف عن مقاصده التي ترسم للانسان طريق الخلاص، ويوحي عن نفسه ما يتيح للانسان ان يلتقي به. وتترجم مقاصد الله في تلقين الانسان قواعد السلوك، وذلك في اطار التعليم والتشريع، وعلى الانسان ان يطبق ما يوحيه اليه الله. أما الشريعة فتستمد اصولها ومعناها من الله الذي ينقيها، بواسطة انبيائه ومرسليه، من حدودها التشريعية السابقة لتصبح موضوع شوق ورغبة ولذة للنفس: (انظر مزمور ١١٨: ٢٣-٣٥: "ادللني يا رب على طريق رسومك فأتَّبعَهُ الى النهاية. فهّمني فأرعى شريعتك وأحفظها بكل قلبي. أسلكني في

سبيل وصاياك فان فيها هواي").

والقواعد التي يمليها الله تشمل السلوك الاجتماعي والفردي والعائلي وشؤون العبادة. فالمؤسسات الاجتماعية والسياسية والدينية كلها تشكل موضوع الوحي الالهي في العهد القديم، غير ان هذه المؤسسات تتسم، في مرحلة ثانية من كشف الوحي، بطابع وقتي وتصبح رموزا نبوية لعلاقة الله بشعبه ولما سيأتي. في هذه المرحلة يكشف الله لشعبه عن معنى الحوادث التي تشكل نسيج حياته وتاريخه، وهي علامات تظهر مخطط الله وتمهيد للتحقيق النهائي. ولئن كشف الله لقسم من انبيائه كنهها، فانها ستظل غامضة الى زمان اكتمالها، حين تعاد قراءتها على ضوء وحي الله وتدبيره.

الكتاب والمؤرخون والانبياء والمزمرون والحكماء يتسابقون لفهم تاريخ حياة الشعب في مثل هذه القراءة الثانية التي هي حصيلة اللقاء بين كلمة الله والحوادث التي يقودها. فالحوادث التاريخية تعزز الكلمة وتقود الى الايمان، اذ انها تحمل في طياتها علامات الحياة وتخرجها من تفاهتها اليومية لتدخلها في مخطط مرسوم أوسع، هو مخطط الله. فلقد اوحى الله سر الازمنة الاخيرة، وكلمته عبر التاريخ هي بمثابة الوعد الذي يهيء هذه الازمنة، وبهذا المعنى فهي تشير من خلال الحاضر والمستقبل القريب الى تحقيق الخلاص. انها توحي الى مستقبل نسب داود بشخص يسوع المسيح، الى اورشليم الجديدة المعنوية، الى الهيكل الروحي الذي ستمتد اطرافه باتساع الدنيا ولن يحده من بعد مكان، الى دور عبدالله الضحية الفادية..

هذه الكلمة المكتوبة والاحداث التي تتناولها والخبرات التي تنقلها هي اذن "بشرى"! وها نحن على عتبة العهد الجديد.

* العهد الجديد عهد العلاقة المباشرة

لقد اطلعنا، على مدى العهد القديم، على وحي الله من خلال الوسطاء. اما الان وقد "بلغ ملء الزمان"، فقد صار الكلمة الالهية نفسه بشرا وسكن في ما بيننا، مملوءا من النعمة والحق.

والوحي في العهد الجديد يتخذ ثلاث مراحل ليبلغ الينا: المرحلة الاولى:يسوع يكشف لرسله. المرحلة الثانية: الرسل يعلنون البشرى. المرحلة الثالثة: الكنيسة تنقل البشرى الى العالم بواسطة الروح.

ان تحتل الاناجيل، وبحق، مكان الصدارة بين كل الاسفار المقدسة، بما فيها كتب العهد الجديد الاخرى، اذ انها الشهادة الرئيسية والمباشرة عن حياة ورسالة الكلمة المتجسد. ولقد تمسكت الكنيسة منذ البدء باصالة الاناجيل الاربعة وانبثاقها من الرسل. فما بشر به

الرسل، هم وصحبهم، سلمونا اياه كتابة، وهذه الكتابات هي التعبير المدون عن اساس الايمان: بهذا المعنى نقول ان الاناجيل تحمل طابعا تاريخيا بالاضافة الى كونها بشرى الخلاص وقاعدة الايمان المسيحي.

✵ خاتمة (١)

ان احدى ركائز ايماننا المسيحي هي ان صدى كلام الله قد بلغ الى مسامع الناس: فقد كشف الله ذاته شخصيا عبر تاريخ البشرية، وما الكتاب المقدس الا الاثر الحي والمؤشر المكتوب لذلك.

ان كلمة الله ترافق تاريخ الخلاص بكامله، وهي توضح معناه وتجيب الى التساؤلات حول مصيره، وقد تجلى الله عبر هذا التاريخ "كاله العهد"، الاله الامين والرحوم، الاله الذي يثق بقابليات الانسان ويطلعه على اسراره ويجعله شريكا في تنفيذ مخططه واكمال تصميمه الخلاصي. وفصح المسيح يشكل قمة هذا التصميم.

وقبل ان تكون الكلمة حرفا وتدون في الكتب، فقد عاشها شعب بمثابة كلمة مرتبطة بوجوده. واليوم، نحن لسنا "بأهل الكتاب" بالمعنى الحرفي المادي الجامد للكتاب، وانما نحن اصحاب "الكلمة" الحية الالهية التي تتفاعل مع التاريخ، مع الوجود الانساني. اننا نؤمن بان الكتاب المقدس يحتوي على قصة تاريخ واقعي حيث نلقي الحوار المستمر بين الله والبشر. وكلما فتحت الكنيسة الكتاب المقدس، فانها تستقبل ما فيه ككلمة الله: انها كلمة يقول الله لنا فيها من هو وماذا ينتظر منا. ولو كفت الكتب المقدسة من ان تكون هذه الكلمة الحية، ولو لم تكن هذه الكلمة منقولة ومشروحة ومعاشة بأصالة في شعب الله الجديد، لبقيت نصا مائتا. وهذه الحالة المتفاعلة هي ما ندعوه "بتقليد الكنيسة" الذي يحمل الينا كلمة الله ويعرضها علينا ككلمة الحياة، وجماعة المؤمنين الملتفة حول المسيح تستقبل هذه الكلمة في الايمان وتتأهب للشهادة لها في العالم.

ان سر الخلاص الصادر عن الله والذي يتحقق في تاريخنا يعلن بواسطة الكلمة: وقد بلغ هذا السر ذروته في ظهور المسيح. فمن الان وصاعدا يخاطبنا الله بشخص ابنه "بعدما كلم الله اباءنا قديما مرات كثيرة بلسان الانبياء، كلاما بمختلف الوسائل، كلمنا في هذه الايام، وهي آخر الايام، بلسان ابنه الذي جعله وارثا لكل شيء (عبرانيين ١:١-٢). فيسوع ذاته وحي كامل الله المخلص.

والكنيسة لا تكتفي بنقل ما جرى في الماضي البعيد بأمانة، بل عليها ان تُظهر ان هذا الحدث ما زال يدركنا الان في الحاضر: فالانجيل وفصح المسيح ينفتحان على بعد الرجاء، وكلمة الله تواكب تاريخنا ريثما ياتي المسيح فيتجلى كخاتمة التاريخ برمته.

يبقى هناك ايضاح اخر وهو ان الحقائق الضرورية للخلاص لم يُعبَّر عنها دوما

باسلوب يعتمد حوادث تاريخية، فان قسما من الفصول قدمها الانجيليون بأسلوب ادبي اخر مغاير، ولكنها تعبر عن حقائق ايمانية عميقة.

❋ خاتمة (٢)

يسوع المسيح هو قمة الوحي.

ولكن اذا كان الوحي قد انتهى في معناه الحصري باخر الرسل. فالكنيسة تكمل عمل الروح وتعيش زمن الوحي عمليا.

اننا لا نستطيع اعادة كتابة الاناجيل، ولكن جعل البشارة الانجيلية واقعية ومعاشة –كما فعلت الجماعة المسيحية الاولى– فلذلك امر ضروري وملزم. اننا لسنا شهود عيان لموت المسيح وقيامته كما كانت الجماعة الاولى، ولكن الروح عينه فينا ومعنا. ان الذين نالوا حظوة مشاهدة الرب واختبار قيامته –والرسل اولهم ودعامتهم– هم وحدهم يستطيعون اعادة سرد وقائع اعمال يسوع وتكرير كلماته، هم الذين كانوا شهودا لحياته وقد اصبحوا اعمدة، عليها يرتفع ايماننا المسيحي ويثمر.

هم استلموا النور وأشاعوه والقوا البذرة وزرعوها.. ونحن على خطاهم، وبدورنا، كأفراد وكجماعة مؤمنة، ككنيسة، نسلم الشعلة متوهجة، ونعجن الحنطة قوتا وطاقة حياة للعالم.

الاب افرام سقط

العهد القديم في العهد الجديد

تختلف نظرة الناس على ماضيهم وتراثهم تبعا لعوامل كثيرة. فهناك من لا يرى فيه الا الجيد والرائع، وآخر الا السيء والتافه، بينما يرى ثالث الخير والشر متلازمين والغث والسمين متوازيين، فيقبلهما على علاتهما معتبرا ان الماضي هو كما هو، وعلى كل انسان ان يغرف منه ما هو لصالحه.

هكذا ينظر المسيحيون اليوم الى العهد القديم. فيرى البعض ان علينا ان نتبرأ منه بسبب الخشونة او التحيز الذي تمتاز به بعض النصوص. وآخرون يضعون هذه النصوص على حساب الماضي والعقلية القديمة الجاهلة، بل يشيرون الى نصوص اخرى خارج الكتاب المقدس تضاهيها وتفوقها روعة من حيث جمالها التعبيري وقيمتها الادبية وروحانيتها. وهناك فريق ثالث يحاول ان يسبر ابعاد هذا الاختلاف والتطرف الموجود بين النصوص، وعوض ان يلقي جانبا أشهر كتاب في الدنيا، يحاول ان يدرس ويفهم ويتعمق ويعيد القراءة على ضوء الاكتشافات الحديثة في سبل القراءة الموضوعية وفي التاريخ والاثار.

هكذا يفعل علماء الكتاب المقدس اليوم.

وبهذا الروح عينه، روح التفهم والقبول، قرأ المسيحيون الاوائل العهد القديم

تاريخ الخلاص وجهان: وجه يعكسه "العهد القديم" في اطار تاريخ شعب الله، وآخر يعكسه "العهد الجديد" في اطار شمولي. وبين العهد القديم والعهد الجديد قامت "محاكمة" مفتعلة تدل على سوء فهم للعهدين، الى جانب اجحاف بحق العهد القديم الذي جاء المسيح ليبلغ به الى كماله: "ما جئت لانقض... بل لاكمل". فمن الخطأ الفادح والخطير معا اذا ما تسربت النزعة الى تعتيم دور العهد القديم في محاولة لقطع الصلة به... مثل هذه النزعة تسيء بالتالي الى فهم العهد الجديد وتجعل قراءته مبتورة ومنتقصة.

وللخروج من هذا المأزق، لا بد لنا من ان نعود الى اوائل المسيحية لنستجلي كيف قرأ المسيحيون الاولون العهد القديم في اطار التحول الكبير الذي احدثه "حدث" يسوع، وفي اطار الرؤية الشمولية للخلاص... وهكذا تتبدد تلك التحفظات تجاه العهد القديم.

الاب يوسف توما يعيد وايانا قراءة العهد القديم على ضوء العهد الجديد، مستقرئاً لنا النصوص الكتابية التي تؤلف اللحمة اللاهوتية للعهد الجديد.

الاب يوسف توما (مواليد ١٩٤٩) تلقى ثقافته الاولى في معهد ماريوحنا قبل ان يلتحق بالرهبنة الدومينيكية، وفيها أبرز نذوره وحصل على شهادات عالية من فرنسا ورسم كاهناً في الموصل عام ١٩٨٠.

كانت اولى مساهماته في "الفكر المسيحي" عبر باب "ابت هذه مشكلتي" الذي أسند اليه عقب وفاة الاب عبد السلام حلوة (١٩٨٤-١٩٩٤). احصيت له ١٨ مساهمة في مجالات مختلفة، ما عدا باب "من وحي الانجيل" على مدى سنتين، وباب "اسئلة واجوبة". عمل في بغداد واعظاً ومحاضراً ولا سيما عبر الدورة اللاهوتية التي اطلقها في بغداد عام ١٩٨٤. وهو منذ ١٩٩٥ يرئس تحرير الفكر المسيحي التي سلّمها كهنة يسوع الملك الى الآباء الدومينيكيين، حين كانت في عز مجدها، ومن اجل ديمومتها. له حضور بارز في كنائس بغداد. وله بعض الكتب المترجمة.

وسمعوه كجزء من تاريخهم، يلهمهم لفهم حاضرهم وتعميق ايمانهم وإنارة سلوكيتهم.

❋ ليتم الكتاب..

ان قارئ العهد الجديد كثيرا ما يصادف مثل هذه العبارات: "ليتم الكتاب"، "كما قال الكتاب"، "كما قال النبي" الخ... وقد يظن القارئ ان هذه العبارات ليست اكثر من استشهادات بأحداث او بأقوال قديمة لتأكيد الحدث او القول الجديد. مثل هذا الرأي يبقى ناقصا في حد ذاته اذا لم يوضع في اطاره الاوسع وهو ان لليهود وللمسيحيين، على السواء، علاقة دقيقة ومعقدة مع العهد القديم. وسنحاول استجلاء ذلك.

❋ الكتاب المقدس ام الكتب المقدسة؟

"العهد القديم" الذي بين ايدينا اليوم هو عبارة عن مجموعة "كتب" مختلفة في الحجم والاسلوب والموضوع جمعت خلال اكثر من الف سنة، كان اليهود يصنفونها في ثلاث مجاميع: "تورا" (التوراة)، "نبييم" (الانبياء) "كتوبيم" (الكتب الحكمية).

وقد سادت تاريخ اليهود جدالات حول اهمية هذه الاسفار وتقديم هذا على ذاك. واقدم من انحاز هم السامريون الذين اخذوا بالاسفار الخمسة الاولى (التوراة) وانكروا الباقية، فاعتبرهم اليهود خارجين عن الحق.

من ناحية اخرى، لم يكتب العهد القديم بلغة واحدة. فغالبية اسفاره كتبت بالعبرية، وهناك اسفار كتبت باليونانية، واجزاء اخرى بالارامية. وسرعان ما نسي اليهود العبرية كلغة محكية واخذوا يعتمدون على التراجيم. فمنذ الجلاء لم يعد احد يتكلم العبرية، وأصبحت هذه اللغة لغة "مدرسية" يتعلمها المثقفون والكتبة. فيقرأون النصوص الكتابية في المجامع بالعبرية ثم يترجمونها حالاً بالارامية بعد ان أصبحت لغة الشعب. هكذا فعل يسوع في مجمع الناصرة (لوقا ٤:١٦). ولم يكن يكتفي البعض بالترجمة، بل كانوا ينسجون حول النص الكتابي أمثالا وقصصا تعليمية، فنشأت الترجوميم والمدراشيم.

ولم يكن المثقفون يتعلقون بحرفية النص، بقدر ما اعتبروا الكتاب المقدس كظهور فعلي حي لكلام الله بين البشر. فكانوا يقرأون النص لا كاشارة تاريخية حدثت في زمان ما، في الماضي، بل "كنبوة" دائمة تصلح لفهم ازمنتهم واحداثهم المعاصرة: على ضوء الكتب المقدسة كانوا يقرأون "علامات الازمنة" وتحقيق النبؤات: فالله يكلمهم في واقع حياتهم والمدراشيم.

❋ المسيحيون الاولون

ان النجاح الذي لاقاه يسوع المسيح لدى جميع طبقات الشعب كان ناتجا عن

هذه القراءة الشمولية الواضحة للكتاب المقدس. فهو لا يهتم بالحرف، بل بالحدث، ولا يعتبر النص في ذاته كمحور لتعليمه، بل اطارا. الله هو المحور والمركز الاساس، الله الذي كشف ذاته بصور بدائية بسيطة قريبة من الاذهان.. ثم ما فتئ يوضح كشوفاته، شيئا فشيئا، الى ان كشف عن ذاته بصورة رائعة وبليغة في شخص يسوع المسيح. لذا لم يكن من اهتمامات المسيح ان يدافع عن العهد القديم او ان يكون داعية له، بل اهتم بفتح ذهن الانسان الى نور الله كي يعي ما يرمي اليه تاريخ الخلاص: ان الله احب الانسان وجعله مركز الخليقة، وانه يريد له السعادة، لذا أرسل اليه ابنه الحبيب نفسه!

تحت هذا المنظور، اعطى المسيح للمسيحيين الاوائل نقطة الانطلاق الصحيح في الايمان: الكتاب المقدس ليس غاية في حد ذاته، بل وسيلة، وان الزمن الحاضر ليس اعادة لامور جرت في الماضي، بل هي تكميل لمخطط الله: "بانواع كثيرة وطرق شتى كلم الله اباءنا في الانبياء منذ القديم، وفي هذه الايام الاخيرة كلمنا بابنه" (عبرانيين ١:١-٢).

من هذا المنطلق يصبح لدينا واضحا كيف اعتمد المسيحيون الاوائل العهد القديم في كرازتهم وتبشيرهم بحقيقة المسيح ورسالته. لكن الذي يثير اهتمام العلماء هو ملاحظتهم ان الرسل اعتمدوا بعض النصوص الكتابية دون غيرها، غير انهم لم يعيروا اهتماما في اقامة الحجج لاختياراتهم او حتى لذكر أي الاسفار والنصوص اعتمدوا. لقد احترموا كامل نصوص الكتاب المقدس. وقد برهن البروفسور بيير بريجان (من جامعة ستراسبورغ) على وجود عدة "مجاميع كتابية" كان المسيحيون الاوائل يستعملونها.

النصوص المعتمدة

نصوص العهد القديم التي استعملتها الكنيسة الاولى في كرازتها

١. الزمان الاخير الذي تحققت فيه النبوات

النصوص الاساسية	النصوص الثانوية
- دانيال ف٧	- دانيال ف١٢
- يوئيل ف٢-٤	- ملاخي ٣:١-٦
- زكريا ف٩-١٤	

٢. شعب الله الجديد

- اشعيا ٦:١-٩:٦	- اشعيا ٢٩:٦-١٤
١١:١-١٠	- ارميا ٧:١-١٥
٢٨:١٦	- حبقوق ف١-٢
٤٠:١-١١	
- ارميا ٣١:١٠-٣٤	

٣. "العبد المتألم"

- اشعيا ٤٢:١-٤٤:٥	- اشعيا ٥٨:٦-١٠
٤٩:١-١٣	
٥٠:٤-١١	
٥٢:١٣-٥٣:١٢	
ف٦١	
- مزمور ٢٢ ، ٣١، ٣٤، ٣٨، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٦٩، ٨٠، ٨٨، ١١٨	

٤. مواضيع اخرى

- تكوين ١٢:٣و٢٢:١٨	- ٢ملوك ٧:١٣ الخ
- تثنية ١٨:١٥ و١٩	- اشعيا ٥٥:٣
- مزمور ٢ و ٨ و١١٠	- عاموس ٩:١١ الخ
	- مزمور ١٦ و١٣٢

من جهة اخرى يبدو ان هناك اسفارا استشهدوا بها لم يعد لها من وجود اليوم. ففي انجيل متى نقرأ عن يسوع: "فسكن الناصرة ليتم ما اوحي الى الانبياء اذ قالوا: "انه يدعى ناصريا" (متى ٢:٢٣). هذه العبارة لا نجدها في أي من اسفار العهد القديم التي بين ايدينا اليوم. ويعتبر تشارلس هارولد دود ان الكنيسة الاولى لم تعط الاهمية ذاتها لكل اسفار العهد القديم، فهناك مثلا، تفضيل ظاهر وأولوية في الاستشهاد لسفر اشعيا والمزامير.

❋ اللحمة اللاهوتية للعهد الجديد

في اسفار العهد الجديد، نجد بناء لاهوتيا يختلف في طريقة عرضه باختلاف صاحبه. وبالرغم من ان جميع مؤلفيه يغرفون من تقليد واحد في جوهره، فان كل واحد يختلف عن الاخر في اسلوبه وفي تعامله مع هذا التقليد المشترك. فلو اردنا تشبيها لذلك، نقول بان كل ابنية الكنائس تعتمد على عناصر مشتركة تشكل في انسجامها وترابطها مفهوم الكنيسة، غير ان لكل من هذه الهياكل شكلا وفنا هندسيا خاصا بها يجعلها تتميز عن الاخرى. هكذا يتميز اسلوب كل كاتب في العهد الجديد فيظهر لنا اختلافهم لا كتناقض، بل كغنى تعبيري وتعليمي. فالمفكر المسيحي هو حقا مفكر يتعامل مع الايمان والتقليد تعاملا حرا يلعب فيه العقل والفكر دورا كبيرا، وليس هو مجرد صدى يكرر ما سبقه. ولكن السؤال يبقى مفتوحا: ان كان الامر كذلك، فهل يمكننا ان نجد لحمة اساسية واحدة ينسج على منوالها سائر مؤلفي العهد الجديد في تعاملهم مع العهد القديم؟

للاجابة على هذا السؤال لا يسعنا الا ان نعود الى النصوص نفسها. ففي كتاب اعمال الرسل، مثلا، لدينا الخطبة الاولى لبطرس بعد العنصرة، ويستهلها بما يلي "... وما حدث ذلك الا ليتم ما اوحي الى النبي الخ..." (٢:١٦). والخطبة كلها بايقاعها التكراري ليست الا استعراضا لأهم احداث العهد القديم كخلفية واعداد لظهور المسيح المخلص. كذلك الامر في خطبة بطرس ويوحنا امام مجمع اليهود حيث نقرأ: "فأتم الله ما اوحي الى جميع الانبياء..." (٣:١٨). وفي خطبة بولس في مجمع انطاكية بيسيدية: "وانّا نبشركم بان ما وعد به اباءنا، قد أتمه الله لنا نحن ابناءهم" (١٣:٣٢-٣٣).

هكذا، اذن، بوسعنا ان نربط، من خلال نصوص العهد الجديد، بين معنى كلمة "انجيل" —البشرى السارة— وبين العهد القديم. فالانجيل هو تبشير للناس ان ما وعدهم به الله قد تحقق بيسوع المسيح.

هكذا، اذن، سيحاول كل كاتب ان يربط بين ما قيل سابقا وماحدث في هذه الايام وكيف حدث. وسيحاولون ايجاد الاسباب اللاهوتية لموت المسيح الشنيع وادخاله في سر مخطط الله لخلاص البشر. هذا التبرير ما كان ليقنع احدا من دون اسناده الى اساس كتابي عميق. لنستمع الى طريقة بطرس في الاقناع: "ذاك الرجل الذي أُسلم بقضاء الله

وعمله السابق، فاخذتموه وصلبتموه وقتلتموه بأيدي الكافرين، قد اقامه الله وانقذه من اهوال الجحيم، فما كان رهينها، لان داود يقول فيه..." (اعمال الرسل ٢:٢٣). ان مثل هذا التأكيد كان من شأنه ان يضع مفاهيم معاصري التلاميذ الاوائل السائدة في اضطراب وشك من انفسهم. فاليهودي التقي البسيط كان يستسلم في الغالب بصورة سلبية للكتاب المقدس، وما كان ليتجاسر ان يقحم تفكير العقل في فهم مخطط الله. فكان على الرسل ان يبذلوا جهدا هائلا في بحثهم الكتابي كي يبرروا كل حدث بنصوص من العهد القديم، من جهة، ومن جهة اخرى كي يوضحوا بشرى الانجيل وابعادها الشاملة لمن ليسوا من اليهود.

وهذه الصعوبة الاخيرة نرى صداها حتى بين المسيحيين الاوائل في التوفيق بين المهتدين اليهود وبين المتنصرين الوثنيين.

فأهم ما كان يشغل الرسل والمسيحيين الاوائل في كرازتهم، اذن، هو الربط الصميم بين العهد القديم وحياة يسوع (راجع اعمال الرسل ٢:١٧-٩). والاختلافات الموجودة في الاناجيل لا تبدو الا لفظية وثانوية اذا اخذناها بهذا المنظور، وذلك وفقا لاسلوب وهدف كل انجيلي. فمتى، مثلا، يكتب لليهود المهتدين، لذا فانه يعتمد اكثر من لوقا على العهد القديم. ولدينا نص رائع للوقا في اعمال الرسل يحكي فيه لقاء "مبشر" مسيحي مع يهودي من الشتات حَجَّ الى اورشليم واشترى فيها نسخة من سفر اشعيا النبي، ولكي ينسى الطريق الطويل اخذ يقرأ بصوت عال —على عادة زمانه— فشرح له فيلبس كيف ان كلام النبي "اكتمل" بيسوع المسيح (اعمال ٨:٢٦-٤٠). وفي نص آخر ينقل لوقا ان بعض معاصري يسوع لم يكونوا قد فهموا رسالته بوضوح بالرغم من تبحرهم، كما حدث في أفسس ليهودي اسمه أبلوس، فتكفلت برسكلا وزوجها اكيلا بتعليمه الايمان الصحيح (اعمال الرسل ١٨:٢٤-٢٨). ولوقا نفسه يختم انجيله مشيرا الى ان العهد القديم ليس الا مقدمة لبشارة العهد الجديد: "ففتح يسوع اذهانهم ليفهموا الكتب" وقال لهم: "كتب ان المسيح سيتألم ويقوم من بين الاموات في اليوم الثالث ويدعى باسمه في جميع الامم الى التوبة لغفران الخطايا" (لوقا ٢٤:٤٥-٤٧). فبشارة الرسل كانت تدور حول نقاط جوهرية ثلاث، هي محور كتاب العهد الجديد كله، وهي: ١. الام المسيح. ٢. قيامة المسيح، ٣. التوبة وغفران الخطايا.

❋ منطق العهد الجديد في علاقته مع القديم

قد يعجب المنطق المعاصر لدى قراءة العهد الجديد، اذ لا يرى فيه تلك التبريرات المنطقية والقياسية التي نحن بامس الحاجة اليها "لنقتنع" عقليا من طروحاته، انما نحن بازاء تأكيدات قاطعة ذات طرفين: الاول يعتمد على الآيات، ويكثر عند يوحنا: "واتى يسوع بآيات أخرى كثيرة لم تدون في هذا الكتاب، وانما دونت تلك الايات لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، فاذا آمنتم نلتم باسمه الحياة" (يوحنا ٢٠:٣٠-٣١). ويستند الثاني الى

الكتب: فقد كان بولس، مثلا، يجادل اليهود "مستندا على الكتب" (اعمال الرسل ١٧:٢)، وفي رسالته الى أهل رومية ثلاثة فصول (٩-١١) توجز أسلوبه في هذا المضمار. فهو يرجع بالقارئ الى أسفار التوراة والملوك، وسفر ايوب والمزامير، ونبؤات اشعيا وارميا وهوشع ويوئيل وملاخي، ويربط بينها وبين أحداث العهد الجديد، وفق منطق قد يكون قويا، ولكنه يبدو لاول وهلة غريبا علينا. لماذا؟ - لان منطقنا اليوم لم يكن معروفا آنذاك، و لم يكن يشغل بال الذين كتب لهم بولس.

لنأخذ كاتبا عبقريا آخر هو مؤلف الرسالة الى العبرانيين الذي يبدو متبحرا في الكتب المقدسة. ففي الفصل الثاني، مثلا، وانطلاقا من الاية٥، يبرهن على ان يسوع هو المسيح ابن الانسان الذي وصل من خلال الموت الى المجد والسلطان الشامل على الكون، آخذا مكانة الرأس للبشرية المفتداة.

وفي موضوع آخر يعتمد على سفري المزامير والعدد ليتكلم عن الازمنة المستقبلية الموعود بها، هذه الازمنة التي تمت بالمسيح. فليدخل المؤمنون الى هذا المستقبل لان كل شيء قد تم، و لم نعد ننتظر شيئا آخر سوى انجاز الخلاص (عبرانيين ٣:٧-٤:٩).

ازاء هذا التعامل الواعي المقنع مع نصوص العهد القديم، وازاء هذا المنطق المحبوك والمعرفة التامة لعقلية وأساليب ذلك الزمان، هناك أمثلة أخرى في كتاب العهد الجديد لا ترى ضرورة المحاجة والبرهنة الدقيقة كرسالة بطرس الاولى (خاصة ١:١١-٢:١٠) التي تسرد بصورة متوازية نصوصا من العهد القديم وتطبقها على حياة المسيح والكنيسة. ذلك دليل على أن الرسالة متأخرة و لم يكن مؤلفها بحاجة الى تكرار براهين سبقت قبله بما فيه الكفاية.

❊ مصادر العهد الجديد

هكذا نخرج بانطباع قوي ان العهد الجديد مبني على اطلاع واسع على العهد القديم وعلى مصادر هامة وأساليب عريقة في قراءة ما يخص المسيح المنتظر.. فقد كان الاحبار والكتبة، منذ العودة من الجلاء، يحاولون استقراء الكتب لرسم "صورة" المسيح الاتي، حتى ان القرن الذي سبق المسيح زخر باناس ادعوا صفات المسيح. ونستدل ذلك من حديث غمالائيل الفريسي في مجلس اليهود (أعمال ٥:٣٤-٣٩). كما نلاحظ الاشكال الذي وقع فيه الفريسيون في تقييم شخصية يوحنا المعمذان (يوحنا ١:١٩-٣٤، متى ٢١:٢٣-٢٧).

ويبدو، من بعض القرائن، ان الذين كتبوا العهد الجديد لجأوا الى مصدر خاص جمعت فيه كل اقوال العهد القديم الخاصة بالمسيح المنتظر، وقد أطلق العلماء على هذا المصدر اسم "الاستشهادات". اننا نستشف وجود مثل هذا المصدر في فاتحة انجيل

مرقس حيث يذكر نصا مركبا من النبي ملاخي والنبي اشعيا وينسبه كله الى اشعيا (مرقس ١:٢-٣). ونجد اشارة اخرى لدى القديس قبريانوس (توفي سنة ٢٥٨). ويظن البعض ان هذه المجاميع الكتابية هي من اقدم النصوص التي استعملها المسيحيون الاوائل قبل كتابة الاناجيل، وقد نسبها بعضهم الى القديس متى الانجيلي نفسه. ومهما كان من امر. فقد دفع هذا الاكتشاف علماء الكتاب المقدس الى تعميق البحث عن مصادر العهد الجديد، ولا زلنا في انتظار اكتشافات اخرى.

المهم هو ان نعرف ان الرسل في بشارتهم حملوا معهم، على ما يبدو، "بعض نقاط" سهلة النقل والاستعمال ضمنوها البراهين اللازمة لاقناع سامعيهم، ولعل الرسل كانوا يتقاسمون خبراتهم واساليبهم لدى التقائهم ببعضهم. اننا نعرب عن هذا الرأي اعتمادا على ما شرحناه اعلاه حول وحدة اللحمة الانجيلية. ففكرة "الاكتمال"، مثلا، سائدة عند كتاب العهد الجديد جميعا، وهم يعلقون اهمية متميزة على بعض الاحداث دون غيرها —واهمها الالام والقيامة— وهذه الاحداث جرت "طبقا لما جاء في الكتب"، بحسب تعبير العهد الجديد.

وفي ما يلي لائحة باهم مواضيع العهد القديم التي أصدى لها العهد الجديد:

١. "زمان المسيح" باعتباره الزمان الاخير المنتظر:

يوئيل (ف٢-٤) وزكريا (ف٩-١٤)

مقتطفات من دانيال النبي (٧:١٣، ٢٢؛ ١٢:١-١٣)

مقتطفات من ملاخي (٣:١-٦،٢٣)

٢. الكنيسة الشاملة بأعتبارها شعب الله الجديد:

هوشع (٦:٢...؛ ١٣:١٤ الخ ...)

اشعيا (٦:٩-١٠؛ ٧:٣؛ ٨:١٢؛ ١٠:٢٢؛ ١١:٢،٣،١٠؛ ٢٩:١٠،١٣-١٤؛ ٤٠:٣-١١)

ارميا (٣١:١٠-١٤)

حبقوق (٢:١-٥)

١. المسيح بأعتباره العبد البار المتألم

أ. اشعيا: في القسم الثاني من سفر اشعيا تظهر شخصية غامضة غريبة هي شخصية "العبد المتألم" (٤٢:١-٤) الذي يبشر المساكين بالخلاص والاسرى باطلاق السبيل والصم بالسمع والعميان بالنظر (٤٢:٦-١٨. راجع متى ١١:٥، لوقا ١:٧٩). هذا "العبد المتألم" يعطي شهادة جديدة عن الله (٤٣:١-٧،١٠-٢١)، ويكسر عطش الناس (٤٤:١-٣) وينير الدرب امامهم (٤٩:٣،٥-١٠).. فيمجده الله بسلطانه. ولكنه قبل ذلك سيتعذب: سيجلد ويضرب ويبصق عليه (٥٠:٦-١٠). حينئذ سيرفعه الله، وسيراه اولئك الذين لم يكونوا قد سمعوا ببشارته بعد (٥٢:١٣-١٥)، لانه حمل خطايانا وسحق لاجل معاصينا، وكشاة سيق الى الذبح و لم يفتح فاه (٥٣:١،٣-١٢).

ب. المزامير: وبما اننا في صدد "العبد المتألم"، فنذكر الكلمة التي قالها يسوع على الصليب: "الهي الهي لماذا تركتني". هذه العبارة ليست سوى فاتحة المزمور (٢٢)، وتبدو، لاول وهلة، كعتاب العبد المتألم الذي يرتاب. غير ان المزمور ينتهي بصرخة امل قوية: "سأترنم باسمك في الجماعة..." (مزمور ٢٢:٢٣-٢٩).

المزمور٣٤، هو ايضا يعتبر مزمورا مسيحانيا حيث يهزج "عبد الرب" قائلا: "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب...". فالرب سيحافظ على عبده "ولن يكسر له عظم" (مزمور ٣٤:٢١ ويوحنا ١٩:٣٦). وعبارة الحجر الذي رذله البناؤون صار رأساً للزاوية" الذي ورد في المزمور١١٨ (١٠-٢٦) عن المسيح المخلص يذكره يوحنا (٢٤:١٠) ومرقس (١٢:١٠) ولوقا (اعمال الرسل ٢:٣٣) في سياق حديثهم عن آلام المسيح.

وهناك مزامير اخرى ذات مضامين "مسيحانية" (المزمور٤١؛ ٤٢؛ ٤٣؛ ٨٠)، كما ان مزامير أخرى تشير الى مواقف خاصة من حياة المسيح، مثل المزمور ٨ حيث يذكر: "من فم الاطفال والرضع اعددت تسبيحا" والذي استشهد به متى (٢١:١٦)، والمزمور ٢:٧-٩ القائل: "انت ابني وانا اليوم ولدتك" الذي يرد في اعمال الرسل ٤:٢٥، وعبارة: "وانا اكون له ابا وهو يكون لي ابنا" الواردة في٢ملوك ٧:١٤والتي نجدها تحت قلم القديس بولس في٢ قورنثس ٦:١٨...

✵ خاتمة

ان خلاصة هذه الدراسة هي التأكيد على أننا لا نفهم العهد الجديد من دون الاطلاع على العهد القديم، وان المسيحيين لا يمكنهم قراءة العهد القديم من دون تسليط ضوء العهد الجديد عليه.

هكذا قرأ المسيح والرسل العهد القديم، وهكذا ينبغي ان نقرأه نحن. فكل فرقة بين العهدين لا يمكن الا ان تكون بترا لكليهما.

فاذا درجت الكنيسة منذ القدم ان تقرا في احتفالاتها وطقوسها نصا من العهد القديم وتلحقه باخر من العهد الجديد، محاولة الربط بينهما، فانما لكي يرى المؤمنون ان يسوع المسيح هو مركز الكتاب المقدس ومحوره، وفيه تتحقق النبوات والوحي.

أما الغموض والتردد والتلمس الذي يكتنف بعض النصوص الاخرى من العهد القديم، فلم توقف المسيحيين الاولين —ولا ينبغي ان توقفنا نحن الان— اذ انها ليست سوى تعبير عن تطور الايمان من حالة ناقصة الى حالة أكمل: فبين النصوص البدائية العنيفة الواردة في بعض اسفار التوراة وبين أمثلة الرحمة والمحبة التي وردت عند لوقا (الفصل ١٥) خط بياني واضح: ان الله أب يسير مع البشرية حسب خطواتها منذ الطفولة وحتى البلوغ.

فالله يعد الانسان بالخلاص من جهة، والانسان يبحث عن الخلاص من جهة اخرى. وهكذا يأتي المسيح المنتظر ليخلص الانسان، ليس خارجاً عن نطاق ارادة الانسان، بل بانضمام الانسان الى مخطط الله، كما ان الانسان لا يمكنه ان يخلص نفسه بنفسه من دون مساعدة الله. وهكذا، فان خشونة بعض النصوص —وبعض المزامير العدائية والتهجمية مثال على ذلك— ليست انعكاسا لعقلية كتابها وزمانهم وحسب، وانما هي شهادة لقبول الله بالانسان كما هو، وان هذا الانسان يحتوي في ذاته كل الغرائز المتضاربة والعواطف النبيلة والخسيسة في آن واحد، وقد صقله الله تدريجيا باسلوب تربوي غامر بالحنان والصبر.

فالعهد القديم هو كلوحة بيد فنان قدير تتبلور شيئا فشيئا الى أن تبرز كرائعة للناظرين، وقد تم لها ذلك في شخص المسيح الفادي الذي ظهر في "ملء الازمنة".

هذه كانت رؤية الكنيسة الاولى. لذا فقد ركز الرسل على أهمية "قراءة" ظهور المسيح في نطاق شمولية بحث الانسان عن الله وبحث الله عن الانسان.

لقد انطلق كل شيء من ابراهيم، من شعب العهد القديم، لكن سرعان ما وقع الشعب في التجربة: تجربة التقوقع على الذات واعتبار الله كالههم هم وحدهم فقط. فجاء الانبياء وحذروا وانذروا وفتحوا باب الهيكل للامم، وان بحذر، الى ان جاء المسيح الموعود وأعطي لكل شيء معناه، فاعاد قراءة العهد القديم بروح جديدة وبنظرة الشمولية والانفتاح والفداء.

الاب يوسف توما

المصادر

- Charles Harold Dodd: Conformément aux Ecritures, Ed. du Seuil, Paris1968.
- Pierre Prigent: Les Testimonia dans le Christianisme Primitif; L'Epitre de Bernabé (I-XVI) et ses sources, Paris1961.

قراءة الكتاب المقدس على ضوء القيامة

كان لا بد للمسيحيين الاولين ان يعيدوا قراءة العهد القديم -ولهم فيه جذور عميقة- بأعين جديدة ونفوس متجددة، ويبحثوا فيه عن معنى يتخطى المعنى الحرفي ويتجاوزه...

وكان رائدهم في عملية اعادة قراءة العهد القديم: قيامة الرب من بين الاموات. وقد وجدوا فيها نوراً والهاماً يمكنانهم من تسليط اضوائها على النصوص الكتابية، بغية الكشف عن وجه يسوع من خلال شخوص واحداث ورموز العهد القديم.

الى هذه القراءة الجديدة للكتاب المقدس لفت الانظار الاب فرنسيس يوسف المخلصي.

الاب فرنسيس يوسف

المخلصي ولد في بلجيكا عام ١٩٢٩ وانتمى الى رهبنة الفادي لنقديس الفونس دي ليغوري المعروفة بالمخلصين *(Rédemptoristes)* **وفيها تمت نذوره ورسامته عام ١٩٥٥.**

وقد كان مع زملائه الاباء المخلصين في العراق منذ ١٩٦٤ يشكلون فريقاً رهبانياً نشيطاً حين وضعوا كفاءاتهم واختصاصاتهم المختلفة في خدمة كنيسة العراق -ولا احد يجهل ما كان للاب لوسيان كوب من ريادة في مجال الكتاب المقدس؛ وقد اتحف "الفكر المسيحي" بمساهمات قليلة ولكن دسمة. وللاب منصور فون فوسيل مقال في هذا العدد بعنوان "الانجيل والاناجيل".

وكان للاب فرنسيس دور بارز في تنشيط عملية التثقيف المسيحي في بغداد من خلال كتبه التربوية وتوجهاته ومحاضراته... وكانت له ١٨ مساهمة في "الفكر المسيحي" في قضايا الايمان والتعليم المسيحي وفي مجال السينما. وافاه الاجل عام ١٩٩١!

لخص بولس الرسول كرازته بهذه العبارات: "بلغت اليكم قبل كل شيء ما تلقيته، وهو ان المسيح مات من أجل خطايانا كما جاء في الكتب، وانه قبر وقام في اليوم الثالث كما جاء في الكتب" (١قورنتس ١٥:٣-٤).

والقديس لوقا يؤكد ان المسيح الناهض هو الذي يفسر الكتب. ذلك ما فعله الرب مع تلميذي عماوس "مفسرا لهما ما يعنيه مما ورد في جميع الكتب، من موسى الى سائر الانبياء" (لوقا٢٤:٢٧). وهكذا فعل ايضا مع الرسل المجتمعين "حين فتح اذهانهم ليفهموا الكتب" (لوقا٢٤:٤٥).

هذه النصوص تكشف لنا عن مدى الاهمية التي كان المسيحيون الاولون يولونها للكتب المقدسة: فتأريخ الخلاص يبدأ بدعوة ابراهيم، ومن ثم، فكل تعتيم يستهدف العهد القديم يعد بترا لعمل الله.

ولقد اختبر المسيحيون، من جهة اخرى، ان قيامة المسيح حدث حاسم ونهائي، وان فيها اكتمل نداء البشرية. ومنذئذ اخذوا يعيدون قراءة الكتب المقدسة على ضوء هذا الاختبار الفريد. وكانت نتيجة هذه النظرة الجديدة انها خلقت للحال هوة بين قراء الكتاب المقدس المؤمنين بيسوع الناهض وبين اولئك الذين رفضوا الايمان بقيامته.

كيف السبيل الى تفسير هذه الظاهرة الغريبة؟ وما الذي جعل قراءة الكتاب المقدس تصبح مختلفة بعد القيامة؟

للوصول الى رؤية واضحة، علينا اولا ان نستعرض بايجاز المفاهيم اليهودية التقليدية في زمن يسوع، ونستجلي من ثم موقف يسوع نفسه ليتسنى لنا اخيرا ان نكتشف مضمون القراءة المسيحية للكتاب المقدس بعد القيامة.

١. قراءة الكتاب المقدس في زمن يسوع

كانت قراءة الكتاب المقدس الاساس الذي ترسو عليه حياة الصديقيين الروحية، هم الذين كانوا يتلمسون حضور الله بين شعبه من خلال النصوص المقدسة. هوذا لوقا، في انجيل الطفولة، يقدم نماذج عن هذا الاحساس بحضور الله في شخص زكريا الكاهن (لوقا ١:٦٧-٧٩)، وشمعون الشيخ (لوقا ٢:٢٩-٣٢)، والعذراء مريم ذاتها (لوقا ١:٤٥-٥٥)... ألا ترجّع ترانيمهم وصلواتهم صدى الكتب المقدسة؟

وكان الكتبة والفريسيون انفسهم يحملون، أقله مبدئيا، عين النظرة الى الكتاب المقدس. الا ان هذا الكتاب كان قد وقع في قبضة مدارس التفسير، وكانت الشروحات المعقدة والمريبة قد خنقت نعمة الله الحية، مما جعل يسوع يصرح قائلا: "هذا الشعب يكرمني بشفتيه، وأما قلبه فبعيد عني" (مرقس ٧:٦).

وبالرغم من هذه المتاهات، فلقد بقي الكتاب المقدس يحتل مكانة لا تضاهى في حياة العبرانيين: انه كلام الله الذي بدونه يفقد الشعب معنى وجوده. وكان التقليد العريق قد حدد الخواص الجوهرية لشرح كلام الله، واهمها:

أ. الكتاب المقدس من اصل الهي: يتشح العهد القديم –وهو اعتلان لفكر الله وارادته– بطابع مطلق، وكان الالهام يفهم بصفته املاء مباشرا من الله. هذه النظرة الى الكتاب المقدس مرتبطة بالمفهوم الذي كان العبرانيون يحملونه عن الشريعة. ففي نظرهم، لم يلعب موسى سوى دور سلبي في اعلان الشريعة، لان الله ذاته هو الذي أملاها على موسى حرفا حرفا: فالشريعة هي اذن شريعة الله وارادة الله (انظر العبارات التالية: "كذا تقول لآل يعقوب" (خروج ١٩:٣)، "وهذه الاحكام التي تجعلها امامهم" (خروج ٢١:١).

ولقد امتد مفهوم الالهام هذا على كل اسفار العهد القديم. الا ان هذا المفهوم تخلله، لدى الانبياء والكتاب الملهمين، عنصر المشاركة البشرية، ولذا لم يكون لهذه الاسفار السلطة والمكانة اللتان كانت تتمتع بهما التوراة (الاسفار الخمسة الاولى).

ب. كانت نصوص الكتاب المقدس تؤخذ "بحرفيتها"، وكان معلمو الناموس يفسرونها من دون أي تغيير في المعنى الحرفي. وتجدر الاشارة الى ان الفريسيين كانوا يثبتون

على جباههم عصائب تحوي نصوصا من الشريعة، وفقا لما جاء في التوراة: "كلمات الله عصائب بين عينيك" (تثنية الاشتراع ٦:٨). أما التفسير الرمزي، فلم يكن له مكان يذكر، الا ان العبرانيين في الاسكندرية، اضطروا، تشبها بالفلاسفة الرواقيين، الى استخدام الرموز بغية التلطيف من حدة النص المقدس وتسهيل فهمه على اليونانيين.

٢. كرازة المسيح

موقف المسيح من الكتب المقدسة شبيه بموقف الصديقين الذي عكسه لوقا في انجيل الطفولة. لقد كان يسوع يفكر في اطار البيئة الكتابية ويعيش في عالم الآباء والشريعة الموسوية والانبياء والمزامير. هوذا يحدد رسالته بعبارات استمدها من الكتاب المقدس: "روح الرب علي لانه مسحني وارسلني لابشر الفقراء وابلغ المأسورين اطلاق سبيلهم والعميان عودة البصر اليهم وافرج عن المظلومين واعلن سنة مرضية لدى الرب" (لوقا ٤:١٧-٢١). وها هو يختص لنفسه لقب "ابن البشر" كما ورد في نبؤة دانيال (متى ٢٦:٦٤= دانيال ٧:١٣). كما انه ادرك بأن عليه ان يحقق في ذاته شخصية العبد المتألم والمنتصر من ثم، كما وصفه اشعيا في الفصل ٥٢ (لوقا ٢٢:٣٧= اشعيا ٥٣:١٢، لوقا ٢٤:٢٥-٢٧). ولقد قرأ في المزامير، والمزمور ٢١ بنوع خاص، مصيره الذاتي (متى ٢٧:٤٦).

اما بالنسبة الى قواعد التفسير الكتابي، فلقد كان يسوع يتبع القواعد التي كان الكتبة والفريسيون يعتمدونها: فنجد في كرازته أثر الطابع المطلق للعهد القديم: "لا تظنوا أني جئت لابطل كلام الشريعة والانبياء.. ما جئت لابطل بل لاكمل. الحق اقول لكم: لن تزول ياء أو نقطة من الشريعة حتى يتم كل شيء أو تزول السماء والارض. فمن خالف وصية من اصغر تلك الوصايا وعلم الناس ان يفعلوا مثله، عُدَّ صغيرا جدا في ملكوت السماوات. وأما الذي يعمل بها ويعلمها فذاك يعد كبيرا في ملكوت السموات" (متى ٥:١٧-١٩).

وفي اعماله ايضا، كان يسوع يقبل الشريعة بالرغم من صلابتها: هوذا يرسل البرص لكي "يُروا انفسهم للكهنة ويقربوا عن شفائهم ما أمر به موسى" (لوقا ٥:١٤). ونراه في حادثة المرأة الزانية (يوحنا ٨:١-١١) لا ينتقد الشريعة، وانما يتحدى اولئك الذين جعلوا من انفسهم حكاما على المرأة.

ومن جهة اخرى، نرى يسوع يبدأ كرازته "بقوة الروح القدس" (لوقا ٤:١٤)، وتلك تعد ثورة تخالف الاعراف والتقاليد. فيسوع لم يتبع مدرسة تفسير خاصة، وكان ذلك مبعث دهشة لسكان الناصرة: "من اين له هذا، وما هذه الحكمة التي أوتيها... أما هو النجار ابن مريم؟" (مرقس ٦:٢-٣). ان يسوع، بقناعته الخاصة والهام الروح القدس، كان يكشف دوما في الكتب المقدسة معاني عميقة خفيت على معلمي المدارس الكتابية، وهكذا اخذ للحال يُعرف بموقف خاص متميز، ويتكلم "كمن له سلطان، لا كالكتبة" (مرقس ١:٢٢).

واخذ يسوع ينتقد التفسير التقليدي مع بقائه امينا لمفهوم الطابع المطلق للشريعة.

وما ينتقده يسوع هو العنصر البشري الذي كان يعتم ارادة الله الاصيلة: "انكم تهملون وصية الله وتتمسكون بسنة البشر" (مرقس ٧:٨). وقد ذهب يسوع بعيدا في جداله حول الطلاق حين تحدى نص الكتاب بالذات، وما ذلك الا لانه كشف عن تدخل بشري من قبل موسى يخالف ارادة الله: "من اجل قساوة قلوبكم رخص لكم موسى في طلاق نسائكم، و لم يكن الامر هكذا منذ البدء" (متى ١٩:٣-٨)، وارادة الله مرسومة في رواية الخلقة وليس في شريعة موسى.

وهكذا يُدخل المسيح مبدا جديدا في التفسير: فكلام الله في الكتاب المقدس يبقى مطلقا، ولكن، بالهام الروح القدس، ينبغي البحث عن معناه العميق والاصيل الذي قلما نجده اذا ما بقينا في حدود المعنى الحرفي.

٣. قراءة الكتاب المقدس على ضوء القيامة ونتائجها

كان الرسل ايضا يقرأون الكتاب المقدس بمفاهيم معاصريهم: الطابع المطلق للنص والمعنى الحرفي للكلمات. ولقد تعجبوا هم انفسهم مما جاء به يسوع من جديد. و لم يفهموا الابعاد الحقيقية لكرازة يسوع لانهم لم يكونوا قد قبلوا الروح بعد (يوحنا ٧:٣٩).

وحدثت القيامة! وكانت نتيجتها المباشرة ان تبددت آخر الشكوك لدى الرسل (راجع قصة تلميذي عماوس وموقف توما الذي لم يكن يؤمن). فلقد برهنت القيامة لهم صحة كل توقعاتهم عن يسوع، وأيقنوا ان يسوع هو حقا المسيح.

وفي يوم العنصرة منح الروح القدس الرسل عين النور وعين الالهام اللذين كان يسوع قد اخذهما. وعلى مثال يسوع، أخذ الرسل يبحثون في العهد القديم عن المعنى العميق، وكانت القيامة رائدهم في ذلك: فيسوع الممجد هو مرسل الله الذي فيه اكتمل عمل الله، وكل المراحل التي سبقت، بدءا بابراهيم، يجب ان تقرأ على ضوء المرحلة النهائية. ففي المسيح الناهض ينبغي، اذن، ان نقرأ العهد القديم.

ونتج عن هذه الرؤية الاساس تفسير جديد: أخذ الرسل يبحثون عن المسيح في أسفار العهد القديم حيث يتجلى بشكل واضح، وبنوع خاص في المزامير وأسفار الانبياء؛ وهكذا وضع الرسل انفسهم على طرفي نقيض من التفسير اليهودي الذي يعتمد اساسا على التوراة. ولقد احدث تفضيلهم للمزامير والانبياء تطورا كبيرا لديهم في مفهوم الالهام، حيث انهم أخذوا يعطون -الى جانب الطابع المطلق للنص الموحى- مكانا اكبر للعنصر البشري، وكانوا على ثقة من ان الانبياء تسلموا من الله رسالة، هم الذين آمنوا بالمسيح وعلقوا عليه رجاءهم وكلمونا عنه... وان هذا الايمان والرجاء -وقد تسلموهما بالهام من الله- يؤلفان جزءا من الوحي. وهكذا ابتعد الرسل، الى حد كبير، عن مفهوم يكون النص الكتابي بموجبه نازلا من السماء!

من هذا المنطلق، أصبحت التوراة ذاتها خاضعة للنقد: فما ان لمس الرسل بأن التوراة وأحكامها تشكل عقبة دون اهتداء الوثنيين، أهملوا الكثير من اوامرها (راجع اعمال الرسل ١٤:٦، ١٥:٥-٢١). ومنذئذ اصبح الايمان بقيامة المسيح -وهي المرحلة النهائية للوحي- يفوق التمسك بالمراحل السابقة. وهكذا أخذنا ننظر الى العهد القديم بصفته وحيا لظرف ديني ناقص يخضع لحركة تطور تاريخية.

هناك عناصر ثلاثة نستقيها من النواة الاولى للاهوت المسيحي تكشف لنا كيف ان القيامة القت اضواءها على قراءة الكتاب المقدس.

أ. يسوع هو المسيح المنتظر طيلة العهد القديم

كل ما ورد في العهد القديم عن المسيح طبقه المسيحيون للحال على يسوع. الا انهم لم يقفوا عند نص معين، بل ذهبوا في اجتهاداتهم الى إبراز نماذج ذات أوجه متعددة. لنأخذ مثلا واحدا: موسى.

كانت التوراة قد تركت لهم نصا رائعا في كلمات موسى هذه: "سيبعث الله ربنا من بين اخوتكم نبيا مثلي، فاستمعوا له في جميع ما يقول لكم. ومن لم يستمع لذلك النبي يستأصل من بين الشعب" (أعمال الرسل ٣:٢٢-٢٣= تثنية الاشتراع ١٨:١٥-١٩).

هذا النص ذاته كان يحمل العبرانيين انفسهم على انتظار المسيح بصفته موسى جديدا. ومن ثم، لم يعد للمسيحيين من شك بأن المسيح، موسى الجديد، هو يسوع ("وجدنا الذي ذكره موسى في الشريعة والانبياء في الكتب، وهو يسوع ابن يوسف من الناصرة" يوحنا ١:٤٥). ومنذئذ اخذوا يرون في اعمال موسى اشارة ورمزا -وان طفيفين- لما سيكون يسوع، موسى الايام الاخيرة: ففي سفر الخروج (٣٤:٢٩-٣٥) يترل موسى من جبل سيناء وفي يده لوحا الشريعة "ولم يعلم ان اديم وجهه قد صار مشعا من مخاطبة الرب له"! وعلى جبل طابور، كان وجه يسوع اكثر اشعاعا وهو في صحبة الله (لوقا ٩:٢٩)، وكان صوت الله يردد كلمات الكتاب بوجوب الاصغاء الى موسى الجديد: "هذا هو ابني المختار، فله اسمعوا" (لوقا ٩:٣٥)، في الوقت الذي كان موسى نفسه واقفا الى جانب يسوع وهو يقدم له الخضوع.

القديس بولس يقول بضرورة التمييز، لدى قراءة العهد القديم، بين ما هو عابر وما هو نهائي، ويدعو الى نزع القناع عن الوجه: "أجل الى اليوم عند قراءة كتاب موسى، لا يزال القناع على قلوبهم. ولا يترع هذا القناع الا بعد الاهتداء الى الرب" (٢قورنتس ٣:٧-١٨).

أما القديس يوحنا، فهو يقدم عدة أمثلة للدلالة على ان يسوع يفوق موسى بكثير:

- "لان الشريعة أتتنا على يد موسى، وأما النعمة والحقيقة فقد بلغتا الينا على يد يسوع المسيح" (يوحنا ١:١٧).

- موسى اعطى المن، أما يسوع فيعطي خبز الحياة (يوحنا ٦: ٣٢-٣٣).
- موسى رفع الحية في البرية، وابن البشر يرفع لكي ينال به الحياة الابدية كل من يؤمن (يوحنا ٣:١٤-١٥)

وتتابع الرسالة الى العبرانيين في عين الاتجاه: "فان المجد الذي كان (يسوع) اهلا له، يفوق مجد موسى بمقدار ما لباني البيت من فضل على البيت" (٣:٣). فكهنوت يسوع وعهده يفوقان كهنوت موسى وعهده (٨:١-٧). واذا كان موسى قد ختم العهد بدم الحيوانات، فيسوع يختم العهد الجديد بدمه (٩:١١-٢٢).

واذا كانت الرسالة الى العبرانيين تبدو أكثر اندفاعا من الادلة التي جاء بها يوحنا الانجيلي، فذلك لانها تعكس المجادلات التي كانت قائمة بين العبرانيين والمسيحيين، مما دفع المسيحيين الى التأكيد على تفوق يسوع. ومع ذلك يتضح لنا جليا بان ميثاق موسى هو صورة تجد اكتمالها في ميثاق يسوع. والمهم، بالنسبة لنا، هو ان العبرانيين كانوا يقرأون العهد القديم ويرون فيه عهدا الهيا نهائيا، كاملا في حد ذاته، ولم يكن بوسع المسيحيين ان يقبلوا بهذه الرؤية من بعد: فالعهد القديم يجب ان يقرأ على ضوء المسيح الناهض، وموسى ليس هو سوى رمز عابر يجد كماله في المسيح.

ب. في يسوع، يخلصنا الله من الخطيئة ويمنحنا الحياة الابدية

هنا تتحول القراءة المسيحية للكتاب المقدس الى لاهوت. فهوذا القديس بولس — على مثال يسوع الذي وضع التضاد بين شريعة الطلاق وبين رواية الخلقة— يبرز التضاد القائم بين ايمان ابراهيم وبين احكام الشريعة كلها. وفيما دافع بولس عن مبدأ التبرير بالايمان، أخلص الى القول بعجز الشريعة عن تحقيق خلاص البشر: الشريعة لا تبرر، وانما هي "سبيل الى معرفة الخطيئة"! (رومية ٣:٢٠). وان المقاومة التي لقيها بولس من الجماعات اليهودية ترينا كم ابتعد المسيحيون عن التفسير التقليدي. فالشريعة التي كان يقدسها الشعب القديم اصبحت، في نظر المسيحيين، نظاما مؤقتا ناقصا: المسيح وحده، الذي مات وقام، هو يخلصنا. وبالايمان به نخلص (الرسالة الى اهل رومية).

ج. يسوع قريب منا، لا يتركنا البتة

بالنسبة لمؤمني العهد القديم، كان الله حاضرا بين شعبه. تلك حقيقة طالما أكد عليها مؤلفو الاسفار المقدسة الذين عمدوا الى استخدام الرموز للتعبير عن هذا الحضور: الغمام (العدد ٩:١٥-٢٣)، الصخرة التي سقت الشعب في الصحراء (خروج ١٧:٦)، الهيكل (٢أخبار ٥:١١-١٤)...

أما بعد القيامة، فلقد ترك هذا الحضور الالهي مكانه لحضور المسيح المنبعث بين

احضانه. فبالمسيح المنبعث حيا، هو الله ذاته حاضر بين المسيحيين، وسوف يستخدم المسيحيون عين الرموز لوضع المسيح في الواجهة:

ففي نص التجلي، تبقى الغمامة علامة لحضور الله، ولكنها تشير بالاكثر الى ان المسيح هو ابن الله (لوقا ٩:٣٤-٣٥). أما الصخرة، فسيقول عنها القديس بولس انها "كانت المسيح" (١كورنتس ١:١٠-٤). كما سيختفي رمزالحضور الالهي في الهيكل ازاء الايمان بالمسيح: لقد كان الهيكل من قبل بيت الله، بكل معنى الكلمة، والمسيح ذاته دافع عن قدسيته بطرد الباعة (يوحنا ٢:١٣-٢٢)، الا انه فقد تدريجيا أهميته لدى رفض الفريسيين والكتبة الايمان بالمسيح. ألم يشر يسوع نفسه الى ان دور الهيكل قد انتهى: "الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق" (يوحنا ٤:٢١-٢٤)؟ واذا كان المسيحيون لفترة وجيزة، يترددون على الهيكل (اعمال الرسل ٢:٤٦)، لكنهم سرعان ما تركوه لكسر الخبز في بيوتهم: أليس المسيح (الله) حاضرا في ما بينهم عند كسر الخبز؟ فالهيكل الذي رفض المسيح سيصبح خرابا ولن يعود من ثم مسكنا لله، وسيحق للقديس اسطيفانوس أن يقول: "ان العلي لا يسكن في مكان شادته الايدي" (اعمال الرسل ٧:٤٧-٤٨).

لقد كانت القيامة، بالنسبة الى المسيحيين، حدثا حاسما: انها شهادة الله بان يسوع هو المسيح، ولذا اضحت اساس الايمان الراسخ: "ان كان المسيح لم يقم، فتبشيرنا باطل وايمانكم باطل" (١كورنتس ١٥:١٤). فكل الماضي يجد في القيامة معناه العميق، وينبغي من ثم ان يقرأ الكتاب المقدس على ضوء هذا الحدث الحاسم.

الأب فرنسيس يوسف

قراءة في كتاب أعمال الرسل

قصة كاتبها مؤرخ مؤمن.

ان كتاب اعمال الرسل هو قصة حياة الكنيسة في خطاها الاولى، كنيسة تبحث عن اطرها، تبني ذاتها يوما فيوما، وتتعلم من الحياة. وكاتب هذه "القصة" الرائعة يقدم نفسه كمؤرخ، وهذا معناه انه لا يكتفي بنقل الوقائع، كما يفعل محرر الريبورتاج، بل يتابع مشروعا. من اجل ذلك فهو يتبع مخططا معينا، يختار احداثه، يضعها في الاطار اللغوي والانشائي والفكري الذي يخدم مشروعه، يستخدم هذه المصادر وليس تلك، في "عمل"، وان انطلق من احداث الماضي، فهو يخضع لظروف الزمان والمكان اللذين يظهر فيهما. ومشروع لوقا، هنا، هو ان يعرف القارئ جيدا قوة التعليم الذي وعظ به(١)، واسس الايمان الذي تسلمه، وأن يتحقق من انتشار ملكوت الله تدريجيا في العالم اجمع واعتلان خلاصه، على يد الرسل والكنيسة، "لكل انسان"(٢).

من الضروري ان نضع ذلك نصب اعيننا قبل الاقدام على اية قراءة جدية لكتاب اعمال الرسل. فلوقا، مؤرخ هذه "الاعمال"، ككل مؤرخ جاد، اعتمد مصادر مكتوبة او شفهية،

ان افضل طريقة لقراءة كتاب ما، هي ان تبدأ بقراءته! فاقرأ "اعمال الرسل" من البداية وحتى النهاية. تمعن في قراءتك ولا تتوقف لدى "الاحداث" في سرديتها المادية، بل حاول ان تقرأ "جوهر" الاحداث من خلال الكلمات ... وستكتشف "قصة" تنبض بالحياة.

هدف الدراسة التي قام بها الاب جرجس القس موسى هو انه وضعك في "حالة رغبة" لقراءة هذا الكتاب وقرّبك من "الجو النفسي" الذي به قرأ وفهم المسيحيون الاولون هذه "الاعمال"... ذلك لان كتاب اعمال الرسل كتاب البدايات المسيحية. كتاب جذورنا الايمانية ... فيه نسمع صدى مسيحيتنا البعيد! ...

(١) مقدمة انجيل لوقا ١:١-٤.
(٢) لوقا ٣:٦.

وقد صهرها في وحدة انشائية محبوكة بحيث يصعب تمييزها، باستثناء ما ظل محتفظاً بضمير المتكلم مما يشير الى اشتراك الكاتب في الاحداث شخصياً[٣]. ولقد تعامل مع مصادره بروية وتدقيق[٤]. كما نلاحظ، من معالجات لوقا لمشاكل الكنيسة الناشئة، استقاءه الانباء من مصادرها حيث يعرض وجهات نظر الكنائس المحلية في قضاياها الطارئة[٥]. غير ان طبيعة استخدام لوقا لمحتوى هذه المصادر يختلف باختلاف "المادة" و"الهدف" المنشود من نقلها، كما هو الحال مثلا في حادثة نجاة بطرس من السجن (١٢:١-١٧)، وفي قصة حنانيا وسفيرة (٥:١-١١).

فالاولى "حادثة تاريخية" لا غبار عليها بما تحمله من اشارات تاريخية وجزئيات حدثية، يجني عليها إن نحن توقفنا لدى الجانب "الغريب" منها، مثل كيفية انفتاح ابواب السجن (ملاك الرب) امام بطرس. فعبارة "ملاك الرب" تمتّ بصلة الى "لغة المؤمن" الذي "يرى" اصبع الله في كل امر يحدث له. فالعبرة المستهدفة هي في "القراءة" التي بها يقرأ –اذن يؤوّل– بطرس الحدث بعد وقوعه: "الان علمت يقينا ان الرب انقذني..." (آية ١١).

اما الثانية، فبثوبها "الاخلاقي" الخالي من اية اشارة تاريخية، وبطريقة ادخالها الشخوص الى المسرح، تمتّ بصلة الى "القصة الشعبية" الهادفة الى معالجة "الانحراف" عن طريق عبرة رادعة. فاذا كانت القصة تستند، او لا، الى "نواة تاريخية"، فليس هذا الذي يقصده لوقا، وانما اثبات دور بطرس –والرسل– في اصلاح الانحرافات وسلطتهم على الخطيئة.

لا ننسَ ان لوقا "كاتب مؤمن" لا يخفي نواياه اللاهوتية والتعليمية والراعوية. لذا فما يفعله ليس تشويها للوقائع، وانما "اعادة لقراءتها" على ضوء الايمان.

❋ الجماعة الاولى: استمرارية ام قطيعة

في البدء كانت الكنيسة صامتة تستكمل بناها بانتظار الروح الذي سينفخ في شراعها نحو الرياح الاربعة. ففي "العلية"، بين الصعود والعنصرة، يوجز لوقا نشاط الجماعة الرسولية باهتمامين مركزيين هما: ١) الحرص على ان يكونوا "سوية"، "بقلب واحد" حول الاحد عشر ومريم ام يسوع[٦]. ٢) الحرص على ان يكونوا "اثني عشر".. فكان انتخاب متيا لاشغال الكرسي الشاغر (١:٢٦).

(٣) اعمال الرسل ١١:٢٧-٢٨؛١٦:٩-١٧؛٢٠:٥-١٥؛٢١:١-١٨؛٢٧:١-٢٨.

(٤) لوقا ١:٢-٣.

(٥) كنيسة انطاكية وقضية اليونانيين المتنصرين (٦:١-٦؛١١:١٩-٣٠)، وموقف كنيسة اورشليم من تصرفات كنائس سوريا وكيليكية (١٥:١٢-٢١) والحل الرسمي للازمة (١٥:٢٢-٣٠).

(٦) اعمال الرسل ١:١٤-١٥؛٢:١،٤٤-٤٧.

ولكن لماذا هذا الحرص؟

ان النص (١:١٥-٢٦) مشبع بالتلميحات والاستشهادات الكتابية التي تتعدى كونها وجها من اوجه "الحشو" الانشائي او التزويق الخطابي، بل تحمل في ذاتها قوة معنوية وايديولوجية، ليس بالضرورة بمحتواها الحرفي المباشر، بل بروحها "الديناميي" (التعبوي والايحائي).

"فخلافة" التلميذ الخائن، مثلا، يستقيها بطرس من المزامير (٦٨:٨). وحتى الخيانة نفسها وطبيعة عقاب يهوذا تعكس ما جاء في سفر الحكمة (٣:١٠) عن مصير هؤلاء المنافقين الذين يحتقرون الصديق وينكرون الله. ويستخلص لوقا قائلا: "وكان يجب ان تتم كلمة الكتاب" (١:١٦).

اما استكمال العدد ١٢ فيجب العودة به الى وعد يسوع نفسه حين اختار "اثني عشر ليكونوا معه" ويجلسوا "في عهد التجديد على اثني عشر كرسيا ويدينوا اسباط اسرائيل الاثني عشر" (متى ١٩:٢٨).
فوعي التلاميذ، هو انهم يمثلون الان اسباط اسرائيل الجديد وبان الكنيسة هي شعب الله الجديد المنفتح على العالم اجمع. فالمسيحيون الاولون حريصون على ان يعبروا عن الاستمرارية وعن كونهم ورثة وعود الله والعهد الذي قطعه مع ابراهيم والاباء والذي تحقق في الاخر بيسوع المسيح[٧].

بهذا الروح عينه ينبغي ان "نقرأ" حادثة حلول الروح القدس يوم العنصرة (٢:١-٤). فالعنصرة، بعد ان كانت مجرد عيد زراعي للاحتفال بحصاد الحنطة ٥٠

لوقا الكاتب

اقدم شهادة مكتوبة عن ان لوقا الانجيلي هو كاتب اعمال الرسل ترتقي الى١٧٥م (قانون ميراتوري). وهذه الشهادة تعتمد على تقليد الكنيسة الدائم وتؤيدها،
اولا: مقدمتا الانجيل الثالث (لوقا ١:١-٣) والاعمال (١:١) والقرابة الادبية واللغوية والوحدة الفكرية التي تربط بين السفرين.

ثانيا: القرائن الداخلية للنص نفسه حيث يبدو المؤلف مسيحيا من العهد الرسولي، متشبعا من الثقافة اليونانية بعمق ومتضلعا بالقضايا اليهودية وبالنص اليوناني للتوراة.

ثالثا وخاصة: كونه رفيقاً لبولس في أسفاره وأسره (اعمال الرسل ١٦:١٠؛ ٢٠:٦؛ ٢قورنتس ٨:١٨؛ قولسي ٤:١٤؛ فيلمون ٢، ٢ طيموثاوس ٤:١١). وذلك كله لا ينطبق على زميل لبولس كما ينطبق على لوقا السوري الانطاكي الطبيب المتحدر من اصل وثني (قولسي ٤:١٠-١٤). وقد كتب الاعمال حوالي سنة٩٤. اما ما يبقى سؤالا محيرا فهو: ما سبب توقف نص لوقا معلقا في وصول بولس الى روما بانتظار المحاكمة (٢٨:٣٠)؟

(٧) أليس ان "الموعد لهم ولبنيهم" (٢:٣٩)، "اولا قبل غيرهم" (١٣:٤٦): خطبة بطرس الاولى (٢:١٦-٤٠)، والثانية (٣:١٢-٢٦). خطبة اسطيفانوس (٧:٢-٥٠). خطبة بولس في انطاكية بيسيذية (١٣:١٦-٣٩) وامام اغريبا (٢٦:١٨).

يوما بعد الفصح، صارت، منذ القرن٥، عيداً لاستذكار عهد سيناء، ومنذ القرن٢ قبل المسيح كانت عيداً لتجديد العهد وذكرى نزول الشريعة، وفي قمران كانت عيد الدخول في عهد الله. وعهد الله ما كان ليتحقق من دون فعل الروح القدس الذي ينكشف (للانبياء خاصة) عبر عناصر الهواء او الريح والنار والماء.

حضور هذه الامور في "الذاكرة الجماعية" للشعب جعل الطريق ممهداً امام لوقا والمؤمنين الاولين للأخذ بتأويل بطرس لحدث "حلول الروح": "هذا هو ما قد قيل على لسان يوئيل النبي: وسيكون في الايام الاخيرة اني افيض من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم..." (٢:١٦-٢١، يوئيل ٣:٢٨-٣٢). هذه هي النقطة المركزية لنص لوقا: ان الروح يستولي على هذا "الشعب الجديد" ليهبه الحياة ويثبته في "العهد الجديد"، وان هذا العهد ليس "وقفاً" على عرق معين، وانما هو "لكل امة تحت السماء" (٢:٣٩).

*اطار حياة الجماعة الاولى (اورشليم)

وكانت نواة هذا "الشعب الجديد" تتمثل في الجماعة المؤمنة الاولى التي يقدمها لوقا ملتفة حول الرسل، مفتتحة "الازمنة المسيحانية" في اطار مثالي(٨). فجماعة اورشليم (وهي النواة الاولى للكنيسة) تتمحور حياتها حول نقاط اربع وهي:

١) المواظبة على تعليم الرسل (فترة تنشئة، تثقيف داخلي، تجذر)

٢) المشاركة الاخوية (وحدة الجماعة، التضامن).

٣) كسر الخبز –الاوخارستيا– ليس في الهيكل، بل في البيوت (دلالة على مسيرة الكنيسة المستقلة، وعلى ان الكنيسة لا يحدها بناء حجري، فحيث المسيحيون هناك الكنيسة).

٤) الصلاة الجماعية.

ملاحظة اخرى تستحق الذكر بخصوص الجماعة الاولى، وهي ان الجيد والرديء كانا عنصرين متلازمين في هذا الحقل.. كما سيكون الحال في كل الازمنة. فجماعة العهد الجديد هذه ليست بمنأى عن الخطيئة، و "الروح" فيها سيبقى يصارع "قوى الشر". وما خطيئة حنانيا وسفيرة التي دعيت "بالخطيئة الاصلية" للكنيسة الناشئة سوى رمز لهذا الصراع الذي يتكلل بانتصار الروح.

(٨) ٢:٤٢-٤٧؛٤:٣٢-٣٧.

* جوهر الدعوة الجديدة

كان اسلوب الكرازة الرسولية يبدأ عادة باستعراض لتاريخ الخلاص بانتقاء الاحداث التي تكون فيها المبادرة لله، ثم باعلان انجاز الله لهذا الخلاص بيسوع المسيح الذي جـاء "في اخر الازمان" مكملا للكتب(٩).

من خلال هذه الخلفية (فلاش باك) كان جوهر الدعوة الجديدة يدور حـول نـواة اساسية تنطلق من "الشهادة" (٨:١) لموت وقيامة المسـيح (٢٤:٢)، وارتفاعـه ممجـدا (٣٣:٢)، "ربا ومسيحا" —أي قدوس الله المخلص— (٣٦:٢). وتحيط بهذه النواة بعـض التفاصيل عن رسالته المعلنة من قبل يوحنا المعمذان (٣٧:١٠)، والتي أعـدّ لهـا بنفسـه، بتعاليمه ومعجزاته (٢٢:٢)، واستكملها بظهوراته بعد القيامة (٤٠:١٠)، ولا سيما بحلول الروح القدس (٣٣:٢). وتنفتح الدعوة نحو المستقبل داعية الى التوبـة والايمـان (٣٨:٢) لاستعجال عودة المسيح (٢:٣-٢١). وكان العماذ رتبة الدخول والتطهير، اذ ان العضـو الجديد ينبغي ان يتطهر ومن ثم يدخل في "جماعة القديسين" (٣٨:٢).

* من اورشليم الى السامرة.. فالعالم

لوقا ينقل قصة هذا الانتشار في الفصول ٦-١٥، وذلك على ثلاث مراحل متتالية: من اورشليم الى السامرة.. الى الوثنيين المتهودين في فلسطين.. الى الامم البعيدة عن طريق انطاكية.. بحسب توجيه المعلم: "فتكونون لي شهودا في اورشليم، وفي جميـع اليهوديـة والسامرة، والى اقاصي الارض" (٨:١).

وكان الفضل للمتنصرين الهلينيين —بحسب سياق نص لوقا— في دفـع شـراع الكنيسة نحو العرض تحت دفق الروح. وليس من دون مغزى ان يكون "الهليني" اسطيفانوس اول شهيد مسيحي قد "عمّذ" الدين الجديد بدمه. غير ان الاضطهاد الذي شتت زملاءه، احاله "الروح" طاقة حياة للشهادة، فاصبحوا اول "المبشرين" في المسـيحية، وانفتحـت السامرة للانجيل على يد فيليبس عميدهم (٥:٨). وكان السامريون انصاف يهود و "ملوثين بالوثنية"، لذا نلمس شيئا من الدهشة لدى "الرسل الذين مكثوا في اورشليم عندما سمعـوا بان السامرة قد قبلت كلمة الله" (١٤:٨)، فأوفدوا بطرس ويوحنا ليضعا عليهم الايـدي فينالوا الروح القدس، ولربما ليطمئنا بانفسهما ويطمئنا سائر الاخوة بسـلامة المنعطـف الجديد.

غير ان تلك لم تكن اول خطوة جريئة "فرضها" الهللينيون على واقـع الكنيسـة الاولى. فانشاء الشمامسة (١:٦-٦) ليس "بالحدث العادي" ويتعدى ان يكون مجرد اجـراء

(٩) بفم بطرس (١٨:٣-٢٦)؛ واسطيفانوس (٢:٧-٥٣)؛ وبولس (١٦:١٣-٣٩).

لتنسيق "خدمة المائدة" بدليل استئثاره باول قرار جماعي صادر عن "الاثني عشر وجمهور التلاميذ" (الهيئة العامة للكنيسة!)، وبدليل ان هؤلاء الشمامسة –وكلهم هيلينيون– ظهروا تحت قلم لوقا "مبشرين" من الطراز الاول. لقد جاء هذا الاجراء، في الواقع، كمعالجة لاول "صدام" داخل الكنيسة حول "تنظيم الجماعة وادارتها" –وقد كان ناتجا عن التباين الاجتماعي والثقافي الى حد ما– بين الجناح التقليدي الراكد (العبرانيون الذين كانوا يحسبون انفسهم "اهل البيت")، والجناح المتحرك (اليونانيون الذين شعروا بانهم متروكون على الهامش).

واذا كان اهتداء السامرة قد "أدهش" التلاميذ، فمنح بطرس العماذ لاول وثني كاد يوقع الفتنة في الكنيسة الناشئة (١٠:١-١١:١٨).

اجل لقد كان كرنيليوس تقياً من "خائفي الله" الذين تبنوا بعض اوجه اليهودية، ولكنه من حيث الشريعة وثني. ولوقا نفسه يركز على هذه الهوية، مما يشير الى الاهمية التي يحملها الحدث في منظاره: ألا وهي ان الخطوة الاولى والحاسمة باتجاه الوثنيين حققها الروح على يد بطرس نفسه، و"هكذا اعطى الله التوبة للامم ايضا، لتكون لهم الحياة" (١١:١٨). فالعبرة في هذه القصة التي ابدع لوقا في تصويرها، هي إفهام المسيحيين، لا سيما القادمين من اليهودية، بان الله اب للجميع وأن دعوة المسيح شاملة، وبأنه لم يعد هناك شعب مختار دون غيره(١٠).

هكذا، اذن، تم اول تحرر فعلي للكنيسة عن جسم اليهودية. وسيكون لانطاكية دور بارز في تكريس هذا النهج الاستقلالي –اليس في انطاكية دعي المسيحيون "مسيحيين" لاول مرة (١١:٢٦). فالهلينيون الذين شتتهم الاضطهاد (٨:٤) يعود بنا اليهم لوقا في ١١:١٩وهم يبشرون الوثنيين مباشرة في هذه المدينة التي كانت تعد البوابة الشرقية للعالم الوثني الروماني. فبينما كانت الكنيسة تنمو في السابق في الاوساط اليهودية، في حلقات متتالية حول محور اورشليم، ها نحن امام نموذج جديد للكنيسة ينشأ خارجها. وللمرة الاولى، عوض ان يذهب الرسل بانفسهم "لقبول شركة" كنيسة جديدة، توفد اورشليم –وكانت بمثابة الكنيسة الام– رجلا من غير الاثنى عشر، برنابا، وبمعية بولس نظّما كنيسة انطاكية وجعلا منها قاعدة الانطلاق نحو اسيا الصغرى. "ولما وصلا، جمعا الكنيسة واخبرا بكل ما صنع الله معهما، وخاصة انه فتح للامم باب الايمان" (١٤:٢٧): هذا هو بيت القصيد في نظر لوقا القريب من فكر بولس وطروحات انطاكية.

✵ مجمع اورشليم

ولكن هذه الطروحات لم تَرُقْ لجميع الاخوة في اورشليم واليهودية، وطفت على

---

(١٠) هذا التيار كان صدى مسيحيا لموقف اليهود من "الطريقة" الجديدة التي رأوا فيه بدعة (٢٤:٥) خطرة وأسلوبا مشكوكا فيه لعبادة الله، كما رآها شاوول نفسه قبل اهتدائه. غير ان تيارا احسر شعارد "تريث وراقب" يمثله رابي غمالائيل كان يفعل فعله ايضا (٥:٣٨-٣٩).

السطح من جديد قضية كرنيليوس، غير ان المسألة لم تعد مسألة طقوس وعادات، بل طرحت من منطق لاهوتي مصيري: على الوثني ان يصير يهوديا ويختتن اولا، ومن ثم يصبح مسيحيا! وجرت "منازعة ومباحثة حادة" حول هذه المسألة بين بولس وبرنابا وبين قوم من اولئك الذين ساقهم غلوهم حتى انطاكية.. فتقرر الاحتكام الى الرسل والكهنة الذين في اورشليم. وهنا ايضا تميزت "المباحثة" التي اشترك فيها جمهور واسع من كوادر الكنيسة بالحرارة. ولولا سلطة بطرس لَعَمَّ الشغب. وبتّ الرسل بعدم فرض اية "ممارسات ناموسية موسوية" على من بررهم الايمان بيسوع المسيح، وخلصتهم نعمته، وقدسهم الروح القدس "مثلنا" (١٥:١-٢٧). وقد جاء ذلك مطابقا، روحا ونصا، لما اعلنه بولس ليهود انطاكية بيسيذية (١٣:٣٨-٣٩).

من هذه الحادثة التي يمكن اعتبارها منعطفا تاريخيا وجوهريا في حياة الكنيسة الاولى، نخرج بالملاحظات التالية:

- مشكلة التعددية الفكرية والحضارية والاجتهادات اللاهوتية في الكنيسة منذ نشأتها، وقبول مبدا "الخصوصية المحلية" وعدم تضاربها مع الوحدة.
- اسلوب الحوار والمناقشة والتشاور في فض الخلافات وممارسة السلطة.
- التركيز على الجوهر من دون التحجر في الجزئيات.. مع مراعاة الضرورات الراعوية والمحبة[١١].
- العلاقات بين الرسل –بالرغم من الغيرة الانجيلية والمزايا الروحية– تحتفظ بطبائع اصحابها وشخصياتهم[١٢].

* الشخصيات الرئيسية في كتاب "الاعمال"

في اعمال الرسل شخصيات، بعضها لم يحظَ سوى بالتنويه، ومنها، كالممثلين، تظهر فجأة ثم تختفي بانتهاء دورها؛ وغيرها لا ترى الا في ظل غيرها؛ ومنها من يبقى رغم اهميته في دور ثانوي، بحسَب هدف الكاتب؛ وقسم اخر يملأ الاحداث بحضوره مثل بطرس الذي تسيطر شخصيته على القسم الاول من كتاب الاعمال، وبولس الذي يستأثر بالقسم الثاني[١٣].

---

(١١) بولس نفسه الذي "قاوم بطرس وجها لوجه" (غلاطية ٢:٧-٩) في هذه القضية، سيراعي احكام الظروف "لئلا يشكك الاخوة" (١٦:٣؛ ١قورنتس ٨:١٢).

(١٢) بطرس وبولس: غلاطية ٤-١٤ (ملاحظة نص بولس عن الحادثة الذي يتسم بالحماس الشخصي والهجومية، ونص لوقا الذي ينقل الوقائع بهدوء المؤرخ)، بولس وبرنابا ١٥:٣٩؛ بولس ومرقس ١٣:١٣.

(١٣) نميز في قراءتنا زاوية لاخبار بطرس –ويوحنا– (ف١-٥) وزاوية لاخبار اسطيفانوس (ف٦-٧)، وزاوية لاخبار فيليبس (ف٨)، واكثر من نصف الكتاب لاخبار بولس (ف ٩و١٣-٢٨).

فبطرس يبدو جليا منذ البداية "مقدَّم" الجماعة الذي ياخذ زمام المبادرات والقرارات المهمة، كما في انتخاب متيا، وفي مجمع اورشليم، وهو اول من يتكلم باسم الجماعة بعد العنصرة. وبمعية يوحنا "يكمل" مسيحية السامرة ويؤيدها، وعلى يده يتم دخول الوثنيين في الكنيسة لاول مرة.

اما **بولس**، فيقدمه لنا لوقا شخصية بركانية، ذا ذكاء وقاد، ومتكلماً لا تنقصه الحيلة، تتسم غيرته بالعنف واللامساومة. وضع كل كفاءاته في خدمة الكلمة. فسرعان ما تجند للتبشير بعد تنشئة قصيرة في دمشق و٣ سنوات من التفكير والتأمل في صحراء العرب. وفي انطاكية بدأ رسالته بالفعل وبرز وجهه الرسولي الحقيقي. فلقد قاد ثلاث رحلات رسولية في اسيا الصغرى وعبر موانئ البحر الابيض المتوسط الشرقية والشمالية وجزره، حتى روما العاصمة بعد صعوبات ومضايق لا تحصى (نجد اصداءها في ١قورنتس ١١:٢٣-٣٣)، كان خلالها يبشر و"يبني" الكنائس وينظم شؤونها ويسلمها الى الرعاة المحليين. وكانت كرازته تتوجه طبيعياً الى اليهود اولا، ثم كليا تقريبا الى الامم. اما تكتيكه في التبشير، فيختلف مع اليهود، حيث يحدثهم بمنطق كتابي ويشبع كرازته بنصوص الاباء؛ ومع الوثنيين يعتمد البراهين العقلية والفلسفية. مع اولئك يتكلم العبرية وينتسب الى معلمين مرموقين لديهم، ومع هؤلاء باليونانية ويعلن مواطنيته الرومانية بتحد. ولطالما استخدم العامل النفسي للاسماع والاقناع، وكم ضرب على التناقضات العقائدية التي بين خصومه —وحتى حكامه— ليوقعهم في بعضهم وينسل خارج الحلبة. فقد كان محاميا حاذقاً[١٤].

اما الشخصية الثالثة التي تبسط ظلها الخفي على الكتاب كله فهي **الروح القدس**. فاسم "الروح" او "الروح القدس" يرد٥٤ مرة في الاعمال، منها١٨ اشارة الى "اعتلانات"، و ٣٦ الى حضور او عمل الروح في حياة المؤمنين العادية. ولهذه الاشارة المتواترة اهميتها الكبرى حيث انها تعكس خبرة ايمانية دخلت في "لغة التعبير" وفي "فكر" الكنيسة منذ فجرها.

ولكن اذا كان الروح يبدو كالقوة السرية التي تشجع وتدفع الى "اعلان الكلمة بجرأة" (٤:٣١)، لا سيما في المنعطفات الكبرى والمبادرات التبشيرية الجديدة، فهل ينفي دور الرسول الشخصي؟

ان نص اعمال الرسل لا يرينا ان الروح القدس هو بمثابة "الشعرة السحرية" التي بفركها تنفرش الطرق بالرياحين والحلول الجاهزة. فجيل الرواد الذي ينقل لنا مسيرته هذا

(١٤) الفصول٢١:٣٧-٤٠ و٢٢-٢٦ هي من اكثر نصوص "الاعمال" حيوية ونكهة، اذ تعكس ذكاء بولس في اطول مرافعة ذاتية استخدم فيها كل اساليب الدفاع، من قوة الحجة، الى الجرأة، الى الدعابة اللغوية، الى الايقاع، الى الانسلال، الى استدراج الحاكم...

الكتاب قد عرف الاضطهادات والانشقاقات والتردد والخوف، مع ايمانه الراسخ بفعل الروح. ولعل خصوصية هذا الكتاب هي انه يضعنا، من جهة، امام فعل الروح العامل بثبات وصبر، ومن جهة اخرى، امام كنيسة تشق طريقها عبر تاريخ تجهل خفاياه.

خاتمة

هكذا، وبعد قراءة جديدة للاحداث، لا نعود نرى في كتاب اعمال الرسل استعراضاً لزمن مثالي يسبح في الكمال والانوار عاشته الكنيسة في شبه "شهر عسل" اولي، بل نستكشف فيه ما نحياه اليوم على ضوء ما عاشه اباؤنا في الايمان في زمانهم، أي كيف اختبروا —وكيف نختبر نحن بدورنا— حضور الروح وعمله فينا وفي الكنيسة.

الاب جرجس القس موسى

القديس بولس في رسائله

بولس، وجه بارز بين وجوه العهد الجديد ... كان اول من سلط اضواء الانجيل على حياة الكنيسة الاولى في انطلاقتها وتعثراتها، عبر مسيرة شاقة بين حضارتين متميزتين متضادتين، جمع عناصرهما في شخصيته اليهودية-اليونانية.

لقد سجل تحوّله العجيب على طريق الشام منعطفاً حاسماً في تاريخ الكنيسة الناشئة، وكان له من فصاحة اللسان وحدة الذكاء وقوة التعبير وعمق البراهين وصلابة العزيمة... ما أهّله لخوض مغامرة حمل بشرى الانجيل الى اليهود والوثنيين معاً في ارجاء الامبراطورية الرومانية. لقد ترك لنا القديس بولس "رسائل" هي في الواقع امتداد لكرازة شفهية تلخّص في الاعلان عن ان يسوع الناصري المصلوب قد اقامه الله واصبح علة خلاص لكل المؤمنين به، من اية امة على وجه الارض كلها.

الدراسة التالية للاب بيوس عفاص تميط اللثام عن هذا الوجه الكبير وعن الارث الغزير الذي خلفه، ولكنها لا تغني البتة عن قراءة جادة لهذه الرسائل ذاتها والتي تختفي وراءها شخصية ذاك الرسول "الغيور" الذي كان يريد ان "يسبي" كل العقول الى معرفة المسيح.

شاول-بولس، ذلك الطرسوسي الذي طالما اعتز بانتمائه الى الثقافتين اليونانية واليهودية، عبراني عنيد يفاخر بغيرته على ايمان آبائه ولا يخفي تمسكه الشديد بالشريعة الموسوية وسننها، وقد تربى فيها على مذهب الفريسيين.. مؤمن متزمت يغار على الله ولا يألو جهدا في الدفاع عن شرف الله... ألم تدفعه غيرته المتقدة الى ملاحقة "المسيحيين" الاوائل الذين رأى فيهم "مارقين" عن الايمان القويم؟ الم يكن شاهدا و "موافقا" على مقتل اسطيفانوس أول الشهداء؟

وعلى طريق دمشق، كان شاول على موعد مع ذاك "الناصري" الذي طالما اضطهده.. فكان الانقلاب العجيب! ومنذئذ وضع شاول-بولس غيرته وشغفه بالله وكل طاقاته وامكاناته في خدمة ذاك الذي اصبحت معرفته ربحا فائقا: "اعد كل شيء خسرانا ازاء هذا الربح الفائق: معرفة المسيح ربي" (فيلبي ٣:٨)، ولم يعد بوسع أي شيء ان يفصله عن محبة ذاك الذي "لا خلاص باحد غيره" والذي ينبغي ان تجثو لاسمه "كل ركبة في السماوات وعلى الارض وتحت الارض" (فيلبي ٢:١٠). واذا كان بولس "اصغر الرسل" يفاخر احيانا بمواهبه ويعتد بنفسه من جراء اتعابه الرسولية وما ناله من اضطهاد وسجن ونفي وآلام... الا انه يرجّع كل ذلك الى نعمة الله الفاعلة: "قد اوليت نعمة الله لأبشّر بغنى المسيح" (افسس ٣:٩).

لقد ترك لنا هذا المهتدي "رسائل" رائعة ما زالت تقرأ في كنائس الله منذ الفي عام، ومع ذلك لم تفقد جدتها وديناميكيتها بالرغم من البعد الذي يفصلنا عن الظروف التي كتبت فيها، و بالرغم من اختلاف الاوضاع بين مسيحية القرن الاول والقرن العشرين! لم يكن بولس كاتبا بالدرجة الاولى، وانما هورسول شغف قلبه بحب المسيح، فراح يعلن اسمه بين الشعوب: "ان التبشير بالانجيل ضرورة موضوعة علي، والويل لي ان لم ابشر" (١قورنتس ٩:١٦). فما رسائله سوى "بطاقات مناسبة" حاول من خلالها ان يرسخ البشرى في نفوس اولئك الذين حملها اليهم من قبل، او الذين تمنى ان يحملها اليهم.. ومن هنا الصعوبة التي نلاقيها احيانا في فهم الكثير من الطروحات التي يستغرق فيها والتلميحات التي تتخللها والتي كان قارئوه الاولون يلتقطونها بيسر، هم الذين سمعوه يتحدث وينادي ويحاجج ويرشد، ليعلن لهم عن سر الخلاص الذي تم بيسوع.

هذه الدراسة[١] تدخلنا الى الصميم من حياة وفكر هذا الرسول الذي اوقف ذاته لخدمة الكلمة بكل ما أوتي من قدرة وطاقة، باللسان والمثال والقلم.

✱ لمحة من حياة القديس بولس

لقد اصبح من الثابت تاريخيا ان اولى المؤلفات المسيحية ليست الاناجيل وانما الرسائل، وفي مقدمتها رسائل القديس بولس، التي كان لها اثر كبير على الروحانية المسيحية وعلى عقيدة الكنيسة ومبادئها الاخلاقية.

بولس هو "الرسول" الذي نعرف عنه اكثر من أي رسول آخر، بفضل رسائله ذاتها وبفضل سفر اعمال الرسل الذي خصه بفصول عديدة دبجتها ريشة لوقا "رفيق بولس في العمل". لقد كانت حياة ذاك الذي دعا نفسه "اني آخر الرسل.. ولست اهلا لان ادعى رسولا" (١قورنتس ١٥:٩)، مغامرة رائعة قادته الى بعض أبرز مراكز الحضارة، سواء على سواحل البحر المتوسط ام في بلاد الاناضول واليونان وروما وحتى اسبانيا في اغلب الظن... وكانت هذه المغامرة اشبه بمسيرة طويلة قادته الى قمم الصوفية، هو الذي لم يعد يعرف سوى المسيح والمسيح المصلوب.

في طرسوس، مدينة شهيرة في آسيا الصغرى، ولد شاول –وهو اسمه اليهودي القديم– في حضن اسرة منفتحة على التيارات الفكرية في الشرق والغرب، تنعم بمكانة اجتماعية مرموقة بحيث تسنى له ان يحصل على لقب "مواطن روماني". اما مهنته فكانت حياكة الخيام.

---

(١) اعتمدنا بدرجة رئيسة مقدمة رسائل القديس بولس في طبعة القدس الجديدة للكتاب المقدس (La Bible de Jerusalem)، الى جانب: E. Cothenet: Saint Paul en son temps (Cahiers EVANGILE, No.26)

وكان شاول متمسكا بايمان اجداده الى حد التزمت، مما دفعه الى التوجه الى اورشليم ليدرس على يد غمالائيل احد الربابنة المشهورين آنذاك. وقاده تعلقه بالشريعة الموسوية الى الانتماء الى شيعة الفريسيين، واصبح من أبرز ممثليها وحاملي لوائها حين أشهر العداء للمسيحية الناشئة التي عدها هرطقة خطرة!

وفي عام ٣٦-٣٧ كان شاول —وهو في طريقه الى دمشق لملاحقة المسيحيين هناك— على موعد مع حدث قلب حياته رأسا على عقب. وخلاصة الحدث انه اكتشف المسيح والتقى به... واذا كان سفر الاعمال يسرد هذا الحدث، باختلافات طفيفة، في ثلاثة مواضع (٩:١-٩؛٢٢:٥-١٦؛٢٦:٩-١٨)، الا ان بولس —وهو اسمه الجديد— يكتفي بالقول في رسالته الاولى الى اهل قورنتس (٩:١) بأنه رأى يسوع الحي. ومنذئذ اقتبل العماذ واخذ للحال يعلن الانجيل، بدءا بدمشق.

في إثر هذا التحول، من مضطهد الى مبشر، اصبحت حياة بولس في خطر، مما اضطره الى الهرب... وبعد زمن طويل قاده برنابا الى انطاكية حيث قدمه للجماعة المسيحية، ومنذئذ تفرغ بولس للعمل الرسولي (دون ان يترك مهنته التي كان يعتاش منها لئلا يثقل على احد). وازاء المعضلات الجديدة التي اثارها تبشير الوثنيين في الاوساط اليونانية، كان على بولس ان يناضل لتحرير الكنيسة الناشئة من الروابط التي كانت تشدها الى المفاهيم الدينية البائدة، ومن ضغوط العقلية اليهودية التي كانت تهيمن عليها بعد. وقد تطلب ذلك منه صمودا، ليس بوجه رفاقه في الرسالة —وفي مقدمتهم القديس بطرس ذاته— وحسب، بل ايضا بوجه المسيحيين المهتدين من اليهودية الذين كانوا يبدون تمسكا شديدا بالتقاليد اليهودية ويعارضون التغييرات التي احدثتها المسيحية، وكانت في نظرهم بمثابة خيانة.

من انطاكية انطلق بولس في رحلات رسولية ثلاث في آسيا الصغرى واليونان حيث انشأ جماعات مسيحية نشطة بقي معها على اتصال دائم، باذلا اقصى جهوده لنماء هذه "الكنائس المحلية" في الحقيقة والمحبة من جهة، ولتوثيق اواصر الوحدة بينها وبين الكنيسة—الام في اورشليم من جهة اخرى. وفي احدى هذه الرحلات تعرض بولس لمقاومة يهودية عنيفة، اثر حملة تبرعات قام بها لنجدة كنيسة اورشليم التي كانت تعاني من أزمة مالية، حين اتهمه اليهود باثارة الشغب وحملوا السلطات الرومانية على القاء القبض عليه... وقضى بولس زمنا في السجن الى ان رفع دعواه الى محكمة القيصر، ومن ثم نقل الى روما بعد سفر مليئ بالمصاعب نقله الينا بتفاصيله لوقا مرافقه (اعمال الرسل: الفصول ٢١-٢٨).

ويمكننا ان نستدل من القرائن التي تعكسها الرسائل ان بولس اطلق سراحه وعاد يزور الجماعات المسيحية في اليونان وآسيا الصغرى، ومن المحتمل جدا انه توجه الى اسبانيا. وقبض عليه مرة ثانية وخضع ولا شك لاسر قاس قبيل استشهاده عام ٦٦-٦٧ ابان الاضطهاد الذي شنه نيرون.

✻ مراسلات واعظ يهتم بجميع الكنائس

من حسن الحظ ان بولس لم يكن رجل عمل وحسب -كما كان ولا شك سائر الرسل الذين نكاد نجهل كل شيء عن رسالتهم-، بل كان في الوقت ذاته "كاتبا". فلقد كتب بولس رسائل -أو بالاحرى انه أملاها- مجيبا الى العديد من القضايا والمشاكل التي كان يطرحها عليه اعضاء الكنائس التي انشأها او التي كان يوطد العزم على اللقاء بها. فمن خلال هذه الرسائل -وهي بمثابة بطاقات مناسبة- ترك لنا بولس تراثا رائعا يشهد على فكر عميق في حركة دائمة.

والى القارئ نبذة عن الرسائل، بحسب تسلسلها الزمني:

- بين الاعوام٥٠-٦٠:

كتبت الرسالتان الى اهل تسالونيقي، في قورنثية بين الاعوام٥٠و ٥٢، وهدفهما تشجيع الجماعة المسيحية الناشئة على المضي قدما في مسيرتها الايمانية، وتوضيح بعض المسائل العقائدية المطروحة. اما الرسائل الى اهل قورنثية (وليس في حوزتنا سوى رسالتين من اصل اربع رسائل)، فقد كتبت للاجابة الى حاجات جماعة مسيحية تعاني من الاضطراب والتعثر، وترجع الى حوالي السنة٥٦. وفيما تتخذ الرسالة الى الغلاطيين (عام ٥٦أو ٥٧) نبرة الحماس تجاه كنيسة تعيش ازمة حادة بين الايمان والجحود، تقدم الرسالة الى الرومانيين عرضا لاهوتيا محكماً هو ملخص "الانجيل" بولس، وقد كتبت عام٥٧-٥٨. اما الرسالة الى اهل فيلبي، فمن المرجح الها كتبت عام٥٦، ويحتمل الها تعود الى ما بين العامين٦١و ٦٣ حين كان بولس اسيرا للمرة الاولى.

- بين الاعوام٦١و ٦٣:

في هذه الفترة بعث بولس بالرسائل التي يطلق عليها اسم "رسائل الاسر": ففي الرسالة الى أهل قولسي، يعرض بولس الايمان الحقيقي ازاء التيارات الفكرية المختلفة التي اخذت تشق طريقها الى المؤمنين الاوائل. وفيما كانت الرسالة الى فيلمون بمثابة بطاقة توصية شفع فيها بولس، بعبد مهتد هارب، لدى سيده، تتسم الرسالة الى اهل افسس بطابع لاهوتي صوفي.

ويساورنا الشك حول انتساب "الرسائل الراعوية" (رسالتان الى طيمثاوس، ورسالة الى تيطس) الى القديس بولس، وهي رسائل تتضمن تعليمات وتوجيهات الى بعض مسؤولي الكنائس المحلية. فاذا كانت من وضع بولس، فهي تعود الى السنوات الاخيرة من حياته (٦٦-٦٧). أما اذا كانت من وضع تلامذته، فقد لا يتجاوز تاريخها عام٨٠ كحد أقصى.

تواريخ في حياة القديس بولس

اغلب الظن انه ولد ما بين الاعوام ٥-١٠م، ونشأ في طرسوس في كنف ثقافة يهودية-يونانية، وتلقن الارامية والعبرية واليونانية. درس في اورشليم على يد غمالائيل بعد السنة ٣٠ على الارجح. وتم انقلابه ما بين ٣٦-٣٧، وقد رواه بولس -بالاضافة الى ما نقله لوقا في اعمال الرسل- مرات عديدة في رسائله (غلاطية ١:١٢-٢٤؛ ١قورنتس ٩:١؛ ١٥:٨؛ فيلبي ٣:٤-١٢). وبعد اقامة في "بلاد العرب" سبقت صعوده الى اورشليم للتعرف على الرسل، اضطر بولس الى الرحيل الى طرسوس حيث مكث بضع سنوات الى ان اقبل به برنابا الى انطاكية، عام ٤٣-٤٤، التي اصبحت منطلقا لرحلاته التبشيرية الثلاث.

ويجمع المؤرخون في تثبيت تواريخ هذه الرحلات انطلاقا من مثول بولس امام غاليون في قورنتس عام ٥١ (اعمال الرسل ١٨:١٢) وقد ثبت ان غاليون قد تولى على اقليم اخائية من ايار٥١الى ايار ٥٢، ومن مثوله امام فيلكس في قيصرية (اعمال الرسل ٢٣:٢٤) والذي تولى على اليهودية من عام٥٢-٦٠.

- الرحلة الاولى (بين الاعوام ٤٦-٤٨): وتضمنت قبرص وبمفيليا وليكاونية (اعمال الرسل ١٣-١٤). وفي نهاية الرحلة ذهب الى اورشليم حيث حضر اول مجمع حول مشكلة فرض الشريعة الموسوية على الوثنيين المهتدين (اعمال الرسل ١٥:١-٢٩؛ غلاطية ٢:١-١٠).

- الرحلة الثانية (بين الاعوام ٤٩-٥٢): وشملت ليكاونية وبلاد غلاطية وترواس ومقدونيا (فيلبي وتسالونيقي) واثينا وقورنثية حيث اقام سنتين، فالعودة الى انطاكية عن طريق افسس (اعمال الرسل ١٥:٤٧-١٨:٢٢).

- الرحلة الثالثة (بين الاعوام ٥٣-٥٨): وشملت غلاطية واقامة في افسس اكثر من سنتين، واقامة شتاء في قورنثية، فالعودة، عن طريق مقدونيا وميليتس، الى اورشليم حيث القي القبض عليه (اعمال الرسل ١٨:٢٣ -الفصل ٢٣).

وبعد مفاوضات ومحاكمات رواها لوقا بدقة (اعمال الرسل ٢١: ١٧- الفصل ٢٨) قضى بولس سنتين سجينا في قيصرية (من عام ٥٨-٦٠) وغادرها للمثول امام محكمة القيصر. وفي روما قضى سنتين في الاسر (من عام ٦١-٦٣)، بعدها اطلق سراحه وراح يواصل التبشير حوالي ٣ او ٤سنوات (من ٦٣-٦٦) الى ان أسر في روما مرة ثانية وحكم عليه بالموت واستشهد عام ٦٦-٦٧.

أما الرسالة الى العبرانيين: فهي وان كانت تحمل اسم بولس، الا انها من تـأليف كاتب مجهول. ويتعذر تثبيت تاريخ كتابتها، وأغلب الظن انها كتبت قبل عام٧٠، ويستبعد انها كتبت بين الاعوام٨٠-٩٠.

"انجيل" القديس بولس؟

تلقى بولس عقب اهتدائه وحيا طالما اشار اليه في رسائله، داعيا اياه "انجيله". فهل كان تبشيره مخالفا لتبشير الرسل الاخرين؟ وهل ان هذا الوحي الذي أعطي له يعني انه تسلم مجموعة من الافكار والتعاليم الجاهزة؟

لقد ادرك بولس انه تلقى رسالة خاصة في الكنيسة انطلاقا من خبرته الفريدة في المسيح (اقرأ غلاطية ١:١٥؛٢:٢)، وما "انجيله" سوى ثمرة تأمله الدائم في سر المسيح:

– **بولس هو رجل العمل الذي يعلم ان الله يتكلم من خلال الاحداث:**

فاذا ذهب الى قمة الروحانية، غير ان فكره يبقى على اتصال وثيق بالخبرة التي يعيشها. فانطلاقا من التعزيات والمصاعب التي تصادفه في عمله الرسولي يتجند لسانه للتحدث عن الله.

– **بولس هو الرجل الذي يتمتع بثقافة غزيرة:** فبصفته فريسيا سابقا، يعرف بولس الكتاب المقدس في كل زواياه. واذا كانت قراءته للكتاب المقدس على شاكلة الربابنة، الا ان هذه القراءة ذاتها تمنح بولس رؤية شاملة لعمل الله في التاريخ. فهو اول من أطلق على الكتاب صفة "العهد القديم" (٢قورنثيس ٣:١٤) مستخلصا المعاني العميقة، من احداثه، على ضوء العهد الجديد.

✻ الخطوط الكبرى من الفكر البولسي

كل شيء في فكر القديس بولس يرقى الى تلك الخبرة التي عاشها اثر اهتدائه، هو الذي خبر عن كثب نعمة الله الفاعلة فيه والتي احدثت تغييرا جذريا في فكره وسلوكيته وتوجهاته. ويمكننا ان نلخص ملامح هذا الفكر في صفات أربع: المعلم، والمربي، والراعي، والمتصوف.

✻ بولس .. المعلم

يكشف تعليم القديس بولس عن مفهوم جديد للعلاقة بين الله والانسان. فلقد اختبر هو بنفسه مجانية النعمة التي اعطيت له، هو الذي لحق به الله وكشف له عن حبه فيما كان علي شفير الهاوية من جراء اكتفائه بذاته. وكان لا بد لبولس ان يرفض بشدة ان تكون الطاعة للشريعة مصدر خلاص للانسان، مؤكدا بان من يظن انه يستمد حقه في الخلاص من مجرد اتباعه الوصايا، فهو يضل نفسه. ذلك هو الغرور الذي يحمل الانسان على الاعتقاد بانه هو صانع خلاصه، وتلك هي اعظم الخطايا. فالايمان، في نظر بولس، هو الذي يخلص، وبالايمان يدخل الانسان في عالم جديد، عالم الحب والرحمة، وبالايمان يجد الانسان موقعه الحقيقي تجاه الله، وهذا هو البر.

لقد تأمل بولس مليا في عمل الله من خلال خبرة عاشها قلبت مفهومه عن النجاح والفاعلية، هو الذي ذهب ليشهر حربا ضد تلاميذ "المصلوب"، ولم يكن يتوقع ان هذا المصلوب سيسحره بحبه الحي. من هنا تحول الفشل الظاهري، في نظر بولس، الى انتصار! واصبحت "الجهالة" حكمة! وهكذا اضحى لاهوت بولس لاهوتا "فصحيا"، اعني

بولس "كاتب" الرسائل

لم تكن كتابة الرسائل قبل الفي عام بالامر الهين. بسبب غلاء ثمن الرق او جلد الغزال وشحتهما... وكان هناك "كتبة" تملى عليهم الرسائل ويذيلها اصحابها من ثم بتوقيعهم.

هكذا كان شأن بولس في رسائله التي كان يمليها على معاونين – من امثال ترسيوس "كاتب الرسالة" الى الرومانيين (١٦:٢٢) الذي اضاف تحياته في خاتمتها – والتي غالبا ما كان يذيلها بتحياته وتوقيعه، بحروف كبيرة، كما تشير الرسالة الى الغلاطيين: "انظروا، ما اكبر الحروف التي اخطها اليكم بيدي" (٦:١١) والرسالة الى فيلمون (١٩)... تحسبا للمزورين الذين يحذرهم الرسول.

وكان بولس يمكل الى احد المقربين منه مهمة ابلاغ الرسالة، كما تشير الى ذلك الرسالة التي حملها تيخيكس الى اهل قولسي (٤:٧) والرسالة التي حملتها ابفرديتس الى اهل فيلبي (٢:٢٥)... وكان على هؤلاء "المراسلين" ان يشرحوا مضمون الرسالة قبل قراءتها على مسامع الجماعة (اتسالونيقي ٥:٢٧) وكثيرا ما كان بولس يوصي بتبادل الرسائل بين الجماعات: "بعد ان تتلى هذه الرسالة عندكم، اعتنوا بان تتلى ايضا في كنيسة اللاذقيين، وان تتلوا انتم ايضا تلك التي من اللاذقية" (قولوسي ٤:١٦). ونجهل مصير هذه الرسالة الى اللاذقية!

وتختلف بنية الرسالة بحسب مضمونها: ففيما اتخذت الرسالة الى فيلمون اسلوبا شخصيا مباشرا، اتسمت الرسالة الى الرومانيين بنبرة المهابة وذهبت في طرح لاهوتي باسلوب ديالكتيكي، الا انها استعادت في فصولها الاخيرة اسلوب الرسائل المعهود. ويبدأ بولس رسائله عادة بعنوان يضمنه تحية وبركة: "نعمة لكم وسلام..."، وكثيرا ما يوجز في المقدمة المواضيع التي سيتناولها في المتن، ويختم بتحيات توحي بالرباط القائم بين اعضاء الكنائس المحلية (رومية ١٦:١...).

اما اسلوب بولس، فهو يختلف من رسالة الى اخرى بحسب اختلاف الجماعات التي يوجه اليها رسائله وتنوع حاجاتها: انه يتخذ تارة اسلوب الجدل تجاه القضايا المطروحة، وتارة اخرى يرتفع الى قمم الصوفية. ويتسم اسلوبه الجدلي بالمحاورة الفلسفية التي تهدف الى افحام المقابل – حتى وان كان وهميا – ولا تغيب عنها النبرة الخطابية التي تشد السامع، عن طريق استخدام اسلوب المخاطب او بطرح التساؤل الذي لا يخلو من تهكم، او الاجابة اليه (اقرأ على سبيل المثال: رومية ٢:١؛ ٣:١؛ ٦:١؛ قورنتس ٣:١٦؛ ٥:٦). وكثيرا ما يستعير بولس اسلوب الفلاسفة الشعبيين في طرح الامثلة والحكم والتشابيه، ومستخدما التضاد والتناقض (الموت–الحياة، الجسد–الروح، الظلمة–النور، الحكمة–الجهالة، الشريعة–النعمة). وبكلمة: استطاع بولس ان يجمع بين العقلية القانونية التي نشأ عليها وبين رقة الروح اليونانية ومرونتها ورؤيتها الشمولية.

مستندا الى البشرى بان يسوع صلب وقام، ومن هذا المنطلق اتخذت بشارته طابعا "فصحياً" حين ادرك بان الله قادر ان يتكلم من خلال ضعفه وتلاشيه اكثر مما من خلال علمه وحذاقته، وعلم يقينا بان الحذاقة في نقل البشرى لا تتخذ قيمتها الاّ حين تكون في خدمة الشهادة لصليب يسوع (٢قورنتس ٤:٧-١٢).

بولس يعلم جيدا ان من تراءى له هو يسوع الحي، وان الله هو الذي اعتلن له من خلال يسوع، وان هذا الاله هو أب كشف نفسه حيا في شخص ابنه. وهكذا وجد بولس نفسه في تيار الحب، وقد وصفه بانه عطية الروح، وهذا الروح، في نظر بولس، رباط يشد المسيح الى من هو الينبوع. فلاهوت بولس هو لاهوت "ثالوثي" تعكسه هذه الصيغة الليتورجية في خاتمة رسالته الثانية الى اهل قورنتس (١٣:١٣): "نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله، وشركة الروح القدس معكم اجمعين". وهذا لا يعني ان بولس قد اوضح بشكل تام ما نسميه اليوم "سر الثالوث الاقدس" -وكان ينبغي ان تمرّ اجيال قبل ان تتوصل الكنيسة الى تحديد سر الثالوث بصيغة عقيدة- ، الا انه عاش عن كثب هذه الحقيقة الروحية التي لازمت حياته وحياة المسيحيين الاولين منذ بدء المسيحية.

وعلى طريق دمشق، ادرك بولس من عبارة "شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟" ذاك الرباط السري بين يسوع وتلامذته، ومنذئذ اصبح لاهوته لاهوتا "كنسيا". واذا كان بولس، في بادئ الامر، غير قادر على التعبير عن هذا الرباط الا باستعارة اوجه الترابط القائم بين اعضاء الجسد (١قورنتس ١٢:١٢...)، الا انه كان على يقين من ان الرباط بين يسوع وتلامذته هو أكثر عمقا. ففي رسالته الى أهل رومية (١٢:٥...) اكد بولس على ان مصير البشرية مرتبط بيسوع كما كان مرتبطا بآدم، وإن لم يتكلم بوضوح عن الكنيسة. ولقد بلغ مفهومه عن هذا الرباط أوَجَهُ في رسائله الى اهل قولسي وافسس حين اوضح بان المسيح هو نقطة ارتكاز البشرية: انه "بكر" البشرية المجددة بالروح، انه "رأس" الجسد الذي هو الكنيسة، انه "العريس" الذي يؤلف وحدة مع "عروسه" (افسس ٥:٢٥-٣٢)، انه "حجر الزاوية" الذي يقوم عليه البناء كله.

وتتوحد تدريجيا افكار بولس لاعلان "السر". وما هذا السر سوى مخطط الله عبر التاريخ، المعلن اولا اليهود في العهد القديم، باشكال شتى وعلى حقب متنوعة، وتم اعتلانه من ثم، في يسوع، بشكل تام ولكل البشر. أما مضمون السر، فيقوم في خلق علاقة حب جديدة بين الله والبشرية: تلك حقيقة روحية تتخطى الخبرة المحسوسة، ومع ذلك فهي الخبرة الوحيدة الثابته طالما انها تلد كائنا جديدا. فكل الخليقة تجد ذاتها سائرة في تيار ديناميكية الله الذي منه تستمد توجهها الحقيقي (رومية ٨). وهكذا يتجلى في الكون بأسره الحب الالهي الذي يفيضه الروح.

✵ بولس .. المربي

ان تعليم بولس الاخلاقي يتصل هو الاخر بخبرة اهتدائه وانقلابه العجيب. فلقد عاش بولس حتى ذلك الحين في عقدة حفظ الشريعة التي كان يرى فيها التزاما يقوده الى البر امام الله بالرغم من الرغبة التي فيه نحو الشر. وتغير كل شيء اثر اكتشافه للمسيح! فمنذ ان مسه الحب، ادرك قيمة ارادة يوجهها الحب الذي يفيضه الروح في القلب، وفهم للحال

المعاني العميقة التي تضمنتها اقوال ارميا وحزقيال اللذين كانا يبشران بولادة شعب يحمل الشريعة في قلبه.

ان التوجيهات والارشادات التي يفرضها بولس في مجال السلوكية المسيحية لا تقل عن المتطلبات التي كان يفرضها على ذاته في السابق، الا انها ذات طابع آخر: انها الان حصيلة تقدمه الذات لله، وهي وليدة حرية الانسان الذي أصبح قادرا على العودة الى ينبوع الحياة الحقيقي.

✻ بولس.. الراعي

منذ اهتدائه، تقلد بولس رسالة: انه اصبح خادما للمسيح، ورسولا شاهدا للرب الناهض من بين الاموات، مفرزا لهداية الوثنيين. وانطلاقا من وعيه العميق بدوره هذا، اخذ بولس يتصرف بشعور من المسؤولية الخلاقة. وتشهد رسائله على حسن ارادته وقدرته على مجابهة القضايا التي كانت تواجه الكنائس المحلية والكنيسة بشكل عام.

فمن وراء رجل العمل والقرار، نجد فيه دوما ذلك اللاهوتي الذي يأبى ان تكون قراراته اجوبة مبدئية لاوضاع بشرية معينة: انها تستند دوما الى "سياسة راعوية" هي الاخرى وليدة رؤية عقائدية شاملة. ففيما تقدم لنا الرسالة الاولى الى اهل قورنتس فكرا غنيا حول طبيعة الخدم في الكنيسة وتعدد صيغها، تحملنا رسالته الثانية على فهم روح الخدمة التي عاشها هو ذاته. واذا كان بولس ملهم "الرسائل الراعوية" —على اقل تقدير-، فهي ترينا اهتمامه لجعل ديناميكية الكنيسة تتجسد في بنية قوية متماسكة، وهذه البنية هي بمثابة تجسيد الروح في قلب الواقع البشري. ففي نظر بولس لا يمكن ان تحد المؤسسة من الحرية النبوية.

✻ بولس.. المتصوف

اصبح بولس، عقب اهتدائه، رجل الشكر الذي يلهث بحمد الله وتسبيحه، واصبحت حياته كلها تعكس فرحه العميق —وهو في حضرة الله— بالرغم من كل المضايق التي تعرض لها. ولا عجب اذا ما تصدرت رسائله (ما عدا الرسالة الى تيطس) صلاة انطلقت بحمد الله؛ كما انه غالبا ما كان يتوقف، خلال عرض لاهوتي، ليرفع من اعماقه فعل شكر لله —وخير مثال على ذلك النشيد الرائع لحب الله في رسالته الى اهل رومية (٨:٣١-٣٩).

في رسالته الثانية الى اهل قورنتس، يدعنا بولس نكتشف عمق حياته التصوفية (٤:٧-١٨؛ ٥:١١-٦:١٠؛ ١٢:١-١٠). وهذه الحياة التصوفية يريد بولس ان يقاسمه اياها كل المسيحيين ويختبروها كما اختبرها هو: انه يرسم، في كل رسائله، ملامح الحياة

الجديدة للانسان الذي اصبح في شركة مع الله بواسطة الروح الذي أفيض في قلبه.

* بولس.. رسول "محبة الله"

بالرغم من غنى فكر بولس، فهو لم يحط بكل الحقائق المسيحية. انه على يقين من ان نمو الكنيسة في الحب سيمكنها من اكتشاف الكنوز المخفية في السر الالهي (افسس٣: ١٤-٢١). وهكذا يبقى بولس رجل عصره، بعلمه وحدوده. ونستدل على ذلك حين تخدش مسامعنا مفاهيمه حول الجنس والحياة الجنسية التي تعكس حضارة ذكورية! وحتى مفهومه عن الزواج، فهو اسير فكرة سائدة في زمانه حول قرب مجيء الرب. لذا تبدو لنا، اليوم، افكاره وتوجيهاته بهذا الشأن متخلفة (١قورنتس: الفصول٧ و٨ و١١). الا ان الرسالة الى اهل افسس (٥: ٢٥-٣٢) فتحت آفاقا اكثر ديناميكية.

وقد يأخذنا العجب حين لا نجد لدى بولس فكرا نقديا تجاه المجتمع المدني! بل بالعكس، نرى بولس يبدي اعجابا بالنظام الروماني -سيما وانه لم يتعرض لاية مقاومة من السلطة في ممارسة رسالته التبشيرية في ارجاء الامبراطورية- ويحترم السلطة ويدعو الى احترامها، ولا يرى ضرورة في التصدي للبنى الاجتماعية القائمة. غير ان رسائله تحمل في طياتها نواة تجدد جذري حين يؤكد مرارا عديدة على كون البشر متساوين امام الله، ويشدد على اخوة بينهم تكون قادرة على تخطي كل الفوارق الجنسية والعنصرية والطبقية. فيجدر من ثم بالكنيسة اليوم ان تكتشف الابعاد التي تنطوي على فكر القديس بولس في هذا المضمار.

الاب يوسف عفاص

٩ الاسرة المسيحية

السنة التاسعة عشرة: ت ١ - ت ٢ ١٩٨٣

الفهرس

• افتتاحية: الاسرة... حب والفة وعطاء ومسؤولية	رئيس التحرير
الاسرة ... مشروع للحياة	
• معوقات الزواج	نجيب قاقو
• الخطوبة، مرحلة تدرب القلب والروح	أ. يوسف توما
• الاسرة... رابطة حب وشركة حياة	أ. بيوس عفاص
الاسرة... حب ومسؤولية	
• الطفل، ثمرة الحب والطريق الى الحب	د. سهى سالم
• العلاقة بين الوالدين والاولاد	أ. يوحنا عيسى
• اين نحن... من التربية الجنسية السليمة؟	صباح حنا بشي
الاسرة المسيحية... دعوة ورسالة	
• مفهوم الانسان على ضوء سر الزواج	أ. عبد السلام حلوة
• الاسرة... خلية الكنيسة	أ. جرجس القس موسى
• دور الاسرة في التثقيف المسيحي	أ. يوسف عتيشا
• طاولة: مع اطباء	الأخت سانت أنييس
• شهادات: من خبرتهم الى القراء	...
• مساهمات القراء	...

لكم انكبت "**الفكر المسيحي**" على قضايا الحب والجنس في نطاق العلاقات بين الشباب او ضمن الاسرة. وكان لا بد ان تخص الاسرة بعدد تتكثف فيه معظم القضايا الكبرى التي تواجهها الأسر في قلب التحولات الاجتماعية. فكان اسهاماً غنياً في توطيد اسس الاسرة الناجحة، وتعميق الوعي لدى الاسرة المسيحية بدعوتها ورسالتها.

وهكذا توزعت المقالات على ٣ محاور: "الاسرة مشروع للحياة"، بُحثت فيه معوّقات الزواج ومرحلة الخطوبة وقيم الحياة الزوجية. وفي محور "الاسرة... حب ومسؤولية"، تناول الكتاب مسألة الطفل والعلاقة بين الوالدين والاولاد ولا سيما في مجال التربية الجنسية. اما محور "الاسرة المسيحية"، فقد انكب على مفهوم عميق لسر الزواج وعلى كون الاسرة "خلية الكنيسة" ودورها في التثقيف المسيحي. فضلا عن "طاولة" مع اطباء، و"شهادات".

(...) ويتخذ الحب بين الزوجين أبعاده العميقة، وتبلغ سعادتهما أوَجَها في ذلك العطاء الذي تنطوي عليه الأبوة والأمومة. فمجيء الطفل خبرة حياتية فريدة في حياة الزوجين، تضفي على حبهما غنى وثراء وانفتاحا، حيث إنهما يستقبلان معا عطية الحياة ويشتركان سوية في عملية الخلق...

وبمقدم الأطفال الذين يُدعون إلى الحياة، تتحول العلاقة الصميمة بين الزوجين إلى علاقةٍ متشعبةٍ تفترض منهما حباً نزيهاً مجرداً، وإدراكاً عميقاً بمسؤولياتهما في قيادة أولادهما على دروب الحياة، عبر مراحل نموهم المختلفة. (...)

وغني عن القول إن التربية اليوم هي علم وفن، ويجب من ثم أن يحيط الوالدون بأسسها ومبادئها، ليقووا على مواجهة التساؤلات التي يطرحها أبناؤهم، ومعالجة المشاكل التي يتعرضون لها. ومن بين الجوانب التي تستحق أن يعيرها الوالدون أهمية خاصة: التوعية الجنسية (...)

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٢٤٣-٢٤٤)

الاسرة رابطة حب وشركة وحياة

الاسرة اليوم غير الاسرة في الامس القريب او البعيد، بحكم التحولات الفكرية والثقافية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية التي يشهدها عصرنا؛ فالنموذج القديم للاسرة لم يعد ممكناً اليوم، والقيم التي كانت ترسو عليها الاسرة حتى وقت قريب اصبحت مهددة اليوم، والمقومات التي كانت رصيد الاسرة المتراصة في الماضي، انتابها الشك وتسربت اليها الازمات التي اخذت تعرّض وحدة الاسرة وسلامتها لخطر التصدع والتفكك ...

هل الاسرة في زوال؟ ام هو نموذج للاسرة لم يعد له مكان في مجتمع اليوم؟ وهل النموذج البديل اكثر صلاحاً وديمومة من النموذج القديم؟ مهما يكن من امر، هناك حقيقة واحدة هي ان الاسرة في تحول، وهذا التحول يندرج في نطاق التحولات العميقة التي طرأت على انسان اليوم وغيرت الكثير من نظراته ومفاهيمه في قضايا الحب والجنس والزواج والانجاب والابوة والامومة...

المقال التالي للاب بيوس عفاص دراسة، من وجهة نظر اجتماعية، تهدف الى تحليل للظاهرات التي تتسم بها الاسرة العصرية.

حتى زمن قريب كانت الاسرة، بمفهومها الاجتماعي، خلية متراصة تنعم بالوحدة والتماسك. وكان للتقاليد والاعراف والضوابط الاجتماعية والتشريعات المدنية دور كبير في الحفاظ على سلامة الاسرة وصيانتها من الاخطار التي تهدد وحدها وديمومتها. ولقد لعبت التشريعات والقوانين الدينية في مختلف المجتمعات دوراً أساسياً في صيانة القيم التي تقوم عليها الاسرة، بحكم الضوابط الشديدة التي فرضتها والتي لم تدع ثغرة يتسرب منها التفكك أو التصدع... وكان للكنيسة في هذا المضمار دور كبير في الحد من الظاهرات التي تعرّض وحدة الاسرة للخطر، بفضل تشريعاتها الدقيقة بشأن الزواج ووحدته وعدم انحلاله، وبفضل الروحانية التي أشاعتها بشأن ممارسة الزوجين حقوقهما وواجباتهما في ما يتعلق بالفعل الجنسي وعملية الانجاب...

* ظاهرات جديدة

ومع التحول الفكري والخلقي والاجتماعي في مطلع القرن التاسع عشر، ومع انتشار العلوم الانسانية وبنوع خاص علم النفس والانثروبولوجيا، تسربت الى الاسرة مفاهيم جديدة كشفت عن نسبية الاسس التي كانت تقوم عليها الاسرة. ومع تصاعد

الشعور لدى الانسان بالاستقلال والحرية الشخصية، ومع نمو الوعي لديه بقيمة الجسد والمشاعر العاطفية، برزت ظاهرات جديدة لم يكن لها من أثر فيما مضى: فلم يعد اختيار شريك الحياة رهناً بعوامل عشائرية – قبلية أو عوامل اجتماعية–اقتصادية، وأصبحت دوافعه الاساسية نفسية عاطفية؛ وأخذنا نشهد نضوجاً عاطفياً وفيزيولوجيا في عمر مبكر أسفر عن قيام علاقات سابقة للزواج وخارجاً عنه، وعن ميل عارم الى "الحب الطليق" أو "المساكنة الشبابية"... وكان لظاهرة تحرير المرأة واكتشافها لأنوثتها ومكانتها أثر في قلب الدوافع التي كانت تخرج الفتاة من وصاية الاهل لتزجها تحت وصاية الزوج... واتخذت الحياة الجنسية ابعاداً جديدة في نطاق الحياة الزوجية حيث أكتسب الزوجان حسا مرهفاً بنوعية علاقاتهما العاطفية والجنسية، فلم يعد الرجل صاحب المبادرة الذي يمسك لوحده بزمام الامور، لحسابه وعلى حساب الزوجة، كما لم يعد ذلك الآمر والناهي الذي ليس من منافس لسلطته على الاسرة...

وكان للاكتشافات البيولوجية اثرها الكبير في تنظيم الولادات وحمل الازواج على الاكتفاء بعدد محدود من الاولاد، مما ساهم في تحرير الام من الاعباء التي كانت تفرضها عليها كثرة الاولاد، وأفسح المجال لها للعمل خارج المنزل وما رافق هذه الظاهرة من مردودات ايجابية وسلبية في آن واحد.

وازاء هذه التحولات العميقة في مفاهيم الحب والزواج والانجاب، كان لا بد أن تطفو على السطح المعانيات المكتومة أو المعلنة، وتبرز الصدامات الحادة داخل الاسرة، وتصبح الامانة الزوجية أوهى من خيط العنكبوت، ويضحي الافتراق و الطلاق سبيلاً لا بد منه... وكان لا بد لهذه التحولات أن تنعكس على العلاقات بين الوالدين والاولاد حيث ان الوالدين لم يعودوا قادرين أن يسيّروا أولادهم وفق مفاهيمهم ومخططاتهم، ونشأ من هذا التفاوت بين المفاهيم صراع مرير بدا تجاهه الوالدون وكأنهم مكتوفي الايدي...

* الاسرة في تحول

ان هذه الظاهرات والمشاكل التي رافقتها تشير ولا شك الى أن الاسرة تعيش اليوم أزمة حادة تهدد سلامتها ومستقبلها، حتى أن علماء الاجتماع ذهبوا في تحليلاتهم، بكثير من التشاؤم، الى القول بموت الاسرة أو أقله بزوال النموذج الذي كانت الاسرة تعكسه حتى وقت قريب! واذا كانت الاسرة في المجتمعات الغربية تعيش هذه الازمة بشكل صارخ، فان بوادر هذه الازمة قد أخذت طريقها الى مجتمعاتنا الشرقية التي ظلت فترة طويلة أسيرة التقاليد والضوابط التي شددت الخناق على الاسرة مما ينبئ بانفجار لا تحمد عقباه، وليس بغريب أن تكون الازمة التي ستتعرض لها الاسرة في مجتمعنا أكثر حدة واكثر وبالا!

هذه الازمة التي تعاني منها الاسرة في مختلف المجتمعات وبدرجات متفاوتة، كان

لا بد لها ان تتسرب الى الاسرة المسيحية التي لم يكن بالامكان أن تبقى هي الاخرى بمنحى من التيارات التي تعصف بالمجتمع، وقد تكون الاسرة المسيحية أكثر عرضة للازمات بحكم التشريعات الكنسية الدقيقة التي لم تدع جانباً من جوانب الزواج المسيحي الا ووضعت له ضوابط وقيوداً حتى أن بعض اللاهوتيين ذهبوا بعيداً في إحكام السيطرة على حياة الاسرة بشكل تخطى احياناً حدود الحشمة!

هناك اذن، شيء أكيد وهو أن الاسرة هي اليوم في تحول، وأن نموذج الاسرة القديم يتضاءل ازاء نموذج جديد. أما هدفنا في هذا المقال فهو أن نحيط بالتحولات التي تعيشها الاسرة العصرية اليوم من دون أن نصدر حكماً أخلاقياً حول مدى صلاح هذا النموذج الجديد. ولنقلها مرة واحدة أننا نتناول بالبحث الاسرة بشكل عام —تاركين لغيرنا بحث الخصائص التي تتميز بها الاسرة المسيحية[1]— ومن وجهة النظر الاجتماعية التي تكتفي بتسليط الاضواء على الواقع الذي تعيشه الاسرة، في محاولة لتحليل اسبابه ونتائجه[2].

✻ بين نموذجين للاسرة

كان الدور الاساس المناط بالاسرة حتى أواخر القرن١٨ هو ضمان استمرار الجنس البشري وضمان انتقال الملكية عن طريق الوراثة. و لم تكن عملية نقل الحياة داخل الجماعة البشرية انذاك بالامر الهين بحكم تعرض البشر لدرجة عاليه من الوفيات، حيث أن ٢٥% من الاطفال يختطفهم الموت في سنتهم الاولى، ولا يكاد النصف الباقي منهم يتجاوز العشرين عاماً. ما خلا الوفيات التي تحدثها المجاعات والاوبئة. وكان ينبغي للاسرة انذاك معدل ٥ أولاد لتأمين استمرار الحياة، ويتضح من ذلك أن دور المؤسسة الزوجية كان يقوم في الاجابة الى حاجة حياتية أكثر مما في الاستجابة الى رغبات الافراد وعواطفهم. وان الجهل بعملية التناسل جعل من الصعب فهم خصائص الحياة الجنسية لدى الانسان، وكان من الطبيعي في هذا الاطار أن تعتبر الكنيسة والمجتمع معاً بأن الحياة الجنسية معدة أولاً للانجاب، وأن الفعل الجنسي المشروع هو فقط الفعل الذي يتم ضمن الزواج ويهدف الى الانجاب.

مثل هذه الرؤية لم يعد لها اتباع في عصرنا: فمن جهة، ساهم الطب في ازدياد عدد البشر حين قضى بشكل جاد على وفيات الاطفال، بحيث لم تعد الضرورة تقضي بان يكون للاسرة معدل٥ أولاد، وأصبح معدل طفلين كافياً، وهكذا تحررت الاسرة من مهمة الانجاب بتلك الكثرة، وتسنى لها من ثم أن تذهب في البحث عن سعادتها. ومن جهة

---

(١) راجع مقالنا: الاسرة المسيحية، الى أين؟ (ف. م. ت٢ ١٩٨٠).

(٢) اعتمدنا في هذا المقال دراسة لروجيه بيرودي مدير "مركز الاعداد للزواج" في فرنسا نشرت في مجلة Etudes (حزيران ١٩٨٠) بعنوان: La famille en mutation

أخرى، ساهم تقدم الفيزيولوجيا في اشاعة مفهوم جديد للحياة الجنسية لدى الانسان حين ركزت على خصائصها وامكاناتها بشكل يجعلها بمنأى عن الضغوط التي كانت تفرضها عملية استمرار الجنس البشري. وهكذا أصبحت الحياة الجنسية تتعدى مهمة نقل الحياة، واضحت لغة يعبر من خلالها الزوجان عن اتحادهما العميق وعطائهما المتبادل فتحمل اليهما اللذة والسعادة.

ولما كان الانسان، بحسب منظور الانتروبولوجيا، مركباً من عنصر بيولوجي أو عضوي ومن عنصر "نفسي" حر، كانت الحياة الجنسية لديه تلك العلاقة الوثيقة بين البيولوجي فيه و "الانا" الحرة، وكان الحب وحده قادراً أن يحقق هذه الوحدة في حياة الانسان. واذا كانت الحياة الجنسية تستمد انفعالاتها من الجسد، الا انها تحصل من السروح على "نداءات" بشكل "محرمات" أو صيغ امتثال اجتماعية من شأنها أن تكبح جماح الانفعالات والنزوات التي قلما تواكب متطلبات الحياة المشتركة. ولكي تصبح هذه الانفعالات موجهة الى الحب واحترام الاخر، كان من الضروري أن تكون هناك ضوابط تحد من هيجان الانفعالات وتجاوزها.

ومع ذلك، تبقى الحياة الجنسية لدى الانسان عرضة للصراع، اذ من الصعب جداً أن يتم توافق بين الانفعالات والضوابط التي تمليها الطبيعة (تحريم العلاقة بين الاخوة وذوي القربى) أو العقل او المجتمع، ويتوجب من ثم على الجانب النفسي في الانسان أن يسعى دوماً الى تحقيق التوازن. الا أن هذا التوازن يبقى عرضة للتأرجح من جراء التوترات التي تفرزها الانفعالات والنزوات الدائمة الحركة والتي تصطدم دوماً، سواء بقيود وضوابط أم برغبات ودوافع جديدة.

ومن بين التوترات الملازمة للحياة الجنسية، نذكر على سبيل المثال الصراع الذي تفرزه في الشعور اللاواعي لدى الزوجين، انتقال السلطة في الاسرة نتيجة لعمل المرأة في المجتمع. فالصورة التقليدية للاسرة تتمثل في كون الرجل هو "المعيل" الوحيد الذي يؤمّن العيش الهنيء لعائلته، وفي هذه الصورة يرتبط المال بالقوة الذكورية. الا أننا نشهد اليوم صراعا بين هذه الصورة وبين المتطلبات الاقتصادية التي تضطر المرأة الى العمل للمساهمة في حاجات الاسرة. وغني عن القول أن النساء –ولم تعد حياتهن مُنصبّة، كالسابق، على الانجاب والعناية بالاطفال– اللواتي يزاولن عملاً ما، وجدن في هذا الاختبار حريتهن ودعوتهن وسبيلاً لتحقيق ذواتهن.

مثل هذا التحول الحضاري يصطدم ولا شك بصورة الرجل ويفرز نزاعات حادة تنتج عنها تبعات يحمّلها الرجال على النساء والعكس بالعكس. ونجدنا بازاء ردود فعل مختلفة: فنرى نساء يحقدن على أزواج لم يكونوا قادرين على اعفائهن من العمل، فيما تشعر نساء أخريات بالذنب بعد أن اخترن العمل كوسيلة لتحقيق ذواتهن، وكأنهن أنزلن أزواجهن من عروشهم! فيما يشعر الرجال بالمقابل بأنهم فقدوا صورهم التقليدية. وهكذا

هي الحال بالنسبة الى ظاهرة منع الحمل حيث ان انتشار الوسائل الفعالة لمنع الحمل وتحديد النسل غيّر وجه العلاقات في الاسرة، واصبحت المرأة هي التي تشرف على عملية الانجاب، واليها تعود الكلمة الاخيرة في تحديد عدد الاولاد. وهذا التحول لم يتم الا بثمن صراع مع الصورة التي كان يحملها الرجل بصفته سيد الموقف والقرار.

❋ معاني جديدة...

ان للانتقال من تصور بيولوجي للحياة الجنسية الى تصور نفسي نتائج ومردودات عديدة على صعيد السلوكية. عن هذا الانتقال نتجت معاني جديدة لمفهوم الشريعة والامانة الزوجية واللذة الجنسية.

❋ مدلول جديد للشريعة

لقد كانت مفاهيم الحق والواجب والشريعة ملازمة للجانب البيولوجي في الانسان، وكانت مسؤولياته رهن قواعد وقوانين محفورة في أعماق كيانه البيولوجي. الا أن الرؤية الجديدة للحياة الجنسية تأبى أن تتحدد سلوكية الانسان انطلاقا من الجانب البيولوجي فيه، وتجد في الانفعالات الجسدية عائقاً يحول دون الحب، وتسعى الى حمل العنصر النفسي فيه على ممارسة عملية أنقاذ من استبداد الانفعالات والنزوات، عبر المحرمات والشرائع والضوابط الاجتماعية. من هذا المنطلق، تضحي الممارسة الجنسية موجهة الى الشركة الحبية، فترتضي بالضغوط وتقبل بالحدود لتبلغ أهدافها في اقامة علاقة صميمة ذات أبعاد. وهكذا تصبح المحرمات والشرائع والضوابط وسيلة تتيح للانسان أن ينتقل من علاقة جسدية الى علاقة الحب والشركة والالتحام، ويتسنى له اذاك أن يضحي انساناً حقاً بفعل خضوعه للشريعة بوعي تام، ذلك لان الشريعة تجعل منه انساناً متميزاً يدرك أن حريته تقف عند حدود حرية الآخرين. ففي اطار هذه الرؤية تصبح مثلا شريعة "لا تزن" سبيلاً الى احترام "الأنا" لدى الانسان ولدى قريبه في آن واحد.

❋ مفهوم جديد للامانة الزوجية

كثيراً ما تبدو الامانة ثمرة للحب بين شخصين، ويخيل للكثيرين أنه، بقدر ما يكون الحب أميناً بقدر ذلك تتضاءل المخاطر التي تتعرض لها الاسرة. الا أن هذه النظرة، بالرغم من براءتها، تتجاهل ان الانسان ليس دوماً سيد ذاته وأن رغباته الواعية وغير الواعية لا حدود لها، ومن ثم كان لا بد أن يتعرض الزوجان لازمات تهدد الثقة والامانة بينهما. وقلما تخلو أسرة من مثل هذه الازمات، والاسرة التي تدعي بأنها خالية منها هي في الغالب أسرة ترفض الاعتراف بأزماتها وقد تتعرض يوماً ما لمأساة أكبر.

ان التقلبات الحياتية التي يخضع لها الانسان تخلق فيه صورة جديدة غير تلك

الصورة التي اعتاد عليها شريك الحياة، ومن هنا تنشأ الشكوك وخيبات الامل ازاء الظواهر التي تبدو على أحد الطرفين من خلال تعامله مع الاحداث التي تمر بحياته ومع الاشخاص الذين يلتقي بهم في العمل أو الوظيفة... غير أن شريعة الامانة، فهي انما تحول مسار الازمة الى مسار ديناميكي: فهي حين تحذر الزوجين من البحث عن رغباتهما خارج العيش الزوجي، فهي انما تمنحهما قدرة على مواجهة تذبذب انفعالاتهما من دون أن تمحوها، وتحملهما على أن يحرصا الا يكونا العوبة بيد الانفعالات. انها تدفع بالزوجين الى وضع حد للرغبات المتبادلة التي يتوقع الواحد أن يجدها في الاخر، وما أن خبر كل منهما عزلته ووحدانيته، استطاعا انذاك ان يقيما علاقاتهما على اسس جديدة عن طريق تعميق الروابط السابقة واكتشاف صيغ جديدة للتبادل والشركة. وهكذا يتضح أن شريعة الامانة ليست ثمرة الحب، وانما هي السبيل الى الحب وضمان استمراره.

* معنى جديد للمتعة الجنسية

اذا كانت الحياة الجنسية تفهم عبر وظيفتها المزدوجة (الانجاب ولغة الشركة)، فذلك يعني أن المتعة الجنسية هي في مرتبة أدنى. وبموجب هذه النظرة يبدو الفعل الجنسي وكأن لا مبرر له الا بصفته وسيلة للاتحاد والانجاب. وفيما يبدو أن لهاتين الوظيفتين قيمة في حد ذاتهما، يبدو الفعل الجنسي وكأنه خال من قيمة ذاتية، ولا يتخذ من ثم شرعيته الا اذا كان الهدف منه استمرار الجنس والشركة الحبية.

وازاء مفهوم كهذا، لا عجب أن يبدي اليوم الشباب المقبلون على الزواج تحفظات كثيرة، سيما وأن هذا المفهوم يوحي بان المتعة الجنسية "تابو" (من المحرمات) في عصر يميل الى تقديس الجنس ويجعل منه صنماً. ويحق لهم أن يتساءلوا: أليست المتعة عنصراً من عناصر الحب؟

وانطلاقاً من كل ما تقدم يتضح أن للمتعة الجنسية قيمة ايجابية. وهذا لا يعني أن فعل الحب يخلو من الالم: فالحب يفترض التضحية وهذه التضحية هي شريعة الحب والسبيل الى المتعة، سيما وان للحب بين شخصين مسافة لا يمكن تخطيها طالما أن في أعماق كل انسان شوقاً دائماً الى أن يحب وأن يكون محبوباً، وهيهات لمثل هذه الرغبة أن ترتوي بشكل تام.

وتجدر الاشارة هنا الى أن المتعة الجنسية فن صعب يفترض وعياً عميقاً واستعداداً جاداً. فهي تتعلق بطبيعة كل واحد وشخصيته وذوقه ورغباته وقدرات جسده... ولا عجب أن يكون للفعل الجنسي جانب شاق، وليس بغريب أن ترافقه توترات وصراعات وخيبات، سيما وأن المتعة التي ينطوي عليها قد تتحول الى عقبة بوجه الحب، حين يتخذها الانسان غاية في حد ذاتها فتحول دون التبادل المتكافئ الذي يفترضه الحب.

في مثل هذه الحالة تتمحور الرغبة حول المتعة ويضحي الطرف الاخر "وسيلة" لا غير!

ومع ذلك تبقى المتعة الجنسية، بالرغم من حدودها، قيمة من قيم الحب طالما هي جواب الى رغبات الانسان يحمل اليه لذة حقيقية، وان كانت لا تشبع كل رغباته، شأنها شأن كل عمل من أعمال الانسان: فالانسان لا ينكب على عمل ما، ما لم يحصل منه على متعة بشكل من الاشكال. وفي حالة الحب يمكننا القول بأن المتعة تكون أكبر حجماً حين يتقبلها الانسان أكثر مما حين يحصل عليها، ذلك لان الحب هو مزيج من العطاء والقبول، ولا وجود للحب الا لذاك الذي له القدرة على التحرر من ذاته والانفتاح على الاخر. من هذا المنطلق تصبح المتعة مرتبطة بهذا الانفتاح ويضحي لها من ثم طعم عطاء مجاني.

* رؤية جديدة للزواج

لا توجد صيغة للزواج، في منظور علم الاجتماع والانتروبولوجيا، تحمل صفة الشمولية. ذلك لان كل نموذج انما هو ظاهرة حضارية هي وليدة المجتمع الذي تنشأ فيه. واذا كان هناك اختلاف في مفهوم الزواج بحسب تعدد المجتمعات والبيئات على مر العصور، الا أننا نستطيع أن نرسم الخطوط العريضة لما كانت عليه المؤسسة الزوجية في الماضي القريب، ونكتشف التحولات التي شهدتها وتشهدها في الحاضر.

كان الزواج فعلاً اجتماعياً يتسنى بواسطته للمجتمع أن يمارس رقابة تضمن له سلامته ووحدته؛ ذلك لان الزواج كان ولا يزال عنصراً هاماً لتنظيم الحياة الجنسية والحيلولة دون الانفلات الخلقي الذي يهدد المجتمع، ومن هنا نشأت الانظمة والقوانين التي تهدف الى السيطرة والاحتواء. من جهة اخرى كانت الاسرة بنية اقتصادية في حياة المجتمع بحكم وظيفتها الديمغرافية (الانمائية) التي تضمن استمرار الجنس البشري، وبحكم وظيفتها الانتاجية في استثمار الملكية. وهكذا لم يكن الزواج متروكاً لهوى العواطف: آنذاك لم يكن الناس يتزوجون لانهم يحبون، وانما يحبون بعد أن يكونوا قد تزوجوا! فالمهم هو الترابط والتضامن بين الاسر والعشائر والقبائل؛ وأما الحب فهو انما نتيجة لهذا التضامن ورمزه، ينشأ ويترسخ بحكم المعايشة والمساكنة.

غير أن التحول الاجتماعي والصناعي الذي شهدته المجتمعات الغربية في أوائل القرن ١٩، وأخذت تشهده مجتمعاتنا الشرقية في السنوات الاخيرة، قلب نظام المؤسسة الزوجية رأساً على عقب: فحين عمدت المجتمعات الصناعية الى الاستئثار بوسائل الانتاج واليد العاملة، لم تعد الاسرة وحدة انتاج وانما وحدة استهلاك. وفيما كانت الاسرة منفتحة على الجماعة من خلال العلائق الاجتماعية والاقتصادية المشتركة، أضحت اليوم موزعة على قطبين: العمل والحياة العائلية. ولما كان العمل بحكم رتابته ومتطلباته وضغوطه غير قادر على ملء حاجة الانسان الى الدفء —وان حمل اليه مزيداً من الثروة والعيش الهنيء—

كان من المحتم أن تنسحب الحياة العاطفية وراء جدران الاسرة الصغيرة التي يطلق عليها اسم "الاسرة النووية". وهكذا أصبحت الاسرة "ملجأ" يحاول المرء من خلالها أن يجد له متسعاً لتحقيق ذاته، بعيداً عن هجمات العالم الخارجي.

✵ الاسرة العصرية

نحن اليوم بازاء أسر متجاورة يسعى أفرادها القلائل الى السعادة عبر حياة عاطفية حميمة تكاد تكون منغلقة على ذاتها! انه تحول جذري في المفاهيم: فبينما كانت غاية الزواج في الماضي تجنيب الاسرة تجربة الانطواء على الذات وحملها على الانفتاح على المجتمع الكبير، أصبح اليوم "ملجأ" يقطع الاسرة عن الحياة الاجتماعية! وبينما كانت الاسرة القديمة تؤكد على الروابط الاجتماعية — الاقتصادية وتقوم على مبدأ السلطة، أصبحت اليوم تجد في الحب اساساً للحياة الزوجية يقوم على مبدأ التكافؤ والمساواة. ويرجع هذا التحول بدرجة أولى الى نشوء المجتمعات الصناعية والى الهجرة من الريف الى المدينة...

الا أن هذا التحول الكبير في حياة الاسرة —وسيبرهن التاريخ على مدى صلاحه— رافقته ظاهرات هي أشبه بأزمات من شأنها أن تهدد مصير الاسرة ومستقبلها، ذلك لان الحب، وان كان عنصراً أساسياً في حياة الاسرة، يبدو احياناً وكأنه أوهى من خيط العنكبوت حين تعصف به تيارات تهدد ثباته وديمومته. ومن الظاهرات التي أفرزها النموذج الجديد للاسرة: أزمة الولادات وتصاعد الطلاق.

✵ أزمة الولادات

كان الطفل في الاسرة التقليدية شبه غائب، وغالباً ما كانت الجماعة تتعهد خطواته وتعده للنزول الى العمل، بصفته يداً عاملة تساهم في انماء الملكية، ومن هنا كان الاتجاه نحو كثرة الانجاب... أما اليوم فان الطفل يحتل مكان الصدارة في حياة الاسرة ويطلق عليه لقب "الطفل — الملك" ويستأثر باهتمام ورعاية والديه، وقد تبلغ هذه الرعاية الى حد الامتلاك والتحكم بمستقبله... وغني عن القول ما يتطلبه الطفل العصري من عناية وما يكلّف على الصعيدين التربوي والمادي، قبل ولادته وبعدها! لذا أصبح الاتجاه نحو انجاب محدود لا يتعدى في المجتمع المدني الطفلين أو الثلاثة(٣)، سيما بعد أن وضعت البحوث البيولوجية في خدمة هذا الاتجاه والوسائل المختلفة لتنظيم الولادات، بحيث لم يعد الزوجان عرضة لولادات غير مرغوب فيها. الا أن الحب الذي يحظى به الاولاد والوصاية التي يخضعون لها، في صغرهم، قد يفرزان صداماً عنيفاً بين الجيلين تتمخض عنه مآسي مريرة...

---

(٣) هبوط الولادات أصبح واقعاً في كل المجتمعات، الا أنه أكثر حدة في المجتمعات الصناعية: ففي فرنسا مثلا هبطت الولادات من ٨٥٧٢٠٠ عام ١٩٧٣ الى ٧٣٦٢٠٠ عام ١٩٧٨. وفيما تميل معظم الاسر الى انجاب طفلين، تتناقص باطراد الاسر ذات ٣ أطفال...

* تصاعد الطلاق

قلما يفكر الزوجان، في قمة اندفاع الحب بينهما، بإمكانية انحلال الرباط الـذي جمعهما، الا أن شبح الطلاق أو الافتراق يخيم على الاسرة العصرية ما أن تعرض الزوجان للمشاكل العاطفية والنفسية، و لم تكن لهما القدرة على مواجهتها ومعالجتـها في الوقـت المناسب. ويرجع تصاعد ظاهرة الطلاق في المجتمعات الغربية(٤)، وحتى في مجتمعاتنا الشرقية، الى أن الحياة الزوجية أخذت تبدو أطول فترة مما كانت عليه بحكم الزواجات المبكرة مـن جهة، وبحكم تقدم الطب الذي إطالة الحياة من جهة أخرى. الا أن هناك عاملاً أكثر أهمية: فبينما كانت الاسرة في الماضي تؤكد على وحدة الجماعة أكثر من تأكيدها علـى الحيـاة العاطفية والشركة الحبية –وكان فشل الحياة الزوجية أنذاك أقل نسبة وأقل وطأة– أصـبح الحب اليوم الاساس الوحيد الذي تقوم عليه الاسرة، وما ان بدا الحب غير قادر على تحقيق السعادة، فقدت الاسرة أهم عنصر من عناصر ديمومتها، وأصـبح الطـلاق مـن ثم –أو الافتراق– مخرجاً لا بد منه، وأصبح الزواج ثانية سبيلاً لا مناص منه للخروج من العزلـة والوحدانية...

* السعادة: حب وشركة

ليس هدفنا اقامة مفاضلة بين نموذجين للاسرة، وليس في نيتنا البحث عن بـديل للنموذج الذي تسير عليه الاسرة العصرية. الا أن جل ما نبتغيه، بعد هذا العرض، هـو أن نشير الى بعض الجوانب التي من شأنها أن تجنب الاسرة العصرية المخاطر الـتي تهـددها، وتحملها على البحث عن السعادة حيث تكمن.

في الاسرة العصرية يتخذ الحب مكان الصدارة، ويصعب اليوم تصور أسرة تعيش من دون حب! ففي اطار الحب أصبحت الاسرة اليوم أكثر عفوية لانها تعيش في مناخ من الحرية والفرح، وأكثر عقلانية لانها تتمسك باستقلالها بحرص وتقرر بنفسها اختياراتها... الا أنها في الوقت ذاته تتعرض لمشاكل ومعضلات جديدة، تبرز حدتها اليوم أكثر مما مضـى: هناك الروتين الذي يهددها باوخم العواقب، وخطر الانغلاق على المجتمع؛ وهناك أزمة الثقة التي تهدد الامانة الزوجية، والاختلاف في الرؤية والطباع والاذواق الذي يطفو على السطح بعد سنوات من الزواج، وهناك الصدامات التي تنشأ نتيجة حرص كل من الزوجين علـى حريته الشخصية واستقلاله الذاتي... الى جانب الاخفاقات التي تنتاب الحيـاة العاطفيـة

(٤) ٢٠٪ من الطلاقات تتم بعد ٢٠ سنة على الزواج! وترتفع هذه النسبة في أعقاب ٤-٧ سنوات من الزواج. وعلى سبيل المثال تشير الاحصائيات الى أن عدد الطلاقات في فرنسا كـان ٣٠٢١٨ عـام ١٩٥٤ وقفز عام ١٩٧٠ الى ٤٠٠٠٤ والى ٨١٣٣٦ عام ١٩٧٨... وفيما كانت نسـبة الطـلاق ١٢٠ حالة لكل ١٠٠٠ زواج عام ١٩٧٠ أصبحت ٢٠٤ عام ١٩٧٧...

والجنسية، والصعوبات التي تنتصب امام الزوجين تجاه الانجاب ووسائل تنظيمه وخلافاتهما حول عدد الاطفال وفترات انجابهم... ناهيك عن المشاكل التربوية التي تقض مضجعهما والمشاكل المالية والاقتصادية التي تنغص حياتهما...

وازاء كل هذه الصعوبات التي تعترض مسيرة الاسرة في عصرنا يتساءل شباب اليوم عن السعادة التي يعدهم بها الزواج؟! وفيما يحلم بعضهم بنموذج للسعادة هي أشبه باسطورة، تقوم في أسرة متحابة قوامها طفلان وبيت مؤثث وسيارة... لا أثر فيها للصعوبات المادية أو النفسية أو التربوية...، يميل بعضهم الى العدول عن فكرة الزواج وانشاء أسرة والسير في اتجاه الحب الطليق والعشرة أو المساكنة من دون أية التزامات...

السعادة ليست وصفة جاهزة، وانما هي حصيلة مسيرة طويلة على دروب الحب والمسؤولية. فالاسرة التي تبحث عنها في الثروة والعيش الرغيد، سرعان ما تمنى بخيبة أمل، لا سيما حين يقودها التهافت على المال الى قلق دائم يفرز التعاسة! والاسرة التي تظن ان السعادة تكمن في "تقنية" الحياة الجنسية فتجعل منها هدفاً، سرعان ما تكتشف أنها في وهم! وهكذا الامر في الاسرة التي ترى السعادة في ايصال اولادها الى الوظائف والمناصب الراقية، ودفعهم الى الزواج وفق مقاييس معينة، بغض النظر عن رغباتهم العميقة، وسرعان ما تظهر خيبات الامل المريرة...

ان سعادة الاسرة لا تشترى بمال ولا تتحقق بثمن "تقنية" في الحب ولا بفعل ارادة الزوجين أو تمنياتهما... وانما هي عطية تمنح لمن يعرف أن يتقبلها. انها سر لا يدركه الا أولئك الذين يعرفون أن يتقبلوا عطية الحياة بكل أبعادها، في حلوها ومرها، في أفراحها والامها... ومثل هؤلاء يدركون جيداً أن السعادة الحقة تكمن في ذاك العطاء الدائم... عطاء هو نسيج من البذل والسخاء والتضحية والفرح... "أليس العطاء أكثر غبطة من الأخذ"؟

ففي اطار العطاء يتخذ الحب بين الزوجين كل أبعاده، وبه تتحقق تلك السعادة التي تحلم بها كل أسرة. بالحب لا يكون الزواج عقداً تمليه المصالح أو وسيلة لاشباع النزوات، وانما شركة حياة وعامل تحول عميق في حياة الانسان، لانه يخرجه من عزلته ويحمله على الانفتاح على عالم الاخر والسير معاً، يداً بيد، على دروب الحياة... والحب، بمفهومه العميق، ليس انصهاراً بين شخصين تذوب فيه شخصيتهما، وانما شركة واقتسام بين شخصين وطدا العزم على قبول عطية الحياة معاً، بكل أبعادها ومتطلباتها. انه لا يمحو المسافات بينهما، وانما يحترمها ويجد فيها غنى وثراء متبادلين، ويتخطى كل الفروقات والعقبات في سبيل التلاحم والانسجام...

في الاسرة يعيش المرء تجربة الحب الفريدة حيث يشعر كل فرد أنه يحب وأنه محبوب، وهذا الحب المتبادل بين أفراد الاسرة هو حب صادق، نزيه، مخلص، معطاء... ينفي كل أشكال الانانية والامتلاك والحساب والمساومة... انه مغامرة لا يقوى عليها سوى ذوي

القلوب الكبيرة التي تتصف بالسخاء والشفافية، تكون قادرة على أن تستثمر الحب في طاقاته وامكاناته وتجعله يزداد، يوماً بعد يوم، كبرا وعلوا وعمقا... ذلك لان الحب، كالاشخاص، في حركة دائمة، ينمو ويتحول ويتطور ويتخذ كل يوم وجهاً جديداً. الا أنه في الوقت ذاته عرضة للتأرجح والتعثر والضعف والزوال... لذا فهو بحاجة، لثباته وديمومته وارتقائه، الى غير العلاقة العاطفية والى أبعد من "التقنية" الجنسية، وانما الى ذاك الحوار الدائم بين افراد متميزين ولكنهم متحدون برباط الحب. فهيهات لمعايشة أو مساكنة، مهما طالت، أن تقوى على تنمية الحب بين الزوجين -ألا تكشف المساكنة غالباً عن "عزلتين متقابلتين" يتحمل أحدهما الاخر على مضض؟-، وهيهات لاسرة لا ينعم أفرادها بمناخ من الانفتاح والحوار أن تبلغ الى الانسجام والفرح -ألا تكشف الصدامات بين الوالدين والاولاد عن غياب الثقة وانعدام الصراحة، وكأن كل طرف في واد؟ فما أن غاب الحوار عن الاسرة -وغني عن القول أن الحوار يفترض الثقة والصراحة والاحترام المتبادل...- تضاءل الحب وأصبحت حياة الاسرة اشبه بجحيم!

❋ بمثابة خاتمة!

بعد هذا العرض الذي تناول الاسرة بشكل عام، ومن وجهة النظر الاجتماعية، لا بد لنا ان نخلص الى القول بأن ليس هناك "نموذج" مثالي للاسرة، كما ليست هناك وصفات جاهزة لتحقيق "الاسرة السعيدة"! ذلك لان كل أسرة فريدة في ذاتها، بتفرد أعضائها وتميز شخصياتهم واختلاف ثقافاتهم وطموحاتهم وتطلعاتهم. فليس هناك وضع ثابت للاسرة الواحدة طالما أنها دوماً عرضة للتغييرات التي تطرأ عليها: انها في حركة مستمرة ما دامت تبدأ بشخصين وطدا العزم على الدخول في مغامرة الزواج، وتنتهي بهما عجوزين يحملان خبرات ثرية وذكريات عزيزة؛ وبين الفترتين عدد من الاولاد دعوا، الواحد تلو الاخر، الى مائدة الحياة ونموا وترعرعوا واغتنوا من الاسرة وأغنوها، ومن ثم غادروها لينشئوا بدورهم أسراً جديدة متميزة مختلفة. وهكذا نرى أن كل حدث يمر في حياة الاسرة (ولادة جديدة، تخرج، غياب، وفاة، خطوبة وزواج...) يمنحها وجهاً جديداً يحمل طابع الفرح والالم معاً: انها الحياة! من هنا يتضح جلياً أن الاسرة ليست غاية في حد ذاتها، وانما هي في خدمة الافراد الذين يؤلفونها.. انها بمثابة جسر يلتقي عليه أفراد الاسرة ليعيشوا معاً، ولفترة تطول أو تقصر، تجربة الحب والشركة. هذه التجربة الفريدة يجدر بكل أسرة أن تعيشها كاملة، في كل أبعادها.

الأب يوسف عفاص

العلاقة بين الوالدين والأولاد

بالطفل يتخذ الزواج بعداً جديداً ويصبح الزوجان "اسرة"، وتتحول العلاقة الحميمة بينهما الى علاقة ابوين باولاد هم ثمرة حبهما المتبادل، علاقة تضفي على حبهما غنى وثراء، وتتسم بالحب والحنان والرعاية والاهتمام... وحذار من ان تتحول هذه العلاقة الى شكل من اشكال الوصاية التي قد تطول الى ما شاء الله!

العلاقة بين الوالدين والاولاد تتخللها صعوبات ومشاكل وصراعات وتوترات من كل نوع وعلى كافة مراحل النمو... كيف تبنى هذه العلاقة في مرحلة الطفولة؟ ما هي العوامل التي تؤثر عليها في مرحلة المراهقة؟ واي شكل تتخذ هذه العلاقة في مرحلة الشباب؟ تساؤلات يطرحها ويجيب عنها الاب يوحنا عيسى، مخلصاً الى القول بان التربية هي اليوم علم وفن، وان علاقة سليمة بين الوالدين والاولاد ممكنة اذا ما رست على اسس تربوية جادة ورصينة.

الاب يوحنا عيسى من مواليد ١٩٤٥، خريج في معهد مار يوحنا الحبيب وكاهن منذ عام ١٩٧٠. عمل منذ عام ١٩٧٤ كاهن رعية في كنيسة مريم العذراء بالموصل وقام بنشاطات راعوية وثقافية متميزة، ولا سيما ابان ادارته للدورة اللاهوتية في الموصل ومركز التثقيف المسيحي فيها. له عدد من الكتب المعربة عن الفرنسية. هو عضو في هيئة تحرير "الفكر المسيحي" التي له فيها ٥٥ مساهمة في قضايا راعوية وتربوية وروحية، ما عدا مساهماته في بابي "من وحي الانجيل" و"اسئلة واجوبة". عين مدبراً بطريركياً على ابرشية عقرة التي يرعى عدداً من قراها.

لئن كان من اليسير أن نرسم صورة متكاملة عن العلاقة السليمة التي يجب أن تسود بين الاباء والابناء، ألا أنه من الصعب جداً ان يعيش الاباء والابناء هذه العلاقة في واقع الحياة اليومية. ذلك لان ظروفاً وعوامل تلعب دوراً هاماً في تحديد هذه العلاقة من جراء اختلاف المفاهيم والنظرات بين الجيلين.

واذا كان من العسير جداً تقديم وصفات جاهزة تصلح لكافة الوالدين وتلتقي بتطلعات كافة الاولاد —وبديهي أن كل انسان فريد في ذاته، متميز في شخصيته وطباعه وانفعالاته وتوجهاته...— الا أن هناك أسساً وقواعد، علمية وعملية، تساعد الوالدين والاولاد على اقامة علاقات حقيقية صادقة بينهم، وذلك عبر مختلف المراحل التي يمر بها الاولاد منذ ولادتهم وحتى نضوجهم الفكري والعاطفي.

وخلافاً لاعتقاد البعض، فان علاقة الوالدين بأولادهم لا تبدا بولادة الطفل، وانما تنشأ منذ الحبل به. ولا شك أن أول علاقة بين الطفل ووالديه تنشأ حين يكون الطفل مرغوباً فيه من قبل والديه، بصفته ثمرة حبهما المتبادل وعلامة ارتباطهما الوثيق. وغني عن القول ما للام، في فترة ما قبل الولادة، من أثر

كبير في تكوين الطفل تكويناً سليماً من حيث نفسيته وطباعه وميوله.. أوَلم يكن نابليون مصيباً حين قال: ان تربية الطفل تبدا قبل ولادته بعشرين عاماً: بتربية والدته؟

وهذه العلاقة تتواصل ما بعد الولادة والى زمن طويل. وفي كل مرحلة من مراحل النمو تتخذ وجهاً جديداً، تتخللها صعوبات ومتطلبات جديدة، ويتحتم على الوالدين من ثم أن يواجهوها بكثير من الحكمة ووضوح الرؤية والروية. ومما لا شك فيه أن لكل مرحلة من مراحل النمو ميزاتها وخصوصياتها ومسؤولياتها، كما أن كل مرحلة تمهد الطريق للمرحلة التالية وتكملها وتؤثر عليها. لذا كان من واجب الوالدين أن يعطوا لكل مرحلة حقها من الاهتمام ويتجنبوا تجربة "حرق" المراحل.

١. مرحلة الطفولة

تبدا مرحلة الطفولة منذ اليوم الاول لولادة الطفل حتى بلوغه سن المراهقة، أي انها تمتد لفترة أربعة عشر عاماً على وجه التقريب. وتعتبر مرحلة أساسية في حياة الانسان، اذ تتكون خلالها شخصيته وميزات طباعه واتجاهاته، وعليها تبنى المراحل اللاحقة. ومن هنا تبدو أهمية العلاقة السائدة بين الطفل وأفراد الاسرة عموماً، وبين الطفل ووالديه بشكل خاص، اذ يتوقف نموه على نوعية هذه العلاقة.

ولكي تبلغ هذه العلاقة الى المستوى المطلوب، كان لا بد للوالدين أن يلموا باصول التربية الحديثة وقواعدها وأساليبها، وهي اليوم فن قائم بذاته يتطلب كثيراً من الحس والشفافية، وعلم له أسسه ومبادئه، ويعتمد بدرجه كبيرة على الخبرة والملاحظة. ولسنا نغالي اذا قلنا بأن التوترات والصدامات التي تنشأ بين الوالدين والاولاد مردها نقص أو جهل في أساليب التربية، وفي ذلك اساءة كبرى على مستقبل الاولاد.

من الواضح أن أول علاقة يعقدها الطفل هي مع أمه، لذلك يحسن بها أن تتعرف جيداً على جملة المبادئ التي تتعلق بالرضاعة والعناية بالطفل وتكوين العادات السليمة لديه. فلا يجوز، على سبيل المثال، أن تسرع الام الى طفلها حالما يبدأ بالبكاء أو الصراخ. فذلك يخلق منه طفلاً عاتياً يحب أن يرضخ الجميع لارادته، وقد يمنى بخيبة الامل في كبره حين لا يجد من يلبي جميع طلباته ورغباته... لذا ينبغي أن تتم الرضاعة في أوقات محددة فلا تصبح الام عبدة لطفلها. ومن المهم جداً أن يشعر الطفل، خلال عملية الرضاعة، بحنان أمه وحبها، فذلك من شأنه أن يجعل منه طفلاً هادئاً منشرحاً.

* مفاهيم خاطئة لدى الوالدين

يزداد عدد الاطفال وتزداد معهم الصعوبات والمشاكل، وتتنوع العلاقة بين الاولاد من جهة، وبينهم وبين والديهم من جهة أخرى. وازاء شخصيات الاولاد المتميزة

والمختلفة، حيث لكل منهم طباعه ومواقفه وتصرفاته وسلوكيته وميوله واتجاهاته، ينتاب الوالدين قلق واضطراب ويأخذ التردد طريقه اليهم حول نوعية العلاقة التي عليهم أن يقيموها مع أولادهم.

هناك شعور لدى الاباء، يكاد يكون عاماً، بأنهم يمتلكون أولادهم، وأن لهم الحق من ثم أن يفعلوا بهم ما يشاءون... ألم يكن هذا تصرف أهلهم تجاههم؟! فيما يحمل بعضهم فكرة الوصاية على أولادهم، فيعتبرونهم قاصرين ابدا وأن عليهم أن يتدخلوا في كل شاردة أو واردة! وقد تطول هذه الوصاية الى ما شاء الله!

هناك آباء يؤمنون بضرورة بناء العلاقة مع أولادهم على الخوف: فاذا تكلم الطفل أو استفسر عن شيء، أسكتوه. واذا تعامل مع شيء، منعوه. واذا أخفق في أمر، وبخوه. واذا عصا أمراً أو بدت منه أية معارضة، ضربوه... فينشأ الطفل معقداً، قليل الثقة بنفسه وقدراته. ومثل هذه العلاقة القائمة على الخوف تشل حركة الطفل وتمنعه من تفجير طاقاته وتعيق نموه وبناء شخصيته المستقلة. وهكذا هي الحال بالنسبة الى الاباء الذين تتخذ علاقتهم باولادهم صفة التحكم والسيطرة، فيطلقون الاوامر والنواهي وينتظرون من أولادهم الامتثال لها من دون مناقشة، ومن دون أن يدرك الاولاد أسباب ودوافع هذه الاوامر والنواهي. فمن الطبيعي أن تخلق مثل هذه العلاقة الكبت والحرمان، وقد تسفر في المستقبل عن تمرد لا تحمد عقباه.

وهناك آباء آخرون يذهبون في محبة أولادهم الى حد الدلال المفرط، فيسعون الى تلبية كل حاجاتهم ومطاليبهم، ولا يقوون على وضع حد لبعض المطاليب التي تتخطى الحدود، ويترددون كثيرا في اتخاذ موقف الحزم تجاه بعض التصرفات والمواقف التي تصدر عن أولادهم. ويبلغ هذا الدلال أوَجَه تجاه الطفل الوحيد، أو حين يتعرض أحد الاطفال للمرض. ومثل هذه العلاقة تخلق اولاداً أتكاليين. ضعيفي الارادة، أنانيين... وقد ينتقم هؤلاء الاولاد من ابائهم في المستقبل، دون وعي منهم، فيما يبقى الاباء في حيرة ودهشة من أمرهم!

❋ المفهوم الصحيح عن الطفل

وازاء هذه المفاهيم والمواقف —ولم نُلمّ الا بالنزر اليسير منها— لا بد من البحث عن بديل. ولعل أول خطوة في طريق المفهوم الصحيح عن الطفل، تقوم في أن يتخلى الوالدون عن اعتبار الولد، مهما كان صغيراً، جزءاً من متاع الاسرة أو دمية في يدهم يتصرفون بها كيف يشاءون! فالطفل هو هبة الله لوالديه، وهو من ثم شخص متميز مستقل، له شخصيته وارادته وحريته، ويجب أن تصان كرامته وسيادته على ذاته واستقلاليته.

من هذا المنطلق تبنى العلاقة السليمة بين الطفل ووالديه، وعلى هذا الاساس يتوجب على الوالدين أن يتحاشوا كل ما من شأنه أن يسحق الطفل أو يستصغره أو يحتقره

أو يزدري به، ويتجنبوا كل ما من شأنه أن يخلق فيه العقد النفسية ويعرضه للكبت والحرمان... بل بالعكس عليهم أن يبذلوا كل ما في وسعهم لمساعدته على انماء شخصيته انماء كاملاً وعلى عيش انسانيته بشكل تام. ولا شك أن أولى الواجبات التي تترتب على الاهل، هي معرفة نفسية الطفل واكتشاف طباعه وميوله واتجاهاته، عبر معايشه جادة له في حالاته النفسية ومواقفه وردود فعله، وعبر مراقبته عن كثب في النشاطات والممارسات والالعاب التي يقوم بها، وأخيراً عبر محادثته والحوار معه وذلك بالاصغاء الى حكاياته وتساؤلاته والاجابة عنها بما يلائم عقليته ومداركه...

وانه لمن الضروري جداً أن يخلق الوالدان في الاسرة جواً من الالفة والإنفتاح والثقة والفرح، يتاح فيه للطفل أن يقيم علاقات مع والديه واخوانه واخواته تتسم بالثقة والصراحة والعفوية، فتتحول العلاقة بينهم من علاقة أبوة وبنوة وأخوة الى علاقة صداقة.

* في المدرسة والمجتمع

ان علاقة الطفل لا تقتصر على الاهل وحدهم، وانما تتعداهم الى الزملاء والاصدقاء في المدرسة والمجتمع. فما أن يبلغ الطفل سن الخامسة حتى يجد ذاته في محيط آخر يختلف عن محيط الاسرة، ألا وهو المدرسة. وفي هذه البيئة الجديدة سيتعرف الطفل على أشخاص جدد، من معلمين وزملاء، ويعقد معهم علاقات تتفاوت في الصيغة والشكل، وسيصادف مشاكل وقضايا جديدة تثير تساؤلاته، ويتعلم مواقف وعادات، ويتعرض لقيم وافكار تتسرب الى ذهنه وسلوكيته... ويتحتم عليه من ثم أن يعيش ويتكيف مع هذه البيئة الجديدة، وفي الوقت ذاته ينشا لديه شكل من الصراع بين ما تلقاه في الاسرة وما يتلقاه من المدرسة والمجتمع عبرمعاشرة زملائه وأصدقائه، وعبر مطالعاته ومشاهداته.

وازاء هذا التحول الذي يعيشه الطفل الكبير من جراء خروجه الى المجتمع الاكبر، يتوجب على الاهل أن يبدوا اهتماماً متزايداً بالتطورات التي تطرأ على طفلهم في هذه المرحلة الجديدة من حياته: عليهم أن يكونوا على اتصال دائم بالمدرسة ويبدوا تعاونا وثيقاً مع المعلمين الذين يواصلون تربية طفلهم على الصعيدين الدراسي والخلقي. كما أن عليهم أن يتابعوا طفلهم بشأن الاصدقاء الذين يختارهم ويعاشرهم، ويحرصوا على ملاحظة الكتب والمجلات التي يقرأها والبرامج التي يشاهدها، ويسدوا له النصح والتوجيه، من دون أن يشعر أنهم يراقبونه أو يتدخلون في شؤونه... ويتم ذلك بروح المحبة والمسؤولية التي من شأنها أن تحمل الطفل على النضوج وتكوين شخصية متوازنة متكاملة.

٢. مرحلة المراهقة

يبدا التحول الكبير في حياة الطفل حين يدخل مرحلة المراهقة التي تمتد من سن

الرابعة عشرة الى الثامنة عشرة، وأحياناً الى ما بعدها. وفي هذه المرحلة ينتقل الطفل الى مرحلة الرشد والنضج، وعلى كافة المستويات البدنية والعاطفية والفكرية والدينية... انها فترة التحولات التي يعاني منها الاباء والابناء على حد سواء، ولذا يجب أن تحاط بكثير من العناية والاهتمام.

فمن الناحية البدنية، تطرأ على المراهق أو المراهقة تحولات وتغييرات تنعكس في فكرهما وجسدهما، فيشعر الفتى أنه أصبح رجلاً يفاخر برجولته وقدراته الذكورية، وتشعر الفتاة أنها أصبحت "امرأة" تعتز بانوثتها وتفاخر بأنها قادرة على الحب والعطاء.

وتتميز فترة المراهقة من الناحيتين النفسية والعاطفية بعدم الثبات والاستقرار في العواطف والمشاعر. ويطرأ على المراهق أو المراهقة تبدل فجائي في طباعهما وميولهما وأذواقهما وهواياتهما... فمن مرح أحياناً، اذا به يخرج عن صوابه فيغضب ويشاكس ويتنازع... ومن فتاة هادئة طيعة، اذا بها تتحول الى فتاة صاخبة حيناً ومنغلقة أحياناً، تتألم وتبكي لاقل كلمة تجرح حسها المرهف... وفي هذه المرحلة يعبر المرهق أو المراهقة عن انفعالاتهما بشتى الوسائل والطرق، فتبرز الصراعات والتوترات والمواقف العدوانية...

ومن الناحية الفكرية تبرز استقلالية المراهق أو المراهقة في الرأي والفكر والسلوك، وتنعكس هذه الاستقلالية في موقف الرفض تجاه كل ما يفرض عليهما من اراء ومفاهيم وقيم وممارسات، وذلك بهدف أثبات الذات والتعبير عن الشخصية. وكثيراً ما يسفر هذا الرفض عن التمرد والثورة اذا ما شعر المراهق أو المراهقة بان حريتهما تتعرض للاستلاب، وأن استقلاليتهما تتعرض للاغتصاب؛ وغني عن القول أن موقف الرفض يشمل المبادئ والمفاهيم والممارسات الدينية ذاتها، كما يشمل العادات والتقاليد والقيود الاجتماعية.

* الوالدون تجاه اولادهم المراهقين

ازاء كل هذه التحولات العميقة التي تطرأ على المراهقين، يقف العديد من الاباء والامهات موقف الحيرة والدهشة، وكثيراً ما يبدون وكأنهم مكتوفي الايدي، يتالمون بصمت احياناً ويخرجون عن طورهم أحياناً أخرى، وغالباً ما يفصحون عن عجزهم في معالجة هذه الظاهرة، أو يمنّون النفس بزوال الازمة ويدعونها للزمن!

ان على الوالدين مسؤولية جسيمة تجاه اولادهم المراهقين في هذه المرحلة الهامة من حياتهم. فاذا عرفوا ان يقفوا الموقف السليم من التحولات التي يعيشها أولادهم، اجتاز هؤلاء هذه المرحلة بهدوء وسلام وتسنى لهم أن يشقوا طريقهم الى النضج. ولا شك ان أولى الخطوات في هذا المضمار أن يسعى الوالدون الى خلق جو عائلي تسوده الحرية والمحبة والثقة، جو يتسنى للمراهقين فيه أن يفصحوا عن معاناتهم بثقة وصراحة، ويتسنى للوالدين من ثم أن يصغوا اليهم باهتمام ويسدوا لهم النصح والتوجيه.

وفي هذه المرحلة العصيبة، يجدر بالاباء والامهات أن يبذلوا كل ما في وسعهم لمعرفة أولادهم معرفة جادة والوقوف على الاسباب العميقة لتصرفاتهم وسلوكهم، فيتجنبوا كل ما من شأنه أن يضيق الخناق عليهم أو يحملهم على التمرد أو السلوك العدواني، ويسعوا الى تحويل التساؤلات ومواقف الرفض التي تظهر لديهم الى فرص للحوار البناء، سيما وان هذا الرفض هو الطريق لتكوين القناعات الاساسية في مختلف المجالات. ونعني بالحوار محاولة المرء فهم الاخر وقبوله كما هو، وإن اختلف عنه في شخصيته وتفكيره وارائه: مثل هذا الحوار يجب أن يتم بين الوالدين وأولادهم حول كافة القضايا والمشاكل الحياتية ولا سيما تلك التي تخص المراهقين.

وهنا نلفت انتباه الاباء والامهات الى ضرورة القيام بتوعية عاطفية وجنسية رصينة تعتمد المبادئ العلمية والنفسية وتتصف بالصراحة والموضوعية، بعيداً عن كل أساليب التمويه أو الكذب. ذلك لان الحياة الجنسية، بمفهومها الانساني، بعد في حياة الانسان، ويترتب على المرء من ثم أن يدرك قيمتها واصولها ومتطلباتها... فاذا لم يفعل الوالدون هذه التوعية، سعى الاولاد اليها بطرق أخرى، سواء عبر الاصدقاء أم عبر الكتب والمجلات الرخيصة والافلام —وما أكثرها وأحطها مستوى— فتكون العواقب اكثر سوءا.

وليدرك الوالدون أخيراً بان عليهم أن يدَعوا باب المناقشة مفتوحاً دوماً بينهم وبين أولادهم حول مختلف القضايا التي تثير تساؤلاتهم وشكوكهم، وفي مقدمتها القضايا والممارسات الدينية، حتى وان برزت الخلافات في وجهات النظر. وعليهم أن يعلموا بان هذه الاختلافات طبيعية وأن من شأنها أن تؤدي الى قناعات جديدة جادة.

٣. مرحلة الشباب

بعد فترة المراهقة التي تخللتها العثرات والكبوات، يبلغ المرء الى عنفوان الشباب، وتبدأ مرحلة الشباب من سن الثامنة عشرة وحتى الاربعين. وفي هذه المرحلة تتجه أنظار الشباب والشابات نحو المستقبل ويأخذون في التخطيط لاختيار نمط الحياة الذي يريدون أن يعيشوه، على صعيد الحياة الدراسية أو الوظيفية أو المهنية. وفي خلال هذه المرحلة تتبلور اتجاهاتهم بشأن اختيار شريك الحياة وتتحدد مفاهيمهم عن الزواج والاسرة.

وفي هذا المنعطف المصيري من حياة الشباب، تتخذ علاقة الشباب بذويهم مساراً جديداً: ففيما يقف بعض الوالدين موقف التفهم والاحترام لاختيارات أولادهم، يسعى بعضهم الاخر الى تمديد الوصاية عليهم، فيعمدوا الى التدخل في اختياراتهم من خلال عملية التأثير وفرض الرأي عليهم في قضايا يعود فيها القرار اليهم بالدرجة الاولى، وفي قضية الزواج بنوع خاص. ولا عجب أن يلجأ الشباب الى الرفض والتحدي سيما حين يكون تدخل الاباء والامهات بدوافع واهية تمليها المصالح والاعتبارات التي تخلو من أساس.

وحينذاك يحق للشباب أن يتمسكوا بحريتهم ويحرصوا على استقلالهم فيشقوا الطريق الذي اختاروه لانفسهم.

ان مرحلة الشباب لا تخلو من هذه الصراعات، وعلى مختلف المستويات، الا أن المهم هو أن يسعى كل طرف الى احترام حرية الطرف الاخر. فاذا كان من حق الاهل وواجبهم أن يسدوا لاولادهم النصح والتوجيه السليم، فان من حق الاولاد أيضاً ان يتمتعوا بقسط كاف من الحرية في اختياراتهم وقرارهم. ولكي تتسم هذه العلاقة بين الاباء والابناء بالاحترام والثقة والمحبة لا بد من اعتراف متبادل بين الطرفين: فيقبل الاهل، من جهة، بالمعطيات الجديدة التي يعيشها أبناؤهم ويتفاعلوا معها، متخلّين عن القوالب الجامدة والنماذج الثابتة التي ساروا عليها في الماضي... ويتفهم الابناء، من جهة أخرى، اباءهم الذين نشأوا في جيل يختلف عن جيلهم وتربوا في مناخ غير مناخهم، ويتوجب عليهم من ثم ألا يرفضوا كل ما هو قديم لدى آبائهم بحجة أنه قديم، في محاولة لاكتشاف ما فيه من أصالة وبعد.

* من أجل علاقة سليمة بين الآباء والأبناء

بعد هذا العرض السريع، تتضح لنا حقيقة واحدة وهي أن العلاقة بين الاباء والابناء ليست بالامر الهين، فهي تصطدم في الواقع بصعوبات كبيرة وتتعرض لتوترات وصراعات عنيفة لا مناص منها... ومع ذلك يمكننا القول بانه من الممكن أن تقوم علاقة سليمة اذا ما بنيت على أسس تربوية قويمة. الا أن مثل هذه العلاقة تتطلب جهداً كبيراً من قبل الوالدين لمعرفة أصول وقواعد التربية الحديثة التي هي اليوم علم وفن، كما انها تتطلب من جانب الابناء جهداً مماثلاً للتجاوب مع التوجيهات التي يسديها لهم اباؤهم. ولا شك أن المحبة المتبادلة هي وحدها قادرة على تقليص المسافات بين جيل الاباء والابناء وبناء علاقة تتسم بالحب والاحترام والثقة المتبادلة.

الاب يوحنا عيسى

أين نحن من التربية الجنسية السليمة؟

في التربية السليمة جانب لا يمنحه الوالدون ما يستحقه من العناية، وكثيرا ما يبدو وكأنه "تابو" يحاط بحجم كبير من الكتمان والتحفظ والحذر، ولا عجب من ثم اذا ما ظهرت العقد ونشأت الانحرافات... أليس الجنس بعدا خطيراً في حياة الانسان؟ أليست التوعية الجنسية عنصراً هاماً من عناصر التربية المتكاملة؟ وهل هناك من هم اكثر جدارة من الوالدين بالقيام بهذه المهمة؟ أوَليس من الاصلح ان يضطلع الوالدون بهذه التوعية، فلا تترك للاصدقاء او للمجلات والكتب الرخيصة او للزمن؟!

الى هذا الجانب لفت الاستاذ صباح حنا بشي انتباه الوالدين والمربين، عبر استعراض سريع للتحولات التي ترافق النمو الجنسي في مرحلتي الطفولة والمراهقة، تتخلله توجيهات عملية من شأنها ان تساعد الوالدين والمربين على الاضطلاع بمسؤولياتهم التربوية تجاه النشء الجديد، وفي موضوع حيوي.

صباح حنا بشي، ماجستير في التربة وعلم النفس، ومدرس في كلية التربية بجامعة الموصل. له مؤلفات وبحوث في مجلات علمية متخصصة، فضلاً عن ١١ مساهمة في "الفكر المسيحي"، في القضايا النفسية والتربوية.

* مقدمة

قد آن الاوان لمجتمعنا أن يعترف بأهمية التربية الجنسية، وللمسؤولين عن تربية النشء أن ينظروا الى هذا الموضوع كجزء مكمّل للعملية التربوية، لينمو الفرد نمواً سليماً في عصر تفرز فيه المدنية أشكالاً من الضغوط والاستثارة، تعرّض المراهق للارتباكات في نشاطه العقلي والاجتماعي والانفعالي. واذا كان من الطبيعي أن يهتم الفرد بالمسائل الجنسية في كل مراحل نموه، فالكبار يشعرون بالحرج والخجل حين يسالهم الصغار والمراهقون عن الامور الجنسية.

ومن المسلّم به اذا أحيط النمو الجنسي بغلاف من التحريم والكتمان والتمويه، واذا أغمض الوالدون والمربون أعينهم وصموا آذانهم وكموا أفواههم عن تربية أولادهم الجنسية بوصفها جزءاً من عملية التربية ككل، بحث هؤلاء عن مصادر أخرى لإشباع فضولهم في هذا الموضوع واتجهوا الى أدعياء المعرفة، وربما الى الافلام والصور والكتب الجنسية التجارية. وتكون النتيجة المؤسفة حينذاك معلومات خاطئة، ووقوع في تجارب مربكة وسابقة لاوانها، وشعور بالاشمئزاز والاثم والخطيئة، وخوف وقلق وانحرافات واضطرابات نفسية...

نحن نعلم أن الاطفال والمراهقين لا يظلون على جهل تام بالامور الجنسية، فقلما تزوج فتى أو فتاة دون أن يعرفا شيئاً عن هذه الامور. غير اننا لا نعرف متى حصلت هذه المعرفة، ومن أين أتت، وكيف أتت، ومدى صحة المعلومات. ولو فرضنا جدلاً أن الطفل ظل جاهلاً بالمسائل الجنسية، فان الاحاسيس الجنسية، حين تتدفق مع المراهقة فجاة وبعنف، قد تزعجه وتخيفه فيما بعد، وقد يتبع ذلك، الانحراف أو الشقاء الزوجي والامراض النفسية.. ومن كل ذلك نلمس مدى الحاجة الى التربية الجنسية. فهذا الموضوع يهم الاباء والمدرسين وكل من له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بتنشئة الجيل الناشئ والمراهقين أنفسهم. ويجب النظر الى الحقائق الجنسية على أنها أمور طبيعية، وان بامكان المربين أن يلقنوها لابنائهم وطلابهم بشكل مبسط وواضح.

❋ النمو الجنسي عبر مرحلتي الطفولة والمراهقة

أولاً" مرحلة الطفولة المبكرة (٢-٦ سنوات):

- يزداد الفضول وحب الاستطلاع الجنسي ويصبح الاهتمام مركزاً في الجهاز التناسلي.
- كثرة الاسئلة المتعلقة باختلاف الجنسين، وكيفية الولادة.
- يشترك بعض الاطفال في اللعب الجنسي خاصة في الرابعة (يقوم أحدهم بدور العريس والاخر بدور العروس ويستعرضون أعضاءهم التناسلية).
- تظهر عقدة أوديب (الابن يفضل أمه ويتعلق بها ويغار من أبيه. نسمع الابن أحياناً يقول لامه: عندما أكبر سأتزوج ماما)، وعند البنات عقدة الكترا.

ثانياً: الطفولة الوسطى (٦-٩):

- تنمو الاعضاء التناسلية بمعدل ابطأ، وينشغل الاطفال بنشاطات أخرى.
- قد تزداد مناقشات الاطفال حول الامور الجنسية.
- حب الاستطلاع الجنسي لدى الاطفال واستطلاع الجسم ووظائفه ومعرفة الفروق بين الجنسين. ميل الى بعض التجارب الجنسية.

ثالثاً: الطفولة المتأخرة (٩-١٢ مرحلة ما قبل البلوغ الجنسي):

- معظم الاهتمام الجنسي يبقى كامناً أو موجهاً نحو نفس الجنس.
- تتحدد الاسئلة الخاصة بالولادة والجنس والجماع، ويلاحظ اللعب الجنسي وممارسة العادة السرية لتخفيف التوتر.

- قد يحدث التجريب الجنسي، وغالباً ما يكون مع أفراد من نفس الجنس، ونجد الاطفال يعرضون أعضاءهم التناسلية على بعضهم لعلهم يدركون مدى تشابههم أو اختلافهم.

رابعاً: مرحلة المراهقة المبكرة (١٢-١٥):

- يحدث البلوغ الجنسي لدى الذكور والاناث وتظهر الاعراض الجنسية الثانوية (كتغيير الصوت وظهور الشعر في مناطقٌ معينة من الجسم الخ...).
- يشعر المراهق بالدافع الجنسي، ولكنه يكون في أول الامر على شكل ولاء أو إعجاب بشخص أكبر منه سناً ومن نفس الجنس (صديق، مدرس، اب، مدرسة، ممثل).
- يتحول الميل الجنسي تدريجياً الى الجنس الاخر، فيتعلق الفتى بأحدى جاراته أو قريباته أو بنجمة من نجوم الفن والمجتمع، ويأخذ الشعور الجنسي مجراه الطبيعي.
- تتميز العلاقات بين الجنسين بسيادة الحب العذري الخالية من أية اثارة جنسية جانحة، فيوصف الحب بالاخ والاخت والملاك، ويخفف من حدة التوتر بمزاولة العادة السرية.
- يكون الاهتمام الجنسي لدى البنين موجهاً بالاكثر نحو الاتصال الجسمي، بينما تفضل الفتيات الاتصال الانفعالي.
- سيادة التفكير الجنسي والسعي وراء الجنس الاخر أينما وجد (تجمهر حول مدارس البنات، في شوارع أسواق السرجخانة في الموصل وشارع النهر في بغداد). ويلاحظ الفضول الجنسي والرغبة في التعرف على حقيقة الحياة الجنسية والاكثار من الاحاديث والقراءات والنكات الجنسية.

خامساً: مرحلة المراهقة الوسطى (١٥-١٧):

- تزداد الانفعالات الجنسية وتتوجه نحو الجنس الاخر. الاكثار من الاحاديث والقراءات والمشاهدات الجنسية، ويصبح المراهق شديد الاهتمام والميل الى أعضاء الجنس الاخر ويحب التسامر معهم، ويميل الفتى الى النظر الى مفاتن المرأة وأعضاء جسمها وكله شهوة ورغبة.
- يلاحظ الحب المتعدد والرغبة في جذب انتباه الجنس الاخر ومشاكسته.
- في نهاية المرحلة يصل الذكور والاناث الى النضج الجنسي، ويلاحظ أن البنين يسبقون الفتيات في النشاط الجنسي ويصلون الى قمة طاقتهم الجنسية في هذه المرحلة، بينما تتأخر الاناث.

سادساً: مرحلة المراهقة المتأخرة (١٨-٢١):

- يزداد الارتباط بين الجنسين، وتزداد المشاعر الجنسية خصوبة وتندمج مشاعر الرغبة الجنسية مع الحب والتقدير والرعاية والرفق، ويلاحظ التخفيف من وتيرة العادة السرية وزيادة الحلم الجنسي عند من يقللون من العادة السرية.
- يبحث المراهق عن رفيق يكمل شخصيته ويشبع حاجته العاطفية مع الميل اليه بنظرة مثالية، ويلاحظ الاتجاه نحو الزواج والاستقرار العاطفي والاسري. وقد تحدث الخطوبة عند الاناث بنسبة أكبر مما عند الذكور في هذه المرحلة، وتشعر الفتيات بقلق أكبر من البنين تجاه الزواج، وتكون علاقاتهن مع المدرسين أقوى مما عند البنين.
- الصفات المفضلة في شريك الحياة (لكلا الجنسين) الصحة النفسية والجسمية، النضج الانفعالي، حسن المظهر الشخصي، دماثة الخلق، الرغبة في تكوين الاسرة، الثقة المتبادلة، تقارب الميول والاتجاهات والمعتقدات، القدرة على تحمل المسؤولية، الكفاءة الجنسية.

❋ واقع التربية في مجتمعنا

بهدف تعريف القارئ بأسلوب التربية الجنسية السائد في مجتمعنا، نورد بعض نتائج دراسات تناولت مشكلات طلبة المدارس الثانوية والجامعة في العراق

أ. اراء طلبة المدارس الثانوية:

لقد كشفت دراسة السواد (اطروحة ماجستير—مقارنة لمشكلات طلاب المدارس الاعدادية في بغدلد وضواحيها-١٩٦٨) عن تذمر٤٩% من طلبة بغداد و ٤٤% من طلبة الريف من أن الامور الجنسية أخذت تشغلهم عن تأدية واجباتهم الدينية، وأنهم لا يعرفون كيف يصارحون فتاة يحبونها، وان نصف الطلبة يفكرون باستمرار في فتاة معينة يميلون اليها، وأن حوالي نصف الطلبة يرتبكون عندما يتحدثون مع الفتيات، ولا يجدون مجالاً للاختلاط بالجنس الاخر. وأن نسبة أكبر من الطلبة تقلقهم سيطرة الافكار الجنسية وعدم قدرتهم على التخلص منها. كما أشارت نسبة كبيرة من الطلبة بان معظم معلوماتهم الجنسية يحصلون عليها من أصدقائهم. وأبدى طلبة آخرون قلقهم لان الامور الجنسية أخذت تشغلهم عن الدراسة. كما أن احدى مشكلاتهم هي أنهم لا يرتاحون في مجلس فيه فتيات. وقد أكد ثلث الطلبة حاجتهم الى معرفة ما اذا كانوا طبيعيين جنسياً. وذكر آخرون أنهم لا يستطيعون التصريح بحبهم لفتاة خوفاً من إشاعات الناس. ولا يستطيعون التوجه الى الوالدين في مشاكلهم الجنسية، ويشعرون بضيق لان أحلامهم تدور حول العلاقات الجنسية.

وبينت دراسة الغلفي (أطروحة ماجستير عن مشكلات طلبة الصف السادس الثانوي في المدارس الثانوية المسائية في بغداد-١٩٧٥) أن نسبة كبيرة من الطلبة يعانون من السرحان اثناء الدرس بسبب معاناتهم من مشكلات عاطفية وجنسية تعيقهم عن الدراسة.

أما دراسة لفته (اطروحة ماجستير حول معاملة الوالدين وأثرها على جنوح أبنائهم-١٩٧٣) فقد أظهرت أن ٢٠% من الجنح التي أودع بسببها الاحداث الجانحون المدرسة الاصلاحية، كانت جنسية. وأظهرت الدراسة أن آباء وامهات الجانحين لا يميزون في معاملة اولادهم، سواء كانوا في العاشرة من عمرهم أم في السادسة عشرة.

بينما أبرزت دراسة الزوبعي واسكندر عام١٩٧١ أن نسبة كبيرة من طلبة الصف السادس الثانوي في العراق يشكون من عدم تحبيذ المجتمع العراقي للاختلاط، كما يشغلهم التفكير بالجنس وتسيطر عليهم أفكار جنسية لا يستطيعون التخلص منها.

ب. أراء طلبة الجامعة:

لقد اوضحت الدراسة التي قام بها أبو الحب عام١٩٧٦ على طلبة الجامعة في العراق أن ٩٣% من الذكور يرون أن الامور الجنسية شيء تعيس. وأن ٨٢% من الاناث أشرن الى أنها مشكلة نفسية معقدة. وقد أوضح ٦١% من الاناث أن الامور الجنسية أمر غامض مخيف.

أما دراسة السواد (مشكلات التكيف لدى الطلبة الجدد لكليات جامعة الموصل-١٩٧٨) فقد كشفت عن تذمر ثلثي الطلبة من عدم وجود أجواء مناسبة للاختلاط بين الجنسين. بينما أشار ٧٩% من الطلبه أن العلاقة بين الطالب والطالبة في الجامعة سرعان ما توضع موضع ريب وشك من قبل الآخرين. بينما أكد ٥٠% أنه ليس من السهل تكوين علاقة صداقة مع الجنس الاخر.

وقد بينت نتائج دراسة هرمز (اطروحة ماجستير-١٩٧٥) تذمر أغلب الطلبة العرب الذين يدرسون في جامعة بغداد من تفسير الطلبة العراقيين مفهوم الاختلاط بالجنس الاخر تفسيراً جنسياً، ويشكو أكثر من ثلاثة أرباعهم من عدم تحبيذ المجتمع العراقي للاختلاط بين الجنسين، وكذلك من انعدام العلاقات العاطفية بين الجنسين، وانشغال تفكيرهم بالجنس وحده.

* كيف نوجه النشء نحو تربية جنسية سليمة

(١) يجب أن تُقدَّم التربية الجنسية في المترل والمدرسة وفي كل مؤسسة مسؤولة عن التربية، ولا تقتصر على سن معينة، بل تبدا منذ الطفولة وتستمر خلالها وفي مرحلة المراهقة حتى الرشد. ويجب أن يشعر الطفل بالطمأنينة ويزود بالحقائق

والمعلومات الضرورية التي توافق سنه ويسأل عنها.

(٢) اعتبار النمو الجنسي والجانب الجنسي جزءاً اعتيادياً من الحياة، وليس أمراً شاذا أو قبيحاً، وتجنيب الطفل أي شعور بالاثم والخطيئة، وتعريفه بالفروق بين الجنسين والعمل على أن يتقبل دوره الجنسي، أي كونه ذكراً أو أنثى، بطمأنينة.

(٣) التربية المختلطة ضرورية للتربية الجنسية، لا سيما في المرحلة الابتدائية، فان كان يراد بالمدرسة أن تكون صورة للمجتمع، فيجب أن تكون صورة حقيقية.

(٤) الاعداد التربوي السليم لاستقبال التغييرات الجنسية التي ستظهر في مستهل مرحلة المراهقة وملاحظة الاضطرابات وعلاجها مبكراً. وعلاج مواقف اللعب الجنسي بحكمة، بتحويل نشاطات الطفل الى نشاط بناء آخر. كاللعب والتفاعل الاجتماعي، فذلك أجدى من العقاب.

(٥) يجب أن يعطى التوجيه الجنسي جماعياً مع اعطاء فرصة للاستيضاحات الفردية، ففي التوجيه الجماعي ميزة التغلب على الخجل. ويمكن الاستعانة ببعض الافلام العلمية المتخصصة والافادة من الكتب العلمية المبسطة لتكون في متناول الوالدين والمربين والشباب. كما يحسن ان لا تكون التربية الجنسية مادة قائمة بذاتها، بل تعطى ضمن المواد الاخرى كالاحياء والصحة والدين الخ ..

(٦) حماية المراهقين من المؤثرات الاجتماعية المنحرفة، ومراقبة ما يقدم لهم من مثيرات غير مسؤولة وتوجيههم نحو تجنب المواقف التي تؤدي الى الاستثارة الجنسية، ومساعدتهم على التخلص من العادة السرية وتشجيعهم على ضبط النفس والتحكم في الرغبات. وعلى الفتيات أن يدركن حقيقة منسية وهي سهولة استثارة البنين، وذلك لكي يركنَّ الى الفطنة في تصرفاتهن، وعلى الفتيان أن يدركوا عمق ما تشعر به الفتيات والتمسك بالتعاليم الدينية الواعية والمعايير الاجتماعية.

(٧) تزويد المراهق بمعلومات عن عناصر الحياة الزوجية وفهم الخصائص الانفعالية للجنسين والتأكيد على أن العلاقات الجنسية ليست الا جزءاً من الحياة الزوجية، وأنها ليست كل شيء في الحياة الزوجية. يضاف الى ذلك ترسيخ الشعور الطبيعي للفهم المتبادل بين البنين والبنات وحثهم على الانشطة المشتركة، فتكون الصداقة البريئة فرصة ليقدر كل منهم مزايا أفراد الجنس الاخر وقدراته.

(٨) وأخيراً يجب أن يتربى الاباء والمربون المسؤولون عن تربية النشء تربية جنسية صحيحة أكثر من غيرهم لخطورة تأثيرهم الاول والمستمر على الاطفال والمراهقين؛ والسبيل الى ذلك، مثلاً، الاشتراك في حلقات دراسية حول هذه المواضيع ومنحهم فرص المناقشة وتبادل الرأي.

صباح حنا بشي

مفهوم الانسان
على ضوء سر الزواج

خلقهما ذكراً وانثى... ويكونان كلاهما جسداً واحداً... ما جمعه الله لا يفرقه الانسان...". فالى بدء الخليقة ذهب المسيح ليكشف عن رؤيته للزواج في وحدته وديمومته، بعيداً عن الانحرافات والتشويهات التي لحقت به على مر الاجيال، بفعل رعونة البشر وقساوة قلوبهم... انه "سر" اتحاد الرجل بالمرأة، اتحاد هو ثمرة الحب المتبادل بينهما... اتحاد يجد في الانجاب معناه العميق... اتحاد يتخذ اعلانه شكل "مؤسسة" يجب الحفاظ عليها من العبث.

ابعاد ثلاثة للزواج يستخلصها الاب عبد السلام حلوة في ضوء النصوص الكتابية، ويضفي عليها سر الزواج بعداً روحياً يجعل من الزوجين شاهدين لحب الله.

يحتوي التقاء الرجل والمرأة على نوع من التوتر والتناقض بين حالة مثالية يتحسسانها من خلال الاحلام والرغبات التي تراودهما، وبين حالة واقعية يعيشانها فعلياً بعظمتها وببؤسها أيضاً، أو بفشلها، أحياناً أخرى.

فالعامل الجنسي الذي يؤثر بصورة عميقة على الفرد الانساني قد نُظر اليه كشيء مدهش وعجيب، ولكنه غامض في الوقت عينه، ومن الصعوبة تعريفه وتحديد دوره بدقة. فالانسان يريد استعجال قدوم السعادة في الالتقاء العاطفي كي يحقق الجنة التي طالما حلم بها ورغب فيها، ولكنه يحس في الوقت نفسه بالعقبات الكثيرة التي تعترضه، مما يسوقه الى التفكير بأن مثل هذه الجنة صعبة المنال. فالانسان في الزواج يعيش بصورة مشتتة بين متطلبات رغباته غير الخاضعة لقوانين وأنظمة معينة، وبين ارادته كانسان عاقل يرغب في عيش الامانة الزوجية بصورة هادئة، أي أنه منجذب في آن واحد بين الرغبة التي تدفعه الى خوض مغامرات حسية غير مرتبطة بالانجاب، وبين حالة تضطرّه الى الاخصاب المسؤول. من أجل ذلك نلاحظ أن انساننا المعاصر يعيش نوعاً من خيبة الامل في الوصول الى سعادة حقيقية في هذا العالم الجنسي، بالرغم

من كون العامل الجنسي واحداً من المعطيات الاساسية للوجود الانساني.

ان سر الزواج هنا يكشف لنا عن الابعاد العميقة الكامنة في هذا الالتقاء العاطفي الذي يتم بدافع الحب والرغبة بين الرجل والمرأة.

في العصور المسيحية الاولى كان المسيحيون يتزوجون مثل الآخرين، من دون أي تمييز أو أطر خاصة. فهم لم يتحسسوا أهمية تأليف طقس خاص للزواج، وكانوا يمارسون عادات وطقوس الزواج الموجودة لدى الشعوب التي ينتمون اليها قبل اهتدائهم الى الدين المسيحي. فلقد كانوا يكتفون بتطهير هذه العادات والطقوس من شوائب الوثنية كتقدمة الذبيحة للالهة وغير ذلك من الممارسات التي لا تلائم العقيدة المسيحية أو أخلاقيتها. والذي جعل الزواج "سراً" بالنسبة للمسيحيين الاولين هو تبادل الاتفاق بين الزوجين المعمَّدَين. واذا لم تكن ثمة بركة طقسية للزواج انذاك، فالمسيحيون الاولون كانوا يعلمون بأن التقاءهم في الزواج يحمل خاصية مميزة، وأنه يتم بالمسيح، وان هذا الاتحاد، حسب قول القديس بولس في رسالته الى أهل أفسس، هو علامة لاتحاد آخر أكثر قوة وعمقاً، ألا وهو اتحاد المسيح بالكنيسة:

"أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة وبذل نفسه من أجلها ليقدسها مطهراً أياها بغسل الماء والكلمة، ليهديها لنفسه كنيسة مجيدة لا كلف فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك، بل تكون مقدسة منزهة عن كل عيب. فكذلك يجب على الرجال ان يحبوا نساءهم كاجسادهم. من أحب امرأته احب نفسه... لذلك يترك الرجل اباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران كلاهما جسداً واحداً. أن هذا لسر عظيم. اقول هذا بالنسبة الى المسيح والكنيسة".(أفسس ٥:٢٥-٣٢)

على ضوء هذا النص الشهير نطرح أبعاداً ثلاثة للزواج:

❋ الحب

لم يقدم لنا المسيح أي تعليم متميز عن الزواج من زاويته الانسانية. فيسوع يجيب تلاميذه على سؤالهم حول الموضوع بقوله: "في البدء خلق الله الانسان، رجلاً وأمرأة خلقهما، ولا يفرق الانسان ما وحده الله" (متى ١٩:٨). وبذلك يذهب المسيح ابعد من الشريعة الموسوية: الى بدء الامور.

لنعد الى نصوص الكتاب المقدس في هذا الخصوص، تلك النصوص التي تحمل بوضوح عناصر ملموسة عن أصل الحياة الجنسية بين الرجل والمرأة.

ففي النصين المذكورين في سفر التكوين بشأن عملية الخلق، تبدو القصة المذكورة في سفر التكوين (الفصل ٢:٢١) أقدم من القصة المذكورة في الفصل الاول (١:٢٧-٢٨). فالاولى تعود الى أحد الحكماء الذي كتب في حوالي القرن العاشر ق. م.، وهو يوضح فيها

أن الحب المتبادل بين الرجل والمرأة هو من طبيعة واحدة وعلى مستوى واحد في الكرامة. أما القصة الثانية فتعود الى أحد الكتاب الكهنوتيين، قد ترتقي الى القرن السادس ق. م.، ويركز فيها الكاتب على أهمية الاخصاب والتكاثر.

سنحاول في ما يلي تقديم القصة الاولى لصلتها المباشرة بالحياة الخاصة التي يستدعيها الاختلاف في الجنس:

"وقال الرب الاله: لا يحسن أن يكون الإنسان وحده فاصنع عوناً بازائه... فاوقع الرب الاله سباتاً على آدم، فنام، فاستل احد اضلاعه وسد مكانها بلحم. وبنى الرب الاله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، فاتى بها آدم، فصرخ ادم: هذه الامراة عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تسمى امرأة لانها من أمرئ أخذت، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً. وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته، وكلاهما لا يخجلان". (تكوين ٢:٢١-٢٥).

في هذا النص نلاحظ أن المرأة لا ينظر اليها كأنثى فقط، مثلما قد ينظر ذكر الحيوان الى أنثاه، أي كعنصر خاضع للتملك والسطو من قبل الرجل، ولكن على كونها أخذت من الرجل، وعلى أنها "عظم من عظامه ولحم من لحمه"، أي أنها مشابهة له ومن نفس طبيعته الانسانية وهي متعلقة به لتصبح وأياه جسداً واحداً. وهنا نجد أن الاتحاد الجنسي بين الرجل والمرأة يعبر عن أتحاد أقوى وأبعد وأهم من اتحاد الاجساد، اذ ان الوجود الانساني للرجل والمرأة بأكمله يكون موضوعاً لهذا الاتحاد، وليس جزءاً محدداً من جسديهما وحسب.

اما الصرخة التي عبر بها آدم عن فرحته عندما اكتشف حواء جانبه. فتدل على نوع من الحماس المبني على الحب، هذا الحب الذي من خلاله، ومن خلاله فقط يكتشف الرجل النفس الشريكة.

فالحب، اذن، هو البعد الاول لالتقاء الرجل بالمرأة. وهذا يعني أن الامكانية متاحة أمام كائنين مختلفين لكي يعترفا الواحد بوجود الاخر، وان من خلال هذا الاعتراف الحبي يحققان ذاتيهما بصورة عميقة جراء التقائهما الحميم. فالانسان، باعتباره كائناً اجتماعياً، يستحيل عليه العيش بمفرده، أي أنه عاجز عن تحقيق ذاته الانسانية بمعزل عن الآخرين، ومن هذا المنظور نجد أن الحب هو بمثابة البحث عن الاكتمال الانساني. فالعاطفة تنتظم تدريجيا لتبلغ بالرجل والمرأة الى الاتفاق وتبادل الكلمة بالاتحاد الدائم.

من هذا العرض الذي حللنا به بنية العائلة الاولى في تكاملها الاصيل، نصل الى تتمة القصة الاولى التي تنتهي بنا الى مأساة حقيقية:

"... ورأت المرأة ان الشجرة طيبة للمأكل وشهية للعيون وان الشجرة منية للعقل. فأخذت ثمرها وأكلت وأعطت بعلها أيضاً معها فأكل. فانفتحت اعينهما وعلما

أنهما عريانان... فنادى الرب الاله آدم وقال "أين أنت". قال: "اني سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لاني عريان فاختبأت". قال: "فمن أعلمك انك عريان. هل أكلت من الشجرة التي نهيتك أن تأكل منها؟" فقال آدم: "المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت" ... وقال للمرأة: "لاكثرن مشقات حملك. بالالم تلدين البنين، والى بعلك تنقاد أشواقك وهو يسود عليك" ... وقال لآدم: ... بعرق جبينك تأكل خبزا حتى تعود الى الارض التي أخذت منها، لانك تراب والى التراب تعود..". (تكوين ٣:١-١٩).

في هذا النص نلاحظ أن العلاقة بين الرجل والمرأة تصدعت بعد أن تم تكوينها، وذلك بسبب الخطيئة. فالمرأة التي أعطيت للرجل كمساعدة وكشريكة مشابهة، ها نحن نجدها وقد أصبحت عثرة لتوريطه في صنع الشر؛ والرجل الذي خلق قبل المرأة ليكون لها رأساً، ها قد اصبح مجرد شريك لها في الخطأ نتيجة السير وراءها والقبول بدعوتها لمخالفة الله. وهكذا فقدت تلك الوحدة التي جعلت منهما جسداً واحداً، الوحدة التي كان ينبغي أن تعبر عن وحدة الله نفسه، لانهما، أي الرجل والمرأة خلقا على صورته تعالى.

وهكذا، من جراء هذه الحادثة، نجد أن التقاء الرجل والمرأة ما هو الا التقاء بين كائنين خاطئين معرضين للتراجع أمام التزاماتهما المتبادلة، وانهما بحاجة الى عيش هذا الواقع المؤلم بشجاعة لكي يتمكنا من تجاوزه بقوة الحب الذي يربطهما. هذا الحب الذي ينبغي أن يكون على مثال حب المسيح للكنيسة، أي حبا رؤوفاً ورحوماً يتيح لهما أن يقبلا الواحد بالاخر من دون اوهام، ومن دون أن يكون الواحد للاخر سبباً للاشتراك في الشر، بل دافعاً الى الاشتراك في الخير. كما ينبغي ان يكون هذا الحب، صبوراً وأميناً أيضاً مثل حب المسيح نفسه. غير أن حباً كهذا يتضمن متطلبات كثيرة، أهمها التقدم المستمر في السير به نحو الاكتمال والاصالة، وهذا لا يتم الا عن طريق الغفران والمسامحة الدائمة. كما أن من صفات هذا الحب أن يكون مصلوباً، أعني أن من يقتنيه سيجد نفسه مدعواً، لا محالة، الى الذهاب في متطلباته حتى النهاية؛ أي الى أبعد حدود التضحية: "لا يوجد حب أعظم من بذل الانسان حياته من أجل أحبائه".

فما يظهر أحياناً من فشل في تجارب الحب قد يكون هو نفسه علامة لهذا الحب المصلوب. وفي المسيح يفقد الفشل عبثيته، اذ انه في الواقع اشتراك في الصليب الذي اعتبره الكثيرون فشلاً ذريعاً للمسيح، وكان في الحقيقة تعبيراً عن قوة وفاعلية لم يكن لأحد أن يتكهن بهما.

❋ الاخصاب والتكاثر

ان القصة الثانية التي ينقلها سفر التكوين (١:٢٧) تعطينا بعداً آخر يختلف عما ذكرناه في قصة خلق المرأة وبناء العائلة الاولى (٢:٢١) وتكاد تنسخها، إذ انها تركز بصورة رئيسة على التكاثر وأهميته في العلاقة الزوجية:

"فخلق الله الانسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله، وقال لهم: "أنموا واكثروا واملأوا الارض". (تكوين١:٢٧-٢٨)

في هذا النص نجد أن الدعوة الى التكاثر واضحة، ويبدو التكاثر بمثابة تعبير عن بركة الله لالتقاء الرجل والمرأة، كما نستنتج اهميته القصوى في استمرارية الخلق. وبذلك يشكل التكاثر، بحسب هذا النص، السبب الرئيسي لوجود الجنس. فاذا كان الرجل والمرأة في حالة حب حقيقية، أي اذا كانا يرغبان بعمق أن ينصهرا الواحد في الاخر استجابة لدعوة الرب لهما في الزواج، في أن يصبحا جسداً واحداً، فسوف يكتشفان من خلال خبرتهما هذه ان الوحدة المطلوبة يصعب تحقيقها، وانهما سيبقيان كائنين مختلفين ومنفصلين بالرغم من الحب الذي يربطهما ويعمل على تحقيق وحدتهما المنشودة.

وهنا نجد أن تحقيق الوحدة بين الزوجين لا يتم فعلياً الا بالطفل الذي يجسد هذه الوحدة بصورة واقعية وموضوعية، ويصبح رمزاً حقيقياً لها. واذا كان الطفل لا يعتبر الغاية الوحيدة للزواج، فهو في الواقع الرباط الملموس لمثالية الزواج ووحدته.

صحيح ان الانسان لا يتزوج لمجرد أن ينجب الاطفال. فلو كان الامر كذلك فقط لفقدت وحدتهما المنشودة مقوماتها الاساسية، ألا وهي صلات الحب الذي يبعث في الانسان الرغبة في تحقيق هذه الوحدة وفي انجاب الاطفال معاً، لان الاطفال هم من يستطيعون الشهادة عن هذه الوحدة بشكل ملموس. فالطفل ليس ثمرة العمل الجنسي البحت فقط، وانما هو ثمرة وجود يجد كماله وفحواه في الحب المتبادل، كما قال جان دي لاكروا:

"أريد طفلاً منك، ليس أي طفل كان، ولكن طفلاً منك أنت. وهذا يعني أنني أحبك".

أن التمييز بين الالتقاء الجسدي والتكاثر أمر ممكن جداً، وهذا هو سبب هذا التوتر الواضح الذي نشهده بين السعادة والفرح اللذين يرافقان عملية الخلق والتكاثر، وبين آلام الولادة وصعوباتها والمتاعب التي تفرضها ولادة طفل جديد في العائلة. أن انساننا المعاصر اليوم يعي أكثر من غيره امكانية هذا التمييز بين الالتقاء الجسدي والعاطفي وبين انجاب الاطفال، وعوض أن يعتبر ذلك خللا أخلاقياً، فهو عنصر من شأنه أن يرفع مستوى الحياة الجنسية والحسية الى مستوى التعبيرالعميق عن الحب والعطاء المستمر.

* الزواج "مؤسسة" اجتماعية

لقد كان الزواج دوماً منغرزاً في طبيعة الانسان الاجتماعية وخاضعاً، بشكل أو بآخر، لتنظيمات وضوابط. وفي النص الذي أوردناه من سفر التكوين، نلاحظ دلائل معينة من عملية تأسيس نظام الزواج حين يقول: "لا يفصل أحد ما وحده الله".

من هنا نرى في الزواج بعداً اجتماعياً ضرورياً لا يمكن تجاهله. فاذا كان الحب

قضية شخصية، فالزواج لا يمكن أن يكون الا حالة اجتماعية حيث انه يتخذ صيغة اتفاق علني. وهذا الاتفاق العلني ياتي ليضمن توازن الحب وارتكازه، وكذلك لكي يوفر للرجل والمرأة ظروف استمرار هذا الحب بشكل واقعي، بغية الوصول الى تحقيق متطلبات الحب الزوجي. ففي الحب هناك الوعد بالامانة المتبادلة، والزواج يأتي ليجعل من الرجل والمرأة كائنين واعيين وجادين في مشروع حبهما، اذ هما مقبلان على حياة مشتركة لمدى الحياة وليس على مجرد تجربة مؤقتة عابرة. ذلك لأنهما يحبان الواحد الاخر ويعدان بعضهما في الاستمرار على هذه الحالة حتى النهاية ويعلنان التزامهما بهذا الوعد.

لماذا؟ لان الحب الذي يربطهما لا يسمح لاي منهما استغلال الاخر لوقت محدد، أي بشكل أناني: فالوعد النهائي يعني أن على الرجل أن يدخل الى قلب وجود المرأة، وأن على المرأة أن تفعل كذلك. وهذا لا يتم الا اذا بنيت العلاقة الزوجية على ثقة عميقة من أن الواحد لا ولن يستغل الاخر. ثم أن هذا الوعد يبقى بمثابة مرجع رئيسي يعبر عن الرغبة الاولى التي تحكمت في هذا الالتقاء؛ مرجع يعود اليه الزوجان ابان الصعوبات وعندما تصبح صورة الحياة الزوجية مشوشة مرتبكة.

ان الحب لا يجعل الانسان ينفصل عن مجتمعه، بالرغم من أن ثمة أموراً تجعل الرجل والمرأة يعتقدان وكأنهما في عالم خاص حين يحبان بعضهما. من أجل ذلك نرى أن الوعد الزوجي بالحياة المشتركة يتم في كافة المجتمعات بصورة علنية وبحضور شهود. فحدث الزواج هو بمثابة تشكيل لخلية اجتماعية جديدة؛ وكذلك الزواج المسيحي، نعتبره بدوره بداية تكوين لخلية كنسية جديدة، لذا يعقد الزواج المسيحي بحضور جماعة المؤمنين وبعلمهم. وحتى اذا لم يعقد هذا الزواج في الكنيسة (كبناء)، فحضور المؤمنين والكاهن، في أي موضع عقد، يجعله زواجاً كنسياً.

من هذا المفهوم، نقول بان الزوجين، بقرانهما المسيحي، يتسلمان "رسالة" من الكنيسة أهم ما فيها الحرص على تجسيد حب المسيح لنا –"للكنيسة – من خلال حبهما الزوجي؛ بحيث يصبحان شاهدين لقيامة المسيح التي ينبغي أن يريا فيها أملاً بكل فرح وسعادة وحافزاً لحياة متجددة أبداً. بالاضافة الى كون الزوجين اعضاء في كهنوت المؤمنين الشامل، لذا فهما مدعوان الى تكريس حياتهما الزوجية وتوجيهها الى الله، وليس حياتهما الشخصية وحسب، بل حياتهما العائلية ككل، أعني الاولاد الذين ينجبانهم أيضاً. فسر الزواج يضع على عاتقهما مسؤولية قيادة الاطفال في خطواتهم الايمانية الاولى.

ففي الزواج المسيحي هناك حضور خاص للمسيح من شأنه أن يساعد على تحقيق الوحدة التي يطمح اليها الانسان للوصول الى السعادة. وهذه السعادة يتعاون الزوجان معاً على السير نحوها بنعمة المسيح وجهودهما الشخصية التي لا تتكلل الا بتجاوز مستمر للذات.

الاب عبد السلام حلوة

الاسرة خلية الكنيسة

بماذا تتميز الاسرة "المسيحية"؟ هل لها من طابعها "المسيحي" خصوصيات تضع على عاتقها واجبات والتزامات؟ وماذا يعني ان الاسرة هي "خلية الكنيسة"؟ وهل كونها "خلية" يفرض عليها رسالة خاصة في الكنيسة؟ اسئلة يطرحها الاب جرجس القس موسى في اطار دراسة راعوية، انطلاقاً من موقع الاسرة على الصعيد الانساني، وانتهاء بموقعها على الصعيد المسيحي ودورها النبوي في الكنيسة والمجتمع.

واذا كانت الاسرة هي المدرسة الاولى للانسانية. فالاسرة المسيحية هي ضمن الجماعة المسيحية، "مدرسة للايمان"، إذ في احضانها يولد الايمان وينمو؛ وهي بالتالي "خلية حية وفاعلة" في الكنيسة ... رسالة تضطلع بها، وعليها تترتب مسؤوليات خطيرة تؤديها عن طريق الشهادة والالتزام وممارسة جادة لدورها النبوي في حياة الكنيسة والمجتمع.

كلامنا عن الاسرة المسيحية

ولكن ما المقصود بالاسرة المسيحية، وهل ثمة خصائص تميز الاسرة المسيحية عن غيرها؟

الاسرة المسيحية هي تلك التي، بالاضافة الى انتمائها الاجتماعي الى الجماعة المسيحية، تعود في تفكيرها وأحكامها وتقييمها للامور الى شخص يسوع المسيح، وتحاول السلوك بحسب مبادئ الانجيل، وهنا تكمن خصوصيتها. والحال ان العودة الى يسوع المسيح لا تخرج المسيحي من اطار الانسانية، بل ترتقي به الى أسمى ما فيه وفيها، ذلك لان يسوع المسيح متجسد تجسداً كاملاً في صلب الانسانية، وهو يمثل قيمة متميزة، بل هو بمثابة الذروة في تاريخنا البشري. لذا كانت قيم الاسرة المسيحية قيماً انسانية، أولاً، ومن ثم مسيحية.

ولكن ما معنى ان الاسرة المسيحية خلية الكنيسة؟

"الخلية"، من وجهة النظر الاجتماعية، هي أصغر وحدة اجتماعية، وكما أن خلايا الجسم البيولوجية مرتبطة بعضها عضوياً، هكذا الخلية الاجتماعية ليست كذلك الا من حيث علاقتها بالمجموع

وارتباطها وظيفياً بالخلايا الاخرى. فان تكون الاسرة المسيحية خلية الكنيسة معناه، أولاً، انها بارتباطها بخلايا مماثلة أخرى تشكل "جسم الكنيسة"، وأنها، ثانياً، بانتمائها الى هذا الجسم تستمد منه الحياة وتترتب عليها نحوه، في الوقت عينه، واجبات والتزامات. فعندما نتكلم عن الاسرة بصفتها خلية الكنيسة، انما نتكلم عن الاسرة من حيث هي وحدتها التكوينية الاولى، ومن حيث وظيفتها الاجتماعية–التضامنية تجاهها، على نحو ما لعلاقة الجزء بالكل والكل بالجزء.

هذه هي الزاوية الخاصة التي تحدد موضوعنا. وسنبحث ذلك من خلال حالات ثلاث، هي:

أولاً: موقع الاسرة على الصعيد الانساني

الاسرة هي وحدة التكوين الانساني الاولى وموضع تنشئة الفرد على الحياة كشخص مستقل وكعضو في مجتمع. فهي بذلك المحطة الاولى لبناء العلاقات الانسانية الشخصانية بين الافراد، ولعملية المشاركة الاجتماعية. بهذا المعنى دعاها القديس أوغسطينوس "مشتل المجتمع" أي منشأة، كما ورد في خطاب يوحنا بولس الثاني في مؤتمر المجلس الحبري للاسرة في أيار الماضي.

هذا التحديد يتيح لنا أن نرى في الاسرة نقطة الانطلاق في تكوين الشخصية والمرجع الاساس لبناء الذات. واذا علمنا أن مقومات بناء شخصية الفرد تستند على عناصر أساسية ثلاثة هي: الوراثة والبيئة والاكتساب الذاتي الذي يتم عبر عملية حوار داخلي، في الوعي واللاوعي، بين الفرد –طفلاً أو بالغاً– وبين معطيات تلك الوراثة وتلك البيئة بصورة خاصة، نرى كم أن دور الاسرة –وهي البيئة الطبيعية الاولى للانسان– جوهري وأولي.

صحيح أن الدور ليس حاسماً، لان البيئة الاسرية ليست بيئة نهائية ووحيدة للفرد، فبقدر ما يتقدم المرء في البلوغ ويبتعد جغرافياً وزمنياً عن بيئه الاسرة ويندمج في بيئات مجتمعية اخرى (كالبيئة الثقافية والفكرية، بيئة العمل، الحالة الاجتماعية والاقتصادية، طبيعة العلاقات... وحتى البيئة الطبيعية) بقدر ذلك تتميز شخصيته وتكتسب اختياراته وقراراته استقلالية نسبية. أقول "نسبية" لان هذه "البيئة" –أو البيئات– الجديدة هي التي ستسم بدورها شخصيته الاجتماعية الجديدة. ولكن النواة الاساسية لشخصية الفرد قد تكونت ورسمت في خصائصها المميزة، في الاسرة أكثر مما يظن عادة، وذلك منذ السنوات الاولى للطفولة. ألا يقول علماء النفس أن الشخصية تتكون، بصورة مصغرة ولكن واضحة، منذ الرابعة أو الخامسة!

أما لماذا تنفرد الاسرة بهذا الدور الاساس في هذه المرحلة بالذات، فلانها مرحلة انتباه الطفل المبكرة، المرحلة الاولى من الوعي الذاتي ويقظة الاستقلالية، مرحلة الاكتشافات

والانطباعات البدائية. فالطفل فيها أشبه بصفحة عذراء لم يكتب عليها أي شيء، ويمكن أن تستقبل أي شيء: قياسها الوحيد أن يأتي الامر من الكبار، لا سيما الوالدين. فالطفل ينشأ أول ما ينشأ على المماثلة أو التقليد، وأول نموذج لعينيه وفضوله هو والداه (ثم ذووه الاقربون اذا كانوا يعيشون سوية في بيت واحد). وبما ان الوالدين يمثلان له قمة الامان الذي يحتاجه -وهو يلمس ذلك في اهتمامهما المتميز في اطعامه واكسائه وحمايته من الاخطار وفي الحنان الخاص الذي يحيطانه به- فهو يرد لهما ذلك بثقة عمياء بهما وبأقوالهما، ويعتبرهما المثال الكامل الذي لا يخطئ ولا يخطأ. لذا لا يرحم الطفل والديه عندما يشعر أنهما يتحايلان أو يكذبان عليه أو يعدانه بشيء لا ينفذانه، مما يعرض ثقته بهما -وبعالم الكبار عموماً- للارتباك، وبالتالي يعرض ثقته بنفسه للاهتزاز. انه بحاجة، لكي تتفتح شخصيته بتوازن وتترسخ قدماه، الى نقاط ارتكاز أخلاقية ومبدئية ثابتة، أين يجدها ان لم يكن لدى والديه!

من هنا نرى الاهمية التربوية الكبرى للصدق، حتى اذا كانت أسئلة الطفل واستفساراته أو طلباته محرجة -سيما وأن ليس في عالم الطفل الذهني شيء أسمه محرم أو شر في جد ذاته- فمن الضروري أن يعطى الاسباب الموجبة لما ينهى عنه، أو يسمح له به، أو يؤمر به؛ لان الطفل، مع احساسه بأنه لا زال صغيراً وضعيفاً وتحت رحمة الكبار -وقد يستخدم هذا الوضع احياناً بوعي تام سلاحاً لفرض ارادته أو لاستدرار تساهل الكبار لتجاوز نزواته- فهو، كما قلنا، يقلد الكبار ويريد أن يعامل كالكبار، وينبغي فعلاً أن يشعر بأنه يعامل كذلك.

لذا تبقى فضيلة المربين الكبرى هي الصبر وطول الاناة. والصبر الذي نتحدث عنه هنا ليس مرادفاً للضعف، وانما أسلوب تربوي ينبغي أن يقترن بانتباه واع الى نفسية كل طفل بمفرده، وبسيطرة ذاتية على ردات الفعل السريعة والهجومية التي قد تفسد العملية التربوية برمتها، فتقتل أو تشل طاقة الفضول الفكري واثبات الذات لدى الطفل أو اليافع وتخنق انطلاقته وتبتر قابلياته، فتنغلق شخصيته.

ليس في نيتنا أن نكتب بحثاً في التربية، وانما تطرقنا الى هذه الجوانب لاظهار مدى دور الاسرة في تكوين وصقل الشخصية واعدادها للمستقبل، وفي ذلك علاقة وثيقة مع وظيفة الاسرة كخلية المجتمع وخلية الكنيسة. واذا علمنا أن المرء يبقى متعلقاً، عاطفياً وأدبياً واقتصادياً، بل "ملتصقاً" التصاقاً عضوياً مع أسرته حتى زواجه -أعني في أغنى وأدق سني تكوينه الانساني وانطباعاته العميقة تجاه الحياة والمجتمع- نلمس إذ ذاك تأثير الاسرة في قولبة شخصية المواطن، أو المؤمن، ايجاباً وسلباً. هذا التأثير الذي سيدخل طرفاً فاعلاً، لا محالة، في صوغ قناعاته الشخصية وردات فعله حول قيم مثل الحب، والجنس، والمال، والعنف، والعمل، واللهو، والسلطة، والمواطنة، والامانة، والايمان، والدين والتزاماته، واحترام الغير.. وغير ذلك من المواقف والعلائق.

بهذا المعنى نقول بأن الاسرة هي المدرسة الاولى للانسانية، وبهذا المعنى أيضاً قال يوحنا بولس الثاني في رسالته الى مؤتمر الاسرة الانف الذكر بأن "مستقبل العالم يمر بالاسرة". ففي المحصلة النهائية، يمكننا القول بأن الاسرة هي صورة نموذجية —وانعكاسية أيضاً— للمجتمع. لذلك يفترض أن تكون الاسرة، والاسرة المسيحية بنوع خاص، موضع تدريب المرء على النضوج والالتزام للمسؤولية والاستقلال، تعمل على البلوغ به الى "قامته الكاملة"، بحسب تعبير القديس بولس. واذا اعتمد على خبرة ابوية —وذلك ضروري— فليس لكي يبقى مكبلاً بها (عقدة أوديب)، بل لينطلق منها الى العالم الاوسع وينفتح ويتفاعل مع المجتمع الارحب (سواء كان مجتمعاً مدنياً أم كنسياً).

ثانياً: موقع الاسرة على الصعيد المسيحي

اذا كنا قد تبسطنا قليلاً حول دور الاسرة من الزاوية الانسانية، فلان جميع تلك القيم والاسس التربوية تنطبق على الاسرة المسيحية، وينبغي عليها أن تأخذ بها جملة وتفصيلاً، ليس لكونها أسرة "انسانية" قبل أن تنعت باية صفة أخرى وحسب، بل لان هذه الاسس التربوية ذاتها تصب مباشرة في كيفية ممارسة الاسرة المسيحية دورها الخاص ضمن الجماعة المسيحية، أولاً كمدرسة للايمان، وثانياً كخلية حية وفاعلة. فالاسرة المتوازنة انسانياً والتي تتحكم فيها علاقات المودة والاحترام والفرح والانفتاح الواعي والملتزم، سوف تنجح، ليس فقط في امداد المجتمع بعناصر البناء والتطور، بل في امداد الكنيسة بالحيوية وبعناصر العطاء والشهادة أيضاً.

* مدرسة الايمان

قلنا بأن الاسرة هي منبت الانطباعات الاولى وبان تأثيرها جوهري في صوغ القناعات الشخصية الاساسية (الوجدانية والاخلاقية والاجتماعية). ومما لا شك فيه أن من مسائل الحياة الكبرى والاساسية التي تتناولها الانطباعات الاولى (من ٥-١٠ سنوات): فكرة الله الغامر والمحير معاً لمخيلة الطفل، لانه حاضر وغير منظور في آن واحد؛ والموت وما بعد الموت؛ ومفهوم الخطأ والعقاب والثواب؛ وشخصية يسوع الجذابة... أي بكلمة واحدة ما ندعوه "بعالم الايمان". وبعض عناصر هذا "العالم" تستيقظ لدى الطفل تلقائياً (من صنع النجوم والجبال والاشجار؟ كيف هو شكل الله واين يسكن؟...)؛ ومنها ما يوقظه الكبار لديه (الله يعاقب فاعلي الشر، يسوع يحب الاولاد الطيبين، التمتمات الاولى في الصلاة...)؛ فبالامكان تسمية هذه المرحلة أيضاً بمرحلة "يقظة الايمان". والدور الاول والفاعل في هذه "اليقظة" يعود الى الاهل، وذلك عبر قنوات ثلاث: بانتهاز فرص سؤالات الاطفال —أو الابلغ عمراً— للاجابة عليها؛ باعطاء معلومات وتوجيهات مباشرة؛ بمثال الحياة.

هذه القناة الاخيرة، أي مثال الحياة، قد تكون أعمق تأثيراً وديمومة في الحياة، لان

ايقاظ الايمان لدى الاطفال واليافعين —ولدى البالغين والكبار أيضاً— معناه، قبل كل شيء، أن نشهد ميدانياً باننا نعيش هذا الايمان؛ وهذه الشهادة، ان أعلناها بأقوالنا، فبأفعالنا وباسلوب حياتنا نبرهن عليها واقعياً. سيما وان العادات الاولى تنتقل بالتقليد والمماثلة، كما أسلفنا.

لذا فان لكيفية انعكاس القناعات الدينية على ممارسات الاهل ونمط حياتهم الايمانية والاخلاقية والعلائقية —ضمن الاسرة وفي المجتمع وتجاه الكنيسة كجماعة وكمؤسسة— صلة مباشرة بطبيعة "التوجه الديني" للاطفال. فاذا لم يكن من الصواب جداً أن نتحدث عن "نقل الايمان"، من الاهل الى أولادهم، بالمعنى ذاته الذي نتحدث به عن "نقل الحياة"، فانه بالامكان تماماً التحدث عن جو مؤات لتفتح الايمان، جو يتيح للايمان أن يمد جذوره في العمق ويتطور تطوراً طبيعياً.

فأن تستصحب طفلك الى الكنيسة، أن تقرأ له نصاً من الانجيل أو تجيب الى أسئلته، أن تصلي معه أو تضع صليباً أو أيقونة جميلة على الحائط... كل هذه عناصر تساعد على يقظة الايمان، وهي بمثابة التربية الجيدة التي تمد الزرع الوليد بالقوة. أن تحسن الى فقير وتحترمه في فقره، أن توفر لولدك نصوصاً مسيحية تلائم مراحل عمره، أن تعكس في حياتك وعلاقاتك —بدءاً من أمه— مبادئ الصدق والاخلاص والاحترام النابعة من ايمان واع وغير متزمت، أن تتحسس قضايا الانسان من موقعك... ذلك ما يتيح له أن يتحقق بنفسه من ارتباط الايمان بالحياة، وأن يكتسب خبرة أعمق لله في حياته الشخصية من خلال خبرة ذويه. هكذا تصبح الاسرة مدرسة الايمان الاولى ومنها تنطلق الكنيسة المتجددة.

✵ خلية حية وفاعلة

يقدم طقس الزواج في بعض الليتورجيات الاسرة المتكونة على أنها "كنيسة مصغرة".. منفتحة على الكنيسة الكبرى.

ان مدلول هذه العبارة الموفقة هو أنها تقدم "الكنيسة الكبرى" —والمقصود بها الكنيسة ككل— كمثال للاسرة. ولهذا المثال وجهان: وجه وضعي ساكن، ووجه دينامي. فالكنيسة التي تقدم "مثالا"، أو نموذجاً للاسرة، ليست فقط الكنيسة التي تغذي ايمانها بتعاليم المسيح، ثم تتكور على ذاتها شاكرة الله على أنه اصطفاها؛ ولا هي، بالاحرى، كنيسة بلغت كمالها ووقفت تنتظر الرب "الى أن يأتي" (الوجه الساكن)؛ وانما هي كنيسةعاملة، تبدو كبناء غير مكتمل أو كحدث مستمر يمتد ويتفاعل عبر الزمان والمكان (الوجه الدينامي). بعبارة أخرى، انها كنيسة رسولة، متحركة تبحث دوماً عن أوجه جديدة وفاعلة لتجسيد المسيح في واقع حياتها ولخدمة الانسان.

فأن تكون الاسرة المسيحية "خلية حية وفاعلة" في الكنيسة، معناه أن مبدأ التضامن يدعوها الى المساهمة في حياة ونشاط المجموع، وهذا يعني الخروج من الايمان الاناني أو الراكد الى الرسالة والالتزام.

كيف تحيا الاسرة هذا الدور في نطاق رسالة الكنيسة العام؟

في المؤتمر العالمي الثالث لرسالة العلمانيين (روما ١٩٦٧)، وفي سياق مناقشة قضية "الوالدية المسؤولة"، جاء في تقرير احدى لجان العمل الفرعية أن "خصوبة الزوجين لا ينبغي أن يبحث عنها فقط في الاكثار من الانجاب، بل أيضاً في اشعاع الاسرة وفي انفتاحها على العالم".

عبر هذه "الخصوبة" الثانية تحيا الاسرة المسيحية دورها الرسولي والكنسي، وذلك من زوايا ثلاث:

١) **كخميرة في العجين**: فالاسرة المسيحية هي أول صورة للكنيسة تمثل أمام الناس وتعايشهم في ظروفهم الاعتياديه: انها أول صيغة عملية ملموسة، أو قل أول مختبر لممارسة الديانة المسيحية والاخلاقية الانجيلية. لذا فهي تعمل كالخميرة في العجين وتبشر بالانجيل عن طريق الاشعاع أولاً. فعليها أن تكون مثالا يحتذى في تآلفها وحسن تربية أبنائها وتوازن مسيرتها، واجتهادها وتضامنها مع الآخرين، وفي انارة أحكامها وممارساتها الداخلية والعامة بمبادئ المسيح. وانه لينبغي أن نعي بان هذا الاسلوب، بحد ذاته؛ وجه من أوجه الاشعاع الانجيلي وجزء من دور الاسرة ضمن رسالة الكنيسة في العالم.

٢) **كجماعة قاعدة**: ان أهم ما تفعله الاسرة المسيحية هو تكوين الشخصية لدى أعضائها وتنشئتهم على الحرية وعلى أخذ مسؤولية أنفسهم بيدهم والتزام مسؤولية الآخرين. اذا ما وفرت الاسرة المسيحية مثل هذا الجو، انطلاقاً من ايمانها الملتزم، كوحدة كنسية مستقلة أو بانضمامها الى مجاميع أسرية ملتزمة مماثلة، فيمكن اعتبارها اذ ذاك، وبكل حق، جماعة قاعدة، بل أولى جماعات القاعدة التي تعمل لتغيير نوعية الحياة وطبيعة العلاقة بين الانسان والانسان —أفراداً ومجتمعات— نحو الافضل.

ان اسرة كهذه تصبح الموضع المميز حيث بالامكان عيش الاخوة والمساواة أمام الله، واكتشاف الوحدة والمساواة بين الرجل والمرأة؛ الموضع الذي فيه تنسجم الاختلافات والتباين، وحيث يختبر الانسان أبعاد التضامن الحقيقية.. وذلك من خلال أتخاذ ممارسة الزوجين —والاسرة ككل— كنموذج.

٣) **عن طريق الالتزام الشخصي المباشر**: لا شك أن روحانية قوية وحساً ايمانياً حقيقياً، حينما يوجدان في الاسرة، يدفعان بأعضائها، بعفوية أكبر، نحو المشاركة المباشرة في الانشطة الرسولية أو الخورنية والكنسية، الخيرية والتثقيفية والراعوية (مراكز التثقيف المسيحي، الحركات والاخويات الرسولية، الندوات الدينية، الجمعيات الخيرية، اللجان الليتورجية والاستشارية، الفرق الدراسية للكتاب المقدس...). ولا أبلغ، حينذاك، من مثال الوالدين الملتزمين —أو أحدهما— في أحد هذه الانشطة، لا سيما المتصلة اتصالاً مباشراً بالتوعية الايمانية والالتزام الرسولي.

في مثل هذه الحال تصبح الاسرة المدرسة الاولى للحياة الرسولية والالتزام الانجيلي. وقد يمتد هذا الالتزام –من منطلق الانجيل نفسه وبمنطق ابعاده الحياتية– الى جوانب النضال الانساني من أجل ازاحة الظلم عن المظلومين، وتوفير الخبز والكرامة للجائعين، والمطالبة بالحريات والحقوق الاساسية، ومحاربة الاستغلال والهيمنة في العلاقات القومية والدولية، بين عالم أول وعالم ثالث...

ثالثاً: دور الأسرة المسيحية دور نبوي

هكذا فان أنسنة البنى الاجتماعية والعلائق المتبادلة بين الافراد والجماعات جزء من قيم مسيحية الاسرة ورسالتها، هذه الرسالة التي هي رسالة نبوية تؤديها الاسرة المسيحية ضمن الكنيسة وضمن المجتمع –وهي جزء عضوي منهما كليهما.

فللاسرة المسيحية تأثير كبير على محيطها، اجتماعياً وانسانياً، بتعاملها، وصداقاتها، وامانتها، وحتى في تقاليدها وعاداتها. ذلك واقع يعرفه ويعترف به جيراننا غير المسيحيين؛ واذا كان لنا أن نعتز به، فيلزم ان نعترف أيضاً بأن هناك تداخلاً بين الاسرة المسيحية ومعطيات المجتمع الاوسع الذي تعيش فيه. ان الاسرة المسيحية ليست جزيرة منعزلة ولا مجتمعاً مغلقاً، ولقد تركنا وراءنا ايام كانت الاحياء السكنية، وحتى المهنية، متكورة حول كنيستها، والقرى المسيحية لائذة بتوجيهات سلطاتها الروحية، وتكاد تجهل كل شيء عن التيارات الخارجية. واذا كنا لا زلنا نحتفظ بجزر "مسيحية"، هنا وهناك، فهي لم تعد كذلك في الواقع الا جغرافياً، لان التغييرات الاجتماعية والاقتصادية والانصهار الوطني، وخاصة النماذج الثقافية التي تقتحم الاسرة في عقر دارها، عن طريق وسائل الاعلام الحديثة (التلفزيون، الراديو، الفيديو، الصحافة، الكاسيت، الدعاية، السينما...)، أو التي تأتيها عبر قنوات التعليم والتوجيه الخارجية (المدرسة، أجهزة التأطير الموجهة...)، وحتى عن طريق السفر الى الخارج... كل هذه المعطيات تضعنا أمام وقائع واستنتاجات جديدة لا يجوز تجاهلها، أهمها:

١) ان الاسرة المسيحية تواجه الظروف والتحديات الخارجية نفسها التي تواجهها أية أسرة أخرى تشترك واياها في الاطر الثقافية والاجتماعية والسكنية ذاتها، مضافاً اليها الارث المتوارث –وهو ليس بقليل– من خصوصية انتمائها الديني ومردوداته الاخلاقية والمبدئية والمسلكية الخاصة..

٢) ان الاسرة المسيحية (أو الكنيسة) لم تعد الطرف الاوحد في العملية التربوية. فدورها التربوي والتوجيهي قد ضمر، لا محالة، سواء بتنازل طوعي أو لا أبالي من قبلها، أو بمحاصرته على يد المؤثرات المختلفة المذكورة أعلاه.

٣) مفاهيم تربوية وعلائقية جديدة جاءت "تطعم" النموذج القديم: كنمو الشخصية

المبكر (لدى الاطفال)، والاستقلالية في صوغ القناعات والاختيارات، وتبدل طبيعة العلاقة بين أفراد العائلة بحيث أصبح نموذج "الاب—الصديق" و "الام—الصديقة" مفضلاً على نموذج "الاب—الآمر" و "الام—الخادمة—المرضة". وكذلك رد الاعتبار الى الحب والجنس، وبروز شخصية الفتاة والمرأة وارتباط ذلك بعملها المهني خارج المترل وما ينتج عن ذلك من التزامات وتضامنات خارج الاسرة.

٤) أن هذه البيئة الجديدة تضع الاسرة المسيحية أمام تحول حضاري وثقافي وليس فقط أمام مجرد أزمة أخلاقية، كما تدعي أوساط كنسية أو دينية تقليدية. لذا، عوض البكاء أو انتظار عبور الغيمة، كمن لا يعنيهم الامر، ينبغي على الاهل، قبل غيرهم، رصد قيم هذا "التحول" والتفاعل معها. والتفاعل لا يعني قبولاً بديهياً بكل جديد، وانما هو انفتاح وحوار لاكتشاف الايجابي والافضل منه.

٥) بقدر ما تكون التأثيرات الخارجية سلبية —أو مؤثرة باتجاه مغاير عن اتجاه الاسرة— بقدر ذلك تتسع مسؤولية الاسرة وتتعقد.. اذ هي تحتاج الى نضوج داخلي، انساني وايماني وكنسي أكبر، لاعداد أولادها للحياة والتوازن والعطاء. من هنا أهمية رسم سياسة راعوية أسرية حقيقية تهدف، في المقام الاول، الى اعادة تنشئة الاهل أنفسهم تنشئة ايمانية جادة ومنفتحة. أما في الوجه الثاني، فينبغي أن تهدف الى توجيه الاهل نحو اعداد أبنائهم "لاستيعاب" الايمان كحياة وممارسة أكثر مما كمعلومات مصبوبة في رؤوسهم، ولأخذ دور فاعل وملتزم في الكنيسة، وذلك على أسس تربوية وتثقيفية مسيحية قد لا تنطبق بالضرورة مع النموذج الذي تلقوه في زمانهم، ولكن واقعية لتلائم تطور أبنائهم. وهكذا، وانطلاقاً من مشروع تربية أولادهم، سيمكنهم أن يكتشفوا طبيعة ايمانهم البالغ من جديد، فيعيشونه بوعي وأصالة أكبر، ويكون حينذاك للابناء أنفسهم دور في تربية والديهم، على الصعيدين الانساني والايماني.

٦) رسالة الاسرة المسيحية لن تكون "نبوية" حقا —أي لها طابع الشهادة والمثال والنداء الرمزي— الا اذا ربت أعضاءها، بدءاً بالوالدين، على أن يكونوا مسيحيين بالغين ومسؤولين. ويأتي ذلك عبر محورين:

- **محور أسري—توجيهي**: يتمثل في جهد الوالدين في التثقيف المستمر والمتابعة الشخصية لابنائهم، وفي الالتزام الفعلي بحياة الكنيسة ورسالتها، من قبل الاهل والابناء، كأسرة وكأفراد. ويفترض ذلك توفير وسائل أعلامية—تعليمية متكافئة من كتب، ونشرات، ومراكز، ودورات، وسهرات انجيلية، وهيئات أسرية دائمة أو لبعض المناسبات (مجالس الاباء والامهات، مجموعات أسرية للدراسة وتعميق الروحانية، مناسبات العماذ والتناول الاول، إعداد المخطوبين للزواج...).

- **محور كنسي—بنيوي**: يتمثل، ليس فقط بالارشاد أو بالتوجيه الفوقي ولا بالاحتواء من قبل السلطة الكنسية، بل قبل كل شيء في أن تعترف الكنيسة

حقاً –شعباً ومؤسسة– بأن العلمانيين هم أشخاص بالغون ومسؤولون، مما يحتم خلق أو تعميق جو الحوار والمشاركة. ونتيجة لذلك يلزم أن تقوم في الكنيسة بنى جديدة ومؤسسات تعمل، من جهة، على تشجيع تبادل الرأي والمناقشة بين العلمانيين وأعضاء شعب الله الآخرين، ومن جهة أخرى على اسهام العلمانيين في حمل جزء من المسؤولية الادارية وصنع القرار في الكنيسة، لئلا تستأثر السلطة الكهنوتية والاسقفية بالتوجيه والهيمنة. وكمثال لهذه البنى الجديدة على الصعيد العملي يمكن الاشارة الى المجالس الخورنية والابرشية والملية، ولجان التنسيق والدراسة في شؤون التثقيف المسيحي، والعلاقات المسكونية، والعلاقة مع الدولة، والنشاطات المسيحية المشتركة... بالاضافة الى الهيئات العلمانية المتخصصة والحركات الرسولية.

انه لمن الاهمية بمكان أن يكون للاسرة –كاسرة وكزوجين– موضع وصوت مسموع في مثل هذه البنى، على صعيد الكنيسة الجامعة وعلى صعيد الكنائس المحلية، لا سيما في كل ما يخص شؤون التربية وقضايا الاسرة (كتنظيم النسل، ومشاكل الافتراق والطلاق، والزيجات المختلطة ودورها الايجابي في الحركة المسكونية...)، إذ لا ينبغي أن تبقى الكنيسة تنظر الى الاسرة وكأنها قاصرة يجب تنظيم سيرها ومسارها دائماً، كما حدث بصورة مربكة في قضية وسائل منع الحمل مع بولس السادس وبعده.

فإذا كانت الاسرة خلية الكنيسة، فهي خلية عاقلة ومسؤولة، وينبغي أن يُعترف بأنها كذلك. كما ينبغي أن تشعر بأنها موضوع ثقة ومحبة ورعاية، وبأنها جزء مكون، لا تابع، للكنيسة.

ضمن هذا التصور وحده تستطيع الاسرة أن تنضج وتؤدي رسالتها الخاصة في شعب الله، وتحيا دورها النبوي في المجتمع.

الأب جرجس القس موسى

المراجع

– "مهمة معلم التعليم المسيحي" في
Marcel van Caster: Catéchése et dialogue, Bruxelles 1966
– الاسرة في التطور الحالي للمجتمع" في L'homme d'aujourd'hui, Rome1967
– "الحياة البشرية" رسالة بولس السادس (١٩٦٨)
– "الاسرة والتربية المسيحية" في Lumen Vitae, No 3, 1980
– "الكنيسة والاخلاقية الجنسية"، "سينودس الاسرة" في
Revue Nouvelle, No 10, 1979, No 12, 1980
– "أولادنا، الله، ونحن" ، "ايمان الصغار" في Fétes et Saisons No 317, 1977, No 341, 1980

– "الزواج والاسرة في اللاهوت الارثوذكسي" في Nouvelle Revue Théologique, No 2, 1981
– "مستقبل العالم يمر بالاسرة" في Jean Paul II: O. R. No 23, 1983

١٠ الانسان... على صورته ومثاله

السنة العشرون: ت١-ت٢ ١٩٨٤

الفهرس

افتتاحية: الانسان... هذا المجهول	رئيس التحرير
صورة الله والانسان عبر التاريخ	أ. يوسف توما
الانسان في "الفكر المسيحي"	...
مشروع خلاص الانسان من خلال العهد القديم	أ. يوحنا عيسى
خواطر	باسكال
الانسان ... مركز فكر المسيح	أ. افرام سقط
نظرة لاهوتية معاصرة للانسان	أ. لوسيان جميل
الانسان عبر الفن	ماهر حربي
الانسانية تسير	تيار دي شاردان
السحبة السنوية	...
الكنيسة والدعوة الانسانية	المجمع المسكوني
البعد الآخر للانسان	اوليفييه كليمان
الاسرار من اجل الانسان	أ. يوسف عتيشا
كرم على درب	ميخائيل نعيمة
الانسان: رجل وامراة ... عبر التشريعات الكنسية	نجيب قاقو
شرعة حقوق الانسان	الامم المتحدة
افكار في الالتزام المسيحي	أ. لويس ساكو
الانسان... بين الواقع والطموح/طاولة	أ. بيوس عفاص
"طيور شاردة"	رابندرانات طاغور
كل شيء من اجل الانسان	بولس السادس

ليس بوسع عدد، مهما كان مكثفاً، ان يحيط بسر الانسان في كل ابعاده... وهذا العدد الخاص في "الانسان"، انما يلقي بعض الضوء عليه، ومن وجهة نظر الايمان المستنير بخبرة الكنيسة.

واذا كان من الصعب جداً ان نجد خيطاً سريّا يصل بين مقالات هذا العدد المتنوعة -وقد انطلق من معطيات التاريخ البشري، مروراً بمشروع الخلاص الذي رسم ملامحه العهد القديم، وصولاً الى نظرة المسيح والكنيسة الى الانسان- الا ان علينا ان نبحث عنه في قلب المقالات التي استلهمت كلها ذلك الشوق الذي غرسه الله في اعماق الانسان نحو المطلق -وقد خلقه "على صورته ومثاله"!

(...) وفي غمرة هذه التساؤلات، تنكشف للانسان رؤية ديناميكية للايمان تحمله على أن يرى اصبع الله في تاريخه المنسوج من بحث دائم عن هذا الإله غير المنظور، ومن تلمس دائم لحضوره الفاعل عبر الأحداث. ذلك لان الله، إذ خلق الانسان "على صورته ومثاله"، غرس فيه شوقا إلى استكمال ملامح هذه الصورة، وقدَّرَهُ على جعلها أكثر جمالا وإشراقا، بما أوتي من حس لاقتفاء آثاره في الكون، ومن قابلية على اكتشاف القوانين والنواميس التي تسيّر الطبيعة، ومن قدرة على مواصلة عملية الخلق والبناء التي تؤول بالتالي إلى خيره وسعادته.

(...) وتنكشف للمسيحي، بنوع خاص، رؤية ايمانية محورها المسيح، تحمله على أن يلتصق بهذه الحقيقة التي جاء بها يسوع: الله محبة! فيرى في الله أبا، كله حب وعطاء: "هكذا أحب الله العالم حتى انه أرسل ابنه الوحيد"، ويرى في البشر جميعا أبناء لله واخوة بعضهم لبعض، ويرى لزاما عليه أن يسعى إلى أن يثبت في المحبة ليثبت في الله ويثبت الله فيه. (...)

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٢٦٩)

صورة اللّه والانسان عبر التاريخ

ما فتئ الانسان، منذ اقدم العصور، يبحث عن اله. وكان لا بد ان تتخلل البحث تعثرات وتصورات كثيرة وانحرافات شوهت صورة الله والانسان معاً.

كيف نشأت فكرة الله؟ هل هي وليدة مخيلة الانسان او حاجته او عجزه؟ ما هو حجم الاساطير والخرافات والرموز في الديانات القديمة؟ ماذا يقول الكتاب المقدس؟ ماذا تقول لنا العلوم الانسانية، وعلم الاديان بنوع خاص؟ الى هذه الاسئلة التي طالما اقلقت الانسان، في بحثه الدائم عن الله، يجيب الاب يوسف توما، انطلاقاً من وجهة نظر انتروبولوجية.

✵ مقدمة

منذ القديم والانسان يحاول البحث عن الله.

ولو استطلعنا قصة هذا البحث لوجدنا ان ليس هناك طريق واحد ولا أسلوب واحد لهذا البحث. ولكن بالرغم من تعدد الطرق وتنوع الاساليب في البحث عن الله، نجد أن هناك خيطاً مشتركاً يربط بين جميع البشر وهو اتفاقهم على ان الله قريب وبعيد، معروف ومجهول، في الوقت نفسه.

من جهة أخرى، لا بد أن يتساءل كل انسان يوما ما: اليست فكرة الله مجرد انعكاس لما نحتويه نحن، افراداً وجماعات؟ أليس لعواطفنا ورغباتنا دور كبير في تكوين صورة الله فينا؟ السنا ننسب الى الله الكلام والفعل والحركة والافكار التي نحملها نحن؟ ألم نرسم صورة الله على شاكلتنا وعلى مثالنا؟

كثيرون يفكرون كذلك. وكثيرة هي النظريات حول أصل فكرة الله. فالبعض يقولون ان الانسان خاف فألّه السماء. ثم ألّه الشمس والقمر.. وتطور، فألّه الحياة.. ثم تفلسف فألّه الخير.. وتحارب، فألّه الحب والسلام.

هذا المقال لأقصر من ان يجيب على كل هذه الأسئلة. ولكني سأحول أن

استعرض الديانات القديمة الوثنية لنستطلع فيها أصل فكرة الله على ضوء ما توصلت اليه الدراسات في علم الأديان، ثم سأتطرق الى بعض الرموز المشتركة لدى كل البشر لنستكشف معانيها في الأساطير والطقوس، لنصل اخيرا الى أن تطور الاديان هو بعلاقة مع تطور قيمة الفرد فيها.

❋ أصل فكرة الله

لقد تعددت النظريات حول السؤال التالي: هل فكرة وجود الله هي من نتاج تفكير الانسان المنطقي، أم هي ثمرة مخيلته؟

إلا ان طرح المشكلة على هذا النحو لن يحلها. فلمن يقول ان الانسان خاف من البرق، فألّه البرق أقول: ترى من أين جاءت للانسان فكرة الآلوهة نفسها؟ أفلا يحق لنا، اذن، ان نبحث عن الجواب في مجال آخر-أي لا في الفكر المنطقي ولا في المخيلة بل ضمن منطقة أخرى مختلفة نطلق عليها اسم "المنطقة القدسية أو الرموزية"؟ وأبسط برهان على وجود هذه المنطقة هو وجود بعض المفاهيم المشتركة لدى جميع البشر في جميع أنحاء العالم.

يقول العالم ليفي بريل ان البدائيين "يحيطون بالاجلال الخرافي كل شيء مجهول لديهم"[١]. ولكن ميرسيا الياذ يذهب الى أعمق، فيقول أن عبادة الشمس والقمر أو البرق ليست مجرد خوف أو اعجاب بظواهر تتعدى مفاهيم البدائيين؛ انها تتعلق بمفهوم آخر وهو القدرة الغامضة. وما هذه الظواهر سوى "ظهور قدسي" لها (*Hiérophanie*) فيسجدون لهذه القدرة الغامضة من خلال تلك الظواهر[٢].

❋ وجهة النظر المسيحية

اما من وجهة النظر المسيحية، فقد رأى آباء الكنيسة أن مفهوم القدرة الغامضة هذا ليس سوى صدى لوحي الله للانسان عبر الانبياء والمرسلين خلال العصور. ولكننا عملياً لا نستطيع تحديد التطورات التي حدثت في الفكر الديني في تاريخ الانسان القديم. لذا لجأ اللاهوتيون المعاصرون الى أسلوب آخر يتلخص في ما يلي: الله لا يكشف عن نفسه مباشرة، كما نتصور، بل له اساليب عديدة، أولها استخدام الكون والطبيعة ككتاب مفتوح يستقرئ فيه الانسان وجوده. فداود النبي يقول: "السماوات تحدث بمجد الله والارض تخبر بعمل يديه" (مزمور ١٨:١). وأيوب البار يقول ان الله يظهر قدرته في هذا الكون (ف ٣٨ و٣٩). وسفر التكوين يؤكد ان النيرات والنجوم في مداراتها الدقيقة ليست سوى تعبير عن

(١) ليفي بريل: العقلية البدائية، ترجمة الدكتور محمد القصاص-القاهرة.
(٢) Mircea Eliade: Traité d' Histoire des Religions, Paris 1975, p145.

حب الله وامانته نحو البشر (ف ٨).

ان الاستشهادات الكتابية في هذا الشأن عديدة ويبرز فيها تعليم اساسي حول أصل فكرة الله وهو: ان الله قبل أن يكلم ابراهيم وموسى والأنبياء، كان قد كلم البشر من خلال عناصر الطبيعة وخاصة من خلال الضمير البشري. فما الديانات البدائية، اذا، سوى تعبير عن هذه الحقيقية، وهي أنها آثار هذا الوحي الأولي (راجع أعمال الرسل ١٧:٢٦-٢٧ و١٤:١٥-١٨؛ رومية ١:٢٠ و٢:١٤-١٥).

لا شك أن بعض المسيحيين الاوائل (أمثال كليمنطس الاسكندري) كانوا قد قسوا على الديانات الوثنية. واذا أخذنا ذلك على كونه ردة فعل طبيعية لدى من جاءوا من الوثنية فأرادوا التركيز على حالتهم الجديدة بالفصل القاطع عن الوثنية، فبولس يقول بصراحة عن الوثنيين: "ان الله لم يفته –خلال العصور الغابرة– أن يؤدي الشهادة لنفسه" (اعمال الرسل ١٤:١٧).

فالكنيسة –ولا سيما في فكرها اللاهوتي والراعوي المعاصر– تحترم الديانات الاخرى وترى في كل منها انعكاساً للحقيقة الشاملة. ففيها قيم انسانية وخلقية عظيمة تبرهن عن أن الله لم يهمل الانسان أبداً. غير أن المسيح يبقى بالنسبة لها هو وحده الطريق والحق والحياة، هو الذي كشف لنا عن أبعاد الله الحقيقة: الله محبة، الله أب، الله علاقة.

❋ العلوم الانسانية الحديثة

ثم جاءت في القرن الاخير دراسات المختصين بعلم الاديان المقارن لتدعم فكرة العنصر القدسي والتعبير الديني الاصيل –وان بدائيا– لدى الشعوب الوثنية. ولقد رفدت هذه الدراسات موقف الكنيسة المبدئي، في الواقع، بأضواء جديدة. فقد قام علماء كثيرون أمثال ميرسيا إلياذ وفان ديرلوف بدراسات جدية وجديدة وكشفوا لنا عن معاني هذه الاديان وطقوسها وتعاليمها، فاذا بها، ليس كما يبدو لاول وهلة، مجموعة من الخرافات، وانما نشأت في أصولها كتعبير عن روح دينية حقيقية، ولكن باسلوب بدائي يتوافق مع المستوى الحضاري لزمانها.

❋ سبب الانحرافات في الاديان

ولكن كما يخطيء الفكر في بحثه وتشطح المخيلة بعيداً عن الواقع، كذلك بالامكان أن يخطئ الانسان في بحثه عن الله. وقد عبر يسوع عن هذا الواقع خير تعبير في مثل الزارع (متى ١٣:٣-٩ و١٨-٢٣). فمن الزرع ما لا ينبت بسبب صلابة التربة أو لوجود الحجارة والاشواك، ومنه ما ينبت ويثمر لانه يلقى أرضاً صالحة، هكذا الامر مع البشر حيث أن الزرع هو كلام الله، والارض هي الانسان: فبذرة فكرة الله موجودة منذ

البداية، ولكن غالباً ما خنقتها أشواك الغرائز والخرافات، أو انها نبتت مخلوطة بالزوان والجهل، فلم يستطع البشر تمييز الصالح منها بسبب الرديء. فنسبوا الى الالهة ما كان من حق الله: "تغذت الالهة بخفية من فكرة الله، فحجبت الاله الحقيقي عن الظهور"(٣).

هكذا استلمت البشرية هذا الوحي الاولي بفكر محدود ووعي مشوه، ولم يكن لديها بعدُ الوحي المباشر أو عون النعمة والحياة الروحية لترى الامور بجلاء، فلم تجد معرفة الله في هذه الديانات تغلغلاً حقيقيا في النفوس، ما خلا بعض الحالات النادرة حيث استطاع رجال ونساء أن يصلوا بتلمس ومثابرة الى مستوى لا بأس به من المعرفة الالهية (سقراط، بوذا..).

✻ معرفة الله من خلال المنظورات

ان ما يجمع كل الديانات القديمة هو انها تحاول الوصول الى معرفة الله من خلال الاشياء المنظورة. فالكون فيها يتخذ بعدا رمزيا. اما مكونات الكون —كالشمس والقمر الخ...— فليست سوى جوانب معينة للالوهة.

غير اننا اليوم لا نفكر مثل الانسان القديم الذي لم يكن قد وصل بعد الى المفاهيم العقلانية أو الفلسفية. وقد استطاع علم الاديان ان ينقل الينا معاني العقلية القديمة هذه، وفهمنا الان مفاتيح رموزها:

فالنار مثلاً= النور، القوة، النقاء، الحرارة...
الظلمة= الخوف، الاختفاء، الجهل..
الندى= الارتواء، الراحة، الرطوبة، السعادة..

فالرموز كانت وسائل القدماء للمعرفة الحقيقية، لا الافكار كما هي الحال لنا اليوم. وقد اظهر العالم النفساني ك. يونك ان هذه الرموز كلها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحياة البشرية ذاتها وهي مشتركة بين البشر جميعا في كل انحاء العالم، لانها من مجال الخبرة الشائعة، كالاكل والشرب والنوم والتأثر والخوف والحزن الخ... وكما ان الرسم سبق التجريد في الكتابة، كذلك سبق الرمز الفكر ايضا: فالسماء تحتل مكانة هامة في الديانات القديمة، في بلاد ما بين النهرين واوقيانوس والصين والهند واليونان، حيث ترمز الى ظهور الاله الاعلى، وهي تعني للبدائي السمو، أي كل ما يتعذر الوصول اليه ويتوق اليه الانسان. فالسماء هي الخلود، النور، المطر، القدرة، الخصوبة. أما الارض فهي، بعكس السماء متقلبة في فصولها وزمانها وحركتها. وليست عبادة الشمس والنار الا كآخر مظهر من مظاهر الاله الذي يحيي ويزيل. وكذا الامر مع القمر كرمز للتكاثر، والعاصفة كرمز لحيوية الاله وقوته..

---

(٣) H. de Lubac: De la connaissance de Dieu. Paris 1948 p. 19.

و لم تخل الديانات الكتابية نفسها من رموز تبنتها أو لجأت اليها، مما يبرهن على ان الوحي الالهي لم يلغ أو يهدم ما سبقه، بل كيفه في اتجاهه الخاص. فتبنى المسيحيون، مثلا، عيد الشمس الوثني (يوم ٢٥ كانون الاول) ليجعلوا منه عيد ميلاد المسيح، شمس البر، الشمس الازلية الشارقة، التي تخلق العالم من جديد. وفي العهد القديم لجأ الكتاب المقدس الى صورة الصخرة (المعبودة لدى الوثنيين) ورمز بها الى الله (تثنية الاشتراع ٤:٣١)، مضيفا اليها فكرة جديدة وهي ان الله هو الحقيقة الراسخة التي يمكننا ان نعتمد عليها ونتعلق بها ونبني عليها حياتنا (راجع ١قورنتس ٤:١٠، أفسس ٢٢:١١)، كما سيلجأ الى رموز أخرى كالمطر، ليرمز الى البركات الروحية (اشعيا ٨:٤٥) أو الى فاعلية وحيوية كلام الله (أشعيا ٥٥: ١٠-١١).

وفي العهد الجديد ستأخذ الرموز بعداً جديداً لم يسبق له مثيل، فلقد كانت طريقة للتفكير والشرح ونقل الفكرة. فقد اعطى المسيح الرموز فاعلية خاصة تتعدى الفكرة الاساسية الطبيعية: فماء العماذ يرمز الى الخلقة الجديدة، من دون شك، والى حضور روح الله كما كان في الاول يرفرف على وجه المياه (تكوين ف١). ولكنه جُعلت له فاعلية اذ أصبح "موردا" ينقل الحياة الالهية. وكذا الامر مع الخبز الذي يرمز الى الصداقة والمحبة، والخمر الذي يرمز الى الفرح والعيد والمأدبة، فجعلهما، في الاوخارستيا، يحملان سر جسده ودمه اللذين يبذلهما من اجل خلاص العالم.

* الاساطير وعلم الآلهة

بنى القدماء مفاهيمهم على رموز "كونية" طبيعية، وجعلوا الرابط بين هذه العناصر بواسطة الاساطير التي تحكي كيف بدأ كل شيء: فحكوا خلقة العالم (اسطورة أنوما اليش السومرية) في قصة الصراع الذي حدث في البداية بين النور (ملك الآلهة) والتنين البدائي تيامات (أم الآلهة) حيث قضى عليها وخلق من اشلاء جسدها السماوات والارض.

وفي استراليا اسطورة البيضة الكونية الاولى التي خرج منها العالم.

وفي أفريقيا (داهومي) اسطورة قطرة الحليب الاولى التي احتوت كل الخليقة.

أما في اليونان، فالآله زحل يقتل اباه كروتوس (الزمن)، ومن زرعه يولد البشر..

ان الاسطورة ليست فلسفة ولا فكرة علمية منقحة تفسر ما يحدث حولنا، ولا هي خرافة بحصر المعنى. الاسطورة قصة تنتمي الى الاسلوب الملحمي هدفها الربط بين عالم أولي وعالمنا. فهي تحكي ما حدث قبل الزمن وهي تعكس نماذج مثالية *Archétypes* منها انطلق كل شيء كالحب والحرب والموت. وما البشر –بحسب التصور الاسطوري– سوى

صور باهتة لأصل أولي موجود خارج عالمنا(٤).

على كل حال ان الاسطورة وتغلغلها في الديانات الحديثة مشكلة عويصة تقلق الكثير من المؤمنين لانهم ياخذونها بمعنى الخرافة، فيستبعدون ان يكون في ايمانهم أي تدخل للاساطير. وقد ساور مثل هذا القلق الكثير من اباء الكنيسة القدامى بسبب بعض اوجه الشبه بين بعض الاساطير الوثنية وجوانب من المسيحية. فكان اعداء المسيحية من الرومان، مثل برفيريوس وسيلسيوس، يقارنون بين قيامة المسيح، مثلا، وقيامة ادونيس (تموز-الربيع) ولا يزال بعض الناقدين حتى اليوم يلجاؤن الى النهج ذاته.

❋ هل من بقايا اسطورية في المسيحية

حاول اللاهوتي الالماني رودلف بولتمان (١٨٨٤-١٩٧٦) ان يخلص المسيحية من الاساطير، فقال ان الايمان امر لا يمكن التعبير عنه، لذا لجأت المسيحية الى الصور الاسطورية لتشرح ما لا يمكن شرحه.

ولكن في هذا التفسير نقص هام:

قلنا ان الاسطورة هي قصة ما حدث خارج الزمان، وما الطقوس الوثنية سوى تكرار له. بينما تختلف طبيعة الوحي في الكتاب المقدس: فتدخل الله لا يحدث في "البداية" بل في "الوسط" بتعبير آخر: ان الله يدخل مسيرة البشر ضمن الزمن، ونسمي هذه العملية "تاريخ الخلاص" فالصليب، مثلا، ليس رمزاً للجهات الكونية الاربع، بل انه بكل بساطة آلة الاعدام التي علق عليها المسيح، فصارت رمزاً للفداء الذي حققه بموته عليها؛ والقيامة ليست رمزا لانتصار الربيع وعودته المتكررة كل سنة. انها حدث وحيد وفريد أدخل البشرية في حياة الله الثالوث، ولهذا يحدث علاقة صميمية بحياتنا اليومية، بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.

فالجديد والجوهري في الكتاب المقدس أنه يضعنا تجاه أعمال الهية جديدة ومصيرية تبدل التاريخ في مساره. والزمن في المسيحية ليس مجرد صورة باهتة لمثل فوقية. انه حقل عمل الله، ومن هنا يبدأ الخلاص، لان "ملكوت الله هو فيكم" (لوقا ١٧: ٢١).

---

(٤) نشأت الاسطورة، بحسب ماكس مولر، نتيجة لقصور في اللغة يؤدي الى أن يكون للشيء الواحد أسماء متعددة، وهي في نوالها، بمثابة المرحلة الاولى للدين. ولكن مهما اختلف الباحثون في أصول ظهور الاسطورة، فهم متفقون على نقطتين أساسيتين:
١. قدسية الاسطورة عند البدائي وعلاقتها بالطقوس.
٢. في تصورد، لها هدف عظيم.
فالاسطورة تقوم مقام الثقافة عند البدائي فتعبر عن العقيدة وتصون الاخلاق وتدعم الطقوس وتنظم حياة الانسان. فهي، اذا، عنصر حيوي في الحضارات القديمة ولها قوة فاعلة تتحكم في حياة الناس وأعمالهم، ولها دور المحفز لما تمليه عليهم من سلوكية.

✵ الطقوس

ان كانت الاسطورة تشرح علاقة الاله بالكون في الديانات الوثنية، فـالطقوس تحقق هذه العلاقة بينهما. لذا اعتقد الاقدمون ان في تكرار الطقوس فاعلية خفية: فتقـديم القربان للاله يربط الاله بدين تجاه عبده، وسكب الماء على الارض سيحقق سقوط المطر..

"ان الانسان البدائي بواسطة طقوسه.. يدخل في الزمن الاسطوري. هذا الـزمن الدائم، الخلاق، المنظم للكون، الدائم التكرار..."(٥). أي ان الانسان يقلد الاله، فيرتقـي بذلك الى عالم الآلوهة.

ولا ينكر أن هناك بعض أوجه الشبه مع الطقوس الواردة أو المستقاة من الكتاب المقدس: فالغسل بالماء يعني التطهير، والمناولة تعني المشاركة في حياة الاله (نتنـاول نفـس الطعام الذي تناوله هو، للحياة معه وللاعتراف بفضله..). واذا قلنا ان المسيحية لم تلغ ما سبق، وانما فتحته الى أبعاد جديدة، فالطقوس المسيحية تشير الى أعمال تاريخية حـدثت في الزمن وقام بها رجال يدعون موسى ويسوع.. وغيرهم. والطقس في هذه الحالـة لـيس تكراراً، وانما تجديداً، فيه فاعلية خاصة ضمن الزمن الراهن، كما أن الطقوس المسـيحية لا تتوخى الحصول على خصوبة الارض أو ما أشبه، لان غايتها روحية انسانية، يحاول الانسان فيها ان يعيش، لا ما حدث في الماضي، بل ما سيحدث في المستقبل. الطقـوس المسـيحية عوامل تساعدنا على خلق عالم جديد "كما في السماء كذلك على الارض"، أي ان نحول هذه الارض الى مكان صالح لسعادة البشر، وهكذا تصبح لائقة لحضور الله بيننا.

✵ قيمة الفرد

ان من يدرس الاساطير والطقوس الوثنية لا بد أن يلاحظ أنها تهتم بالجماعـة لا بالافراد كأفراد. فالخبرة الفردية فيها ضعيفة جداً، الا اذا ارتبطت بحياة المجموع. والوثنية اذ ترفض العلاقة الفردية بالاله، فلأن علاقة من هذا النوع تدخل ضمن خصوصـية الفـرد فتخرجه من شعبه وقومه. ولا نجد التقوى الفردية الا في بعض الديانات التي ظهـر فيهـا مفهوم الحب، فنقرأ في الادب الديني القديم صفحات رائعة تصف تعلق العبد بالاله.

وهكذا نشأت الصلاة التي يمكننا اعتبارها ركناً أساسياً من أركان الدين، فاتخذت أشكالاً عديدة: منها صلاة التمجيد والشكر والتضرع والاستغفار.

الصلاة هي إذن مقياس تطور الديانة الشخصية، وهي أسمى أعمال التقـوى، اذ فيها يعترف الفرد ان الاله كائن يمكن الدخول معه في علاقة شخصية. والتقوى جيدة عندما

---

(٥) Mircea Eliade, op. cit. p. 338-339.

يحتضنها الايمان ويسمو بها، لان الخلاص يأتي من الله، كما يؤكد الكتاب المقدس من أوله وحتى آخره. فالفرق بين المؤمن الذي يصلي والوثني الذي يصلي هو ان المؤمن يصلي الى اله يعرفه، ويعرف انه يصلي الى الله الواحد الحق الذي يحبه ولا يريد الا سعادته وخلاصه، وهنا النقطة الاساسية: صلاة المؤمن تصيب الهدف وترجع اليه محمّلة بالنعمة. انها علاقة ابن بابيه: "أبانا الذي في السماوات...".

في الديانة الشخصية، تتوق النفس الى الاتحاد بالله مخترقة ذاتها والعالم. وهذا يدخلنا الى عالم التصوف أو النسك الذي أنتشر بين اليونانيين والهنود الذين طوروه، فأنشأوا أساليب وتقنيات روحانية اتخذت أشكالاً عدة سواء من البوذية الصينية واليابانية أو في اليوغا الهندية. وكلها تشبه الزهد الذي دعت اليه الافلاطونية الجديدة، وتعتمد خاصة على تركيز الفكر وتخلصه من اضطرابات المخيلة والنوازع، لكي تصل الروح الى الانخطاف في الالوهة.

ان الشبه الذي نجده في الاساليب الصوفية والروحانية والنسكية في مختلف الاديان مثير للدهشة، ولكن هناك فارقا مهماً، وهو أن الديانات الوثنية تجعل الوصول الى الالوهة رهن هذه الاساليب وحدها فقط، أما في الديانات الكتابية (اليهودية، المسيحية، الاسلام) فتعتبر هذه الخبرة خاضعة لنعمة الله ولعمله المباشر في نفس المؤمن، وان الله لا يخضع عمله لاية تقنيات أو شروط مسبقة غير الايمان والانقياد لنعمته (اقرأ صلاة الفريسي والعشار في لوقا ١٨:٩-١٣)، مع الاخذ بعين الاعتبار ان البيئة الخارجية والاستعدادات النفسية للمؤمن لها دورها المؤثر في اعداده لسماع كلام الله وتغلغل وجوده فيه.

❋ الخاتمة

راينا اذا كيف تكلم الانسان مع الله.

ورأينا ان فكرة الله في جوهرها لم تكن في الانسان بمثابه الحاجة الى مخدر، كما ادعى البعض، بل كانت كبذرة تنمو وتحفزه على اكتشاف ذاته الحقيقية. قال الكتاب المقدس: ان الانسان هو صورة الله. وقال اباء الكنيسة: ان الانسان سر عميق وهو بذلك صورة لله غير المفهوم. ففي تلمس الانسان هذا اذا جانبان:

أولاً: عندما بحث الانسان عن الله اكتشف خبرة تراكمت عبر العصور، فكانت الديانات. ومرت هذه الخبرة في حواسه ومداركه وانطباعاته، فتعددت وجهات النظر وفقاً للظروف المكانية والزمانية والتربوية والاجتماعية. وتداخلت العاطفة والتمييز فوصل الانسان فيها الى أعمق ما فيه، الى الحب، عندما اكتشف انه ليس امام قوى غاشمة، ولكن امام شخص يستطيع ان يحبه.

ثانياً: في هذه النقطة التقى الله بالانسان، فأخذ المبادرة واقترب من الانسان ببطء

شديد وزمن طويل —هو "زمن الخلاص"— وهمس في ضمير الانسان انه يحبه وانه خلقه عن حب ومن اجل حياة أسمى. وجاء المسيح فأعلن ان الله يمكن أن يُحَبّ وأنه أب، وانه اذا ما اردنا قياس حبنا له، فبمحبتنا لاخوتنا البشر: "احبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم انا" (يوحنا ١٣:٣٤).

ولكن يجب ان نعترف ان الله ليس شخصاً نخاطبه بنوع بشري ككائن محـدود نحيط به بصيغة ما. ان الله لا يحده شيء: فهو البعيد القريب، الحاضر الغائب، الذي منه تنبع جذور الموجودات، وفيه جذوري أنا؛ أنه خالق كل شيء، وهو صاحب المبادرة في كـل شيء، ولا يطلب مني سوى أن أكون على الموعد. يلتقي بي في أحداث الزمان وفي حيـاة اخوتي البشر.

الاب يوسف توما

المصادر

– ليفي بريل: العقلية البدائية، ترجمة الدكتور محمد القصاص، القاهرة.
– معجم الفولكلور، تأليف الدكتور عبد الحميد يونس، مكتبة لبنان١٩٨٣.
- Jean Daniélou: Dieu et nous, Paris1956
- Henri de Lubac: de la connaissance de Dieu, Paris 1948
- Mircea Eliade: Traité d' histoire des Religions, Paris 1975

الانسان مركز فكر المسيح من خلال الانجيل

من يتصفح الاناجيل يلاحظ شيئاً ملفتاً للنظر حقا وهو أن يسوع يفتح صفحة جديدة في العلاقات ما بين الانسان والله. فالاناجيل، منذ افتتاحياتها تعرض كبرنامج حياة، ويتلخص هذا البرنامج بعبارة واحدة: الدعوة الى حياة أفضل. فاذا استثنينا نصوص الطفولة، نرى أن الاناجيل تبتدئ بخبر يسوع وهو مملوء من الروح، معلناً بدء عهد جديد. فعند لوقا ومتى يفتتح يسوع كرازاته بالتطويبات، وعند مرقس يعلن بأن ملكوت الله آت عما قريب. أما لدى يوحنا الذي ينفرد بأسلوبه اللاهوتي-التصوفي، فينصرف يسوع الى خلق الانسان الجديد: انسان النور، انسان القيامة.

اننا نلاحظ ان الاناجيل ليست شرحاً مفصلا عن الانسان، ولا هي قصة يسوع بحصر المعنى. ولكن حين نقول بان الانسان هو محور كرازة يسوع، أو انه محور الفداء، فهذا يعني في الوقت ذاته ان الاناجيل محورها شخص يسوع. واذا أردنا أن نتكلم عن الانسان وكيف ينبغي أن يكون انسان العهد الجديد، فعلينا ان نتكلم عن يسوع: ان يسوع نفسه، بأسلوب حياته ومواقفه، يعلمنا من هو الانسان الذي ينبغي أن يصل الى "ملء قامته"، الانسان الذي ينبغي أن يتصرف تجاه اخيه الانسان كما تصرف المسيح نفسه مع بني جيله.

اذا كان يسوع محور التاريخ البشري، فالانسان هو في المركز من فكره وقلبه. فمن أجل تجديد الانسان وتحريره ورسم علاقاته الجديدة بالله وبالبشر، جاء يسوع الى عالمنا، هو الانسان الكامل الذي عرف ان يعيش انسانيته كاملة. فاصبح مثالاً للانسان في طريقه الى مزيد من الانسانية.

يسوع هو صورة الانسان الجديد، انسان ملكوت الله حيث الحب والعدل والاخوة والسلام ... ومن أولى به غير الفقراء والمظلومين والمقهورين والمستضعفين، وهم اصدقاء يسوع الذين دُعوا الى حياة جديدة تتسم بالحرية والفرح والرجاء ...

الاب افرام سقط يعرض لنا قراءة في الانجيل تبرز من خلالها قيمة الانسان في فكر يسوع ومواقفه.

من خلال تحليلنا لموقف يسوع يبرز أمامنا اهتمام يسوع الرئيسي بالانسان المستغل والفقير. لذلك فالسعادة التي يعلنها الانجيل هي للفقراء. فالاناجيل التي تحتوي على أعمال يسوع وأقواله تضعنا أمام نبي من معدن جديد، نبي -وأعظم من نبي- جاء محررا وفاتحاً عالماً جديداً: "الان، اليوم قد تمت الاية.." وحين نقول بان ملكوت الله آت بيسوع، فهذا الملكوت هو فعل تحرير الانسان.

* ملكوت الله إعلان لتحرير الانسان

إن عبارة "ملكوت الله" دلالة على التحرير الآني بيسوع. فحياة بيسوع. ورسله، كما وردت في الاناجيل وسائر كتب العهد الجديد، لم تقدم كقصص اشخاص قدامى بارزين، وانما كرسل محررين (تاريخ الوحي كله قصة طويلة لفعل التحرير الذي يقوم به الله تجاه الانسان، لانه قصة علاقة حب محرر). ومع يسوع وبعده يشترك رجال ونساء في هذا المشروع ويواصلونه. وعندما يعلن يسوع ان الله ملك ورب الخليقة كلها، فهذا يعني ان التحرير يتم فعلاً، اذ "لا احد يستطيع ان يخدم سيدين: لا تستطيعون ان تعبدوا الله والمال...". بمعنى اخر ان ملكوت الله يقضي على الظلم الناتج عن تسلط الناس وآلهتهم الكاذبة (المال، الترويج، اللذة، الاستهلاك). ان ملكوت الله في ديناميته، اقوى من أية قوة تحاول ان تستعبد الانسان. أنه أقوى من استبداد السياسة الذي يشكل خطراً أكيداً على حرية الانسان وكرامته.

ان فعل التحرير الذي أتى به يسوع يشير الى أن البشر قد صاروا واحداً في جماعة تؤمن بالتحرير كواجب وكضرورة. فمنذ فجر المسيحية، يشكل التلاميذ جماعات متآلفة تجول البلاد من أجل التبشير بملكوت الله. ويصف سفر اعمال الرسل (٢:٤٢-٤٧) الجماعة الاولى والعناصر الجوهرية التي تكونها: الصلاة المشتركة، والفرح والخبز المقتسم واقتسام الممتلكات وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، وشفاء المرضى، ففعل التحرير واعلان البشارة ليسا عملاً فردياً. وانما عملاً جماعياً. أما شفاء المرضى فيأتي كعلامة لمجيء الملكوت في زمان كان البؤس والمرض منتشرين في مدن وقرى فلسطين (يوحنا ٥:٤؛ لوقا ١٠-٩). فيسوع ورسله شفوا المرضى، وكل من رأى تلك الايات اعتبر شفاء المرضى كبداية لتحرير الشعب بكامله بحسب وعد الانبياء (اشعيا ٦٦:١) حتى نال كل من شفي المقدرة على أن يشفي هو بدوره ويصبح نبياً لإعلان التحرر.

ولكن اعلان بشارة التحرر ناقصة ما لم يرافقها بذل كل المستطاع حتى يزول الفقر بكل أشكاله والمرض والظلم. فالاناجيل تتكلم عن الله وعن مسيحه، عن اله الفقراء الذي أتى ليقيم، على يد مسيحه وتلاميذه، ملكوته الذي هم ملكوت عدل ومحبة.. عن انسان يريده المسيح يناضل كي يزول الفقر ولا يبقى فقراء. ولكن عليه أن يعمل من أجل

ذلك بقلب فقير. واذا لم يتحل المرء بتلك الاستعدادات القلبية، فسيكون عاجزاً لا محالة عن ان يساعد الفقراء من دون أن يحطمهم بشفقته. وهذه الاستعدادات القلبية نستقيها من يسوع الوديع والفقير القلب (متى١١:٢٩). ومتى عرف الانسان انه مغمور بالنعم مجاناً، استطاع عند ذلك أن يبشر الفقير فيساعده على التحرر من فقره. من جانب آخر ان المعجزات أشارة فعالة الى أن سلطان الشر في العالم قد بدأ بالتراجع (متى ١٢:٢٧-٢٨). فكم كان فرح المسيح كبيرا عندما شعر بان ظلمات الشر قد تبددت والشر قد انهزم (لوقا ١٠:١٨). فالله، باقوال مرسله وأفعاله، قد غلب الشر (أعمال الرسل ٢:٢٢). والنبي الجليلي يعلم يقيناً بان الازمنة الاخيرة قد اقتربت، أي ان الملكوت قد بدأ يتحقق بشخصه، وان الجماعات الاولى اخذت تتفتح على العالم الجديد وأخذت بذورها تتحدث الى كل انسان بلغته وتتأقلم مع ثقافته. أما الصراعات الناجمة عن فعل التحرير —وحتى التوترات التي خلقتها بين الجماعات— فهي مصدر غنى، لانها موجهة نحو هذا الهدف الشامل.

اجل، لم تكن حركة يسوع حركة سياسية، فهي لم تستهدف اقامة مملكة أو امبراطورية "مسيحية" (وكل مرة استخدم الانجيل في التاريخ لهدف سياسي فشلت البشارة وابتعدت عن هدفها) ولكنها بشارة ببرنامج حياة يصبح الانسان بموجبه ابنا لله ودعوة الى ألا يعبد إلا الله. انها تستهدف تغيير الانسان تغييراً جذرياً؛ وتغيير الناس من عبيد الى أحرار يعني أن نصبح أبناء الله مع كامل الحقوق والواجبات. وأن يكون المرء ابن الله، فهذا يعني عدم الخضوع لرب اخر، وأن يصبح جميع الابناء قادرين ان يحبوا بعضهم بعضاً، وان يختبروا بأنفسهم بأن السعادة التي تنجم عن فعل التحرير تعتبر قوة لا تقهر. لذلك يشعر جميع الناس في "ملكوت الله"، مثل يسوع، بانهم ليسوا بمستضعفين مسحوقين، لانهم سعداء. والنصوص التي تتحدث عن هذا النصر عديدة، منها: حبة الخردل: مرقس ٤:٣، مرقس ٩:٢٣. فكل شيء ممكن لمن يؤمن. كما ان تسمية "أبناء الله" دلالة الى حقيقة اخرى اشار اليها يسوع عندما تحدث عن "حرية ابناء الله" (متى ١٧:٢٦؛ يوحنا ٨:٣٣-٣٥).

✻ الروح والحرية

الاناجيل دعوة الى الفرح الذي مصدره الروح، والامثال التي ضربها يسوع تصف جانباً من هذه الحياة الجديدة وضرورة التحلي بالسلوك الجديد على ضوء الروح الذي يعطي للابن. فمثل الابن الشاطر (لوقا ١٥) يعبر عن الوجود الجديد، ذلك لأن الفرح المعاش فعلا هو الذي يأتي عندما ينتهي شقاء الابناء الضالين، وهو يوحد البشر. فعيد الفرح لا يحتفل به بشكل تام الا عندما يكون الجميع مجتمعين في بيت الاب (موقف الاب ازاء موقف الابن الاكبر). ان مواهب الروح المعطاة للبشر تستهدف بناء علاقة متميزة بين الابن والله (مثل يسوع وأبيه)، وهذه العلاقة تبنى بين الله والبشر جميعاً وليس فقط بين الناس الذين ينتمون الى جماعة معينة. لان من اكتشف واختبر سعادة التحرير لا يطمئن حتى يرى جميع الناس يعيشون هذه الحرية.

فاذا كان هذا هو الهدف من اعلان ملكوت الله الذي هو ملكوت تحرير، فمن هو، يا ترى، هذا الانسان الذي نادى به؟

انه يسوع الذي من ناصرة الجليل، النبي الذي عرف، بمواقفه وأسلوب حياته، ان يقول لنا بانه الانسان الوحيد الذي عاش حراً تماما!

ألم نشعر ونحن نقرأ الانجيل بان شخصا يلقي علينا هذا السؤال: من أنا في نظرك؟ -هذا الشخص نسميه يسوع، وحضوره فينا وفي الآخرين سري، وكلماتنا تتعثر ولا نحسن الكلام عندما نتحدث عنه. من هو يسوع، يا ترى، يسوع الحي، الحر الذي يحيي ويحرر؟ اننا قد ندعي معرفته، ولكن معرفتنا تبقى نسبية، لان الايمان ومخيلتنا الشخصية تمتزجان، ونحن بحاجة الى أن نصحح مسار ايماننا بين الحين والاخر، لذلك يتوجب علينا ان نعود الى شهادة الاناجيل.

سنحاول ان ندلي ببعض ملاحظات حول شخص يسوع لنتعرف على هذا الناصري، لان أسلوب حياته وطريقة عيشه التي من خلالها أظهر اخلاصه لله، ستساعداننا على أن نفهم كيف ينبغي أن نعيش نحن أمام الله.

✵ يسوع انسان حر: كل انسان مدعو لأن يكون حراً

يسوع انسان حر.

هذا ما يتفق عليه الانجيليون. وسنتبين ذلك من خلال مواقفه وتصرفاته، وليس من اعترافاته الشخصية.

تشير الاناجيل الى السلطة التي كانت تتجلى من شخص يسوع في حرية مثيرة للدهشة. فلقد أثار النبي الجليلي الدهشة لدى مستمعيه بطريقة أحاديثه وأفعاله والمواقف التي اتخذها تجاه الشريعة والمسؤولين. انه يقبل الفقراء ويشفي المرضى، ويعلن لهم الغفران، أي انه يدعهم يشعرون بالحرية التامة والاطمئنان. لقد كان حراً تجاه ذويه وبني قريته -وقد أرادوا في عدة مناسبات أن يقيموه ملكاً- (مرقس ٣:٢١، ٣١-٣٥؛ لوقا ١٤:٢٦-٢٧). اسرته الحقيقية هي كل انسان يتقبل ارادة الله. و لم تستطع السلطات الدينية المتمثلة بشخص الصدوقيين والكتبة أن يقيدوا حريته. لقد عاشر الجميع و لم يحصر علاقته بفئة معينة (لوقا١١:٣٧)، ولكنه لا يهتم للسلطة التي يدعونها في تفسيرهم للشريعة. تنه ينتقد بشدة الدور السلبي الذي يلعبونه بادعاءاتهم واستغلالهم الناس المساكين. يجالس المهملين والمضطهدين كي يشعروا بان الله يحبهم، لانهم بفقرهم، هم وحدهم، قادرون على فهم حرية أبناء الله: هؤلاء الناس يسميهم الانجيل "الخطأة والمهملين والعشارين والزواني"، اولئك الذين قال عنهم امام الشيوخ: "انهم يسبقونكم الى ملكوت الله" (متى ٢١:٣١) انه لا ينفر من النساء ولا يتحاشاهنّ (خلافا لعوائد ذلك الزمان)؛ وفي الخلاف الذي نشب بين الرجل

الذي أراد ان يطلق امرأته وبين زوجته، يسوع يطالب بحقوق المرأة (متى ٥:١٣). ومن بين أعز أصدقائه نجد مرتا ومريم والمجدلية... انه لا يهاب السلطة السياسية، فهي لا تخيفه ولا يكترث لها (لوقا ١٣:٣٢): "اذهبوا وقولوا لهذا الثعلب.."، لانه لا يعنى بها.

ان حرية مثل هذه تشكل من دون شك خطراً جسيماً على السلطات الدينية والمدنية، ولكنها تحرر الانسان وتخلق الثقة لديه في نفسه وتقوده الى التساؤل: ترى، من هو هذا الانسان؟ ومن أين له هذه السلطة؟

ان الرجل الذي سمعه يناديه "يا بني مغفورة لك خطاياك"، والمرأة الزانية والمخلع وزكا العشار واللص المصلوب.. وغيرهم ممن غفر لهم يسوع انفتحوا لرجاء حياة جديدة ونالوا خبرة فريدة من نوعها: خبرة الانسان المحرر، لان شخصاً اسمه يسوع أحبهم، وهذا الحب حررهم وجعلهم يشعرون بانهم ليسوا مهملين ولا معزولين ولا مدانين؛ هؤلاء تساءلوا من دون شك بعد أن شعروا بالحرية التامة: من هذا الرجل الذي يعلن بجرأة وحرية غفران الله؟ من هو هذا الانسان الحر الذي يقلق الناس وحتى السلطات الدينية؟

ان مواقف يسوع "الشاذة" تجاه ذوي السلطة هي اعلان عن افتتاح عهد جديد، كان كاتب سفر الرؤيا قد رآه بعينه النبوية وأهتز له فرحاً: "ورأيت سماوات جديدة وأرضاً جيدة". والمعجزات التي رافقت عمل يسوع ليست الا برهاناً لمصداقية هذا التحرر من الاستعباد الديني–الاجتماعي–السياسي. وقد أكد يسوع مراراً على حرية الانسان الجديد والثقة التي يمنحها الله بالروح، هذا الروح الذي يعطى مجاناً لكل انسان مستعد لقبوله. ان حضور الروح في الانسان والعيش في الحقيقة علامة مميزة للتحرير الذي يهبه الله. فالروح يخلق الثقة لدى الانسان العطشان الى الحرية، الى الانطلاق: "لك أقول قم.. امش". فكل مرة يغفر يسوع، فانه يحرر. والانسان الجديد الذي يريده يسوع هو الذي يقبل تلك الفئة المدانة، الهامشية، ويقبل يسوع وأسلوب حياته، وهكذا، هو أيضاً بدوره يغفر، ومن ثم يحرر اخوته.

✻ موقف يسوع من الشريعة:

العمل بإرادة الله، لا حفظ الشريعة، هو علامة الانفتاح الى التحرر

هذه النقطة تشكل محور ما ورد في الاناجيل، وتجعلنا نطرح مسألة موقف يسوع من الشريعة:

لقد قيل وكتب الكثير عن موقف يسوع من الشريعة، وأظن اننا مخطئون اذا ما قلنا بان يسوع قد نقض الشريعة. لقد ترعرع يسوع في شعب معين له حضارته، والتزم بالشريعة كسائر اليهود المتدينين. انه يحترم الشريعة بمضمونها الادبي والديني. ولكنه، على

عكس الفريسيين، لا يعتبر الشريعة في حد ذاتها وتفسيرها مسألة جوهرية. وحين يدعو بالحاح مستمعيه الى التوبة والى العمل بموجب ارادة الله، فهو لا يعتبر الالتزام بالشريعة وحفظها الحرفي (ومن ثم الطاعة لأي قانون يسنه البشر) كعلامة اكيدة لتكميل ارادة الله. لذلك فانه يطالب الانسان بان يتخذ موقفاً نزيهاً تجاه الله: "السبت جعل للانسان، لا الانسان من أجل السبت". وفي آخر جولاته في اليهودية وأورشليم، سيصطدم بمناوئيه من اليهود ومن المتمسكين بحرفية النص (الروح يحيي والحرف يقتل)، وسيتناول معهم مسألة الشريعة منتقداً بشدة شريعة موسى كما كان يعلمها خصومه، ومعلناً بطلانها. وكايضاح لخطورة المجابهة الحاصلة بين دعاة الشريعة ويسوع من جراء مواقفه السلبية تجاهها، والنتائج التي انعكست على تلاميذه حتى بعد موته، نورد مثل اسطيفانوس، أحد الشمامسة السبعة الذين ورد ذكرهم في أعمال الرسل (٦:١٣-١٤) والتهم التي وجهت اليه "هذا الرجل (اسطيفانوس) لا يكف عن التعرض بكلامه لهذا المكان المقدس وللشريعة. فقد سمعناه يقول ان يسوع ذلك الناصري سينقض هذا المكان ويبدل ما اورثنا موسى من سنن".

ان يسوع ينتقد عنصرين من الشريعة: الهيكل ورجاله الذين يخالفون ارادة الله من أجل الحفاظ على السنن البشرية، والسبت من حيث ان الالتزام الحرفي يقود الى نسيان المسألة الجوهرية في الحياة الا وهي الانسان.

أما على الصعيد السياسي، فان يسوع يرفض لقب المسيح السياسي، يرفض ان ينظر اليه كابن داود وكوريث لعرشه ومملكته (مرقس ١٢:٣٥-٣٧).

اما عندما يتكلم عن الهيكل وعن هدمه وبطلان الذبائح الدموية، وعندما ينتقد الطقوس المتعلقة بالذبائح (راجع عاموس ٥:٢١-٢٥)، فانما ينطلق من موقف نبوي. فالاناجيل لا تورد أن يسوع ذهب الى الهيكل ليقدم ذبيحة أو تقدمة، ولا تحدثنا عنه صاعداً الى الهيكل للصلاة الطقسية، فاذا كان يسوع لا يصلي في الهيكل ولا يقدم فيه التقادم، فماذا ترى كان الهيكل بالنسبة اليه؟ الهيكل، في نظر يسوع، كان المكان الذي فيه يأتي النبي ليدافع عن حقوق الله ويحتج علنا ضد مواقف الشعب والكهنوت الرسمي اللذين أهانا الهيكل وجعلاه سوقاً تجارية ومجرد "نظام" (مرقس ١١:١٥-١٦؛ راجع زكريا ١٤:٢١)؛ فيسوع، اذ ينحي باللائمة على هذا النظام ويتخذ موقفاً مناوئاً منه، فأنما ينحي موقف الانبياء الذين سبقوه مثل ارميا (٧:١-١٥). فلقد سجن هذا بسبب موقفه، واذ نجا مرة من الرجم، قتل احد تلاميذه بسبب تهجمه على أورشليم والهيكل كقيم جامدة (ارميا ٢٦). أفليس يسوع، هو أيضاً، النبي المقتول من أجل قضية مشرفة: قضية الله والانسان؟ فبالنسبة للسلطات الكهنوتية، لا نبي حقيقياً الا وقتل. فمواقف يسوع وأقواله على أورشليم والهيكل أخذت مجرى دراميا في القرار الذي اتخذه الرؤساء للتخلص من هذا الانسان الحر ومن هذا النبي الجديد.

* خاتمة

لقد أعلن يسوع بعلامات واضحة أن تحرير الانسان قد تحقق، وان الانجيل وحياة يسوع نفسه ليسا الا تكميلا لهذا التحرير. وكل انسان محرر يسمو على الشريعة، أي أن له الحق والقدرة على العيش والصفح والمغفرة مجاناً من دون قيد أو شرط، وله أن يلتزم بهذا "الوضع" بلا خوف حتى في حالة مجابهة الموت، هذا ما نسميه محتوى البشرى السارة: بشرى تحرير أعلنها يسوع باسم حب الله. هذا التحرير سيظل مشروعاً غير مكتمل تماماً، مشروعاً يبنى على مر العصور، سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي. فالبشرى هي اعلان التحرير من جهة، وهي مشروع فعلي وواقعي للتحرير من جهة أخرى. وحمل البشرى لا يتوقف على ابلاغ رسالة "الله يحبكم ومحبته تحرركم" وحسب، وانما تتطلب تحرير الاشخاص فعلياً وعيش حب الله من خلال الحب البشري والاخوي.

فيسوع لم يسلم رسالة فكرية لتلاميذه، ولكنه عاش في واقع متجسد فعلي: لقد حرر أشخاصاً معينين. ففي عالمنا المعاصر تتخذ خبرة زكا أشكالاً شتى، جوهرها ان كل انسان يفتقر الى ثقة الله والى ثقة الناس كي يغير حياته ويتجدد. فزكا، عندما تحرر من القيود التشريعية والاجتماعية، قال: "أنا محبوب وهذا الحب يحررني". هكذا، اذن، ليست البشرى السارة خطاباً دينياً، وانما هي خبرة التحرر المعاشة في علاقة مع الله، ومع الناس كأفراد وكجماعة.

الاب افرام سفط

نظرة لاهوتية معاصرة للانسان

أية محاولة لتحديد مفهوم للانسان تظل ناقصة إن لم تأخذ بعين الاعتبار التحول الحضاري ... وهكذا تبقى المحاولات اللاهوتية حول الانسان منتقصة ان لم تبحث عن المناخات الحضارية التي افرزت مفاهيم، قد تكون مقبولة في زمن ما ومرفوضة في زمن اخر. من هذا المنطلق يبرز التضاد بين الفكر اللاهوتي التقليدي والفكر اللاهوتي المعاصر حول الانسان.

واذا كانت صورة الانسان في اللاهوت التقليدي ترتكز على فلسفة منحازة وقراءة معينة للكتاب المقدس، فان اللاهوت المعاصر يعرض صورة للانسان تتميز بالواقعية والجدلية، يضفي عليها الانجيل بعداً جديداً يبدو معه الانسان كلا لا يتجزأ، وتبدو حياته مندمجة بمصير ومستقبل البشرية، بصراعاتها وتطلعاتها...

الى هذه الجدلية بين لاهوتين، في نظرتهما الى الانسان، يدخلنا الاب لوسيان جميل.

مما لا شك فيه أن مفهوما لاهوتيا جديداً عن الانسان أخذ يبرز ويتبلور وينتشر في بلدان عديدة من العالم منذ ما يقرب من ربع قرن، ولا سيما في الاوساط التي خرجت عن التقليد في فكرها وحياتها. في هذا المقال سأحاول أن أقدم خلاصة لاهوتية لهذا المفهوم اللاهوتي الجديد، موضحاً حقيقته واسباب ظهوره وانتشاره، مستنداً الى نظرة علمية للامور.

سبيلنا الى فهم طبيعة هذا اللاهوت

اذا اردنا ان نتفهم بعمق طبيعة المفهوم اللاهوتي الجديد عن الانسان، علينا ان نضع هذا المفهوم في اطاره الحقيقي، وهذا الاطار هو التحول الحضاري الذي تمر به البشرية اليوم والذي يوجه الفكر البشري باتجاه واحد جوهريا. وبما ان التحول الحضاري يعني الانتقال من القديم الى الجديد، فان المقارنة بين القديم والجديد تصبح ضرورية لفهم أي فكر جديد.

أولاً: التحول الحضاري ومفهوم الانسان:

ان التحول الحضاري ليس مجرد تغيير اعتيادي يجري في بعض مفاصل الحياة، بل هو قفزة نوعية ذات أسس مادية وروحية عميقة تشمل الحياة البشرية بكافة مجالاتها

الفكرية والعملية. فلا عجب أن يكون مفهوم الانسان في مقدمة المفاهيم التي يشملها التحول. فالانسان، بالنتيجة، هو غاية كل فكر وكل فلسفة وكل عمل في شتى الحضارات. ولذلك نجد أن الازمات التي تسبق أي تحول حضاري انما تؤثر أولاً على مفهوم الانسان. فالانسان في زمن الازمات يكتشف ذاته ويعي واقعه فيحاول أن يكسر القيود التي تعرقل انطلاقه نحو حياة أفضل. والجدير بالذكر هنا ان اية محاولة للتقدم لا تتم قبل أن يعي الانسان ذاته ويكوّن لنفسه مفهوماً عن هذه الذات.

* سمات التحول الحضاري:

ان دراسة سمات التحول الحضاري تساعدنا بالتأكيد على فهم المستجدات التي تطرأ على مفهوم الانسان. ويمكننا تلخيص هذه السمات باثنتين مرتبطتين مع بعضهما ومتداخلتين، وهما الواقعية والجدلية:

١. الواقعية:

وتأتي من كلمة واقع. والواقع هو ما كان واقعاً وحاصلاً وموجوداً. وهو ما يفرض نفسه كشيء بديهي أكيد. الا أن الواقعي ليس مرادفاً "للعلمي" دائماً. والواقعية ليست "الوضعية" بالضرورة، لان الوضعية كما نعلم مذهب يعني أن لا حقيقة خارج البرهان العلمي الصرف. أما الواقعية فهي "مطلب" فكري لا يرفض العلمية ولكنه يكتفي بالبداهة مهتدياً بمؤشرات و "بعلامات ازمنة" كما سماها البابا يوحنا الثالث والعشرون. والواقعية بهذا المفهوم شكل من أشكال "العلمانية"، لان بداهة المفاهيم الجديدة تحرر الانسان من أية وصايا، فلسفية كانت أم دينية أم سلفية. وهكذا تصبح هذه الواقعية جدلية انقلابية في الوقت نفسه. علماً بان العلمانية هنا تعني أن أي أمر مرتبط بواقعه وأسبابه الحقيقية، وليس باعتبارات دخيلة وغريبة عنه.

٢. الجدلية:

وهي مصطلح فلسفي قد نتبناه كله كما جاء في أصوله الاولى، الا أن ما يعنينا فيه الان هو واقع التحول الحضاري وحتميته. وهذا الواقع هو وليد الجدلية. فالتحولات الحضارية لا تأتي عن طريق الصدفة ولا هي من صنع بطل ما قادر على قيادة العالم وتحريكه. بل هي ثمرة لقوانين كونية معقدة للغاية تعمل عملها بقوة وثبات وتقود مسيرة التاريخ. لذلك فان التحولات الحضارية هي كالاعصار الذي نجهل دقائق أسبابه، وهي، في حتميتها، كالمد الذي لا يمكن ايقافه. فمهما كانت معرفة الانسان واسعة، فانه عاجز عن إلغاء التحول الى الابد، حتى اذا تمكن من أبطائه وتأجيله، لان الانسان لم يستطع بعد احتواء كل القوانين التي تسبب في سقوط وقيام الحضارات؟

والجدير بالذكر ان التحولات الحضارية يرافقها دائماً الصراع الطبقي سواء كان هذا الصراع دموياً عنيفاً أو سلمياً بارداً، لان الصراع الطبقي ظاهرة أساسية وطبيعية من ظواهر التحول الحضاري.

* سمات التحول الحضاري في عصرنا:

اذا كانت الواقعية الجدلية من سمات كل التحولات الحضارية، فان قوة الصراع الطبقي والقومي وعالميتهما هما من خصوصيات عصرنا، وذلك بسبب تعاظم قدرة رأس المال وازدياد قوة الدول الكبرى التي تحاول السيطرة على العالم.

أما واقعية عصرنا، فانها تتميز بامور مهمة منها أنها واقعية علمية وتقنية تجعل الانسان جزءاً من عالم "مصنّع" في كافة المجالات. والواقعية المعاصرة عالمية بكافة أبعادها وهي تؤكد على عالمية الانسان الذي أصبح مواطن العالم شاء أم أبى، لان العالم صار مرتبطاً بعضه، سلباً أو ايجاباً، بشكل ليس له مثيل في السابق. وأخيراً نلاحظ ان الواقعية المعاصرة تتميز بالنضال من أجل الانسان، سواء كان فرداً أم مجتمعاً، كما تتميز بازدياد مطالب الانسان المادية والاجتماعية.

ثانياً: الانسان في الفكر اللاهوتي التقليدي:

بعد أن تكلمنا عن التحول الحضاري وعن سماته، لا بد أن نقول شيئاً عن الانسان في الفكر اللاهوتي التقليدي، لان التحول من هذا الانسان الى الانسان المعاصر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحول الحضاري نفسه. وان صورة الانسان المعاصر نقيضة وبديلة للصورة التقليدية.

ان أي متتبع لتاريخ الفكر اللاهوتي التقليدي يعرف بان صورة الانسان في هذا االلاهوت تعتمد على ركنين اساسيين هما الركن الفلسفي والركن الديني. فالركن الفلسفي ياتينا بشكل رئيسي عن طريق أرسطو، اما الركن الديني، فيأتينا من قراءة معينة للكتاب المقدس. فالمعروف عن الفلسفة الارسطوطالسية انها فلسفة متصفة بنظرتها الثابتة الى الاشياء. ففي هذه الفلسفة كل شيء له طبيعة ثابتة في المقومات والاوصاف، وهذه الطبيعة يدركها العقل بشكل أكيد وقطعي. فالعقل اذن بحسب أرسطو يمكنه ان يدرك طبيعة الانسان ويحددها وكأنه آلة تصوير تجمد الحركة في لحظة زمنية لتحصل على لقطة ثابتة ومستقرة. فانسان ارسطو هو انسان "معقول"، كل شيء فيه معقول ومحدد على الدوام: الطبيعة محددة وكذلك الغاية والعمل.

وبديهي أن يرتاح الفكر الكنسي الى مثل هذه النظرة ويتبناها. فالمسيحية نشأت وترعرعت في بيئة الحضارة اليونانية الرومانية، فاقتبست منها أشياء كثيرة. ولقد كانت

المسيحية في بداية عهدها نفياً ونقضا لهذه الحضارة، الا انها ما لبثت أن تحولت اليها بمساومة كبرى بعد ان نعمت الكنيسة بالامن والاستقرار. اما المساومة، فقد كانت نوعاً من التحالف بين "الدين والدنيا"، أو نوعاً من التفاهم بين الفكر المسيحي والطبقات الجديدة الناشئة؛ وبهذه المساومة أعلنت الكنيسة رضاها عن هذه الطبقات الناشئة مقابل التزام هذه الطبقات بنظام اعتقد الفكر المسيحي انذاك انه نظام مسيحي. وفي الواقع لم تكن المسيحية هي الرابحة من تحالفها مع الاقطاع الناشئ، لانها في الحقيقة لم تتمكن هي من احتواء النظام الاقطاعي الجديد، بل انه هو الذي احتواها وأضعف مفعول نضالها. ففي هذا العهد تحولت المسيحية من ثورة روحية وانسانية جذرية الى دين وسلوك أخلاقي أصبح في خدمة الاقطاع الناشيء في جوانب عدة. ان ما حدث في الواقع ان المسيحية بدت وكأنها تخلت عن تحقيق ملكوت الله في هذا العالم بعد ان احتواها العالم مقابل تنصره، وذلك لتركز تبشيرها على ملكوت الله في العالم الاخر، مستفيدة من ثنائية الروح والجسد التي وصلتها عبر قنوات مختلفة. وهكذا صار الانسان المسيحي هو المعمذ الملتزم بالوصايا التي تعبر عن ارادة الله والتي تضبط سلوكه كي يكون سلوكاً "معقولاً" يؤهله للوصول الى غايته التي هي "السماء".

العوامل الدينية اللاهوتية والمسيحي التقليدي:

الى العوامل السابقة الذكر نضيف عاملاً جديداً أسهم بشكل فعال في رسم وخلق صورة المسيحي التقليدي، الا وهو العامل الديني. وعندما نتكلم عن هذا العامل، على القارئ ألا يعتبره عقيدة خالصة، لان هذا العالم، كما قلت في بداية المقال، ليس الا ثمرة لقراءة ما للكتاب المقدس، وهذه القراءة ليست خالصة من الشوائب الناتجة عن حضارة زمانها.

أما هذا العامل الديني، فيعتمد اساساً على فكرتي الخطيئة والنعمة. والخطيئة هنا تعني "السقطة الاولى" بشكل رئيسي. أما النعمة فهي حالة البرارة المسترجعة بموت يسوع الفدائي وقيامته. فالخطيئة الاصلية، اذن، والنعمة قطبان ينحصر بينهما مفهوم الانسان التقليدي من الناحية التقليدية. ان فكرتي الخطيئة والنعمة تؤكدان لنا ان الانسان يولد ساقطاً وعاجزاً، وأنه لا بد له من عون خارجي خاص كي يسترجع حالته الطبيعية وينال الخلاص كما يقال. ومن جهة ثانية، نحن نعرف ان النعمة لا تصلح فساد الطبيعة، لان الطبيعة تبقى جامحة متمردة حتى بعد الحصول على النعمة. وهذا يعني ان الخلاص لا يمت الى حياة الانسان الواقعية بصلة كبيرة، تماماً كالخطيئة التي حجبته. فالخطيئة والنعمة، انما تؤثران فقط على حياة الانسان المسماة "بالفائقة الطبيعة" التي تفسدها الخطيئة الاصلية وتعيدها النعمة.

وبديهي أن يصبح أي شيء في ظل هذه الافكار بدون قيمة، اللهم الا ما كان واسطة لربح السماء أو عائقاً في سبيلها، فتجب محاربته اذ ذاك. أما سلوك المسيحي، فتنظمه الوصايا والشرائع الكنسية، مقرونة بالفضائل السلبية كالطاعة والقناعة والصبر في تحمل صعوبات الحياة وغير ذلك من الفضائل التي تخدم حاجة المجتمع الناشئ في الهدوء والاستقرار

كي يسير نحو أهدافه بانتظام وبدون عراقيل، على اساس انه نظام مسيحي يستحق كل تأييد.

هذه هي اذن الملامح الاساسية للانسان في الفكر اللاهوتي التقليدي: انه ساقط وعاجز عن تحقيق الخير الحقيقي. والنعمة لا تؤثر الا على حياته الفائقة الطبيعة، ولذلك فهو، بالنتيجة، غريب عن عالمه، غريب عن جسده الذي يعتبر مصدر خطر دائم على خلاصه الابدي، وغريب عن فكره وحياته المتهمين دوماً بالمروق والدنيوية والانسانوية *Humanisme*، حتى أصبحت هذه الكلمة الاخيرة مرادفة لهرطقة فكرية تجعل الانسان في مشكلة مع ايمانه، اذا هو حكم الامور من وجهة نظر انسانية وليس بحسب المبادئ الدينية اللاهوتية.

ثالثاً: الانسان في الفكر اللاهوتي المعاصر:

بعد هذا، لا غرابة ان يطرح الفكر اللاهوتي المعاصر نظرته البديلة عن الانسان، منطلقاً من الفكر الانساني الجديد في جدليته وواقعيته، ومن قراءة معاصرة وجدية للانجيل تعود به الى الينابيع الصافية للبشارة الانجيلية قبل أن تشوهها أية حضارة مرحلية.

* سمات الانسان في الفكر اللاهوتي المعاصر:

أما سمات الانسان في الفكر اللاهوتي المعاصر، فهي عين السمات التي أتينا على ذكرها في الصفحات السابقة في فقرة (سمات التحول الحضاري في عصرنا) يضاف اليها البعد اللاهوتي الانجيلي للانسان. والحقيقة ان البعد اللاهوتي للانسان لا يضاف الى الابعاد الاخرى، وانما تشترك كل الابعاد في رسم تكوين صورة الانسان بحسب نظرة مسيحية، بحيث ان أي خلل في أحد الابعاد يشكل خللا في الانسان كله.

١. الانسان المعاصر ابن واقعه:

وهذا يعني لاهوتياً أنه نقيض لانسان التقليد. اما خصائص هذا الانسان فهي التطور والنسبية. فقد كان انسان التقليد كما رأينا، محدد الطبيعة، ثابت المواصفات؛ كان "بناء جاهزاً" وكاملاً لا يحتاج أية لمسة أضافية. اما الانسان المعاصر فهو "مشروع قيد التنفيذ" في حالة سعي دؤوب وتطور مستمر. ولذلك نجد فارقاً كبيراً بين المفهومين، اضافة الى ما يمكن ان يحصل من الاختلاف في المطاليب السلوكية للانسانين. وواقعية الانسان المعاصر تنكر ثنائية الروح والجسد التقليدية مع كل ما ادت اليه هذه الثنائية من تغليب الروح على الجسد ومن اقتصار حياة الانسان على الحياة الفائقة الطبيعة، وعلى الحياة في العالم الاخر. فالانسان المعاصر انسان موحد، كله روح وكله جسد، لان الروح والجسد فيه بعدان متساويان في الاهمية. وهكذا لا توجد في الانسان مطاليب صرف خاصة بالروح

وأخرى صرف خاصة بالجسد، بل هناك مطاليب خاصة "بالانسان". كما لا توجد في الانسان أعمال صرف خاصة بالروح وأخرى بالجسد، بل كلها أعمال خاصة بالانسان. وعليه فان الانسان لا ينتمي الى هذا العالم بجسده فقط –بينما يكون مواطن السماء بروحه– بل هو ينتمي الى هذا العالم بجسده وروحه وبكيانه بكافة ابعاده. ان الانسان جزء من هذا العالم، فيه ينجح ويفشل وفيه يحقق كيانه الانساني. أما الحياة الاخرى، فلن تكون سوى امتداد لحياته "الواقعية" وبمثابة القمة لحياته الانسانية الشاملة. فالا نسان مدعو اذن، بحسب اللاهوت المعاصر، أن يعيش هذه الحياة "لذاتها" وليس كواسطة لحياة أخرى، وكأنه في هذا العالم مجرد مسافر الى الوطن الدائم. وهذا لا يعني نكراناً لتلك الحياة الاخرى في الله بعد الموت.

ولا يخفى بأن هذا المفهوم الواقعي عن الانسان ثورة في اللاهوت لا يمكن سبر اغوارها اذا ما أخذت كامل أبعادها. فانه لمن الواضح أن أشياء كثيرة تكتسب قيمتها الحقيقية في ظل المفهوم الجديد للانسان، كما أن أشياء أخرى تفقد قيمتها وقوتها الاصلية. فاذا ما تشبع المرء بالمفهوم اللاهوتي المعاصر للانسان، فانه سيصبح انساناً جديداً حقاً. ان ايمان اللاهوت المعاصر بواقعية الانسان تجعله يؤكد بان الانسان ليس فقط جزءاً من العالم ولكنه جزء من عالمنا "الراهن" بعالميته وصراعاته القومية والطبقية وبتحالفاته السياسية ومعسكراته. وهو جزء منه بعلميته وتقنيته وبكل ما ينتج عن ذلك من رخاء الحياة وتعقيدها. ومن كل ذلك يتضح ان الانسان المعاصر ليس هو انسان الامس، سواء كان ذلك في طبيعته الواقعية أم في ذهنيته أم في سلوكه وتطلعاته، لان البيئة المصنعة التي يعيش فيها انسان اليوم ليست مجرد وسط محايد يتعامل معه الانسان، بل هي بيئة تصنع الانسان المعاصر وتصوغه الى حد كبير سواء كانت هذه البيئة في صالحه أم ضده. فالبيئة تخلق المترفين كما تخلق البائسين والمتشردين. وهي تخلق الثوار كما تخلق الاشقياء القانطين. والبيئة تخلق أبن المدينة الضخمة الجبارة العملاقة ببنائها وشوارعها ووسائط نقلها وأمكنة لهوها وعملها، كما تخلق ابن الريف المتطلع دوماً الى الهجرة حيث بريق الماء والحياة الصاخبة. أن البيئة هي الانسان حقا، بهذا المعنى.

٢. الانسان المعاصر انسان الصراع الجدلي:

لقد قلنا ان الانسان يمر بمرحلة تحول حضاري، وهذا يعني أن واقعيته لا بد أن تكون واقعية جدلية.. فالانسان في هذه المرحلة يكون محمولاً على أمواج المد الصاعد، يسعى للوصول الى آماله وطموحاته التي يعتبرها اساسية وضرورية لتحقيق ذاته وبناء كيانه. فالانسان قبل أن يصل الى هذه الامال والطموحات، يرى نفسه بأنه في حالة استلاب وضياع. لذلك يتميز الانسان في هذه المرحلة بحب النضال وبروحية اقتحامية ثورية قد تؤدي به الى العنف أحياناً. الا أن الانسان في حالته هذه يبدأ دائماً بالرفض لكل ما يراه غير واقعي وغير حقيقي؛ ومن ثم تبدأ مرحلة تكوين القناعات الجديدة.

ان اللاهوت المعاصر، كما يفهم من كل ما سبق، لا يمكنه إلا أن يُدخل سمات هذه المرحلة ضمن خصائص طبيعة الانسان الواقعية رغم معارضة اللاهوت التقليدي الذي يطالب الانسان المعاصر بالهدوء والسكينة باسم مبادئ غريبة عن حياته، يدعي اللاهوت التقليدي أنها مبادئ المحبة والسلام. لا شك ان في هذه الحالة يبدو الفكر اللاهوتي التقليدي كحجر عثرة في سبيل الانسان وحقوقه المشروعة، وبديهي ان ينظر الانسان المعاصر الى نفسه وكأنه غاليلو آخر يطالبونه بان يجحد قناعته بدوران الارض.

* الواقعية الجدلية والانجيل:

عندما استعرضنا مفهوم الانسان في اللاهوت التقليدي، رأينا كم كان هذا المفهوم متعلقاً بأفكار فلسفية واجتماعية سائدة في ذلك الزمان. ثم لاحظنا كيف وضع اللاهوتيون مفهومي الخطيئة والنعمة في خدمة المفهوم الفلسفي الاجتماعي، مستغلين قراءة حرفية ومتحيزة للكتاب المقدس، كي يصلوا بالانسان الى عين النتائج التي وصل اليها الفكر الفلسفي الاجتماعي، وذلك بسبب تحالف قام بين الفكرين الاجتماعي والديني يعرفه ويؤكده التاريخ.

وفي الواقع كانت هذه الحقيقة السبب الرئيسي لأزمة مفهوم الانسان في اللاهوت التقليدي. فلقد زالت بحكم الزمن الاسس الاجتماعية التي بُني عليها هذا المفهوم؛ ولما كان الاساس الديني واهياً هو الاخر، انهار مفهوم الانسان في اللاهوت التقليدي انهياراً تاماً و لم ينفعه دعم السلطة الكنسية وتأييدها المستمر له. أما انهيار هذا اللاهوت فيأتي تأييداً للتهمة التي يوجهها اليه اللاهوت المعاصر بأنه لم يكن لاهوتاً حقيقياً بل كان مجرد لاهوت تبرير.

أما في اللاهوت المعاصر، فان مفهوم الانسان مفهوم لاهوتي حقيقي رغم ظاهره الذي يجعله وكأنه مفهوم انساني لا غير، لا سيما لاولئك الذين لا يعترفون بلاهوتية مفهوم ما الا اذا كان من عالم الغيب. ان تأكيد اللاهوت المعاصر على ذلك ليس ادعاء بل حقيقة، والسبب هو أن هذا اللاهوت ينظر الى البعدين الانساني واللاهوتي على أنهما متلازمان حتى أن كلاً منهما انساني ولاهوتي في آن واحد. فما ان اكتشف اللاهوت المعاصر الوجه الجديد للانسان من خلال التحول الحضاري، حتى اكتشف معه أن ارادة الله، كما ظهرت في الانجيل، هي أن ينقلب البشر على واقعهم ويحققوا كمالهم الانساني باعتبارهم أولاد الله واخوة في ما بينهم. لقد فهم اللاهوت المعاصر أن دعوة البشر هذه دعوة الهية وانسانية في آن واحد، وان الحياة البشرية هي المكان الطبيعي لتحقيق ملكوت الله. وهكذا قام اللاهوت المعاصر على هذه الواقعية: واقعية الانجيل وواقعية التطور الانساني في بيئته المعاصرة. لقد اكتشف اللاهوت المعاصر أن الانجيل لم "يغيّب" ابدا مفهوم الانسان ودعوته، ولكن اللاهوت التقليدي هو الذي فعل ذلك لأسبابه المعروفة. لذلك دخل في صراع وتناقض مع هذا اللاهوت ليعود اللاهوت المعاصر مع الانجيل ومثله الى واقعية الانسان، بجدليتها ونسبيتها وكل مظاهرها الانسانية الاخرى.

الاب لوسيان جميل

اللّه وقيصر
أو البعد الآخر للانسان

اوليفييه كليمان (مواليد ١٩٢١) وجه من اوجه الارثوذكسية البارزة في الغرب. فرنسي الجنسية والمولد، ملحد الاصل، اشتراكي المنشأ. اهتدى الى المسيحية واقتبل العماد في الكنيسة اليونانية الارثوذكسية وهو في السابعة والعشرين من عمره. هيأه اختصاصه في التاريخ ان ينفتح على الفكر الشرقي، فتأثر بكتابات الآباء وبالكتّاب الروس امثال دوستويفسكي وبارديياف واللاهوتي المهاجر فلاديمير لوسكي ... وهو العلماني، يحتل منبر اللاهوت في كلية القديس سرجيوس الارثوذكسية في باريس. له تأثير كبير في الاوساط الطلابية، وله عدة مؤلفات منها كتاب "اسئلة حول الانسان، *Questions sur l'homme, Stock, Paris, 1976* الذي منه نستقي الموضوع التالي (ص ١٢٢-١٤٥).

في هذا العرض -وقد دعاه المؤلف اساساً "الله وقيصر"- يحاول ان يستكشف ان الانسان ليس مجرد "آلة للعبادة او الانتاج والتنفيذ". كرامته في حريته، وانسانيته في ان يكون شخصاً مسؤولاً وخلاقاً، يداً بيد مع الله ونحوه. خارجاً عن هذا "الاطار"، لن يكون الا مستلَب الشخصية وعبداً. وفي هذا الاطار عينه ينبغي ان تتطور وتتأصل شخصية المسيحي، كفرد وككنيسة.

واقته المنية في باريس في ٢٠٠٩/١/١٥

✵ ملك الله وملك قيصر

"ستكون السياسة دينكم منذ الان فصاعداً". هذا ماكتبه فويرباخ[١] قبل أن يكون ماركس قد شيّع الله بقليل. وهذا ما نلاحظه اليوم في الفراغ الذي تفرزه الحضارة الصناعية. لذا فان "الثورة العربيدة" التي تنتجها التقنية وحلول الحضارة الكونية تلزماننا، أكثر من أي وقت مضى، بايجاد المعنى، بايجاد الروح، بايجاد "معاهدة زيجة" جديدة بين الانسان والارض، في وقت تبدو مجتمعاتنا لا هدف لها سوى تطوير اساليب عيشها الى أقصى حد. فازاء عمل الروح الذي لا يبهر العيون، لا تعرض الالات المنتجة للصور المدهشة (ويقصد بها التقنية) للانسان سوى "الأصنام" و"الانفعالات"، بمثابة مسكنات ينشغل بها عن اللامعقول، والحال ان التخلف الروحي لدى البعض يمتد ظله الى التخلف المادي لدى البعض الاخر، و"العالم الثالث" يبتدئ عند عتبة صرائف المدن الصناعية الغربية.

فالتمرد الذي نشهده في صفوف كثير من الشباب انما يعبر عن عطشين

---

[١] فويرباخ ١٨٠٤- ١٨٧٢(*Ludvic Feuerbach*، فيلسوف الماني تخلى عن مثالية هيجل ليتبنى الفلسفة المادية.

متلازمين: عطش الى ايجاد المعنى بالنسبة للبعض، وعطش الى الكرامة بالنسبة للبعض الاخر. فالجميع يتكلمون عن "تغيير الحياة" (...). واذا بدت الثورة كالاسطورة الجذابة، فانما تستلب وتعبر عن حاجة أكثر عمقاً بكثير (...).

فلقد حان الاوان للمسيحيين، اذن، ان يتذكروا بان "البنى التحتية"[٢] للتاريخ انما هي في العلاقة بين الانسانية والله الحي. فالتاريخ يسير في سياق انساني مؤله، حيث تسلط الاضواء احياناً على الله الى حد نكران الانسان، وعلى الانسان، احياناً اخرى، الى حد نكران الله. أما معنى التاريخ ونقطة ارتكازه، فهما في المسيح، الاله الحق والانسان الحق، الذي، بهذه الوحدة، يصبح "الانسان الامثل". أما حركة التاريخ الخلاقة فتجد أصولها في الروح وفي حريتنا الانسانية.

ليس الانسان ابن الارض فقط، ولا ابن التاريخ وحسب. انه صورة الله أيضاً ومدعو لان يصير ابنا لله بالتبني وحاملاً للروح (...) من جهة أخرى ان التوتر بين ملك الله وملك قيصر سيبقى قائماً لا محالة حتى التجلي النهائي، ووجود هذا التوتر بالذات دلالة الى ذلك التجلي واستحثاث لحلوله. انه يفتح الدرب امام الروح لتتحقق شخصية الانسان بصورة اكيدة (...). فقيصر —سواء كان فرداً أم جماعة— يطالب بالسجود له كلما ادعى تفسير كل شيء عن الانسان بواسطة التاريخ.

* فرح المشاركة

(...) في خضم الازمة المعاصرة —وهي ازمة فقدان المعنى— ضروري ان تكون الكنيسة بمثابة سر القداسة وموضع اشراق الفرح الفصحي بوفرة وسيادة هذا السلام "الذي لا يستطيع العالم ان يعطيه" والذي "يفوق كل ادراك". انه من واجب الكنيسة ان تكون السباقة في إقاتة البشر بالسلام والفرح (...).

لقد كانت الجماعات المسيحية الاولى تدعى "شركة المحبة"، المحبة الآتية من عل، وكان العشاء الاخوي الذي يلي الاوخارستيا، أو يتضمنها، قد احتفظ بصورة خاصة بهذه التسمية الجميلة "عشاء المحبة"[٣]. لذا فانه من واجب الكنيسة الاول، اذا ما اردنا اضفاء قيمة سرية قدسية على نشاطنا الاجتماعي، أن تعيد تشكيل مراكز للمشاركة والتعاون حول الاوخارستيا، حيث تتنقى وتتكامل حاجتنا الطبيعية الى الاحتفال (...).

(٢) "البنى التحتية" (*Infrastructures*) يقصد بها في علم الاقتصاد والاجتماع مجموعة الاسس المادية والتنظيمية لبناء المجتمع وحسن سيره وادارته، كالطرق والجسور والمدارس وتنظيم البيئة والسيولة الاقتصادية والمؤسسات المختلفة الخ...

(٣) "شركة المحبة"، "عشاء المحبة" *Agape* كلمة يونانية ومعناها الاصلي "المحبة" كانت تطلق في الكنيسة الاولى على العشاء المشترك الذي كان يتناوله الاخوة معاً، ويحتفلون خلاله بالاوخارستيا.

إن الحضارة الرومانية أو البيزنطية، انما ولدتا من دم الشهداء وتزهد النساك (...) ولعلها صلاة العصور المسيحية الاولى والقرون الوسطى هي التي تشكل الخزين الروحي الذي غذى في ما بعد تيار التوجه الانساني في الاداب والفنون[٤] في الغرب، حتى وصل الى اعيائه الراهن، مما يستوجب حراثة جديدة.

* "سر الاخوة"

ان الوجود الشخصي الذي يمتد نحو الله، ونحو الله الذي هو ثالوث جوهره الحب، هذا الوجود لا يمكن الا ان يكون "شركة". "بهذا يظهر أولاد الله وأولاد ابليس: كل من لا يفعل البر ليس من الله، وكذلك ايضاً من لا يحب أخاه" (١يوحنا ٣: ١٠). والمسيح، في اخراجه الرائع للدينونة الاخيرة بحسب انجيل متى، يذكر الصديقين الحقيقيين بقوله: "كنت جائعاً فأطعمتموني، كنت عطشان فسقيتموني، كنت غريباً فآويتموني، كنت عرياناً فكسوتموني...". واذا يستغرب الصديقون من هذا الكلام، يكشف لهم ابن الانسان عن هذا السر الكبير: "الحق أقول لكم: ان كل ما صنعتموه الى واحد من اخوتي هؤلاء الصغار، فالي قد صنعتموه (متى ٢٥: ٣٤-٤١). لقد تكلم القديس يوحنا فم الذهب[٥] عند شرحه لهذا النص، بواقعيته المعتادة، عن "سر الاخوة"، ولا سيما الاخ "الاصغر"، أي الفقير. فهذا الاسقف الكبير، بطريرك القسطنطينية الذي قارع السلطة حتى الاستشهاد دفاعاً عن حرية الروح وعن حقوق المستضعفين، كان يؤكد بقوة على أن الفقير هو مسيح آخر، وان الاوخارستيا ينبغي ان يمتد فعلها الى خدمة العدالة في "صدقة" لا تكون مجرد شفقة عابرة، بل مقاسمة واعادة تنظيم لشؤون المدينة على أسس أفضل. ان ممارسة الكنيسة الاولى في أورشليم، أم ومثال كل الكنائس، في اشتراكية الممتلكات بين الاخوة، بقيت في عمق تاريخ المسيحية مؤشراً، ليس الى نظام اقتصادي يحل كافة المشاكل، بل الى انتصار الارادة على الانانية والطمع، وصولا الى "الاتفاق" في الحب. ان كثيراً من آباء الكنيسة، من امثال باسيليوس القيصري[٦] ويوحنا فم الذهب في الشرق، وامبروسيوس أسقف ميلانو في الغرب[٧]، اشاروا الى الطابع النسبي للملكية الخاصة، وشجبوا بشدة وراثة وسائل الانتاج، واظهروا ان الثروات الطبيعية هي ملك الله، وان الناس يستخدمونها للخير العام فقط. وعلى مثال بولس، الذي كان حائك خيم، أعادوا في الوقت نفسه الكرامة الى العمل، وقد كانت

(٤) تيار "التوجه الانساني" في الاداب والفنون، أو "الانسانوية" *Humanisme* تيار فكري-فلسفي يعنى بتطوير قابليات الانسان ويركز اهتمامه ليس على المثاليات، بل على الانسان الواقعي وتقييم طاقاته.

(٥) يوحنا فم الذهب (٣٤٠-٤٠٧)، ملفان الكنيسة، ولد في انطاكيا، بطريرك القسطنطينية. اضطهدته الامبراطورة اودوكسيا. دافع عن الفقراء واهتم بالاصلاحات الاجتماعية. لقب كذلك لفصاحته.

(٦) باسيليوس القيصري (٣٢٩-٣٧٩) ولد في قيصرية وصار أسقفاً لها. أحد مؤسسي الحياة الرهبانية.

(٧) امبروسيوس اسقف ميلانو (٣٤٠-٣٩٧) من اباء الكنيسة اللاتينية، قارع الامبرطور ثيودوسيوس.

الوثنية القديمة تعتبره مهمة العبيد. أما هم فرأوا فيه ممارسة لمسؤولية الانسان الكونية وللتضامن الذي منه تستمد الشركة أصولها (...).

ان احد الانشقاقات الكبرى التي زعزعت تاريخ المسيحية هو الانشقاق بين "سر المذبح وسر الاخوة"[٨] (...). وسر الاخوة هذا الذي انسلخ عن الاوخارستيا بالرغم من ان الاوخارستيا وحدها تستطيع احياءه، قد اتجه نحو مثاليات وضع فيها آماله ووظف لديها طاقات العنف فيه، أو بات ينتظر بحرارة ظهور "مُلْك ألفي"[٩] تقذف به فاجعة تحررية ما. أليست هذه هي الجذور البعيدة للحركات التحررية العصرية حيث تتعايش في آن واحد خميرة انجيلية قوية، وتوجه انساني (٤) انحاز أحياناً ضد الله، مضافان الى عجز حقيقي متأت من الغيظ الناتج عن الاحساس بالمذلة والاخفاق.

اننا نشعر اليوم ان الوقت قد حان لتجاوز هذا الانشقاق. فيجب استئصال مرض ازدواجية الشخصية لدى الكثير من المسيحيين الذين يستسلمون يوم الاحد لانخطافات روحية وهمية (في الشرق)، ويتخدرون بأقراص حسن النية (في الغرب)، ثم ينساقون أثناء الاسبوع وراء تيار العالم. ولكن ليست القضية، كما يزعم دعاة "التقدم" الزائف، ان نستبدل "سر المذبح" "بسر الاخوة"، وإلا لترك التاريخ الى هواه ليستحيل في آخر الامر مجرد رقصة اموات، وانما أن نعيد الى الاوخارستيا محتواها الاخلاقي (...).

❋ الرجاء والحرية

(...) ان الانسان بحاجة الى العدالة والى السعادة، ولكنه بحاجة ايضاً الى المجازفة، أي الى تجاوز الذات، الى ان يغوص في الاعماق المأسوية للوجود. ان نضال الانسان ضد "ثقله"، ضد الغباوة والحقد، نضال لا ينتهي، بحيث لا يسعفه بالصبر المطلوب لخدمة الحياة من دون السقوط في الغم أو اليأس إلا رجاء وطيد يتخطى حدود هذا العالم، ولكنه رجاء يجدد العالم عبر الوجود الشخصي.

فاذا لم يكن المسيحي ثورياً بالمعنى الاسطوري، فانه يعلم أن المسيحية تحتوي على طاقة ثوروية، هي طاقة المسيح المنتصر على الموت. وهذه الطاقة بوسعها أن تغير بنى الشخصية. وعندما يحدث هذا التغيير عند أشخاص كثيرين، بصورة مشتركة، فالعالم اذ ذاك يبدا يتغير وتكون أسس حضارة جديدة قد القيت فعلاً.

ان رغبة نسيان الموت تظهر بصورة فاضحة في مجتمعاتنا التي تبغي تحرير الانسان

(٨) "سر المذبح" ويقصد به المؤلف الاوخارستيا، و "سر الاخوة" ويقصد به العلاقة الواقعية مع الآخرين وخدمتهم بروح العطاء والتضامن.

(٩) "الملك الالفي" اشارة الى هذا الترقب المحموم لاحداث غريبة يبديه بعض المتطرفين كل بداية أو نهاية ألفية جديدة في التاريخ.

من كل صيغ التعاسة، ولكنها تتركه أعزل أمام النهاية المحتومة. وهنا يكمن شبح هذا السر البائس الذي تنسج حوله حضارة السعادة والتمرد عليها في آن واحد. فالماركسية جعلت المطلق قضية مشاعة، ولكنها أغلقت قضية الموت الشخصي —وهذا هو الموت الحقيقي في الواقع— وذلك لصالح ديمومة الجنس كله، وزعمت أن هذه الديمومة تستبق ديمومة الفرد كفرد. أما الفاشية فكانت في خطاها الاولى أخلاقية حربية أمام الموت. بينما الايمان بيسوع المنتصر على الموت وبواكير خبرة القيامة والرجاء بالملكوت، فيعملان على شفائنا من القلق الاساسي —نحن ومن حولنا— لتتحرر فينا، من ثم، القوى الحية الكامنة في كياننا (...).

اما البعد الآخر لشهادتنا في المجتمع، فهي الحرية، ولا شيء غير الحرية. على الكنائس أن تندم بمرارة لاتكالها على سيف الدولة مدى قرون طويلة. فالمسيحية تبدو اليوم في جوهرها كموضع لاعتلان الشخص الانساني وللحرية. تلك حقيقة بديهية بالنسبة لشباب الكتلة الشرقية، مثلاً، تستحق منا الاعجاب. لذا على المسيحيين أن يجعلوا من الحرية الهدف والوسيلة، في ان واحد، في التزامهم التاريخي (...). وعلينا يتوقف أمر حماية الحرية الشخصية من الاستعباد الاجتماعي والايديولوجي. علينا يتوقف أن نشهد بان الله هو "فسحة الحرية"، وبان الانسان سيبقى عبداً لظروف الطبيعة والتاريخ اذا لم يحترم صورة الله فيه. واحترام صورة الله في الانسان، معناه، قبل كل شيء، رفض مبدأ فرض الخير عليه، ولكن شريطة أن نبرهن بالمثل وبجاذبية المشاركة وحدهما بان الحرية الحقيقية —تلك التي تتيح للانسان أن يتجاوز ذاته في الحب— تتطلب زهداً قاسياً يتجلى في الموت والقيامة، والا لما حررنا سوى خواء تسكنه الوحوش المفترسة (...).

عندما شرع القديس يوحنا فم الذهب بنشر فكرة "سر الاخوة"، تخيل مخططاً اجتماعياً جديداً لمدينة أنطاكية يقتلع به جذور البؤس. ذلك لان الجانب الاجتماعي هو احد أبعاد الشخص الانساني، وليس العكس. فاقامة بنى أكثر عدلاً لا تبلغ أهدافها الا اذا نفخ فيها الحياة أشخاص معينون ولخدمة اشخاص معينين. فثمة علاقة وثيقة بين البنى والاخلاق، أما الأخلاق نفسها فلا تبلغ رقتها ونبلها الا في مدرسة التأمل، والزهد، والحب الفاعل، وهي تحتاج في سبيل ذلك الى عامل الزمن؛ والى محطات يسلم فيها الشعلة الواحد للاخر. انها تحتاج الى وقت طويل يتسرب فيه نمط الاصالة بهدوء، قبل الوصول الى القمة وعودة عوامل الهرم.. ثم تعود الحياة من جديد بحاجة الى أن تخصبها الابدية.

❋ محبة الاعداء

لقد نسي لاهوتيو العنف روح التطوبيات، على ما يبدو، كما نسي لاهوتيو اللاعنف أن التاريخ نسيج من المآسي. أما ما ينبغي أن تفجره المسيحية في قلب العنف التاريخي، فهو القوة الكامنة في محبة الاعداء، هذه القوة التي انفرد المسيح في المناداة بها. فمحبة

الاعداء وحدها، اذا مارستها حتى في أشد المجاهات، تستطيع أن تشفيك من "التوجس السياسي" الذي يتلخص في الهروب من الموت الذاتي بالقائه على ظهر العدو. هكذا فقط تخصب الحياة وتتحرر القوة الخلاقة في الانسان؛ ولكن ان يجعل اللاعنف نظاماً قائماً بذاته. فمعناه الاستسلام الى حلم اعادة الحقبة القسطنطينية[١٠] بصيغة مثالية جديدة. فاذا "دعي فاعلو السلام ابناء الله"، لا ننسَ ان ابن الله قد صلب. فلا شيء أكثر التباساً من جعل وسيلة ما للتزهد —كالصوم مثلاً— واسطة للقمع النفسي تفرض على المجتمع فرضاً، بينما كان الهدف الاساسَ منها اعداد الانسان، في الخفاء، ليكوْن شفافاً أمام النور الالهي (...).

❋ الملك والبهلول

ان المسيحية، في عمق توجهها، تسعى الى نزع الهالة القدسية عن السلطة كي تقدسها بصورة حقيقية من خلال الانسان الذي يمارسها. ففي صحراء التجربة، نهر يسوع بشدة رغبة السلطان —أو السلاطين— الدائمة في أن تقدم لهم العبادة، ولكنه طلب الى جماعته أن يعطوا ما لقيصر لقيصر، وذكّر بيلاطس أن لا سلطة له على ابن الانسان لو لم يعط من فوق، كذلك كانت الكنيسة الاولى تصلي من أجل السلطات المدنية، مع انها وصفت الدولة المؤهلة بالوحش الذي ذكره يوحنا في سفر الرؤيا (...).

ان احدى أعلى مراتب القداسة هي ما دعي "بالجنون من أجل المسيح"، جنون "الابرياء" الذين يعيشون أحياناً في الاحياء السيئة السمعة في المدن بين الاناس "الارديـاء" والنساء ذوات السيرة "الرديئة"، فيثيرون بذلك احتقار الفريسيين. ثم تنقلب مزحتهم فجأة الى جد، فينتشلون القشرة المائتة من الاجساد ويعرون الانفس على حقيقتها عندما يضعون محتقريهم وجهاً لوجه أمام الموت والحب. ان أرصفة المدن الكبرى تساعد على نمو مثل هذه "الدعوات" الغريبة، ولكل قرية مجنونها الذي يعرف الخفايا.

فهذه الاصوات يسمع الملك عندما يستمع الى بهلوله[١١].

ان البهلول يمنع الراهب والملك من الغرور، الاول من سمو رغباته، والثاني من احتضان الشعب له. فللأول يقول: لا زلت بعيداً في مسيرتك الروحية عن بائع الصابون المتجول الذي يصلي كي يخلص جميع الناس، وعن هذا السارق الذي اخترقت الرحمة قلبه

---

(١٠) يعني بها الحقبة التاريخية التي منح فيها الامبراطور قسطنطين السلام والامان للمسيحية لاول مرة في تاريخها، في بيان ميلانو (٣١٣).

(١١) قديماً في كل بلاط مجنون مضحك، أو بهلول هزلي، أو شاعر مزاح يتلهى الملك وحاشيته بمداعبتهم، ويستخدمونهم أحياناً كعيون لتسقط الاخبار لهم وعليهم. في المقال تركيز على "البعـد النقـدي" لشخصية البهلول.

يوماً، وعن ربة الاسرة التي تثقل مهام البيت كاهلها ومع ذلك لا تثبط عزيمتها أبداً؛ أما للثاني فيقول: تذكر يا هذا أنك مائت!

فعلى كل منا اليوم أن يمارس هاتين الوظيفتين تجاه العالم ويجعلهما من مزاياه الباطنية الخاصة (...). ولكن لا ينسين ان يكون "بهلول" نفسه أيضاً.

✵ من أجل علمانية خلاقة

في مجتمع متعدد بالضرورة كمجتمعات اليوم، لا يسع المسيحي الا أن يناضل من أجل علمانية خلاقة. ولكن حضارة منفتحة لا تؤله الايديولوجية ليس معناها صحراء روحية متروكة لحكم الغرائز بفعل دينامية انتاجية غير هادفة. فقد قال كيركيارد(١٢): "علينا أن نرسخ عمق الانسان في الوجود" قبل أن نحسر ونكلمه عن الله. ولقد سبقه القديس يوحنا كليماك، أحد أكثر النساك زهداً، حين أشار قبله بأكثر من ألف عام الى أن الجمال الحقيقي ليس دنساً أبداً، فقال: "لننتعش بمحبة الله كلما شنفت آذاننا الحان موسيقية، لان من يحبون الله يهتزون طرباً واحساساً الهياً، وترق عاطفتهم حتى الدموع كلما استمعوا الى لحن جميل، سواء كان هذا اللحن أغنية دنيوية أم ترتيلاً روحياً (السلم، الدرجة ١٥).

فمن الضروري اليوم أن نطعم الحضارة الصناعية بحب ثري للانسان، حب مشبع، منفتح بالكفاية لكي يحترم "عمق" الشخص ويسمو تدريجياً نحو ما يمكن تسميته "بحب الهي للانسان". الكل يعترف اليوم بان الانسان بحاجة، ليس فقط الى الخبز، بل الى الصداقة والجمال أيضاً، ليس الى الرفاهية فقط، بل الى التزهد أيضاً، ليس الى قوة الآلة فقط، بل الى احترام متجدد لخليقة الله، ليس الى تهذيب العقل فقط، بل الى قابلية للاحتفال والفرح أيضاً. فالثورة التقنية "العربيدة" أو المتوحشة، كما دعوناها، لن نطوعها الا اذا ركزنا الاهتمام بالابعاد غير التقنية للانسان. وأزمة التطاحن بين الاجيال لن تزول ما لم نتوقف عن التقهقر نحو الموت، ونتلقى عوض ذلك الحكمة ونعطيها. ان غريزة الحرب التي ترمي بنفسها، من جراء البطالة، في العدم والمغامرات، لن تُكبح الا اذا أسعفتها فضيلة التزهد بمعنى القناعة والتجرد: التجرد الشخصي في الروح وفي الفن، والتجرد الجماعي في نطاق هذه الحروب الكبرى "من أجل الحياة" التي ينبغي أن تعلنها الانسانية لشفاء جروح الدول النامية، ورفض القدرية التقنية، وأعادة الصداقة مع الكون.

هكذا تأخذ اليوم شهادة المسيحيين في المجتمع مساراً الهياً — انسانياً. فدين لله ضد الانسان يتناسى الطاقة الخلاقة لدى الانسان، كان في أصل الثورات المطهرة التي فجرها

---

(١٢) كيركيغارد *Sóren Kierkegard* فيلسوف ولاهوتي دانماركي (١٨١٣-١٨٥٥).

المتمردون الكبار، والتي دفعت الى اكتشافات مذهلة في ما يخص الانسان، أما انسان اليوم، الذي انقطع عن الروح، فالموت يهدده: الموت الروحي والموت الجسدي معاً. لذا ينبغي أن يجد تيار التوجه الانساني المعاصر مكاناً له، بوعي تام، وسط ما يمكننا تسميته "بالعالم الانساني-الالهي"، بحيث يصبح ماركس ونيتشه وفرويد(١٣) هم أيضاً بمثابة السابقين الذين أعدوا طريقه (...). ان العالم اليوم يجد نفسه في لحظة تاريخية، كل قيمه موضوعة فيها على المحك، كما صرح البطريرك أثيناغوراس(١٤) لصحفي ايطالي عام١٩٦٩: "ان وضع العالم المعاصر هو وضع يتمخض بولادة جديدة، وكل ولادة يرافقها الامل. واننا لننظر الى الظرف الراهن برجاء مسيحي كبير وبشعور عميق بالمسؤولية تجاه النمط الجديد للعالم القادم من هذه الولادة. انها ساعة الكنيسة: الكنيسة التي، بوحدها، يلزم أن تقدم توجهات مسيحية للعالم الجديد الذي يولد ("جريدة "المستقبل" الايطالية " ١٢ كانون الثاني ١٩٦٩).

اوليفييه كليمان

(١٣) ماركس *Karl Marx* أبو الماركسية، المـاني (١٨١٨-١٨٨٣)؛ نيتشه *Frédéric Nietzche* فيلسوف الماني (١٨٤٤-١٩٠٠)، فيلسوف الطاقة الانسانية؛ فرويد *Sigmund Freud* أبو علم النفس التحليلي الحديث، نمساوي (١٨٦٥-١٩٣٩).

(١٤) اثيناغوراس الاول بطريرك القسطنطينية الارثوذكسي (١٨٨٦-١٩٧٢) من رواد الحركة المسكونية المعاصرة. أول بطريرك يوناني أرثوذكسي التقى مع بابا روما بعد الانفصال الكبير.

الاسرار من أجل الانسان

الاسرار هي بمثابة "علامات" حضور المسيح في حياة المؤمن، في بعديها الفردي والجماعي. فبقدر ما تتفاعل هذه العلامات مع احداث الحياة اليومية، تضحي عنصراً يدفع المؤمن، عبر افراحه وآلامه، الى الالتقاء بالمسيح والعيش بنور انجيله والالتزام بقضايا الانسانية وتطلعاتها الى العدالة والسلام.

الاسرار، اذا ما فُهمت رموزها وتجددت صيغ التعبير عنها، اضحت موقعاً يتم خلاله خلاص الانسان، منذ ولادته للحياة الجديدة وحتى الموت على أمل القيامة، مروراً بذاك النضال من اجل الحب والحرية والعطاء، في الاندماج بسر المسيح الفصحي.

الاب يوسف عتيشا، من منطلق راعوي، يكشف عن صحة هذه المقولة: الاسرار في خدمة الانسان!

من أجل أن يكون المسيحي مؤمناً ملتزماً لا ينبغي له أن يفقد شيئاً من انسانيته، بل عليه أن يكون انسان زمانه، والحياة المعاصرة تتطلب منه أن يكون منتبهاً الى كل ما يحدث حواليه أو بسببه.

كل ذلك، لان هذا المسيحي، اذا ما تعمق حقاً في ايمانه، لا يعتم أن يجد نفسه، آجلا أم عاجلا، وسط معمعة الحياة، قريباً من الشؤون البشرية الراهنة، لانه ابن هذه الدنيا. ولانه كذلك، يجب أن يواكب حركة من الزمن وتقدمه بكل ما يتمخض به هذا الزمن الحاضر المتحرك من القضايا الهامة التي تشغل البشر مثل الحرب ومآسيها، والجوع والتضخم.. الخ.

واذا ما تصفحنا الانجيل، نرى يسوع "منشغلاً" في قضايا تخص الانسان، يريد من خلالها أن يلتقي بالانسان ليكشف له أعماق نفسه وينير دربه. فنظرته تتجاوز الظواهر وتتغلغل الى الاعماق: هيذي المرأة السامرية يكشف لها دفائن نفسها ويريها العطش الحقيقي الذي تشكو منه، فيدلها الى الماء الحي الذي لا ينضب ولا يعطش شاربوه. هوذا الشاب الغني الذي كشف له عن ثروة أخرى تسعده حقاً، ولكنه يذهب حزيناً لتعلقه بماله الذي ليس هو الا ثروة مزيفة

وزائلة. وللفريسي نيقوديمس كشف معنى الولادة بالروح —وهي الولادة الحقة لانها تتخطى فعل الانجاب الجسدي المحدود. أما العشار زكا، فبكلمة لم يفصح عنها وبنظرة نفذت الى أعماقه، جعله يوزع فائض أمواله بسخاء، لان المعلم الذي نزل الى بيته كشف له ان القلب المحب السخي التائب والعادل هو الكنز الحقيقي. ولتلميذي عماوس كشف يسوع، بغشاوة عينيهما عن معرفته اولا وباحتجابه عنهما بعد كسر الخبز، كشف لهما عن أبعاد طموحهما المخذول وعن طبيعة حضوره الحقيقي الجديد بعد القيامة عن طريق الرموز والعلامات.

واليوم ايضاً لا ينبغي أن نبحث عن حضور يسوع خارجاً عن أحداث حياتنا. لان يسوع المنبعث من الموت بقيامته ما زال اليوم أيضاً يسير في طرقنا، ويصحبنا محتجباً تحت علامات الاسرار المقدسة التي تحقق في المؤمن، من خلال اتصالها باحداث الحياة الانسانية كيف يغذي ايمانه ويعطي المعنى لحياته.

فالاسرار المقدسة جعلت من أجل الانسان كي تكون كعلامات حسية تساعده على الالتقاء بالله وتجديد الميثاق معه، على غرار ما تم مع الاباء القدامى، ابراهيم، و موسى والانبياء. وهذا التجديد يتم بيسوع المسيح وعلى يده اذا ما قبلت هذه "العلامات" بالايمان.

هذا هو اذن السؤال المطروح: هل يا ترى جعلت الاسرار المقدسة السبعة[1] لتغذي ايمان المسيحي؟ وهل هي ينابيع الحياة حقاً للمؤمن؟ كيف تمارس الاسرار اليوم؟

اجابتنا الى هذه الاسئلة تفتح أمامنا طريقاً، على الصعيد الراعوي، للتحقق من صحة هذه المقولة: الاسرار هي من أجل الانسان.

أولاً: الاسرار السبعة في كفة الميزان

هناك اعتراض موجه الى أسلوب منح الاسرار السبعة وهو: ما الفائدة من الاسرار اذا كانت الكنيسة تتشبث في منحها بطقوس مملة ولغة غير مفهومة. من جهة أخرى لم تعد هذه الاسرار تمس واقع البشر وانشغالاتهم، ليس فقط لغرابة طقوسها والعجلة الكاريكاتورية التي تمسخها أحياناً، بل لجهل المؤمنين طبيعتها ورموزها وتساؤلهم حتى عن جدواها، فأصبحت بعيدة

(١) العماذ، التثبيت، التوبة، القربان المقدس، الزواج، الكهنوت، مسحة المرضى. و "السر" ترجمة غير موفقة للكلمة السريانية (رازا) واللاتينية *Sacramentum* ومضمون التعبيرين يعني "عهداً أو رمزاً مقدساً"، لذا ينبغي إبعاد الالتباس عن العبارة العربية التي تترك انطباعاً لاول وهلة "بالسرية" و"التكتم"، بينما "السر" الذي نقصده عندما نتكلم عن اسرار الكنيسة السبعة هو هذا الرمز المقدس الخاص الذي أنشئ ضمن الكنيسة لمنح نعمة خاصة للمؤمنين، كأفراد وكجماعة. ويتكون من علامة حية رمزية تتم ضمن فعل طقسي، تجتمع فيه مادة طبيعية معينة (ماء، زيت، خبز، خمر..) مع حركة طقسية معبرة (غطس، وضع اليد...) وكلمات هي بصلة مباشرة مع مضمون الرمز والفعل الروحي المتوخى (هذا هو جسدي، أنا أحلك من خطاياك...).

كل البعد عن طموحات الانسان المعاصر وذهنيته. وتشتد الازمة سوءا عندنا، عندما تصر الكنيسة على بقاء الطقوس والرتب على شكلها التقليدي، دون ادخال أي اصلاح أو تطوير عليها، بالرغم من مطالبة المؤمنين وجماعات القاعدة ومحاولات بعض الكهنة هنا وهناك، لا بل بالرغم من النداءات التي أطلقها المجمع المسكوني الاخير وقداسة البابا نفسه شخصياً (انظر ف. م. ت٢. ١٩٨٠).

وازاء هذا الوضع الذي طال أمده، اخذ بعض الكهنة يهتمون في اشباع المؤمنين بممارسات تقوية، وتساعيات تجمع الشعب العطشان حول تمثال للعذراء أو أيقونة لهذه أو تلك من القديسات... ممارسات وتساعيات قد لا تمت بصلة الى الاصالة الانجيلية، ويبقى آخرون امناء على اقامة حفلاتهم الطقسية بشكلها القديم الجامد.

أمام هذا الوضع، تنقسم الجماعة المؤمنة الى فئتين:

فئة ظلت أمينة على هذه الطقوس والرتب أمانتها لوصايا ملزمة حرفياً، يرتكب خطأ من يخالفها. وفئة ثانية تحررت جزئياً من هذه الممارسات، فلا ترتادها الا في المناسبات الكبرى كالاعياد والوفيات. وبين هذه وتلك فئة صغيرة فهمت جدية الانجيل بصورة أعمق وأوسع، فذهبت تنشر نشاطاتها داخل حركات رسولية ومبادرات انجيلية غير تقليدية، متخذة الانفتاح على مشاكل الحياة وانتظارات الانسان المعاصر وكل ما يؤثر على سير المجتمع اسلوباً لعيش التزامها المسيحي وتعميق قناعاتها الايمانية. وبينما يحاول هؤلاء ابتكار صيغ مستحدثة لتغذية حياتهم الروحية، أو يعودون في صلاتهم الى الينابيع، نراهم قلما يشعرون بحاجة الى حضور رتب وطقوس لا تغذي حياتهم المسيحية ولا يرون لها صدى في حياتهم العملية.

هكذا نجد، من جراء هذا التمزق، ممارسين يؤمّون الكنائس، ولكن ايمانهم يبقى ساذجاً وسطحياً، وينظرون الى المسيحية كديانة رتب وطقوس تعودوا عليها منذ الصغر، وفئة أخرى اكتشفت لها طريقاً آخر عبر مختلف أوجه الحياة ومطاليبها دون أن تجد فرصة لربطها بالاسرار بشكلها التقليدي.

هذا الانشطار بين "حياة الاسرار" والحياة العملية هو في أصل "التغرب" الذي يشعر به المسيحي ازاء متطلبات ايمانه وانتمائه الانساني والاجتماعي، وهو يسيء بالتالي، الى جوهر المسيحية التي هي ديانة ايمان وحياة أكثر منها ديانة طقوس ورتب. واذا أردنا أن نعيد الى الاسرار أهميتها الاصلية، علينا أن نعيدها الى ينبوعها الاول، الى الفكرة الاولى التي ألهمتها —وهي فكرة متصلة حقاً بالحياة الانسانية الواقعية في أساسها ومراميها— لتكون اسرار الايمان حقاً.

لقد كان يسوع خير مثال لربط الحركة الدينية بالحياة الملتزمة في مواقفه ضد الفريسيين المتشبثين بالتقاليد. فبموجب هذا التقارب تنفتح الاسرار الى الحياة الاجتماعية الواقعية، عندما تستنير الشؤون البشرية بضوء الانجيل. واذا ما منحت الاسرار المقدسة للمؤمنين ضمن رتب حية وطقوس متجددة ومعبرة وقريبة من ذهنية مقتبليها، تقربهم آنذاك

من تفهم ما يشغل الناس المعاصرين وتدفعهم الى حياة الالتزام؛ فالمسيحية، بحسب هذا الروح، تغدو حقاً ديانة تخدم الانسان.

هل هذا ممكن؟ كيف، اذن، يمكننا الربط عملياً بين المسيحية بوصفها دعوة انجيلية الى الفرح والحياة وحرية أبناء الله من جهة، وبوصفها تستخدم الرتب والطقوس مثل سائر الديانات كعلامات من شأنها أن تشير الى حضور الرب وعمله الخلاصي بين البشر؟

ثانياً: الاسرار والقضايا الانسانية الاساسية

تبدو المشكلة المطروحة التي برزت في نهاية تحليلنا السابق مثيرة للغاية ومهمة على الصعيد الراعوي. فالسؤال المحوري هو: كيف نجعل الاسرار تنطق برموزها، فينتبه اليها الانسان المعاصر لتصبح منبعاً لايمانه وسط هذا العالم المعقد؟

قبل كل شيء، هذه الرموز مصدرها الطبيعة، فهي عنصر الاسرار، وتسمى بلغة اللاهوت "مادة" وهي تتجانس مع "صورة" الاسرار ("الصورة" تتضمن الكلمات والحركة الطقسية التي بتزاوجها مع "المادة" تشكل فعل السر). هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى في أهداف التعبير الانجيلي للسر تحرير الانسان وتقديسه ليكون اكثر تشبهاً بالمسيح واكثر التزاماً في تغيير المجتمعات الانسانية نحو الافضل، مما قد يقوده منطقياً الى النضال من أجل العدالة والسلام ومقاومة الفقر والتفرقة العنصرية.. الى غير ذلك من أجل نضال الانسان.

فالطبيعة التي هي خليقة الله، ليست معزولة عن سر الخلاص، بل هي المقر الذي فيه يتم الخلاص الانساني. والمسيحية تتناول من الطبيعة هذه الرموز، كعنصر الماء والزيت والخبز والخمر وغيرها، وتدخلها في مشروع الخلاص.

اما ما يخص التاريخ وأبعاده المسيحانية، فانه بالرغم مما يحتوي من عناصر سلبية ومظلمة بشأن الانسان، فهو، مع ذلك، مصدر للحوادث الخلاصية عبر الزمان والمكان. فلقد كان موسى أول متصوف شغوف بالتأمل في الله الذي تجلى له في العليقة المشتعلة وأوحى له أسمه: أنا الكائن، وكلفه ليقود شعبه في طريق التحرر، وبذلك فتح أمامه السبيل لاكتشاف المحرر. فكان التحرير الحقيقي أن حققه يسوع في فصحه: بموته وقيامته. وهكذا أدخل فصح المسيح عنصراً جديداً في تاريخ البشر. وبهذا المفهوم انتقلت المسيحية بالديانة من مرحلة تكريس للعناصر الطبيعية (شأن الديانات الوثنية) الى عهد سر الفصح الذي هو موت يسوع على الصليب وقيامته الممجدة. ومنذئذ ارتبط السر في الحدث وفي الميثاق الكبير المنعقد بين الله والانسانية عبر حقبات التاريخ. كل سر من أسرار الكنيسة السبعة من شأنه أن يكون علامة حية تدعو المؤمن الى أن يتذكر ويحيا عجائب الله نحو البشر. بقي شيء واحد وله أهمية كبرى: كيف نجعل الرموز ناطقة لتذكّر بالحوادث الخلاصية؟

❋ اشارات عملية

هذا البحث من النوع الراعوي يقودنا الى رسم بعض اشارات عملية لاساليب الاحتفال بالاسرار المقدسة:

- الربط بين الاحتفال بالرتبة (العماذ، الاوخارستيا، الزواج،...) وما يهم الاشخاص المحتفلين بها، على الصعيد الشخصي والجماعي. كما ينبغي ربطها بالاحداث العامة التي تشغل حياة الناس. ولا بد من تنويع الطرق للتعبير عن ذلك. وليس من الضروري أن يكون التركيز دائماً على الكلام والخطب، لان من كثرة الكلام ينشأ المَلَل. فهناك حركات معبرة بالامكان أن يؤديها المشتركون، أو اعلانات (تنبيهات) توجه الى الجماعة المحتفلة لايقاظ اهتمامها ووعيها، وفتح آفاق حسّها الايماني نحو المجتمع الاوسع، نحو هموم البشرية وحاجاتها، نحو رسالة الكنيسة الجامعة، نحو معانيات الانسان ككل.. فالتهيئة النفسية وخلق جو تعبوي ينبع من الحس الايماني المرهف.. عناصر مهمة جداً لفاعلية السر الذي يبقى "فعل الايمان الواعي". بذلك يصبح هذا الخبز المعروض على المذبح مثقلاً بالجهود البشرية، كما كان صليب يسوع. ولا بد من السير طويلا في طريق عماوس قبل الانتهاء بكسر الخبز.. والمجد.

- محاولة اكتشاف العلاقة التي يتضمنها الرمز بين العناصر المقتبسة من الطبيعة وبين الحوادث التاريخية، وصولاً الى البعد الحقيقي المرسوم للسر، كل سر. فكم أن الرمز أوسع معنى وأعمق اثراً وأكثر شمولية من الرتبة الطقسية التي يتم ضمنها "السر". الرمز هو الحقيقة المضمونة.

- ثمة علاقة بين عنصر الماء المقتبس من الطبيعة (**في العماذ**) وبين العطش الى البر والعدالة. وفي هذا الميدان يصبح الرمز ناطقاً في قلب الانسان ويفتحه الى آفاق انسانية لا حدود لها. كما يعبر المزمر: "كما يشتاق الايل الى مجاري المياه، هكذا تشتاق نفسي اليك، يالله: نفسي عطشى الى الله، الاله الحي (مزمور ٤٢: ٢-٣). والعماذ الذي سلمه الينا الرب يشير الى موته وقيامته، أيضاً، وبالتالي الى موتنا وقيامتنا نحن، مع كل ما ينطوي على هذا الرمز من دينامية للحياة والشهادة، أكثرمما الى مجرد رتبة للتطهير والغسل ومحو الخطيئة الاصلية.

- **التوبة** لا تكون مجرد سر لمغفرة الخطايا الشخصية، بل "سر الوعي"، وعي الانسان لذاته ولبيئته مع مقوماتهما، وهنا يدخل عنصر المظالم الاجتماعية والفروقات العنصرية والالتواءات الاقتصادية.. وكل تشويهات المجتمعات المعاصرة التي قد نكون نحن أنفسنا طرفاً فيها، فتتطلب منا اهتداء ووعياً ومصالحة على الصعيدين الفردي والجماعي، وهذا ما ندعوه بالبعد الجماعي للتوبة، وبالمفهوم الجماعي للخطيئة.

- **الزواج** سيكون "سر الامانة والعطاء"، سر التكامل والتمايز بين المرأة والرجل، وعلى غرار سر الحب الذي دفع المسيح الى المضي حتى الموت من أجل من أحب، من أجل

الكنيسة، من أجل البشرية، سيكون سر الشهادة لحياة الحب في حضارة أذلّت كلمة الحب ومفهومه؛ والالتزام بهذه الشهادة كرسالة دينامية نحو الخارج، الى جانب عيشها في الداخل، في السراء والضراء وحتى الموت، في الاحترام والحوار والتسامح.

- **سر الميرون او التثبيت** هو سر النمو في الروح القدس وفي الكنيسة، هذه الكنيسة التي هي بحاجة الى أن تتثبت في ايمانها الآتي من المسيح. هو سر المسؤولية في أول مراحلها، المسؤولية المنفتحة للتطور والتأصل والاتساع.

- **مسحة المرضى** ستكف أن تكون جرس الموت المحتم، نقطة الزيت التي يفيض بها الكأس المر فتعطى برعدة ووجوم وتشاؤم، وفي اخر لحظة، أو بعدها. ستكون العلامة الحية لرجاء يسوع لأولئك الذين، وان تركهم الجميع فالله يهرع اليهم ليمنحهم الحياة.

- **أما الكهنوت**، فينبغي أن يفرز فيه سر الخدمة ووحدة الكنيسة وبعد النبوة، أكثر مما تستعرض فيه السلطة وروحانية التشريع والهيمنة.

- **والاوخارستيا** تشير الى ذبيحة المسيح وتمجيده، وبالتالي الى عطاء ذواتنا في المقاسمة والى مجدنا مع الآب. فعند اقامة الذبيحة الالهية نقول: "هذا هو جسدي الذي يسلم لاجلكم". فهل ترى بوسع هذا الخبز الاوخارستي أن يشبع قلب الانسان في سبيل تحويل رغبته لتغيير العالم. انه دعوة الى تجاوز الذات، الى تحويل الرغبة الى حياة، الى عمل. فاذا غاب هذا البعد عن الاوخارستيا عملياً، أفلا يكون من حق المعترض أن يقول: ترى ما نفع الاحتفال بسر المحبة، اذا كانت الجماعة نفسها تحيا —في بعض أعضائها— في الكذب، اذا كان الظالمون يمنحون لانفسهم حق التناول من الاوخارستيا الواحدة بينما يرفضون الطعام للمظلومين والفقراء، كل يوم، بمواقفهم وظلمهم.

هكذا اذن في كل رتبة من الاسرار ينبغي اكتشاف سر التجسد الذي تجلى للبشر في الزمن، فأعطاهم طاقة الارتقاء الى الله والاندماج الاعمق، أي الالتزام الحق، بقضية الانسان. وهكذا تصبح الاسرار، كما قال القديس ايريناوس، مقراً تربوياً لاكتشاف كرامة الانسان في المسيح. فالاسرار المقدسة تدعو الى التوبة، الى مراجعة الحياة، الى الالتزام، الى الهبة المجانية. فثمة علاقة بين المفهوم الانساني للاسرار والقضايا الانسانية المعاصرة. فالاهم من رتبة الاسرار وهالة القدسية التي تحيط بها: كرامة الانسان الذي من أجله وضعت، كما قال يسوع: "ما الأعظم، هل القربان، أم المذبح الذي يقدس القربان؟" (متى ٢٣:١٩).

هكذا تأخذ الاسرار ابعادها الحقيقية عندما نضعها في بيئتها الكنسية الاصلية، أي في الاطار الوجودي الانساني الذي فيه ومن أجله وجدت ونسقت طقوسها.

فاذا كان كل "سر" يرافق مرحلة أو حالة من حالات حياة المؤمن، فهناك عنصران أساسيان لا ينبغي اهمالهما في كل سر وهما:

١. السر، كل سر، هو اشتراك أعمق في حياة المسيح بصورة رمزية واندماج في حدث الفصح، أي في موت وقيامة المسيح الحي.

٢. السر، كل سر، له بعد جماعي، وليس مجرد فعل ديني خاص بمن يتلقاه.

بهذين البعدين تكون الاسرار كلها "محطات خلاص وشهادة"، وليس وصفات طبية خاصة لحالات خاصة (راشيتات). ولهذا تعطى ضمن الكنيسة، أي ضمن جماعة المؤمنين.

الأب يوسف عتيشا

المراجع

Henri Denis: Des sacraments et des hommes, Chalet 1975.

١٠ الشباب... وعي وطموح

السنة الحادية والعشرون: ت١ - ت٢ ١٩٨٥

الفهرس

الموضوع	الكاتب
• افتتاحية: الشباب ... علامات استفهام؟	رئيس التحرير
• الشباب... تساؤلات وطموحات	
- الشباب في عصر التحولات	أ. لوسيان جميل
- نتائج الاستفتاء: الشباب بين الواقع والطموح	
(١) حياة الشباب الخاصة	يوسف حنا للو
- دور الثقافة في بناء الشخصية	أ. يوسف توما
- قضايا الشباب في "الفكر المسيحي"	(...)
• الشباب ... معانيات وامال	
- محاورة: شباب ووالدون وجهاً لوجه	نوال اسكندر ونجيب قاقو
- الشباب... ازاء مغامرة الحب	أ. يوسف صفاصف
- (٢) مكانة الشباب في المجتمع/استفتاء	نونيك طباخ
- لقاءات: شباب يتحدثون	(...)
- صلاة الشباب	جوان اواس
• الشباب امل الكنيسة	
- الشباب والايمان	أ. افرام سقط
- الشباب ازاء وصايا الله	أ. نعمان اوبرة
- القرار في "رسالة العلمانيين"	المجمع المسكوني
(٣) دور الشباب في الكنيسة/استفتاء	الأخت سالت أنيت
- الشباب والكنيسة في "الفكر المسيحي"	(...)
- الشباب والكنيسة	أ. يوحنا عيسى
• الشباب... عطاء والتزام	
- الحركات الشبابية المسيحية في الكنيسة	أ. جرجس القس موسى
- طاولة: انتظارات الشباب من الكنيسة	رياض حبش
- الشباب في خدمة التثقيف المسيحي	أ. يوسف عتيشا
- قصة قصيرة: لقاء	يونان م. هوزي
• السلام والشباب يسيران معا	أ. جان كوربون
• الفتيات في نظرة فتى	بيتيه حبشي

تزامن هذا العدد مع العام الدولي للشبيبة، فكان دعما لتطلعات الشباب الى عالم افضل وكنيسة ابهى، إذ رصد تساؤلاتهم ومعاناتهم الى جانب آمالهم وطموحاتهم، عبر اربعة محاور:

تساؤلات وطموحات: بعد نظرة فاحصة الى جيل التحولات، يتجلى دور الثقافة في بناء شخصية الشباب.

معانيات وآمال: يعيشها الشباب في نطاق الاسرة والمجتمع، وتضعهم مغامرة الحب ازاء دعوتهم في الحياة.

الشباب امل الكنيسة: في هذا المحور ينصب الاهتمام على ازمة الايمان والاخلاق لدى الشباب ليفضي الى موقعهم ودورهم في الكنيسة... ومن هنا كان اختيارنا لثلاث مقالات من هذا المحور.

الشباب... عطاء والتزام: بعد استعراض للحركات الشبابية في الكنيسة، برزت انتظارات الشباب وتجلى الدور الذي يحق لهم ويجب عليهم ان يلعبوه في رسالة الكنيسة...

(...) ويقيننا أن هذا العدد يكون قد أصاب الهدف:

❖ اذا أيقظ الوعي لدى الشباب بأنهم دعامة المجتمع، لا أرقاما لا صوت لها، بل أعضاء فاعلون يحملون مسؤولية بنائه وتطويره وتقدمه على أسس الحق والحرية والعدالة والأخوة والتضامن.

❖ اذا عمل على تقليص الهوة بين الشباب ووالديهم، فحمل الوالدين على تقليص فترة الوصاية عليهم، ومكن الشباب من بناء شخصيتهم المستقلة في إطار حرية مسؤولة، وأرسى قواعد حوار بنّاء على أساس الحب والاحترام المتبادلين...

❖ اذا أسهم في يقظة الشباب على دعوتهم المسيحية ومكنهم من اكتساب حس ايماني أصيل، يضحي الايمان بموجبه "قضية حب"

❖ اذا رسّخ الشعور لدى الشباب بدورهم ومسؤولياتهم الجسيمة في حياة الكنيسة ورسالتها وعلى مختلف المستويات، وحمل الكنيسة على الإصغاء إلى نداءات الشباب ومطاليبهم ...

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٢٩٣)

دور الثقافة في بناء الشخصية

قال احد المفكرين: "الثقافة هي ما يبقى لدينا بعد أن ننسى كل شيء".

بالرغم من التناقض الظاهر في هذا التعبير، يبدو لي انه خير منطلق لمحاولة التعرف على مفهوم الثقافة من جهة، وتوضيح علاقة الشباب بالثقافة من جهة اخرى.

الثقافة ... هل باتت هي الاخرى مادة للاستهلاك في تيار المنافسة الاعلامية؟ من هذا المنطلق يلقي الاب يوسف توما الاضواء على ماهية الثقافة التي لا تقاس بكمية المعلومات، بقدر ما تقاس بقابلية المرء على التعامل معها وتوظيفها على الوجه الاكمل. فهي قدرة على الاستيعاب والمضغ، وقدرة على الرؤية الصافية والحكم المستقيم.

العمق، الاصالة، سعة الافق، الاختراع والابداع، صفات يمتاز بها المثقف الحقيقي ويتسم بها تعامله مع عناصر الثقافة ومواردها المتنوعة... فالى التحلي بهذه الصفات، مدعو كل انسان ولا سيما الشباب، وهم في مرحلة التساؤلات والطموحات، ولهم من القابليات ما يمكّنهم من الابحار في تيار الثقافة في اوسع معانيها.

١. ما هي الثقافة

ليس من السهل ان نعطي تعريفاً وافياً للثقافة، لأن عبارة "الثقافة" نفسها لا تنحصر في مجال واحد، فهناك ثقافات عديدة: ثقافة مدرسية، ثقافة قومية، أو دينية، أو سياسية، أو فنية الخ... ناهيك عما يسمونه بالثقافة العامة، أي أن يعرف الانسان شيئاً صغيراً عن كل شيء تقريباً. وقد انكب علماء الاجتماع على دراسة مفهوم الثقافة فخرجوا بتعريفين، احدهما ضيق والاخر واسع: فالتعريف الضيق يقول: الثقافة هي الافكار الرمزية التي تملكها وتتناقلها جماعة من البشر، والتي تتميز بها عن جماعة اخرى. اما التعريف الواسع فيقول: الثقافة هي مجموع المعلومات والعادات والمعتقدات واللغة والافكار والفن والتقنيات وكل ما يخص تنظيم الحياة الانسانية في الزمان والمكان.

هذه التعريفات تحاول اعطاء فكرة شمولية عن الثقافة، بوصفها حالة ونشاطاً انسانياً، ولكن واقع القرن العشرين (وواقع شبابنا اليوم) يختلف جداً عن كل ما عرفه اباؤنا واجدادنا عن الثقافة وعما يشكل عناصرها التكوينية أو القنوات التي تمر من خلالها لتصبح جزءاً من ثروات الانسان الذاتية. ومن اهم هذه القنوات الجديدة، وسائل الاعلام العصرية (التلفزيون، الراديو، الصحافة، الاعلان...)، ومفهوم الثقافة الجماهيرية... هذه القنوات التي تستولي عليها الشركات أو المؤسسات الاعلامية الرسمية أو الخاصة المختلفة أو مراكز القوى المتنوعة، السياسية والايديولوجية والاقتصادية والانتاجية.. حتى بدت "المادة الثقافية" في زماننا هي الاخرى تجارة وانتاجاً استهلاكياً يستهدفان جيوب الجماهير أو استلاب افكارهم وتطويع استقلاليتهم، اكثر مما يستهدفان الرقيّ بهم أو تقديم غذاء حضاري لانسانيتهم الكاملة.

ان هذه التحولات بدأت منذ نهاية القرن الماضي، غير أن الثلاثينات من قرننا شهدت صراعات حول حرية الاعلام والاعلان بين رجال الاقتصاد والسياسة والمفكرين. فتباينت وجهات النظر واختلطت المصالح وقامت دراسات عديدة تستطلع "الراي العام" عما تنتظره أو تتفاعل معه الجماهير، واخرى تبرهن انه بالامكان التأثير على الجماهير بالدعاية والاعلانات وجعلها تقتنع بالسلطة الفلانية –ثقافية كانت أم استهلاكية– وتشتريها: "الرجل المثقف يقرأ الجريدة الفلانية"، "العائلة السعيدة تستعمل صابون ماركة كذا" الخ...

وهكذا اختلف مفهوم الثقافة بين جيل وجيل، بين طبقة واخرى، بين دولة ودولة.. ولكن هذا التيار الذي "شيّأ" الانسان، إن صح القول، واستغله كسلّة قمامة يلقي بها فائضه، أو كطفل يغريه بائع الحلوى المتجول بقطعة تسيل لعابه ليستدر فلساته، هذا التيار لاقى معارضة شديدة بالرغم من قوته واساليبه الاغرائية. فالدعاية ليست دائماً حيادية وشريفة، وهذه الاساليب غالباً ما تسلب حرية الفرد وتقمع شخصيته. فقامت الحكومات بوضع قيود للمنافسة الاعلامية والاعلانية، وأعلن رجال الفكر الحرب على كل الصراعات التافهة التي تخلخل القيم الفكرية وتستلب شخصية الجماهير وتكبّلها. ولا شك ان الاطفال والشباب اكثر تعرضاً لعتّو الدعاية والاستلاب الفكري، لانهم في طور التكوين، حيث الانفعال اكبر والمناعة أضعف والحذر أقل. ولكن اذا كان للشباب الحق في أن ينموا ويكبروا ويختاروا مستقبلهم بحرية ومن دون اكراه، فعلى قادة الرأي والتوجيه والاعلام ان يبنوا مصداقيتهم على الحقيقة ونضوج الحكم، وعلى المسؤولية في بناء الذات، لا أن يحطموا ثقتهم بجيل الكبار وموجهي الرأي، وهم بعدّ في اول الطريق.

قد تكون الازمة الثقافية قد ضربت الغرب قبلنا، لاسباب حضارية وتاريخية واقتصادية معروفة (اميركا في الثلاثينات، وأوربا في الستينات)، ولكننا نحن ايضاً لسنا بمنجى عن هذه الرياح الموسمية. ولعل التناقضات والصراعات المختلفة التي يمر بها الوطن العربي في الظروف الراهنة، ما هي الا انعكاس لهذه الازمة. فهي صِدام حضاري ثقافي في العمق

اللاواعي (ازمة البحث عن الهوية الذاتية كما يقال) بالرغم من ظاهره السياسي الاقتصادي، ومن دون ان ننفي هذا الجانب على حساب ذاك. وما عليك إلا أن تحسن السماع الى معانيات شبابنا حتى تتحقق من هذه الازمة الذاتية.

٢. حصيلة الثقافة

لقد طرحنا بعض الجوانب التي من شأنها أن تؤثر على الانسان الذي ينشد الثقافة. ولكن سرعان ما نكتشف ان الناس ليسوا على حدّ سواء امام وسائل الاعلام، ولا امام الاحداث، ولا في الدراسة، ولا تجاه الخبرات المختلفة. بل ان هناك اختلافاً بين الاباء وابنائهم، ولربما يكون الاختلاف بين جيل الاباء وجيل الابناء اشد من غيره(١). وهذه الاختلافات كامنة في قابلية الاستيعاب والحكم. والاستيعاب هو القابلية التي للمرء في أن يفهم الموضوع الفلاني ويستسيغه ويتمكن من مقارنته بغيره من المواضيع، فيقيّم بذلك موقعه واهميته في الزمان والمكان. لذا يمكننا القول، من الان، أن الثقافة لا تقاس بكمية المعلومات التي نعرفها، بل بالطريقة والقدر اللذين نتعامل بهما مع هذه المعلومات —بالرغم من اهمية عنصر المعلومة والاطلاع لبناء الثقافة. فالمثقف ليس بالضرورة، ولا يطلب اليه ان يكون موسوعة أو قاموساً متجولاً. المثقف هو الذي يعرف كيف يتعامل مع الاحداث والاشياء. انه ليس ببغاء يسرد الكتب على ظهر قلبه، ولا مسجلاً لأتفه الاحداث وأغربها. فالمثقف هو من امتلك حساً خاصاً يستطيع ان يميز به الصحيح من الخطأ، والموزون عن المفرط. والثقافة حكم ورؤية وموقف، اكثر مما هي التهام مفردات. لذا قد يكون الحس الثقافي هذا طبيعة في بعض الناس الاميين، فيتكلمون ويفكرون بشكل موزون ومبدع، بينما هناك من حَمَلة الشهادات مَن لا يمتلكون هذا الحس، فيخلطون المهم بالثانوي والتافه، فتأتي بضاعتهم بمثابة اعادة انتاج من النوع الرديء.

وتبدأ اسس الثقافة العامة من الحياة اليومية، عندما نطابق ما في فكرنا مع الواقع بانسجام وروّية. فالفكر والواقع مثل لعبة الأسهم (التي يحبها الشباب)، قد تخطئ الهدف في المرة الاولى، ولكنك في المحاولة الثانية تحاول الاستفادة من خطإك في التصويب: فخسارة سهم قد تساعدنا على إصابة الهدف في المرة الثانية، وقد تكون الخسارة لأكثر من سهم لدى البعض.. فيأتي دور التصميم والمثابرة. ألم نقرأ ذلك في خبرات كثير من الكتّاب والفنانين والموهوبين.

فمن مقوّمات الثقافة اذا الاستفادة من اخطائنا (أو اخطاء الآخرين)، ويبقى الاهم ان تكون للمرء الشجاعة في اعادة المحاولة والتفاؤل بالمستقبل والنجاح.

---

(١) في معرض للحاسبات الالكترونية اقيم في نيسان الماضي، في معرض بغداد الدولي، شاهدت الشباب والاولاد يتعاملون مع الحاسبات بسهولة عجيبة، بينما وقف ذووهم مندهشين وكأنهم في عالم غريب.

هكذا نكتشف ان الشخص المثقف هو الذي، بالاضافة الى ما يعرف، يعرف توظيف ما يعرف، ويعرف ما ينبغي عمله، ويعرف ايضاً ما لا ينبغي عمله: لا يترك شيئاً للصدفة ولا يستسلم لاول داعية، بل يقدر الاشياء حق قدرها ويعرف أن فيها قابلية للتبدل والتطور.

٣. شروط الثقافة

يمتاز المثقف بصفات اربع وهي: العمق، الاصالة، سعة الافق، والابداع.

أ. **العمق**: هو ان نتحدى مظاهر الاشياء وقشورها السطحية، فلا نتوقف لدى ما يبدو للعين او يسمع بالاذن، بل ندخل الى قلب الامور ونقرأ في الجوهر وفي الحقيقة. فمثل هذه القراءة تحتاج الى تركيز وقوة فكرية وشجاعة وارادة متدربة. وقد يكون الانسان السطحي جدياً في سطحيته، كالوسواس الذي يعطي لتوافه الامور اهمية مفرطة، فيعقد حياته ويراوح في مكانه دون أن يتقدم. وقد يكون عكس ذلك، يهزأ ويسخر من كل شيء ويعتبر ان الضحك اهم شيء في الدنيا.

ولعلك تقول بأن من الفلاسفة ايضاً مَن اعتبروا ان الضحك اهم شيء في الحياة، ولكن الفرق بين السطحي الساخر والفيلسوف الساخر هو، ان الفيلسوف يضحك من داخل الاشياء، ان صح القول، أي انه يقرأ جوهر الاشياء والاحداث ويستخرج من مفارقاتها دروساً مؤلمة وعبراً للحياة، بأسلوب ظاهره ظرافة وباطنه ملغوم؛ اما السطحي الساخر، فضحكته جوفاء تؤذي ولا تبني ولا ترنّ الا في اذن صاحبها. فهناك بعض الفرق بين برناردشو، مثلاً، وتافه لا يرى احداً او شيئاً الا ويهزأ به. هذا نقص، وذلك امتلاء.

ب. **الاصالة**: في كل انسان اصالة خاصة به، أي ميزات تجعله يختلف عن أي انسان اخر. ولكن الاصالة بهذا المعنى لا تبدو في الواقع المعاش مرغوبة عند جميع الناس. فكثيرون يخافون الاختلاف والتمايز، بل يشجبونه ويحاربونه كواحد من اسباب مشاكلهم، لأن الاختلاف يعرضهم للمصادمات ويلفت الانظار اليهم في خصوصياتهم وسلبياتهم، او ما يحسب كذلك، ويظهرون بمظهر من شذ عن القاعدة. فيكونون موضع هزء او ريبة، وكلاهما تحدّ وازعاج (نفسية الاقليات المسحوقة). وعندما لا يكون هؤلاء على مستوى التحدي، يتحولون على اثر ذلك الى الصفوف وكأنهم خراف في القطيع، فتقتل المواهب.

لا شك ان الاختلاف قد يكون سلبياً، كأن يعمل الواحد بمبدأ "قبّح تذكر"، فيخرج عن المألوف بالعمل السيء. ولكن قد يكون ايجابياً ايضاً —وهذا هو المقصود هنا— كمن يطمح الى تحقيق مشروع او أمر ما، لم يوجهه اليه مجتمعه، او يبدو غريباً او سابقاً لأوانه بتقدير الحسابات المنظورة، او قد يبدو محفوفاً بالمشاكل والرفض وكمن يسبح ضد التيار (أن تصعد فتاة على خشبة المسرح في كنيسة القرية مثلاً). ولكن بوسعنا ان نقول بأن معظم الاعمال الفنية والادبية والفكرية التي احتفظ بها التاريخ هي من هذا النوع، وان كان من يسير في مثل هذه الدروب لا يسلم من لسان الناس، فيصح فيه قول المسيح: "ليس نبي

من دون كرامة الا في وطنه".

ولكن الاصالة هي ايضاً عودة الى الجذور، الى "الاصل"، الى الابداع الذاتي، الى التفاعل الاصيل الذكي مع المعطيات والواقع والربط ما بينهما بانسجام وتوزان. فالمثقف الاصيل هو الذي يعرف ذاته وقابلياته وطاقاته وموقعه في المجتمع، ويعرف كيف يوظف هذه الطاقات ويكسب ثقة الناس، من دون ان يصاب بالغرور: انه موهوب حقاً.

ج. **سعة الافق**: هذه الصفة تكمّل السابقة، فالانسان المثقف لا ينبغي ان يرى نفسه وقابلياته حسب، بل عليه ان يكون على بيّنة من الطريق الذي يسلكه ايضاً. عليه ان يتعلم كيف يسيّر حياته بين الحفر والمطبات، ولربما ان "يناور" بين هذه وتلك ليتقدم، أي ان يكون يقظاً وفطناً، يعرف متى يقف ومتى يسرع، لا يعطي للصعوبات من الاهمية الا ما تستحق للانتصار عليها. انه واسع الافق في تفكيره وتعامله وسلوكه، يبتعد عن التعقيد ولا يكبل مسيرته بالامور الثانوية او الجانبية، أي انه يحاول ان لا يهدر طاقته سدى. واسع الافق يعرف كيف يكون متواضعاً، كريماً، وقوراً، وصبوراً مع الناس والاشياء. انه يشمل بنظرته الماضي والحاضر والمستقبل، مستفيداً من دروس مضت ليخطط لبناء غد افضل، ويعيش حاضره باتزان ورويّة، فلا الفشل ولا الحزن يسحقانه، ولا الفرح ولا النجاح يؤديان به الى التهور.

واسع الافق لا يرى نفسه وحيداً فريداً في الكون! ان له موقعاً وحدوداً يحترمها، ولكنه لا يعتبرها حواجز تفصله عن الناس، والواسع الافق الاصيل هو الذي يتخطى الفروقات الدينية او الاجتماعية او العرقية او العنصرية وحتى اللغوية ليبني علاقاته على التفهم والانفتاح والحوار والاحترام المتبادل. فالتعصّب، اذن، مهما كانت اشكاله وتسمياته، والشعور بالتفوق المتعالي، او ما بوسعنا ان نسميه "بالانكفاء الثقافي" -أي الانغلاق المتعمد على الثقافة الخاصة دون غيرها، بحجة الوقاية من التلوث الخارجي والدفاع عن النفس- وهو في الواقع ردة فعل نرسيسية وشعور بالنقص... كل هذه العناصر لا يمكن ان توجد لدى المثقف الاصيل.

د. **الاختراع او الابداع**: قيل ان "الحاجة ام الاختراع" ولكن ما هي الحاجة؟

الحاجة هي الرغبة في شيء لا نملكه ونريد امتلاكه. هي الشعور بشيء ينقصنا، فنطلبه خارجاً عنا لغرض الاكتمال والاحساس بالاكتفاء الوقتي الدائم: كالحاجة الى الطعام والشراب والصداقة والحب والفرح والتكلم والعطاء..

حاجاتنا اذا متفاوتة الاهمية، وما ان يقضي المرء حاجة حتى وتولد فيه حاجة اخرى. كذلك الرغبات، فما ان يحقق الانسان رغبة، حتى يطمح الى تحقيق اعظم واكمل منها(٢).

(٢) في معنى "الرغبة" وابعادها في تكوين الشخصية، انظر فرانسواز دولتو في ف. م. حزيران/ تموز ١٩٨١ ص ٢٠٦.

وقد يتصور بعضهم ان الرغبات الكثيرة امر سيء بحد ذاته. نعم، اذا كانت هذه الرغبات تتوقف عند مستوى معين او تتكرر على وتيرة واحدة دون تطور. ولكنها جيدة وبناءة اذا دفعت بصاحبها الى الكمال والنضوج. فليست الحاجة بحد ذاتها هي التي تقيس نُضج الانسان، وانما المعاناة التي تحرك ابداعه وتنسق رغباته وتصقل شخصيته وتصوغ طموحاته وتبلورها.

والفرق بين الطمع والطموح هو ان الاول يجمع من اجل التكديس، ومرتبته في خانة "التملك"، اما الثاني فرغبة في الارتقاء والتأصل، وموقعه في خانة "الكينونة"، وفيه عنصر السموّ عن المادة الى جوهر الاشياء وروحها. الطموح مفتاح لتحقيق الذات، وبالتالي لتحقيق السعادة لنا وللآخرين.

بهذا البعد الايجابي للرغبة او الحاجة، يحاول الانسان الناضج ان يضع سلّماً للأولويات، وان يكتشف الطريق الافضل لتلبية حاجته، فيسلك اسلوباً يستفيد فيه من خبرات الآخرين (الحاجة ام الاختراع).

لقد صار الاختراع مبدأ من مبادئ الحياة والتطور في عصرنا الحديث، ولم نعد ندرس أو نشتغل او نزرع بأساليب اجدادنا، والتقدم صار يقاس بتطور اساليب العمل او الانتاج. وحتى على مستوى النشاط الثقافي واساليب الانتاج الفكري البحث، نشأت علوم جديدة منها: المنهجية (*Méthodologie*)، أي علم تنسيق طرائق العمل الفكري وبرمجته، وعلم التقييم (*Epistémologie*)، أي علم تقييم فائدة الدراسات المختلفة لتكوين الانسان وعلم المعلومات او المعلوماتية (*Informatique*)، أي تقنية التعامل مع المعلومات بواسطة الاجهزة الدقيقة الخ...

هذه الاساليب والعلوم ساعدت في اختزال الوقت ونشر المعرفة في كل اصقاع العالم، فوضعت في متناول الانسان الواحد ما لم يكن عشرة علماء يعرفونه طيلة حياتهم في الماضي، كما ان عدد العلماء الذين يعيشون اليوم على الكرة الارضية هو اكبر من كل الذين عاشوا في مختلف العصور، واتسعت رقعة الثقافة وعلى كافة المستويات وفي سائر الطبقات الاجتماعية، وفي كل بلدان العالم، اضعاف اضعاف ما كانت عليه في السابق.

٤. اوقات الفراغ

كلما تقدمت الحضارة، كلما تقلصت ساعات العمل. ففي السابق كانت الاجرة "اليومية" تدفع للعامل الذي يشتغل من الصباح وحتى المساء، أي حوالي ١٢-١٣ ساعة ومن دون عطلة. اللهم الا يوم الاحد. اما اليوم، فالزمن محدد بثمان ساعات —واحياناً بسبع او ست— ويومين او يوم ونصف عطلة، ثم ادخل نظام العطلة السنوية، ناهيك عن العطل الرسمية وشبه الرسمية أو الصيفية. فاذا جمعنا كلٍ هذه الايام "العاطلة" على مدار السنة لكانت الحصيلة بضعة شهور يقضيها الانسان المعاصر حراً في وقته.

من جهة اخرى كان الناس يضجرون من اوقات فراغهم، فيحاولون "قتل الوقت" ببعض الاعمال الجانبية او الهوايات او التسكع وتناقل الاخبار والحكايات. اما اليوم فضيق الوقت اصبح هاجس الجميع، لأن العمل الانتاجي وضرورات الحياة اخذت تبتلع معظم الوقت. اما الفائض من الوقت وفترات الراحة، فهناك وسائل جديدة وعديدة اخذت تشغل الناس وتملأ اوقات فراغهم. ولعل التلفزيون هو أولى هذه الوسائل التي تأخذ من الناس وقتهم اكثر مما تأخذه الدراسة والعمل احياناً(٣). وبالاضافة الى كون هذا الجهاز يريح الناس من عناء البحث عن وسيلة اخرى لقضاء وقت الفراغ، فهو جهاز – "بوتقة" يصهر الجميع بسحره في قالب واحد، ويجعلهم يشعرون بالحاجات نفسها، وملايين القلوب تخفق للمباراة الرياضية عينها، وملايين العقول تفكر بنفس الحدث المعروض امامهم.

هكذا نرى ان للتلفزيون تأثيراً كبيراً على الجماهير، فهو ينقلهم في لحظات الى أبعد بقعة في العالم ويطلعهم على احداث الكرة الارضية ساعة بساعة، وينقل اليهم، وهم قعود في بيوتهم، روائع نتاجات الفكر والعمل البشريين.

ولكن التلفزيون وحده لا يكفي لبناء الانسان المثقف، والانسان السوي اطلاقاً، اذ انه بسحره يترك آثاراً سلبية ايضاً في المشاهدين، لا سيما اولئك الذين لم تتكون شخصيتهم بعد، ويقتل فيهم روح المبادرة ويقدم لهم نماذج جاهزة وهم جالسون تحت وطأة الانفعال، ينظرون ويسمعون من دون ان يقوموا بأي جهد. فتشرد عندهم المخيلة ويندمجون مع الحدث المعروض امامهم، دون ان يستطيعوا التدخل لأنهم تحت رحمة المؤلف او المخرج. وفي التالي يصبحون خاملين سلبيين بعيدين عن الواقع وغير مهيّأين لمجابهة الصعوبات الحقيقية التي تعترضهم في الحياة، وقد يكون التعلق او اللجوء الى هذه البرامج أو تلك مؤشراً الى ازمات نفسية وعاطفية وتهرباً من الواقع ومشاكله.. هذا موضوع اترك تحليله لعلماء النفس... واعود الى اوقات الفراغ وقيمتها لبناء الذات.

ان اوقات الفراغ اوقات ثمينة تستحق الاهتمام من قبل السلطات والمربين والاهل، فغالباً ما يبني الانسان فيها شخصيته وتظهر مواهبه وقابلياته الذاتية. في اوقات الفراغ والترفيه تطورت الفنون كالموسيقى والرقص والغناء والكتابة والرسم. وفي الماضي كان الانسان القديم يرسم على جدران الكهوف في امسياته الطويلة ما شاهده اثناء النهار في صيده، وكان في الليالي يراقب النجوم فانشأ علم الفلك، وتجول في الحقول ملاحظاً الزهور وانواعها فاكتشف فنون الزراعة. وهكذا اذا لم يكن العمل المضني الرتيب الباعث الاول للاكتشافات، بل اوقات الفراغ والتأمل.

ولا زال الكثيرون اليوم ايضاً يستغلون اوقات فراغهم لتطوير هواياتهم علمية او فنية تبرز قابلياتهم تعود عليهم وعلى المجتمع بفوائد جمة. وهناك هوايات عديدة تخلق عند

---

(٣) قرأت في احصائية لاحدى الدول الغربية ان الولد في المدينة يقضي معدل ٦ ساعات في اليوم امام الشاشة الصغيرة.

الشباب توازناً لشخصيتهم وثقافتهم، وحتى لمدخولهم الاقتصادي، كالنجارة والحدادة أو الزراعة او الرياضة او الموسيقى او دراسة موضوع شيق جذاب، او انشاء مجموعات فنية وثقافية كالطوابع والصور وأوراق الشجر والزهور الخ... او الاشتراك في أحد النوادي أو بيوت الشباب والتدرب على المسؤولية فيها.

٥. المسيح والثقافة

كلمة اخيرة عن المسيح والثقافة، لا من حيث ان المسيح ترك عملاً فنياً او ادبياً معيناً، وانما من حيث ألهم اروع الاعمال الفنية والادبية والاخلاقية بتعليمه واسلوب حياته ونظراته الى الوجود، ولا زال معلم البشرية الاول.

فيسوع المسيح لم يتكلم عن الثقافة بصورة مباشرة، ولكننا نجد في تعامله مع الحياة والاشياء نموذج الانسان السوي الناضج الذي ينفذ بنظرته الى جوهر الاشياء ويكنّ الاحترام كله للانسان والطبيعة، ويرى الجمال ويفتتن به: فيرى ان زهور الحقل اجمل من كل ما تحلّى به سليمان الملك من ثياب فاخرة، ويقول بأن العصافير، وإن كانت رمز العناية الالهية وتعيش على كرمها، فالانسان أكرم منها لانه على صورة الله ومثاله. وعندما يندهل الرسل أمام هندسة الهيكل، يرى يسوع ان العنف والشر سيدمرانه ولن يبقيا منه حجراً: فَلنَبنِ الانسان السوي قبل الحجر.

وهكذا يحاول يسوع في كلماته وامثاله البسيطة ان يشمل الانسان كله. لذا بامكاننا ان نعتبر كلمات يسوع وامثاله واسلوبه التعليمي في الانجيل بين روائع الادب الانساني، وبوسعنا ان نعلن من دون تردد: لم يؤثر احد قط في ثقافات البشر مثلما فعل يسوع، بالرغم من انه لم يدرس في الجامعات ولا على يد فلاسفة ولا كتب كتاباً، وما قاله بديهي وسهل الفهم على الجميع، ولكنه نافذ الى الجوهر، الى الروح.

لم يعتن يسوع بالعلوم ولا بأحد الفنون، ولكنه اهتم بشيء واحد فقط، وهو ملكوت الله حيث الانسان في اوج قيمته يتمتع بثقة الله كما يتمتع الابن بثقة ابيه؛ ملكوت الله الذي هو سلام الله على الارض، وهو مجتمع الأخوّة بين البشر، مجتمع التحرر والانعتاق من قوى الموت والخطيئة. هذا الملكوت لم يعطه المسيح ناجزاً، بل مشروعاً لطموح الانسان، ومعه وبه يحققه.

أليس ان الثقافة الحقة مشروع وطموح، ومن مقوماتها المثابرة على تحقيق الذات.

✱خاتمة

بعد هذه الجولة السريعة في الثقافة ومجالاتها، وأوقات الفراغ ووسائل استثمارها، والحصيلة التي تصب في تكوين المثقف، بوسعنا ان نربط كل هذه العناصر بحياة الانسان،

لا سيما اذا كان شاباً وعلى عتبة الاختيارات الهامة، لأن فترة الشباب هي فترة الحاجات المتلاطمة والرغبات التي لا حصر لها والطاقات المتدفقة. لكن الخبرة والارادة هما وحدهما كفيلتان بتنسيق الحياة. الخبرة يأخذها الشاب من تجاربه الشخصية وتجارب الآخرين، مثل خبرة التعلم ولذته، خبرة الصعوبات والسيطرة عليها، خبرة الانجاز بعد التخطيط والتصميم الخ...

اما الارادة، فليست كما يتصور البعض محاولة قهر الذات والميل الى كل ما هو صعب ومنغّص: انها ترويض لما فينا من طاقات ورغبات وتوجيهها نحو الأحسن والأسمى. هذا الترويض ايضاً تمرين نتمرس عليه ونتعلمه تدريجياً. فنتعلم ليس فقط على معرفة العالم الذي يحيط بنا. بل على معرفة انفسنا نحن بالذات.

فالخطوة الاولى في مشروع الثقافة الحقيقية هي ان يعرف الانسان نفسه. هذا ما كان سقراط قد فهمه عندما وضع لحياته اسلوباً قرأه على باب معبد دلفت: "ايها الانسان اعرف ذاتك". تلك هي أول معرفة.

الأب يوسف توما مرقس

الشباب ازاء مغامرة الحب

الحب ... هو الحياة، والحياة دفء لا ينضب وقوة عطاء لا تتوقف. وليس من قبيل البلاغة ان نقول ان الحب والحياة سيّان... فالحب طاقة يضيق بها صدر الانسان وينبض لها قلبه. وهو مغامرة —وما اجملها مغامرة- يقبل الانسان ان يخوضها بطيب الخاطر، وأن اعترضت الصعوبات سبيله، ولا يهدأ له بال الا متى خبرها وتذوق طعمها، بحلوه ومرّه.

الى هذه المغامرة الرائعة التي تستحق العيش، مدعو كل شاب وشابة، شريطة ان يعرف احدهما الاخر ويلج احدهما الى اعماق الاخر، في ادراك عميق لما ينطوي على الحب من ابعاد، وما يرافقه من عثرات ومخاطر... فبين نداء القلب ونداء الجسد، يجب ان يتم توازن جاد! الى هذا التوازن والوحدة بين الندائين يلفت الانتباه المقال التالي.

نماذج من الشباب!

❋ شاب في العشرين من عمره، من اسرة ثرية، يتمتع بطلعة وسيمة، لا يسعه ان يحصي كل (صديقاته) وهن بالعشرات، وله مع كل واحدة منهن صولة وجولة! لم يفكر يوما ان يرتبط باحداهن بعلاقة حب، بالرغم من ان ثلاثا منهن يتنافسن على حبه والفوز به —وقد تركهن يجررن ذيول الخيبة واليأس. انه يخرج من مغامراته بهذه الخلاصة: الفتيات كلهن منقادات، ومن اليسير "كسبهن" ببضع كلمات معسولة!

❋ فتاة في الحادية والعشرين من العمر. مغترّة بمفاتن انوثتها ورشاقة قامتها، لها صولات في عالم الشباب ولقيت في ما بينهم مقاما اشبه بمقام ملكة! وذات يوم وجدت ذاتها في عزلة مريرة، لا تطيق التحدث الى الشباب وتأنف معاشرتهم وتزهق روحها من مغازلاتهم... فبعد مغامرة مع شاب كان همه الوحيد ان يختبرها، بالرغم من مشاعر الاعجاب التي ابداها لها، خرجت بهذه النتيجة: الشباب كلهم انانيون، مخادعون، كذابون.. همهم ان ينالوا من الفتاة مأربا!

❋ شاب بلغ الخامسة والعشرين من عمره ولم يسبق له، طيلة دراسته الجامعية، أن تحدث الى زميلة بشؤون غير شؤون الدراسة، ويبدو

الان متغربا عن عالم الفتيات، لا يجد سبيلا الى التعامل معهن! وقد اصيب بشبه عقدة بعد ان علم بان زميلاته في الدائرة يهزأن به، ويتندرن على حسابه، وكان قد فاتح احداهن بأمر الزواج، فجاءه الجواب عنيفا لا رقة فيه: ابحث عن فتاتك في مكان اخر!

❋ فتاة على قدر عال من الجمال في التاسعة عشرة، شحنت منذ طفولتها بنصائح وتحذيرات يلقيها عليها بالتناوب والدها ووالدتها واخوها الاكبر! وبعض هذه التحذيرات اتخذت صيغة التأنيب والتعنيف فأسهمت في تعميق العقدة لديها من كل مخالطة او معاشرة مع الشباب، حتى ولو كانوا من الاقرباء! وكان كل شيء على ما يرام في نظر والديها! وفي سنتها الجامعية الاولى —وكانت الجامعة فرصتها للدخول الى عالم الشباب بعيدا عن الرقباء— زجت بنفسها في علاقة عاطفية، وسرعان ما وجدت نفسها في "عش زوجي" مولية ظهرها لقناعاتها الدينية وواضعة حدا للوصاية التي خضعت لها في احضان اسرتها!

❋ شاب في الثانية والعشرين التقى، في حفل عرس، بفتاة لفتت انتباهه من اول نظرة وشعر تجاهها بميل عارم: طلب يدها للرقص فلبت، وضرب لها موعدا فوافقت، وبعد كل لقاء كانت الفتاة تخرج بقناعة اكبر حول صفات شخصيته ومزاياه الى ان قررت ان تمنحه ثقتها وحبها. وسرعان ما تحولت لقاءاتهم الى مكاشفة حميمة اتسمت بالصدق والصراحة واخذا يمنيان النفس بالبلوغ الى ميناء السعادة. وذات يوم، وبدافع من رغبتها في ان تكون صادقة معه ومع ذاتها اسرت اليه بحب سابق لم يكتب لها فيه النجاح! وكان هذا اللقاء خاتمة لقاءاتهما!

❋ فتاة في الرابعة والعشرين من العمر، من اسرة فقيرة تتحلى باخلاق رفيعة ومزايا عالية، طوت سنوات دراستها دون ان تزل قدماها في مغامرة! وكان لها بين الزملاء اصدقاء تقاسمهم اراءها ومفاهيمها في الحياة والحب والزواج.. وقد عرفت في كثير منهم شبابا دمثي الاخلاق، رقيقي المشاعر؛ وقادتها الصدفة يوما الى ان تلتقي باحدهم —وكانت تضمر له الحب والاحترام— وانطلقا في حديث ودي اكتشفا من خلاله انهما "خلقا احدهما للآخر"! ومرت اشهر تخللتها لقاءات جادة وحميمة، وكان لا بد ان يصارحها اخيرا بالواقع: آسف أن اقطع صلتي بك، فلقد بلغت مشاجراتي مع والدي اوجها، ولم اقو على اقناعه!

نماذج كان بوسعنا ان نثبت امثالها بالعشرات، بل بالمئات! فكل شاب وشابة في مقتبل العمر عالم بحد ذاته، ولكل منهم "قصة حب" قد تتشابه في شكلها واسلوبها، ولكنها تختلف في مضامينها وملابساتها وتشعباتها وتعقيداتها. انها قصة الحياة يعيشها الشبان والشابات، بموروثات فكرية ونفسية وخلقية واجتماعية ودينية، ضمن أسر يختلف بعضها عن بعض في المفاهيم والقيم والمقاييس، وفي قلب مجتمع يثقل كاهلهم بعقد ومحرمات ويقيد حريتهم بعادات وتقاليد سرعان ما تضفى عليها صفة "القدسية"!

❋ الحب.. سر الحياة

"لا يحسن ان يكون الانسان وحده... وخلقهما ذكرا وانثى"!

انه سر الحياة الذي شاء الله ان يكتشف كل من الرجل والمرأة عمقه وابعاده، ويبحثان فيه سوية عن توازنهما وتكاملهما وسعادتهما. ألم يخلَق الانسان للحب؟ أوَ ليست السعادة أن يكتشف الانسان دعوته الى الحب ويتجاوب مع متطلباته بوعي عميق ويضطلع بمسؤولياته في الحفاظ عليه وانمائه الى ان يبلغ الى ملء اكتماله؟ اليس الحب والحياة سيان: من احب كانت له الحياة كاملة فيه، ومن لا يحب لن يعرف طعم الحياة؟

والحب الذي نحن بصدده –وان تعكر وجهه وتشوهت مفاهيمه– ليس ببعيد عن الحب الذي يكنه الانسان لله او لذويه او للقريب. فالحب واحد، سواء اتجهت حركته نحو الله او الانسان، وسواء كان هذا الانسان ابا ام أما ام اخا ام صديقا ام حبيبا ام زوجا.. ذلك لان كل اشكال الحب تنطلق من ينبوع واحد وتصب في مجرى واحد! انه خروج عن الذات بقدر ما هو تحقيق للذات قوامه تنادٍ بين شخصين يدركان ان عليهما ان يسيرا معا في دروب الحياة.

قد يخيل للقارئ اننا نذهب بعيدا، ونحن بصدد الشباب الذين استيقظت طاقاتهم الحيوية وتفتحت مشاعرهم نحو الجنس الاخر واتجهت عواطفهم واحاسيسهم نحو رفيق الحياة عبر احلام ومغامرات وتعثرات وانحرافات.. واذا بدأنا برسم نماذج لملامح شبان وشابات يرون في الحب مغامرة رائعة تستحق العيش –وقد تتمخض احيانا عن معانيات ومآسٍ– فلأننا نريد ان نضع الحب البشري الذي يعتلج في قلوبهم، في اطاره الروحي وبعده الانساني بصفته قبسا من الحب الالهي.

الحب! هو الموضوع المفضل في احاديث الشباب، سراً وعلنا! والحب في مفهومهم مزيج من القيم والاراء بعضها من صلب صفاته ومقوماته، وبعضها الآخر لا يمت اليه بصلة: فهو تارة ثقة واحترام وصدق وصراحة ونكران ذات وتجرد وعطاء وبذل وسخاء الخ..، وتارة اخرى يلتصق به الرياء والكذب والاستغلال وروح الاثرة والأنانية...! وفي محيط مشحون بالنظرة الخاطئة الى الحب، يؤسفنا ان نكون شهوداً على مفهوم اصابه التشويه وكاد يصل الى حد الابتذال، ولا سيما بعد ان أمسى وكأنه قضية "عرض وطلب"! فلقد اصبح الحب في مفهوم بعض الشباب مرادفاً للتحرش والغزل تارة، وللعلاقات العاطفية والغرائز الجنسية تارة اخرى، وهو يتخذ احيانا صفة الغرام والشبق، واحيانا اخرى يقترن بالمغامرات والتجارب الجنسية – كما تعكسها المجلات الرخيصة والافلام الخليعة!

وكثيراً ما يضيع الشباب في هذه الفوضى من المفاهيم ولم يعودوا يعرفون على اية قيم يرتكزون بعد ان اصابها الاهتزاز والانقلاب. فهم يعيشون في عصر كل ما فيه يتحدث عن الحب في اطار من الاثارة الجنسية تعتّم ابعاده وتفقده اسمى معانيه وتجرده من القيم التي

يرتكز عليها بصفته فعلا انسانيا رفيعا يحمل الى الانسان توازنا لكيانه وغنى لشخصيته وكمالا لانسانيته. اليس الحب، في جوهره وابعاده الانسانية، ذاك التنادي العميق بين رجل وامرأة وطدا العزم على الدخول في مغامرة رائعة كلها عطاء وسخاء وبذل وتسام، تنفي كل اشكال العبث والاثرة والانانية[1]؟

ففي اطار هذه الفوضى من المفاهيم. وازاء المخاطر التي يتعرض لها الشباب، قد نميل جميعنا للحال الى وضع علامات استفهام على كل علاقة تنشأ بين شاب وشابة. سواء كانت علاقة زمالة ام صداقة ام حب: اليس كل شاب وشابة اشبه بـــ "نار وحطب"؟! واذا التقيا كان ثالثهما الشيطان؟ وقد نسهم نحن جميعا، والشباب انفسهم، في ترسيخ هذه النظرة السلبية الى العلاقات بين الجنسين حين نأبى ان نواجه الواقع الانساني ونقيمه في كل ابعاده، ونرفض النظر الى هذا الجانب العاطفي والجنسي من حياة الانسان بعيون صافية، متسترين وراء العادات والتقاليد والموروثات التي سرعان ما نترجمها الى لغة الحلال والحرام!

لسنا نريد من وراء هذا الحديث ان نثير النار من تحت الرماد! فلسنا من دعاة الانفلات في العلاقات. وانما جل هدفنا ان نزيل من اذهان الشبان والشابات الاوهام والترسبات التي علقت بمفاهيمهم حول العلاقة بين الجنسين، وعلاقة الحب بنوع خاص، ونقيهم مخاطر الانزلاق في مهاوي الرذيلة، ونحملهم على النظر الى الواقع الحياتي برؤية انسانية ومسيحية اصيلة. والاضطلاع بمسؤولياتهم كاملة تجاه سر الحياة. ويقيننا ان الكثير من العقد والانحرافات التي يتعرضون لها ترجع في جذورها الى نقص في المعرفة بطبيعة كل من الجنسين وخصائصه الفيزيولوجية والنفسية[2]. واهتزاز القدرة على المواجهة الجادة بينهما على اساس الاحترام المتبادل، فضلاً عن فقدان توعية جادة باتجاه الشبان والشابات ترافق يقظتهم العاطفية والجنسية.

واذا اخذ احد علينا اننا نفتح العيون المغمضة ونوقظ الاحاسيس الغافية، فليعلم ان هذه اليقظة قد قطعت شوطاً كبيرا بحكم التحولات الفكرية والثقافية والاجتماعية والخلقية الخ... وهي اليوم اكثر وعيا وتحرراً وانطلاقة، تسهم فيها الى حد كبيروسائل الاتصال الاجتماعية، المكتوبة او السمعية – البصرية. فالخوف ليس في وجود هذه اليقظة بل في غيابها! والعبرة هي في ان تصبح هذه اليقظة عنصر توازن لدى الشبان والشابات فتحملهم على ان يعرفوا بعضهم بعضا ويواجهوا بعضهم بعضا ويتعاملوا مع بعضهم البعض بشكل جاد ورصين.

* بين ندائين: نداء الحب.. ونداء الجسد

ليس هناك اختلاف يذكر في الميول التي تقود الشاب او الشابة الى البحث عن

---

(١) راجع الرسالة الراعوية لاساقفة الموصل "في الحب والزواج" (ف. م. ايار ١٩٨٥).

(٢) راجع مقالنا "نفسية الشباب" (ف. م. ايار ١٩٧٢). "نفسية الشابة" (ف. م. حزيران ١٩٧٢).

الحب وما يرافقه من غبطة ومتعة. الا ان نداء الجنس لديهما يتخذ طابعا خاصا نظرا الى ما يتصف به كل منهما من خصائص فيزيولوجية ونفسية، والى الخلفيات الخلقية والموروثات الاجتماعية التي تأصلت لديهما عبر التربية العائلية التي تلقياها والبيئة المجتمعية التي ترعرعا في احضانها. فالشاب، بطبيعته، اكثر حسا تجاه كل ما يتعلق بالملذات الجنسية، ويتخذ موقفه منها وضوحا واندفاعا، واحيانا تحديا وشراسة، فيما تبدو الشابة اقل بحثا عنها ولا يتخذ الجنس معناه كاملا لديها الا في نطاق الحب.

وغني عن القول ان اختلاف التكوين الفيزيولوجي بين الرجل والمرأة هو في الاساس من الاختلاف في موقفهما من القضايا العاطفية والجنسية. فليس الاختلاف في وجود الاحساس الجنسي لدى الرجل وغيابه لدى المرأة، وانما في نوعيته ودرجته واسلوب البحث عنه لدى كليهما:

ففيما يتركز الاحساس الجنسي لدى الرجل في قواه الحيوية ويتميز بقوته وعنفه، يمتد هذا الاحساس لدى المرأة على رقعة كبيرة من كيانها ويتميز برقته وارهافه. وكما ان هناك اختلافا بينهما في كل ما يتعلق بالمظهر والملبس الخ... تحدده العوامل الطبيعية والنفسية، هكذا هي الحال بالنسبة الى نداءات الجنس: فاذا كانت الشابة تبدو سلبية تجاهها واقل انجذابا، فذلك لا يعني انها لا تبالي بها، وانما تأخذ لديها ابعاداً اكثر وسعا وشمولية. ويعود السبب في ذلك الى ان قواها الحيوية لا تستيقظ بعين القوة والسرعة التي تستيقظ بهما عواطفها —الا إذا رافقتها مطالعات ومشاهدات من نوع خاص أو مغامرات مبكرة. في حين تستيقظ هذه القوى لدى الشاب مع بدء مراهقته، وتمتد احيانا على فترة طويلة من حياته، تستحثها العوامل الطبيعية في فيزيولوجيته وتزيدها اندفاعا المطالعات والمشاهدات والمغامرات.

فلا يصح ان ننحي باللائمة على الشاب ونبرر ساحة الشابة، وقد نقسو على الشاب ونحمله مسؤولية العبث الذي يمارسه بحق الفتاة، بينما قد تكون هي اكثر ذنبا بسبب "حساب" تنقصه الفطنة، حيث تخفي طريقتها في استحثاث الغرائز لديه غموضا لا تعود تقدّر مردوداتها عليه! واذا كنا نشجب لدى بعض الشبان ميلهم الى استخدام وسائل الاثارة في محاولة "لصيد" الفتيات والايقاع بهن، كالتحرش البذيء الذي يتخطى حدود الادب، والغزل الرخيص الذي يتجاوز حدود اللياقة الخ...، فاننا نوجه اللوم، في الوقت ذاته، الى بعض الفتيات اللواتي يمارسن اغراءات تستحث لدى الشبان نداء الغرائز وتعود عليهن بالتالي باوخم العواقب.

انها مسؤولية مشتركة يتحملها الشبان والشابات بعضهم تجاه البعض. فاذا عرف بعضهم نفسية البعض الاخر ومفاهيمه في الحب والجنس واحاسيسه تجاههما، استطاعوا ان يلعبوا دور "المخلّصين" بعضهم لبعض، دون ان يذهبوا الى تبادل التهم والتراشق بالحجارة! فليس كل شاب "ذئبا"، ولا كل شابة "ملاكا"، وقد دعيا الى السير، يداً بيد، في دروب

الحياة يبحثان فيها عن سعادة يتذوقانها معاً. وتجدر الاشارة هنا الى الدور الذي تلعبه الفتيات في اثارة الحواس لدى الشباب او في تهدئتها وتوازنها. ويتعلق ذلك بنوعية الفتيات اللواتي يلتقون بهن: فاذا كان نصيبهم فتيات طائشات يستثرن فيهم نداء الجسد ويفسحن لهم مجال الانجراف وراء تيار الغرائز، ذهبوا معهن في عبث خسيس ومغامرات لا تحمد عقباها، وكثيرا ما يذهبن هن ضحية هذه المغامرات التي قد يكون دافعهن الاول اليها الرغبة في اجتذاب الانتباه واستدرار الاعجاب! اما اذا التقوا بفتيات رصينات لا ينقصن جاذبية عن اولاء، كنّ لهم بمثابة "مخلِّصات" ينقين مفهومهم عن الحب والجنس وتكسبهم معاشرتهن توازنا عاطفيا وعزماً في الوقوف بوجه ميولهم ونزواتهم.

ولما كان الاختلاط بين الشبان والشابات من ابرز العوامل التي تهيئ لهذا التوازن المنشود، فمن الضروري جداً ان يعرف بعضهم مفهوم الحب لدى البعض الاخر:

* مفهوم الحب لدى الفتاة

قلنا بان الجنس لا يتخذ معناه كاملا لدى الفتاة الا في نطاق الحب، ذلك لأن ديناميكيتها تكمن في الحب، وهو هدفها. انه اول قيمة في حياتها، وهو وحده يستطيع ان يملأ كيانها، لذا تتجه كل احلامها وامالها شطر الحب على امل البلوغ اليه، ومتى وجدته تحياه بكل جوارحها وتحيا منه. واذا كانت تسعى الى الزواج، فلأنها ترى فيه خير عش للحب، ولذا فجل همها ان تستقطب حب رجل يصبح موضوع حبها الوحيد. وهنا تكمن عظمتها الى جانب ضعفها!

ان هذه الحاجة الملحة لدى الفتاة الى الحب وهذه الرغبة في البحث عنه بما لديها من وسائل، لا ينبغي ان نرى فيها دافعا من دوافع الاثرة والانانية. لا شك ان الحب يخرجها من عزلتها ويضع حدا للوصاية التي خضعت لها ويعدها بالاستقلال والسيادة، الا انه يحمل اليها دفءاً يجيب الى نداء القلب فيها ويتيح لها ان تشع هذا الدفء حواليها. ذلك ان الحب لديها يتخذ ابعادا لا تقاس: فيه تحس بملء انوثتها وكمال انسانيتها، وعلى ضوئه تتخذ كل الاشياء في حياتها معنى جديداً. فما ان احبت، واذا بها تعيش من اجل من تحب وتضع كل امكاناتها وقدراتها في خدمة من تحب، بعطاء لا يعرف الحساب وسخاء لا يعرف الحدود. ولا شك ان حاجة الفتاة الى الحب تتجسد في حلمها بالزواج ورغبتها في الامومة —وقد تسبق رغبتُها في الامومة رغبتَها في الزواج! ذلك لانها في الحب تجد متسعا يمكنها من ان تصب حبها على زوج وعلى اولاد هم ثمرة هذا الحب وضمان استمراره، وفرصة فريدة لتوازنها واثبات شخصيتها وممارسة سلطتها.

ان هذا المفهوم عن الحب لدى الفتاة، مع ما هو عليه من رفعة وسمو، قد يجعلها في موقف ضعيف من الشاب الذي قلما يكتشف في مظهرها وكلامها وابتسامتها —وحتى في

اغراءاتها- نداء القلب الذي يعتلج في صدرها. فكثيرا ما يخطئ الشاب في تقديراته حول رغباتها ونواياها ومقاصدها التي سرعان ما يحملها اكثر من حجمها، فيذهب في احلام لا تلتقي مع احلامها وتنقلب لديه الى معاناة حقيقية! وقد تخطيء هي الاخرى في تقدير الدوافع التي تقود الشاب الى ابداء الاعجاب بها واغداق الوعود لها، فتمنحه ثقتها الكاملة، فيما يتحول عنها ويدعها تعاني من العزلة في شبه يأس قاتل! وبحكم اندفاع العواطف لديها، لا يندر ان تصب الفتاة حبها في غير مكانه، وقد تذهب الى الظن ان الزواج لا يسعه ان يكون ثمن الحب! ولا تستيقظ من غفوة احلامها الا بعد فوات الاوان! وكثيرا ما تحملها رغبتها الصادقة في الحب الى درجة من السذاجة في التعامل يفسح المجال للشاب لاستغلال يمارسه بحقها، وتعود هي من ثم تجر ذيول الخيبة والندم! كما يحدث ان تهب قلبها لشاب قبل ان تحيط بكل جوانب شخصيته، وسرعان ما تستفيق على عقبات تحول دون هذا الحب -والعقبة الايمانية والدينية من اكثرها حدة- فتواجه صراعا اليما بين قناعاتها ونداء القلب قد يتحول الى مخاض تدفع ثمنه غاليا!

* مفهوم الحب لدى الشاب

لا نغالي اذا قلنا بان الحب والجنس، لدى معظم الشباب، هما مرادفان لا يكادان ينفصلان! وكثيرا ما لا تتخذ علامات الحب والمشاعر العاطفية لديهم مكانا الا في نطاق الملذات الحسية. فالحب في مفهومهم يرتبط بقدر كبير من الاحساس الجنسي، وغالبا ما يكون وسيلة لاشباع حاجاتهم الجنسية. ويعود السبب في ذلك -كما اسلفنا- الى طبيعة الرجل الذي، بحكم تكوينه الفيزيولوجي، يميل الى المتعة الجنسية ويبحث عنها بكافة الوسائل المتاحة، واحيانا على حساب كرامته الانسانية وقيمه الادبية!

واذا كان من العسير على الشباب ان يبلغوا الى مفهوم يتوازن فيه الحب والجنس -وكلاهما قيمتان انسانيتان تكمل احداهما الاخرى- الا انه من الخطأ ان نتزع عن الشباب قدرتهم على الحب وامكانيتهم على عيش ابعاده، هذا الحب الذي سيجد في العلاقة الجنسية تعبيراً صادقا عنه ولغة بليغة له: "ويكونان كلاهما جسداً واحداً". وتجدر الاشارة هنا الى الدور الذي بوسع الفتيات ان يلعبنه لحمل الشبان الى اكتساب رؤية متوازنة يتخذ الحب بموجبها ابعاده كاملة في نطاق الجنس.

ويمكننا ان نقسم الشباب الى فئتين رئيستين متميزتين: فئة ينتمي اليها شباب لم يتلقوا تربية عاطفية وجنسية متكاملة، فبقي الحب في مفهومهم "قضية جنس" تلعب فيها المرأة دور "الاداة"، وفي احسن الاحوال "رفيقة اللذة"! مثل هؤلاء الشباب ينساقون وراء ميولهم وغرائزهم ويبحثون في علاقاتهم مع الفتيات عن اشباع نزواتهم، مستحثين لديهن نداء الجسد، وهدفهم النيل منهن مأربا! وقد تنساق فتيات وراء عاطفة اثارتها لديهن مغازلة طارئة ودفعتهن الى افساح المجال لهذه اللعبة الخطرة! وهذا النوع من الشبان يسترخص الغزل

ويتعاطى ادنى اشكال التحرش للبلوغ الى ماربه، وقد يتناسى انه يفقد رصيده لدى الفتيات اللواتي يقرفن من هذه الاساليب التي تختفي وراءها انانية خسيسة. ومثل هؤلاء، حتى وان قيض لأحدهم ان وجد فتاة احلامه ووطد العزم على الاقتران بها، فاغلب الظن انه يبقى اسير انانيته التي قد تتمخض عن مآسٍ في الحياة الزوجية —وهي عطاء متبادل وسعادة يتذوقانها معاً.

اما الفئة الثانية —وهي قلة ضئيلة— فهم شباب كان لهم الحظ في الحصول على توعية ايجابية بشأن الحب والجنس وعرفوا ان يضعوا العوامل الجنسية في اطارها العاطفي والروحي، وتعلموا ان يروا في الحب كل قيمه وابعاده الانسانية.. انهم ينظرون الى الفتاة نظرة صافية ويتعاملون معها باحترام ورقة ورصانة، ويرون في معاشرتهم وصداقتهم مع الفتيات فرصة يكتسبون فيها معرفة اكثر عمقا بطبيعة الفتاة ونفسيتها وطباعها ومفاهيمها.. وقد أيقنوا ما ينطوي على الغزل المبتذل والمغامرات الدنيئة من مخاطر تعود عليهم وعلى الفتيات بأسوأ المغبات. انهم، وإن لم يكونوا بمنجى عن التجارب، وسواء فشلوا في اول علاقة حب ام تراجعوا عن حب لم يكتب لهم فيه النجاح، الا ان نظرتهم لم تتأثر ويبقون يبحثون عن "فتاتهم" ويمنون النفس واياها بالسعادة المرتقبة..

وبين هؤلاء واولئك هناك نماذج عديدة من الشباب هم في مد وجزر بين نداء الجنس ونداء الحب، وهم انما يتطلعون، في موقف الفتاة وسلوكها تجاههم، الى الوجهة التي تحدد موقفهم!

* من أجل "رد الاعتبار" للحب!

كثيرة هي العوامل التي تقود الى القاء الشبهات على العلاقات القائمة بين الشبان والشابات: منها ما يتعلق بالشبان انفسهم الذين سرعان ما تحوم حولهم شبهة اللعب بالنار وتلتصق بسلوكيتهم تهمة اللامسؤولية والعبث؛ ومنها ما يتعلق بالشابات اللواتي يحتطن من كل اختلاط او معاشرة لاسباب خلقية واجتماعية، مقترنة بطبيعتهن وسمعتهن؛ ومنها ما يتعلق بالوالدين الذين يميلون سريعا الى الشك في النوايا التي تقود الشبان والشابات الى العشرة والصداقة والحب، ويتوجسون شرا في كل علاقة تنشأ بينهم، بحذر مبالغ فيه كثيرا ما تتحمل الفتاة نتائجه، ويسفر عن نشوء عقدة لديها تبقى تجر ذيولها الى ما شاء الله! وفيما يذهب بعضهم —وفي ذاكرته بضعة امثلة من الواقع— الى انتزاع صفة البراءة عن كل علاقة تنشأ بين الجنسين، وبحجج واهية احيانا كثيرة، قد ننقاد جميعنا الى اصدار احكام مسبقة وجائرة تفصح عن نظرة قاصرة الى هذه العلاقات.

ولِمَ لا نقولها صراحة: أليس التوجس من كل علاقة بين الجنسين دليلا على مفاهيم منتقصة عن الرجل والمرأة في طبيعتهما ونفسيتهما ودعوتهما؟ فحين ننظر الى اية

علاقة بين الجنسين نظرة تساؤل او شك او ظنون، اليست هذه النظرة إدانة مبطنة للحب في اولى مظاهره؟ وحين نحكم مسبقا على علاقة بين شاب وشابة بانها "مشبوهة"، الا نقطع الطريق بوجه حب نزيه بينهما؟ ناهيك عن التحذيرات والمحاسبات التي يطلقها الوالدون تجاه العلاقات التي يقيمها ابناؤهم وبناتهم والتي تكون في اصل الكثير من العقد والمعانيات التي يمنى بها الشبان والشابات في عمر يتحتم عليهم ان يواجهوا سر الحياة بثقة وعزم وجرأة.

فنحن، شئنا ام ابينا، ازاء واقع لا يمكننا ان نتجاهله، ولا مندوحة لنا فيه إن نحن اردنا ان نسكت نداء القلب لدى الشبان والشابات او نستصغر مشاعرهم واحاسيسهم او نستهين بما يستقطب اهتمامهم ويستنزف طاقاتهم ويقضّ مضجعهم احيانا في صراعات ومعانيات وتساؤلات لا يجدون لها جوابا!

واذا كان لنا كلمة في اطار هذا المقال الذي كان جل همنا فيه ان نعكس للشباب وجه الحب في كل قيمه وابعاده وتعثراته، فهي كلمة نسوقها الى الوالدين والمربين: فنحن نعلق اهمية كبرى على توعية عاطفية وجنسية للشبان والشابات في نطاق التربية العائلية والمدرسية والكنسية، توعية منفتحة وجادة يتاح فيها للشباب من كلا الجنسين ان يكتشفوا سر الحياة ويدركوا ما ينطوي على فيزيولوجيتهم ونفسيتهم من خصائص ومميزات، ويتعلموا ان ينظر بعضهم الى بعض برؤية صافية مليئة بالاحترام، ويتعرف بعضهم على بعض في اطار اختلاط يتسم بالعفوية والبساطة، فيقيموا علاقات صادقة رصينة في جو من الثقة المتبادلة بعيدا عن الاهواء والنزوات... وهكذا تهيؤهم هذه التوعية لمفهوم يرتبط فيه الحب والجنس في وحدة متراصّة، وتعدّهم للمغامرة الكبرى التي فيها يحققون ذواتهم ويبلغون الى ملء توازنهم واكتمالهم.

الاب بيوس عفاص

الشباب والايمان

هل هناك حقاً ازمة لدى الشباب؟ ما هو مضمون هذه الازمة؟

أهو رفض للايمان ام رفض لبعض صيغه ومظاهره وممارساته؟ قضايا ينقسم حيالها الشباب، فيذهب بعضهم من اللامبالاة الى العنف المتطرف، الى الرغبة في الاصلاح، الى البحث عن بديل ... الا ان وراء الرفض الذي يعتصم به الشباب، تختفي رغبة ملحة في التغيير والتجديد والاصالة، يضحي الايمان بموجبها عاملاً من عوامل التحرير من كل الاستلابات التي يخضع لها الانسان، ودافعاً لنزع كل التشويهات التي لصقت بالدين وتشريعاته وشعائره وطقوسه...

فالى ايمان مستنير يلتقي مع حاجات الشباب وتطلعاتهم المشروعة، ويحملهم على اقامة علاقة حميمة مع الله والالتزام بقضايا الانسان ... الى ايمان يمر عبر صراع ينفتح على الرجاء، يكون اشبه بمغامرة تليق بالشباب، يدعو الاب افرام سقط في هذا المقال.

شباب اليوم، عكس ما يتصوره الاباء، يهتمون بالدين، حتى وان مروا بازمات. واذا ما اختلفت ازمة الايمان من شاب الى آخر، فالقاسم المشترك واحد وهو ان الازمة تأتي انطلاقاً من تساؤلات عديدة تتسم بالشك بافكار تفرض عليهم فرضاً، او هي حصيلة التناقض بين الايمان الموروث الجامد والحياة الواقعية المتحركة. غير ان الازمة ضرورية، مع كل ذلك، في حياة كل انسان، لانها تقود الى النضوج واتخاذ المواقف.

ان كثيراً من الشباب يرفضون الدين. ولكن لنتساءل: أي دين يرفضون؟ انهم غالبا ما يعيشون في حالة صراع مع "دين الكبار"، وهذا الصراع يعيشونه في الوسط العائلي او الطائفي او في اعماق وجدانهم. ولكن لو تقصينا الامر قليلاً، لرأينا ان اغلبية الرافضين للدين وللطروحات الدينية سرعان ما ينتشون عن بديل لما رفضوا، بل هم يطالبون بما وراء هذه الطروحات. ان خبرتي مع الشباب اوضحت لي ان ازمتهم تنطلق من مسببين: الاول، فكرتهم الغامضة عن الله، وجاء ارث التقليد والاجداد ليشوه كثيراً من المفاهيم؛ والثاني، خلطهم العشوائي بين مفاهيم متفاوتة الاهمية والخطورة كمفهوم الله والكنيسة والطقوس والدين، واعتبارهم اياها كلها قد عفا عليها الزمن. انهم، في الواقع يمرون في عملية تجاوز

للدين او لبعض مظاهره وقيمه للعودة الى ينابيعه الاصيلة. انهم يرفضون تشويهاته، لا جوهره. وقد يكون المطلق هو البديل الذي يبحثون عنه ليكون المرجع في حياتهم الشخصية والاجتماعية.

✻ جيل الرفض؟

ان ظاهرة الرفض لدى الشباب ظاهرة معقدة وتتخذ اشكالاً متنوعة في التعبير. فالرفض عند الشباب (كما عند البشر كافة) مظهر يعبر عن تصادم حاجاته الخاصة وتطلعاته مع معطيات الواقع الديني-الاجتماعي-التاريخي. والرفض، قبل ان يكون فعلاً "خارجياً"، هو نظرة الى الحياة او موقف يتنامى ويتجذر وسط هذا الصراع؛ والعنف الذي يرافق هذا الرفض هو وليد ذلك الصراع وسلاحه. ولقد اتضحت هذه الظاهرة في السنوات الاخيرة وظهرت كقوة مبدعة ناشطة استهدف منها الشباب تحطيم المجتمع المتهرئ ومجابهة البنى الموروثة، مندفعين بتيار التغيير الاجتماعي والحضاري، فغالباً ما سمعنا الشباب يرددون: "لنكن ما نحن وما نريد ان نكون لا ما يراد لنا ان نكون".

والرفض قد يتخذ مواقف مثالية تذهب من اللامبالاة السلبية والمتشائمة الى العنف الثوري المتطرف، مروراً بالموقف الاصلاحي المتفائل. والقيم التي ينادي بها الرفض او التي تتجلى من خلال مظاهره، فهي قيم الحياة في طبيعتها وحيويتها ومعانياتها وانسانيتها الكاملة، وهي أيضا قيم الحرية والعدالة والمساواة وقيم المحبة والأخوّة واللاعنف، قيم وجوب اطلاق عنان المخيلة وافساح المجال أمام الابداع والمبادرة الشخصية، وحتى قيم الرجوع الى القدسيات والدين، ولكن في منظور جديد.

وعندما نحاول إعطاء المعنى الكلي لظاهرة الرفض لا بد من التأكيد على أن تعليل هذه الظاهرة بمجرد وجود خلاف ما بين الأجيال لا يكفي: ذلك تعليل سطحي ومحاولة تمويهية، كما أن الرفض ليس مجرد معارضة من اجل المعارضة، لفتًا للنظر وتعزيزا لموقف. الرفض الذي نحن بصدده ظاهرة تعني الرفض لعالم بُنِيَ على السلطة المطلقة والاستغلال في شتى أشكاله، كما انه رفض لعالم قام على تشريعات باتَ فيها الانسان، فردا وجماعة، آلة مسيّرة، فقد فيه الانسان شخصيته وطموحه. ويصح ذلك في المؤسسة المدنية والدينية على حد سواء. لذا، ومن هذه الزاوية، كان الرفض علامة نضوج الانسان وبلوغه.

✻ رفض لنمط معين من الكنيسة

"الكنيسة لم تعد تفهمنا، آباؤنا لا يفهموننا. كل منا يعيش في عقلية خاصة. هم في عقلية الماضي، ونحن في عقلية المستقبل". طالما تردد ذلك على ألسنة الشباب!

أجل، إن موقع الكنيسة يزداد هامشية في حياة الشباب حيث لا يجدون فيها ما

يناسب حيويتهم ويجيب الى تطلعاقم ويحل مشاكلهم ويساعدهم على متابعة بحثهم. ويبحث الشباب عن بديل!

يقول البعض ان الكنيسة بخير، وما زال هناك أناس يؤمّون الكنائس. ولكن لو خرجنا الى هؤلاء الذين يبعثون بعض الراحة في ضمائرنا لوجدناهم يمارسون الشعائر وهم لا يفقهون معنى ما يجري ولا يستطيعون التغلغل الى عمق المعاني. لقد أصبحت فارغة لأنها احتفظت بشكلها القديم و لم تتطور مع الانسان الذي تطورت مفاهيمه ورموزه. فالمفروض في كل حضارة وثقافة أن تكون في خدمة الانسان. وتراثنا الطقسي، مهما تغنينا به، ليس إلا تعبيرا نسبيا عن جوانب الحياة المسيحية، ولا ينبغي أن يدفعنا الى الاغتراب عن "الكنيسة أمنا" من جراء تحجره.

في الماضي كانت طائفة من الناس توجد طقسا خاصا بها تعبر فيه عن حياتها الروحية، بلغتها وذهنيتها. أما اليوم فلقد بات الطقس —مع غرابته على ذهنيتنا المعاصرة— هو الذي يخلق الطائفة. في الماضي كان الطقس في خدمة الانسان، واليوم أصبح الانسان في خدمة الطقس والطائفة. ويفكر كثير من الشباب أن هذا التكوين الطائفي الجامد يقف حجر عثرة أمام ما يحملونه في أعماقهم من مفاهيم وأفكار وحيوية تهدف الى خدمة الانسان والمسيحي وتحريرهما من المظاهر. هذه المظاهر التي لم يعد لها مبرر لدى الشباب هي التي تصدم ايمانهم وصفو نظرتهم.

❋ نظرة جديدة الى الكنيسة والأسرار

المسيحي، في نظر الشباب، ليس مجرد من حمل هوية مسيحية، ولا حتى من نال المعمودية أو ولد من أبوين مسيحيين ليس إلا، من دون أية روحية متميزة. كما يأخذ الشباب على الكنيسة أنها لا تُعدّ أعضاءها إعداداً يتناسب وحاجات الانسان العصرية. ويتساءلون كم من الأمور في الكنيسة تحتاج الى تغيير كي تتناسب وذهنية هذا العصر، من مصطلحات وتعابير لاهوتية وعقائدية، الى كتب الدين المتعلقة بالتربية المسيحية، الى مفردات الطقوس.. والقداس نفسه يودون لو يعكس حاجاتهم الانسانية والروحية، ويبعث النور والقوة في نشاطاتهم اليومية، ويحمل ما يدور في قلوبهم من أمل وقلق وطموحات، فيصبح حياة ومشاركة فعلية. انهم لا يريدون قداساً متحفاً لحفظ التراثات، بل قداسا ينبض بحياتهم وينبع من بواطنهم ومعاناتهم اليومية. وهذا لا يتم إلا باعادة النظر في طقوسنا الحالية وأطرها الرمزية والفكرية والانشائية.

❋ من الحيرة والقلق الى الاكتشاف والخبرة

إن المشكلة التي يتعرض لها الكثير من الشباب (والناس عموما) هي الخلط بين الدين والايمان. ولذلك لا بد من توضيح بعض النقاط:

إن الايمان هو تسليم بصدق شخص نثق به وخبرة شخصية نحياها في ذواتنا وضمن جماعة نشترك وإياها بالقناعات ذاتها. وهذا التسليم التزام مبني على الثقة، والثقة لا تختبر إلا بالواقع. ولكنها لا تغني عن البحث. فالايمان راسخ في الذات ممتزج بها وقادر على خلق الطمأنينة واليقين، بينما العلم أو البراهين العقلية تبقى مسندة الى الذات وخارجة عنها.

أما الدين فعاطفة "مُعَقْلَنَة" تجعل الانسان يرتبط بربه، وتوقظ الضمير على واجباته نحوالمبدا الذي يتبناه الشخص ونحو ذاته ونحو القريب أو المجتمع. والسلوك يأتي نتيجة للايمان، وبتفاعله مع الإرادة يتم الاختيار والتحقيق. فالايمان هو منطلق الدين وهو مرجعه وجوهره، أما الدين فهو الوعي المنظّم لهذا المنطلق، وممارستنا اياه –أي الدين– بحرية وصفاء، فيها من الاقناع ما يكفي لحمايتها من التهريج والشعوذة.

والطقوس؟

الطقوس مجرد أسلوب أو إطار خارجي للممارسة الدينية، وهي تعبّر برمزيتها عن الايمان وتكون مقبولة بمقدار صدقها في نقل المضمون الايماني ومرفوضة بمقدار عجزها عنه. وهي نسبية، تختلف باختلاف الأمم والعصور، بل يجب أن تختلف باختلاف الجماعات الدينية والحضارية لتصبح تعبيرا صادقا عن ايمان الفرد. وهي قابلة للتطور وليس فيها أي شيء ثابت إلا ما أثبت الزمن منفعته للجميع. أما اذا تحجرت الطقوس، أضحت عالة، لا محالة، على الايمان، ووسيلة لنفور المؤمنين أو تغربهم عن الدين.

ولكن المبادئ لا تقاس على الرجال، بل الرجال تقاس على المباديء. فهناك عقائد وتقاليد نشأت في أوساط معينة وجاءت في ظروف معينة، وبعض التقاليد نشأت لربما لخدمة مصالح جماعة من الناس على حساب غيرهم، ولربما تستّر بعضهم بستائر الدين وهم ليسوا منه، فعلينا أن نميّز بين الأمور.

ان البحث والتساؤل في قضايا الايمان لأمر طبيعي وإن اثار القلق لدى بعض رجال الدين التقليديين. فالسؤال، أي سؤال، والمناقشة في كل المواضيع دون اعتبار أي منها محرما، علامة صحة أكثر منه تشكيكا ونكرانا، ذلك أن التحريم والتعتيم هما من علامات التخلف والتخوف. وذلك مخالف لروح الايمان الحقيقي. فلقد مرت عصور في المسيحية، مثلا، كانت تتساوى فيها جميع العقائد وتشدد الكنيسة على قدسيتها وحرمتها جميعها، وفي عصور أخرى فُتح باب البحث والاجتهاد إلا في ما يُعتبَر النواة الأساسية للعقيدة. وما يطالب به الشباب اليوم هو ضرورة القبول بالبحث والاجتهاد وبالتعددية وبتكييف التعبير عن العقائد بحسب لغة العصر. كما اننا صرنا اليوم نميّز أكثر فأكثر بين مفردات كانت مترادفة في السابق:

– **بين الايمان والعقيدة والدين:** فالايمان هو الاختيار الحياتي لعلاقتنا مع الله، ومن ثم مع

الكون والانسان، كما أسلفنا. أما العقيدة فهي قَوْلَبَة تعبيرية فكرية عن ناحية من نواحي الايمان التي يمكن التعبير عنها فكريا. والدين هو الإطار الوضعي لمجموعة العقائد والأخلاقيات والعبادات التي يعتنقها الانسان. لذا كان الدين، من ثم، رهن الحضارة والثقافة واللغة التي نشأ فيها. ولهذا فالمؤمن عندما يتساءل في أمور ديانته، لا يعيد النظر في ايمانه بالضرورة، بل في مضامين الدين وتعابيره، لذا قلنا، بأن كل مساس بالدين ليس مساساً بالايمان، ورُبّ "متديّن" قليل الايمان، ومؤمن أصيل ليس لديه من الممارسات الدينية إلا النزر اليسير!

- **بين الواقع الالهي والحقيقة الالهية والعقيدة اللاهوتية:** فالواقع الالهي هو الكيان أو الوجود الالهي المطلق الذي يتجاوز الانسان. والحقيقة الالهية هي المطابقة التامة بين الفكر الانساني والواقع الالهي. ولما كانت هذه المطابقة مستحيلة موضوعيا ("الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الأب هو أخبر" — يوحنا ١:١٨)، فان الواقع الالهي، حتى لو أوحي به، يبقى سراً لا تنتهي معرفته؛ فالحقيقة في فكر الانسان ناقصة دائما. لذلك لا يمكن أن يكون عندنا إلا عقائد لاهوتية غير مكتملة، أي محاولات تعبير عن الحقيقة، نسبية حتما وقابلة لاعادة النظر فيها لتصبح أكثر قربا من الحقيقة.

لنأخذ مثلا على ذلك من الفقرة الاولى من "قانون الايمان" وهي: "نؤمن باله واحد": هذه الكلمات تعني:

أولا: اعلان عقيدة نظرية بوحدانية الله؛

ثانيا: اختباراً حياتيا فيه علاقة حقيقية بين المؤمن والله الواحد. علاقة تتضمن ثقة مطلقة بكائن لا يقع تحت الحواس ولا يُبرهَن عليه بالعقل، لأنه يتجاوز الحواس والعقل والانسان كله، ولكنه مهم جداً للانسان؛

ثالثا: خبرة حياتية تؤكد، لا على الناحية النظرية من وحدانية الله، بل على التأثير الذي يحدثه مثل هذا الايمان على الحياة الشخصية الفردية والجماعية. ويمكن التعبير عن ذلك بالعبارة التالية مثلا: "الله وحده يملك الأهمية المطلقة، فهو الأعلى والأسمى والأفضل من كل شيء ومن كل أحد إطلاقاً. على نحو ما قال المسيح عن الله والمال: "لا تقدرون أن تعبدوا سيدين، الله والمال، فإما الله وإما المال" (متى ٦:٢٤).

فالمهم إذن ليس إعلان العقيدة بوحدانية الله —لان إعلانا كهذا يبقى نظريا خارج الانسان— وإنما الاختبار الحياتي لله، أي العلاقة القائمة من جراء هذه العقيدة، وعن طريق هذه العلاقة يدخل الله في صميم حياة الانسان، وتصبح حياته، من ثم، ذات قيمة في نظر الله، اذ ذاك سيغدو هذا التقييم نفسه مقياس سلوكية الانسان.

❋ الايمان والالتزام

وهكذا نصل الى الاستنتاج التالي: الايمان هو الذي يبرر ويخلص الانسان، ولكن

ليس أي ايمان كان، وإنما الايمان العامل بالمحبة. أو بعبارة أخرى: ليس الاتكال على الأعمال وحدها، مهما كانت، يجعل المرء مسيحيا حقيقيا، بل الايمان الذي حصيلته علاقة تلتزم فيها الارادة الواعية بشخص المسيح، و"تتبعه الى حيث يمضي"، أي تتخلق بأخلاقه مهما كلف الأمر.

والمحبة، لكي تكون فعلية وفعالة، يجب أن تصبح التزاما بقضايا الانسان من أجل تحريره من كل العبوديات، وتلك علامة على صحتها وأصالتها.

هكذا تصبح المحبة موجز هذا الايمان العامل الملتزم.

* الايمان مغامرة وصراع وليس ضماناً

إن اكتشاف الله لا يتم إلا عبر مراحل، ومن انطلق للبحث عنه، عليه أن يغامر. والكتاب المقدس ليس إلا موجزا لقصة مغامرة كل انسان يود أن يبني علاقة مع الله، أو بالأحرى يدع الله يتغلغل في حياته. فمنذ الصفحات الأولى وحتى آخر سفر من العهد الجديد تتجلى بوضوح قصة مغامرة الله مع الانسان ومغامرة الانسان مع الله.

انسان الكتاب المقدس هو انسان الرغبات، وكلما تحققت رغبة ينطلق من جديد الى اكتشافات أخرى تدعوه الى التغيير وتنقية الرغبات. وحيث يأمل الانسان، في أول الأمر، الحصول على خيرات مادية، ها هو ينطلق من جديد لبناء علاقة مع الله.

ايمان ابراهيم ويعقوب والأنبياء كلهم هو ايمان يدعو الى المغامرة. ولكن الله نفسه يرافق الانسان على طريق الحياة ويعد بالسعادة ويبدد القلق، والانسان يتطلع الى الله وينتظر منه الخلاص. حياة المؤمن هي سلسلة من التطلعات، ولكن الرغبات والتطلعات تصطدم بالواقع فتسقط الصور التي نكون قد صغناها عن الله، الى أن يتجلى لنا تدريجيا بقدر نضوجنا الروحي، الى أن نصل الى المرحلة النهائية وهي الوقوف بلا خوف أمام الله لننظر اليه وجها لوجه، وندعوه "أبانا" فندخل معه في حوار. ذلك أن الحياة المسيحية الحقيقية تعني اللقاء مع الله. ولن تكمل هذه الرغبة إلا عبر اهتداء جذري ومن خلال الموت الداخلي لِيُخلق الانسان الجديد فينا.

والايمان صعب بسبب صمت الله نفسه، وبسبب الأزمات التي تنتابنا والخوف من المغامرة. إنه صعب لأنه استقبال وانطلاق نحو الافاق البعيدة. ولكن ثقتنا بالله وبالمسيح تبقى هي الصخرة الصلدة التي عليها نبني ايماننا، بنعمة الله، وسط المعوقات، وتبقى الخبرة الايمانية المعاشة كمغامرة هي وحدها تدعو الى النضوج وتجاوز الذات الى النور.

فعندما نسمع الشباب يقولون: "أنا لا أومن"! فهذا الادعاء لا ينال الايمان في جوهره، على الأغلب. وإنما هو تعبير متمرد يريد أن يعرف بماذا ولماذا يؤمن. انه يبحث عن

تبرير لعطشه الى المعرفة. هذا الواقع، وإن كان مؤلما، فقيمته تكمن في حيويته وفي الأمل الذي يستبشرنا به، لذا ينبغي أن نتحلى بالشجاعة كي نقبل بالمظاهر المظلمة وتكون أعيننا يقظة لنقرأ ما وراء الظلام. فيسوع لما كان نائما في السفينة التي تتقاذفها الرياح سرعان ما بدا سيد الرياح والأمواج، فانتهرها، وصار هدوء وسكون. لذا فان المحنة الايمانية مؤشر الى مزيد من التعمق والنضوج، ومرحلة، ليس إلا، من مراحل مسيرة المؤمن.

فالمطلوب ليس أن نفهم الغوامض بل أن نؤمن، أي أن نقرأ إصبع الله في الأحداث ونراه من خلالها. كل رجال الكتاب المقدس وكافة الرجال العظام في تأريخ المسيحية لم يلحقوا بالله عن طريق العقلنة والتحليل والاستقصاء، وانما عن طريق الايمان، أي عن طريق الزج بأنفسهم بثقة مطلقة في علاقة وجدانية مع الله، وهي أشبه بمغامرة اجتاحت كل كيانهم وساقتهم من مجازفة الى مجازفة.

أليس أن شيمة الشباب المجازفة والأهداف الكبرى.. والى أمام.

الأب أفرام سقط

الشباب
ازاء وصايا الله

يكره الشباب العيش بمنطق المسموح والممنوع، ويرفضون ان تخضع سلوكيتهم لاوامر ونواه، وهم انما يريدون مثالاً اعلى يحتذونه —وهل هناك غير ذلك "المعلّم الصالح" الذي التقاه الشاب الغني: ماذا اعمل... لارث الحياة؟

والحياة الحقة تقوم على الحب! من هذا المنطلق تضحي "الوصايا" سبيلاً الى الحب وعلامة على الحرية الحقة التي تقوم على احترام الغير في كرامته وشرفه، في حقوقه وحرياته ... فالى خلقية انجيلية تقوم على الحب وتتخطى منطق الاوامر والنواهي، يدعو الاب نعمان اوريدة.

الاب نعمان اوريدة (مواليد ١٩٣٦) تخرج في معهد مار ماريوحنا الحبيب كاهناً عام ١٩٦٢، وهو احد مؤسسي جماعة كهنة يسوع الملك/اخوة الحياة المشتركة (كنيسة مار توما) والتي عنها صدرت "الفكر المسيحي" عام ١٩٦٤، سلسلة فمجلة. قضى حياته كلها كاهناً في خورنة مار توما في خدمة نشاطاتها الراعوية والعمرانية؛ وكان لسنوات طويلة مدير ادارة ناجحاً في "الفكر المسيحي" وتميز بعطاء خفي وسخي. وكانت له فرصة للتعليم في السودان (١٩٩٤–١٩٩٥) في معهد للتربية المسيحية للاباء الكمبونيين. شارك في المحاضرات في مركز الدراسات الكتابية، وعاجلته المنية في ١٩٩٩/١٢/١.

شاب غني مهتم بأمور جدية، بالخلاص، بالحياة الأبدية، بالسلوك المستقيم.. يتقدم من يسوع ليسأله: "ماذا أعمل من الصلاح لأرث الحياة الأبدية؟".

ان اهتمامات من هذا النوع أصبحت نادرة في أيامنا.

لا يستعجل يسوع في الاجابة الى السؤال المطروح عليه، فهو لا يدع نفسه تنغلق في إطار الرؤية السلوكية الخارجية. انه يريد ان يوسع آفاق سائله، لأن الجواب الأساسي في أفق آخر. فمشكلة هذا الشاب ليست في كيفية التصرف، بل في رغبته أن يلتقي معلماً صالحاً وحكيماً يرشده في الحياة. وها هو يظن أنه قد وجده في شخص يسوع: ولكن يسوع يجيبه: "لماذا تسألني عن الصلاح؟ واحد هو الصالح: الله". فهذا الشاب الذي توسَّم فيه يسوع إستعداداً طيباً ورغبة في الكمال، دعاه الى ان يقصد مصدر الكمال، فيعقد علاقته ليس مع "مرشد" ما، وان صالحاً —هكذا نظر الشاب الغني أول الأمر الى يسوع— وانما مع الله الذي منه يستنير وبه يحيا المرشدون. لقد دعاه لأن يرى الآب السماوي.

كان يسوع يجيب سائليه والمتحدثين إليه بهذا الاسلوب دوما: كان يرفع عقولهم

وأفكارهم من الحرفية الى الروح، من المظاهر الى الجوهر. والفريسيون الذين تشككوا لأنهم رأوه يأكل مع العشارين والخطأة أجابهم: "اني لم آت لأدعو الصديقين بل الخطأة". وكم وبخ تلاميذه عندما لا يدخلون الى جوهر تعاليمه: "ألم تفهموا، ألم تدركوا!".

ان الأمور الجوهرية في نظر يسوع تكمن في مكان آخر. ما هو جوهري لا يكمن في أن نتقيد بما هو مسموح أو غير مسموح. الجوهري بالنسبة ليسوع هو أن يقبل الانسان الله الحي في حياته ويستمع إليه بقلبه.

ان يسوع لم يأت ليساعدنا كي يجعل منا اناساً طيبين ومستقيمين وحسب. فقد أعطى سقراط وغيره من الفلاسفة والحكماء مبادئ أخلاقية توجه الانسان نحو حياة فاضلة مستقيمة، وكثير من الناس اتبعوا هذا النموذج فعاشوا حياة لا غبار عليها.

أما يسوع، فقد اتى ليجعل من الانسان ابناً لله، جاء ليكشف له أن المحطة الأخيرة لحياته هي في الله بالذات، ومسيرة الانسان تنفتح على أزلية الله بيسوع المسيح ابن الله الذي هو ابن الانسان أيضا، أعني: أخ لنا.

يقول القديس يوحنا في رسالته الأولى: "أنظروا أي حب أحبنا الله: ان ندعى أبناء الله، ونحن كذلك. نحن منذ الان أبناء الله" (١يوحنا ٣:١-٣). هذا هو الجوهري وهذا ما لا ندركه دوما: فالانسان ليس مدعّواً ليعيش مدة من السنين، طالت أم قصرت، في حياة هادئة رصينة وكفى، وانما هو مدعو أن يعيش حياة الله منذ الان والى الأبد. انه مدعو لأن يعيش ضمن شعب مكوّن من اخوة هم أبناء لأب واحد، هو الله.

ولكن ليس باستطاعة انسان ان يحقق هذا المشروع بجهوده الخاصة. فكما أن الحياة البشرية لا ينالها الانسان بجهده الشخصي، وانما تعطى له من أبويه، فهي إذن هبة تمنح له؛ هكذا الحياة الالهية —وهي أسمى بكثير من الحياة البشرية— لا تُكتَسَبُ بالجهد الشخصي وحده، وانما يمنحها الله للانسان ويقبلها هذا كهبة ونعمة، عليه استثمارها والتعاون مع الله لتطويرها فيه. لذلك يقول القديس بولس: "ويتبررون بنعمته مجاناً بالفداء الذي تقدم الله فوضعه غفراناً بالايمان بدمه ليتبين عدله لمغفرة الخطايا السابقة" (رومية ٣:٢٤-٢٥).

إن اله يسوع المسيح هو اب حقاً. فهو لا يرغمنا على شيء، وإنما يقدم لنا حبه وحياته ونعمته كهبة. انه يحترم حرية الانسان الذي خلقه على صورته ومثاله، لأن الحب لا يفرض ذاته بالقوة، ولكنه ينتظر من الانسان جواباً حراً أيضاً.

في هذا الاطار نستطيع أن نفهم معنى وصايا الله وهدفها في حياة الانسان. فهي ليست مجرد نَواه وتحذيرات وشجب لأعمال يقوم بها الانسان، وانما هي إشارات تقود الانسان الى أن يَعتبر الله أباً له، والانسان أخاً حقيقياً له، يحبه اذا أحب الله، ويحب الله في شخص هذا الانسان الذي نسميه "القريب".

ازاء هذا الموقف تبرز صعوبات ومعوقات تبعد الانسان أو تعرقل مسيرته نحو الهدف، وأول هذه المعوقات حينما يعتبر الانسان هذه الوصايا قيداً لحريته الشخصية وقمعاً لطموحاته. ان الوصايا أتت في سيناء كمفتاح لعهد الله مع الانسان: "أنا أكون لكم إلهاً، وأنتم تكونون لي شعباً". وقد جاءت الشريعة على هذا النحو: "أنا إلهك الذي أخرجك من مصر من بيت العبودية". والانسان اذا ما أراد أن يصبح حراً تماماً، عليه أن ينبذ كل عبودياته السابقة التي تتمثل بالخطيئة والحقد والعنف والخوف واليأس والأنانية.. فيحيا بحسب شريعة الله، حيث يعتبر جميع البشر اخوة له، فيحترم حياتهم وممتلكاتهم وحريتهم وسمعتهم.. ولا يتعالى عليهم بشيء، لأن الله الأعظم والأكبر وهو وحده الصالح حقاً.

وهنا يتبادر الى الذهن هذا السؤال: "ترى هل ان شريعة موسى لا زالت تفيد الانسان في العهد الجديد —وبالتالي الانسان المعاصر— حتى يعود إليها يسوع في جوابه للشاب"؟

إن شباب اليوم يواجهون مجتمعاً يشك أو ينكر أولا يعبأ بوجود الله، ويستعبد الانسان باسم الحرية والحضارة، ويقدم له جنة تقيّده الى الأرض، فلا يرى بالنتيجة أكثر مما هو صناعة وتكنولوجيا متقدمة وأكل وشرب ولذة وثروة. كما انهم يواجهون الوجه الاخر لهذا المجتمع، ألا وهو وجه الحرية المطلقة التي تقود الى كسر القيود كلها مهما كان نوعها: في الفكر وفي الاخلاق، في السياسة وفي الاقتصاد. وحتى في استغلال الدين، في الربح وفي العمل، في استلاب الضعيف واستغلال المرأة.. مما يوصله حتماً الى العنف والقمع والتنكيل.

ان تحرير انسان اليوم بدون ايمان وبدون شريعة يصبح ضياعاً، ويقود بالتالي الى شريعة الغاب.

ان الحرية الحقة —القائمة على الكرامة والحق والعدالة والاحترام المتبادل— هي التي تصنع عظمة الانسان، إنها هبة ثمينة، ولكن اذا أساء الانسان استخدامها، انقلبت الى أكثر الأمور فساداً. فلا حرية من دون مسؤولية. واذا ما افرغت الحرية من المسؤولية ولم تخضع لمراقبة ذاتية حرة، فهي تقود الى العبودية حيث يفرض الأقوياء شريعتهم على الضعفاء. لقد قال لاكوردير: "بين القوي والضعيف، الحرية تَستعبِد والشريعة تُحرِرّ"، لأن الحرية من دون قوانين وضوابط فعالة ومتكافئة ليست حرية للجميع، اذ سرعان ما يستغلها الأقوياء لصالحهم. أليس هذا ما نشهده في علاقات الأمم، بين الدول الكبرى والدول الصغيرة، بين الشمال والجنوب، بين الشركات الاحتكارية العالمية والاسواق المحلية، بين الأكثرية والأقلية، بين الرجال والنساء؟ فباسم الحرية غالبا ما يجوّع الأغنياءُ الفقراءَ، وباسمها يسرقون قوتهم. والسعادة التي تتوخى بعض البلدان في العالم الثالث تحقيقها لشعوبها تؤول الى تعاستهم من جراء استغلال الكبار للثروات الطبيعية في هذه البلاد. وكذلك المآسي الانسانية التي يفرزها هذا الاستغلال الجشع المتمثل في الأنظمة الرأسمالية؛ والا كيف نشرح أن الاقتصاد الحر يسبب شقاء بهذا المقدار يصل بالانسان الى كل هذه الالام والمعانيات والتناقضات التي ينتج

عنها الطلاق وتفكك الاسرة وتشرد الأطفال. ولكن هل الأنظمة الاشتراكية هي حقاً أفضل في بعض تطبيقاتها العملية؟ أليس بين المبادئ المعلَنة والتطبيق الفعلي أكثر من خلل في المعسكر الشرقي يقود الى الافات نفسها؟

فالشباب اليوم، في كل مكان في العالم، يتساءلون: "أين تجد الانسانية هذه الحكمة التي تساعدها على توجيه تقنيتها نحو خير الانسان الحقيقي؟".

إن الانسانية لا تستطيع أن تصل الى هذه الحكمة الجماعية اذا لم يجتهد كل فرد، بدءاً من نفسه، في أن يقتنيها لحياته الخاصة. وماذا ينفع تبديل الأنظمة الاقتصادية والسياسية في الدساتير اذا لم يتغير قلب الانسان؟

لقد قال البابا يوحنا بولس الثاني: "ان جميع الانتصارات العلمية التي حققتها الانسانية الى الان، والتي يتوخى العالم أن يصل إليها في المستقبل، يجب أن يرافقها تقدم أخلاقي وروحي على حد سواء". وشباب اليوم يتساءلون: "هل ان الانسان، كانسان، يتقدم وينمو، أم انه ينحدر ويتخلف عن انسانيته؟".

إن الارض لن تكون صالحة لسكنى الانسان أبداً، اذا لم يكن الله في وسطها. فاذا لم يعترف الانسان بالله، كيف تراه يستطيع أن يعترف بأخيه الانسان ويحترمه —وهو صورته ومثاله. ان الشاب الغني الذي كانت امواله قد ملأت حياته وخنقت رغباته السامية.. ها هو يبتعد عن حب يسوع له، ويتركه ويمضي حزيناً. لقد جاء طالباً طريق الصلاح، فدلّه يسوع الى طريق الكمال... ولما كان قلبه لا زال عالقاً بامواله وجاهه ومركزه وامتيازاته، ولم يكن مستعداً للتحرر منها كلها كخطوة ضرورية للتفرغ لحياة الكمال.. صعبت عليه الدعوة فتراجع وسقط من جديد في الحياة الاعتيادية السطحية.

أليس الشاب الغني الذي يحدثنا عنه الانجيل بمثابة الأخ الأكبر لكثير من شباب اليوم الخائين من الأهداف الكبرى ومن الحب الكبير، هؤلاء الشباب العالقة قلوبهم بحب الثروة والأموال والجاه والارتقاء في السلم الاجتماعي أو السياسي بأي ثمن! أليس هو صورة أيضاً لهذه الشبيبة التي تعاني من القلق والحزن والضياع أيضاً؟ ألا نلاحظ مظاهر الحزن والقلق هذه على من يملكون الأموال الطائلة —أو يسعون في الليل والنهار لتحقيق رقم معين من الأرصدة— وقد تحولوا الى أناس أنانيين استعبدتهم الأموال، فراحوا لا يفكرون إلا بأنفسهم وبما يملكون، حتى أصبحوا أقل سعادة وأقل فرحاً وطمأنينة من الفقراء، فصح فيهم القول: ان الذين يفقدون طعم الرب يعرضون أنفسهم الى فقدان طعم الحياة.

ولكن شريعة الرب لذيذة وطعمه طيب ونيره خفيف: به وحده يصل الانسان الى كمال انسانيته.

الاب نعمان اوريدة

الشباب والكنيسة

* مقدمة

في كل مرة يجري الحديث عن موضوع له علاقة بالكنيسة نجد انفسنا مضطرين لازالة الالتباس الذي يكتنف مفهوم الكنيسة عادة.

فكثيرون عندما يتحدثون عن الكنيسة يقصدون جماعة الاكليروس (الاساقفة والكهنة) فقط، ويحسبونهم هم وحدهم الكنيسة. او ينظرون اليها كبناء من طابقين أو طبقتين: الطبقة الحاكمة المعلّمة، وتتمثل بشخص البابا والبطاركة والمطارنة والكهنة، والطبقة المحكومة المتعلمة، وتتمثل بالمؤمنين الذين يدعون "علمانين". وتكون الفئة الاولى هي المسؤولة والمترئسة، واما الثانية فليس لها الا الطاعة والخضوع والتنفيذ.

ان هذه الثنائية في مفهوم الكنيسة، وان ساهمت في وضعها اجيال من الهيمنة الكهنوتية -ولا زلنا نجد صداها في التوجه الراعوي والتعليمي التقليدي بصورة قاصرة احيانا- ليست اصيلة. فالكنيسة عنت دوما جماعة المؤمنين بالمسيح المدعوين الى الشهادة للمسيح، بالكلام والحياة، وسط العالم وللعالم. الكنيسة هي شعب الله الجديد حيث نحن جميعاً أعضاء متساوون، بالرغم من تعددية المواهب والخدمات وبالرغم من ضرورهما لتنظيم الجماعة المسيحية وقيادهما. ولكن القيادة شيء والهيمنة شيء.

"الكنيسة هي نحن جميعاً"! شعار آن له ان يصبح حقيقة يؤمن بها الاكليروس والعلمانيون على حد سواء، وتنعكس في واقع كنيستنا العراقية. فرسالة العلمانيين وجه من اوجه المسؤولية المشتركة في شعب الله؛ وهي ليست تقليعة جديدة في الكنيسة، وانما تجاهلها او تعتيمها هو الشذوذ!

في المقال التالي يستعرض الاب يوحنا عيسى كيف خبا، مع الايام، دور العلمانيين، فايقظهم عليه المجمع المسكوني الذي حمّلهم -والشباب بنوع خاص- مسؤولية الرسالة الانجيلية: فهي حق لهم، ينتزعونه ان اقتضى الامر، بقدر ما هي واجب ينبع من صميم دعوتهم المسيحية. عسى يضع الشباب والكهنة يداً بيد، بروح الخدمة والتضامن لبناء كنيسة يمارس فيها كل عضو، من موقعه، مسؤولياته كاملة.

ان ما لا يمكن القبول به هو مفهوم حصر الكنيسة في رجال الاكليروس وحدهم. كما لا يمكن القبول بفكرة ثنائية الكنيسة، هذه الثنائية التي تقسم وتجزّئ الشعب المسيحي الى فئات أو طبقات. فالكنيسة لا تعني أبداً طبقة متميزة ومفروزة.

١ . العلمانيون والرسالة

قد يكون الجسم هو التشبيه الافضل للكنيسة، كما جاء في كتابات مار بولس. وكما في الجسم كذلك في الكنيسة يقوم الرأس بتوجيه الحياة في الجسم وتنسيق سلوكه. ولكن الجسم السليم هو الجسم الحي الذي تؤدي اعضاؤه كلها وظائفها فيه بصورة صحيحة ومنسجمة. ولا يتفاضل عضو على عضو الا بالخدمة التي يؤديها للجسم كله كما رسم له في طبيعته. واذا تقاعس عضو أو ضمر، فذلك دليل مزدوج على انه مريض او لا يؤدي دوره بصورة صحيحة تجاه الجسم كله، وعلى ان الجسم كله منتقص في حياته وقابلياته وعطائه.

هكذا منذ البدء، شعر المسيحيون الاولون بالتزامهم تجاه الكنيسة -كما الاعضاء في الجسم- واول هذه الالتزامات الشهادة للمسيح والتبشير به.

أليست مريم المجدلية هي اول من بشر التلاميذ بالقيامة (يوحنا ٢٠:١٨). وفي اعمال الرسل ورسائل القديس بولس اسماء كثيرة لرجال لعبوا دوراً اساسياً في نشر الرسالة المسيحية امثال سيلاس، لوقا، غابس، ارسطرفس، اندرونيقس، ويويناس وغيرهم، ومن النساء امثال مريم، طروفانية، طروفة، برسيس، فيبة وغيرهن. ففي هذه الاخيرة كتب بولس: "اوصيكم باختنا فيبة خادمة كنيسة قنخرية، فتقبلوها في الرب قبولاً جديراً بالقديسين، وأسعفوها في كل ما تحتاج اليه منكم، فقد حمت كثيراً من الاخوة وحمتني انا ايضاً (رومية ١٦:١-٢). كما ان هناك اسراً كان لها دور في تعليم المهتدين الجدد، كأسرة برسقة وزوجها اكيلا.

فمما تقدم يتضح لنا ان للمؤمنين، كل المؤمنين، بحكم ايمانهم وعضويتهم في جسد المسيح السري، دوراً في حياة الكنيسة ورسالتها.

ولكن دور العلمانيين في الكنيسة خبا بمرور الزمن بمقدار ما اخذ الاكليروس الهيمنة الكاملة ووُجد في احيان كثيرة، وغالبا ما بالرغم منه، كحليف للفئات الحاكمة او لتنفيذ ارادتها[1]. ولما ارادت الكنيسة التحرر من ثقل السلطات المدنية وتدخلها في شؤون الدين وفي استغلال نفوذ المؤسسة الكنسية وممتلكاتها، كانت ردة الفعل الوقائية ابعاد العلمانيين تدريجياً عن نشاطات الكنيسة، فانحسر دورهم شيئاً فشيئاً في الامتثال لوصايا

(١) انظر مقالنا: توجه كنيسة اليوم نحو الشباب (ف. م. ك٢ ١٩٨٥).

وتوجيهات رجال الاكليروس، وعلى حضور الرتب الدينية كمستمعين ومشاهدين غرباء، وعلى القيام ببعض ممارسات تقوية ضرورية لضمان الحياة الاخرى. وهكذا بُتروا عن أي دور فعال في حياة الكنيسة، ولا سيما في حقل التبشير والشهادة الناطقة.

بيد ان المسيحية، في واقعها، تختلف اختلافاً جذرياً عن هذه الصورة التي اعطيت عنها. فهي، قبل ان تكون مؤسسة تراتبية ومنسقة البنيان، هي جماعة يسوع التي تلقت منه البشرى لتحرير الانسان، بشرى الفرح والسعادة. ونقل هذه البشرى الى الآخرين، بعد الايمان بها والعيش منها، هو عمل المسيحي الاساس، وذلك لكي يؤمنوا هم ايضا ويخلصوا، كما شعر المسيحيون الاولون بضرورة ذلك. فالمؤمن الحقيقي والاصيل ليس هو من نزل اسمه في سجلات العماذ في الكنيسة ولم يعد اليها الا يوم التناول الاول والزواج، ليستقر فيها يوم مماته. ولا هو من قام ببعض ممارسات تقوية لتأمين خلاصه وحسب، وانما من شعر بوجوب نقل بشرى المسيح الى اخوته، وينقلها اليهم فعلا بقناعاته وسلوكيته وكلامه. انه ذاك الذي يبشر: أوَلا يهتف مار بولس قائلاً: "الويل لي ان لم أبشر" (١قورنتس ٩:١٧).

ولكن التبشير الذي نحن بصدده لا صلة له البتة بمفاهيم الاقتحام والعداء والسيطرة والثأر وتصدير المبادئ بالقوة او قسراً او التلويح او الابتلاع. انه شهادة تطعِّم الحياة والنظرة الى الكون والانسان وتفعل فعل الشمس التي تدفئ وتنير والهواء الذي ينعش، لا فعل النار التي تحرق او الاعصار الذي يدمر. انه شهادة تنطلق من القناعة على جسر من المحبة والاحترام والعطاء.

والفضل في المطالبة بالعودة الى الينابيع في زماننا يعود، ولا شك، الى المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الذي أكد على المفهوم الحقيقي والاصيل للكنيسة بوصفها شعب الله. فقد جاء في الدستور العقائدي في الكنيسة: "فان الذين يؤمنون بالمسيح وقد ولدوا ثانية لا من زرع قابل الفساد، بل من زرع لا يفسد، وهو كلمة الله الحي، ولا من الجسد، بل من الماء والروح القدس، أقيموا اخيراً "ذرية" مختارة، كهنوتاً ملوكياً، امة مقدسة، شعباً مقتنى، لم يكن من قبل شعباً، فصاروا اليوم شعب الله" (رقم ٩).

كما اعاد المجمع الى العلمانيين رسالتهم ودورهم في المرسوم الذي اصدره في رسالة العلمانيين، وان تحدث المرسوم عن "انتداب" العلمانيين للرسالة، في حين ان الرسالة نابعة من دعوتهم المسيحية بالذات.

هكذا لم تعد الكنيسة تعني رجال الاكليروس وحدهم، وانما كل فئات الشعب المسيحي، من الصغار والشباب والكبار، رجالا ونساء، على حد سواء. غير ان الشباب بما يزخرون به من طاقات وطموحات وقيمة، هم رصيد لا نظير له في الكنيسة. وقد انتهزت الكنيسة فرصة العام الدولي للشباب كي تعمق مفاهيمها حول دور الشباب في حياتها وتكشف غنى هذه القيمة الفذة. وهذا ما يحدونا الى معالجة الموضوع من هذه الزاوية.

٢. الشباب عنصر اساس لبناء الكنيسة ومستقبلها

للشباب دور اساس في تغيير المجتمع وبنائه مادياً ومعنوياً، وهم قادة التغيير، وذلك بحكم طاقاتهم وقابلياتهم وجدّة نظرتهم الى الحياة واندفاعهم وعطائهم المتدفق والمتواصل في كل المجالات، وكذلك بعددهم. ولكي يضطلعوا بهذا الدور ويشتركوا في رسم صورة مجتمع الغد، يتوجب عليهم ان يكونوا اصحاب مبادرات وليس فقط مشاركين في ادامة الوضع القائم –كما يُراد لهم في كثير من الاحيان– وذلك من خلال طروحاتهم الجديدة في الفكر والصيغة والاسلوب والممارسة. وفي سبيل إشادة قواعد نموذج جديد للمجتمع، قد يفضي بهم الامر الى التمرد والرفض، بل وحتى الى الثورة: تلك هي مخاطر اللعبة وقواعدها!

فالعائق الاكبر الذي يقف في طريق هذا البناء هو مجتمع الكبار الذين لا يستصغرون الشباب وحسب، بحجة قلة خبرتهم وجدارتهم، بل يرفضون حتى الاعتراف بهم كطرف وكقيمة، خوفاً من اقتحاميتهم وتعرضهم لكل قيم الكبار ووضعها على المشرح. لذا كان هذا الصراع بين الاجيال.

فالخطوة الاولى التي ينبغي على الكبار القيام بها هي ان يعترفوا بالشباب، قيمةً ومكانةً ودوراً، كما فعل المجمع الفاتيكاني الثاني. ولكي يكون هذا الاعتراف فاعلاً وعملياً، يجب ان يؤدي الى قيام حوار بين الجيلين من اجل تفاهم وتفهم مشترك افضل لآراء الفريقين وافكارهما ووجهات نظرهما المختلفة في احترام متبادل. فالمجمع يقول في هذا الصدد: "اما البالغون فعليهم ان يدخلوا مع الشباب في حوار ودي، يتيح لكلا الطرفين، رغم فارق السن، التعارف المتبادل، وتبادل الثروات الخاصة. ويستطيع البالغون بقدوتهم أولاً وبتقديم المشورة الحكيمة والمساعدة الفعالة في الوقت المناسب ان يشددوا عزيمة الشباب في تأدية رسالتهم" (رسالة العلمانيين رقم ١٢).

ويوصي المجمع الشباب من جانب اخر بوجوب احترام البالغين قائلاً: "ويجب على الشباب من جهتهم ان يولوا البالغين ما يجب من احترام وثقة، وألا تحول رغبتهم الطبيعية في التجديد دون ايلاء التقاليد الكريمة ما تستحقه من تقدير".

ان ما يصح من توجيهات المجمع بالنسبة الى الشباب في المجتمع، يصح، وبصورة أولى، بالنسبة اليهم في الكنيسة، فهم يشكلون في الكنيسة، شأنهم في المجتمع، شريحة هامة واساسية في جماعة المؤمنين، وعليهم يقع بالدرجة الاساس بناء كنيسة الغد وتجديد شبابها الدائم. وان ما يعطيهم هذا الدور وهذه المكانة هو عماذهم وايمانهم المسيحي الواعي مضافاً الى الطاقات والامكانيات التي يزخرون بها. بذا يصبحون اعضاء كاملين في جسد المسيح، وملتزمين تجاه الانجيل بالحقوق والواجبات التزام العضو الحي تجاه الجسم الحي.

وليس الانجيل مجرد كتاب يحوي احداثاً واعمالاً واقوالاً من حياة يسوع المسيح، نتعلمها ونرددها او نعتز بعظمتها، وانما هو هذه البشرى التي كشف عنها يسوع المسيح

ذاته، بشرى الله الى الناس، بشرى حقيقة ابّوة الله للبشر، هذا الاله الذي هو اب محب سمح لا يريد إلا خيرهم وخلاصهم. وهذا الخلاص حققه يسوع المسيح بمجيئه ويريد ايصاله الى كل البشر على يد كنيسته. فالمؤمن الحقيقي، اذن، ومن ثم الشاب المؤمن، هو من آمن بهذه البشرى —يسوع المسيح— وسعى لنقلها الى اخوته بشهادة حياته وكلامه. يقول المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في مرسومه حول رسالة العلمانيين: "ان غاية رسالة الكنيسة هي خلاص البشر، وهذا الخلاص يتحقق بالايمان بالمسيح وبنعمته. ومن ثم فان مهمة الكنيسة وكل اعضائها تقوم باعلان رسالة المسيح للعالم، بالقول والعمل، واشراكه في نعمته، ويتحقق ذلك بصفة خاصة عن طريق الوعظ وتوزيع الاسرار المقدسة. غير ان هذه المهمة ليست وقفاً على رجال الاكليروس... وللعلمانيين فيها دور بالغ الاهمية" (رسالة العلمانيين رقم ٦).

وبقدر ما يتغلغل منهج المسيح الفكري والروحي في الشباب المسيحي بقدر، ذلك سيتمكن من صياغة وجه انجيلي وواضح وصاف لكنيسة اليوم والغد، بتخليصها أولاً من الرواسب السلبية التي علقت بها عبر التاريخ، وأعادتها الى اصالتها الاولى، لتكون من ثم كنيسة البشرى، والمحبة، والحرية على خطى سيدها. وهكذا، على يد ابنائها من جيل الشباب العلماني، تُحمل افكار ومفاهيم وقيم انجيلية للعالم من دون التنكر له او التغرب عنه، بل بالعكس، ببقائها حاضرة فيه حضوراً فعالاً من اجل خلاصه وتطعيمه بالذهنية الانجيلية.

ولكيما يكون الشباب اهلاً للقيام بهذا الدور الحيوي لبناء الكنيسة وديمومة شبابها، لا بدّ لهم قبل كل شيء من نبذ السطحية وتعميق ثقافتهم المسيحية، لكيما يتحلوا بقوة التفكير والتصميم لحمل مسؤولياتهم. فهذه الثقافة ضرورية للشهادة اتي ينبغي عليهم اعطاؤها سواء بالكلام ام بالحياة، وهي ضرورية كذلك لكسب ثقة المجتمع. فالى مثل هذا التعمق بالمبادئ المسيحية يدعو المجمع الشباب حين يقول: "وفيما تزداد يوماً بعد يوم اهمية الشباب الاجتماعية بل والسياسية، نجدهم غير مهيّئين تهيئة كافية ليحملوا، كما يليق، ثقل الاعباء الجديدة الملقاة على عاتقهم"، أي اعباء الرسالة الانجيلية المنوطة بهم في الكنيسة. لذا ينبغي على العلمانيين، وعلى الشباب خصوصاً، ان ينتزعوا هذا الدور، بكفاءتهم واصرارهم، ليكونوا اعضاء حية في الكنيسة، ملتزمين فعالين ممتلئين غيرة وحماساً، يدفعهم الى ذلك ايمانهم القوي ومحبتهم الكبيرة للمسيح وكنيسته.

٣. الشباب ورجال الاكليروس

ان الصورة التي حاولنا رسمها عن الشباب وعن دورهم في الكنيسة، قد تبدو مختلفة عن التي يحملها الكثير من رجال الاكليروس. وحتى اذا اعترف لهم مبدئياً بهذا الدور، فهو لا يعطى لهم في الواقع.

فما زال الكثيرون من رجال الاكليروس ينظرون الى الشباب نظرتهم الى اشخاص قاصرين بحاجة الى وصاية، اي اشخاص غير ناضجين وغير مكتملين، وبالتالي غير كفوئين

لاناطة المسؤوليات بهم في الكنيسة. وقد يذهب الامر بالبعض الى حد احتقار الشباب ونبذهم والتشكيك في قدراتهم وطاقاتهم والتقليل من شأنهم ومن قيمتهم الحقيقية، لا بل الى التنكر لهم! واذا ما انيط بهم دور ما، فهو ثانوي وهامشي، وقد يقتصر في كثير من الاحيان على شؤون البناء والمال وبعض الخدمات التي لا مسؤولية ولا قرار اساسياً فيه. فليس من الغرابة بشيء، والحالة هذه، ان يعاني الشباب من هذا الوضع غير الطبيعي، معربين عن امتعاضهم واحتجاجهم بأشكال مختلفة قد تُشتّم منها احيانا رائحة التمرد وقد تقودهم الى اللامبالاة والى الجمود. وهنا المأساة الكبرى!

ولكن وضع الشباب في الكنيسة، والحق يقال، ليس قائماً بهذه الدرجة، والحمد لله. ففي كل مكان رجال من الاكليروس، وبعضهم في القمة، يؤمنون بالشباب وبقيمتهم، ويعترفون بمكانتهم وبرسالتهم في الكنيسة. ولقد دعاهم المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني لممارسة هذا الدور الريادي في حياة الجماعة المسيحية، ولا سيما لدى اقرانهم بقوله: "ويجب على الشباب ان يكونوا اول الرسل تجاه الشباب، وان يتصلوا بهم مباشرة ويمارسوا النشاط الرسولي بأنفسهم وفيما بينهم، على ان يراعوا البيئة الاجتماعية التي يعيشون فيها".

هكذا نرى كهنة واساقفة كثيرين يقفون الى جانب الشباب بل ينحازون اليهم، فيحاولون تفهمهم وتفهم آرائهم وافكارهم ووجهات نظرهم، ويمنحونهم كل دعم وتشجيع للمضي قدماً في رسالتهم، ويولونهم ثقتهم. فلقد قال البابا بولس السادس في رسالته حول اعلان الانجيل: "ينبغي ان يصبح الشباب المكونون تكويناً قويا في الايمان والصلاة، رسلاً ما بين الشباب دائما اكثر فأكثر. فالكنيسة تعتمد كثيراً على هذه المساهمة، وقد اظهرنا نحن انفسنا ثقتنا كاملة نحوهم". كما انهم يولون اهتماماً خاصاً بتثقيف الشباب تثقيفاً قوياً وعميقاً لكي يكونوا اهلاً لتحمل مسؤولياتهم في الرسالة المناطة بهم والنابعة من دعوتهم المسيحية.

هذا هو الموقف الصحيح، في الواقع، الذي ينبغي اتخاذه تجاه الشباب. فحري بنا جميعاً ان نرد الاعتبار لهؤلاء الشباب ونعترف بانهم قيمة اساسية في ذاتهم وطاقة خلاقة وجوهرية في الكنيسة. من اجل ذلك ينبغي على الكبار، ولا سيما من رجال الاكليروس ان يعيدوا النظر في موقفهم من الشباب، اذ بوسعهم ان يرفدوا الكنيسة بطاقات متجددة دائماً، طاقات تجدد الكنيسة من الداخل وتبعث فيها الحياة والامل والخلق المستمر. كما ينبغي افساح المجال امامهم ليعيشوا ايمانهم بحرية ونضوج ومسؤولية، بتعابيرهم واساليبهم وصيغهم الخاصة -حتى وان حملت هذه الصيغ تعابير لم يتعود عليها الكبار- ما دام الايمان سليما وواحداً: بهذه الثقة وهذا الاحترام المتبادل سيضطلعون بمسؤولياتهم في اداء رسالتهم، من دون ان يكونوا عرضة للاستغلال او الشك او استخدامهم كادوات تنفيذية، في الوقت الذي يشاءه الكبار وبالكيفية التي يريدونها. فرسالة الشباب ليست رهناً بارادة احد ما وانما نابعة من صميم دعوتهم المسيحية. ولكن رسالة الشباب ورسالة الكبار هي رسالة واحدة تستقي من الانجيل الواحد وتجري في اطار الكنيسة الواحدة، لذا لا ينبغي ان تبدوان وكانهما متضاربتان او متنافرتان. فاذا اختلف الجيلان في طريقة التفكير والاسلوب، لا ينبغي ان يختلفا في الجوهر والاساس ولا في المحبة

التي هي حجر الزاوية لكل عمل رسولي وكنسي. لذا بوسعنا ان نقول بان أي نشاط او علاقة بين الشباب والكبار، بين العلمانيين والكهنة، لا يضع في قاعدته المحبة والاحترام والحوار ووحدة الهدف لا يكتب له النجاح، بل لا يمكن اعتباره عملاً كنسياً.

وكما ان للشباب اهميتهم في حياة الكنيسة اليوم، هكذا في حياتها المستقبلية، ذلك لان الشباب امل الكنيسة وطاقتها المخزونة. فهم الذين سيكّونون كنيسة الغد، كنيسة الألفين، وهم الذين سيصوغون وجهها الآتي بعطائهم وتساؤلاتهم ومفاهيمهم وتطلعاتهم وتوجهاتهم.

٤. التزام الشباب بدورهم في الكنيسة

بعد هذا العرض السريع حيث توخينا ابراز دور الشباب في حياة الكنيسة، حري بنا الان ان نحدد بعض المجالات التي يمكن للشباب ان يلتزموا فيها، من دون الادعاء بالاحاطة بها جميعاً:

هناك مجال رئيسي اليوم في كنيسة العراق يستحث همة الشباب وغيرتهم، برأينا، الا وهو مجال التعليم المسيحي. فبعد ان انحسر التعليم المسيحي من المدارس، وفي الوقت الذي لا تقوم الاسر المسيحية بواجب تلقين أولادها مبادئ الدين المسيحي الاولية، كان لزاماً على الكنيسة ان تتجه الى خلق صيغة اخرى للتنشئة المسيحية: هكذا نشأت مراكز التعليم المسيحي في الكنائس بصورة مكثفة منذ بداية الثمانينات —وكانت بداياتها في بغداد قبل هذا التاريخ بكثير. اننا، من دون ان نتبسط في الحديث عن هذه المراكز وتحليل موقعها في عملية التثقيف المسيحي وحاجاتها وامكانية تطويرها، نكتفي بالقول بانها حقل يشار اليه، فيه يستطيع الشباب ان يمارسوا رسالتهم المسيحية ويشتركوا في عملية بناء الكنيسة اشتراكاً مباشراً وبصورة فعالة ونشطة كمربين ومعلمين.

الى جانب ذلك هناك النشاطات الخورنية، بدءاً من المشاركة كاعضاء فاعلين في المجالس الخورنية والابرشية وفي النشاطات التي تقيمها الكنيسة في المجالات الاجتماعية والتربوية والفنية والترفيهية والثقافية؛ وبذلك لا يكونون ذراع الكاهن الايمن وحسب، بل فعلة اصيلين في تطوير حياة الرعية وبناء اسس جديدة لعلاقات المؤمنين ببعضهم وبالكنيسة.

وفي الباب نفسه هناك نشاطات عديدة بالامكان ان تجمع الشباب والكاهن معاً كزيارات المرضى، والزيارات الراعوية ورصد المحتاجين في الخورنية مادياً ومعنوياً، والسهرات الانجيلية، واللجان الكنسية المختلفة كاللجنة الليتورجية او التنظيمية او الاجتماعية او الثقافية او الجوقة الكنسية او الشمامسة... الخ.

كما اننا نسترعي انتباهاً خاصاً الى حقل "شبابي" اخر وهو الندوات والمحاضرات التثقيفية المسيحية والدورات اللاهوتية التي تتوخى اعطاء ثقافة مسيحية جادة ورصينة للشباب لما من ارتباط وثيق بين الثقافة والشهادة، لا سيما للشباب العاملين في حقول التربية المسيحية ولأولئك الذين يحملون على عاتقهم مسؤوليات معينة فكرية وثقافية، في المجتمع.

فمثل هذه "المناهل" للثقافة المسيحية الجادة والمركزة —واقصد بها الندوات الكنسية ولا سيما الدورات اللاهوتية— هي فرص ثمينة جدا لمن يريد ان يتعمق في اصول ايمانه ويطلع على جوانب الفكر المسيحي وطبيعة الكتاب المقدس، ويغذي حياته المسيحية في حضارة تطالبنا اكثر فاكثر بتثبيت قناعاتنا والعيش بموجبها.

من جانب اخر، على الشباب ان يكونوا مبدعين وخلاقين، واصحاب مبادرات في الافكار والاساليب والصيغ، فيوجدون لذواتهم ما يلائمهم من صيغ واساليب تتماشى وقناعاتهم الذاتية وتلبي حاجاتهم وحاجات الكنيسة والمجتمع الذي يعيشون فيه. فمن المفروض في الشباب ألا يكونوا منفذين وحسب، وانما مشاركين ومبدعين ايضا، من دون ان ننفي، مع ذلك، سلامة الاستفادة من تجارب وخبرات غيرهم من الشباب..

فمن الضروري بمكان ان ينفتح الشباب على بعضهم، فلا ينغلقوا على انفسهم او يصابوا بغرور الاستغناء عن خبرات غيرهم. وبالاخص عليهم ان ينبذوا التعصب والتباعد، ذلك ان الانفتاح اليوم هو احدى الميزات العديدة التي تسم عصرنا، هذا الانفتاح الذي اخذ يزداد بين البشر يوما بعد اخر بفضل وسائل الابلاغ والاتصال السريعة والمتطورة بحيث بتنا ننظر الى كوكبنا وكأنه قرية صغيرة. ومن وسائل هذا الانفتاح المنشود عقد لقاءات دينية او اجتماعية او ثقافية او حتى ترفيهية مشتركة بين شباب مختلف الكنائس.

فمن شأن هذه اللقاءات ان تجعل الشباب يتعرفون على بعضهم وان يفهموا الواحد الاخر بصورة صحيحة. كما انها تهيء الجو لتبادل الخبرات وخلق بوادر التعاون والاستفادة من التجارب المختلفة وتطويرها. لا شيء أثمن من الحوار البناء الذي يتم في جو الاحترام والثقة، اذ انه يضع الشباب ازاء افكار بعضهم البعض ووجهات نظرهم. كما ان هذه اللقاءات والمبادرات فرصة لظهور القابليات وبروز قادة بين الشباب، يقودون مسيرة الكنيسة والايمان الى امام. فضلا عن ان هذه اللقاءات بحد ذاتها مصدر ثراء فكري للشباب.

ومما لا شك فيه ان للكهنة دوراً كبيراً في استثارة مثل هذه اللقاءات وافساح الفرص لبروز مثل هؤلاء الكوادر ليحملوا التزامهم المسيحي ودورهم في حياة كنيسة العراق بوعي وثقة وعزم وكفاءة. ويفترض كل ذلك، كما سبقنا وقلنا، تهيئة ثقافية ولاهوتية جادة وبشتى السبل التثقيفية المتاحة، ودعم المبادرات القائمة بجدية ومسؤولية من قبل السلطة الكنسية.

الاب يوحنا عيسى

١٢ كنيسة العراق، ٢٠ عاماً بعد المجمع

السنة الثانية والعشرون: ت١ - ت٢ ١٩٨٦

الفهرس

- افتتاحية: كنيسة العراق... أي مسار؟ — رئيس التحرير
- نظرة اجمالية: المجمع الفاتيكاني الثاني بعد ٢٠ عاماً — أ. جرجس القس موسى
- عودة الى الينابيع: خصوصية الفكر اللاهوتي في كنيسة ما بين النهرين — أ. لويس ساكو
- مقابلات: اساقفة يتحدثون السادة عمانوئيل بني، عبدالأحد صنا، سليبا شمعون — الفكر المسيحي
- قضايا ملحة
  ١. التعليم المسيحي بين جيلين — أ. يوسف حبي
  ٢. كهنة وعلمانيون لبناء كنيسة واحدة — أ. يوحنا عيسى
- شهادات: اولويات في كنيسة العراق — ...
- قضايا ملحة:
  ١. التجديد في كنائس العراق — أ. يوسف توما
  ٢. موقع كنيسة العراق من الحركة المسكونية — أ. أفرام سقط
- تحقيقات
  - جولة في كنائس العراق — ...
  - الرهبانيات في كنيسة العراق — ...
- كنيسة العراق في الفكر المسيحي — ...
- الفكر المسيحي في سنتها الثانية والعشرين... — ...
- معتزين بهويتهم القومية — البابا يوحنا بولس الثاني

كانت "الفكر المسيحي" قد أصدرت عام ١٩٧٧ عدداً خاصاً عن كنيسة العراق، وضع في حينه الاصبع على الجرح وفتح آفاقاً مستقبلية... وجاء هذا العدد، في اعقاب عشرين عاماً على اختتام المجمع المسكوني، ليواصل "قرع الناقوس" أي في الضرب على الاوتار وايقاظ الوعي واستحثاث الهمم للخروج بكنيستنا من جمودها وتقوقعها، حتى ولو ذهبت الصرخة في صحراء!

فبعد نظرة الى كنيسة ما بعد المجمع، وعودة الى تاريخ كنيستنا في ما بين النهرين، تناول العدد الخاص عدداً من القضايا الملحة وفي مقدمتها: التعليم المسيحي، التعاون بين الكهنة والعلمانيين، التجديد الليتورجي، الحركة المسكونية... ولعل اروع ما تميز به هذا العدد هو المسح الشامل لكل الكنائس والابرشيات والرهبانيات... فضلاً عن مقابلات مع اساقفة وشهادات لعلمانيين عن "اولويات في كنيسة العراق".

(...) هذا النداء إلى التجدد الذي أطلقه المجمع والذي طالما رجّعت "الفكر المسيحي" صداه، طيلة سنوات وجودها الاثنتين والعشرين، يلتقي مع النداء الذي وجهه مؤخرا، في شباط الماضي، البابا يوحنا بولس الثاني -وللمرة الثانية خلال ٥ سنوات- إلى كنيسة العراق عبر أساقفة من الكنيسة الكلدانية. ولعل ابرز نقطة شدد عليها البابا هي الدعوة إلى إنشاء مجلس أساقفة يكون أداة فعالة "للتشاور حول القضايا التي تمس حياة الكنيسة على الصعيدين الوطني والدولي"، وقد جعل قداسته هذه الدعوة ضرورة ملحة يطلبها المجمع وتلتقي مع رغبة الكنيسة. وقد آن لهذا النداء البابوي ان يجد لدينا اذنا صاغية!

عشرون سنة مرت على اختتام المجمع، تحركت خلالها كنائس الله في العديد من بلدان العالم، منكبة، عبر سينودسات ومجالس راعوية ومؤتمرات وطنية، على مسح شامل لواقعها، تخللته تحليلات رصينة ودراسات جادة عادت عليها بأشهى الثمار. مثل هذا المسح وهذه "المراجعة" بات مطلبا ملحا في كنيستنا العراقية، وقد حان الأوان للإعداد لسينودس وطني يعيد لكنيستنا شبابها وعنفوانها. واذا كان الإعداد لمثل هذا السينودس يستغرق عدة سنوات، فالأحرى بنا أن نبدأ اليوم! وإلا فلن نبدأ أبدا!

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٣١٧)

المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني بعد عشرين عاما

٢٠ عاماً مضت على اختتام المجمع المسكوني! بُعدٌ كافٍ للنظر في انعكاساته ومردوداته في واقع الكنائس المحلية عبر العالم. هذه "المراجعة" قام بها سينودس الاساقفة فوق العادة الذي عقد في اواخر عام ١٩٨٥، بمناسبة الذكرى العشرين، حين انكب على تحديد ارث المجمع من خلال اربعة محاور رئيسة: سر الكنيسة، مناهل حياة الكنيسة، الكنيسة بصفتها شركة، الكنيسة في العالم.

الاب جرجس القس موسى يستعرض هذه المحاور الاربعة في محاولة لابراز اهم التحولات التي احدثها المجمع في فكر الكنيسة ولاهوتها وطروحاتها ونهجها الراعوي وعلاقاتها في الداخل والخارج ...

وكان ينبغي ان يكون لهذه التحولات صدى في كنيستنا العراقية!

لا شك ان المجمع[١] كان في حياتنا وفي جيلنا (جيل الذين تجاوزوا العشرين او بلغوها في ١٩٥٩، سنة اعلانه) الحدث الاكبر، وقد عشناه كعملية تحرر وانعتاق. بل انه شكل ابرز حدث على الاطلاق في حياة الكنيسة في القرن العشرين.

ولكن لنعد الى الوراء قليلا ونلقي الضوء على الخلفيات الثقافية التي وجهت طروحاته وتحكمت في فرص التطبيق العملي لهذه الطروحات، سلباً او ايجاباً.

اولا: استقبال المجمع

ان الخلفية الثقافية الاوربية هي التي طغت على عمل الهيئة المجمعية. ذلك واقع لا ينكر. لأن معظم الكوادر الفكرية والتوجيهية والادارية للمجمع (من لاهوتيين واساقفة وقادة الرأي، بما فيهم وسائل الاعلام) كانوا من اوربا. وكانوا بالضرورة تحت تأثير ما تعانيه كنائسهم مباشرة، ولا يعكسون معانيات غيرهم إلا من منظارهم الذاتي. في اية اجواء كانت تعيش كنائس اوربا اذ ذاك، اذن؟

---

(١) افتتح في ١١ت١ ١٩٦٢ واختتم في ٨ ك١ ١٩٦٥.

في الستينات -اي في غضون المجمع وما بعده مباشرة- خضت المجتمع الاوربي احداث فكرية وايديولوجية وانقلابية مثيرة، وأهم ما اتسمت به تلك الخضّة معارضة عامة للمؤسسات ونفض نير القيم التقليدية والاطر الموروثة، اجتماعية كانت ام دينية ام سياسية ام اخلاقية، وَوَسم الافق نهوض يساري عام (حركة الشباب في فرنسا: ايار ١٩٦٨).

وقد وصلت الريح الى داخل الكنيسة واختلطت بجو الانفتاح المجمعي التجددي والابداعي، فحركت اموراً كثيرة في عادات البيت، واعادت ترتيب الاثاث، وألقت من النافذة بكثير مما عفا عليه الزمن ويحتفظ به كل بيت عتيق، وغيّرت مواقع الجلوس حول المائدة (العلمانيون، الجماعية الاسقفية مع البابا)، وأدخلت تقاليد جديدة على الاسرة وعلى علاقاتها بالخارج (الحركة المسكونية، العلاقة مع الديانات، التعددية في الوحدة ايمانياً وفكرياً، التضامن مع القضايا الانسانية: لاهوت التحرير).

ولكن عندما قلنا بان عمل الهيئة المجمعية كان موسوماً بالخلفية الثقافية الاوربية، كنا نعني ايضا وخاصة ان التيارات الفكرية والراعوية والرسولية التي كانت تحرك الطليعة المسيحية الاوربية قبل١٩٥٩ هي التي عينت اتجاهات المجمع. وفي مقدمة هذه التيارات التي اعدت المجمع، من قريب او بعيد، حركة الدراسات الكتابية، والتجديد الليتورجي، والحركة المسكونية، والانفتاح على العالم وقيمه، ورسالة العلمانيين، والتوجه الحديث في البحث اللاهوتي... هذه التيارات والحركات التي نمت أصلاً كردة فعل للانكفاء الوقائي الطويل الآتي من المجمع التريدنتيني، وللمركزية الرومانية التي أفرزها الفاتيكاني الاول، وظفت بعد المجمع كأدوات وأجهزة لتنفيذ مقرراته وإشاعة روحه.

خارج اوربا، هذه الحركات الطليعية كانت شبه معدومة او غير ذات شأن - وهذا عنصر يستحق الانتباه اليه- مما جعل طروحات المجمع تنزل على الناس مفاجأة وكأنما بالمظلة، أو اصطدمت تطبيقاتها ببيئات ذات واقع كنسي واجتماعي تختلف عن اوربا -وعن اوربا الغربية بالذات. لذا يمكننا القول بانه لا يمكن تقييم تطبيقات المجمع إلا على ضوء معطيات كل بيئة بخصوصياتها. وجاءت ردود الفعل متباينة فعلاً[٢] ونلخصها كما يلي:

- قسم تدبروا أمرهم بقراءة جديدة لمقرراته وتجسيد توجهاته بروح إبداعية، على ضوء واقعهم ومعاناياتهم الخاصة (اميركا اللاتينية: مدلّين ١٩٦٨)

- قسم رفض المجمع بصراحة مبدئية واتهمه بانه جنح بالكنيسة نحو الفوضى، بل نحو خيانة مبادئهما الاساسية (لفيفر).

- قسم اخر كان منشغلاً بتماسكه الداخلي حفاظاً على ابقائه ضد الضغوط

(٢) من هذه الردود ما تبلور وزاد شأنه تدريجيا ابان المجتمع، ومنها ما تفاعل في اعقابه، وهذا كان شأن الاكثرية.

الخارجية المباشرة، فواجه المجمع بتحفظ بالغٍ ومحسوب جدا (بولونيا، كنائس الكتلة الشرقية).

- وقسم بقي متأرجحاً في اللاموقف، وفي الغالب فكرّ واستمر يعيش وكأنَ حَدَثَ المجمع لم يكن. واذا كان، فهو لا يعنيه، لا بقريب ولا ببعيد، اللهم إلا في ما خدم مصلحته الضيقة (الكنائس الشرقية عموماً —ونحن في العراق خاصة).

نأتي الان الى مواقف يوحنا بولس الثاني تجاه دينامية المجمع: لا أحد يشك قط بتمسك البابا بارث المجمع. ولا أحد اكثر منه حرصاً وأمانة لروح المجمع وتطبيقه —وهو احد آبائه البارزين— ولكن ليس سراً ايضا ولا ادعاء في غير محله، ان البابا وويتيلا اكثر ميلا الى المحافظة والحذر مما الى التغيير والتحرر. وانه يفضل متانة المؤسسة على عفوية الروح وحرية البحث .

مهما كان من امر، فان سياسة يوحنا بولس الثاني العامة تبدو للمراقب موسومة بطابعِ مسك الزمام باتجاه المركزية لتسهل عملية الانضباط بما يخدم التماسك والوحدة، خوفاً من التشرذم والابتعاد عن "بؤرة الوحدة" ! "استخدام" السينودسات العامة. مواقف الكرسي الرسولي من بعض القضايا الخاصة: قضية منهاج التعليم المسيحي في فرنسا، مشاكل كنيسة هولندا، لاهوت التحرير، الطقوس الافريقية والمجمع الافريقي...).

أضف الى هذا كله بعض التلمس الذي يعتري كل المبادرات الجديدة، او السلبيات الهامشية التي لا مفر منها. حتى يدبّ الذعر في صفوف المناوئين للمجمع، ويلتبس الامر حتى على مناصريه احياناً. فيحسب كل ذلك على القوى المحافظة في الكنيسة —في روما وخارجها— تلك القوى التي كانت قد حوصرت ابان المجمع، فجاءت فرصتها لوضع الكوابح (راتزينغر).

ثانيا: خلاصة عشرين سنة

ولكن، بالرغم من هذه الجوانب المثيرة، "فقد حققت الكنيسة عملا جباراً في هذه السنوات العشرين الماضية، وعملت من اجل تجديدها الذاتي بقوة والتزام كبير، وشجاعة وصبر، وباخفاقات احياناً، ولكن بفرح عظيم، وذلك بوتيرة وعزم قلما عرفتهما في تاريخها الحديث". بهذه العبارات يلخص الكردينال دانيلس (بلجيكا)، مقرر سينودس الاساقفة العام الاخير[٣]، انجازات المجمع. وقد جاء ذلك في تقريره امام السينودس المذكور الذي راجع ارث المجمع انطلاقاً من اربعة محاور هي:

١. سر الكنيسة

---

(٣) عقد في روما من ٢٤ت٢- ٨ك١ ١٩٨٥ (راجع ف. م. ك٢ ١٩٨٦).

٢. مناهل حياة الكنيسة
٣. الكنيسة بصفتها شركة
٤. الكنيسة في العالم

كيف نظر السينودس الى الارث المجمعي من خلال هذه المحاور التي تعانق مجمل طروحات المجمع: ماذا تحقق؟ ماذا رافق التحقيق من انوار وظلال؟ ماهي طموحات المستقبل؟[٤]

١. سر الكنيسة

المقصود بسر الكنيسة هنا امتزاج الالهي بالانساني فيها، القوة بالضعف، النور بالظلام، الموت بالقيامة، معوقات العالم بتعزيات الله ... (دستور عقائدي في الكنيسة-٨):

وفي هذة الباب سجل السينودس ملاحظات واقعية في العشرين سنة الاخيرة حول ظواهر مزدوجة تفاعلت في حياة الكنيسة، منها :

من جهة، ابتعاد "بنيوي" عن الكنيسة، اذا صح التعبير، واعني بذلك استقلالية نسبية تجاه الفعل الديني، غالباً ما أخذت صيغة هبوط كبير في نسبة الممارسة الدينية، لا سيما في البلدان المسيحية التقليدية (الغرب خاصة)، او صيغة "تمرد" او "لا أبالية" تجاه الكنيسة—المؤسسة.

ومن جهة اخرى، شعور متزايد بالانتماء المسيحي وبالالتزام الذي يمليه هذا الانتماء. وقد ترجم ذلك بظهور حركات وجماعات رسولية وروحية جديدة كثيرة ملتزمة (حركات التجدد المواهبي، جماعات القاعدة والحياة المشتركة وجاذبيتها لدى الشباب، حركة تيزيه وانفتاحها المسكوني...).

واذا رأينا في الابتعاد، او التخلي عن المراجع الفكرية والانضباطية الكنسية التقليدية انعكاساً " لروح العلمنة" الداعي الى استقلالية اكبر للانسان في مقرراته الذاتية، فهو من دون شك علامة نضوج لدى القاعدة، لا علامة هجر بالضرورة. لذا اتخذت هذه "الجماعات الجديدة" طابع التعمق في الحياة الروحية والتأصل الكنسي وروح التضامن والمشاركة.

٢. مناهل حياة الكنيسة

يشير سينودس الاساقفة الى ثلاثة مناهل رئيسة لحياة الكنيسة وردت في وثائق المجمع وهي كلام الله، الاسرار وفي مقدمتها الاوخارستيا، والليتورجيا.

---

(٤) في منظار السينودس المذكور، سنحاول الاجابة الى هذه الاسئلة على ضوء دراسة بعنوان "بعد ٢٠ عاما.." نشرها مجلة *MISSI* في عدد ك٢ ١٩٨٦.

✵ كلام الله

لا شك ان دراسات الكتاب المقدس ترقى الى ما قبل المجمع، ولكن المجمع، بسلطته العليا، ثبت ووسّع هذه "العودة الى الينابيع" (دورات لدراسة الكتاب المقدس-فرق كتابية- مجلات متخصصة وابحاث أكثر فاكثر اتساعاً وعمقاً. في العراق: مساهمات مجلة الفكر المسيحي، دراسات الاب كوب، سلسلة "كلام الله"...). وهناك ظاهرة تستحق الانتباه وهي رواج اقتناء الكتاب المقدس الى جانب دخوله بكثافة في بُنى صلاة المؤمنين وفي الليتورجيا وتغذية روحانية الجماعات الصغير الجديدة ..

قد يكون ثمة اخطار في بعض القراءات المستحدثة للنصوص الكتابية (قراءة ماركسية، قراءة نفسية تحليلية). ولكن ألا يوجد جوانب ايجابية في هذه القراءات؟

الى مثل هذه التحفظات اشار سينودس الاساقفة عندما حذّر من خطر عزل الكتاب المقدس عن التقليد الحي في الكنيسة، أي من جعل الاولوية للكلمة دون الخبرة التاريخية. وما ذلك إلا امتداد لما اكده المجمع من وجود "تضامن حيوي بين التقليد والكتاب المقدس والسلطة التعليمية في الكنيسة" (دستور عقائدي في الوحي-١٠).

وهذا يقودنا الي موضوع هام وخطير جداً، ألا وهو طبيعة العلاقة بين اللاهوت والسلطة الكنسية:

البحث اللاهوتي يجب ان يكون خدمة كنسية وليس اجتهاداً خاصاً.

هذا المبدأ الذي يشبه شعاراً يرفع في صدر قاعة مؤتمر ما، لا يختلف فيه اثنان، انما الاختلاف هو في التطبيق. فبينما تركز السلطة الكنسية على ان زمام القيادة (الفكرية والادارية) يجب ان يبقى بيدها -لان الاساقفة، بحسب اللاهوت التقليدي الرسمي الذي كرسه السينودس على خطى المجمع، يقودون ايمان القطيع، ويبعدونه عن الاخطار، ويشيرون الى الطريق الصحيح- يطالب اللاهوتيون بمجال اوسع في حرية البحث والاجتهاد وتوسيع الرؤية الفكرية والخبرات الجديدة .

من هنا المجابهات التي وقعت بخصوص طبيعة البحث اللاهوتي وتطبيقاته العملية ونتائجه الفكرية والميدانية (مجمع عقيدة الايمان ولاهوتيو التحرير في اميركا اللاتينية).

مع كل ذلك، فقد اكد آباء السينودس على ان البحث اللاهوتي ضروري لحياة الكنيسة، لا سيما اليوم، واعترفوا بكل ما اتى به اللاهوتيون لاعداد المجمع ولمساعدة المؤمنين في شرح اعماله وترويجها، ثم دعوا الى اتصال اوثق وحوار اكثر احتراماً وتفهماً بين الاساقفة واللاهوتيين لفهم اعمق لطروحات الايمان. اما في ما يخص موضوع مناهج التثقيف الديني المسيحي مباشرة، فاذ ابدى الاساقفة ارتياحهم لما تلا المجمع في كل مكان من جهد واضح في سبل التبشير والتثقيف المسيحي والوعظ (لنذكر خبرة الستينات ومنتصف

السبعينات في الموصل وبغداد)، فقد اشاروا الى ما تعرضت له عملية التعليم المسيحي من تجربة التبسيط، وكيف انها، باسم التخلي عن العقيدانية المفرطة، تخلت احياناً عن اسس مهمة وجوهرية في العقيدة المسيحية؛ ولاحظوا ان اهم نقطة اصابها التراجع هي الاخلاقية التقليدية، بحيث اصبح من الصعب تقبل ضوابط ثابتة وعامة تلزم الجميع؛ وظهر تركيز من طرف واحد على الضمير الشخصي، وظهر ذلك خاصة في ما يخص الاخلاقية الجنسية والانجابية (لنذكر الاصداء المربكة والاحتجاجات التي قوبلت بها رسالة بولس السادس في تحديد النسل ووسائل التعقيم). وكمعالجة لضبط الامور، خرج السينودس بمشروع علمي، وهو وضع كتاب يتضمن الخطوط العريضة الاساسية للعقيدة الكاثوليكية يكون اساسا لمناهج التعليم المسيحي في كافة البلاد، على غرار ما كان قد فعله المجمع التريدنتيني قبل ٤٢٣ عاما، وسيجهز المشروع في عام ١٩٩٠!

❋ الليتورجيا والاسرار

الى جانب كلام الله المتضمَّن في الكتاب المقدس والتعليم الحي المستوحى منه ومن خبرة الكنيسة عبر التاريخ، تأتي الليتورجيا كمنهل اساسي لحياة الكنيسة.

والليتورجيا هي الاطار الطقسي للاحتفال الجماعي باسرار الرب ونعمه، ويتميز هذا الاطار بغزارة الرمز التي تحمل، بكثافتها التعبيرية، الجوانب المتعددة لتاريخ الخلاص والعلاقة بين الايمان والحياة. وبما ان الصيغ التعبيرية وطبيعة الرموز هي قضية ثقافية بالضرورة، ومحتواها التعبوي منوط بحضارة معينة، فقد ابدى المجمع مرونة خاصة تجاه تعددية الليتورجيات في مرسومه الخاص عن الليتورجيا حيث جاء:

- "الكنيسة لا تود، حتى في الليتورجيا، ان تفرض صيغة جامدة لنص موحد، بل بالعكس انها تشجع مزايا مختلف الشعوب ومواهبها وتعمل على تطويرها" (رقم ٣٧-٣٨).

هذه التوجيهات فتحت امكانيات واسعة جدا لم تستغل بعد بالكفاية، ومع ذلك قد يكون بند الليتورجيا والتجديد الليتورجي اكثر البنود المجمعية تطبيقاً وتأثيراً على صعيد القاعدة. فقد نمت حركة تجديد عامة ومبادرات ليتورجية مبتكرة على صعيد الكنائس المختلفة (وضع الشرقيين الخاص: بطء وحذر واستقلالية)، مما بعث في الكنيسة ككل مشاركة فعلية اوسع من قبل المؤمنين في الاحتفال والاقبال على الاسرار، لا سيما الاوخارستيا.

اما السلبيات التي تشير اليها الاجوبة الاعدادية التي بعث بها الاساقفة الى السينودس، فنلخصها كما يلي :

- التجديد الليتورجي تم احيانا من دون إعداد واف للمؤمنين لفهم دوافعه الاساسية. لذا، غالبا ما بقي مقتصراً على المظاهر الخارجية، مثل :الترجمة (لنلاحظ

الترجمات الارتجالية عندنا، الترجمات الفورية الى السورث هنا وهناك) وبعض صيغ التعبير والمشاركة في الحركات (تقديم الخبز والخمر) والقراءات والشهادات العلنية. ويشير الاباء الى فقدان الروح الليتورجية الاصيلة في بعض التجديدات.

- كما لوحظ عنصر التوجه الشخصي المنفرد لبعض الكهنة في ادخال بعض التعديلات او المبادرات، دون العودة الى السلطة .
- البعد الجماعي الكنسي لليتورجيا لم يؤخذ دوماً بعين الاعتبار.
- في الممارسات الجديدة، قطع وبتر افقي لمجرد التقصير او التبسيط (مثال: نافورة السريان الكاثوليك المعدّلة-طبعة ١٩٧٨)
- سقوط شعبية الأعتراف.
- اختفاء كثير من صيغ العبادات الشعبية.

والخلاصة في كل ذلك ان المشاركة الفعلية والفاعلة للمؤمنين ليست فقط في المشاركة الخارجية، وانما في المشاركة الداخلية والروحية والحية في سر المسيح. الليتورجيا يجب ان تساعد في اظهار الجانب القدسي، وينبغي ان يشع منها الاحترام ومشاعر السجود والتمجيد. اعني ينبغي ان لاتؤول الى مجرد اداء مراسيم وحفلات، بل تكون خبرة روحية وصلاة حقيقية وسجوداً واعلاناً للايمان. وينطلق ذلك بالضرورة من فهم الرموز وعيشها، ومن ارضية ايمانية (لا استعراضية) هي التي تعطي المعنى للحدث الليتورجي وتوصله بالحياة.

٣. الكنيسة بصفتها شركة

لقد تميز "لاهوت" الفاتيكاني الثاني حول الكنيسة بابعاد ثلاثة مترابطة، اعطت بالنتيجة منظوراً اكثر "ديمقراطية " للكنيسة، وأولت "القاعدة" ثقلاً أكبر، وهذه الابعاد هي:

- الكنيسة شعب الله.
- الكنيسة الجامعة.
- شخصية الكنائس الخاصة.

نظرة جديدة، اذن، الى الكنيسة يفضلها المجمع: من منظور هرمي رئاسي حيث الرعاة يحكمون ويوجهون، وليس على المؤمنين سوى الطاعة، الى نظرة قاعدية اكثر اتصالاً وتجذراً في الكتاب والتقليد. ولقد شهدنا فعلاً منذ ٢٠ سنة نمطاً جديداً من العلاقات، رغم كل السلبيات بين الاساقفة والكهنة، بين الاكليروس والعلمانيين، واستقلالية اكبر للكنائس الخاصة، ضمن الشركة.

ولكن في الواقع كيف تظهر الشركة بين الكنائس؟

"الجماعية في ممارسة السلطة" (*Collegialité*) هي احدى مفردات القاموس المجمعي المبتكرة وقد جاءت لتكريس المسؤولية المشتركة التي يحملها الاساقفة مع البابا في

ادارة الكنيسة. فكيف تمارس هذة "الجماعية" واقعياً؟- ذلك لان طبيعة ممارستها تنسحب حتماً على طبيعة ممارسة الشركة بين الكنائس:

هناك عدة اوجه لممارسة "الجماعية"، وهي متكاملة في ما بينها، بعضها أنشيء بوحي المجمع، والبعض الاخر ثبته المجمع وأعطاه زخماً جديداً. نذكر اهمها :

أ. **على الصعيد الجامع:**

❁ المجمع المسكوني، وهو اعلى هيئة كنسية جماعية يمارس فيها البابا وهيئة الاساقفة سلطاتهم الادارية والتعليمية. وللبابا، بصفته خليفة بطرس على كرسي روما، موقع الاولوية على رأس هيئة الاساقفة. غير ان المجمع ركز على عبارة "بطرس مع الرسل وليس بمعزل عنهم" (انظر دستور في الكنيسة رقم ٢٢-٢٣).

❁ سينودس الاساقفة العام (انظر القرار في الوظيفة الراعوية للاساقفة، رقم ٥)، ويضم بطاركة الكنائس الشرقية والكرادلة ورؤساء مجالس الاساقفة المحليين. وهو اعتيادي (كل ٣ سنوات)، او فوق العادة (في مناسبات طارئة).

ب. **على الصعيد القطري والاقليمي:**

❁ مجالس الاساقفة، وتتكون من الهيئات الاسقفية لكل بلد، او منطقة جغرافية (انظر القرار في الوظيفة الراعوية للاساقفة، رقم ٣٧-٣٨).

❁ السينودسات البطريركية. وتخص الكنائس الشرقية، وهي اعرق الصيغ الجماعية لادارة الكنيسة.

ولكن هناك مسائل لاهوتية وادارية لا تزال معلقة، تضعنا امام عدة اسئلة، منها:

ما هي الصلة التنظيمية الحقيقية بين الكنيسة الجامعة والكنائس الخاصة؟ اي كيف تطبق الجماعية فعلاً، ادارياً وقانونياً؟

ما هي العلاقة بين الكنائس الخاصة والمجامع الرومانية المركزية؟
سينودس الاساقفة العام حول البابا، هل هو مجلس شورى او مجلس استشاري فقط ؟

ما هو الوضع القانوني واللاهوتي للمجالس الاسقفية والسينودسات الطائفية تجاه السطة البابوية؟ ما هي سلطة مجلس الاساقفة او السينودس الطائفي على الاسقف؟

❁ **المسؤولية المشتركة والوعي المتزايد لدور العلمانيين:**

ان مفهوم الكنيسة "كشركة" لم يتغلغل بعد في ضمير الشعب المسيحي ككل، غير ان تفهماً اعمق لمعنى الكنيسة يحرك مؤمنين، رجالا ونساء، فيقبلون مسؤوليات في

الكنيسة، اكثر فاكثر، ويشاركون اساقفتهم وكهنتهم في الالتزام الفعلي. فعبارة "نحن كلنا مسؤولون عن الكنيسة" تأخذ طريقها في الحسّ الانتمائي الى الكنيسة (حركات الشباب، فرق القاعدة، معلمو التعليم المسيحي العلمانيون، الالتزام في حياة الخورنة، الالتفاف حول الكاهن...). كل ذلك يوحي بدينامية الدور النبوي والرسولي للعلمانيين: بعد عهد التباعد والتخلي (انظر القرار في رسالة العلمانيين. المرأة في الكنيسة التي بدأت تأخذ دورها، ولكنها لم تحتل بعد موقعها الكامل. دور الشباب بصفتهم امل الكنيسة).

الا اننا لا ننكر ان ثمة ازمة ثقة تتحول احيانا الى شك وحذر، بين الاكليروس والعلمانيين، والشباب خاصة.

* القضية المسكونية

اذا لم يكن الفاتيكاني الثاني هو الذي بدأ الحركة المسكونية، فقد اضاف زخماً هائلاً اليها. وقراره في الحركة المسكونية جاء نقلة نوعية زجت بالكنيسة الكاثوليكية في التيار المسكوني بكل ثقلها. فبفضل المجمع توغل الحسّ المسكوني عميقاً في وعي الكنيسة؛ واذا لم يكن الفاتيكاني الثاني "مجمعاً وحدوياً"، كما تخيّله كثيرون يوم اعلانه، فقد كان "الهاجس المسكوني" حاضراً في كل مناقشاته وقراراته. وفي العشرين سنة الاخيرة، اذا لم تُسَوَّ جميع المشاكل والفروقات -وهي ليست بقليلة- فالطريق الذي قطع لا بأس به، بدءاً من التفهم المتبادل والاحترام والجو الجديد الذي جعل المستحيل يبدو ممكناً، الى قيام مؤسسات الحوار اللاهوتي الرسمية واللجان المشتركة وصيغ التعاون المختلفة وتبادل الزيارات والبيانات المشتركة التي تتعمد التركيز على نقاط التلاقي والوحدة.

ذلك كله لا يمنعنا من القول بان هناك خطوات عملية كثيرة، راعوية وفكرية، لا زالت منتظرة من هذا الجانب او ذاك. فالذي تعاني منه الحركة المسكونية في السنوات الاخيرة هو خطر مزدوج يتمثل في تيار توفيقي لا يفصح عن ذاته، للابقاء على الاضاع الراهنة، في سياسة "حسن جوار" مبهمة، من جهة؛ ومن جهة اخرى تلكؤ في المبادرات العملية، النوعية والنبوية، التي لا تتجرأ على الخطوات الحاسمة، لاعتبارات تاريخية او بروتوكولية، ولا يخلو منها تماماً روح الادعاء او الحذر من الابتلاع او فقدان الهوية الشخصية.

٤. رسالة الكنيسة في العالم

الكنيسة ليست مؤسسة تعيش لذاتها، بل مندمجة مع الحياة المدنية. الكنيسة ليست قائمة بوجه العالم، او فوق العالم، او الى جانب العالم، بل هي في العالم ولخدمته؛ وهي بأكملها مأخوذة في تياراته الفكرية وتأثيراته وتقنيته وفنونه، تتفاعل مع افراحه وآماله واحزانه ومعاناياته، وتحمل اليه رسالتها الانجيلية، عبر قنواته الثقافية المتعددة وحضاراته

المختلفة، في جو من الاحترام والتعاون والحوار. والمسيحي في هذا المجتمع ليس عنصراً دخيلاً او متغرباً، انما هو عضو اساس وفاعل ومكّون فيه. تاريخه هو تاريخ شعبه وامته ووطنه.

هذه الافكار التي يحملها الدستور "الكنيسة في عالم اليوم" هي استحداث ضخم في تفكير الكنيسة حول علاقتها بالمجتمع والحضارات، لم يسبقه مجمع آخر. فالمجمع حاول ان يحطم الحواجز التي كانت تفصل الكنيسة عن العالم: حواجز التجاهل، والانفصال، ولربما العداء؛ فلم يعد ينظر الى العالم المعاصر وقيمه بحذر، بل بدالة وايمان، مكتشفاً كل ابعاد هذه الحقيقة ان "الله احب العالم (الانسان) الى درجة بعث اليه بأبنه الحبيب".

هذه المبادئ وجدت صداها واسعاً بعد المجمع في وعي اكبر للمسائل الاجتماعية، وحقوق الانسان، وقضايا العدل والسلام والحرية. كما ان الاختيار الانتقائي لجانب الفقراء وضحايا القمع والهامشيين اصبح جزءاً من فكر الكنيسة (لاهوت التحرير).

تيار آخر دخل في وعي "كنيسة المجمع"، ألا وهو تيار التأصل الثقافي والحضاري للكنيسة والانجيل في الحضارات المختلفة؛ هذا التيار جعل الكنيسة في حالة حوار مع الديانات الاخرى ومع غير المؤمنين. (لاول مرة في تاريخ المجامع المسكونية تصدر وثيقة حول الحرية الدينية).

ولكن التزام الكنيسة المبدئي قضايا الانسان وطموحاته التحررية، تقابله صعوبات جمة على صعيد الممارسة الفعلية وذلك لتغيرات المعطيات الدولية وتوازن القوى والصراعات الاقتصادية والايديولوجية في العالم. وترى الكنيسة نفسها امام فخ وتحدّ، في الوقت نفسه: ان تقول بان رسالتها هي روحية، وتكتفي بالدعوة والتصوف، أو ان تلتزم قضايا الانسان حقاً وميدانياً، مع ما في هذا الالتزام من "تمرغ" في السياسةَ و"مجابهة" لقوى القمع والاستلاب. الكنيسة تحاول عادة إمساك العصا من الوسط، ولكن هل تنجح دوماً؟ وهل تؤدي رسالتها بأصالة ومصداقية على هذا الشكل؟

كما يجابه الكنيسة في عالم اليوم تيار العلمنة، والالحاد، والمادية الواقعية، واللاابالية الدينية، والنسبية العلمية في الاكتشافات الحديثة المتعلقة بالحياة (وسائل التعقيم والتحديد والانجاب) وغيرها..

ان حيوية الكنيسة لن تقاس فقط بالاجوبة التي تعطيها للاسئلة المطروحة عليها، وانما ايضاً وخاصة بالشهادة الحياتية التي تعطيها، كمؤسسة وكشعب الله، للمحبة الفاعلة فيها بالرجاء (أي بالامل والطموح)، ولوضعها مبادئ الانجيل موضع الدستور الذي عليه وحده تبني سلوكيتها وايمانها.. في حياتها الداخلية وفي علاقتها مع العالم.. والمجمع سيبقى يرفدها بالطاقة والامل الى امد طويل.. اننا لسنا بعد الا في بدء المطاف..!

الاب جرجس القس موسى

خصوصية الفكر اللاهوتي
في كنيسة ما بين النهرين

فيما تتطلع كنيستنا العراقية، في ضوء المجمع، الى رسم ملامح مستقبلها، يتحتّم عليها ان تستذكر خصوصيات فكرها ونهجها اللاهوتيين في ماضٍ يحق لنا ان نفاخر به. ومثل هذه النظرة التاريخية الى المدارس اللاهوتية التي اغنت الفكر الديني في بلاد ما بين النهرين، والى اولئك الرجال العظام من ملافنة وادباء وقديسين، والى السمات التي تميز بها لاهوتنا المشرقي... مثل هذه النظرة، اذا تجاوزت التغني بالامجاد والتأوه على الماضي، بوسعها ان تحملنا على استلهام خصائص ذلك الفكر.

على هذا المشروع الجليل يسلط الاب لويس ساكو الاضواء.

نجهل تماما متى وكيف واين بدأت المسيحية في بلاد ما بين النهرين[•]. فالمصادر التي في حوزتنا لا تقدم لنا اية معطيات تاريخية اكيدة علميا عن نشأتها. غير انه من المنطقي ان يكون تلاميذ المسيح قد توجهوا منذ البداية الى الجاليات اليهودية[١] الموجودة في المدائن وحدياب ونينوى والرها، لعدة اسباب، منها: ١. ظهور المسيحية في البدء كحركة يهودية وعلاقتها الوثيقة بالعهد القديم ٢. اللغة المشتركة: الكلدانية– الارامية ٣. قرب هذه المناطق من فلسطين. على كل حال، ان الوثائق التاريخية، كرسالة ابجر وعقيدة اداي واعمال ماري واعمال توما، بالرغم من طابعها الاسطوري، تؤكد تاصل المسيحية في اوساط كلدو-ارامية في مملكتي الرها وحدياب منــذ نهاية القرن الاول[٢]. وقد ساعد على انتشارها ايضا، الاسرى المسيحيون الذي

(•) يقتصر الحديث هنا على الفكر اللاهوتي للسريان المشارقة (الكلدان والاثوريين) وأسميهم ببساطة "المشارقة"، لان الفكر اللاهوتي، لا العقائدي، للسريان المغاربة يختلف عنهم. لاهوتهم متأثر بمدارس الاسكندرية وانطاكية وبالفلسفة الافلاطونية الجديدة، واتبعوا الطريقة الايجابية والرمزية في تفاسيرهم. وسوف اتناول لاهوتهم في مقال اخر باذن الله.

(١) هذه الاقليات اليهودية هي بقايا اليهود الذين سباهم سرجون الثاني سنة ٧٢١ ق.م ونبوخذ نصر سنة ٥٨٢ ق. م.

(٢) افضل ما كتب حتى الان عن نشأة المسيحية في بلاد ما بين النهرين هو كتاب الاب جان فيي *FIEY, J.M.Jalons pour une histoire de L'Eglise en Iraq (CSCO310 Sub36) Louvain1970*

جلبهم الفرس خلال غزوهم بعض المناطق الخاضعة للسيطرة الرومانية، فأخذ عدد المسيحيين يزداد والبنى الكنسية تتكامل بالرغم من المضايقات والاضطهادات. وفي سنة ٤١٠ اصدر يزدجرد الاول مرسوم الحرية المشهور حيث اطلق للمسيحيين حرية العبادة. وعقد اول مجمع كنسي لبلاد ما بين النهرين بزعامة اسحق اسقف العاصمة وضم ٣٨ اسقفا[٣]. ومنذئذ راح المسيحيون يقيمون الكنائس والاديرة والمدارس في طول البلاد وعرضها، وبلغ عدد ابرشياتهم في القرن التاسع ٢٧ رئاسة اسقفية و٢٠٠ اسقفية. في هذا الوسط المتعدد الثقافات وفي هذه الظروف المعقدة، نشأ الفكر اللاهوتي لكنيسة ما بين النهرين.

❋ المدارس اللاهوتية

لقد نشأت المسيحية في بلاد هي مهد الحضارات وملتقى التيارات الفكرية والدينية في زمانها. في هذا المناخ شعرت الكنيسة بضرورة انشاء مدارس ومعاهد لتعليم الدين الجديد وللدفاع عنه ضد تحدّي اليهود والمجوس والبدع المسيحية. وابرز هذه المدارس مدرستا الرها ونصيبين[٤] اللتان لعبتا الدور الطليعي في تكوين وتطور واستمرار الفكر اللاهوتي والروح النسكي والرتب الطقسية في كنيسة ما بين النهرين.

كانت الرها (اورفا الحالية في تركيا) عاصمة مملكة أسروينا (*Osrohene*) مركزاً للفكر والاداب السريانية، اسس فيها افرام حوالي سنة ٣٦٣ مدرسة لاهوتية وجعل لها مجلسا اداريا. ولما اغلقها نهائيا الامبراطور الروماني زينون سنة ٤٨٩، بسبب الخصومات المذهبية، انتقل اساتذتها الى مدينة نصيبين وفتحوا فيها مدرسة رئسها نرساي. كانت الدراسة في المدرستين مجانية ولمدة ثلاث سنوات. في نصيبين كان الطلاب يرتدون زيا موحداً ويسكنون في اقسام داخلية، وكانوا في الواقع يتبعون نظاما شبه رهباني. كان الفقراء منهم يشتغلون اثناء العطلة الصيفية (آب-تشرين الاول) لسد احتياجاتهم. اما المواد الدينية والمدنية التي كانت تدرس في المدرستين فهي: القراءة والخط والقواعد والادب والطقوس والرياضيات والفلسفة والمنطق ونصوص الاباء وتفسير الكتاب المقدس -متبعين التأويل الحرفي التاريخي بتأثير من الجالية اليهودية- والفلك والموسيقى والطب... وكان يوجد في نصيبين مستشفى. وبلغ عدد طلابها في القرن السادس ٨٠٠ طالب[٥]. ونالت مدرسة نصيبين اعجاب الحلقات المثقفة في القسطنطينية. ولقد أعطت هاتان المدرستان كنيسة ما

(٣) كتاب المجامع الشرقية (النسطوربة) طبعة شابو، باريس١٩٠٢ ص٤٠/٢٨٠.

(٤) هناك مدارس اخرى ساهمت في الثقافة الفكرية والروحية، مثل مدرسة ساليق وقطيسفون ومدرسة بيث بغاش ومدرسة جنديشاهبور ومدارس الاديرة: ازلا وبيث عابي ومار كبريل.

(٥) احود ما كتب عنها حديثاً هو كتاب آرثر فوبوس *VOOBUS,A. History of the School of Nisibis, (CSCO266/sub.26) Louvain1965.*

بين النهرين معظم لاهوتييها ومفكريها وكبار اساقفتها الذين قادوا دفتها. ويجدر بالاشارة الى ان البابا اغابيطوس (٥٣٥-٥٣٦) اراد انشاء مدرسة مماثلة لها في روما(٦).

❋ أعلام لاهوت كنيسة ما بين النهرين

ان اشهر آباء ولاهوتيي كنيسة ما بين النهرين الذين صاغوا لاهوتها وارسوا قواعد التعليم فيها، هم: افراهاط، افرام، نرساي، باباي الكبير وعبد يشوع الصوباوي(٧):

١. **افراهاط**: عاش بين ٢٧٠-٣٤٦ في مقاطعة حدياب. كتب٢٣بحثا، تناول فيها العقيدة والاخلاق المسيحية، وعرضها باسلوب مباشر بعيد عن التأثير الغربي(٨).

٢. **افرام**: مات في نصيبين عام٣٧٣. ويعتبر إمام اللاهوتيين في ما بين النهرين لحجم فكره وغزارة علمه(٩). كتب كثيرا. وهذه اهم المواضيع التي تطرق اليها: وحدانية الله، التالوث، المسيح، مريم، الكنيسة واسرارها، قيامة الموتى، والاداب المسيحية. اما تفسير افرام، فرمزي، ولكن مع احترام القيمة التاريخية للنصوص الكتابية(١٠).

٣. **نرساي**: ولد في ضواحي دهوك وتوفي سنة٥٠٢. عالج اركان الايمان المسيحي بعمق ورصانة: وحدانية الله، التالوث، الخلقة، التجسد، مريم، الكنيسة واسرارها، الانسان، الموت والقيامة(١١). نهجه كتابي-فلسفي. حاول فهم الوحي على نور العقل.

٤. **باباي الكبير** (٥٥١-٦٢٧): درس في نصيبين وترهب في دير ازلا. بالاضافة الى الكتب النسكية، وضع باباي كتاباً مدرسياً شاملاً عن الكريستولوجيا(١٢) سمّاه "الاتحاد"، وكان تأثيره حاسماً بحيث غدا الكتاب المعتمد في المدارس اللاهوتية لدى المشرقيين(١٣).

٥. **عبد يشوع الصوباوي**: مطران نصيبين، توفي سنة١٣١٨. عمل في بعث وتنشيط الدراسات اللاهوتية. كتب خلاصة لاهوتية دعاها "الجوهرة"، عرض فيها لاهوت كنيسة ما بين النهرين الرسمي في مرحلته الاخيرة(١٤).

---

(٦) *Mar Abraham Mattam, First Theological University in Christendom, in Christian Orient, March1985, p. 30.*

(٧) للمزيد عن هؤلاء الاباء، طالع البير ابونا، ادب اللغة الارامية، بيروت١٩٧٠ و *Ortiz de Urbina Patrologia Syriaca, Roma1965.*

(٨) نشر ابحاثه باريزو في الباترولوجيا الشرقيه، المجلد الاول والثاني، باريس ١٨٩٤-١٩٠٧.

(٩) اعلنه البابا بندكتس الخامس عشر في ١٥/١٠/١٩٢٠ ملفنان (*Doctor*) الكنيسة الجامعة.

(١٠) طالع ما كتب ونشر عنه في كتاب "مهرجان افرام-حنين" بغداد١٩٧٤ ص٢٢٩-٢٧٧.

(١١) نشر ابحاثه في مجلدين الفونس منكانا، الموصل١٩٠٥ .

(١٢) مصطلح يوناني يعني البحث اللاهوتي لفهم شخص المسيح، تعليمه وعمله.

(١٣) *VASCHALDE, A., Liber de Unione, (CSCO79/80) LOUVAIN1915.*

(١٤) نقلناه الى العربية بعنوان "الجوهرة" خلاصة لاهوتية، بغداد ١٩٧٨.

* سمات لاهوت كنيسة ما بين النهرين

يتصف لاهوت كنيسة ما بين النهرين بأربع ميزات رئيسة، وهي: انه لاهوت كتابي، وتصوفي، ودفاعي، وسلبي.

١. لاهوت كتابي:

ان ارتكاز اباء كنيسة المشرق لم يكن على العقل فحسب، وانما على الوحي بالدرجة الاولى حيث استخرجوا تعليما شاملا من الكتاب المقدس. لذلك اسسوا تفسيرا منهجيا (*Hermeneutic*) لنصوصه، رابطين العهدين القديم والجديد برباط داخلي. واهتموا بايجاد صور لوحدانية الله والثالوث الاقدس والمسيح والكنيسة، ونظما لسلوكهم اليومي من خلال سلوكية اباء العهد القديم: ابراهيم واسحق ويعقوب....[١٥].

اما الرمزية التي استعملوها في تأويلهم للكتاب المقدس، فلم تهدم القيمة التاريخية للنص.

٢. لاهوت تصوفي:

ان لاهوت كنسية ما بين النهرين هو لاهوت تصوفي اساساً، ولربما يعود ذلك الى طبيعة ارضها (صحارى وجبال). فحياة المؤمن بحث متواصل عن الله وسعي حثيث للاتحاد به. يجد كل شيء في الله، والله في كل شيء، واليه يُرجع الاشياء كلها كمبدأ حي لها. هذا التصوف يقود فكر المؤمن الى ما وراء الصيغ الثابتة، الى معايشة يومية للايمان. لذا جاء تعبيرهم عن هذه الخبرة بلغة بسيطة ومحدودة نسبياً[١٦].

٣. لاهوت دفاعي:

غالبا ما يسود لاهوت المشرق طابع الدفاع (*Apology*) بسبب تحديات اليهود والوثنيين والبدع المسيحية من غنوصية ومانوية واريوسية... فلقد رد اللاهوتيون المشرقيون على اعتراضاتهم، مظهرين تفاهة معتقداتهم وسمو المسيحية (المشرقية) واتبعوا طريقة قرع الحجة بالحجة. ان هذا النمط من اللاهوت تبرير للذات، يضع كل اللوم على الجانب الاخر.. وهكذا كان الحال ايضا في مناظراتهم مع المسلمين.

٤. لاهوت سلبي:

ان سر الله، الله الحي، يفوق ادراك البشر، وحتى عندما يكشف الله عن ذاته، يبقى

---

(١٥) ابراهيم، ابو المؤمنين، يبحث عن الوطن؛ لذلك على المسيحي ان يفتش عن الوطن الحقيقي. اما يعقوب فيمثل البساطة والصفاء؛ والسلم الذي رآه انما يوصل الى السماء. موسى، صورة الانسان الكامل، يترك علم المصريين ليقتني علم الله. وهكذا تتواصل الصور...

(١٦) طالع مؤلفات اسحق النينوي وسهدونا ويوحنا الافامي.

سراً لا يفهمه الانسان تماماً، والتعبير عنه عملية صعبة. يتساءل القديس افرام: "كيف نعّبر عن الغنى الالهي بكلمات بشرية فقيرة". أليس الى هذه الصعوبة ايضاً يشير القديس اوغسطينوس في قصة الطفل الذي كان يريد نقل ماء البحر الى حفرة صنعها بيديه؟ ان معرفة الله في تقليد لاهوتيي المشرق لا تعتمد على تعريف ماهية الله، بل على ما ليس هو. لذلك اتبعوا طريقة النفي للتعبير عن سره وسُموِّه. يقول طيمثاوس الكبير:"قولنا ان الله غير مركب، وغير جسدي مثلنا، وغير منظور، وغير مائت، وغير قابل للالم والزوال مثلنا، لا يشير الى ماهية طبيعة الله، بل ليرفع عنها الالام والاعراض التي هي من ميزاتنا نحن"(١٧). هذا ما يؤكده ايضا عبد يشوع الصوباوي بقوله: "حينما نقول ان الله غير منظور، وغير مركب، وغير خاضع للألم والتغيير، لا نقول ما هو، بل ما ليس هو"(١٨). هذا الاسلوب اتبعه علماء الكلام في الاسلام ايضاً كأبي حامد الغزالي. هكذا تتوالى عمليات النفي، الواحدة بعد الاخرى، ويتقدم اللاهوتي ويشعر بعظمة الله الذي لا يحصره حاصر ويقف امام عجزه. وهنا يصبح المطلق هدفاً وطاقة ومعيناً، وتغدو العلاقة به مشروعاً للحياة برمتها ينفذ في الواقع اليومي.

❋ نماذج من لاهوت المشرق

١. التوحيد والتثليث:

ينطلق لاهوت كنيسة ما بين النهرين من سرّ الله الذي هو واحد احد وثالوث اقدس. فالله الذي كشف عن ذاته في يسوع المسيح هو آب وابن وروح قدس، اله واحد وليس اله سواه. منه ينبع كل شيء واليه يرجع. وعلى ضوئه فهم لاهوتيونا أصل الانسان والتجسد والخلاص والكنيسة. وراحوا يؤكدون في مناظراتهم مع اليهود، ثم مع المسلمين فيما بعد، أنهم لا يشكوّن ولا طرفة عين بواحدانية الله، وانهم لا يؤمنون بثلاثة الهة. ولشرح عقيدتهم وتقريبها من فهمهم استعملوا اسلوب المجانسة (القياس). فالله واحد من جهة، وثلاثة من جهة اخرى، مثل الشمس: فيها القرص والضوء والحرارة، ثلاثة اوجه غير منفصلة لحقيقة واحدة هي الشمس(١٩). الله الواحد هو حياة (أب) وهو الكلمة (ابن) وهو محبة -"شَوْتافوتا"- (روح القدس). انها صفات ذاتية، بها يقوم جوهر الله. وينطلق افراهاط وباباي من الانسان-العائلة لشرح الثالوث: ادم وحواء وهابيل(٢٠). هذا يعني ان الله يحمل

(١٧) طيمثاوس الكبير، بطريرك كنيسة المشرق (٧٢٧-٨٢٣)، له عدة رسائل لاهوتية وفلسفية ومناظرة قيمة مع الخليفة العباسي المهدي حول الثالوث والمسيح والانجيل...
Hanna Cheikho, Dialectique du langage sur Dieu, lettre de Timothée à Serge, Rome 1983, p.199

(١٨) ساكو، الجوهرة، ص١٤.

(١٩) استعملوا صوراً اخرى مثل الجسد، الشجرة، التفاحة، النبع، الانسان، عقل وعاقل ومعقول.

(٢٠) افراهاط، البينة ١٨-١٠، باباي، كتاب الاتحاد ص٣٢.

في ذاته مشاعر الابوّة والامومة .

ولقد استخدم المشرقيون مصطلحين فلسفيين لشرح الثالوث أيضا، هما "إيثوثا" بمعنى الوجود ومنها "ايثيا" الواجب الوجود، و"قنوما" وهو صفة ذاتية. استعملوا "قْنوما" بدلا من "فَرصوفا"-الشخص لكون الاخير مستقل وقائم بذاته، في حين ان "قنوما" متحد في "الفرصوفا" وغير منفصل البتة. يقول باباي الكبير: "ان الثالوث الاقدس وجود واحد - "ايثوثا"، "كيانا"- له ثلاثة اقانيم. فماعدا خواص كل اقنوم (ابوّة وبنوّة وروح قدس) كل شيء مشترك. وعندما نقول ثلاثة لا نقصد ثلاثة عددياً، كما اعتدنا على القول ١،٢،٣ بل بالعكس: الواحد يظل واحداً واحداً واحداً.. ان الثلاثة اله واحد أحد، خالق كل شيء[٢١]. هذا المبدأ الفكري المنطقي ينفرد به لاهوت كنيسة ما بين النهرين قبل تأثير فكر الغرب عليه.

٢. يسوع المسيح:

ان عقيدة الاباء الاولين افراهاط وافرام حول المسيح هي صدى لما جاء في الانجيل: المسيح انسان تاريخي كامل حاضر فيه الله تماماً: "نسجد للمسيح لاننا نعترف ان الله حاضر فيه"[٢٢]. فكرهم بعيد عن التعابير اللاهوتية المتاخرة، ويتكلمون عن يسوع مثلما يتكلم الانجيل عنه ويسلكون نفس الخط. يقول افرام: "ان النصوص الكتابية تقدم لنا شخص المسيح الكامل والواضح. ففي قانا، المسيح مدعو الى حفلة الزفاف مع الآخرين بنفس العنوان، لانه ظاهريا مثلهم. الا ان المعجزة التي اجترحها، وبسبب طابعها الفوري ونوعية الخمر الجديدة التي قدمها للمدعوين برهن على قوة الله فيه" (دياطسرون ٢٤).

بسبب الجدالات الكريستولوجية، اقام المشرقيون، مع نرساي وباباي الكبير، منهجا فلسفيا مترابطا، في القرنين الخامس والسادس، يصون ثنائية المسيح الاله-الانسان: "كيانا" هو صورة مجردة لشيء ما، موجود فقط في الفكر، مثلا البشرية. "قنوما" هو الصورة الحقيقية الواقعية لشيء او لشخص ما، مثل حقيقة بولس وحقيقة السماء. اما الشخص (فرصوفا-أپّيه) فهو الوحدة الحياتية الظاهرة لهذه الصورة الفردية، وهكذا فالمسيح هو شخص واحد ذو حقيقتين الهية وانسانية، اي اقنومين[٢٣].

يقول ايشوعياب الجدالي: "نؤمن بشخص (فرصوفا) واحد في المسيح. اله كامل وانسان كامل. اله صار انسانا ليحررنا، وانسان صار الها ليرفعنا الى لاهوته"[٢٤]. ينطلق اباء

(٢١) باباي، كتاب الاتحاد، ص١٧.

(٢٢) افرهاط، البينة ١٧-٦.

(٢٣) ساكو، المشارقة هراطقة ام مستقيمو الايمان، ف. م. عدد١٩٢ (شباط ١٩٨٤) ص٨١.

(٢٤) *SAKO, L., Lettre christologique d'Iso' yahb II de Gdala, Rome 1983, p. 122*

كنيسة ما بين النهرين من اولوية الانسان في "الكريستولوجيا"، مركّزين على المعطيات التاريخية الكتابية عنه وعن رسالته، في حين ركزّ السريان الغربيون، بتاثير المدرسة الاسكندرية، على الناحية الالهية.

٣. مريم ام المسيح:

للمشرقيين تعلق كبير بمريم، وطقوسهم خير برهان على ذلك(٢٥). يؤمنون ببتوليتها وبانجابها المسيح. سموها السيدة والطوباوية وام الرب وام يسوع. نظرتهم اليها كتابية معتدلة، لان الميسح هو كل شيء. لم ترد عندهم عبارة "والدة الله"(٢٦) البتة، حتى عند افرام الذي يعتبر شاعر العذراء، وذلك لرفع الالتباس، كأن يفهم بانها انجبت الله او انها الهة كما في الاساطير الوثنية، او ان الله اتخذها له صاحبة. مريم تبقى انسانة ولها دورها في سر التجسد. يقول مجمع الاساقفة المنعقد سنة٦١٢: "كيف يقدر من يدعو العذراء القديسة بالعبارة المجردة "والدة الله" ان يتجنب كفر الذين ينكرون بشرية المسيح؟ وكيف يقدر من يدعوها بمجرد "والدة الانسان" ان يجابه الذين ينكرون لاهوته؟ بما ان اسم المسيح يتضمن اللاهوت والناسوت، فتسميتها "والدة الميسح" تزيل كفر من ينكرون لاهوته ومن ينكرون ناسوته"(٢٧). هذا الطرح اللاهوتي- قبل نسطوريوس— هو باعتقادي ردّ فعل على المجوس الذين كانوا يؤلّهون الاشخاص والاشياء.

٤. الكنيسة

الكنيسة هي جسم المسيح الكبير وعروسه (افرام، الترانيم النصيبينية١٧،١٩). وهذه اشارة الى الالفة الكبيرة والرابطة القائمتين بين المسيح والجماعة. في البداية سموها "قياما" اي العهد (افراهاط، البينة ٦) لطابع العهد الذي يربط المعمَّد بالمسيح. والعماذ يتضمن القسم العلني الذي فيه يعلن المرء انتماءه الى المسيح والتزامه بتعليمه. ويشير الاباء كلهم الى الدرجات الخدمية الثلاث في الكنيسة، أي الاسقفية، والكهنوت، والشماسية (وهذه الاخيرة مشتركة بين الرجال والنساء). الاسقف هو السلطة العليا فيها، فهو قائد الكنيسة المحلية ورأسها، الا انه لا ينبعي ان ينفرد بالقرارات، بل عليه ان يختار مستشارين له (افرام، ١٨-٩). وهنا يشير افرام الى المجالس الابرشية التي كانت موجودة في كنيسة بين النهرين والى العمل المشترك والروح الديمقراطي الذي كان اساس وحدتها. الكنيسة واحدة،

(٢٥) للمشارقة ثلاث اعياد للعذراء فقط: تهنئتها (ثاني يوم عيد الميلاد) تماما كما يفعل الاهل والاصدقاء في بلدنا بولادة طفل. حافظة الزروع طلبا بركتها على المزروعات. وعيد الانتقال، ويعني انها نالت نفس مصير ابنها لانها كانت متحدة به. اما الاعياد الاخرى فقد اضيفت فيما بعد.

(٢٦) ان لقب العذراء "والدة الله *Theotokos*" جاء من مصر "*Manou thi*" وكان لقب الالهة ايزيس. عمّده الاباء الاسكندريون بعد ان حددوا المعنى الدقيق الذي يقصدونه.

(٢٧) كتاب المجامع، ص٥٩٢.

مقدسة، رسولية، مؤسسة على بطرس والكتاب المقدس (افرام وافراهاط). وتتمتع الكنائس المحلية باستقلالها الاداري: "اسقف المدائن هو لنا بمثابة بطرس وهو رئيس جماعتنا الكنسية"(٢٨)

هذه اربعة نماذج من لاهوت كنيسة محلية هي جزء من الكنيسة الجامعة تعكس عبقريتها الشخصية. ولكن الايمان يبقى قضية حياتية اكثر من مجرد محاولة فلسفية- ميتافيزيقية!

❋ دور اللاهوتي المعاصر

اللاهوت بحث واجتهاد ومحاولة وليس عقيدة. انه علم، وككل علم خاضع للتطور عبر الزمان والمكان، والا فقد اهميته. والكنيسة كائن حي يجب ان ينمو عبر الاجيال، والايمان الذي تسلمته من المسيح ليس حرفا جامدا بل هو روح حي. هذا ما أكده البابا يوحنا ٢٣ في خطاب افتتاح المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، اذ قال: "انه لمن الضروري تعميق وتقديم هذا التعليم الاكيد والثابت بحيث يجيب الى متطلبات عصرنا. فوديعة الايمان شيء والصيغة التي فيها يعلن شيء اخر". الصيغة تتبدل من شعب الى شعب حسب الواقع الحضاري والوضع الحياتي، وهذا ثراء للجميع لا تفرقة.

يستقي اللاهوتي الحقيقي في كل زمان جدول اعماله من واقع معاصريه، لان نشاطه يرتكز اساسا على خدمتهم وإسعادهم. وفي هذا الاطار يسعى الى التوفيق بين الايمان والعقل والوجود، من خلال اقامة روابط بين كلام الله وخبرة الانسان، بتعابير قريبة الى فهم مواطنيه. لذلك لا يمكنه البتة ان ينفصل عن التراث الديني الذي وصل اليه من الكتاب المقدس واباء الكنيسة والليتورجيا والتاريخ واللاهوتيين الذين سبقوه، ويعود دوما الى هذه الينابيع الصافية التي يجد فيها الروح والاصالة ليغذي امانته تجاه الحاضر. ان لاهوتنا الحالي يكاد يكون بأكلمة غربيا، لتفوق الغرب وانفتاحه على معضلات العصر والعلوم الحديثة. ويعتقد الكثيرون منا انه البديل الوحيد المتاح. الا ان في هذا الاعتقاد كسلا فكرياً. فكنيستنا لا تزال، كما كانت قبل المجمع، تعيش في الماضي غافلة عن الحاضر وغير مبالية بالمستقبل. واذا اردنا لها وجودا فعّالا مؤثرا وجب علينا:

١. دراسة فكرنا اللاهوتي وتعميقه بعقلية ناضجة منفتحة، عقلية تعتبر من كل شيء، سلبيا كان ام ايجابياً. وهذا الاتجاه بوسعه ان يزيل كثيرا من الشبهات ويساعد على الدخول في حوار بناء مثرٍ مع الآخرين.

٢. اللاهوت الذي نسير عليه اليوم يعكس واقعاً وفكراً ولغة غير واقعنا وفكرنا ولغتنا اليوم.

---

(٢٨) كتاب الجامع، ص٥٠-٢٩٤.

لذا من الطبيعي ان نفكر بصيغة تعبيرية حيوية اخرى، تأخذ بعين الاعتبار ظروفنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية -والغالبية المسلمة التي نعيش معها- مع بقائنا امينين على الانجيل، تماما كما فعل افرام وافراهاط ونرساي...

في اعتقادي ان المعهد الكهنوتي هو المؤهل اكثر من سواه للعناية برسم خط واضح اصيل مستمر للفكر المسيحي لبلادنا، على غرار ما تقوم به المعاهد الكهنوتية في الهند وافريقيا. فهل تُرانا نحقق وجودنا؟ نقوم ونتحرك ونعيش ام نبقى على جمودنا فنموت؟!

الاب لويس ساكو

التعليم المسيحي بين جيلين

الصراع قائم بين جيلين، على مختلف الاصعدة وفي كافة الميادين. تلك هي سنّة الحياة، ولكن هل كتب على هذا الصراع ان يبقى الى ما شاء الله؟! كلا، ويتعلق تقليص الهوّة بين الجيلين بقابلية كل انسان على التفاعل والتكيّف والتطوّر ...

هكذا هو الامر في "قضية التعليم المسيحي" التي كانت ولا تزال من القضايا الكبرى التي يتعلق بها مستقبل الايمان، وقد آن لكنيستنا العراقية ان تواجهها باقصى ما يمكن من الجدّية.

الاب يوسف حبي -وقد سعى من اجل تعليم مسيحي جاد واصيل في مضمونه واسلوبه- يحدّد مرتكزات اساسية تمكّن واضعي مناهج التعليم المسيحي والمعلمين والمربين من تقديم جوهر الايمان، في اطر واساليب جديدة تلج الى قلب الانسان وتتجاوب مع حاجاته وتطلعاته. فمن خبرة ٢٠ عاماً في تيار المجمع، يعود الاب حبي فيطرح على ضمير كنيسة العراق قضية هي الرقم ١ بين الاولويات.

حين قُدمّتْ لي المادة لكتابتها، ترددت في القبول، اذ انتصب امامي عشرات الأشخاص الذين اعرف اعتراضاتهم على" التعليم الميسحي المعاصر" و" الثقافة الجديدة"، و"الجيل الجديد"، لانهم نشأوا على التعليم الكلاسيكي، وهم مولعون بكل ما هو قديم، وكيف لا؟ فهم من الجيل السابق، وعليه باقون. ولكن، سرعان ما طمأنت النفسَ، لأني من اكثر محبيّ التراث والتاريخ، فلا أتحامل على القديم، ولا أتجنى على الماضي.

وتساءلت: متى تكوّن الجيل الجديد؟

وكان الجواب سريعا وحاسما: لم يبدأ قبل سنوات، انما ظهر بوجود أول جيلين في الدنيا، فكان ثمة جيلَ أسبق، وجيل لاحق، جيل قديم وجيل جديد، وكان الفرق بين جيل وجيل، وسَمّى جيلُ الكبار جيل الشباب "بالجيل الجديد" منذ اقدم العصور. وكلما ظهرت نزعة ثقافية مغايرة للنزعة السائدة، قيل انها ثقافة جديدة! ولن أخفي حقيقية تكمن في اعتراضات الجيل القديم على الجديد، في أيامنا، وعدم التوقف لدى ما ألمحت اليه وحسب، انما في نمط التفكير وبنى المفاهيم واساليب الحياة، وما يتضمن ذلك من طروحات ايديولوجية وممارسات واقعية مغايرة لما سار علية السلف، بحيث نجم عن ذلك اختلاف جذري وتباين وجودي واضح بين العقليتين.

منذ ان أرسى الفكر الجديد دعائم تأملاته، ووطّد العلم مبادءه ونظرياته، حدث التباين بين الجيلين، فجيل يرفض وجيل يقبل، جيل ينقد وجيل يساير، جيل يبدع وجيل يقلّد. وبين "التقليد" و "الحداثة" مواقف، بل مشاكل، وصدامات، هل مكتوب لها ان تظل أبد الدهر؟ كلا، ان اتضحت الامور، وتم قبول ما يمكننا بتسميته (ألفباء) الفكر السليم، وسلوك هذه الدرب... فالتطور سُنَّة الحياة، بينما تظل الاختلافات الطبيعية قائمة مدى الاجيال.

❊ألفباء الفكر السليم

نستعرض في هذه العجالة أهم ركائز الفكر الانساني والديني السليم، أي ما ينبغي ان يأخذ به كل انسان مهما كانت نزعته الفكرية، وفلسفته، ولاهوته، في فترة عرفت التنامي، والتقدم، والنضوج، فبات من المستحيل التوقف لدى معطيات سابقة، عتيقة، بدائية. فالثقافة غذاء الانسان، كالنور والماء والهواء، ان لم يغترف منها المرء، آل به الامر الى الهزال والنحول فالموت. ومعلوم بان المرء، انما على ركائز صحيحة يشيّد ما يريد ان يصنع: بيتا أو قصرا أو مدرسة أو معبدا. ولا يقوى أحد ان يبني على ركائز غير اكيدة وصالحة ما هو جدير بالبقاء و الاعجاب.

١. أول هذه الركائز مفهوم الانسان:

فان انت اخذت بمفهوم انسان مركب من نفس وجسد، تهبط روحه من العلاء لتحلّ في جسد هو سجن، وعليها طيلة العمر أن تعمل لكي تتحرر منه وتصعد طليقة الى سماء فوقية... لا يسعك والحالة هذه الا ان تختلف عن آخر يعتبر الانسان كائنا غريبا ملقى في الكون صدفة، ليس له ان يفقه أصله ولا يمكنه التوصل الى معرفة مصيره وهدف الحياة. وتختلف بذلك عن آخر يفهم الانسان نواة يزرعها الله في قلب الوجود لكي تنمو بفضل عوامل متعددة، فتغدو انسانا متكاملا من شتى المناحي الروحية والنفسية والمادية، وتبلغ قامة او شخصية تخلد الى الابد بفضل التنامي والتطور والاصالة والتماثل والانسجام والعطاء. ونحن ناخذ بهذا المفهوم الاخير.

٢. مفهوم العالم:

كان الناس قديما يتصورون العالم وحدة متكاملة منغلقة وساكنة، في أعلاها الله علّة كل العلل، والانسان قطعة من النظام الكوني تسيّره العلة الاولى كما تشاء، بحيث تنتفي حريته، لان ألواح القدر موسومة في اعلى منذ الازل! بينما يفهم الفكر السليم العالم والكون بمثابة رائعة الله، صنعها قابلة للنمو والتطور والارتقاء، بفضل الانسان اسمى مخلوقاته.

٣. مفهوم الله:

لقد عولج هذا الموضوع اكثر من مرة على صفحات المجلة، فاتضح ان مفهوم الله بمعنى الاله المجهول، البعيد، الغريب، المشترع، الديان، المسيّر كل شيء بحسب هواه، بشكل عجائبي سحري... هو مفهوم لا يتماشى مع معطيات الانجيل ونزعة الفكر المعاصر، لان الله كشف ووحي ونور، وهو اب ومحبة ورحمة، خلق الانسان حراً، ووضع فيه قابليات النمو والابداع.

٤. مفهوم الحق:

البون شاسع بين ان تعتبر الحق كنزا تمتلكه، ومؤونة أفكار ومعلومات وحقائق يمكنك اكتسابها بسهولة، فتعتاش عليها، مجترا مفرداتها متى شئت... وبين ان تعتبر الحق شمسا تغمرك وتغمر الكل، ولا يمكنك ان تحظى سوى بانوار من أشعتها اللامحدودة. الفرق كبير بين ان تعتبر الحق محطة تصل اليها بطريقة او باخرى، وبين اعتبارك الحق تسعى اليه لكي تنعم بسعادة الفكر والقلب، وذلك حين يحتويك كيان الحق الرائع وكنه جوهره العميق. ونحن نرفض الحق الجامد، وناخذ بالمفهوم الاخير.

٥. مفهوم الانجيل:

لا بد ان نشير الى مفهوم الانجيل، فنقول انه ليس كتابا سجل فيه أربعة اشخاص حياة يسوع المسيح وحسب، ولا سفراً ضمّ تعاليمه مدونة كحقائق وعقائد جاهزة، جامدة. الانجيل بشرى خلاص، حياة ايمان، كشف مستنير، وشهادة من آمنوا بالبشرى، وبالحيّ بيننا، فهو غذاء روحي يومي.

٦. مفهوم الكنيسة:

وليست الكنيسة مجرد مؤسسة أو مجتمع فيه رئاسة وانظمة واجهزة وتعاليم وتقاليد وطقوس وبنايات وتراث، انما الكنيسة شعب مؤمن بالله ومسيحه، وجماعة تحيا الحب والاخوّة والمشاركة بانفتاح وعمق وأمل، وبشر يسعون نحو الافضل والاكمل والاجمل، الكنيسة خميرة وحبّة خردل نامية وملح ونور.

نكتفي بهذا القدر، لكي نلج في صلب الموضوع.

◈ تعليم الكنيسة والتعليم المسيحي

ونتساءل: ماذا يعني في المفاهيم المعروضة ما نسمعه يتردد على الالسنة بكثرة: "تعليم الكنيسة"؟ وهل تعليم الكنيسة هو عينه "التعليم المسيحي".

الكل يعرف بان المسيح لم يترك دينا جاهزاً، بمعنى انه لم يناد بتعليم ديني مكّون من نقاط واضحة العدد والمعالم، وعقائد محددة المصطلحات والارقام، ووصايا مشخصة وقواعد سلوك ثابتة معينة؛ بل أرسى دعائم حقائق ومبادئ فيها من الروحية والعمق والشمولية والخلود ما يسمح للكنيسة، جماعة المؤمنين، ان يستخلصوا منها، ويرسموا، ويحددوا، لكل الازمنة والامكنة، ما يتلاءم مع واقع الحياة، وفقا للأسس والمثل.

ومضى المسيح أبعد من ذلك. فندد بالتحديد المادي والتجميد المتقوقع، ورفض الصيغ والانماط المصطنعة الظاهرية المزيفة، مذكّراً دوما بالاصول، والجوهر والمثاليات، بحيث بات لا يحق لاي كان ان يقدّم كتاب "تعليم مسيحي" يحتوي كل المسيح، أو يخط لوح تشريعات مسيحية تصلح للجميع مدى الدهر، إلاّ من باب التبسيط والتقريب. وان أي اجراء من هذا القبيل قد يؤدي الى طمس بعض الحقائق وخنق بعض المثل، وتشويه المفاهيم الاصيلة لبشرى الخلاص. لنذكر ما قلناه بشأن الحق والانجيل.

ونحن لو استعرضنا تاريخ الكنيسة، لألفينا جملة محاولات أريد فيها وضع كتاب للتعليم المسيحي يشتمل على كل ما في المسيحية من أصالة وعمق، وان يصلح لكل زمان ومكان، فباءت المحاولات بالفشل، لا سيما عندما شاء اصحابها تبني فلسفة ما والتقيد بمصطلحات معينة والتركيز على ممارسات خاصة. وللتأكيد على محاولة واحدة شهيرة، نذكر "التعليم المسيحي" الذي وضعه المجمع التريدنتيني في القرن السادس عشر. ترى هل يخطر ببال احدنا اليوم ان يتبناه كتاب دين في مراكز التعليم المسيحي؟ ليجربوا ان شاؤا..

واذا ما كانت الحال هكذا، فهل يعني انه من الخطأ وضع كتاب للتعليم المسيحي؟

والجواب: كلا وابدا. لا بد من وضع كتاب وكتب للتعليم المسيحي، شرط ان يتوخّى واضعوها التأكيد على (جوهر) المسيحية باصالتها وعمقها، وان يعرفوا بان كتبهم ليست الانجيل، انما محاولات تقريب وتبسيط، تاركين المجال لآخرين لكي يقوموا بمحاولات مماثلة. فاللوحة رائعة، والالمام بكل الجوانب والابعاد والملامح ليس أمرا هينا، والحقيقة شمس تغمرنا، لا نحتويها نحن، والانسان نمّو وتطور، والاساليب ليست قوالب أبدية.

لذلك كانت ثمة "كتب"، لا كتاب واحد للتعليم المسيحي، منها رسمية، أعني صادرة عن السلطة الكنسية، ومنها غير رسمية، أعني ألفّها أشخاص ولجان لاستعمالات مختلفة، بكل اللغات وفي سائر المناطق، عبر التاريخ كله. وكثيراً ما يدفعنا الكسل والاكتفاء الى الابقاء على الكتب عينها دونما تجديد.

ويخلط الكثيرون بين ما يسمى "بتعليم الكنيسة" وبين ما يصطلح عليه "بالتعليم المسيحي". فالمقصود بتعليم الكنيسة تلك الحقائق الايمانية التي اصطلحت عليها الكنيسة، رئاسة وشعبا وكنائس، عبر التاريخ، كمقولات اولية مستقاة من الانجيل الحي، خلاصتها في (قانون الايمان). اما التعليم المسيحي، فهو كتاب أو كتب، يضعها مؤلفون معينون،

يعرضون فيها جوهر المسيحية ايضا، انما باساليب وألفاظ وسياقات تختلف باختلاف مستويات الاشخاص الموجهة اليهم، ووفقا للظروف المختلفة.

وليس من الضروري بمكان ان يتناول أي كتاب من كتب التعليم المسيحي جميع تعاليم الكنيسة، لان التعليم المسيحي خاضع للمراحل التكوينية للناس والثقافة. ومعلوم بان الثقافة لا تكون متكاملة الا اذا كانت متنامية، تبدا من الصغر، وتستمر مع مراحل الحياة تطورا بالحجم والعمق، لذا لا توجد مرحلة معينة واحدة لتلقي الثقافة الدينية، ولو كان التركيز على الصغر؛ بل ينبغي ان تكون جميع المراحل مهيأة للتثقيف، وبشتى الوسائل الممكنة، ولا سيما وسائل الاعلام والنشر من كتب ومجلات واشرطة وافلام وندوات ومناقشات ودروس. اما ان يحشر دماغ الطفل بمعلومات ومصطلحات كنسية، ليست من الانجيل عينه، بحجة اصطياده قبل فوات الاوان وتحفيظه تعليم الكنيسة، فامر غير مقبول تربويا، ولا داعي له.

وحصل التشابك بين تعليم الكنيسة والتعليم المسيحي عندما شاء البابا بيوس العاشر ان يقرّب الصغار من التناول، فتّم وضع كتيب صغير، ما يزال بعضكم يذكرونه، مطلعه (-أانت مسيحي؟ - نعم انا مسيحي بنعمة الله تعالى. — من هو الله؟ - الله روح محض... الخ)، هو خلاصة مركزة للتعليم التريدنتيني والفاتيكاني الاول، كان على الكهنة ومعلمي الدين ان يلقنوّه الصغار حفظا، وظل هذا الكتاب قيد الاستعمال حتى سنوات خلت، لا سيما في البلاد التي كانت فيها حركة النشر ضعيفة، كبلادنا.. ثم كان التحديد..

سيقولون لك: لقد كان الكتاب المذكور يشمل على خلاصة الدين المسيحي، بينما نلقى الكتب الحديثة خلواً من "تعليم" دين مسيحي، أفليس من الأولى الابقاء على القديم؟

✻ عقلية واساليب جديدة

حين استحدث ديكارت الفلسفة الحديثة، وعندما قامت الثورة الصناعية، ولما عرفت العلوم تحديداتها وشكلها العلمي، تمّ التحرك والتحول، وحدثت انقلابية حقيقية على كل صعيد، واعترى بعضهم الخوف، بينما اتخذ غيرهم مواقف الريبة والحذر. والمفروض ان لا يخشى أحد بأسا: فالجوهر هو الجوهر، والهدف هو الهدف، والاسس والاصول والروحية هي عينها، وبوسع كل ما عدا هذا ان يتحرك، ويتغير، ويتخذ أنماطاً ومسيرات والوانا، وما الضير في ذلك؟ ولم لا؟ وكيف يسعنا الابقاء على مصطلحات فلسفة لم تعد مفهومة، واساليب لم تعد مقبولة؟

هل تسمحون لي ان أواصل الحديث، مستعينا بتجربتي الشخصية في حقل التعليم المسيحي والتثقيف الديني منذ عشرين سنة؟ اظنها تجيب على تساؤلات الكثيرين.

في اواخر سنة ١٩٦٦ عدت الى الوطن العراق، بعد اكمال دراسات عليا في اوربا، وما ان استقرت قدماي في الموصل حتى قال لي مطراني يومذاك: "عليك بالشباب". وكانت الاخوية المريمية نشطة، فاستلمت ارشاد الشباب، وعاونت في ندوة الموظفين، وكانت تضم ذكورا فقط، فجعلناها لكلا الجنسين حتى عرفت عهدا ذهبيا من حيث التثقيف المركزّ والنشاطات والفعاليات المتنوعة. وكان التعاون مع فرق الاخوية المريمية في الموصل وبغداد وكركوك والبصرة وابرشيات الشمال. ثم نشطت ندوات الجامعيين والشبيبة الطالبة في بغداد والموصل، فحظي قطاع الشباب برعاية الكنيسة، ثم كانت دورات لاهوتية للعلمانيين، وأزيح الستار عن جمود النشر. فكانت حركة تثقيف، وكان لا بد من ان تثار جملة مشاكل، أهمها مشكلة الجيلين، فكان العاملون في حقل التعليم والتثقيف والشباب يصطدمون بمعارضة بعض الاهالي ورجال الدين، واسلحة الآخرين معروفة: التشهير بالاساليب المتبعة، باللقاءات، ولا سيما بالاختلاط. وكان أنصار الجيل الجديد يبذلون ما في وسعهم لكي تكون الامور جيدة والاجواء سليمة. ولن تخفّ المعارضة الا بعد ان شهد عراقنا تطورا ملحوظا في مجالات مماثلة، أهمها مشاركة المرأة في شتى ميادين الحياة؛ فجازف بعض الكهنة، واقاموا التجديد داخل الكنائس وضمن الطقوس، وكان للشباب والعنصر الانثوي دور مشاركة حقيقة.

وطبيعي ان تنشط دورات التعليم المسيحي للصغار، فمعظمهم لا يشملهم التعليم الديني في المدارس، لذا بات من الضرورة بمكان فتح مراكز كنسية، ولكن... أين المكان الملائم، والكادر التعليمي، والمناهج الخاصة، والوسائل التعليمية؟ كلها عقبات وذرائع كم تشبث بها بعضهم لكي تظل الكنائس اماكن صلاة ودور عبادة، فردية او شبه فردية، وهياكل طقوس روتينية، لا "أما معلمة"؛ واذكر اننا اكتفينا احيانا بافتراش الارض في كنائس مهجورة متهدمة، او باستخدام غرف غير مكيفة أيام الحر الشديد.. ولا ابالغ ان قلت ان معظم كنائسنا ما زالت تعاني من هذه النواقص، بينما يصرف على أمور ثانوية مبالغ طائلة؛ وكثيرا ما يضطر الكهنة والكادر التعليمي الى تجميع الطلبة كلهم في صف واحد، فتنتفي الفائدة المتوخّاة بسبب فارق الاعمار والمستويات الثقافية. وكم عانينا لتكوين كادر تعليمي مؤهل، اذ ليس صحيحاً أن أي كاهن وراهبة ومؤمن صالح للتعليم.

ودعوني اشرح لكم لماذا كنت احد العاملين على تحريك كتب التعليم الديني للصغار، كما على ادخال اناشيد والحان جديدة في الكنائس. انها حادثة تشرح جملة أمور.

كنت أعلّم اولاد التناول تلك الخلاصة النظرية التي اشرت اليها، وكانت ألحان المناسبة (التناول) مرسومة ثابتة. من يجرؤ على تغييرها.. نشيد الدخول (قد اتى اليوم)، واثناء القداس (هلم هلم سواريف ربي)، ثم نشيد (اليوم كنت راكعا اصلي)، ثم (حبك يا مريم)، ولتجديد مواعيد المعموذية (عبد أنا على الدوام)، ونشيد الشكر والخروج

(قد شبع الجنان)... ولم اتحمل بعض الكلمات التي تعكس مفاهيم خاطئة. اذ يقول نشيد (اليوم كنت): "الكل حقا الى الموت واصل/والعمر ايضا كالظل زائل". ونحن نُعلّم أطفالا، بعمر الورود، حب الله والقريب والحياة، وعلينا ان ننفح فيهم نسمة الامل للنمو والتكامل على مثال المسيح، في الحق والحب والسخاء، فهل من المنطقي والاصول التربوية ان نضع امامهم منذ الساعة علامة الموت، وبمفهوم يتعارض مع القيامة والخلود، وفقا لما ألمحنا اليه من مفاهيم؟... وهذا النشيد الآخر الذي مطلعه (عبدٌ انا على الدوام..) أليس منافيا لقول المسيح (لست ادعوكم بعدُ عبيدا.. أنتم اصدقاء. واحباء، واخوة)؟.

ورجعت الى المفاهيم اللاهوتية، والايمانية، والانجيل.. فكان لا بد ان اطالب بالتغيير، ولاقيت الاعتراض الابدي: هل كانت الكنيسة مخطئة؟ وماذا نفعل، فقد تعوّد الناس على هذا.. وكان لا بد من اصرار، وصمود.. وربحنا المعركة، وكان كتاب (يسوع حياتي) في الموصل، ثم (خبز الحياة) في بغداد، ومحاولات أخرى. وراح معلمو ومعلمات التناول الاول يبحثون كل سنة، عن اناشيد جديدة اكثر ملاءمة، ويستعينون بكتب ووسائل ايضاح مختلفة، ويهيئون حفلة دينية أقرب ما تكون إلى وليمة عشاء المحبة (العشاء الاخير، كسر الخبز)، ملحّين على المشاركة الروحية للاولاد واهاليهم: فكانت لقاءات بالاهالي، وقداديس خاصة، ومقاسمة الاهل المناولة مع الاولاد، فالتناول فرصة نادرة للتربية الدينية.

ما ذكرته بشأن التناول، بوسعي ان أعممه على التعليم المسيحي ككل، كما على الطقوس والمناسبات الدينية، اذ راح رعيل الكهنة "المجددين" يرفضون القيام بذلك روتينيا، ويجهدون النفس في اعداد المناهج والكادر والوسائل، مستعينين بكتب وخبرات يستقونها من كل مكان، فكانت نهضة محمودة اعطت للاسرار معانيها، وللطقوس قيمتها، وللتعليم مفهومه... فهل يلامون على ذلك؟ أم يُحمدون، ويحتذي الكثيرون بهذا التجديد الذي طالب به المجمع المسكوني منذ عشرين سنة، وهو من روحية المسيح والانجيل والآباء، وسمة من سمات العصر ومتطلبات الانسان الجديد؟

* نحو توحيد المناهج

ان محاولات توحيد المناهج قديمة في تاريخ الكنيسة. فمنذ القديم نلقى كتبا أريد لها ان تقدم (خلاصة) الدين المسيحي، فافادت دون ان تحتوي (التعليم)، وكان لا بد دوما من العودة الى الاصول والجذور: حياة المسيح واقواله، شهادة الرسل الايمانية، نصوص الانجيل، كتابات الاباء، وحياة الكنيسة. وكلما ازدادت التيارات المذهبية وعصفت رياح الاراء والتأملات، كلما حاولت الكنيسة توحيد الكلمة، لا سيما على الصعيد الرسمي، فكانت المجامع، والتحديدات العقائدية، والاختلافات والخلافات... فعمليات التوحيد لا بد ان تستبعد أمورا لكي تبقي على أخرى، وصعب الالمام بكل شيء.

ولما انتصر اصحاب التعددية والجماعية في المجمع المسكوني الاخير، كان من

المتوقع ان يعمل آخرون على المطالبة بتوحيد التعليم، حجتهم عدم التشتت والتناقض؛ فشكلت، بعد عشرين عاما على المجمع، لجنة لوضع (التعليم المسيحي العام) برئاسة ١٢ كردينالا واسقفا، عليها ان تنهي عملها سنة ١٩٩٠، وفقا لتوصية مجمع الاساقفة الاخير: "تعليم مسيحي أو خلاصة، يشمل التعليم المسيحي على صعيد الايمان والاخلاق". ولدى الاستفسار من احد الاساقفة الاعضاء عن مصير الكتب العتيدة للتعليم المسيحي المؤلفة في كل البلدان، أجاب على الفور: انها لن تتأثر بشيء، لان التعليم العام سيكون "مرجعا" وسيرسم "خطوطا عريضة"، تاركا لكل بلد وكنيسة ولجنة ومؤلف حرية المنهجية والاساليب واختيار المفردات والوسائل، وتكييف كل ذلك وفقا للاعمار والاوضاع والثقافة.

لذلك كنا نطالب دوما بتشكيل لجنة للتعليم المسيحي على صعيد البلد. وقد قامت اكثر من لجنة، ولو ان بعضها كان شكليا، اعطت نتائج ايجابية، أهمها نشر كتب التعليم. ونظل بحاجة الى لجنة موسعة شاملة، ذات اختصاصات مختلفة، وسكرتارية فاعلة، لاخراج كتب جيدة من حيث المادة والاسلوب والطباعة، للطلبة وللمعلمين. ولا بد هنا من تسجيل الشكر لمحاولات تمت في بغداد والموصل بهذا الشأن.

وليسمح لي أن أبدي ملاحظة حول الرأي القائل بان ثمة تعليما "كاثوليكيا" وآخر "ارثوذكسيا". أقول: ان التعليم المسيحي واحد اساسا، والاختلافات الثانوية لفظية فلسفية بشرية، كما عبرت الكنائس عن الامر في مواقف رسمية عدة مرات. واذا كان البعض يحاولون التشبث بها لامر أو لآخر، فليتركوها على الاقل للمراحل المتقدمة والمتخصصة، اما حشرها في كتب الصغار، فانتقاص من المسيحية الشاملة وتعطيل لحركة الوحدة المسكونية. ولعل تجربة الكتب الرسمية ناجحة، لولا ما يعاب عليها، كونها ضمت خلاصة نظرية صعبة باسلوب يتوخى الحفظ لا الادراك والاستيعاب، مع انها لاطفال المدارس الابتدائية. كما ينبغي تجديد أمثال هذه الكتب بين الحين والآخر لئلا تبقى جامدة، فهي ليست منزلة.

✵ وأخيراً وليس آخرا

هل كتب التعليم المسيحي والوسائل التعليمية، والثقافة المسيحية بشكل عام، عندنا بخير؟ لا يمكننا اعطاء جواب واحد وعام، لان ثمة كنيسة أو مركز تعليم يستفيد من أحدث المناهج وسبل التثقيف والوسائل، فيأتي بنتائج طيبة، وثمة أقل من ذلك، بل وعدم اهتمام. ويقع اللوم الاكبر على انتفاء التنسيق والتنظيم، وهو نقص تعاني منه كنيسة العراق بشكل مفضوح. لذا نتمنى:

١. تشكيل لجنة تضم متخصصين في اللاهوت والتربية الدينية والوسائل التربوية والتعليمية، وتضم جميع الكنائس والابرشيات، وتعمل بشكل دائم، ولها مركز وسكرتارية.

٢. فتح دورات متخصصة لاعداد كادر جيد يعمل في حقول التثقيف الديني المتعددة.

٣. تعديل المناهج الحالية، وتوفير مناهج لكافة المراحل بالمواصفات الصحيحة.

٤. تشجيع المبادرات الجماعية والفردية التي توفر كتبا مفيدة، ومناصرة المكتبات.

٥. توفير وسائل ايضاح متعددة، وعدم الاكتفاء بالاستيراد، بحيث تنسجم الكتب والوسائل مع واقعنا وظروفنا.

٦. المشاركة في مؤتمرات دولية للاستفادة من خبرات الآخرين وتقديم حصيلة أفكارنا وتجاربنا. وارسال اشخاص للتخصص في مجالات التثقيف الديني.

وثمة مقترحات اخرى كثيرة يمكن تقديمها، شرط ان يكون ثمة من يتلقاها ويدرسها ويعمل بما هو مفيد وجيد، والا كنا كمن يقارع الهواء..

الأب يوسف حبي

كهنة وعلمانيون
لبناء كنيسة واحدة

ان من يرغب بناء بيت أو عمارة، لا بدّ له من رسم خارطة. يوضح فيها اقسام البناء المختلفة وأبعادها، ثم يشرع بجلب مواد البناء كالحجر او الحديد أو أية مادة اخرى. ثم يضع الاسس لكي يأتي البناء قويا ومتيناً، واخيراً ياخذ في بناء مختلف الاقسام الى حد اكتمال البناء. فالبناء اذن هو هذا الكل الذي يتخذ كل جزء فيه موقعه ومكانته مهما كان صغيراً أو كبيراً، وله فائدته وضرورته.

وقد يحتاج المرء احيانا الى الهدم من اجل اقامة بناء جديد على انقاض القديم.

ان هذا المثل ينطبق تماما على الكنيسة التي ابصرت النور بفعل قيامة المسيح وعلى شهادة الروح القدس والتلاميذ الذين عايشوا الرب حياً. فكما ان البناء يمو ويكبر يوما بعد آخر، هكذا الكنيسة التي تخضع لعامل الزمن، هي ايضا، ينمو بناؤها ويكبر، سواء من حيث انتماء اعضاء جدد اليها، أم من حيث الافكار والمفاهيم والممارسات والصيغ التي تثري كيانها ووجودها، وهي، بخلاف البناء المادي، بحاجة مستمرة الى النمو.

ولكن قد تبدو لنا اليوم بعض التفاصيل غريبة عن هذا البناء وغير اصيلة تماما، اذ جاءتنا من مصادر متنافرة، كالوثنية واليهودية. لذا، ففي الوقت الذي علينا ان

"الكنيسة هي نحن جميعاً"! هذه المقولة آن لها ان تصبح قناعة يؤمن بها كل ابناء الكنيسة، من اعلى السلم الى اسفله، لا بل واقعاً يعيشه كل المؤمنين بالمسيح، سواء كانوا في القمة ام في القاعدة. ذلك ان التمييز بين "طبقتين" في الكنيسة، شعب الله، إنْ هو سوى تقسيم ايديولوجي لا يمت الى الكنيسة الاولى بصلة، ولا يمكن ان يتخذ الذين أفرزوا لخدمة الكلمة ورعاية الجماعة المسيحية، حجة للتسلط والهيمنة ومبرراً للانفراد بالقرار...

كيف تسربت روح الطبقية الى الكنيسة؟ ما هي الجذور التاريخية للكهنوت؟ ما هي الخلفيات الكتابية التي تجعل من الكنيسة "شعب الله"؟ اسئلة يجيب اليها الاب يوحنا عيسى، وهمه ان يجعل الكهنة والمؤمنين، وفقاً لتوجّهات المجمع، يضعون يداً بيد في بناء الكنيسة، جسد المسيح السرّي.

نبي، أي ان نضيف الى البناء عناصر جديدة، قد يتطلب الامر الهدم احيانا، أي هدم مفاهيم وافكار وتصورات وممارسات لا تمت بصلة اصيلة –أو مطلقة– الى المسيح والى انجيله.

من جانب اخر نلاحظ ان هذا البناء مهمة مشتركة تقع على عاتق سائر ابناء الكنيسة مجتمعين، كهنة وعلمانين، مسؤولين ومؤمنين على السواء.. من اجل بناء كنيسة واحدة.

١. ما المقصود ببناء كنيسة واحدة؟

ولكن لا بد لنا، بادئ ذي بدء، ان نفهم هذه العبارة فهماً صحيحاً. فبناء "كنيسة واحدة" لا يعني القضاء على التعددية التي أقرَّ بها المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، سواء في المواهب او الافكار أو الصيغ أو الممارسات. ولا هي "انصهار" مختلف الكنائس في كنيسة واحدة. فما نعنيه ببناء "كنيسة واحدة" في هذا المقال، هو ان يتضافر كافة ابناء الكنيسة، كهنة وعلمانيين، في عمل مشترك ومنسق لخدمة وإثراء كنيسة هي مُلكُ الجميع، يلتقي فيها الكل، قمة وقاعدة، في التزام واحد، كل من موقعه وبحسب الموهبة التي اعطيت له، لا طبقية فيها ولا امتيازات. واذا أُفرز البعض للخدمة والمسؤولية، ألاّ يعني ذلك تمايزاً واستعلاء وانقطاعاً عن الجسم للهيمنة والانفرادية في ما يشبه "طبقة حاكمة" أو متحكمة.. أو حكم الخاصة على العامة.

واذا ما وجدت مثل هذه الطبقية في جسم الكنيسة (طبقة الاكليروس وطبقة العلمانيين) بفعل الزمن وتراكمات السلطة وتداخلات العوامل الاجتماعية والسياسية ونشوء الايديولوجيات النخبوية التي تقسم المجتمعات –ولا سيما الدينية– الى صفوف وطبقات هرمية.. فلا بد من فضحها وتبيان عدم اصالتها، أي عدم انتمائها الى فكر المسيح أو الى الكنيسة الاولى.

٢. كيف طرأت "الطبقية" في الكنيسة؟

ان نظرة سريعة الى الانجيل تبين لنا ان هذه الطبقية ليست من مشيئة المسيح ولا من فكره. واذ انه كان ينتمي بجذوره الاجتماعية الى الطبقة الكادحة، فطالما نادى بمساواة الجميع، وما فتئ يدافع عن كرامة المظلومين والهامشيين ويرفع من معنوياتهم، باعثاً الثقة فيهم ليندمجوا في المجتمع على قدم المساواة مع سائر مواطنيهم، ويفضح استعلاء الكتبة والفريسيين والكهنة. هو نفسه لم ينتم الى الطبقة الكهنوتية، ولا كان ابن كاهن، ولم يُدع قط بهذا الاسم في العهد الجديد، ما خلا في الرسالة الى العبرانيين ذات التركيبة الفكرية الكهنوتية والطقسية. وفي تصرفاته لم يسلك المسيح ككاهن، اذ ان لقب الكاهن كان يعني اذ ذاك وظيفة محددة ومخصصة لعشيرة معينة ذات عقلية طبقية مكرسة لشؤون الهيكل، وتنتمي الى المؤسسة الدينية الرسمية التي تتحكم بالعامة دينياً وشرعياً وترسم حدود عباداته

واخلاقيته وتؤطر سلوكيته بعالم من النواهي والمحرمات بغية السيطرة عليه وتطويعه. في حين ان المسيح وضع ذاته في خط الانبياء. وخط الانبياء خط تحرري ثوري في اساسه، بوجه جمود المؤسسات والأطر القمعية باشكالها، والطبقية بانواعها. أليس ان الطبقية وجه من أوجه الفصل العنصري، كما نقول اليوم، وتقييم للمجتمع على اساس التفرقة والتفاضل والتمايز والانتماء!

ومع ذلك فالمسيح دعي كاهناً في نصوص الرسالة الى العبرانيين وفي خطها، كما أسلفنا، وتناول الفكر اللاهوتي هذه التسمية لاحقا وتعمق فيها، فما معنى ذلك؟

الكاهن، بحسب روح الشريعة الموسوية، هو مقرب باسم الشعب الى الله، فهو اذن وسيط بين الله والبشر. بهذا المعنى الاولي، وبعد إبعاد كل صبغة طبقية استعلائية وظيفية، تطلق بعض نصوص العهد الجديد المتأخرة (والفكر اللاهوتي اللاحق) صفة الكاهن على المسيح. مع هذا الفارق ان المسيح قدم ذاته نفسها ذبيحة مرضية لله بموته على الصليب فداء عن البشرية كلها، وذلك خارجاً عن أي انتماء الى مؤسسة كهنوتية ما، وبخلاف الكهنوت القديم الذي كان يقوم على تقديم ذبائح وقرابين حيوانية ومادية. وبتقدمة المسيح الرمزية انتفت الحاجة الى الذبائح والقرابين وانتهى الوجه القديم للكهنوت الطبقي. وهذا يعني انه لم يعد ثمة، من بعد المسيح، وسطاء بين الله والبشر، وانما خدام يشاركون المسيح وساطته ورسالته الخلاصية، ولم تبق هناك ذبيحة تقرب لله غير ذبيحة المسيح وذبيحة انفسنا.

فالكهنوت في العهد الجديد كَفَّ ان يكون وظيفة تتعلق بطبقة معينة أو بفئة اجتماعية منعزلة. وهو على نوعين: خدمي نبوي. فالكهنوت الخدمي أو السري (*Sacramentel*) هو الذي يعتنقه رجال يكرسون انفسهم وكامل وقتهم، بانتداب من الاسقف والجماعة المسيحية، وبرسامتهم، لخدمة الكلمة والاسرار المقدسة وترؤس الشركة الايمانية في مكان معين وبصورة خاصة. اما الكهنوت النبوي، فهو ما نسميه بالكهنوت العام، ويشترك فيه جميع المعمدين باسم المسيح ليعيشوا الرسالة الانجيلية في ظروف الحياة الزمنية والشهادة له بمقتضى المواهب (*Charismes*) الخاصة بكل واحد.

هكذا فان كل المسيحيين، بفعل ايمانهم وعمادهم، "كهنة" في المسيح بتقديم ذواتهم ذبيحة مرضية لله، بحسب قول القديس بولس، وبنقلهم كلمة الله الى الآخرين كواجب عام للجميع.

فالكهنوت الخدمي او السري لا يعزل صاحبه فوق الآخرين، وانما يميزه لخدمة اخوته. واذا ما شهدنا هذا "الفصل الطبقي" بين الاكليروس والعلمانيين، فهو ليس من المسيح، وانما ظهر في القرون اللاحقة ولاسباب عديدة ومختلفة كالتأثير المزدوج لليهودية وللامبراطورية الرومانية. فمنذ القرن الثاني (ولا سيما في مستهل الرابع وبروز الكنيسة على السطح كمؤسسة قائمة بذاتها بعد بيان ميلانو الذي اطلق لها الحرية سنة ٣١١) اخذت الكنيسة تبني هيكلية الشعب الجديد على نموذج الشعب القديم. وفي ذات الوقت كان تنظيم

الخدمات الكنسية يتأثر بالنموذج الذي كانت تقدمه الادارة الامبراطورية الرومانية.

والى هذين السببين ينبغي اضافة اسباب اخرى، كتقل الوسط الاجتماعي-الثقافي الذي نمت وترعرعت فيه الكنيسة، وضراوة الصراعات المذهبية التي شنتها الجماعات المسيحية في انتشارها السريع ضد البدع، واخيراً ضرورة بناء مسيحية قوية محكمة التنظيم. ولا ننسَ عوامل اخرى تتعلق بالسلطة والامتيازات والالقاب التي تعشش في قلب كل انسان، مهما كان انجيلياً.

تلك هي الاسباب التاريخية التي شجعت هذا التمايز في الكنيسة وما نجم عنه من صياغة لاهوت لصالح الاكليروس على حساب المؤمنين؛ وصرنا نعيش علاقة هرمية تطمس فرص المشاركة الحقة والشعور بالانتماء الكامل الملتزم، قمتها البابا والبطاركة، ثم الاساقفة، ثم الكهنة، وقاعدتها العلمانيون.

صحيح اننا نشهد في الكنيسة الاولى تعددية في المواهب والوظائف، وصحيح ايضا اننا نجد خداماً أفرزوا للتعليم والتبشير بوضع يد الرسل والشيوخ ("مرسومين" كما نقول اليوم)، ولكننا لا نعثر على أي اثر لوجود نظام متميز يمنح امتيازات خاصة في اسلوب الحياة والتكوين الثقافي والالتزامات المسلكية واللغة واللباس. بل ان الجميع، كل بحسب موهبته، يخدم البناء كله بتنسيق وسلام، وسوية يشكلون الكنيسة بوصفها شعب الله الجديد.

٣. الكنيسة شعب الله

ان مفهوم الكنيسة بصفتها شعب الله ليس مفهوماً جديداً ابتدعه المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني. وانما يلزمنا لفهمه، العودة الى العهد القديم.

لقد كان الشعب اليهودي يعتبر ذاته شعب الله، ويعتبر الله إلهه من دون سواه، لكونه عَبَدَ الاله الواحد الأحد، وقد اعتبر ذاته ملكاً لالهه، اذ هو كرمة الرب وقطيعه الذي يقوده بيده. ومنذ ابراهيم، وبصورة ادق منذ موسى، أُبرم عهد بين هذا الشعب وهذا الاله. وكان هذا العهد أكثر من عقد بين طرفين. انه كان شركة حياة يقدم فيها كل واحد امانته للآخر.

ولكن مع تزايد خيانات الشعب، اخذ الانبياء يتطلعون الى تكوين شعب جديد وإبرام عهد جديد (ارميا٣١:٣١-٣٤). وظهر التركيز في وعظ الانبياء، أكثر فأكثر، على المستقبل حيث ينتظرون تدخلاً الهياً في آخر الازمان (حزقيال ١١:١٩-٢٠). وتعدى هذا الانتظار الاخيري الاطار القومي ليشمل الخلاص كل الشعوب (زكريا ٢:١٤-١٥، اشعيا ٤٢:٦) على يد المسيح الآتي.

وجاء المسيح المخلص برسالته الشاملة.

بيد ان الجماعة المسيحية الاولى لم تطرح ذاتها كبديل روحي للشعب اليهودي الا بعد سنة ٧٠ بعد الميلاد، أي بعد سقوط اورشليم وتشتت المسيحيين في ارجاء الامبراطورية. فالى ذلك الحين، كان ينظر اليها من الخارج كأية بدعة يهودية، وهي ذاتها لم تكن قد حددت موقعها بعد من الشعب الموسوي. وما سيزيدها وعياً بذاتها هو، ولا شك، دخول الوثنيين الى الكنيسة والاضطهاد الذي شنته السلطات الدينية اليهودية ضد الرسل، واخيرا سقوط اورشليم وخراب الهيكل واضمحلال الامة اليهودية ككيان قومي مستقل. فنظرت الجماعة المسيحية الى ذاتها اذ ذاك ككنيسة الله وكشعب الله الجديد الذي ورث الرسالة الروحية والخلاصية للشعب القديم، كما جاء في الانبياء.

ان هذه التسمية هي التي اطلقت اولا على الجماعة المسيحية قبل عبارة "المسيحيين" التي اطلقت عليها اولاً في انطاكيا. فطبقت الكنيسة على ذاتها نصوصاً من العهد القديم تتحدث عن الشعب الجديد والعهد الجديد، مع اضافة بُعد ثوري بقبول المؤمنين المنحدرين من الوثنية كأعضاء كاملي العضوية في شعب الله الجديد. وفي هذا الصدد أعلن الرسول يعقوب في مجمع اورشليم قائلاً: "ايها الاخوة، استمعوا لي. عرض لكم سمعان كيف عني الله اول الامر بأن يتخذ شعباً لاسمه من بين الوثنيين..." (اعمال الرسل ١٥:١٤، راجع رومية ٩:٢٣-٢٦؛ تيطس ٢:١٤).

وتتناول كتابات الرسل حقيقة هذا الشعب الجديد كما ورد في رسائل القديس بولس الى أهل غلاطية وقورنتية ورومية، وكذلك الرسالة الى العبرانيين التي تعتبر المرجع التقليدي للاهوت شعب الله، مع ما جاء في رسالة القديس بطرس (١بطرس ٢:٩-١٠).

فمنذ خطواتها الاولى وعت الكنيسة، اذن، بأنها شعب الله الروحي الجديد الذي فيه تكتمل النبوات والوعود والعهود، ولكن شعب الله المنفتح على جميع الشعوب.

ولكن المؤسف ان دينامية هذا المفهوم تُركت في الظل لقرون طويلة بسبب سيادة مفهوم طبقي انحيازي عن الكهنوت، الى ان جاء المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني فأعاده وركز عليه. يقول المجمع في دستوره العقائدي عن الكنيسة، مستنداً الى اقوال بطرس الرسول: "ومن ثم فان الذين يؤمنون بالمسيح –وقد ولدوا ثانية لا من زرع قابل للفساد بل من زرع لا يفسد هو كلمة الله الحي، ولا من الجسد بل من الماء والروح القدس– أُقيموا اخيرا ذرية مختارة، كهنوتاً ملوكياً، امة مقدسه، شعباً مقتنى.. لم يكونوا من قبل شعباً فصاروا اليوم شعب الله" (دستور عقائدي في الكنيسة رقم ٩).

فمن الواضح ان المجمع يعتبر الايمان والعماد في اصل تكوين هذا الشعب الواحد، وبعبارة اخرى في اصل ولادة هذا الشعب. فالايمان والعماد اللذان شكلا ويشكلان وسيشكلان مستقبلاً هذا الشعب الذي يرتبط اعضاؤه برب واحد ووسيط واحد هو يسوع المسيح، وذلك بالرغم من كل الاختلافات الاخرى في البيئة والتعبير واللغة والقومية والجنس

واللون والتقاليد والعادات والمواهب والطاقات. هذه الاختلافات ذاتها هي مصدر قوة وثراء للكنيسة.

وهكذا، من كل هؤلاء المعمذين بالمسيح تتكون الكنيسة، الامر الذي ينفي الاكليروسية كنظام وكطبقة، وينفي خاصة ان تحتكر جماعة الاكليروس اسم "الكنيسة" (حيث ان عبارة "الكنيسة" صارت تعني في اذهان الكثيرين، من باب التبسيط اولاً ثم الشمولية، جماعة الاكليروس أي السلطة الكنسية المتمثلة بالبابا والبطاركة والاساقفة والكهنة)، وتنكرها على بقية المؤمنين. انه لا يمكن ان تعني الكنيسة فئة معينة أو طبقة محددة مفروزة من الشعب. ففي الكنيسة الجميع اخوة متساوون في الكرامة، لهم اب واحد هو الله، ومخلص واحد هو المسيح الرب. جميعهم اعضاء كاملون، رجالاً ونساء، وسوية يشكلون مع المسيح الرأس جسدا واحداً.

وكما ان في الجسد الواحد اعضاء كثيرة ومختلفة، هكذا في جسد المسيح السري، أي الكنيسة، اعضاء كثيرون ومختلفون في وظائفهم لحياة الجسد الواحد، لا استعلاء لواحد على الآخر، انما تنوع في الخدمة. وما كان تميزاً في الخدمة لا يعني تمايزاً أو امتيازاً، هذا هو حال من رُسموا كهنة لخدمة الجماعة المسيحية، أو بصورة ادق القسس، أي الشيوخ أو القدماء كما كانت تدعوهم الجماعة المسيحية الاولى.

قد يبدو تأكيدنا على ما يسمى بكهنوت المؤمنين جديداً على البعض ولكننا نجد أسسه في العهد الجديد، سواء بشكل ضمني، كما في الرسالة الى العبرانيين التي تعلن باننا "صرنا شركاء في المسيح" (٣:١٤)، أو بشكل صريح وواضح كما في بعض نصوص سفر الرؤيا (١:٥، ٥:٩)، وفي رسالة القديس بطرس الاولى: "وادنوا اليه، هو الحجر المرذول من الناس، المختار من الله، الكريم لديه، وانتم ايضا ابنوا من انفسكم كَمن حجارة حية، بيتاً روحياً، وكهنوتاً مقدساً، لاصعاد ذبائح روحية مقبولة لدى الله بيسوع المسيح" (٢:٤-٥). وايضا: "اما انتم فجيل مختار، كهنوت ملوكي، امة مقدسة، وشعب مقتنى" (٢:٩).

ولكن الفضل في ابراز هذا الكهنوت العام أو المشترك يعود، ولا شك، الى المجمع الفاتيكاني الثاني، حين شدد عليه داعياً كل المؤمنين الى ممارسته بطريقة واعية ونشطة: "ان المسيح الرب، الحبر المأخوذ من بين الناس، قد جعل من الشعب الجديد "ملكوتاً وكهنة لله ابيه". ذلك بان المعمَّذين قد تكرسوا بالميلاد الثاني ومسحة الروح القدس لكي يكونوا مسكنا روحيا وكهنوتاً مقدساً، ويقربوا بعملهم المسيحي كله قرابين روحية، ويعلنوا قدرة ذاك الذي دعاهم من الظلمة الى نوره العجيب. فليقرب اذن جميع تلاميذ المسيح انفسهم، مواظبين على الصلاة وحمد الله، ويقيموا الدليل، في كل مطلب، على الرجاء الذي فيهم للحياة الابدية" (الدستور العقائدي في الكنيسة رقم١٠).

هكذا يشترك الشعب المسيحي بأسره في وظيفة المسيح الكهنوتية والنبوية.

٤. دور الكهنة والعلمانيين

نستنتج مما تقدم ان المسيحيين، كل المسيحيين، كهنة وعلمانيين، رجالا ونساء، شباباً واطفالاً، بحكم ايمانهم وعمادهم، وبالتالي بحكم انتمائهم الى عضوية المسيح وكنيسته، لهم دورهم الفاعل الذي ينبغي ان يضطلعوا به في حياة الكنيسة. وهذا الدور عام، يشترك فيه الكل كجماعة متضامنة وجسم متكامل؛ وخاص، بمعنى ان كل عضو يقوم به بحسب طبيعته والرسالة الموكلة اليه: الكهنة المرتسمون بما تقتضيه الخدمة والنظام والكلمة، والمؤمنون بالتزاماتهم، كل من موقعه.

ولكن الاضطلاع بهذا الدور بصورة واعية ونشطة رهن بثلاثة عناصر: اولا، بمدى ادراك المسيحيين العلمانيين متطلبات هويتهم كأعضاء أصيلين وبالغين وكرسل؛ وثانياً، بمدى وعي السلطة الرسمية وافساح المجال امامهم لممارسة دورهم؛ وثالثاً، بسيادة لاهوت واضح وأصيل عن الكنيسة يعترف بعضوية كاملة وفاعلة لكل مؤمن في جسم الكنيسة وحياتها. ذلك ان حالة الاغتراب التي عاشها المسيحيون في القاعدة كان سببها ضيق افق بعض رجال الدين واللاهوتيين ممن حاولوا فصل العلمانيين عن القوى الفاعلة في الكنيسة. ولكن هؤلاء واصلوا المشاركة في حياة الكنيسة ليس فقط عبر الاسرار، وانما ايضا عبر نقدهم او ابداء رأيهم أو بالافكار التي طرحوها.

اما المشاركة الفعلية في حياة الكنيسة، فلها أوجه عدة، بدءاً من المشاركة في الاسرار ولا سيما سر القربان المقدس. يقول المجمع: "ترغب الكنيسة الام رغبة صادقة في ان يُحمَل جميع المؤمنين على الاشتراك في الحفلات الطقسية اشتراكاً تاماً واعياً فعلياً تفرضه طبيعة الليتورجيا عينها ويكتسبه حقاً وواجباً، بقوة العماد، الشعب المسيحي..." (دستور في الليتورجيا رقم ١٤). ولذلك دعا المجمع الى تجديد الليتورجيا وتطويرها والى ترجمة الطقوس الى اللغات المحلية بهدف تمكين الشعب من الاشتراك الفعلي فيها.

ويأتي دور المسيحيين ايضا في عملية التنشئة والتبشير بالمسيح. فعلى غرار سيدهم، على المسيحيين ان يعلّموا وفي الوقت نفسه ان يتعلموا من اجل نشر كلمة الله. وهذه العملية لا تقتصر على مرحلة دون سواها، وانما ينبغي ان تتواصل في كل مراحل حياة المسيحيين، لأن العملية التثقيفية حاجة دائمة للمؤمن، وان بطرائق مختلفة.

واما مجالات التعليم، فهي عديدة اهمها العائلة والمدرسة وثم الكنيسة. وهنا لا بد لي من التشديد على دور الاهل في تعليم اولادهم المبادئ والحقائق المسيحية قبل اية جهة اخرى. فلأنهم المسؤولون الاولون والمباشرون عن اولادهم، عليهم يقع اولا هذا الواجب الخطير. وحين يتعذر عليهم ذلك بصورة مرضية، فليتعاونوا على الاقل مع مراكز التعليم المسيحي الموجودة حالياً في كل الكنائس تقريباً، حيث يشترك في اعطاء التعليم كهنة وراهبات وعلمانيون. ان هذا الوعي بدور العلمانيين وتحمل مسؤولياتهم فعلياً لهو مؤشر من المؤشرات الجيدة في كنيسة العراق.

ولكن مشاركة العلمانيين في مناهج التعليم المسيحي بصورة انقيادية تنفيذية، كما يجري في معظم الاحيان، ليست بكافية، اذ بامكانهم، بل من حقهم وواجبهم ان يشتركوا في صياغة المناهج ويمتلكوا خطاً وفكراً لاهوتياً يعبر عن ذاتهم في اطار اللاهوت العام. ومثل ذلك يتطلب بالطبع درجة متقدمة من الثقافة اللاهوتية والدينية الشخصية لديهم.

هكذا اذن كل مسيحي، وليس الكاهن او الراهب او الراهبة فقط، رسول ومبشر، اذ تنبع رسالتهم، اولا، من ارادة المسيح حين ارسل تلاميذه الى العالم اجمع ليبشروه بملكوت الله والخلاص، وثانياً، من الايمان المسيحي بالذات. هذا الايمان الذي لا يمكن ان نحتفظ به ككنز، وانما ان نشرك فيه آخرين، فيكون كالشمس التي ترسل انوارها الى الكون بأسره. يقول المجمع في هذا الصدد: "ان واجب العلمانيين وحقهم على ان يكونوا رسلا ينبعان من اتحادهم بالذات بالمسيح الذي هو الرأس، فانهم اذ قد اندمجوا بالمعموذية في جسد المسيح السري، وتقووا بالتثبيت بقدرة الروح القدس، فالرب نفسه ينتدبهم للرسالة" (رسالة العلمانيين رقم ٣).

ويحدد المجمع الهدف من رسالة المؤمنين بقوله: "ان هدف رسالة الكنيسة هو خلاص النفوس الذي يتم الحصول عليه بالايمان بالمسيح وبفعل نعمته. فعملها الرسولي، اذن، وعمل جميع اعضائها هو، قبل أي شيء آخر، تبشير العالم بالمسيح بأقوالهم وافعالهم، ثم اعطاؤه نعمة المسيح" (رسالة العلمانيين رقم ٦). ويضيف المجمع: "ويلعب العلمانيون فيها دوراً هاماً يجعلهم اعوانا للحقيقة". ومن هذا القبيل، فان عمل العلمانيين الرسولي والخدمة الكهنوتية الراعوية يكمل الواحد الاخر، وينفرد المجمع بدعوته الشباب الى ان يكونوا أول الرسل للشباب.

ولكن التبشير، كما هو الشأن مع التعليم، ليس عملاً فردياً يقوم به شخص لوحده، وانما عمل جماعي يضطلع به المؤمن بصفته عضواً ملتزماً في الكنيسة وضمن جماعات منظمة ومعدة لهذا الغرض. لذا تقتضي عملية التبشير والتعليم: التنسيق والتوجيه والتعاون.

وهنا لا بد للكاهن، لا سيما في تركيبة مجتمعنا وكنيستنا العراقية، من الاضطلاع بدوره الكامل، ليس فقط كمعلم ومبشر بمقتضى دعوته الخاصة، وانما ايضا كمنسق ومحرك وقائد لهذه المسيرة. فطوبى لذلك الكاهن الذي يهيء له اعواناً في الرسالة وكوادر علمانية تحمل الكنيسة معه نحو المستقبل وتنشط الحياة المسيحية وتؤمّن حضور المسيح الفاعل في المجتمع.

الأب يوحنا عيسى

نظرة الي موقع
كنيسة العراق
من الحركة المسكونية

كانت الوحدة بين الكنائس ولا تزال مطلباً ملحاً يتوق اليه المسيحيون على اختلاف طوائفهم، ويقينهم ان انقساماتهم ومشاحناتهم تشكل شهادة مضادة لانجيل المحبة. فضلاً عن انها تعرّض الكنيسة للتشتت والضعف والضياع.

ما هو موقع كنيستنا العراقية من الحركة المسكونية؟ لتحديد هذا الموقع، لا بد من امعان النظر في الاسباب التاريخية للانقسام منذ القرون الاولى -ومعظمها اسباب حضارية سياسية- وحتى الانشطار الذي سببه اتحاد شطر من المسيحيين العراقيين بالكنيسة الكاثوليكية ... ولهذا الاتحاد ايضاً اسبابه ودوافعه.

هذه النظرة التاريخية يلقيها بنزاهة وموضوعية الاب افرام سقط، سعياً نحو عهد جديد من العلاقات الجادة والصادقة التي تفرضها المحبة المسيحية.

✵ مقدمة

ان المأساة الكبرى بين المسيحيين حلت في الماضي يوم تبادلت الكنائس اللعنات. كنيستان، او اكثر، تلعنان الواحدة الاخرى (باسم المسيح): هذا ما قد حصل فعلا... ولم تكن الخلافات التي شطرت كنيسة المشرق عن الغرب او كنائس الشرق نفسها عن بعضها، عقائدية انذاك بقدر ما كانت ادارية ومزاجية وسياسية. وعندما نقول سياسية، فاننا نعني ان العواصم الكنسية الاقليمية الاربع انذاك (روما والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكيا) كانت تتنافس في ما بينها، وكان التنافس بالدرجة الاولى على الكراسي بالرغم من الاقنعة العقائدية التي كان يلبسها. ونعني بالمزاجي ان ثمة فرقاً بين المزاج السرياني والمزاج اليوناني او اللاتيني. كما كان ايضا لاختلافات الانماط الادارية قسطها في إذكاء النعرات الاقليمية والعصبية في العلاقات الكنسية. ففي الواقع، كل الكنائس، الكاثوليكية والارثوذكسية، لم تغير حرفا واحداً، بعد الانفصالات، في أي جزء من جوهر الايمان. فالوحدة ظلت قائمة بالفعل، رغم الانشقاقات، ولو بشكل سري ضمني طيلة القرون الماضية، وذلك بالرغم من

اللعنات وتراشق الحرومات المتبادلة. لقد انفرطت الوحدة في الخارج، اما الجوهر فقد ظل سليماً، وان كان التباين الفكري والتاريخي قد اعترى تعابيره هنا وهناك، حاملا عبر الاجيال صدى تلك المشاحنات والصراعات.

الاجواء اليوم تختلف تماماً، ويشهد الكبار منا عما كانت عليه حتى الامس القريب. لقد هدأت الانفعالات المتشنجة، وَصَفَتْ النيات وعاد الاتصال بين الاخوة، وصارت اللقاءات واقعاً يومياً بين الطوائف الشقيقة، ولم يعد ينظر الواحد الى الاخر على انه "هرطوقي". المواضيع التي كانت دقيقة وحساسة ونخشى مناقشتها اصبحت تطرح اليوم على طاولة واحدة، وصرنا نقرأ في العيون الثقة والرجاء. غير ان الوحدة التامة الملموسة ما زالت امنية بعيدة. غير انه لا يجوز ان نستعجل سير الروح القدس الذي يحترم حرية الانسان الى اقصى الحدود حتى في الامور التي تمس حقيقة الكنيسة وحقيقة المسيح. وضروري ان يلعب عامل الزمن دوره في ايصال الامور الى نضوجها. ذلك ان الرواسب موجودة والعقد والشكوك والخلافات المزاجية والادارية لم تمح من التعامل تماماً، بل هي باقية احياناً كمواقع خلفية نتمترس وراءها. كما انه ينبغي الا نتجاهل التعقيدات السياسية التي تلعب دورها في خلق او بعث الروح الطائفية.

الوحدة المسيحية الحقيقية تتم بعمل الروح والصلاة والتعمق الروحي والعودة الى الانجيل ونفحة الكنيسة الاولى، وليس بالتدبيرات البشرية والتطبيعات السياسية. الوحدة المنشودة هي "وحدة الروح برباط السلام" كما يقول القديس بولس.

❋ وحدة الايمان–تعددية التعبير

سننطلق في بحثنا هذا من احداث التاريخ ونحاول قراءتها بكل نزاهة وموضوعية. سنسجل قسماً منها، غير ان هذا التسجيل في حد ذاته لا يحل كل الخلافات والمشكلات، وانما يعني قراءة تاريخنا على ضوء جديد، ومن لا يتعلم من قراءة التاريخ كمن لا يقرأه ابداً.

كنيسة العراق اليوم هي وريثة كنيسة المشرق او كنيسة ما بين النهرين، وهي كنيسة رسولية لها كيانها الخاص ولها مفكروها، وقد نقلت البشرى الى الهند والصين. لاهوتياً ارتبطت بكنيسة انطاكيا، اما على الصعيد الاداري فقد تمتعت باستقلاليتها ولعبت دوراً في إنماء الفكر الديني في الشرق.

ولكن ما يميزنا بنوع خاص نحن ابناء كنيسة المشرق (وتلك ظاهرة لا مثيل لها في الغرب المسيحي) هو اننا موزعون الى طوائف متعددة قائمة بذاتها لها جذورها التاريخية وتتمتع ببُنى كهنوتية وقوانين كنسية أصيلة.

اما اليوم فهي منقسمة الى اسرتين واسعتين: اسرة الطوائف الشرقية الارثوذكسية، وكل طائفة منها تتمتع باستقلالها الذاتي، طالما ان الانقسامات التي جرت في القرن الخامس قد خلقت كنائس متعددة محلية؛ واسرة الطوائف الكاثوليكية التي تتميز عن تلك بانتمائها

الى اسقف روما كرئيس أعلى للكنيسة الجامعة. ومن الجدير بالملاحظة ان هذه الطوائف الكاثوليكية في الشرق قد نشأت من انشطار كنائسها الاصلية الام، وهي، وإن تعددت، تقرّ كلها بايمان واحد.

هذه الفروع تنحدر من اصل واحد، وتنوعها هو غنى اذ انه تعبير للتعددية ضمن الايمان المشترك وفي الممارسة الفعلية (وأقصد هنا كلا من الكاثوليك والارثوذكس اذ انهم ينحدرون سوية من جذع واحد). وهذه التعددية التاريخية والثقافية تعني في واقع الحال الاعتراف بتعدد الكنائس المحلية التي لكل منها خصوصياتها. فهي، بالرغم من تعددها، تشكل سوية الكنيسة الجامعة. اما مبدأ التعددية، فيستند على ان المسيح لم يترك تعليمات محددة بقوانين، ولا نظاماً كنسياً جاهزاً؛ اما المبادئ التي تركها في الانجيل (وكثير منها جاء نتيجة اجتهاد الانجيليين والمسيحيين الاولين في فهم تعاليم المسيح وعلى ضوئها، في مطلع القرن الاول الميلادي)، فهي مبادئ تتطلب تجسيداً في الواقع لتتكيّف حسب المجتمعات والحضارات؛ فهي اذا قابلة للتأويل والتطور وتخضع لاجتهادات المفكرين الذين يأتون بطروحات جديدة قد تبدو احيانا متناقضة مع الفكر الديني الرسمي. فالتعددية اذن أمر بشري، لا سيما على صعيد الفكر والحرية، والمبادئ العامة لا يمكن ان تخضع لقوالب جامدة.

ولكن ثمة فرقاً كبيراً بين التعددية والخلاف او الانشقاق. ويكون الانشقاق على صعيد السلطة، اما ما يسمى بالهرطقة فهو خروج على صعيد التعليم والعقيدة. فلقد كانوا في الماضي يتبعون اسلوب المنع والحرم، أي الخروج من الشركة، يتبع ذلك نعت الاخر بالكفر او الجحود، أي ترك الدين الى غيره، وكانوا ينعتون كل مفكر لايلتزم بالتعليم الرسمي بـ "هرطوقي"، وذلك انطلاقاً من قناعة كل كنيسة بانها صاحبة الحقيقة الوحيدة وان "خارج هذه الكنيسة لا خلاص للانسان".

ان كلمة الله حرة وتتوجه الى اشخاص احرار (الروح يهب حيث يشاء)، فلا يحق لنا، من ثم، تكفير الآخرين بهذه السهولة، لا سيما في ما يخص الحقائق الالهية التي ليست جامدة وهي خاضعة لتفاسير واجتهادات. ان الحقائق (الهية كانت ام بشرية) هي نسبية، ومن الضروري، كي تصبح جزءاً من الانسان، ان تترجم في الواقع، وقد عُبّر عنها في الماضي بلغة معينة وتأثرت بفكر الانسان في مرحلة معينة (قانون الايمان الحالي مثلاً هو من اجتهادات ووضع الاباء في القرون الاولى). واذا التزمنا بتكرار صيغ التعابير الايمانية كما تسلمناها، من دون اية اضافة او توضيح، لجعلناها مادة جامدة لا تمت الى حياة الانسان الواقعية المتحركة بصلة.

❋ سبب الانقسام: حضاري-سياسي

بوسعنا ان نلاحظ ان في كل بدعة او هرطقة جوانب متعددة، وليس اقلها اهمية

الجانب الفلسفي الفكري المتمثل في صعوبة التوفيق بين الوحي والفكر، وبسبب هذه الصعوبة اضطر الاباء الى تحديد المعاني والكلمات المستخدمة في التعبير اللاهوتي عن فحوى الايمان. غير ان سوء فهم هذه التعابير او تطويعها لوجهة نظر انحيازية طالما ادى الى الالتباس وعدم الوصول الى جوهر القضية. وكان لا بد، لتفادي الالتباس الناشئ وسوء التفاهم، ان يلجأ اللاهوتي الى استخدام او استنباط تعابير فلسفية جديدة دقيقة تعبر عما يريد التعبير عنه. غير ان الالتباس طالما واجهه الالتباس او التصلب على حساب المحبة والسلام. وهذا ما حدث فعلا في القرن الخامس، قرن انشقاق كنيسة المشرق والكنيسة السريانية. وقد كان الخلاف في جوهره خلافاً فكرياً—فلسفياً بين مدرسة الاسكندرية ومدرسة انطاكيا حيث تبنت كل من المدرسين طريقة في التفسير ولم تقر بسواها، مما ادى الى سوء التفاهم. فلقد كان بين انطاكيا والاسكندرية خلاف فكري حاد بالنسبة الى تفسير الكتاب المقدس. وكان لاهوتيو انطاكيا اكثر ميلا الى النظرة الارسطوطاليسية ومهتمين بالحقائق الملموسة المرئية. فمع اقرارهم بالوهية المسيح، كانوا ينظرون بالاكثر الى حياته الانسانية الارضية. اما مدرسة الاسكندرية فكانت اكثر ميلا الى الافلاطونية التأويلي الرمزي للحقائق. فالذي كان يشد اهتمام هؤلاء في المسيح كان لاهوته اكثر من ناسوته. وكان هذا الاختلاف في الاسلوب المدرسي يزداد حدة بسبب النعرة العنصرية والتنافس على الكراسي الاسقفية.

اما تدخل القسطنطينية في هذه الجدالات، فكان يزيد الامور تعقيداً، لان تدخلها كان يأخذ وجهاً سياسياً باعتبارها عاصمة الامبراطورية الجديدة. فحتى عام ٣١١ لم يكن للقسطنطينية شأن يذكر، ولما اصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة بعد بيان ميلانو واهتداء قسطنطين الملك، اخذت القسطنطينية تلاحق جميع الاديان الاخرى، وكانت قد ورثت تاريخاً طويلاً من الاضطهاد الروماني للمسيحيين. وجاء تبني الدولة البيزنطية الدين المسيحي بعد قرون من الصراع ليشيع اعتقاداً عاماً ان عصور الاضطهاد قد انتهت، ولكن سرعان ما تبين ان الدولة، بانظمامها الى الدين الجديد، غلّبت الدوافع السياسية على الدوافع الاخرى —وهذا شأن كل الحسابات السياسية في التاريخ. فأخذت بيزنطية تصوغ لنفسها نمطاً خاصاً من احتواء الدين المسيحي، فارضة نظرتها الرسمية، وذلك سعياً الى تجانس سياسي كانت في حاجة اليه. فكان الامبراطور يعتبر هو الرأس الديني والدنيوي، وكان الخروج عن الوحدة الدينية التي يقرها الامبراطور يعد خروجاً عن الوحدة السياسية للامبراطورية.

اما الغرب المسيحي في تلك الحقبة، فكان منشغلا بامور اخرى كرد هجمات البرابر واستكمال تبشير اوربا وتحضيرها. وكان الشرق المسيحي يعترف بان اسقف روما يرئس "بالمحبة" شركة الكنائس لكونه وريث كرسي بطرس في العاصمة القديمة، فكان "بطرس يتكلم بفم اسقف روما" بحسب تعبير ذلك الزمان. إلا أن الأولوية الرومانية لم تمارس قط في تلك الاجيال بالشمولية القانونية التي هي عليها الان، ولم يكن الاساقفة

يحتكمون الى اسقف روما إلا في المسائل الدينية والمسلكية الكبرى وفي حالات الخلافات الهامة، علما بان معظم المجامع المسكونية الاولى انعقدت على ارض المشرق، وان بتأييد اسقف روما أو بحضور ممثليه. والخلافات بين الشرق والغرب لم تكن لاهوتية في جميع وجوهها، بل لاهوتية وسياسية معاً، وكانت واجهة لصراع أعمق بين حضارتين مختلفتين وبين بيئتين متنافرتين.

وكذلك الخلافات في الشرق نفسه. فاذا كانت عقائدية في ظاهرها، فقد كانت تستخرج من البيئة كل عوامل التناقض القائمة بين عالم شرقي يتفاعل بحيوية للتعبير عن ذاته من جهة، وبين امبراطورية هرمة تبحث عن شتى الوسائل لمنع تفتت رعاياها من جهة اخرى. فبين هاتين الرغبتين، رغبة رفض المذهب الرسمي تعبيراً عن رفض هيمنة الدولة البيزنطية، ورغبة الدولة في فرض مذهبها لفرض سلطانها، أرتأت طائفة من المسيحيين ان توالي الدولة البيزنطية في مذهبها فانضمت الى مؤيدي مجمع خلقيدونية (٤٥١)، اما انصار مدرسة انطاكيا، فانضموا الى ما سمي في التاريخ خطأ بالمذهب "اليعقوبي"[(١)].

* العوامل المختلفة التي ادت الى انشطار كنيسة العراق

ان هذا الموضوع دقيق للغاية ومعالجته تتطلب قراءة نزيهة للتاريخ واستقراءً للاحداث بعيون منفتحة تجنبنا السقوط في النعرة العصبية.

اننا نكتشف في تاريخ كنيستنا، وفي هذه المرحلة بالذات، وجهين احدهما سلبي والاخر ايجابي. فالكنيسة التي نعتبرها مقدسة تتكون من بشر ضعفاء وبامكانهم ان يرتكبوا اخطاء. وهناك امور كثيرة جرت في الماضي تبدو لنا غريبة اليوم، وعندما نستقصي الاحداث، بدقة وجدية، نكتشف ان اسلوب آبائنا كان خاطئاً، وان التصرف الفلاني هو "غلطة تاريخية" او ان لآبائنا صفحات سوداء علينا اصلاحها. اجل ان التاريخ هو التاريخ ولا نستطيع ان نصلح شيئا منه إلا بقدر ما نعيش الحاضر باصالة واستقامة ونبني المستقبل بأمل. وعندما توضع هذه "الاخطاء" —اذا كانت اخطاء— في اطارها الجغرافي والسياسي والديني لذلك الزمان، فالامور تأخذ شكلا اخر. والمطلوب منا اليوم، ليس التوقف عند هذا التصرف الذي صدر في الماضي او ذاك، وليس المطلوب ان نصحح ما كان سلبياً الا بقدر ما نعترف باننا قد اخطأنا وان العمل الوحدوي لا يتم الا بالتحلي بالروح الانجيلية التي هي

(١) ان تسمية اليعاقبة ليست صحيحة، والاصح هي "الارثوذكسية" كما جاء في كتب المطران غريغوريوس صليبا واسحق ساكا عن تاريخ الكنيسة السريانية. اما المؤرخون القدامى فقد سموها خطأ بـ "اليعقوبية"، منهم: علي بن داود الارفادي (القرن١١) في كتابه: "اجتماع الامانة" الذي نشره وترجمه الى الفرنسية جيرار تروبو في مجلة ملنو٣ (١٩٦٩) ص١٩٧-٢١٩، وابن العبري (+١٢٨٦) في كتابه "مختصر تاريخ الدول" نشره انطون الصالحاني، بيروت١٨٩٠ ص٨٧، وتاريخ ميخائيل السرياني الذي يتطرق الى البطاركة والمفارنة الخ...

روح محبة وسلام: هذه هي الارضية الجيدة لازالة العقبات في بناء الوحدة في كنيستنا.

هناك امر ثابت يقره جميع المؤرخين وهو ان كنيسة العراق (وفي الشرق عموما) كانت منشطرة الى مذهبين رئيسين: النسطوري والارثوذكسي. وذلك منذ الانشقاقين الكبيرين في كنيسة الشرق في٤٣١ و ٤٥١. وكان المذهبان النسطوري والارثوذكسي المذهبين الوحيدين السائدين في الشرق تجاه القسطنطينية وروما اللتين ظلتا على مذهب واحد مشترك حتى انفصالهما عن بعضهما في القرن الحادي عشر. واستمرت كنيسة العراق منقسمة بين هذين المذهبين(٢) حتى اواخر القرن السادس عشر حيث انضم ثلاثة من المطارنة النساطرة الى الكنيسة الكاثوليكية واختير يوحنا سولاقا ليصبح بطريركا للكلدان، وهي التسمية التي اطلقها البابا اوجين الرابع على "النساطرة" المنضمين الى الشركة الكاثوليكية(٣).

اما دخول الكثلكة بين صفوف ابناء الكنيسة السريانية في العراق، فقد تم في غضون القرن الثامن عشر على يد الاباء الدومنيكيين الذين قدموا الى الموصل بناء على طلب البابا سنة ١٧٤٩. وكان الاباء الاولون ايطاليين وقد مكثوا في العراق حتى ١٨١٥ حين اضطروا الى ترك الموصل، ثم عادوا اليها عام ١٨٤٠، ولدى عودتهم ثانية اسسوا دير مار يعقوب (قرب دهوك) لخدمة المسيحيين في المناطق الجبلية، وانصرفوا الى العناية بمختلف طبقات الشعب الفقيرة ولا سيما المرضى، حيث كانوا يقدمون شتى الخدمات الانسانية ولا سيما الطبية والثقافية.

اما العاملان الرئيسان اللذان كان لهما الاثر الكبير في دخول الكثلكة الى الموصل، والعراق عامة، فهما:

١. العامل الثقافي:

كان المستوى الثقافي في الشرق في حالة لا يحسد عليها، سواء لدى المواطنين ام المسؤولين. والاستعمار العثماني الذي أناخ على المنطقة قرابة ٤٠٠سنة (١٥٣٤-١٩١٤)

---

(٢) في حديثه عن الموصل وعن المسيحيين في العراق، كتب الدكتور عماد عبد السلام رؤوف: لقد بقي نصارى الموصل كغيرهم من نصارى العراق منقسمين في ولائهم الديني بين الكنيستين الشرقيتين القديمتين السريانية النسطورية والسريانية الارثوذكسية (راجع المطران صليبا: "تاريخ ابرشية الموصل" الفصل في دخول الكثلكة الى الموصل ص٢٦، و د. عماد عبد السلام رؤوف: "الموصل في العهد العثماني" في سلسلة "حضارة العراق" ج١٠-١٢).

(٣) تجدر الاشارة هنا الى ان كنيسة المشرق قد حاولت منذ القرن ٥و٧ التقرب من بيزنطية واعادة الوحدة معها. ومن الوجوه المهمة في هذا المضمار نذكر الجاثليق ياباﻻها (٤١٨) وايشوعياب الاول (٥٨٧) وايشوعياب الثاني (٥٩٦)، (راجع كتاب الاب د. لويس ساكو الصادر في روما سنة ١٩٨٦ بالفرنسية بعنوان "دور الكنيسة الشرقية في العلاقات الدبلوماسية بين فارس وبيزنطية في القرن الخامس والسابع".

كان يميل الى طمس معالم الحضارات غير التركية. وهنا نسجل للاباء اللاتين، والدومنيكيين خاصة، دوراً متميزاً في احياء التراث السرياني والعربي، لا بل في انماء الحركة القومية العربية وذلك من خلال مدارسهم وكتاباتهم ومطابعهم. فالدور الثقافي الذي لعبوه ما زالت ثماره مستمرة الى اليوم بفضل الجهود التي بذلوها للكلمة المكتوبة. فكانوا الرواد في تأسيس اول مطبعة في العراق. وطبعوا الكتب الطقسية بلغاتها الاصلية لكافة كنائس الشرق، ولولاهم لضاع التراث السرياني. ناهيك عن العديد من الكتب الروحية والادبية وقواعد اللغة العربية الخ...، وليس اقلها شأنا طبعة الكتاب المقدس كاملاً باللغتين العربية والسريانية. وهاتان الطبعتان هما الوحيدتان في تاريخ العراق حتى اليوم. كما انيطت بالاباء الدومنيكيين الفرنسيين مهمة تنشئة كهنة كلدان وسريان لكنيسة العراق، وقد استمر المعهد الذي اداروه ما يقارب المئة سنة (١٨٧٨-١٩٧٥)، وأعطى لكنيسة العراق بطقسيها الرئيسين اكثر من نصف كهنتها واساقفتها[٤].

٢. العامل السياسي:

ان نفوذ فرنسا الدبلوماسي في العهد العثماني قد ساعد مهمة الاباء من دون شك. وكان بعض الاباء يتمتعون بحصانة دبلوماسية مما سهل امامهم القيام برسالتهم انطلاقاً من موقعهم الدبلوماسي. غير ان التركيبة السياسية والاجتماعية والدينية للمنطقة في القرنين الماضيين والحماية التي كانت تؤمنها الدول الغربية للاقليات المسيحية في الامبراطورية العثمانية في ذلك الزمان، لا تتيح لنا ان نقول بتسرع بان مهمة الاباء كانت سياسية. كما ان طبيعة عملهم مع المسيحيين لا تنطبق عليها صفة "المبشرين"[٥] بالمعنى المتداول اليوم في كتابات بعض الاوساط التي تحّملها زخماً سياسياً وايديولوجيا خاصاً.

هذا الايضاح لا ينفي ان تكون بعض الدول الغربية قد لجأت الى اسناد مهمة دبلوماسية ثقافية الى شخصية دينية غربية متواجدة على ارض الشرق، مما كان يصب في مصلحتها في اخر المطاف. وعلى سبيل المثال نذكر السيد عمانوئيل بابيه مطران اللاتين في بغداد في منتصف القرن الثامن عشر الذي عين قنصلا لفرنسا، وكان يحمل لقب "المبعوث

---

(٤) انظر ف. م. نيسان ١٩٧٣ — ص١٥٩-١٦٥.

(٥) حتى الخمسينات كانت لفظة "تبشيرا" أو "مبشرين" تطلق على الآباء الدومنيكيين وعلى كل الرهبان الموفدين الى البلدان الافريقية والاسيوية. وقد كان مجمع انتشار الايمان نشطا في هذا الشأن. الا ان هذه التسمية لا تنطبق على الاباء الذين كانوا في العراق وفي الشرق عامة، لانهم لم يبشروا أي شخص لاعتناق الديانة المسيحية وانما جاءوا لخدمة الكنائس المحلية. كما اننا. من جانب آخر، نندهش عندما نقرأ في كتابات بعض الاباء المؤرخين وصفهم مسيحي المنطقة انذاك بـــ "هراطقة"، أو انهم في "الضلال". لا شك ان هذا الاسلوب غريب عن عقليتنا اليوم، ويلزم ان يوضع في اطار ذلك الزمان. اننا لا نستطيع اليوم مطلقا ان ننعت احداً بأنه هرطوقي لمجرد انه ليس كاثوليكيا او ليس ارثوذكسياً.

الخاص للملك"[٦]. قد نعتبر ذلك من السلبيات اليوم لما يتركه في اذهاننا من التباس، ولكن الامور كانت تبدو طبيعية في ذلك الوقت.

اما بشأن كيانات الجماعات الكاثوليكية المنضمة حديثاً الى الشركة الرومانية على يد الاباء، وما رافق استقلاليتها عن الطوائف الام من مشاحنات او مجابهات، فلا بد ان نشير هنا الى ان الحكام الذين كانت السلطات العثمانية تعينهم ولاة على المنطقة، قد لعبوا دوراً كبيراً في اثارة النعرات الطائفية مما ادى احياناً الى الاقتتال بين الاخوة. وهذا كان اسلوب تلك السلطات أن تمارس ضغوطها على الطائفة الفلانية على حساب الطائفة الاخرى كسباً للمال وإحكاماً للسيطرة في سياسة معروفة هي سياسة "فرق تسد". وهكذا لم يخل شرقنا من التناحر الطائفي الذي يذكيه الولاة باضطهادهم احدى الطوائف وتحميل ابنائها ضرائب تفوق طاقتهم، مما يضطرهم الى اللجوء الى القناصل الفرنسيين باعتبارهم مسيحيين، من مذهبهم، لينقذوهم من ظلم الحكام بالضغط عليهم، او لاستحصال البراءات من الباب العالي لتثبيت رؤسائهم.

يضاف الى ذلك القهر، العامل الاقتصادي، حيث كانت منطقة الموصل والقرى المجاورة لها تمر بظروف اقتصادية صعبة، وقد تحمل المسيحيون العبء الاثقل بسبب الضرائب والاتاوات غير العادلة التي كانت تفرض عليهم[٧].

❋ كنيسة العراق وتيار الوحدة في العصر الحديث

بعد الحرب العالمية الاولى، ساد الهدوء النسبي في المنطقة واخذت كل طائفة تعيد ما تزعزع من كيانها. والاهم من ذلك اخذت الكنائس تشعر بمرارة الانقسام وبدات تسعى لتحقيق الوفاق والوحدة.

هذا السعي جدي في دوافعه ومراميه، ولكنه بطيء، واحياناً يتعثر او يصطدم بجدار الريبة التي لم تَزلْ تماماً. غير ان ما يدعو الى التفاؤل هو ان الكنائس قد وعت واقع انقسامها، وتلاشت تماما تلك التراشقات بالمنع والحرومات بين الكنائس، والمسيحيون على مستوى القاعدة قد افاقوا وحنين الوحدة يحرك قلوبهم. ولقد حدث في السنوات الاخيرة من التغييرات ما لم يكن يحلم به مسيحي من قبل. فقبل المجمع الفاتيكاني الثاني كان الحذر لا يزال يرافق اللقاءات بين الطوائف —وكانت هذه اللقاءات تقتصر على المناسبات الرسمية جدا— وجاء المجمع ليشكل منعطفاً تاريخياً. ان الاتجاه الذي رسمه المجمع —كما جاء في تعليق

---

(٦) نشرت مجلة بين النهرين (٤٣/١٩٨٣) مقتطفات من التقرير الذي رفعه المطران بايبه الى البابا بندكتس ١٤ سنة ١٧٥٣، ذاكراً فيه خلاصة اعماله خلال ربع قرن من نشاطه الرسولي في ربوع ارض الرافدين. ولهذا التقرير اهمية تاريخية لما يشرح فيه من حال نصارى العراق في القرن١٨.

(٧) راجع كتاب: تاريخ ابرشية الموصل السريانية للمطران غريغوريوس صليبا.

العديد من اللاهوتيين الكاثوليك— هو فتح الحوار بين الاشقاء وليس "رجوع المنشقين" حسب العقلية القديمة لاجدادنا. اليوم لا يطلب من اية فئة الانضمام الى فئة اخرى بالمفهوم القديم، الا بقدر ما يطلب الى الاخوة ان يعودوا الى بعضهم البعض بعد طول افتراق، وشخص المسيح نفسه هو عروة هذه العودة.

من جهة اخرى، اخذ الشعب يدرك ان الانفصال في الكنيسة وان البدع والهرطقات هي من عمل المدارس اللاهوتية والفكرية والرؤساء، واذا كانت الوحدة تتعثر في طريقها، فالسبب يعود الى الرؤساء انفسهم الذين يتمسكون بكراسيهم: هذه هي فكرة الناس. لذا فمن الافضل الا نتكلم عن وحدة الكنيسة —اذا ما قصدنا بالكنيسة رؤساءها وحدهم— انما عن وحدة المسيحيين.

ولكن لنعد الى التاريخ. فمن تتبعه ملياً وجد انه بالرغم من الانقسامات المتلاحقة، بقيت الشركة عميقة في الجذور. ومن منطلق تلك الشركة والوحدة الجوهرية، بالرغم من مظاهر الفرقة، تجددت النيات نحو الوحدة الكاملة، وتنقت الاجواء التي كانت غائمة في السابق. فالزيارات واللقاءات الرسمية والاعتيادية والمؤتمرات التي تعقد هنا وهناك بين ممثلي الكنائس الشقيقة قد خففت كثيرا من التوترات بين المسيحيين. كما ان كثيراً من النقاط التي كنا نظن انها تشكل نقاط انفصال بين الكنائس، ظهر، على ضوء المحبة والتفاهم، انها ليست كذلك (راجع البيانات المشتركة في مناسبات الزيارة التي قام بها قداسة البطريرك يعقوب الثالث وزكا عيواص لقداسة البابا يوحنا بولس الثاني: انظر ف. م. حزيران/ تموز ١٩٨٠ ص٢٤٨ وآب/ ايلول ١٩٨٠ ص٢٩٦ وآب/ ايلول ١٩٨٤ ص٢٥٠).

قد يقول البعض ان هذه الزيارات الرسمية قد ظلت على صعيد البروتوكولات أو المجاملات. ليس ذلك صحيحاً تماماً، لان الزيارات قد رافقها تحول في الذهنيات وخطوات عملية: الصلوات المشتركة، الندوات اللاهوتية، الزواجات المختلطة.. وغيرها من المبادرات العملية التي انما تكشف عن رغبة اكيدة وعميقة في تحقيق الوحدة. بيد ان الرغبة وحدها لا تكفي ما لم تتبع منهجاً سليماً وتتجاوز التعايش الى التخطيط والمتابعة واقتران النيات بالانجازات. فاسبوع الصلاة من أجل وحدة المسيحيين (١٨–٢٥ ك٢) مثلا، كان مهما نظراً لِّلقاء الاخوي والروحي الذي كان يشكله باسم المسيح الذي يجمعنا، وحوله تتم وحدتنا، غير انه كان يبدو مبتوراً لعدم اطمئنان الشعب الى ما لا يقوم به الرؤساء من خطوات منتظرة. لذا توقف. ولكن اذا حسبه البعض مجرد تكريس لحالة الانقسام، فقد نجح ايضا ومن دون أي شك في التوعية الوحدوية والتعبئة —ولعلنا لا نقيّم ذلك بانصاف.

مهما كان من امر، فهناك ارضية من خيبة الامل تصاحب حياة الشعب، لان عقدا كثيرة لا بد من تصفيتها، اولا، لتغيير العقليات والتحلي بالشجاعة اللازمة للقيام بمزيد من المبادرات العملية الملموسة لتحقيق منهج امثل لتنمية الروح المسكونية بين المسيحيين. ان

معظم المؤمنين لا يفهمون معنى الجدالات اللاهوتية التي ادت الى انشطار الكنيسة، فالشعب يهتم بالأمور اليومية: تهمّه الصلاة المشتركة، والعيد الموحد، والمشاركة الفعلية في الاسرار..

هناك قضايا هامة ما زالت تصطدم بجدار الرؤساء، قضايا تهّم الكنيسة ككل وليس طائفة واحدة: مثل مسألة التعليم المسيحي لجميع الطلبة المسيحيين مع منهج دراسي موحد؛ مثل مجمع يضم اساقفة العراق، يلتئم دورياً للتداول في المسائل المشتركة المعلّقة، كنسياً ومع الدولة؛ مثل تنشئة الكهنة وقضية اقامة معهد كهنوتي مشترك لمختلف الطوائف.. وغيرها. ما لم تحل هذه القضايا —وتركها معلقة يشكل خطورة حقيقية على مستقبل كنيستنا العراقية— فكل كلام عن الوحدة يبقى في الهواء.

✵ خاتمة

ونختم عجالتنا هذه بالتعبير عن قناعتنا من ان التواضع هو الطريق الامثل في بناء الوحدة. والتواضع يعني في ما يعني عودة الى الجذور المشتركة مع الحفاظ على خصوصيات كل كنيسة، لان الوحدة ليست ذوبان ذاتية الكنائس في كيان ظاهري واحد، وانما هي قبول حقيقة الاخر، وصولاً الى الاعتراف الفعلي به ضمن وحدة الايمان لا ضمن أوجه التعبير عنه. الحقيقة تنفع ولا تضر، وانما طمس الحقيقة هو الذي يضر، وللحقيقة الواحدة أوجه تعبيرية عديدة، تتكامل ولا تتنافر بالضرورة. ويتوقف كل شيء في النهاية على الروح، على الجو، على الصفاء الذي ننظر به الى الحقيقة ونبحث عنها.. والروح هو الذي سيتم فينا ما قد بدأه.

الاب افرام سقط

١٣ ام الفادي

السنة الثالثة والعشرون: ت ١-ت ٢ ١٩٨٧

الفهرس

- افتتاحية : العذراء مريم ام المسيح وامنا
- المقدمة
- القسم الاول : مريم في سر المسيح
  ١. الممتلئة نعمة
  ٢. طوبى للتي آمنت
  ٣. هذه امك
- القسم الثاني : ام الله في الكنيسة في مسيرتها على الارض
  ١. الكنيسة شعب الله الحاضر في جميع امم الارض
  ٢. مسيرة الكنيسة ووحدة جميع المسيحيين
  ٣. انشودة الكنيسة في مسيرتها على الارض
- القسم الثالث : الوساطة الوالدية
  ١. مريم امة الرب
  ٢. مريم في حياة الكنيسة وحياة كل مسيحي
  ٣. معنى السنة المريمية
- الخاتمة
- الهوامش

كان اعلان البابا يوحنا بولس الثاني عام ١٩٨٧ "سنة مريمية" دافعاً **للفكر المسيحي** الى جعل رسالته العامة "ام الفادي" موضوعاً للعدد الخاص، رغبة منها في ان يكون للعذراء، اسوة بيسوع، عدد خاص!

هذه الرسالة البابوية التي جاءت في الذكرى الالفين لميلاد العذراء مريم، لتسبق الذكرى الالفين لميلاد المسيح (!) نقلها خصيصاً للفكر المسيحي الاب البير ابونا.

اقسام ثلاثة تضمنتها الرسالة هي المحطات الكبرى في حياة مريم: فهي التي، منذ البشارة، ولجت الى سر المسيح، ومن ثم شاركته رسالته الخلاصية ورافقت مسيرة الكنيسة، واصبحت بالتالي وسيطة شعب الله...

(...) كان من المتوقع جداً أن يخص يوحنا بولس الثاني العذراء مريم برسالة عامة -بعد أن خص المسيح "فادي البشر" برسالته العامة الأولى (١٩٧٩)- وهو الذي أصبح حبه "للسيدة" أم الفادي مشهورا وتعلقه بها مضرب المثل، بحيث لا يخلو خطاب او عظة من ذكرها والاستغاثة بها، ولا تكاد رحلة من رحلاته تخلو من حج إلى احد مزاراتها الشهيرة (لورد، فاطما، كوادالوب...)، وفي مقدمتها "شيستوكوفا"، أعظم مزار في بولونيا -وقد زاره ثلاث مرات وهو بابا! ومما لا شك فيه هو أن اقتراب العام الألفين للميلاد حمل البابا على إعلان سنة مريمية، احتفاء بالذكرى الألفين لميلاد العذراء (...)

ففي هذه الرسالة التي مطلعها "أم الفادي"، يرسم يوحنا بولس الثاني مسيرة الكنيسة نحو ملكوت الله، مسيرة اتسمت بالايمان والحب على شبه المسيرة التي قطعتها مريم، يدا بيد، مع ابنها يسوع، ومن ثم، يدا بيد، مع الكنيسة الناشئة. (...)

كتاب "الافتتاحيات"/ص ٣٣٨)

١٤ الاطفال... امل المستقبل

السنة الرابعة والعشرون: ت١-ت٢ ١٩٨٨

الفهرس

• افتتاحية: للدخول في عالم الاطفال	رئيس التحرير
الطفل/الانسان	
• الطفل... هدف وامل	أ. يوسف حبي
• النمو الاجتماعي للطفل	صباح حنا بقي
• اخلاقية الطفل	يوسف حنا للو
• الطفل واوقات الفراغ	عاصم عزوز
• الفن في الصغر	ماهر حربي
الطفل ... "ابن الله":	
• كينونة الطفل الانجيلية	أ. لوسيان جميل
• الاطفال والتوجهات الدينية	يوسف حنا للو
• دور الاسرة في التربية المسيحية	أ. افرام سقط أ. يوحنا عيسى الاخت لويجينا ساكو أ. يونس عقاص
الطفل في المرآة:	
• "الملحق" للصغار	اشراف: ماهر حربي
• طاولة: وسائل تربية الطفل	نجيب قاقو برنادیت تورکیس
• لقاءات: مع احاديثهم	...
• شرعة حقوق الطفل	الامم المتحدة
• احب الاطفال	ميشال كواست

كانت "**الفكر المسيحي**" قد احتفلت بالعام الدولي للطفل بمناسبة الذكرى العشرين على شرعة حقوق الطفل"، عبر مقالات تخللت العام ١٩٧٩. وها هي تخصهم بعدد عشية الذكرى الثلاثين على الشرعة!

وجاء هذا العدد متكاملاً من حيث شمولية المواضيع وعمقها. وتكفي نظرة الى الفهرس لتكشف عن الجوانب المختلفة التي تناولها... وقد وزعت على ثلاثة محاور: "الطفل-الانسان"، حيث انكبت المقالات على كون الطفل هدفاً واملاً، مشددة على الوجهتين الاجتماعية والخلقية... وفيما تناولت مقالات اخرى الطفل بصفته "ابن الله"، عبر التشديد على كينونته الانجيلية ودور الكنيسة والاسرة في التربية المسيحية، اصدت مساهمات والدين ومربين تحت محور "الطفل في المرآة"، لعالم الطفولة الفسيح -ولم تغب عن العدد مكانة الفن... فيما خصص "ملحق" للصغار -من تصميم الفنان ماهر حربي- لكَم تمنت "**الفكر المسيحي**" ان يكون له امتداد...

(...) لسنا نريد ان "نسوّد" الصفحة في مفتتح هذا العدد الخاص عن الطفل! فاذا لفتنا الانتباه إلى معانيات الأطفال، من جرى التجاوزات على حقوقهم والاستلابات التي يخضعون لها، فلكي تتضح أمامنا ملامح طفولة نريدها تحظى بالحب والاستقلال والثقة وكل صنوف الاهتمام والرعاية. ففي نطاق الأسرة، نطمح ان يُنجَب الأطفال بروح الأبوة والأمومة المسؤولتين، بحيث يكونون "مرغوبين"، يحترم حقهم في الحياة وفي حياة حرة كريمة، بعيدا عن وصاية لا تعرف الحدود! كما نتمنى أن ينموا في مناخ من الثقة والتفهم والتوجيه السديد، بما يجيب إلى انتظاراتهم العميقة، ويمكنهم بالتالي من أن يمسكوا بأيديهم زمام مستقبلهم. وفي نطاق المجتمع بشكل عام، والمدرسة بشكل خاص، نتطلع إلى تربية رصينة متماسكة تكون قادرة على ان ترعى نمو الأطفال الخلقي والاجتماعي، بما يحقق لهم شخصية مستقلة، متوازنة، طموحة... وفي نطاق الكنيسة، نصبو إلى تربية مسيحية مستنيرة جديرة بان تنمي في الأطفال بذرة الايمان الراسخ (...)

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٣٦٦)

الطفل هدف وأمل

ليس ليس من السهل التحدث عن الطفل، على العكس مما قد يتبادر الى الذهن لأول وهلة. فقد يقول البعض "انه طفل". الا ان هذا الطفل بالذات هو أمل المستقبل، وهو بذلك يكشف عما يجيش في أعماقنا من آمال، ويفضح تصورنا للمستقبل، لذا فهو اكبر بكثير من سائر محاولات الاستصغار والانتقاص والابقاء على القليل المحدود الضيق النطاق، لان الكل والكلية في الصغائر والقلائل، متى كانت ذات محتوى اصيل صادق عميق.

قال جسترتون يوما معاتبا الاهل: أولادكم لآلئ نفيسة بديعة، ألا قلتم لي ماذا تفعلون لكي تحولوهم فحماً أسود؟ وبين المفهومين (انه طفل...) و(الطفل أمل المستقبل) بون شاسع! هل بوسعنا في هذه المحاولة المقتضبة ان نعمل على تقريب وجهتي النظر المتباعدتين، ولو بضع خطوات؟ اما ان يقنع الجميع بمفهوم واحد عن الطفل، فذلك امر يتطلب الكثير، وهي المشكلة الاساس، لذا كان لا بدّ من مناقشة المفهوم الذي نحمله عن الطفل والاطفال.

وتختلف هذه المناقشة عن سواها، لان مواضيع كثيرة قد تهمك من بعيد أو قريب، وقد تظل حياديا او باردا حيالها. اما موضوع الطفل فيخص الجميع، اذ من لا يعنيه الطفل، أو ليس له اطفال، أو لم يكن يوما

اكبر مشكلة يعاني منها الاطفال تكمن في ان الكبار لا يعترفون لهم بعالمهم الخاص، ويعتبرونهم قاصرين دائماً ابداً، ويتعاملون معهم وكانهم دمى تُعجن وتصاغ، وفق قياسات تستلهم الماضي وقلما تأبه لحاضر الاطفال وحاجاتهم وتطلعاتهم وانتظاراتهم...

الطفل انسان ... وسرّه سر الانسان في كل ابعاده ... وعالمه مجموعة من المفاهيم والقيم والحاجات والمطاليب ... وهو في قلب الاسرة "شاهد للحب" بين والديه وضمان وحدتهما وديمومة حبهما. انه اشبه ببذرة تنمو وتنضج وتثمر ... وعلى الكبار ان يرعوا تفتحها ونموها واكتمالها ...

تلك ملامح من هذا المقال الذي اراده الاب يوسف حبي نداء يلفت الانتباه ويستحث الهمم ويضع النقاط على الحروف في موضوع حيوي يعنينا جميعاً ويضعنا جميعاً امام مسؤولياتنا، طالما ان على نوعية الاطفال الذين ننجب ونربّي، يتوقف المستقبل الذي نريده يكون افضل واكثر اشراقاً ...

طفلا، أو يعدّ نفسه لاطفال، أو هو مسؤول عن اطفال؟ وحين يعنيك شيء، يكون اهتمامك به اكثر؛ وحين يتوقف على ذلك مصير العالم، فالعناية تزداد اضعافا.

❋ليس الطفل تكرارا للماضي

من أخطائنا الاجتماعية الحياتية الشائعة اننا لا نعيش الحاضر، او نعيشه بسطحية ولا مبالاة ليس الا، بينما نعيش الماضي والمستقبل، في خيالنا، وتفكيرنا، ومخططاتنا. وتعيس من لا يعيش حاضره بوعي وعمق. لذا كان التخلف نصيبنا، لاننا نبكي الماضي أو نمجده ونتخيل المستقبل ونصبو اليه؛ ويظل الحاضر الذي يجب ان نحياه، غير حاضر في واقع حياتنا، فلا ننجز ما يجب ان ننجزه بشكل جيد، ولا نجابه الظروف الراهنة كما ينبغي، ولا نحيا اللحظة الآنية القائمة فنأتي بشيء مفيد. هذه حالنا حيال مشاريعنا الحياتية، والآخرين، وكل شيء. والطفل ايضا ضحية عقليتنا هذه.

فان معظم الوالدين يريدون اطفالهم نسخة طبق الاصل عنهم. تسمعهم يرددون تكراراً: "انا، اذ كنت طفلا، كنت... أما اطفال اليوم...". وفي الامر شيء من الصحة، لان أي طفل هو ابن زمانه ومكانه، بكل ما في ذلك من جذور وأصول وخلفيات وانتماءات، وليس سليما التنكر لهذه الروابط، بل لا بد من أخذها بنظر الاعتبار لدى محاولتنا تشخيص أي واقع، ورسم أي نموذج، بما يتفاعل وواقع الحياة، ويخضع لمسيرة التاريخ. انها معايير اتزان، وهي ضوابط تجنبنا مزالق كثيرة قد تجرنا الى ما لا تحمد عقباه.

انما الطفل "انسان"، والانسان شخص، وكل شخص انساني "فريد"، بمعنى انه نموذج لا يتكرر. تقول الفلسفة التقليدية: البشر كالنجوم، يختلف كل نجم عن نظيره. ويقول الفكر المعاصر: كل انسان وحدة متميزة، بل عالم خالص. وقد كتبت صفحات رائعة في موضوع (الانسان عالم صغير). لذا لا يمكن ان يكون الطفل تكرارا لأبيه أو لأمه، ولا للماضي أياً كان. انه "آخر"، يختلف عن جميع الآخرين. وهو "جديد"، وكل طفل جديد، وهذا هو سرّه. وسبب ذلك انه انسان.. وعديدة النتائج المترتبة على هذه الحقيقة.

❋ سرّ الطفل

الطفل بداية جديدة، وككل بداية، مطلوب من الجميع التنبّه لها بشكل مركز، وككل جديد لا بد ان يكون ثمة ما يثير. وكم من ولادات غيّرت عائلات بكاملها.

بفضل الطفل نفهم عملية الخلق. فالولادة فعل خلاّق، و "صنع" الطفل يتطلب شجاعة، وايمانا، وسخاء، وأملا. وليس من فعل يقترب فيه الانسان من الله بقدر عملية الانجاب. لذا فالانجاب ليس عملية "طبيعية"، "بيولوجية" لحفظ النسل وحسب، بل فعل خلق انسان جديد، فريد، لا مثيل له في الكون، لا سابقا ولا لاحقا؛ بداية تاريخ آخر، وهو نشدان أمل كبير.

لماذا؟ لان الانسان هدف، وغاية، وقمة، لا وسيلة واداة ومرحلة عابرة.

وقد يعترض احدهم فيقول: انما خلق الانسان لكي... فهو اذا وسيلة، لا غاية. فنقول: لو كان الانسان مسيّرا بشكل آلي، لكان -كما تقولون- أداة وواسطة؛ لكنه حرّ، هكذا أراده الله، شخصاً واعياً حراً، بوسعه ان يختار بين هذا الفعل وهذا الشيء وبين غيره. والانسان، انما بفضل حريته، يبني ذاته أو يهدمها، فهو اذاً غاية وهدف، يحقق ذاته وفقا لمخطط الله باريه، أبي الخير والحب، بقدر ما يضع في حياته من أصالة وشفافية حرية في الاستجابة لنداءات الله والكون والضمير والبشر، من خلال حب مبدع في تحقيق مسيرة حياتية رائعة. وليسمح لنا ان نبالغ فنتحدث بتعابير بشرية قائلين: ان الله الذي أبدعنا على صورته ومثاله، اشخاصا واعين احرارا، لن يعمل على تعتيم بصيرتنا أو خنق انفاسنا الحرة، بل هو على العكس من ذلك، يهيء لنا الاجواء ويقدم كل المعونات لكي نبصر بنوره درب حياتنا، ونختار بملء حريتنا ما يبني ذاتنا ويجملّها ويديم تجددها.

ولان الانسان شخص وليس شيئا، فهو عظيم؛ وحتى هذا الطفل، قطعة اللحم التي كلها فم مفتوح على الاكل والصياح والبكاء، هو شخص انساني، به يستعيد المرء بداياته التي لم يفطن لها، ويتأمل واقعه، ويذكر أمانيه، ويرى "الانسان"، كما اراده الله حين خلقه وقال: انموا واكثروا واملأوا الارض واخضعوها.. واعملوا، وابدعوا، وكونوا.. فانتم اكثر بكثير مما بوسع الحواس ان تخدع وتقول.. وهو سرّ الرمزية بمعناها الاعمق. اذ ليست الهدية التي تقدمها الى صديق بقيمتها المادية، مهما كانت القيمة ثمينة، بل هي بقيمتها المعنوية، لان لهذه فقط الدلالة الصحيحة على مدى حبك. لذا، فبقدر ما تضع فيها من مشاعر، تعبيرا عن صداقتك، بقدر ذلك تكتسب الهدية قيمة لا يمكن ان تقاس بالمكاييل والموازين الاعتيادية، وبوسع الحب وحده ان يكشف ذلك. هكذا الطفل ايضا، اذ بوسع الاهل والمحبين وحدهم ان يكتشفوا قيمته، متخطّين هذه الكتلة اللحمية الجسدية المادية، مميزين اياها عن سائر الاطفال، فهو طفلهم، لا أي طفل آخر.

صحيح ان الطفل يقلّد، فيبدو وكأنه يفعل كالآخرين، ويغدو بذلك وكأنّه نسخة طبق الاصل من هذا او ذاك، انما لاحظوه جيدا، وواكبوا مسيرة حياته خلال اشهر قليلة، ترون انه نموذج خاص، مختلف عن الآخرين، بل عالم آخر، يلزمك على ان تهتف اذ تقف امامه منذهلا: من أين لهذا هذا كله؟...

✻ الطفل شاهد الحب

تكون بداية كل طفل بوحدة طبيعية جسدية هي وحدة الزوجين نتيجة اتصالهم الجنسي، انما لا بد ان تكون هذه العلاقة عاطفية ايضا، ونفسانية، وروحية، لكي تتخذ طابع علاقة انسانية صحيحة. لان ما يجمع الرجل والمرأة اكثر من مجرد اتصال جنسي. انه وثاق زواج، وعهد حب، وشركة حياة. انه فعل حر، انساني، عميق، دائم، مقدس. والمفروض

ان تنمو هذه العلاقة في حياة المتزوجين، فلا تظل كما في البدايات. وليس اعظم من الطفل نفسه في المساعدة على هذا النمو النوعي والتطور نحو الافضل، لانه وثاق محكم الوشائج يشد الوليد الى والديه، وهذا الوثاق اقوى من وثاق الزواج عينه. فالولد ثمرة حب الزوجين، فيه يقدم الرجل والمرأة لبعضهما اجمل ما لديهما، واعظم ما يتمكنان، بكل شجاعة وسخاء وتجرد وسمو، فيغدو ما يقدمانه كلاهما شيئا واحدا، بل شخصا بشريا واحدا، فيكونان بذلك حقا جسدا واحدا، انسانا واحدا، في شخص وليدهما المشترك الواحد، ثمرة عطائهما، ويحقق الوليد الطفل وجودهما وخلودهما؛ لذا اقتضت الولادات وعيا، وحرية، ومسؤولية، لا انجابا طبيعيا، ماديا، آليا، روتينيا وحسب. الطفل شاهد الحب، يجسد حب اهله، حتى يغدو الحب خلاقا، لان الحب سرّ يتخطى الحياة الاعتيادية، فيغدو الاب أبا حقاً، والام أمّا حقيقية بفضل حبهما المتجسد في هذا المخلوق الصغير.

❋ الطفل الرافض

فمن البديهي ان يرفض الطفل أي شيء يتعارض مع حياة حب صادق، عميق، دائم.

"أنظر انه يرانا".. عبارة بل صرخة استنجاد تصدر عن احد الزوجين من وقت لآخر، تدل على ادراكهما بانه عليهما ان يكونا نموذجا كاملا، قدر المستطاع، لطفلهما. فالطفل منذ الايام الاولى بعد الولادة، لا يبقى فماً يلتهم، ولعبة تصرخ وحسب، بل يغدو عيناً كبيرة ترى كل ما يقع تحت النظر. وكالشاشة الحساسة تنطبع الصور التي يشاهدها الطفل في قرارة نفسه فتختزنها اعماقه بحرص شديد؛ وسوف يتم تحميضها وطبعها عندما يكبر ويعي أمور الحياة، لان الطفل الصغير هذا مدعو الى التعرف على ما حواليه، وادراك الامور، كما انه مدعو خاصة الى الحب، فيتحسس كل ما ليس من الحب، ويميز ما بين النظرة المُحبّة والحاقدة، البريئة واللاأبالية، وبين عاطفة الصدق والحنان وعبارات المجاملة وحركات المراوغة. الطفل مرهف الاحساس، بل كله احساس، لذا كان تمييزه لهذه الامور شديدا.

الطفل شاهد على خلافات أهله. حضوره في حضن العائلة يجعل علاقات الزوجين مكشوفة، فلا تبقى تصرفاتهم في الظل والظلام، بل في النور الوضاح المشرق. وكثيرا ما يسوّي وجوده خلافاتهما، فتعود المياه الى مجاريها بين الزوج والزوجة، ويعمل على خلق الاتزان في حياتهما، فلا يكون احدهما متسلطا على الاخر، لان كليهما ضعيف امام هذا الطفل الصغير، وهو الاقوى بين الجميع.

لو لا الاطفال، لانهارت عائلات كثيرة بسبب الخلافات بين الزوجين. ذلك ان الطفل يكشف عن الخلافات بينهما، حتى متى كانت بسيطة طفيفة؛ اما الخلافات العميقة، فيفضحها بشكل صارخ، لا يصده اعتبار، ولا يوقفه مانع. ويظل الحنان الابوي والامومي السند والشراع والمرفأ لجميع الاطفال.

✵ الطفل بذرة تنمو

يرتضي معظم الوالدين عندنا اطفالهم، حتى لو كانوا كثيرين، فهم –الاطفال– ورود، وطيبون. ويتمنى هؤلاء الآباء والأمهات لو احتفظوا بورودهم نظرة زاهية الى الابد. ونراهم لا يكلّفون انفسهم احيانا حتى سقي هذه الزهور بالماء، والحرص على ان تعيش في أجواء ملائمة. مثل هؤلاء ينسون ان الطفل ليس وردة اصطناعية، ولا طبيعية جاهزة جامدة، بل بذرة تنمو، ونموها لن يكون الا في بيئة صالحة، تسقى بماء وتحظى بالنور، فتتغذى وتكبر، واحاطتها بالعناية الكافية يتيح لها ان تغدو غرسة متناسقة جميلة تعطي وردا زاهيا، وتبشر بثمار يانعة.

دعوة الطفل هي في ان ينمو ويكبر، لا ان يظل طفلا نرتضيه لانه أداة طيّعة، ولعبة جميلة، لا يتعبنا في هذا الطور من الحياة، ولا مشاكل له، كما للمراهقين، والشباب، والكبار، فهنيئاً له ولنا. بينما دعوة الكبار ان يكونوا هم كالاطفال، وليس بالعكس. وتعني الطفولة المطلوبة من الكبار نقاء افكار وصفاء نوايا ومرونة في التكيف وقبول التجدد الدائم. وهي جدلية تزيل الحواجز بين الكبار والاطفال، وتجعلهم قريبين من بعضهم اكثر بكثير مما قد يتصور من يتطلع الى الامور بنظرة سطحية.

وحين نقول نمواً، نعني تكاملا، لا تضخّما وانفجاراً. اذ ليس النمو سليما ورائعا الا اذا كان متناغما ومنسجما من جميع الوجوه، وعلى سائر الاصعدة وفي شتى المراحل، ووفقا للموازين والقيم المثلى. والفرق كبير بين غرسة تتضخم فلا تعير اهتمامك، وقد يضحكك منظرها أو يؤلمك، وبين غرسة سليمة صحيحة تعلو متناسقة الابعاد وتزهر وتثمر، فتتباهى بكمالها وجمالها وعطائها.

لكننا نفضّل ان نحتفظ بالاطفال أطفالا، ونظن ان لا أسهل من التعامل مع الاطفال، ونحن في هذا مخطئون. فالطفل شخص مرهف الحس، كما قلنا، متوثّب الوعي، سريع النمو. ولان الشخص البشري أكمل ما في الكون المرئي، والطفل نموّه سريع، كانت رعايته من أصعب المهام، لا سيما ان شئنا ان يبلغ شأنا له وزنه، وفقا لدعوته الخاصة في الحياة. واكتشاف الدعوة ليس بالامر الهيّن، اذ يتطلب دراية وخبرة وصبرا وتقبلا للمتحول والمتغير الجديد، وهذا ما يستصعبه الكبار. بينما الطفل عالم مفاجآت لا نهاية لها، وعلينا ان نواكبها باستمرار. كما علينا ان ننمو نحن ايضا مع اطفالنا، فيتحقق الهدف المنشود.

ان ما نسميه "اللعب" بمصطلح شعبي لا يقيم وزنا صحيحا للعملية التكوينية والنفسية والتربوية –ويتزعج منه كبار السن عادة فلا يطيقون الاطفال– هو الذي ينمي الطفل ويبرز قابلياته ومواهبه؛ لانه في الواقع، باللعب يتم التعرف على الطفل، وباللعب يكتشف الطفل عالمه الخاص. وقد يجوز ان تخطئ في حكمك عليه، بسبب ما يقوم به الطفل من ألعاب نتيجة ظروف وتعود وقسر، انما بفضل الالعاب ينكشف الطفل رويدا رويدا. لذا

لا يحق لنا ان نحدّ من نشاط الطفل هذا، أي من اللعب، ولا ان نلجأ الى أساليب المنع وأوامر التحريم في تعاملنا معه؛ كما لا يجوز ايضا ان نتركه يتصرف على هواه، بتسيب وتساهل ولا مبالاة... لان التوجيه ضروري، انما يتم التوجيه بعد تفهم واحتضان، ثم الارشاد والتعليم وفق مواهب الطفل وقابلياته، فيأتي الابداع، ربما بعد سنين، لكنها الاسس والمبادئ منذ الايام والاشهر الاولى.

* الطفل يخلق آباء وأمهات

بفضل الطفل يصبح الرجل أبا، والمرأة أمّا. وليس أسمى من الابوة والامومة في حياة البشر. انما لا يظن احد ان كل من أنجب طفلا هو أب، وكل من ولدت أولادا هي أم. فالانجاب عملية طبيعية، والابوة والامومة على الصعيد الانساني، اكثر من عملية انجاب. وقد يصل العلم يوما الى "انجاب" اطفال، لا آباء وأمهات لهم، أو ان يكون ثمة اختيارات لا سند طبيعيا لها... اما الابوة والامومة، فعاطفة وحسّ، وحنان وحياة وحب، ومسؤولية والتزام، بل حياة عطاء مسؤول. وللطفل دور في تحقيق حياة مثل هذه.

والابوة والامومة خلود. فالانسان لا يموت اذا لم يهدم ذاته، فيهلك ويفنى؛ وهو خالد في ما يصنع ويبدع، عاملا على تكوين ذات ابدية بفضل الذات الازلية الخالدة. والاولاد استمرار لذات الرجل والمرأة، الاب والام. ولكن لا ينجب المرء أطفالا لكي يخلد اسمه وحسب، بل انطلاقا من رغبة عارمة في البقاء والخلود، وبغية ترك شيء ذي قيمة كبيرة، وهل أعظم من الانسان؟ وبقدر ما تكون نزعة البقاء شديدة لدى الانسان، بقدر ذلك يكون شوقه عظيماً الى انجاب اطفال. وحين لا يكون في حياة الانسان ما يشعره بانه شخص عطاء مبدع وانسان عمل خالد، كقيامه باعمال بنّاءة تنفع الكثيرين، ويكون في الوقت عينه محروما من الاولاد، فهم الثمرة الطبيعية والامتداد العفوي والتواصل الاعتيادي في حياة المرء، رجلا كان أو امرأة، أقول: حين ينعدم هذا كله، تحدث المأساة، وقد تشتد عاطفيا فتتحول الى أزمة نفسية قلما يجتازها بسهولة، وهذه حال المرأة عادة، لا سيما تلك التي لا عمل لها سوى العمل البيتي الذي لا تظهر نتائجه خارج محيط العائلة.

اما الانسان العميق، فهو أب وأم، سواء أنجب أولادا أو لم ينجب. انه أب وأم لاولاد كثيرين، ولجميع الاولاد الذين يعرف ان يكون لهم أباً او أما بانفتاحه المعطاء، وبذله السخي، وروح المسؤولية الملتزمة. وللاولاد في هذا كله دور كبير، فهم من يصنعون لهم آباء وأمهات، لانهم بحاجة ماسة الى الوالدين ولا يكتفون بابيهم وأمهم الطبيعيين، بل هم بحاجة الى أكثر من أب وأم؛ لان الانسان، والطفل منذ ساعاته الاولى، عالم بكامله، وحاجة الطفل الى أكثر من أب وأم نابعة من مفهوم الانسان السليم القائل بالنمو والتكامل. لذا كان جميع المربين والمبدعين والمساهمين، بشكل أو باخر، بصورة مباشرة او غير مباشرة، في عملية نمو الطفل وتكامله، آباء وامهات له.

وكم من رجل وامرأة لم يكونا ليصبحا آباء وأمهات لولا اطفال فرض وجودهم واقعا لا مفرّ منه، وتطلّب واقعهم التزامات، فتكونت شخصيات، وتحققت انجازات لم تكن لتكتمل بدون الاطفال... فصحيح بان الاطفال من صنع والديهم، انما صحيح ايضا بان الوالدين من صنع أولادهم. وكما ان الاهل معلّمون لاولادهم ومربوّن، هكذا الاطفال مدرسة لوالديهم. انها جدلية الاخذ والعطاء، لانه عطاء واع، وحياة حب.

✻ الطفل بالامس واليوم وغدا

سابقا كان الاهل يريدون الاطفال لاسباب اجتماعية واقتصادية نفعية. فهم حلقات تواصل واستمرار للعائلة، وعناصر جديدة في نموها وازدياد عدد أفرادها، لكي تغدو عشيرة كبيرة وقوية؛ فالاطفال والاولاد أياد عاملة توفر المال والجاه. أما اليوم، فقد بات الميل نحو الاطفال بقدر ارتياح الاهل اليهم، لان كل شيء هو جاهز، لا سيما في المجتمعات المتقدمة. لذا قلّ عدد الاطفال، وشحّت الولادات، على الرغم من شبه انعدام وفيات الاطفال التي كانت كثيرة في السابق. وفي أجواء متطورة سليمة، بوسع حياة الحب ان تسود، شرط ان يتخلى المرء عن مقاصد انانية مهما كان نوعها.

وقد تتحكم ظروف اجتماعية وغيرها، فتتطلب زيادة في عدد الاطفال او الانقاص من ذلك، انما ينبغي ان لا تكون قسرية وفوقية، لانه لن تؤدي الى نتائج محمودة. كما يجب ان تتخلى عائلاتنا عن محاكاة تقليد اعمى لما يحدث في بلدان أجنبية، لان أمورا كهذه لا يجوز أن تؤخذ منعزلة عن تكويننا الاجتماعي والحضاري والواقعي، فقد تسبب الأذى. وظاهرة ما بعد الحرب عندنا ظاهرة خاصة، ينبغي أخذها بنظر الاعتبار لدى تناولنا موضوع الطفل والولادات والاسرة والمجتمع.

الطفل مسؤولية كبيرة، بل أعظم مسؤولية. ضعفه يجعله بحاجة الى حماية، كالوردة والثمرة، وادراكه الطبيعي البدائي يحمل الاهل والكبار لزوما على التفكير في معنى حب التملك وابعاد الحياة المادية، ووضع عالمنا الصعب، مع ما فيه من مستلزمات وواجبات يحثنا على عدم ارتكاب أخطاء ضد الآخرين، واول الآخرين بالنسبة للاهل أولادهم.

وشاعرية الطفل تجعله يركض، ويغنّي، ويلعب، ويتحدث الى الاشياء، والى الجميع، دونما حرج أو تمييز. فهو ارض مجهولة، وغابة، وصحراء، وبراءة، وحرية، تعمل كلها على نمو الزوجين الشابين، فيكبران، متخطيا كل منهما نفسه، حتى يصيرا شريكي حياة واحدة، هي حياة عائلة سعيدة، لا يبحث فيها الواحد عن من هو الاكبر، بل تؤهلهما الى مذاق حالة الفردوس، فيقدم الواحد للاخر أجمل ما يقوى عليه، وما له، وما هو.

ولغة الطفل هي في المشاركة العميقة. قد يبدو ظاهريا وشكليا انه اناني، اذ يساوي بين الذات والموضوع، والواقع والخيال. ونستشف من تصرفاته بان عقليته محدودة،

محصورة ضمن نطاق (أناه)، لكننا اذ نفكر في واقعه مليا، نكتشف بانها لغة خاصة يجب ان نفهمها ونتعلمها، ونتعامل بواسطتها مع اطفالنا، فتتسامى نظرتنا السطحية اليهم لتبلغ نظرة فيها من سر البدايات الجميلة؛ وككل بداية عظيمة، نراها تنطوي على حقائق ذات معان كبيرة، لان ما يربط الطفل بذويه علاقة لا يمكن حصرها ضمن مفهوم معين او نطاق محدود خاص. انها علاقة الانسان بالانسان.

ويمثل الطفل الحياة، به ينجلي وجهها بشكل اكمل وضوحا ونقاء وعمقا، فيدعو الكبار المثقلين بالهموم الى التغلب على نزعة تشاؤمية سوداوية، فلا يستسلمون لنزعة الموت والفناء، بل يتنسمون في حضور طفلهم أنسام الحياة والخلود. ويتحرر الزوجان من سائر العقد التي قد يجرهما الواقع المرير الى تكوينها في الفكر والكلام والممارسة، بفضل الطفل؛ ووثاق الوحدة الذي يشدّهما الى بعضهما هو حقيقة تؤسس جميع افعالهما وسلوكهما.

ماذا تقول المرأة حين تشعر انها تحمل في أحشائها كائنا حيا؟ ستقول لا شك انها لم تعد وحدها. اجل، لم تكن وحدها منذ ساعة اعلانها عن الرضى المتبادل بينها وبين قرينها، ولكنها الآن تجسدت وحدة حبهما في كائن جديد، هو مشترك بين الاثنين، وهو منهما، بل انه كلٍّ منهما.

❋ خاتمة: لن ينساك طفلك

سيقولون لك، في كلمات غير هذه، في هذا العدد الخاص عن الطفل، انه عليك ان تكون رفيقاً وصديقا لطفلك، كما عليك ان تكون أخا أو أختا، مربّيا ومرشدا، أبا واما، وسيرسمون لك قواعد سلوك قديم، كما سيوجهونك توجيها روحيا لكي تصون انت ايضا طفولة روحية ضرورية لكل انسان وتنميها فيك كل يوم. اما انا فأودّ ان أقدّم لك رأيا، ارجو ان يكون نافعا، ينطلق من صميم الموضوع الذي تناولته هنا، اذ يرتكز على نظرة فكرية فلسفية انسانية بشأن الطفل والطفولة، والابوة والامومة. انه التالي:

احترم طفلك كانسان، ولا تقل انه طفل صغير لا يفهم، فهو كبير وعظيم ورائع، انما بحجم صغير وقابليات محدودة وامكانات ما تزال بسيطة، ولا يحتاج الطفل الى الكثير لكي يغدو ما وصل اليه العظام المبدعون، والاشخاص المتميزون.

انزعج كل مرة اسمع ألفاظاً تحقيرية، تصغيرية، طفيلية، تطلق على الاطفال والاولاد، وتحط من شأنهم وتخلق عقلية معينة عن الصغار، كلنا نعرف انها غير سليمة متى فكرنا بالامر مليا، وأصحح للاهل تعابيرهم هذه. وسيتذكر الكثيرون اعتراضاتي على استعمالات شائعة ودارجة، وكأنها أمور عادية مقبولة؟ لكنها خاطئة بل فاسدة، اذ تتضمن مفاهيم غير سليمة عن الطفل—الانسان، نطلقها على أطفالنا بشكل عفوي، ونربط الطفولة بالجهل، والاولاد بالتصرفات الصبيانية (مثل كلمة "جاهل" و "جهال"، ولا سيما كلمة

"عجي" و "عجايا"، وحتى كلمة "ولد" و "أولاد" بلفظ تحقيري خاص...). ولست أنكر ان في التعابير شيئا من الصحة، فيما لو رجعنا الى الاصول والواقع، انما ثمة فرق كبير بين الجهل الذي هو نقيصة وخطأ، وبين الجهل بداية المعرفة والعلم؛ والطفل هو جاهل من النوع الثاني، فلا ذنب له، بل انه في أفضل حال من الاستعداد الكلي لتقبّل المعرفة، وهو متلهف اليها كتلهفنا الى السلام والحب والفرح. وجهله الطبيعي هذا (أي انه لا يعرف بعد...) ايجابي لا سلبي، يحركه نحو الالتقاط، والالتهام، كأرض عطشى، وبذرة مزروعة في أرض جيدة، وشاشة حساسة جداً. وتنهال اسئلة الطفل على الاهل: "ما هذا؟... لماذا؟..." حتى يترعج الكبار، وهم مخطئون، فالطفل عالم التساؤل. آلاف الاسئلة تعجّ في نفسه الصغيرة الكبيرة، فيستفسر، ويستوضح، ويعي، وينمو... وان لم يفعل هذا سار بخطوات سريعة الى البلادة والغباء.

وهنا يكمن دور الكبار، الاهل والمربين، والمسؤولين عن سائر ميادين المعرفة ومجالات الاتصال الاجتماعي وسبله، لا سيما الاذاعة والتلفزيون، ودور المدرسة والصحافة. وتكون العملية ناجحة بقدر ادراك هؤلاء جميعا حقيقة مسؤولياتهم، ومدى استجابتهم الى نداءات الاطفال والصغار، واسترشادهم بالاشارات الضوئية التي تبثها نفسية هذه المواد الخام، فتتضح رويدا رويدا شخصيتهم بما يستمدون من شخصية أناس واعين، مدركين، متفقين؛ وتظهر المسافة متباعدة يوماً بعد يوم بين أطفال يكبرون بالوعي والادراك والثقافة، بفضل أهلهم ومربّيهم وموجهيهم، وبين "جهلة" حقيقيين لم تسنح لهم الظروف البيئية الاجتماعية وغيرها ان ينموا متكاملين انسانيا. كل الامل اننا من الصنف الاول، وان وعينا لمسؤولياتنا تجاه الاطفال كبير، لان الطفل أمل المستقبل.

احترم طفلك احتراما واعيا، احترمه بصدق لا عن مجاملة أو من باب الواجب، احترمه بمحبة صادقة يتجسد فيها العطاء السخي حتى بذل الذات، فتكون حينذاك حيال انسان رائع، قد يختلف عنك في أمور واحوال، انما لن ينساك ابدا. وسيكون ذكرك خالدا الى الابد.

لا ينبغي ان نفهم من المقطع الاخير بان عمل الانسان في هذا المجال مصلحة شخصية، فهو على ما يبدو ينشد الخلود لنفسه من وراء تكوينه طفله. ان المقصود غير ذلك. فالخلود بنيان واكتمال، والكبير يغتني ويكتمل بفضل ما يعطي، واكبر العطاء طفل بل أطفال هم اشخاص واعون ناضجون وأناس حقيقيون، وهنيئاً لمن له العديد منهم.

الاب يوسف حبي

أخلاقية الطفل

يتشكى الكثيرون من رؤية اطفال يبدون "بدون اخلاق" وكأن الاخلاق تنزل من علُ! وينحي آخرون باللائمة على الاسرة والمدرسة —وكلتاهما قناتان للتأهيل الخلقي لم تعودا، في نظرهم، "تعلّمان الاخلاق"! فيما يلقي بعضهم اللوم على التربية الحديثة التي هجرت الاساليب والوسائل التي كانت قد اثبتت جدارتها ونجاحها لقرون خلت!

ما هي الاخلاق؟ كيف تنشأ وتتأصل؟ وعلى اية مقاييس؟ ما هو دور الضمير في النمو الخلقي لدى الطفل؟ ما هي العوامل التي تؤثر في تكوين الضمير واتجاهاته؟ ما هي الضوابط التي تتحكم بالسلوك الخلقي؟...

تساؤلات يطرحها ويجيب عنها الدكتور يوسف حنا للو في هذا المقال.

يوسف للو من مواليد ١٩٤٦، دكتوراه في التربية وعلم النفس، درّس لسنوات عديدة في كلية التربية بجامعة الموصل. من مؤلفاته "علم النفس التكويني"، فضلاً عن بحوث في مجلات متخصصة. كان عضواً في هيئة التحرير الاستشارية واحد محرري "ركن الاسرة" في الفكر المسيحي منذ عام ١٩٨٥ —وله فيها ٧ مساهمات. وفي السنوات الاخيرة برز بالعمل السياسي في نطاق محافظة نينوى.

يقصد بالسلوك الاخلاقي السلوك المتطابق مع القانون الاخلاقي للجماعة، وبتعبير آخر ما يسود حياة الجماعة من اساليب وممارسات وقيم اعتاد عليها الناس في حضارة ما، والتي تقرر أنماط السلوك المتوقع، أي ما ينبغي ان يكون لكل اعضاء الجماعة.

ان تعلم انماط السلوك المقبول اجتماعياً عملية طويلة وبطيئة تستغرق طيلة مرحلة الطفولة وتمتد الى مرحلة المراهقة. وتعتبر عملية تعليم الاخلاق للطفل المهمة الاساسية لعملية التنشئة الاجتماعية، اذ يتوقع من الطفل قبل ان يدخل المدرسة ان يميز بين الصحيح والخطأ، والجيد والسيء، والمقبول والمرفوض في المواقف الحياتية التي يواجهها.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، على الطفل ان يتعلم قول الصدق، وان يكف عن العدوان والتدمير، وان يعفّ جنسياً، وان يتلطف مع رفاقه، وان يطيع والديه، وان يكف عن الصخب اثناء الاكل، وان يؤدي واجباته، وعليه ان يشعر ايضا بالذنب وعدم الراحة عند انتهاك هذه الامور، وان يشعر بالراحة والرضا عندما يطبقها.

وقبل أن تنتهي مرحلة الطفولة، يتوقع من الطفل ان ينمو لديه ميزان من القيم وضمير يقوده عندما يقوم بعمل اخلاقي معين، كما على الطفل ايضا ان يتعلم ان من مصلحته الشخصية ان يتطابق سلوكه مع

عادات الجماعة، حتى وان لم يتفق معها في بعض الاحيان.

✽ دور الضمير في النمو الخلقي

من الامور الشائعة خطأً ان الطفل يولد بضمير اخلاقي، أي انه يولد وتولد معه معرفة الخير والشر، والصحيح والخطا، والمقبول والمرفوض. ان الاعتقاد بمثل هذا القول الخاطئ يعني ان السلوك اللاأخلاقي عند الطفل يعود الى اسباب وراثية، وبذلك فانه لا يمكن ان يصلح... ويرون من العبث ان نقوم بتدريبه خلقياً، لذلك كانوا يستخدمون العقاب البدني تجاه الطفل على اساس ان العقاب سوف "يطرد منه الشر" خارجاً، ويتحول الطفل بذلك الى طفل خيّر.

اما اليوم فان الصورة المقبولة هي ان الطفل لا يولد بضمير اخلاقي، ولكنه يكتسب هذا الضمير من خلال تعلم ما هو صحيح وما هو خطأ؛ واكتساب الضمير خطوة مهمة جدا في نشأة المعايير الخلقية. فالضابط "المسيطر" على الاخلاق يكون اول الامر بتأثير سلطة خارجية، فالطفل، مثلا، يختبر مشاعر الخوف والقلق وعدم الارتياح بسبب قيامه بمخالفة معينة (كأن يوسخ ملابسه، او يكسر حاجة معينة، او يؤذي اخاه الخ...). ان مشاعر الخوف والقلق وعدم الارتياح هذه تتكون عند الطفل بعمر سنتين بسبب توقع الطفل للعقاب او احتمال نبذه من قبل الوالدين. وبمرور الزمن يتم استدخال هذه السلطة الخارجية، وينتقل ضابط السلوك من الخارج الى الداخل. فكلمة (لا) التي كانت توجهها الام او يوجهها الاب للطفل، اصبحت الان تؤثر في سلوك الطفل بمثابة صورة نداء داخلي (صوت الضمير)، وقبل ان يقوم الطفل (بعمر ٤ سنوات فاكثر) بمخالفة ما، فانه يتصور مردودات عمله ويصدر لنفسه امراً ذاتياً بالاستمرار في عمله او الامتناع عنه.

وعندما ينمو لدى الطفل صوت الضمير المحذر والمعاقب، فانه يحمله معه اينما ذهب، ويستعمله كموجه للسلوك (يحدث هذا بعد ٥ سنوات من العمر بشكل واضح ويستمر ذلك بالزيادة مع تقدم الفرد بالعمر).

ولكي يتكون الضمير، هناك عدة اساليب يعتمدها الاهل لتشجيع انواع السلوك المرغوب وقمع السلوك غير المرغوب. فالطفل الصغير الذي يحاول العبث بالتلفزيون مثلا، قد تصرفه الام عن ذلك بان تحوّل اهتمامه الى نشاط آخر، فتناديه لكي يأخذ لعبة جديدة اشترتها له ليلعب بها فينصرف عن العبث بالتلفزيون، فتقول له (لا تفعل هذا...)، او قد تهدده بالحرمان المعنوي فتقول له (سوف لا احبك اذا فعلت هذا...)، او قد تهدده بالحرمان المادي، كأن تقول له (سوف لا اشتري لك كذا اذا عبثت بالتلفزيون)، او قد تضربه لكي يكف عن المخالفة.

والاساليب المذكورة لها تأثيرات متباينة في صرامة الضمير. فعلى سبيل المثال،

كلما استخدم الحرمان من الحب (الحرمان المعنوي) كوسيلة تهذيبية مع الطفل (بعمر ٣-٥ سنوات) زادت صرامة الضمير، بينما يكون تأثير اساليب العقوبة المادية اقل صرامة على صرامة الضمير.

* تطوير نمو المفاهيم الاخلاقية

في بداية حياة الطفل (خلال السنتين الاوليين) يكون تصور الطفل لما هو اخلاقي في ضوء مبدأ اللذة والالم. فكل ما يلتذ به الطفل ويرتاح له يكون خيّراً وجيدا وصالحاً. وكل ما يؤلم الطفل ويؤذيه، فهو شر، وغير جيد، وغير صالح. وحينما يصل الطفل الى مرحلة ما قبل المدرسة (٣-٥ سنوات) يفهم السلوك الاخلاقي في ضوء افعال محددة مثل (طاعة الام واجبة، احترام الكبار، مساعدة الآخرين والتعاون معهم الخ...). اما السلوك اللاأخلاقي، فهو الكذب، والشتائم، والاساءة، والامتناع عن القيام بما يطلبه منه الوالدان. واذا انتقلنا مع الطفل الى المدرسة الابتدائية (٦-١٢سنة) يظهر عنده ما يسمى (بنمو المفاهيم الاخلاقية)، ونقصد بها نمو المبادئ والقواعد والقوانين. فالطفل في هذه المرحلة يفهم (السرقة) بانها الاستحواذ على ما لا يعود اليه، وانها خطأ، بينما في المرحلة السابقة (٣-٥ سنوات)، حينما كنا نقول له بان سرقة الكرة من زميلك خطأ، فان كلمة السرقة كانت تقتصر لديه على الكرة دون الاشياء الاخرى.

* دور الضبط في تكوين السلوك الخلقي

يستخدم الضبط عندما يخالف الطفل القواعد والنظم الموضوعة من قبل الوالدين والمعلمين والمسؤولين عن شؤون المجتمع، بذلك يكون الضبط طريقة المجتمع في تعليم الطفل السلوك الاخلاقي المقبول في الجماعة، بهدف تكوين سلوكية الطفل بما يتوافق مع الدور المطلوب منه في المجتمع، فيكون فرداً سعيداً وناجحاً. ويلعب الاباء والمربون دور القادة في الضبط، ويكون الطفل تابعاً يتلقى التوجيهات.

ان الضبط كوسيلة تربوية يعطي الطفل شعوراً بالامن، حيث يُختبر الطفل بما يجب ان يفعله وما لا ينبغي ان يفعله. وبواسطة الضبط يتعلم الطفل ان يسلك بطريقة يحصل من خلالها على المدح الذي يفسره كمؤشر لحب الوالدين، وهذا المؤشر ضروري للتوافق الناجح، فضلاً عن ان الضبط يساعد الطفل على تجنب المخالفة، وبالتالي تجنب الشعور بالاثم، مما يؤدي به الى التعاسة وعدم التوافق. وبالمقابل، فان الضبط يسهم في تكوين الضمير (الصوت الاخلي) الذي يقود الطفل الى اتخاذ القرارات بنفسه.

وتجدر الملاحظة ان الاطفال يختلفون في درجة الضبط المطلوب لكل منهم بسبب من نضجهم الذاتي وبسبب من اساليب التنشئة المختلفة التي اتبعت مع كل منهم. لذلك

فالضبط الملائم لأحدهم قد لا ينفع الاخر من نفس العمر. ففيما نرى طفلا معينا قد تمنعه كلمات لطيفة قليلة من ان يعبث بحاجة معينة، نلاحظ طفلا آخر بنفس العمر قد لا يفهم ذلك، وقد يتطلب الامر معه استخدام درجة اقوى من الضبط، كأنْ يوبخ او يهدد بالضرب حتى يمتنع عن المخالفة. كما ان الاطفال الاكبر (٦-١٢ سنة) بحاجة الى نوع مختلف من الضبط مقارنة بالاطفال الأصغر (٣-٥ سنوات)، فبدلا من ان يقال لهم: إفعل هذا ولا تفعل ذاك، من الافضل ان يوضح لهم لماذا ان بعض أشكال السلوك مقبول والبعض الاخر غير مقبول.

ويختلف الضبط ايضا باختلاف أوقات النهار وباختلاف الفعاليات التي يمارس خلالها الضبط. فاننا نحتاج الى الضبط بالاكثر في الفعاليات الروتينية المطلوبة، كالاكل والذهاب الى السرير والجلوس بهدوء في الكنيسة أثناء الصلاة، بينما نحتاج اليه بدرجة اقل عندما يمارس الطفل الفعاليات الحرة كاللعب وغيرها.

✻ مواقف تربوية

ان هذا العرض لتطور النمو الخلقي يلقي علينا، كاباء ومربين، واجبات اساسية في تربية اطفالنا، اذ يُفترض ان نتعامل مع الطفل على ضوء طبيعة مرحلة النمو التي يمر فيها. فاننا نخطئ حينما نطالبه بمستويات خلقية عالية لا يمكنه الالتزام بها، كأن نطالب طفلا بعمر (٥ أو ٦ سنوات) بان يجلس في الكنيسة لمدة ساعتين او اكثر من دون حركة! كما نخطئ حينما نتشدد في توجيه النواهي باستمرار اليه (لا تفعل كذا. لا.. لا.. لا..) بحيث نكوّن عند الطفل ضميراً صارماً، مما يعرّضه لأن يقع تحت عقاب الضمير دون مبرر. وبالمقابل، حينما نكوِّن لا أباليين ازاء مخالفات الطفل ولا ننبهه، او نحاسبه عليها، فاننا نسهم في تكوين ضمير هش لا يشكل رادعاً لصاحبه عن ارتكاب اية مخالفة، فينشأ ضعيف المسؤولية.

والامر الاخر المهم في تربية الضمير هو التناسق بين القول والفعل. ففي الوقت الذي يوجه الاهل اولادهم الى عدم القيام بمخالفات سلوكية معينة كالكذب أو السرقة او الاعتداء على الآخرين... ينبغي ان يجسدوا ذلك هم انفسهم في سلوكهم الشخصي امام الاطفال. وهنا يأتي دور القدوة والمثال الصالح الذي يقدمه الاباء لاطفالهم، حيث يقدّمون لهم نماذج سلوكية صحيحة لممارسة انواع من السلوك الخلقي السوي كالصراحة، والثقة، والصدق، والكلام الطيب، وآداب الكلام، والاستئذان (وهذا الاسلوب يكون مجدياً بشكل خاص مع الاطفال في مرحلة ما قبل المدرسة ٣-٥ سنوات). اما في مرحلة الدراسة الابتدائية، فيأتي دور التوجيه والنصح والارشاد بالاضافة الى القدوة الحسنة.

وينبغي ان يواجه الاباء ايضا مسألة تفاوت القيم الخلقية بين المدرسة والاسرة

والمجتمع خارج نطاق الاسرة والمدرسة (كالكنيسة واصدقاء اللعب...)، فقد يصطدم الطفل بانتهاك اطفال آخرين القيم الخلقية التي يتلقاها داخل اسرته، او قد يكون التفاوت كبيراً بين قيم المدرسة وقيم الكنيسة وقيم الشارع وقيم مجتمع الاصدقاء، مما يخلق محكّات صعبة للنمو الخلقي للطفل، لا بل قد يتعرض الى صراعات عميقة بسبب هذا التفاوت او التضارب، وهنا يأتي دور الآباء في توضيح طبيعة هذا التفاوت.

* كلمة اخيرة في التربية الجنسية

نعتبر التربية الجنسية جزءاً من النمو الخلقي للطفل حيث يُعرَّف الطفل بما هو مقبول وما هو غير مقبول في هذا الجانب. ويميل الاتجاه في الوقت الحاضر الى النظر الى التربية الجنسية بشكل ايجابي حيث يؤكد المربون ضرورة تعريف الاطفال والفتيان، ومن ثم المراهقين، بخصوصيات هذا الموضوع بحسب تدرج مراحل النمو التي يمرون بها. ومن المبادئ التي يُنصح بها الاباء لتقديم التربية الجنسية بصورة سليمة ما يأتي:

١. احترام اسئلة الطفل حول القضايا الجنسية وتقديم الاجابة الصريحة والواضحة والصادقة عن كل تساؤلاته حول (الولادة، الاعضاء التناسلية، الاختلاف بين الذكر والانثى) وذلك باسلوب بسيط يتناسب ومستوى نمو الطفل عقليا وجسمياً وعاطفياً وانفعالياً.

٢. الاجابة بلهجة طبيعية غير متكلفة او مصطنعة او منفعلة، وانما باسلوب هادئ، كما لو كنا نجيب الطفل على تساؤلاته حول القمر والسماء والكنيسة ويسوع وكيفية نمو الزرع والقرابة التي تربطنا بفلان او فلانة الخ...).

٣. ان يتهيأ الاهل مسبقاً باجوبة مناسبة لاسئلة متوقعة من الطفل لكي لا يفاجأوا بهذه الاسئلة ويرتبكوا دون ان يدروا كيف يجيبون.

٤. ان يكرر الاهل نفس الاجابات عندما يكرر الطفل سؤاله عدة مرات.

والجدير بالذكر ان مثل هذه الاسئلة او الاستطلاعات الجنسية تبدأ عند الطفل في عمر مبكر، خاصة عندما تعينه لغته للتعبير عما يدور في ذهنه من تساؤلات.

يوسف حنا لو

الفن في الصغر

أهمية الفن في حياة الطفل

اذا افرغت الحياة من اللمسات الفنية اصبحت جافة جرداء لا معنى فيها ولا طعم! تلك حقيقة آن لنا -نحن الكبار- ان نعترف بها. وكلنا نأسف للعوامل التي كانت وراء انغلاقنا على الفن وعدم تذوقنا اياه، سواء كان هذا الفن رسما ام نحتاً ام خطّاً ام تمثيلاً ام غناءً ام موسيقى ...

فالى تقييم الفن في ابعاده الجمالية الخلاّقة، والى تربية اطفالنا على تذوق الفن وممارسته بكافة اشكاله وتعابيره، يحملنا الفنان ماهر حربي في هذا المقال الذي هو اشبه بومضات فنية يطلقها من اعماق حسه الفني المرهف لتصل الى اعماق وعي الاهل والمربين...

ماهر حربي (مواليد ١٩٤٥) **تخرج في اكاديمية الفنون الجميلة ببغداد عام ١٩٦٩ ودرّس لسنين طويلة في معهد الفنون الجميلة بالموصل. له لوحات عديدة -بعضها تصدّر عدداً من الكنائس- تميزت بالجمع بين التراث والحداثة. واقام عدة معارض شخصية، وشارك باكثر من ٤٠ معرضاً، وتميز بفن الايقونة المعاصرة حين شارك بجناح في معرض الفن التشكيلي "الذي اقامته "الفكر المسيحي" عام ١٩٨٩ في يوبيلها الفضي، في الموصل وبغداد.**

اليه يعود الفضل، منذ بديات "الفكر المسيحي"، في تأمين الخطوط والرسوم والكاريكاتير والتصميم والاخراج... عضو في هيئة تحرير المجلة، ومحرر ركن "من جعبتي" الذي ترقى بداياته الى عام ١٩٧٨، بدءاً بـ "مجرد فكرة". له في المجلة ٢٧ مساهمة، بعضها في الفن، والفن الديني بنوع خاص.

* الخبز والملح

لما كانت الثقافة بمعناها الشامل محاولة مستمرة لفهم الوجود والتعامل الايجابي معه، كان من الجدير بالمربين ممن اتسعت افاقهم -من اباء وامهات ومعلمين وكهنة وقادة تربويين آخرين- ان يفهموا اهمية تكامل الاعمدة التثقيفية المعطاة للناشئ، ليكون بنيانه متينا متجذرا، وبالتالي مانحاً.

وهنا تبدو اهمية الموازنة بين ما نعطيه لاطفالنا من علوم وفنون واداب كلبنات لهذا البناء.. واية تربية احادية تركز على العلم لوحده او الفن وحسب، تعطي بالضرورة نتائج قاصرة انسانيا. فلا يكفي ان نحشو خلايا المخ الصغير بالمعادلات والارقام والقواعد؛ كما لا يرضينا شحن احاسيسه بالانغام والالوان المتآلفة، ولا يقنعنا تلقينه مبادئ الخلق والسلوك لوحدها. وكما هي مائدة غذائنا لا تشبعنا بدون الخبز، ولا تكمل فائدتها دون خضروات، وتكون ممجوجة اذا غاب عنها الملح، كذلك جوانب الثقافة تكون ناقصة اذا ما اعطيت لوحدها دون تنوع يؤدي بمن نقوم بتربيته الى المعاناة من سوء تغذية تربوي!

* التثقيف بالفن

فضلا عن دوره الباني في الترويح وخلق واحة جميلة وسط صحراء التكرار اليومي للحياة العادية، فان للفن ادوارا اخرى في حياة الفرد والمجتمع، اكثر اهمية وابعد اثراً؛ وما لم يكن (الذكاء الفني) قد زُرع في الطفولة، فمحال حصاد ثماره في الكبر. ولما كانت التربية عملية تشجيع للنمو وصقل لوسائل التعبير.. فعلينا الاعتراف باننا نمارس اهمالا فاضحا في العناية بتربية الحاسة الفنية والجمالية لدى اطفالنا. ومع ذلك فنحن نتوقع العناية والنظافة في البيت والشارع، وكتابة جميلة وواضحة في كراريس المدرسة، والانصات الجيد للآخرين، من قبل اطفال لم نقم بتثقيف عيونهم ولا اذانهم بصورة جادة ليتمكنوا من رؤية وسماع وادراك المهذب والجميل، بحيث تصبح ممارسة طبيعية في حياتهم. ولا يكفي، بالتأكيد، ان نهتم بحاسة التذوق –كما نحن فاعلون دوما– حين نهتم باطعامهم اطايب الطعام دون الالتفات الى حواس اكثر اهمية. وما لم تدرب هذه الحواس وتُنَمّى، فلن يبدو الفرق جليا في نظر الطفل بين ما هو منسجم ونشاز، وبين ما هو صالح ورديئ.

اردت من هذا استخلاص فكرة وهي ان مختلف الفنون، اذا ما دخلت حياة الطفل جعلته ارهف في مشاعره، فيعيش بيئته بابعاد اخرى تكون فيها رؤيته وسمعه وأحاسيسه اعمق من اقرانه الذين لم يمسسهم هذا السحر المحفز للادراك والحب، ومن ثم العطاء الخلاق. فتتجلى امامه القيم الايجابية للوجود والتي بقيت مغلقة دون غيره، وبالتالي يكون اكثر قربا الى ذاته الحقة وواضعا اذنه على نبض الحياة وتجلياتها.. فيكتشف من خلال المادة الارضية التألق الروحي.. اليست الانغام اعظم من الكمان!!

* واقع ونطلع

ان تربية الذوق الفني هي العملية الاصعب والاطول مدة والاقل جدوى بالمنظور المادي، والعصية عادة على عمليات القياس والتقنين. لهذه الاسباب، نرى ان التربية التقليدية تتركز اولا: على تلقين العلوم والمعارف التي يمكن نقلها الى الكثيرين بيسر وبوقت قياسي، وتخضع للتقييم الدقيق وتخدم ضرورات مادية ملحة كمعالجة مريض أو اصلاح تلفزيون عاطل. وتتركز ثانيا: على نقل الاعراف المتمثلة بعدد من النوافي والنواهي التي يعني الامتثال لها –حسب مسطرة القياس– ان الطفل خلوق! بينما تمثل التربية الحقيقية للضمير عملية طويلة وصعبة اشبه بتربية الذوق الفني ومرتبطة معها بشكل او باخر.

من هنا نعي السر في تدني اهتمام بعض المربين –المولعين بالاحصاءات والكم دون النوع– بتربية الضمير من الداخل الى حد خطير، ناهيك عن التربية الجمالية التي تهبط في اهتماماتهم الى الصفر او تتعداه سلبا، معتبرين الفن معوقا للتحصيل العلمي ومضيعة للوقت، وفي احسن الاحوال هواية يجب ان لا تعطى الا اضيق الاوقات، كي لا يؤثر ذلك على

المستوى! وهو منطق متجن على الفن، واول من يدرك خطله هو الناطق به، اذا ما افرغنا حياته من أي عنصر فني، لتبدو جافة بلا مذاق! فلا شك ان بعض متطلبات اكتمال الخير للكائن الانساني هو تذوقه للجمال الذي تمنحه الاعمال الفنية.

كما انه ليس من الصعب ملاحظة المساعدة التي تقدمها ممارسة الفن او هوايته لدارس العلوم، بصفتها الوسيلة التعليمية احيانا. فكم يزداد فهمنا للتشريح او الجغرافية او الهندسة، على سبيل المثال، اذا ما كنا نتذوق الرسم او نمارس النحت.

❋ الاكتشاف

ان دور الاهل في كشف او خنق القابليات الفنية لدى اطفالهم —الذين هم فنانون بطبعهم— يأتي تأثيره بالمرتبة الاولى. ذلك لان الصغير يتشرب من ذويه والمتعايشين معه سبل التفكير والاهتمامات، وهم الذين يوفرون له الوسائل المادية الكفيلة بانماء مواهبه حين يقدمون له الة موسيقية او كتابا عن الرسم، او زاوية من مكان للعمل، او كلمة تشجيع وانتباه بدلا عن كلمات الزجر او الاصغار اذا رغب بالتمثيل مع اترابه في المدرسة أو الانشاد معهم في الكنيسة.

ومعلوم ان الناس مشارب، بعضهم يعشق الفن والاخر يعير له اهتماما ضئيلا. والمربي احد هؤلاء الناس: فليس المطلوب منه ان يكون هاويا متحمسا او مختصا في الفن كي يتمكن من تنمية هذا الجانب لدى الناشئين، انما يكفي ان يفتح لهم النوافذ ويدعهم يتنفسون برئاقم الخاصة، فيحققون ذواقم وتنمو استعداداقم بالاتجاه الذي خلقوا له دون قسر. فقد ينطوي احد هؤلاء الصغار على موهبة فنية —وهي صفة نادرة من الرهافة التي يجب التنبه اليها— فتعطي هذه العائلة فنانا كما اعطت غيرها عالما او كاهنا، حرفياً او موظفا، وفق ما توليه الاسرة لابنائها من رعاية؛ وها نحن نرى الفن يدخل، وبشكل متزايد، في تضاعيف نشاط الناس واحتياجاقم. فالمصمم والخطاط والعازف والمخرج والمونتير.. مهن تكتسب اهميتها الاجتماعية والاقتصادية اليوم. وعشرات الاعمال المهنية في مجال الفن يمكنها ان تكون مهنة المستقبل بالنسبة للاجيال الناشئة، ومجالا للابداع والعطاء ومنارا للحياة.

❋ وقت خلاق

ان الفن بانواعه المختلفة هو أحد الانشطة الرئيسية لملء الساعات التي ندعوها (وقت فراغ) لدى الطفل. هذا الوقت الاقرب الى النفس والذي يجمع بين الحاجة الحياتية واللهو المجرد —وفي مكان اخر من العدد مقال حول الموضوع— والذي يصبح مكملا ومثريا لحياة الشخص حين ينسحب من الحياة المنتجة في سن التقاعد. فتكون في شخصيته جوانب

تم اغناؤها وتغذت منذ الطفولة، لتصبح اوقاتا سعيدة بدل الخواء الذي يعاني منه البعض على تخت المقهى.

ففي ممارسة الطفل لفن من الفنون يقضي وقتا بناءً مطورا ملكاته الخلاقة ومرتقيا بذوقه الجمالي، اضافة الى انجازه لبعض المنتجات المفيدة من الاشغال الفنية. وليس هناك مجال للمقارنة بين وقت يقضيه الطفل مع الجميل والنافع من الانشطة وبين ساعات تهدر في التسكع او مناكدة الاهل.

* وسيلة علاج

المشكلة التي تبدو مستعصية لابوين، تعيسين بعناد او هياج ابنهم الذي اصبح لا يطاق رغم التعنيف والضرب، قد يكون حلها بسيطا وتربويا اذا ما توفرت الالة الموسيقية التي يحبها، ومساعدته ببعض الدروس عليها، فتكون له منفذا عاطفيا يدفع الارباك بالتركيز ويستبدل المزعج بالمريح.

وما اكثر الحالات التي يكون فيها الفن طريقا للمصالحة مع الحياة وتحويل عادات التجهم وعدم التكيف الى سرور واطمئنان نفسي واحساس بالقيم وحضور انساني متسام.

فبدلا عن عادات الخوف والقلق، تحل فعاليات وانشطة فنية تحد من التوتر والتعب، وتوجه الافكار والمشاعر نحو اغراض تعزز التعاون مع الآخرين وتزيد من تفهمهم، بدلا من اوقات تُقضى في حالة نفسية مستلبة مريضة.

اضافة الى ان الانجاز او التأمل الفني يسكت الاندفاعات الهوجاء فينا ويرفعنا الى درجات عليا يستحيل فيها على الشر او القبح ان يعيش، ونجد في ذواتنا هدوءاً يتفق والنوايا الطيبة الممهدة للفعل الخيّر.

* روح الفن

قد يبدو قولي بان اقتراب الانسان من هيكل الفن يجعله اكثر تدينا كلاما غريبا للبعض، الا اني اذهب الى ابعد من هذا فاقول: رُبَّ قطعة موسيقية او لوحة فنية او فيلم جيد تعطي للمتأمل الواعي والحساس من الصفاء المنعش للروح او الانشداد نحو المثل والتوجه الخلاق، ما قد تعجز عن اتيانه ساعات من التوجيهات التربوية او الخطب الاخلاقية الرنانة. فاكتساب عمق الاحاسيس عن طريق ممارسة او تذوق الفن يسمو بالمشاعر والافكار نحو سموات من الخير والعدل، في بناء نفسي متّسق وتعامل متعاطف مع البيئة والناس.

وكثيرة هي الامثلة التي توضح ما ذهبت اليه:

- طبيبان لديهما نفس الثروة العلمية، احدهما خطاط ويكتب الشعر في وقت فراغه، نتساءل ايهما سيكون اعمق احساسا بالمريض وارق في معاملته واكثر اخلاصا في علاجه؟
- اساتذة جامعيون يحملون الشهادة ذاتها، احدهم يمارس الرسم في عطلاته ومثابر على سماع الموسيقى الرفيعة، فهل يصعب علينا تمييز من سيكون بينهم اكثر غنى وحيوية في عرض محاضراته للطلبة؟
- ربتا بيت، احداهما تجمع اطفالها وترتل لهم بصوت معبر وتقوم بتربية زهورها بعناية، ايهما الاكثر عطاء والارق في مشاعرها تجاه الجيران؟
- حدادان لهما نفس الخبرة في عملهما، الاول يهوى تنفيذ بعض اللوحات الزخرفية بين وقت واخر، فمن منهما سيضع ابوابا او اسيجة بلا زوائد او تشويهات؟

اعتقد ان الاجابات ليست صعبة، واذا ما قمنا بملاحظة اناس من مهن مختلفة في محيط كل منا، ممن يملكون اهتمامات فنية، فسوف نلاحظ تميزا في تعاملهم مع مهنتهم ومع المحيطين بهم.

واخيرا اود التأكيد على ان الجانب الفني —ممارسة او تذوقا— في حياة اطفالنا يستحق منا اهتماما حقيقيا اذا ما اردنا لهؤلاء الاطفال ان يكونوا اناسا افضل في الحياة.

ماهر حربي

١٥ الفكر المسيحي... ربع قرن في خدمة الكلمة

السنة الخامسة والعشرون: ت١ - ت٢ ١٩٨٩

الفهرس

• افتتاحية : الفكر المسيحي : ربع قرن	رئيس التحرير
المحور الاول : الفكر المسيحي . . . حلقة في تاريخ الصحافة	
• دورا المجلات المسيحية العراقية في حركة النشر	أ. يوسف حبي
• مسيرة الفكر المسيحي ٢٥ عاما	أ. جرجس القس موسى
• الفكر المسيحي ... صناعة!	أ. بيوس عفاص
• مقابلة مع كهنة يسوع الملك	ماهر حربي
المحور الثاني : الفكر المسيحي ... في ميزان التقييم والنقد	
• سلسلة الفكر المسيحي : مضمونها الفكري	رياض وديع
• الانباء في الفكر المسيحي	أ. فرج رحو
• الاعداد الخاصة : اولويات	الاخت سالت آنيه
• قضايا هامة : الكتاب المقدس	أ. لويس ساكو
التثقيف المسيحي	فريال اسماعيل توزي
كنيسة العراق	أ. يوسف عتيشا
الوحدة المسيحية	أ. لوسيان جميل
الاسرة والتربية	صباح حنا بقي
المحور الثالث : الفكر المسيحي ... في نظر كتابها وقرائها	
• لقاءات : مع أ. افرام سقط	برنادیت عفاص
أ. لوسيان جميل	يوسف حنا للو
أ. لويس ساكو	يوحنا عبد الاحد
أ. يوحنا عيسى	برنادیت صنا
أ. يوسف توما	جيني يوخ
• منتدى الآراء : ٢٢ اجابة	...
• طاولة مستديرة : "وجهات نظر"	ايمان بداويد وحبيب شمعون حنتا
• استفتاء : "وانتم ماذا تقولون؟"	يوسف حنا للو والاخت سالت آنيه
• تقرير : الحلقة الدراسية للكتاب والمحررين	رياض وديع

... وتكلل احتفال "**الفكر المسيحي**" باليوبيل الفضي (١٩٦٤-١٩٨٩) -من خلال مهرجان ثقافي وفني كبير لم تغب عنه الموسيقى والمسرح!- بعدد خاص أصدى للمسيرة التي قطعتها "الفكر المسيحي" عبر صعوبات وصراعات، فشقت طريقها الى قراء توسموا فيها اداة هي لسان حالهم والناطقة باسمهم...

ربع قرن في خدمة كنيسة العراق! بهذا العنوان حكت "الفكر المسيحي" مساهمتها الرائدة في حركة النشر في قلب كنيسة العراق، في عهدة روادها الاوائل كهنة يسوع الملك/اخوّة الحياة المشتركة -اقرأ المقابلة التي اجراها معهم ماهر حربي- ولكم تضمن هذا العدد من معلومات في جوانب عديدة من مسيرتها الطويلة حين كانت، ولسنين مديدة، المجلة المسيحية الوحيدة على الساحة!

وتجدر الاشارة الى ان "**الفكر المسيحي**" عضو في الاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة (U.C.I.P.) الذي منحها، في ٨ حزيران ٢٠٠٧، الميدالية الذهبية التي تسلمها المطران جرجس القس موسى والاب بيوس عفاص في ختام المؤتمر المنعقد في كندا.

(...) وغني عن القول أن النهج الصحافي الذي يعطي الأولوية للمهمة الإعلامية، بمفهومها الواسع، هو بالتالي النهج الذي يلتقي بالاكثر مع انتظارات القراء وحاجاتهم. ذلك لان القراء لا يأخذون مجلتهم بدافع التعمق في الايمان بقدر ما يأخذونها بدافع الاطلاع على ما يجري في الكنيسة، في العراق والعالم، من أحداث، وما يستجد فيها من قضايا ومعضلات... فمن دون أن يُسخّر الإعلام في أهداف تبشيرية قد تشوه الأحداث وتجعلها تبدو، لا كما هي بل كما يُراد لها أن تكون (١)، بوسع القراء أن يحصلوا على الثقافة المسيحية من طرف خفي، عبر العديد من الأبواب والزوايا التي تتخذ المهمة الإعلامية من خلالها طابعا ثقافيا...

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٣٩٤-٣٩٥)

مسيرة الفكر المسيحي خلال ٢٥ عاما

بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على ظهور "الفكر المسيحي"، رسم هذا المقال مسيرة كانت بداياتها متواضعة عسيرة، ولكنها بداية ما فتئت تزداد رسوخاً واتساعاً وعلى اكثر من صعيد —وليس التطور في المضامين التي تلقاها القراء وتفاعلوا معها، من اقلها شأناً! ولا سيما حين اتضح، مع الاعوام، خطّها الفكري الواضح والمتسم بالروح النقدية والجراة، بعيداً عن كل اشكال المساومات والتواطآت... هذا الخط، حددته الاهداف التي ما انفكت المجلة تعلنها منذ عام ١٩٧٧.

من اجل تلك الاهداف انطلقت "الفكر المسيحي" —سلسلة (١٩٦٤-١٩٧٠) فمجلة (١٩٧١) لخدمة الكلمة في كنيسة عرفت منعطفا دقيقا من تاريخها، فكانت فيها صوتاً نبوياً، وأي صوت ... وبسبب تلك الاهداف، كان لها "قراؤها" الذين التقت توجهاتها مع تطلعاتهم... ولا شيء يغني عن مطالعة هذا العدد الخاص برمته، لما فيه من الذكرى والمتعة!

❋ الانطلاقة والمراحل

الساحة خالية خاوية. اخر مجلة دينية مسيحية انطفأت منذ ٨ سنوات. والنشر المسيحي يكاد يكون معدوماً لولا سلسلة "كلام الله" المترجمة التي تعهدها الاباء الدومنيكان في الموصل عام ١٩٥٩ للتعريف بالكتاب المقدس.

عطش الشبيبة الى ثقافة مسيحية جادة تجيب الى التساؤلات الدينية والطروحات الفكرية والتيارات الفلسفية التي جاءت بها ثورة ١٤تموز ١٩٥٨، في خضم التغيير النوعي الكبير في الحياة الاجتماعية والسياسية الذي أحدثته في حياة العراقيين عامة، والمسيحيين بنوع خاص.

حماس تتأجج به قلوب فريق من الكهنة الشباب، كهنة يسوع الملك، اختطوا لأنفسهم ان يعيشوا تجربة الحياة المشتركة للتعاضد الاخوي في ما بينهم وللتعاون في الرسالة. لا رصيد لهم —وقد رُسموا حديثاً— غير الطموحات والاحلام والعزم على تحقيق شيء في باب النشر كبداية، سيما وان رياح المجمع الفاتيكاني الثاني في الستينات هي في عزّ هبوبها.

هذه كانت الاجواء التي ولدت فيها "الفكر المسيحي" عام ١٩٦٤. ولقد توخينا

البدء بمشروع وضيع منفتح للتطوير والتوسيع، فتبنينا صيغة نشرة شهرية تحمل في كل عدد مقالاً واحداً، ضمن مخطط سنوي يشمل العقيدة، والاخلاق المسيحية، والكتاب المقدس، والحركة المسكونية، والتربية، والقضايا الاجتماعية، وحياة أحد شهود الايمان، وعدداً للاجابة الى الاسئلة الواردة باسم "صندوق الاسئلة"... وسميناها "سلسلة الفكر المسيحي"، وتشكل كل سنة حلقة، وتتكون الحلقة من ١٠ أعداد (حجم ١٦×٢٠سم).

ظهر العدد الاول من "السلسلة" في ك٢ ١٩٦٤ بعنوان "الكنيسة عبر القارات" بـ ١٦ص و٢٥٠٠ نسخة، وكانت قيمة الاشتراك السنوي ٢٠٠ فلس. اما في السنة الثانية فقد ارتفع عدد المطبوع ليستقر في ٣٠٠٠ نسخة مع اضافة في الصفحات (٢٠ص)، وفي عام ١٩٦٨ اضيفت ٨ صفحات اخرى كملحق يتضمن افتتاحية قصيرة وانباء العالم المسيحي.

وقد كانت حصيلة ما نشرته سلسلة الفكر المسيحي خلال ٧ أعوام٦٠ عدداً في شتى المواضيع الدينية والتربوية والكتابية والراعوية والمسكونية.

وفي سنة ١٩٧١، تحولت السلسلة الى مجلة شهرية متعددة الابواب (حجم ١٧×٢٤سم بـ ٣٢ ص لتستقر عام ١٩٧٥ في ٤٨ص). بهذا التحول حققت الفكر المسيحي نقلة نوعية جوهرية، حيث اتخذت لها طابع مجلة دورية حقيقية كقناة للتثقيف والاعلام المسيحيين في خدمة كنيسة العراق. وحددت اهدافها وطبيعتها بكونها مجلة مسيحية لا طائفية تتوجه الى القراء، بمختلف كنائسهم، لتقدم لهم، بلغة العصر وبنظرة انجيلية منفتحة، ثقافة مسيحية اصيلة وواعية، من خلال معالجاتها للقضايا التي تواجه الكنيسة في عالم اليوم والاحداث المتصلة بحياتها وبشهادة المؤمنين، في خط المجمع الفاتيكاني الثاني وبروحه.. فصار الملف -ويتناول جانباً من جوانب حياة الكنائس او دراسة ما- يحتل مكاناً متميزاً منذ البداية في كل عدد، من حيث المضمون والمساحة. واصبح باب اخبار العالم المسيحي القناة الوحيدة للسواد الاعظم من القراء للاطلاع على نشاطات الكنيسة في العراق والعالم. وتصدر ركن التاريخ اعداد المجلة لثلاثة اعوام ليستذكر تاريخ كنيستنا الشرقية وعمق تجذرها في ارض الرافدين. وكان ركن التربية يعالج قضايا تربوية ملحة برغبة فتح حوار بناء بين الاولاد وذويهم، وتوعية الاهل بمشاكل اولادهم وبناتهم ومعانيات عمرهم... ومواضيع متنوعة اخرى مما هو في صلة مباشرة مع اهتمامات القراء الفكرية والروحية والدينية، مع تعاطف مقصود مع شريحة الشباب والجيل الجديد.

وجاء عام ١٩٧٧ ليشكل منعطفاً جديداً في حياة المجلة، حيث اتخذت نهجاً اعلامياً واضحاً، سواء في التصاقها بالحدث الكنسي والمسيحي في العالم وفي العراق، ام باسلوب تعاملها مع هذا الحدث، ومتابعة حيوية الشهادة المسيحية في مختلف القارات والجماعات الكنسية. فاستحدثت ابواباً ثابتة وزوايا حرة، واتجهت المعالجات شطر القضايا الفكرية والاجتماعية والشؤون الراهنة المطروحة في حياة الكنيسة الجامعة والكنائس الخاصة،

وكنيسة العراق بشكل خاص، وذلك وفق نهج اعلامي يتوخى الامانة للحقيقة ولطبيعة العمل الصحفي. والاسلوب الصحفي يعتمد اساساً العرض والتحليل والنقد، ويتحاشى الطروحات النظرية والتعليمية المباشرة.

* خط المجلة وتشخيص معانياتها

غير ان الفكر المسيحي، لكونها المجلة المسيحية الوحيدة في العراق، وايماناً منها بان لها رسالة انجيلية ودوراً نبوياً في نهضة كنيستنا، ارادت ان تزواج، في طبيعة اخراجها وتكوينها، بين الاسلوب الصحفي واسلوب الدوريات الثقافية المسيحية، لتغدو قناة توعية واعلام في خدمة مسيحيي العراق.. على مجلة اخرى تنافسها فتحمل عنها، لربما، ما لا تستطيع حمله، او يُراد لها ان تحمله، مرة واحدة!

وتجاه بعض الاراء التي تتجاهل طبيعة الصحافة وقوانينها واسلوب عملها، وتنكر على الفكر المسيحي الاحتفاظ بخصوصيتها واستقلاليتها، ولا ترى فيها إلا مجرد اداة نقد وتشكيك واعادة نظر في المسلّمات، او لا ترتاح الى الوعي والانفتاح والتساؤل الذي تطرحه المجلة عبر معالجاتها... عمدت الفكر المسيحي الى تحديد اهدافها بوضوح منذ ك٢ ١٩٧٧، وقد ذكّرنا بها "فولدر" اليوبيل الفضي هذا العام، وهي أن الفكر المسيحي:

* مجلة ثقافية

تسعى الى تطعيم قرائها بروحانية الانجيل
في بحث عن اصالة الايمان والتجدد

وتقصد: بذلك اعطاء الاولوية للروح والشهادة، أي للجانب النبوي للرسالة الانجيلية وحياة الكنيسة، ولأصالة الانجيل المنفتحة نحو التجدد لا الركود، للجوهر لا الشكليات.

* مجلة اعلامية ملتزمة

تقدم لقرائها اعلاماً جاداً
حول حياة الكنيسة في العراق والعالم.

وتقصد بذلك ان تكون قناة توعية وايقاظ، ليس لمجرد الاثارة، وانما للتحريك وكدعوة الى العمل.

* مجلة تؤمن بالوحدة المسيحية

فوق الفوارق الطائفية والمذهبية

وتسعى الى اشاعة الاخوّة والتضامن.

وتقصد بذلك التركيز على ما يوحِّد، لا على ما يفرِّق، والانفتاح على الافكار والنشاطات في الكنائس الشقيقة المختلفة ونبذ أية نعرة مذهبية او طائفية. سيما واننا في العراق، لربما اكثر من غيرنا، بحاجة لأن تظهر الكنيسة موحَّدة، وتكون كذلك فعلاً. ملاحظة واحدة وهي ان المجلة ليست مجلة وحدوية متخصصة بشؤون الحركة المسكونية، ووضوح انتمائها الكاثوليكي لا يؤثر على خطها الوحدوي.

* مجلة مسيحية

لا تدّعي انها لسان الكنيسة الرسمي
بل تؤمن بتعددية الاراء والتعبير
ضمن وحدة الايمان

وتقصد بذلك انها، اذ تنطلق من القاعدة وللقاعدة، لا تدّعي انها الناطق باسم السلطة الكنسية، مع حرصها على البقاء امينة للعقيدة المسيحية والايمان. وانها، اذ تقدم اجتهادات وابحاثاً وتحليلات وآراء تعكس حركة الحياة والبحث ضمن الكنيسة، فهي لا تُلزم السلطة الكنسية بتبنيها بالضرورة، من جهة، ولا تدّعي انها التعليم الرسمي النهائي للكنيسة، من جهة اخرى. فالمجلة تصدي للتعليم الكنسي الرسمي عبر الوثائق التي تنقلها، وتنقل الطروحات غير الرسمية ايضا، مفترضة الوعي عند القارئ.

وهكذا يتحتم على الفكر المسيحي ان تحافظ على موازنة دقيقة بين اربعة عناصر وهي:

١. القراء: الذين يتكونون من شرائح مختلفة من المؤمنين، ومن مختلف الطوائف المسيحية، ومن اعمار وثقافات متفاوتة، بينهم المتفتح والتقليدي والثوري، مع تفضيل ملتزم للجناح المتحرك والمنفتح بينهم.

٢. الرؤساء الكنسيين: الذين بصفتهم حُماة المؤسسة الدينية واستقامة العقيدة، يميلون عادة الى تكريس الوضع القائم ولا يرون دوماً بعين الرضى ان يعكر صفو الافكار السائدة او ان يزرع التساؤل، لا سيما في ما يخص قوالب التعليم الديني المتوارث او طرائق ممارسة السلطة.

٣. البيئة الايديولوجية السائدة في البلاد.

٤. واخيراً منظورنا الخاص لحياة الكنيسة —ونريده انعكاساً اميناً لروح المجتمع— وطريقتنا في مواكبة والتزام هذه الحياة، عبر المجلة كقناة ثقافة وتوعية مسيحية عراقية ملتزمة. وذلك وفق الاسلوب الاعلامي الذي له خصائصه ومقوماته، ورغبتنا في الحفاظ على الاستقلالية كشرط للحيوية والتعبير الحر البناء.

فلو أمعنا النظر في الاهداف التي رسمتها المجلة لنفسها وفي هذه الموازنات، لا سيما النقطة الاخيرة منها، لوجدنا الجواب لكثير من الاسئلة التي يطرحها البعض حول انفتاح المجلة —عبر ابوابها الاعلامية ومعالجاتها— الى التيارات الفكرية المستجدة في الكنيسة الجامعة، في ميادين البحث اللاهوتي والاساليب الراعوية والتربوية، وفي نماذج الشهادة المسيحية التي تؤديها الكنائس المحلية، او جماعات القاعدة فيها، في اطار واقعها التاريخي والاجتماعي الخاص. ففتح افاق القراء على حركة الحياة في الكنيسة الجامعة جزء من رسالة المجلة، سواء كان من جانب الاطلاع ام الشعور باننا جزء من كل أوسع.. فلا نتقوقع على معانياتنا الذاتية ونتحصر في خبراتنا الذاتية في حالة حلزونية وقائية.

هذا وكان بودنا ان نضيف عنصرين آخرين يدخلان طرفاً في معادلات الفكر المسيحي كمجلة شهرية الصدور، ألا وهما ظروف التحرير وشحّة الكتّاب من جهة، حيث يقع العبء الاكبر على اشخاص معدودين يتكررون، وظروف الطباعة من جهة اخرى (التصاعد المرعب لاسعار الورق مع ركود الاشتراكات).. الى جانب المعوقات الكثيرة التي تعترض عملية متابعة الطباعة والتوزيع..).

اما لماذا يعتبر انتشار المجلة محدوداً نسبياً (٧٥٠٠ مشترك) بعد ٢٥ سنة، فلربما لان الفكر المسيحي تمثل نمطاً من صحافة الرأي، والرأي الديني بصورة خاصة. وهذا النمط من الصحافة ليس كعكة يتهافت عليها القراء. فضلاً عن ان اوساطاً غير قليلة لا زالوا يجهلونها او لم يسمعوا بها او لا يعرفون كيف يشتركون. اما أن يمتنع البعض عنها بسبب خطها، فهناك بالمقابل اخرون ايضا يطلبونها من اجل خطها.

هل تحقق المجلة كل طموحنا؟ كلا! بل نسعى دوماً الى عطاء أفضل.

ولكن مع ذلك، بوسعنا القول انها، في مسيرتها على مدى ربع قرن، قد ساهمت من موقعها في خدمة كنيسة العراق وتجديدها. فلقد ادخلت، من دون أي شك، تياراً فكرياً يتسم بالشباب والحيوية، ونمطاً من الانتماء الى الكنيسة يتسم بالوعي والفاعلية والنضوج. فالحصيلة تبدو لنا ايجابية: دور القاعدة، أي العلمانيين في الكنيسة، نظرة الى عيش الايمان تتميز بالاصالة والشخصانية وتتجاوز الطروحات النظرية الى الشهادة الحية؛ التزام خط تجددي بالعودة الى الجذور دون القشور واستلهام روح المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني؛ التركيز على الحوار والمسؤولية وليس على الادانة والخوف؛ اولوية الانسان على الشريعة؛ دينامية كنيسة جامعة مُوحَّدة اكثر مما قد تبدو في اختلافاتها؛ الكلمة الحرة والشجاعة لقولها؛ الانفتاح على العالم وعلى الافكار والاراء؛ الطاقة غير المستثمَرة للشبيبة والنساء في حياة الكنيسة الخ...، هذه هي بعض المفردات التي تتناولها المجلة بصيغ مختلفة، شهراً بعد شهر. فبالنسبة لها، كل تقرير تقدمه عن الخبرات الانجيلية او المسكونية للجماعات المسيحية التي تشهد، في القارات المختلفة، للرجاء الذي فيها، وحتى عندما تصدي لتباين الاراء ووجهات النظر في الكنيسة، او تشير الى الاولويات... فهي تعتبر ذلك اصغاء الى الروح الذي يتحدث الى الكنائس. أليس ذلك تجسيداً لدينامية المجمع الفاتيكاني الثاني وجرأته؟ الفكر المسيحي تحاول ان تفعل كل ذلك في محبة عميقة للانجيل والكنيسة.

الاب جرجس القس موسى

"الفكر المسيحي"

مبادرة من: كهنة يسوع الملك

"هل كان في ذهن هؤلاء الشباب آنذاك -قبل ٢٧ عاماً بالتمام- ان حبة الخردل ستصبح شجرة باسقة، مثقلة بالاغصان؟!
كتبها ماهر حربي في المقدمة الرائعة التي صدّر بها المقابلة التي اجراها في صيف ١٩٨٩ مع كهنة يسوع الملك الذين بادروا الى العيش المشترك غداة رسامتهم الكهنوتية عام ١٩٦٢، في اعقاب سنوات الدراسة في معهد ماريوحنا الحبيب، بادارة الاب يوسف اومي الدومنيكي الفرنسي الذي رافق مسيرتهم -وقد اعطى للكنيستين الكلدانية والسريانية كوكبة من الكهنة على مدى ٤٠ عاماً، وابى إلا ان يرقد في تراب الموصل عام ١٩٧٤- فكانت "الفكر المسيحي" ثمرة حياتهم المشتركة وصدى توجهاتهم الراعوية، وقد استنفدت طاقاتهم كلها؛ سيما بعد أن اتسعت رقعة انتشارها وبلغ عدد المشتركين فيها ١٧٥٠٠! -وهو رقم لم تحلم مجلة، فيما مضى البلوغ اليه!

"هؤلاء الذين كانوا وراء الفكر المسيحي"، ترسم هذه المقابلة خطواتهم الاولى في الحياة المشتركة، وتصدي للروحانية التي تنعشهم، وتعكس بعض النشاطات التي تمخضت عنها...

اربعة اصدقاء، مليئة قلوبهم حماساً، أسعدهم انقطاع التيار الكهربائي في تلك الامسية الخريفية البعيدة.. فيأتي احدهم بالشموع، ويبحث آخر عن علبة الكبريت، ليجلسوا بعد ان اعدّوا عشاءهم -الذي سيتذكرون طعمه طويلاً!- ويكون وعدهم أمام الله ان ينيروا لبعضهم البعض سبل الحياة، وللآخرين من حولهم، معتمدين مجدّداً باسم يوّحدهم: جماعة "كهنة يسوع الملك". هكذا كانت جلسة الاخوة جرجس القس موسى ونعمان اوريدة وبيوس عفاص وجاك اسحق، مساء ١٨ ايلول ١٩٦٢!

هل كان في ذهن هؤلاء الشباب آنذاك -قبل ٢٧ سنة بالتمام!- ان حبة الخردل ستصبح شجرة نامية، مثقلة الاغصان؟ وهل كان في تصورهم يومذاك ان بداية كهذه -في العتمة!- ستغدو طاقة لمشاريع عدة، أحدها وابرزها اصدار "الفكر المسيحي" التي يحتفى بعيدها الفضي في هذا العام؟

حملت قلمي وأوراقي وذهبت الى هؤلاء الذين كانوا وراء "الفكر المسيحي". وصعدت الدرج الملتوي الى عقر دارهم، في الطابق العلوي من كنيسة مار توما.. وهناك، في تلك الغرف المتراصة، تولد شهريا، ومنذ ربع قرن، "الفكر المسيحي" التي نعتز بانها كانت وما زالت المجلة المسيحية الوحيدة على ساحة كنيسة العراق!

لنطرق احد الابواب وندخل... يلاقينا الاب بيوس باسماً ابداً، من خلال نظاراته، وقد عصف البياض بشقرة لحيته المندرسة. ها هو وراء مكتبه –وقد اصبح لائقا الآن!- يكتب او ينقح المقالات للعدد القادم، وفي مقدمتها "افتتاحية" رئيس التحرير... ومكتبه غارق ابداً بانواع الملفات والرسائل والقصاصات والصحف والاقلام.. تؤطّر جلسته المعهودة، من ورائه، الاعداد الصادرة من المجلة بشكل مجلدات تظنها "موسوعة"، وكرسي ذو وسادة ظهر لاسناد فقرات غضبى! تحدّه من اليمين رفوف المراجع والمصادر، ومن اليسار خزانات الارشيف بانواعه...

ونطرق بابا آخر تزدحم امامه ومن حوله رزم العدد الجديد جاهزة للتوزيع، بينما في الداخل يتوزع اهتمام الاب نعمان بين بطاقات المشتركين والمضاريف التي تحمل اسماءهم... انه يقلّب دوماً، وهو يتصبب عرقاً، قوائم لا نهاية لها من العناوين القديمة والجديدة، ووصولات وطوابع... بينما يأتيه طارق يرغب في استئجار بيت من بيوت "الوقف"، او يقصده احد الآباء الجدد يريد موعداً لعماذ ابنته الصغيرة!

وفي "قلاية" اخرى يتجلى حب الفوتوغراف في اللقطات الموزعة على الجدران: بانوراما لقرية قريبة الى قلبه، جرسية كنيسة ومنارة جامع، اعمدة غرناطية وثلوج سويسرية... انعاش للذاكرة وتأمل! فاينما حلّ الاب جرجس رافقته عين كاميرته. في غرفته جذع شجرة قتيلة–حية، رأس حصان نحاسي، وركام من الصحف والمجلات تنتظر ان تُلتقط منها "انباء" العدد القادم...

ثلاث "صوامع" –اصبحت اليوم صالحة للسكنى!- يختلط فيها الخاص بالعام، وتلخص كل واحدة هموم واهتمامات ومهام وهمة كل منهم: في احدى الزوايا سرير للراحة –أو للمرض الذي يجب ألاّ يطول!- ودولاب بسيط لملابس رسمية او بيتية، وكرسيان او ثلاثة لاستقبال الاصدقاء، وهناك المكتب وعليه "عدة الشغل" من كتب ومجلات واضابير ومحفظة رسائل الخ... إليه يؤسرون يوميا لعدة ساعات، ويتمنون، في ايام الزخم، لو يطول النهار ولا تغرب الشمس! كما تجد انجيلاً وشموعا غريبة، ايقونات ورفوف كتب ونباتات وذكريات اسفار... ولم تعد تختنق برائحة التبغ بعد ان توقف ثاني المدخنين ودون سابق انذار! ففي هذا الطابق الذي جمّلته اقواس من الحلاّن الموصلّي –وقد اصبح اشبه برواق دير– لتعايش الصلاة مع العمل الصحافي الدؤوب، ولقاءات الصداقة، او الشغل مع الاماني الضالة والتطلعات الطموحة...

عندما التقينا في غرفة الاستقبال الصغيرة –وهي في الوقت ذاته مقر اجتماعات هيئة التحرير ومكان الصلاة المشتركة بين الاخوة الثلاثة، واحيانا بمعية بعض الاصدقاء– لم يكن هناك برنامج مقنن للحوار عدا النقاط المؤشرة في مخطط العدد الخاص، وهو الحديث عن البدايات: كهنة يسوع الملك و "الفكر المسيحي". فلا مهرب إذن من السؤال المعتاد!

* متى وكيف كانت بداياتكم؟

امتطى الثلاثة آلة الزمن عائدين بالذاكرة شطر الستينات.. وتلألأت في عيونهم التماعة الشباب الذين كانوا —وما زالوا بالرغم من تجاوزهم الخمسين بقليل!- وهم يشعرون بغبطة، من ان الفكرة تجسدت، وان ما كان حلما تحقق متناميا ليدخل تاريخ كنيسة العراق وصحافتها، وانبرى اول "مسؤول" في الجماعة لدى تكوينها يحدد البداية.

- الاب جرجيس: عندما كنا طلبة في المعهد الكهنوتي بالموصل (معهد مار يوحنا الحبيب) بدأت الفكرة، واخذنا نعدّ لها عبر لقاءات اسبوعية... وبهدي من صيغ شبيهة للحياة المشتركة بين الكهنة اردنا ان نبدأ. فهناك الاتحاد الكهنوتي "يسوع محبة" للاخ شارل دي فوكو، وكهنة البرادو، وغيرها من الجمعيات... اما نحن فقد اخترنا ان نكون "اصدقاء يسوع الملك" لنحمل رسالة الانجيل مطعمة بروحانية الاخ شارل.

لقد احاطنا الأب يوسف اومي الدومنيكي —مدير المعهد— برعايته الابوية، فكان خير مشجع ومرشد... وقد وضع تحت تصرفنا المكتبة الخاصة بـــ "الاصدقاء"[١].

* ترى الى ماذا كانت تهدف هذه "الاخوّة"؟

يرفع الاب بيوس خصلة حيرى ابداً عن جبينه موضحاً.

- الاب بيوس: ان اقترابنا من الرسامة الكهنوتية جعلنا نعيد النظر في الحياة التي كان يعيشها الكاهن بين ذويه، وفي اساليب العمل الراعوي المألوفة التي كان ينتهجها عادة كاهن الرعية في خدمة جماعته، وبمجهودات فردية مبعثرة... لذلك اتجه تفكيرنا الى خدمة الانجيل بطريقة العمل الرسولي المشترك: ان نكوّن عائلة حية مترابطة ومتضامنة تسعى الى عيش الانجيل والشهادة له.

* اني اجد وجهة رهبانية في هذا النوع من الحياة المشتركة؟

- الاب لقمان: لم نُرِدْها رهبانية بل "رابطة" تضم كهنة يرغبون في عيش تجربة الحياة المشتركة ويرون فيها صيغة فضلى تساعدهم على الخروج من العزلة، وتحملهم على النمو

(١) كان الاب يوسف اومي قد انشأ رابطة روحية لكهنة المعهد باسم "اصدقاء يسوع الملك" ضمت عدداً من الكهنة من الطائفتين الكلدانية والسريانية من مختلف الابرشيات، يجتمعون شهريا لرياضة روحية ويتدارسون سبل التعاون والتضامن في الحياة الروحية والراعوية والرسولية... وكان قد اعدّ لهم قانونا حظي بمصادقة الكرسي الرسولي عام ١٩٥٥، وهو القانون الذي اعتمده "كهنة يسوع الملك" —في اعقاب توقف "الاصدقاء" عن لقاءاتهم عام ١٩٥٨— وحاولوا تكييفه مع صيغة الحياة المشتركة التي انتهجوها غداة رسامتهم الكهنوتية عام١٩٦٢ (قلم التحرير).

الروحي والتعاون الاخوي، في انجاز الاعمال الرسولية بفاعلية وانفتاح لا يتأتيان للكاهن المنفرد. هناك بالتأكيد من يختار الحياة الرهبانية لتحقيق هذا الغرض، إلا اننا اخترنا نموذجا يحقق الهدف مع بقائنا ضمن المصف الكهنوتي.

* اعتقد ان صيغة الحياة المشتركة لا تُتاح لجميع الكهنة.. هل فكرتم في بدائل؟

– الاب جرجس: ان هذه "الاخوّة" الكهنوتية تشكلت بصيغتين او نموذجين: اولهما الحياة المشتركة لمن يرغبون في العيش تحت سقف واحد، تجمعهم الفة عميقة واهداف رسولية مشتركة من عمل وصلاة ومقاسمة مادية (صندوق مشترك)... اما النموذج الثاني فيضم اعضاء لا يقتسمون السكن والغذاء والخدمة، بل يرغبون في الانتماء الروحي والمشاركة في النشاط المتفاعل مع روحانية الجماعة، عبر الممارسات الروحية المشتركة (رياضات روحية...) او عبر الحلقات الدراسية التي تعمل على تنسيق وتعميق هذه الروحانية[٢].

* ما هي الخصوصية التي تتميز بها حياتكم المشتركة؟

– الاب يوسف: كان في ذهننا، في بادئ الامر، عدم حصر عملنا الرسولي في اطار خدمة الرعية، وانما خدمة الانجيل على نطاق اوسع وفي قطاعات لا تشملها الخدمة الراعوية. وكانت اولى الاتجاهات العمل مع الشباب –وهم الشريحة الاكثر تفاعلاً وانفتاحاً وحماساً. ولذا قبلنا مجازفة البقاء كهنة ابرشيين مرتبطين قانونيا براعي الابرشية.. ومن هذا الموقع نسعى في اعطاء صورة جديدة للكاهن بعيداً عن العزلة الروحية والنفسية التي تهدد حياتنا، وعن الانزلاق في تيار المادة الذي قد نتعرض له...

– الاب نعمان: وان هذه الرغبة في الاتحاد والتضامن تتضح ايضا عن طريق التلاحم بين الطائفتين الكلدانية والسريانية، سواء بانتمائنا الى احدى الطائفتين، ام عبر روح التعاون الذي طبع حياتنا، على صعيد العلاقات او الخدمات الروحية والطقسية والتثقيفية...

---

(٢) بقي الاعضاء الاوائل في الحياة المشتركة اربعة لفترة طويلة، تخلّلتها غيابات متقطعة لبعضهم سواء للدراسة ام للخدمة فبعد مغادرة الاب جاك اسحق الى روما للدراسة، حلّ مكانه عام ١٩٦٤ الاب ميخائيل جميل الذي غادرها هو الآخر عام ١٩٧٧ ليشغل مهمة امين سر لدى البطريركية السريانية في بيروت–وقد رسم اسقفا في ٩ت٢ ١٩٨٦ معاونا بطريركيا:

ومنذ البدايات –في اواخر عام ١٩٦٤– نشأت فكرة "اعضاء منفردين" يتبنون توجهات "كهنة يسوع الملك" الروحية والرسولية، مع البقاء في اماكن عملهم، ومن دون مقاسمة العيش المشترك. وقد انتمى الى الجماعة تباعا عدد من الكهنة الكلدان والسريان، سواء في الموصل ام خارجها –وكان لقاء اسبوعي يجمع الاعضاء الموجودين في الموصل. وبعد قرابة ١٠ سنوات من المسيرة المشتركة، وبحكم ظروف قاهرة، تعثرت روابطهم في اواخر عام ١٩٧٣. وكان عدد الاعضاء الكلي قد بلغ ١٢ كاهنا ممن ابرزوا وعدهم، ثمانية منهم "منفردون" وهم الآباء: جاك اسحق وبطرس يوسف وفرج رحو ولويس الديراني وحنا مرخو والبير ابونا وبطرس موشي ويوسف وسطين.

✵ من اين استقيتم حماسكم هذا؟

- الاب يونس: ان احد الاسباب الرئيسية في هذا الحماس كان من خلال تأييد ودعم اساقفتنا الاجلاء، واخص بالذكر سيادة المطران عمانوئيل بني الذي فسح لنا المجال لعيش هذه التجربة (وكان قد لمس بنفسه جدوى هذه الحياة المشتركة في اعقاب حضوره احد لقاءاتنا الاسبوعية لمراجعة الحياة!). وكذلك تشجيع المثلث الرحمة المطران عمانوئيل ددي لكهنته الذين واكبوا حياتنا المشتركة، ابتداءً بالأب جاك (وهو العضو الرابع في الجماعة، وكان بعد شماساً انجيليا ارجأ رسامته الكهنوتية بعدنا بعام واحد). يضاف الى هذا الدعم تزامن مسيرتنا مع توجهات المجمع المسكوني وقراراته المشجعة بهذا الاتجاه والموحية بتنسيق الرسالة المشتركة في خدمة قطاعات مختلفة من المؤمنين...

✵ ان الفضول يدفع المرء الى معرفة طبيعة اللقاء الاسبوعي الذي كان بينكم بين كهنة يمتازون بثقافة انجيلية وعمق روحي... كيف كان بينكم؟ وهل هو متواصل الى اليوم؟

- الاب جرجس: يكون اللقاء بصيغة "مراجعة الحياة" الجماعية، وتتم عادة من خلال تناول حدث واحد قد مرّ بحياة احدنا، سواء سلبيا ام ايجابيا، ويجري شرحه وتحليله واكتشاف الدوافع العميقة التي تختفي وراءه. ومن ثم يتم عرض الصيغة التي تصرف بموجبها الاب المعني ومقارنة هذا السلوك، من حيث تجاوبه او تناقضه مع روح الانجيل ومواقف يسوع... وكل هذا يتم في جو من الجدية والثقة، دون خوف من انتقاد او ملامة. ويخلص الجميع الى استخلاص عبرة.. وكل ذلك في ضوء مقولة كانت نصب اعيننا وهي (انظر.. احكم.. اعمل). اما اليوم، فلدينا التأمل في الانجيل والقداس الاسبوعي المشترك والذي يتضمن جانبا من اسلوب مراجعة الحياة. علما باننا نشعر بركودنا وحاجتنا الى الرجوع للقاءات افتقدناها بسبب دوامة العمل التي لا تترك مجالاً كافياً للتأمل والرجوع الى الذات –وإن كنا نسعى، من حين الى آخر، الى اغتنام الفرصة للقيام بـــ "رياضة روحية" لبضع ساعات تعيدنا الى جذورنا وينابيع الروحانية.

- الاب نعمان: كنتيجة لتواجدنا نحن الثلاثة، وضمن حياة مشتركة هي اشبه بحياة عائلية، فان هذا الجو من النقد الذاتي ومراجعة النفس امام الاخوة يمكن ان يتحقق في أي وقت او بفرصة موقف طارئ، كما يحدث احياناً على مائدة الطعام المشترك، او في امسية من الامسيات الساخنة.

- الاب جرجس: ولقد برزت الحاجة، وخاصة في فترة انتعاش الجماعة ونمو عدد اعضائها، الى نشرة.. فكانت الرسالة الشهرية لمراجعة الحياة واخبار الاخوة، بعنوان "ليأت ملكوتك" والتي استمرت بالصدور منذ ١٩٦٧ ولغاية ١٩٧٢.

* ما الذي برز كجهد مشترك خفف بتعاونكم؟

- الاب نعمان: كنا نقوم بتنسيق الخدمات الروحية والراعوية بيننا: التدريس في معهد مار يوحنا الحبيب وفي مدرستي شمعون الصفا والطاهرة، التعليم المسيحي لطلاب وطالبات المرحلة المتوسطة والثانوية ايام الجمع، ارشاد الاخوية المريمية والاخوية الطلابية، المساهمة بالدورات اللاهوتية، المشاركة في اللجان الكنسية المختلفة الخ... اضافة الى زيارات منتظمة كان يقوم بها احدنا للمرضى في المستشفيات والعجزة والسجناء، واقامة الصلوات معهم، والسهرات الانجيلية ودورس الكتاب المقدس بالمراسلة... فضلاً عن الخدمة الراعوية في الخورنات وتلبية الطلبات الكثيرة الى القاء المحاضرات والمواعظ...

- الاب يوسف: لقد نشات لدى الشباب الجامعي، ومع بدء ازدهار جامعة الموصل، الحاجة الى من يتفهم مشكلاتهم ويقف الى جانبهم ويقوم بتنشئتهم تنشئة واعية وملتزمة.. وهكذا تزامنت -هنا في مار توما- نشأة الندوة الدينية للجامعيين مع انطلاقة الاخوية الطلابية عام ١٩٦٤. ويؤسفنا ان تكون هذه الانطلاقة باتحاد الشباب قد عرفت انتكاسة مريرة في صيف ١٩٧٣.

* كنتم، اذن، اول كهنة في العراق يتعاهدون على هذه الصيغة الفريدة من الحياة المشتركة، هل نشأت بعدكم جماعات اخرى؟

- الاب جرجس: (يجيب متحسراً): اردناها مبادرة نبوية اصلاً وتوقعنا ان تأتي بعدها مبادرات اخرى عديدة: جماعات كهنوتية شبيهة في مناطق اخرى من كنيسة العراق، للبذل والانعاش والتعاون... واقول آسفا ان هذا -على حد علمي- لم يحصل لحد الآن!

ولما كان العم توما -الذي توارث الشؤون المطبخية لكهنة يسوع الملك عن ابلحد (أبي صباح) دون ان يرث ابتسامته الدائمة- في اجازة قصيرة، فقد لجأنا الى طريقة "اخدم نفسك" في تناول المرطبات! اسئلة كثيرة تزاحمت في خاطري حول المجلة التي صدّرها كهنة يسوع الملك عام ١٩٦٤ وما زالوا يشرفون على تحريرها وادارتها، فطرحت السؤال على الاب نعمان.

* كيف بدات فكرة اصدار "الفكر المسيحي"؟

- الاب نعمان: ان آخر مجلة مسيحية في العراق توقفت عام ١٩٥٦. ولسدّ هذا الفراغ بدأنا في صيف ١٩٦٣ نعدّ لسلسلة من المقالات الدينية والاجتماعية والتربوية الخ... على غرار نشرة "امسيات الاحد" (الاباء البولسيون-حريصا-لبنان)، فكانت ولادة "سلسلة الفكر المسيحي" التي ظهر عددها الاول في الواقع في اواخر ك١ ١٩٦٣-ولم يكن يحمل اية اشارة الى الشهر او السنة!

- الاب جرجس: أما ان تصبح مجلة متخصصة بشؤون الاعلام الديني والثقافة المسيحية لها مقومات الصحافة المعاصرة، فذلك كان حلماً قديما عزيزا علينا!

*** ان يتوجه الانسان الى الكتابة والصحافة.. فهذا يتطلب استعداداً واهتماماً وموهبة ادبية... فهل يا ترى كانت الدوافع الادبية هي المحفز لاصدار "السلسلة" ومن ثم المجلة؟**

- الاب جرجس: ان السلسلة والمجلة كانتا مدرسة ادبية لتطوير الاسلوب الادبي والصحافي بالنسبة لنا وللعديدين ممن كتبوا وساهموا معنا. وان لدراسة اللغة العربية على الخوري انطون زبوني –رحمه الله– دوراً في ذلك بالتأكيد. إلا ان الدافع الاول الذي جعلنا نكتب هو فراغ حقل النشر المسيحي من المطبوعات التي كانت الحاجة ملحة إليها.

*** أرى من الصعب جداً، ان لم اقل من المستحيل، التوفيق بين هذا العمل الصحافي المتعدد الجوانب وشؤون العمل الراعوي ومتطلباته الكثيرة...**

- الاب يوسف: وهذا ما حدا بسيادة المطران بني، بتفهمه لاهميته الدور الذي تضطلع به المجلة، الى القيام بتفريغنا –انا والاب جرجس– للعمل الصحافي منذ ١٩٧٩. فقد ازدادت الاعباء كثيراً اعتباراً من عام١٩٧٧، لدى انتقال الطباعة الى بغداد واعتماد الطباعة بالاوفسيت.. وما تتطلبه من مراحل ومتابعات، اضافة الى اعباء التحرير والادارة ومتاعبهما...

- الاب جرجس: وبالرغم من كل هذه الصعوبات، فان خطة المجلة من حيث عدد المشتركين وتجاوبهم معها في تصاعد مستمر، مما يدلّنا ويعزّينا من انها تقدم خدمة مطلوبة لقرائها، وتلبي بعض ما تحتاجه كنيسة العراق.

- الاب يوسف: ولا بد من القول بان استمرار "الفكر المسيحي"، بطاقات بشرية محدودة، وفي ظروف عمل غير طبيعية، هو اشبه بمعجزة نشكر الله عليها باستمرار. ومع هذا فنحن نتألم كثيراً من التأخير: فتأخر العدد عن موعده الشهري يؤدي الى التأخّر في اعداد العدد اللاحق. وهكذا يتراكم التأخير –بحيث لا تقوى عطلة المجلة على ابتلاعه– وتزداد وطأته علينا وعلى القراء! ولماذا لا نقولها بصراحة: ان كل عدد، كي يكون جاهزاً تماماً، يتطلب من العمل أكثر من شهر ونصف!!

- الاب جرجس: وبعد حساب بسيط لعملية الهدر من الوقت، استطيع القول ان مجموع ما نصرفه من الوقت في بغداد يبلغ حوالي خمسة اشهر سنوياً في المتابعة، بدءاً بالتنضيد والتصحيح والتنفيذ، وانتهاءً بالمونتاج والطباعة والتصحيف و.. و.. و.. والانتظارات!!

*** واتجه بنظري الى الاب نعمان الذي يشتكي هو الآخر من مشاكل الادارة ومعوقات التوزيع..**

- الاب نعمان: ان التوزيع يعتمد طريقة بدائية: تجنّد وكلاء متطوعون، وهمة عالية، في

القيام بجمع الاشتراكات وتوزيع العدد كل شهر... والقي اللوم في هذا على خدمات البريد: ذلك لان اللامبالاة من جانب الموزعين جعلتنا اقل ثقة بارسال المجلة بالبريد —وهو الاسلوب الافضل بالنسبة للدوريات في العالم!

●

أليس من الاسطورة ان يقوم ثلاثة اشخاص —وفي وقت تعتمد فيه الصناعة الصحافية على التخصص والتقنيات الحديثة— بانتاج مجلة تتطور وتنمو متطلباتها سنة بعد اخرى، وعلى مدى ٢٥ عاماً، وذلك دون ان يتسع كادرها الصحافي المتفرغ؟!

يتفق "ثلاثتهم" معي، ولهم ، هم انفسهم، مآخذ عديدة على اسلوب العمل! ومع ذلك، فان الأمل بأيام وظروف افضل يبتسم لهم، وهم في منعطف هام من تاريخ "الفكر المسيحي".

ماهر حزيني

١٦ الحركة المسكونية ٢٥ عاماً بعد المجمع

السنة السادسة والعشرون: ت ١ - ت ٢ ١٩٩٠

الفهرس

- افتتاحية: الحركة المسكونية... مسار لا رجعة فيه! — رئيس التحرير

المحور الاول: الحركة المسكونية ... عودة الى الينابيع

- الكنيسة الاولى ... وحدة في التعددية — أ. لويس ساكو
- الكتاب المقدس والوحدة — أ. كوب المخلصي
- الافاق المسكونية لدى القديس بولس — أ. منصور المخلصي
- "ليكونوا واحداً كي يؤمن العالم" — أ. يوحنا عيسى
- الوحدة المسيحية مشروع للتحقيق — أ. يوسف حبي

المحور الثاني: الحركة المسكونية بين الامس والغد

- نشأة الانقسامات واسبابها — أ. يوسف توما
- نشأة الحركة المسكونية المعاصرة — أ. جودت القزي
- من رواد الحركة المسكونية — الاخت هالت آنييه
- المرسوم المجمعي "في الحركة المسكونية — أ. جرجس القس موسى
- الكنائس الشرقية الكاثوليكية: عقبة ام جسر؟ — أ. بهنام عفاص
- مستقبل الوحدة المسيحية — أ. لوسيان جميل
- الحركة المسكونية في كنيسة العراق — أ. افرام سقط
- المبادرات المسكونية في كنيسة العراق — أ. البير ابونا
- لقاء - حديث مع: المطران صليبا شمعون
  المطران افاك اساوريان
  المطران كوركيس صليوا
  المطران بولس دحدح
- القيامة ... عيد نحتفل به سوية — نجيب قاقو
- احاديث: من وجهة نظرهم — ...
- طاولة: المزيد من الانفتاح والتعاون — بنديكت صنا وماهر حبو
- الكنائس الشرقية: معلومات وارقام — ...
- الحركة المسكونية في "الفكر المسيحي" — ...

الحركة المسكونية! مسار لا رجعة فيه! فمن يوحنا ٢٣، بابا المجمع، مروراً ببولس السادس الذي ما انفكت يداه مفتوحتين للحوار، الى يوحنا بولس الثاني الذي تخللت حبريته في المجال المسكوني اشراقات الى جانب تعثرات تمثلت في تململ لجان الحوار اللاهوتي، اكثر مما في لقاءات القمة بين اقطاب الكنائس... كانت الحركة المسكونية لدى الكنائس كافة مطلباً وهدفاً لا عودة فيه...

وجاء هذا العدد -٢٥ عاماً بعد المجمع- جوهرة في قلادة الاعداد الخاصة لجرأة طروحاته وعمق مضامينها وتنوعها، فضلاً عن اخراجه الرائع! وفيما توزعت المقالات الرئيسة على محورين: عودة الى الينابيع من جهة، ونظرة الى الامس والغد من جهة اخرى، كان للمبادرات المسكونية في كنيسة العراق نصيب كبير عبر احاديث ادلى بها اساقفة، ووجهات نظر عكسها علمانيون من مختلف الطوائف، وفي جوانب كثيرة من العمل المسكوني. وبكلمة: عدد يُقرأ!

(...) وهكذا كانت المحبة وستبقى السبيل الوحيد لهذه الشركة التي نتطلع إليها بأمل، ونطمح أن تتأصل في كنيستنا، إن نحن -من أعلى السلم إلى أدناه- جعلنا منها الهدف...

وما هذا العدد الذي يحتفي بذكرى ربع قرن على اختتام المجمع المسكوني -هي بالأحرى ذكرى ربع قرن من العلاقات المسكونية المكثفة- إلا ليمنح الحركة المسكونية في كنيستنا دفعة إلى أمام! (...)

و"الفكر المسيحي" التي واكبت المسيرة المسكونية على مدى ٢٥ عاما -وقد آلت على نفسها أن تكون مجلة مسيحية لا طائفية "تؤمن بالوحدة المسيحية... وبتعددية الآراء ضمن وحدة الايمان"-يطيب لها أن تفاخر بأنها كانت وما زالت المكان الذي يلتقي حوله كل المسيحيين العراقيين ويجدون فيه أنفسهم، وتطمح أن تبقى، بإذن الله، أداة لدعم الحركة المسكونية في كنيسة العراق! ذلك كان دأبها، وهو قصوى مناها!

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٤١٨-٤١٩)

الافاق المسكونية لدى القديس بولس

"بولس، اليهودي، والفريسي المتشدد والمتبحر في معرفة التوراة، ربيب الثقافة اليونانية وابن الشتات المؤمن الذي نشأ وترعرع في ارض وثنية... عندما اتبع صوت يسوع وانضم الى جماعة تلاميذه، لم يتنكر لدين آبائه، وانما اكتشف معناه الحقيقي وغايته التاريخية" كتبها الأب منصور المخلصي في مقاله ... وعقّبَ قائلاً: لقد اكتشف ما معنى ان "ابراهيم هو ابونا في الايمان"، لا في الختان وحسب. هذا الاكتشاف يوجزه بولس بكلمة "الحرية"، حرية ابناء الله. وهنا تكمن جذور "الانفتاح المسكوني".

الاب منصور فان فوسيل بلجيكي من رهبنة الفادي *(Rédemptoriste)* وضع مع اخوته الآباء المخلصيين، كل امكاناته في خدمة كنيسة العراق بما قدّمه ويقدمه من مواعظ ومحاضرات ومبادرات. وقد اتحف المكتبة العربية بمؤلفات قيمة عديدة عن تاريخ الكنيسة وليتورجياتها وآبائها العظام، والشرقيين منهم بنوع خاص... ولعل ابرز مبادرة له تأسيس "معهد الآباء" الذي استقطب عدداً من الطلبة الراغبين في النهل من روحانية آباء الكنيسة. احصيت له في "الفكر المسيحي" ١٨ مساهمة ابرزها سلسلة المقالات في انجيل مرقس في السبعينات.

لنقرأ قصة اهتداء بولس في اعمال الرسل (الفصول ٩ و٢٢ و٢٦) وتعليقاته الشخصية حولها، عشرين عاماً بعد الحدث، في رسالته الى اهل غلاطية (ف١ و٢). هذا الاهتداء يشكل حدثاً اساسياً في تاريخ المسيحية. ليس لانه اهتداء ركن من اركان الكنيسة الاولى، بقدر ما هو نقلة نوعية جوهرية في التكوين الفكري والانفتاح الديني للمسيحية الناشئة والتأثير الذي انسحب منه على تاريخ الكنيسة على مر الاجيال. بولس، اليهودي والفريسي المتشدد والمتبحر في معرفة التوراة، ربيب الثقافة اليونانية وابن الشتات المؤمن الذي نشأ وترعرع في ارض وثنية... عندما اتبع صوت يسوع وانضم الى جماعة تلاميذه، لم يتنكر لدين ابائه، وانما اكتشف معناه الحقيقي وغايته التاريخية. على خطى يسوع وفي روح يسوع اكتشف ان الحرف يقتل، وان الروح هو الذي يحيي.

لقد اكتشف ما معنى ان "ابراهيم هو ابونا في الايمان" لا في الختان وحسب. وهذا الاكتشاف يوجزه بولس بكلمة واحدة هي "الحرية"، حرية ابناء الله. وهنا تكمن جذور "الانفتاح المسكوني".

✵ كيف يرى بولس "كنيسة المسيح"؟

المقال التالي ليس دراسة متكاملة

حول طبيعة الكنيسة او وحدها، وانما هي خطوط اساسية ترسم الافاق المسكونية لدى بولس، من خلال حدث (مجمع اورشليم)، وحالة (انقسامات كنيسة قورنتس)، وصورة (الجسم والاعضاء) مستقاة من مواقفه وكتاباته: ثلاثة مراجع تعكس لنا رؤية بولس للكنيسة الواحدة.

١. مجمع اورشليم (نحو ٤٨-٤٩م)

خلاف ينشب بين المسيحيين حول الموقف الواجب اتخاذه تجاه المؤسسات والتقاليد اليهودية. فترتئي جماعة اورشليم، مع مار يعقوب، وجوب المحافظة على كافة التقاليد اليهودية المعقولة والصالحة، ومن ضمنها الختان والوصايا المتعلقة بالطعام.. بل ينبغي فرضها كشرط مسبق على الوثنيين الراغبين في اعتناق المسيحية. غير ان بولس قد اختبر ما هي الحقيقة وفهم كل ابعادها، فضلا عن شعوره في انطاكية ابان رحلته الرسولية الاولى بان روح يسوع يقوده لانتهاج طرق اخرى. فاتخذ، مرة اخرى، موقفاً ثورياً بان الايمان بيسوع المسيح لا يمر بالممارسات الضيقة التي تفرضها الشريعة اليهودية. وقد سجل بذلك انسلاخا مباشراً، حراً، وشخصياً، عن هذه الممارسات، واختبره في حياته الشخصية وفي رسالته، وهو مقتنع من سلامة موقفه، غير انه بحاجة الى تأييد رسمي من قبل الرسل في اورشليم (الاعمدة). وبعد مناقشات حادة، يُقبل موقفه (مع بعض التحفظات، بحسب كتاب اعمال الرسل). (انظر اعمال الرسل ١٥: ١-٣٥).

وهكذا صار بالامكان، بفضل بولس، تقديم المسيحية للامم الوثنية كديانة منفتحة، شاملة، ومن دون اية متطلبات قومية مسبقة او شروط باتباع ممارسات يهودية او غير يهودية مهما كان نوعها. بفضل بولس تحررت المسيحية التي بُشِّر بها الوثنيون من كل توجّه قومي يهودي ومن الطقوس الثانوية الضيقة.

وهنا -من دون الدخول في التفاصيل- نسوق الفكرة التالية حول الكنيسة في شخص اعضائها الشرقيين المحليين -ونرجو ألا يعتبر ذلك اتهاما: في هذه المناطق يدعى المسيحيون احيانا "اهل الطقوس". ومن هنا يأتي السؤال التالي: هل قدمت الكنيسة نفسها في هذه الديار بصفتها الانسانية الشاملة، بحيث تكون مقبولة ايضاً من قبل الشرقيين الآخرين؟ فغالباً ما يحس الانسان الشرقي نفسه غريباً عن هذه الكنيسة، او بالاحرى عن هذه الكنائس "القومية" التي احاطت نفسها بجدران التقاليد والعادات والطقوس واللغات، حتى صارت تبدو كمن يغار على كنز يحميه ولا يجوز لغيره مشاركته.

ترى كيف يصير الواحد مسيحياً هنا من دون ان يرى نفسه ملزماً بان يصبح اولاً كلدانياً او سريانياً او لاتينياً.. اجل، ان "الامم" تنظر الى الكنائس نظرتها الى جماعات قومية طقسية منغلقة على ذاتها، ولم تعد ترى فيها جماعة التلاميذ الملتفين حول المعلم الحاضر والحي بينهم، اولئك التلاميذ الذين تهمهم هذه "الشعوب" حقاً. وهكذا لم يعد مسموعاً

صوت المسيح الذي كان يقض مضجع بولس، ولا رسالته التحررية، ذلك ان اتباع المسيح لم يعد يعني "اعتناق الحرية"، بل ان يكون المرء "كلدانياً" او "سريانياً".. وبوسعنا ان نقول، مع شيء من المبالغة، بأن الكنائس المحلية -وقد تلكلم عنها بولس- قد صارت "كنائس قومية" لا تعكس بامانة وجه "الكنيسة الجامعة". هذا، ونضرب صفحاً عن بعض الاختيارات والمواقف اللاهوتية التي اصبحت، هي الاخرى، كشرط "لا بد منه" ليقال عنك بانك مسيحي حقيقي. لعمري، كيف تستطيع هذه الكنائس ايصال بشرى الحرية في الروح الى "الامم"، او حتى في ما بينها؟ ان جميع الكنائس تقرأ رسائل مار بولس ذاتها وتقرأها بالابهة عينها في الاحتفالات الليتورجية، غير ان دعائم شرعة الحرية المسيحية هذه اصبحت كذخائر وكقطع اثرية لم يعد يُقدرّها حق قدرها سوى بضعة فقهاء نادرين. اجل، كم نتوق الى سماع صوت بولس نفسه، مرة، اثناء قراءة "الرسالة"! صوت بولس الذي ينهض حياً وحاضراً بيننا في وسط الكنيسة ليقول لنا: "ان المبدأ الاساسي للخبرة المسيحية هو الحرية! فأنْ يكون المرء مسيحياً، ليس معناه اتباع شروط قومية او تقاليد خاصة.. فليس ثمة يهودي او وثني، ليس ثمة سوى مؤمنين، رجالا ونساء، يغمرهم روح يسوع...".

٢. تعريف الكنيسة

(الرسالة الاولى الى قورنثية). في هذه الرسالة يعالج بولس، الواحدة تلو الاخرى، قضايا مختلفة تهم جماعة قورنثية، وتتحدث الفصول الاولى عن "الانقسامات". فهناك عدة جماعات اخذت تظهر وتنفصل عن الكنيسة، مستندة ومتباهية بمؤسسها او بمبشرها المفضل. وصار كل فريق يعتبر نفسه أفضل من الآخرين ويحتقرهم. لا شك ان مثل تلك المفاضلة ظاهرة بشرية في كل الازمنة، وقد نعتها بولس بانها مواقف بشرية جداً، و"بحسب الجسد". غير ان مثل هذه المواقف حين تظهر داخل الكنيسة -وهي جماعة روحية- انما تحمل معها الخراب والدمار. فعلى المسيحي، عضو الكنيسة، ان يكون منطقياً مع ذاته ويعيش وفق مبادئ الحياة "بحسب الروح".

هذا ايضاً منطق واضح ومعروف. ولكننا عندما نطبقه على علاقاتنا الكنائسية الحالية، نرى كم اننا لا زلنا "في قورنتس"، منهمكين في مواقفنا البشرية البحتة "بحسب الجسد"، وكم نفتقر جميعاً، مسؤولين او مؤمنين اعتياديين، الى العمل "بحسب الروح".

في هذا الرسالة ايضاً يستخدم بولس، ولاول مرة، عبارة "الكنيسة" للدلالة الى جماعة المسيحيين التي في قورنثية، وصار يحدد هذا الواقع الجديد، بصورة ضمنية، على انه الجماعة المحلية، الفاعلة، والمحتفلة بمجد الله.. ومن ثم يطلق عليها (أي على هذه الجماعة) سائر النعوت الواردة في العهد القديم بمعانيها الاصلية مثل: شعب الله، ورثة ابراهيم، جماعة الصحراء المقدسة، جماعة المختارين، هيكل الله. كما ان عبارة "كنيسة الله" أو "جماعة الله"، استمر استخدامها ايضاً بالمعنى المتداول في العهد القديم، فأطلقت في البداية على جماعة اورشليم المسيحانية مع اشارة الى شعب الصحراء، ثم طبقها بولس على الشعب الجديد

ايضاً، وعلى مجموع الجماعات المسيحية التي اخذت تشكل جماعة جديدة تحقق رموز العهد الجديد، وذلك من خلال خبرتها للمسيح، في الايمان والعماذ والروح القدس. وهذه الجماعة هي الموضع الذي يدعو اليه الله الوثنيين والامم لتكوين "شعب جديد" في المسيح. اما وحدة هذا الشعب، فيعبر عنها الرسول بعبارات قوية مثل: الزرع، البناء، الزوجة، الجسد. ولكن ما ينبغي تحاشيه هو استخدام كلمة "شعب" هنا بالمعنى القومي. "فالامة" اصبحت الان "الامم" و "التوراة" هي "المسيح". وما يحدد "هذه الامة" لم يعد الدم او الارض، وانما "الكينونة في المسيح" فقط، ومنذ الآن فصاعدا اصبح هو "الدم" و"الارض". فشعور "الجماعة" بانها "كنيسة" لا يعتمد على كونها لاتينية او يونانية، وانما على انتمائها الى المسيح مع كل مقومات وجودها.

فمار بولس كان يعلم لماذا ارسل الينا، نحن قورنثيي اليوم، قصيدته حول الحب الاخوي!

٣. كنيسة المستقبل

(الرسالة الى افسس). لقد سبق بولس واستخدم تشبيه "جسد المسيح" منذ رسالته الاولى الى اهل قورنتس ليدافع بها عن وحدة الكنيسة. ففي هذه الرسالة تحدث طويلا عن الجسد واشار الى اهل اللحوم المخصصة للاوثان والى العلاقات الجنسية، ثم تكلم عن قيامة الاجساد.. وهكذا نرى بأن، في ذهنه، جسدا حقيقيا، ولربما جسد المسيح الشخصي. "وكما ان الجسد واحد وله اعضاء كثيرة وان اعضاء الجسد كلها على كثرتها ليست الا جسدا واحداً، فكذلك المسيح" (١قورنتس ١٢:١٢). "انا قبلنا المعموذية جميعا في روح واحد، لنكون جسدا واحدا، أيهودا كنا ام يونانيين، عبيدا ام احراراً، وانا ارتوينا من روح واحد" (١٢:١٣). "انتم جسد المسيح".

ومع ذلك، فان فكرة بولس تأخذ عمقا متميزا في رسائله المعروفة "برسائل الأسر"[١]. فعبارة "الكنيسة" تطلق الان على الكنيسة الجامعة. كما ان هذه الكنيسة صارت تكتسب بُعداً مثالياً وشخصانياً، وتنتقل في الوقت عينه الى السماء. ويقود الكاتبَ تأملٌ لاهوتي عميق في "قصد الله"، فيتكلم عن "المسيح الكوني"، ملك الكون الذي تنضوي الكنيسة اليه، وتصبح بمثابة: اعتلان مجد الله امام القوات، الحاضرة السماوية، عروس المسيح، جسده واكتماله.. هذه الافكار التي الهمت، فيما بعد، تيار دي شاردان من المفكرين المعاصرين وغيره من المفكرين المعاصرين حول مقولة "الدعوة الكونية للكنيسة".

هكذا نستطرد بأن الكنيسة ليست اقلية، انها "كلية" شاملة. وكنائسنا، في الواقع ليست سوى صورة فقيرة لهذه الكنيسة الكبرى "المسكونية" التي تعانق المسكونة كلها، الكنيسة الكونية، رمز الوحدة ومركز كل ما هو موجود.. في المسيح.

---

(١) افسس، فيلبي، قولسي، فيلمون.

خاتمة

لقد كتب مار افرام ومار يوحنا فم الذهب شروحات وتعليقات بليغة حول رسائل مار بولس، وثيودور المصيصي وجد فيها اسس نظريته الجديدة في تأويل تاريخ الخلاص. كما ان مارتن لوثر، في شرحه للرسالة الى الرومانيين، استقى قواعد البروتستنتية. وهكذا تُشرح كتابات مار بولس بطرق مختلفة وبحسب الخلفية الفلسفية للشراح. غير ان ما ينبغي التوقف لديه هو الوصول الى خبرة بولس الاولية والاساسية "للمسيح". ففي المسيح وجد "الحرية"، وللدفاع عنها كرس حياته كلها. فاذا ما اراد المسيحيون اليوم استعادة الوحدة، عليهم أولاً العودة الى خبرة "الحرية" المعاشة والحالّة في الجماعة الرسولية.

الأب منصور المخلصي

الوحدة المسيحية مشروع للتحقيق

المراد بهذا العنوان النهوض بتحقيق الوحدة المسيحية. فهي مشروع للانجاز، لا عملية استعادة حالة كانت ثم تبدلت. والفرق كبير بين الطرحين، ولا بدّ من إيضاحات للوصول الى مفهوم للوحدة المسيحية يختلف عن المفهوم الشائع.

قبل فترة، أُجرى استفتاء في فرنسا بشأن وحدة المسيحيين أسفر عن أنّ ٤٩٪ من الفرنسيين يرون اجتماع المسيحيين كلهم في كنيسة واحدة أمراً مستحيلاً، وان ٢٨٪ منهم يعتبرون الانقسام أمراً مؤسفاً، إنما لا مفرّ منه. ولعل رأي الفرنسيين هذا يعبر عن حال معظم مسيحيي العالم، مع الاسف الشديد. ومع ذلك فثمة عشرات بل مئات المبادرات واللقاءات واللجان من أجل تحقيق الوحدة المسيحية.

✵ مفهومان للوحدة

ما المقصود عادة بالوحدة المسيحية؟

يقول لاهوتيون ومؤرخون ومؤمنون كثيرون: إن المسيحية ومن ثم الكنيسة، بدأت واحدة، وكان ما كان من اسباب، فدبّ الخلاف بين صفوفها، فانشقت، حتى أمست مشتتة، منقسمة، وصار لزاماً على كلّ من يوّد إتمام مشيئة الرب أن يعمل على استعادة توثيق عرى الوحدة، وجمع الأجزاء المتعددة الى واحد.

الوحدة المسيحية هي مشروع وليس عملية استعادة حالة كانت ثم تبدلت، والفرق كبير بين الطرحَين! بهذه الكلمات افتتح الأب يوسف حبي مقاله، فذهب يستقرئ معطيات التاريخ الكتابي والكنسي ليقول بان الكنيسة هي، منذ البدء، كنائس، توحد بينها شركة في الايمان والمحبة، ورأسها المسيح... ومن هنا كانت له توضيحات قيّمة لمفهوم الجماعية والوحدة، بلوغاً الى التناغم الواجب بين مفهوم الوحدة مع التعددية: "ليست الوحدة المسيحية ذوبان كنائس في كنيسة، ولا انصهار افراد في مجموع، ولا اتحاداً ادبياً او فيدرالياً بين الجماعات المسيحية ...".

ويخلص المقال الى رسم الخطة لبنيان الوحدة، انطلاقاً من المبدأ الذي بموجبه تكون الوحدة شركةً بين الكنائس المختلفة.

ونقول: ليس هذا التحليل دقيقاً، ولا الفهم صائباً، إذ لم يكن قصد المسيح وواقع الكنيسة والمسيحية على ما يذهب اليه هؤلاء، لأن المسيحيين جميعاً واحد أساساً في المسيح وكنيسته، وان تباعدوا في الشركة الكنسية والمذاهب اللاهوتية أحياناً. ونوضح الأمر:

* الخلاص والملكوت

تفيدنا معطيات الكتاب المقدس، ولا سيما العهد الجديد، انّ الخلاص مشروع للإنجاز والتحقيق، لا عملية جراحية أجراها الله على يد المسيح المخلص وأنجزها مرة واحدة. الخلاص ولادة جديدة، ودخول في عهد جديد. والولادة ليست اكتمالاً أو بلوغاً تاماً؛ وللعهد بدايته، واستمراريته حتى التكامل. ويتوقف النمو والتكامل على من يتولّى أمر ذلك، لا على المبادئ الأولى وحدها. وشهير هنا قول القديس أوغسطينس: "إن الله الذي خلقك بدونك، لن يُخلصك بدونك".

وإرادة الله هي خلاص جميع الناس. والمسيح بموته وقيامته صار علّة خلاص أبدي للجميع، وبالكنيسة جسده، بحيث يغدو كل من يؤمن به وارثاً للخلاص، ومخلّصاً في الرجاء عبر مسيرة حياتية، فيها من الايمان والحب والشك والإحباط، وفيها اهتداءات وتجدد دائم، حتى يتحقق النصر.

كذلك الأمر بشأن الملكوت، فان المسيح افتتحه برّاً وسلاماً وفرحاً، وبروحه القدوس قامت الكنيسة جسداً رأسه المسيح. أما الانجاز والاكتمال، فمتوقفان على الرسل والتلاميذ دون التقيدّ بزمن معيّن أو مكان محدّد، أو شكل خاص، لان الملكوت هدف أخير لبشرى الخلاص...

صحيح ان الازمنة قد كملت، والملكوت، عطية الله، قائم الآن، واننا في زمن العرس والحصاد. إلا أن لعامل الزمن والبشر دوراً كبيراً في تلمس قيام فاصل بين افتتاح الملكوت وبين اكتماله، وكذلك بين زمن تأدية الشهادة وزمن بناء الكنيسة، حيث يأتي الملكوت في الختام بكل ملئه، فيجيء المدعوون المؤمنون من كلّ حدب وصوب، ومن كل أمّة وجنس، ويتكئون مع الابرار والآباء القديسين والشهداء... فهم الورثة، ويتم هكذا توحيد ملكوت الانسان وملكوت الله[1].

* الكنيسة والكنائس

اذ نستقرئ معطيات التاريخ الكتابي، تتضح ملامح الصورة الأصلية للكنيسة، لان ما يطرح عادة، بشكل جاهز ومتبلور، من أن الكنيسة بدأت واحدة ثم تجزأت الى كنائس لا سند تاريخياً له.

فنحن نعرف أنه بعد انطلاقة الرسل من اورشليم (القدس) الى شتى انحاء العالم،

---

(١) راجع موضوعي "الخلاص" و "الملكوت" في معجم اللاهوت الكتابي.

تكونت جماعات مسيحية، وأوكل الرسل تسيير الامور الى شيوخ (كهنة وأساقفة) وشمامسة. وكانت محاور الشركة الكنيسة هي: كلمة الانجيل... وكسر الخبز، وثقل موقع الرسول المبشّر، ووحدة الايمان، وشركة المحبة، والتقليد الرسولي. هذه هي الوحدة الأساس. فالكنيسة أخوّة محبة، وشركة أسرار عجيبة، قبل أن تكون تنظيماً وطقوساً وتشريعات، ولو أنّ لهذه أيضاً مبررات وضرورات.

صحيح انّ المسيحية وُلدت كنيسة أولى في القدس (اورشليم) ثم تعددت الكنائس منتشرة في كل مكان، تُوحّدها شركة الايمان والمحبة والأسرار. غير أنّ الكنيسة الاولى ليست "الكنيسة الأم" والكنائس الاخرى فروع لها. فالرأس الأوحد للكنيسة جمعاء هو يسوع المسيح، واصغر نواة مسيحية في أية ناحية من العالم تمثل الكنيسة الجامعة كلّها، وبالعكس. وعلاقة الانتماء العضوية مرتبطة بالمسيح رأس الجسد.

ويفيدنا تاريخ الكنيسة —الكنائس في العالم— ان المسيحية لم تتكون شعباً معيناً واحداً، بالمعنى القومي، تكاثر وانتشر في المعمورة، بل انّ أفراد شعوب عديدة شكلوا جماعات جماعات، وتوّحدوا كنائس كنائس.... فكانت الأبرشيات الكبيرة، ثم البطريركيات، يأتي في مقدمتهم صاحب كرسي روما، فبطاركة القسطنطينية منذ أصبحت عاصمة رومانية شرقية، فالاسكندرية، فانطاكية، فبطاركة ورؤساء الكنائس الكبيرة الأخرى.

وقد كان اكتمال هذا التوحيد بالروح، لا بالجسد؛ وبالايمان والمحبة، لا بالانتماء القبلي أو التميز القومي. لذلك أعطى شعباً جديداً للرب، مولوداً من زرع جيد، بكلمة الله الحيّة، وبفضل الماء والروح (١بطرس ١:٢٣، يوحنا ٣:٥-٦)، "بحيث انّ الساكن في روما يعرف انّ الهنود هم أعضاء بالنسبة اليه" (يوحنا فم الذهب)؛ فتكوّن هكذا "جيل مختار، كهنوت ملوكي، أمة مقدسة، وشعب مقتنى" (١بطرس ٢:٩-١٠) رأسه المسيح، وكل واحد من أفراد الشعب المؤمن عضو في بنّوة الله، بالحق والحب (١قورنتس ١٢، قولسي ٢، أفسس ٤).

❋ الجماعة والوحدة

ولرعاية الجسد الواحد، اختار المسيح رسلاً، كلّ واحد منهم، انطلق مبشراً، مؤسساً جماعة مؤمنين في كل مكان، فكانت الكنيسة "كنائس".

إلاّ ان المسيح اختار الرسل جماعة، وجعلهم له شهوداً (أعمال الرسل ١:٨)؛ ولم يكن تعامله مع كلّ منهم بمفرده، بل كحلقة وجماعة تحت قيادته وإرشاد الروح، هو حجر الزاوية والبنيان (١بطرس ٢:٦-٨؛ رومية ٩:٣٣).

فثمة تاكيد على شخصية الفرد وخصوصية الجماعة—الكنيسة الواحدة، وتأشير

على الجماعية ووحدة كنيسة المسيح، بحيث انّ كل أسقف هو مبدأ الوحدة واساسها المنظور في كنيسته الخاصة، تتمثل فيها الكنيسة الجامعة، بأسرها (القديس أغناطيوس الأنطاكي): فيمارس كل أسقف سلطة راعوية على الكنيسة الجامعة جمعاء، بوصفه عضواً في الجماعة الأسقفية، ويمثل كل الأساقفة معاً الكنيسة الجامعة في رباط السلام والمحبة والوحدة (الدستور العقائدي في الكنيسة للمجمع الفاتيكاني الثاني ٢٢-٢٣).

وللشخصية الفردية والجماعية بُعدان، بل مبدآن ضروريان في واقعية الوجود الانساني والعمران البشري، تتضح فيهما معالم الرئاسة والمجتمعية، وبهما تكتمل صورة الكثرة في الوحدة، والابوة الالهية الشاملة والخلاص المسيحاني المتنامي حتى ذرى الكمال.

ومعلوم بما فيه الكفاية الاختلاف بين وجهتي نظر الشرقيين والغربيين في فهم دور رئيس الكنيسة الأول في واقعنا المنظور، إذ يقول الغربيون والكاثوليك إنّ بطرس هامة الرسل، وخلفاءه الاحبار العظام (البابوات) هم الرؤساء الأعلون، وان رئاستهم لمصّف الرسل وللمصف الأسقفي ليس تقدماً شرفياً وحسب، كما يريد الشرقيون الارثوذكس، بل رئاسة حقيقية الجسد -الجماعة- الكنيسة. بفضلها يتمتع كل منهم بالسلطة على جميع الأعضاء، لانهم جسد واحد وكنيسة واحدة.

❋ الوحدة والتعددية

من الأمور الرئيسية التي آذت قضية الوحدة المسيحية فهم البعض للوحدة على أنها تطابق شكلي ومساواة مادية وحرفية، مع تفضيل طرف من الأطراف لسبب او آخر. بينما لا يمكن ان تعني الوحدة المسيحية سوى الوحدة في المسيح. والمسيح واحد لا يتجزأ. وليس من تمييز بين الاعضاء سوى من باب القرب الروحي منه، بالايمان والرجاء والمحبة، أي بالقداسة والكمال. وما التمييز الآخر على الصعيد البشري المنظور إلا من باب مسؤولية الخدمة، لا ترفعاً ومباهاة.. والتقليد (الرسولي والكنسي) الذي أورث أسبقية وأولوية يقتضي من صاحبه مضاعفة جهد واخلاص وتواضع: "من كان فيكم كبيراً فليكن لكم خادماً". وكما أن أصغر خلية في الكنيسة تمثل الكنيسة جمعاء، كذلك علينا أن نتحسس بأن كل ثقل الكنيسة الجامعة هو في أبسط كنيسة محلية، بفضل علاقة الشركة المتبادلة في وحدة أساس.

انما في الانسان نزعة غريبة، هي سبب العديد من المشاكل. فهو ميّال بطبعه الى الركود والجمود والاندفاع وراء الانغلاق حتى التحجر في قوالب جامدة، رغم أن طبيعته تعجّ بنوازع نمو وحوافز تكامل لا حدود لها... هي هذه النزعة تسوق المرء والمجتمعات والكنائس احياناً الى تكريس ما هو ثانوي ومتحرك حتى اعتباره جوهرياً ثابتاً، بل حقيقة مطلقة. وقد عالج الكثيرون فكرياً ودينياً، موضوع التعددية، والوحدة، لذا نكتفي هنا بالاشارة اليها، والتأكيد على أن الوحدة المسيحية لا تنفي التعددية بل العكس هو الصحيح،

وعدم الأخذ بالتعددية في المسيحية يعني حمل فكرة خاطئة عن الوحدة.

ليست الوحدة المسيحية ذوبان كنائس في كنيسة، ولا انصهار أفراد في مجموع، ولا اتحاداً أدبياً أو فيدرالياً بين الجماعات المسيحيّة والكنائس. والوحدة في الأساس بالمسيح والشركة الواحدة، مطلوبة دوماً. والتعدد والتنوع والاختلاف من صلب التجسّد الواقعي للكنيسة، جسد المسيح. ومنذ الأيام الاولى تميزت كل جماعة مسيحية عن الجماعات الأخرى. ولما توّحدت بعض الجماعات في كنائس أكبر حجماً، على رأسها أساقفة، ومطارنة، وبطاركة، كانت لهذه المجاميع—الكنائس خصوصياتها، مع احتفاظها جميعاً بالخصائص المشتركة الواحدة، ومع ضمان الشركة الأساس في الوحدة والمحبة.

ولو فرضنا —وهذه أمنيتنا القصوى— أنّ جميع الكنائس، حتى المتباعدة فيما بينها رأت أن تلتقي اليوم في شركة محبة وحياة، فلن تكون وحدتها تطابقاً شكلياً ومساواة حرفية، ولا يجب أن يُصار البتة الى انصهار وذوبان أية من الخلايا الكنسية والمسيحية في بوتقة الأكثر عدداً، أو الاهم موقعاً، أو قدمًا، إذ لا توجد حسابات مثل هذه لدى الله، لا على صعيد المبادئ والقيم والحق، ولا في عمق الروحية والامتداد نحو الكمال. الكل واحد في المسيح، كبيراً كان أم صغيراً، قديماً أم حديثاً، وهو وحده المسيح الألف والياء، من يجعل دوماً كل شيء جديداً.

فكم يوهم النفس من يعتقد أن الواقع القديم والحلم الجميل قد تبدد، وينحي باللائمة على من أفسد الامور، ذاكراً في المقدمة رؤساء الكنائس، متخلصاً من مسؤوليته الشخصية، أو متذمراً شاكياً، متخلياً عن دوره الصحيح في بنيان الوحدة.

❋ بُنيان الوحدة

لا ينكر أن الخلافات سببت التباعد والفرقة بين الكنائس العديدة وأفضت الى الانفصال وحتى الحرومات. ولعل أهم أسباب الشقاق نزاعات على الكراسي والمناصب ومجادلات نظرية وفلسفية ولاهوتية، لا عقائدية ولا الاختلاف في اللغات والطقوس والاعياد والتشريعات والعادات. فهذه الاخيرة من صميم ضرورة التجسّد، وحصيلتها الطبيعية قيام كنائس متعددة لا يتعارض وجودها ومبدأ الوحدة بفضل الشركة الأساس.

فمنذ الاجيال الاولى تنوعت الطقوس والأعياد والأصوام والممارسات والقوانين التنظيمية، ولكنها لم تسبب خلافاً وتباعداً وتباغضاً، بل حواراً ولقاءات جماعية، وقرارات مجمعية، فيها ما هو ثابت مما يمسّ العقيدة والجوهر، وما هو متحرك من اجتهادات وتدابير تتفاعل والمناخات الحضارية والمجتمعات البشرية. والتنوّع والتعددية من زينة الحياة، بل من سُننها الثابتة، ومما يجعل الكنيسة واضحة متجسدة، لان للكنيسة وجهين، الاول غير مرئي والآخر منظور محسوس، ولا بّد لها أن تكيف حياتها وفقاً لحاجات الزمان والمكان (مرسوم في الكنائس الشرقية، ٢).

لكنك قد تعترض قائلاً: اذن، لِمَ يقال لنا: ينبغي استعادة الوحدة، حتى ان المجمع المسكوني الآخير افتتح قراره في الحركة المسكونية بذلك؟ إن المقصود بذلك وحدة الشركة بين كنائس هي حالياً متباعدة، إن لم نقل متخاصمة، ولا بدّ من تفاهم بين الكاثوليك والارثوذكس والبروتستنت، واستعادة الشركة بين المسؤولين الكنسيين والمؤمنين جميعاً. ومع ذلك فان ما أودّ التأكيد عليه هنا هو مفهوم الوحدة الأساس، أعني أن الكنيسة ابتدأت تصميماً وأساساً بالمسيح وروحه، ويتوقف على مواد البناء، جماعة المؤمنين، أن يكونوا حجارة صالحة في صرح البنيان الرائع. ولأن البنيان الكنسي ليس مادياً جامداً، فهو لن يُنجز ويكمل فيجمد، لذا كان مشروع الوحدة، أي مشروع النمو المتكامل، وبلوغ الملء مشروعاً قائماً دائماً، وما أجمله! على كل مؤمن مخلص، وتلميذ رسول أن يعمل على تحقيقه...

ان أمنية قلب المسيح وصلاته الى أبيه هي: يا أبت... ليكونوا واحداً..."، ولم يقل: "إنهم واحد" بل ليكونوا واحداً... مؤكداً على أن الوحدة قائمة ومشروع دائم للتحقيق...

أمنيات ومقاصد

- لا تقل: "كانت المسيحية واحداً... أما اليوم فمن الصعوبة بل من المستحيل.. بعد أن سارت كل كنيسة في دروب مختلفة...". الوحدة مشروع ينبغي أن نسعى لتحقيقه كل يوم، بدءاً بازالة الخلافات، لا التنوع، والعمل معاً بفكر واحد، وقلب واحد ونية طيبة وصلاة حية وعمل جاد.
- لا تقل: "الكنائس في العالم، وكنائس العراق"، بل "كنيسة المسيح في العراق وكل مكان". فهي واحدة في الاساس، وما الاختلافات الناتجة سوى في قضايا وامور ثانوية كما عبّر عنها مراراً رؤساء الكنائس في لقاءاتهم الوحدوية المتكررة.
- قل دوماً: "لنكن واحداً".. بل "نحن واحد".. "وما يجمعنا اكثر بكثير مما يفرّقنا". ولا تتخلّ عن دورك في بنيان الوحدة مهما كان، ولا تسمح لأحد أن يكرّس القطيعة والتباعد والانعزال والانفراد على أي حساب.
- ليت رؤساء الكنائس عندنا وفي كل مكان لا يقرّون شيئاً لكنائسهم ما لم يلتقوا بالآخرين ويتشاوروا معهم، ويتعاونوا كاخوة عائلة واحدة، وأعضاء بعضهم لبعض، شعارهم "لا تعمل وحدك ما تستطيع أن تعمله مع الآخرين"... وعلينا التأكيد، كشرقيين، في هذه البلاد العربية والاسلامية، على أصولنا المشتركة حضارياً ودينياً، وانماء روح التعاون والعمل الجماعي بانسجام وحرية وصدق وآفاق واسعة، مؤمنين بان القوة في الوحدة، وأننا بها نستطيع أكثر.

منذ القديم دعانا الله الى تحطيم الأصنام في أعماقنا كما في ممارساتنا؛ ومن هذه الاصنام الخلط الشائع بين ما هو الاساس في المسيحية -وهو قليل كماً ورائع نوعاً- وبين ما هو ثانوي -وهو كثير وحصيلة تكيف بشري وتفاعل حضاري واجتهادات لاهوتية وقانونية عمَّقها التباعد والخلاف. ونحن مدعوون، في عصر الوحدة هذا، وعلى أبواب سنة الألفين، الى إزالة الحواجز التي أقيمت لتسدّ منافذ هبوب الروح وتضعف تيارات المحبة والشركة. وعلينا إشاعة مناخات أمل كبير بمستقبل مشرق للكنيسة، متوخين المفهوم الانجيلي الأصيل، بنَفَس انساني مُغامر، متجدد أبداً كالحقيقة والنور والحياة.

الأب يوسف جبارة

نشأة الحركة المسكونية المعاصرة

كانت الكنائس البروتستنتية رائدة الحركة المسكونية التي ترقى بداياتها الى عام ١٩١٨، حين تكللت المساعي بتأسيس مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٤٨ بفعل اتحاد حركتين مستقلتين انطلقتا عام ١٩٢٥: "الحياة والعمل" في مؤتمر ستوكهولم، و"الايمان والقانون" في مؤتمر لوزان. وهو يضم اليوم في عضويته حوالي ٤٠٠ كنيسة بروتستنتية وارثوذكسية.

هذا المقال للاب جودت القزي يستعرض كل المؤسسات المسكونية المعاصرة، منذ نشأة مجلس الكنائس العالمي (ومقره جنيف)، ومؤتمر لمبث (الكنيسة الانكليكانية)، وحتى قيام "امانة سر اتحاد المسيحيين" عام ١٩٦٠، قبيل انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني، مروراً بما يسمى "محادثات مالين وجماعة "دومب" والاعداد للمجمع الارثوذكسي العام وحتى مجلس كنائس الشرق الاوسط —وتعمّدنا الا نحدّث المقال.

الاب جودت القزي

لبناني من مواليد ١٩٤٣. دخل الرهبنة الدومنيكية في فرنسا ورسم كاهناً عام ١٩٨٢. عمل مع الاباء الدومينيكيين في الموصل لسنوات عديدة وزاول الوعظ والقاء المحاضرات والتعليم في الدورة اللاهوتية بالموصل... كانت له ٦ مساهمات في "الفكر المسيحي". غادر عام ٢٠٠٤ الى فرنسا حيث يقيم في احد الاديار، الا ان قلبه بقي في العراق ولبنان.

منذ نهاية القرن الاول ظهرت بدع وتيارات فكرية خاطئة عن شخص المسيح أدت الى انقسامات خطيرة في الكنيسة، مما استوجب انعقاد مجامع مسكونية في نيقية (٣٢٥) والقسطنطينية (٣٨١) وافسس (٤٣١) وخلقيدونية (٤٥١) لتوضيح العقائد الايمانية عن شخص المسيح وطبيعته الالهية والانسانية. غير ان العالم المسيحي بقي منقسماً على ذاته رغم المجامع. وتتالت الانقسامات عبر التاريخ حتى بلغت ذروتها بالانفصال الكبير بين كنيسة بيزنطية وكنيسة روما عام (١٠٥٤). وجرت محاولات لاعادة الوحدة في مجمع ليون الثاني(١٢٧٤)، وفي مجمع فلورنسا (١٤٣٩)، ولكن امال الوحدة سقطت نهائياً بسقوط القسطنطينية في ٢٩ ايار ١٤٥٣. وتكرست القطيعة التاريخية حتى رفع الحرومات عشية ختام المجمع الفاتيكاني الثاني في ٧ ك١ ١٩٦٩.

وعرفت الكنيسة (في الغرب) في مطلع القرن ١٦. نوعاً آخر من الانشقاقات الواسعة، قادها كل من لوثر وكالفن مدعومين بقوى سياسية محلية وخارجية، ادت الى انفصال جماعات عديدة في مختلف بلدان الغرب عن شركة الكنيسة الرومانية، وانشاء جماعات كنسية جديدة. بالاضافة الى انفصال كنيسة انكلترا تحت ضغوط الملك هنري الثامن.

لقد اضعفت الانشقاقات الكنيسة وأنهكت العالم المسيحي وباعدت بين الاخوة، ثم تعودت الكنائس على تجزئتها وتباعدها. وبقي الوضع على ما هو عليه حتى مطلع القرن العشرين حيث ظهرت حركات تدعو الى اعادة الشركة لكنيسة المسيح الذي بذل ذاته من اجل ان "يكونوا واحداً". ويُسجَّل للكنائس البروتستنتية ان كانت هي السباقة في نشأة الحركة المسكونية المعاصرة.

❋ نشأة الحركة المسكونية المعاصرة: اجهزة الحوار المسكوني

في سنة ١٩١٨، أوشكت الحرب العالمية الاولى على الانتهاء، وكانت معالم التدمير والخراب قد عمت في بلدان عديدة من العالم. في هذا الجو المحمّل بالامل، أطلق رئيس اساقفة اوبسالا (السويد) اللوثري، المطران ناتان سودر بلوم، فكرة انشاء "مجلس للكنائس" من اجل الوحدة. وقد انشأ بمبادرة منه حركة "الحياة والعمل" عقدت اول مؤتمراتها في آب ١٩٢٥ في ستوكهولوم عاصمة السويد، وقد حضره ٦٠٠ مبعوث عن ٣١ طائفة مسيحية، أتوا من ٣٧ بلداً.

اما الحركة الثانية فهي "الايمان والقانون"، انشأها علماني اسمه روبير كاردينه والاسقف الانكليكاني شارلْ برنت. وقد عقدت هذه الحركة اول مؤتمر لها سنة ١٩٢٥ ايضاً، في لوزان بسويسرا، وحضره ٤٠٠ مندوب يمثلون ١٠٨ كنائس، اكدوا فيه "اتفاقهم على ان تكون الحقيقة هي الاساس القوي لوحدتنا". واتفقت الحركتان على عقد اجتماع ثان لكل منهما على حدة، وتم ذلك عام ١٩٣٧.

وجرى اجتماع حركة "الحياة والعمل" في شهر تموز بمبادرة من الاسقف الانكليكاني بل، في اكسفورد، و ضم ٤٢٥ عضواً من ٤٠ بلدا يمثلون ١٢٠ كنيسة وجماعة مسيحية، من ضمنهم ممثلون عن الكنيسة الارثوذكسية، والكاثوليك القدماء[1]، والكنائس البروتستنتية الناشئة في اليابان والهند وافريقيا الجنوبية والصين. وختم الاجتماع باعلان مؤثر جاء فيه: "ان واجب الكنيسة الاول والخدمة السامية التي يمكنها تقديمها الى العالم هي ان تكون كنيسة حقاً".

اما حركة "الايمان والقانون" التي يرئسها رئيس اساقفة يورك الانكليكاني، فقد اجتمعت في شهر آب من السنة عينها في ادنبره عاصمة مقاطعة اسكتلنده بحضور ٤١٤ مندوباً، يمثلون ١٢٢ كنيسة من ٤٣ بلدا. وفي ختام الاجتماع صدر بيان جاء فيه: "نحن منقسمون في المسيح في مظاهر حياتنا الخارجية، لاننا نفهم ارادته تجاه الكنيسة بطرق مختلفة. لكننا نعتقد ان تفكيراً اعمق سيقودنا الى فهم مشترك للحقيقة كما هي في المسيح.

(١) هم الكاثوليك الذين رفضوا الاعتراف بالمجمع الفاتيكاني الاول عام ١٨٦٠.

اننا نعترف بتواضع ان انقساماتنا هي مخالفة لارادة المسيح، ونلتمس الى الله ان يقصّر برحمته ايام انفصالنا ويقودنا بروحه نحو الوحدة الكاملة".

❋ مجلس الكنائس العالمي

في سنة ١٩٣٨، تم اول لقاء في اوترخت بهولندا بين حركتي "الايمان والقانون" و"الحياة والعمل" ضم ممثلين عن الكنائس المختلفة، وابدى المشاركون موافقتهم على اندماج الحركتين وانشاء مجلس عالمي للكنائس. وعينوا لجنة من١٤ عضواً، مناصفة بين الحركتين، عرفت "بلجنة الاربعة عشر"، ووضعوا اسس "مجلس الكنائس العالمي" انطلاقا من القاعدة الواسعة المشتركة التي تضم جميع المؤمنين بالمسيح، وهي "ان مجلس الكنائس العالمي هو شركة اخوية بين الكنائس التي تعترف بالرب يسوع المسيح، إلهاً ومخلصاً". وحددوا طبيعة هذا المجلس بانه لن يكون كنيسة عليا فوق بقية الكنائس، ولا اتحاد كنائس، ولا يمكنه ان يحل محل الكنائس الاعضاء ويتخذ قرارات عنها. وقد عيّن المجتمعون لجنة مؤقتة لاعداد اجتماع الجمعية العامة. وقد عقدت هذه اللجنة اول اجتماعاتها في١٣ أيار ١٩٣٨ وانتخبت رئيساً لها بشخص رئيس الاساقفة الانكليكاني تامبل، ونوابا للرئيس، وسكرتيرا عاماً هو الدكتور فيسرهوفت، ومساعدين له. وفي خريف ١٩٣٨ ارسلت كل الوثائق الى الكنائس التي دعيت الى اجتماعات اكسفورد وادنبره، بأمل انضمامهم إلى المجلس الناشئ، غير ان الحرب العالمية الثانية حالت دون تحقيق المشروع.

ولكن السكرتارية العامة التي اتخذت من جنيف (سويسرا) مقراً لها، لعبت دور ارتباط هاماً جداً بين الكنائس التي كانت شعوبها في حالة حرب وادت خدمات جلى لضحايا الحرب، معبرّة عن حب مسيحي سام تجاوز كل الحساسيات والصعوبات الناجمة عن الصدام المسلح بين تلك الاقطار. اما الاجتماع المنتظر للهيئة العامة لمجلس الكنائس العالمي، فلم يتسنّ انعقاده إلا بعد عشر سنوات، وكان ذلك في امستردام عاصمة هولندا من ٢٢ آب-٤ أيلول ١٩٤٨، بحضور مندوبين عن ١٤٩ كنيسة. ووافق المؤتمر على ما كان قد اقر في مدينة اوترخت عام ١٩٣٨. ووضعت هيكلية المجلس وفقاً لما يلي:

١. الهيئة العامة
٢. اللجنة المركزية
٣. اللجنة التنفيذية
٤. هيئة الرؤساء
٥. السكرتارية العامة، ومقرها جنيف.

وانبثقت عن مجلس الكنائس ثلاث مجموعات عمل هي: "الايمان والشهادة"، "العدالة والخدمة"، "التربية والتجدد". وتضم كل مجموعة لجانا فرعية وعدة اقسام(٢).

---

(٢) لزيادة الاطلاع على مجلس الكنائس العالمي انظر ف. م. ك١ ١٩٨٣، وكذلك ايلول ١٩٧٥ وك٢ ١٩٧٦.

وهكذا يعتبر عام١٩٤٨ التاريخ الرسمي لتأسيس مجلس الكنائس العالمي. وقد جاء تكليلا وتوحيدا لمبادرات مسكونية دولية اربع هي: "الرابطة الدولية للصداقة الدولية عبر الكنائس"، و"المجلس الدولي للرسالات"، و"المؤتمر العالمي للمسيحية الواقعية"، و"المؤتمر العالمي للايمان والنظام".

ويضم مجلس الكنائس العالمي اليوم ٣٠٧ كنائس بروتستنتية وارثوذكسية شرقية وبيزنطية ينتمون الى ١٥٠ بلدا، وبقيت خارج عضويته الكنيسة الكاثوليكية، وإن تمثلت بفريق ثابت من اللاهوتيين كمراقبين، وترسل الى مؤتمراته ممثلين تنتدبهم سكرتارية اتحاد المسيحيين، وتشترك بصورة فاعلة في كثير من نشاطاته، سيما اللاهوتية(٣).

❋ لمبث

ومن الذين اهتموا بمسألة الوحدة المسيحية ويعملون من اجلها بصدق وحماس، الكنيسة الانكليكانية، كما رأينا في سياق نشأة مجلس الكنائس.

فمنذ ١٨٦٧ كان الاساقفة الانكليكان يجتمعون مرة كل عشر سنوات بدعوة من رئيس اساقفة كنتربري —وهو عميد الكنيسة الانكليكانية— للتشاور ومعالجة المسائل اللاهوتية والقضايا الداخلية للكنيسة وتطورات الاحداث. وكانت الوحدة المسيحية شاغلا لا يغيب ابدا عن اجتماعاتهم التي اطلق عليها "اجتماعات لمبث". وقد حددوا الاسس التي عليها تقوم علاقاتهم مع بقية الكنائس. ويمكن تلخيصها بثلاثة:

١. الكنيسة الانكليكانية تعترف بالانتماء الى الكنيسة لكل الذين يؤمنون بالرب يسوع المسيح وتعمذوا باسم الثالوث الاقدس.

---

(٣) اما اهم المؤتمرات التي عقدتها الهيئة العامة لمجلس الكنائس العالمي —وقد اضحى اشهر منبر عالمي للحركة والعمل المسكونيين— فهي:

- مؤتمر افينستون، قرب شيكاغو في الولايات المتحدة، بحضور ١٦٣ كنيسة من ٤٨ بلدا، في آب ١٩٥٤، حول موضوع "الرجاء المسيحي في عالم اليوم"
- مؤتمر نيودلهي (الهند)، حضرته ١٩٨ كنيسة من٦٨ بلدا، في ت٢ ١٩٦١، حول موضوع "يسوع المسيح نور العالم".
- مؤتمر اوبسالا (السويد)، بحضور٧٠٤ مندوبين يمثلون٢٢٤ كنيسة، في تموز١٩٦٨، حول موضوع "ها انذا اجعل كل شيء جديدا".
- مؤتمر نيروبي (كينيا) بحضور ٦٧٧ مندوبا عن ٢٨٢ كنيسة، في ك١ ١٩٧٥، حول موضوع "ازيلوا الحواجز".
- مؤتمر فنكوفر (كندا)، بحضور ٨٣٥ مندوبا عن٣٠١ كنيسة، في تموز ١٩٨٣، حول موضوع "مجتمعون من اجل الحياة".

ومن اهم الوثائق المسكونية التي أصدرها المجلس "وثيقة ليما" عام ١٩٨٢ حول العماذ والاوخارستيا والخدمة الكهنوتية.

٢. الكنيسة تأسف لمشاركتها في مسؤولية الانقسامات.

٣. الكنيسة المثلى يجب ان تكون حقاً جامعة تضم كل المسيحيين في وحدة منظورة حيث كنوزالوحدة في الايمان والكهنوت المتوارثين يكونان ملكاً مشتركاً للجميع.

وفي ١٨٧٠ جرت محادثات بين الكنيسة الانكليكانية والكاثوليك القدماء امتدت في السنوات اللاحقة لتشمل الكنائس اللوثرية الاسكندنافية والكنائس الانجيلية والشرقية والكنائس المستقلة في انكلترا. وفي مؤتمر لمبث الثالث وضعت اربعة شروط كحد ادنى لبناء الوحدة بين الكنائس المسيحية تتمحور حول: الكتاب المقدس، قانون ايمان الرسل ونيقية. سرّي العماذ والافخارستيا، واخيرا سر الكهنوت. وفي ١٩٢٠ اطلق المؤتمر المنعقد في لمبث "نداء من اجل الوحدة" موجها الى كل الشعب المسيحي، على اساس النقاط الاربع المدرجة اعلاه.

❊ محادثات مالين

لم تمض فترة طويلة على هذا النداء حتى التقى في ايار ١٩٢١، في مالين (بلجيكا)، وفد انكليكاني برئاسة اللورد هاليفاكس، واخر كاثوليكي برئاسة الكردينال مرسييه، رئيس اساقفة بروكسل وعميد كنيسة بلجيكا، للحوار المسكوني بين الانكليكان والكاثوليك. وكانت البداية مشجعة جدا، مما اعطى زخماً وحيوية وتشجيعاً للمشتركين. وتمت خمس جولات من المحادثات بين الوفدين، ولكنها توقفت عام١٩٢٦ بموت الكردينال مرسييه والاباتي بورتال، احد اقطابها الكاثوليك الآخرين. وكان قد تم الاتفاق بسرعة بين الوفدين على اهم القضايا الايمانية في الكنيسة، وبقيت مسألة خدمة بطرس وخلافته، أي مكانة البابا في الكنيسة الجامعة. علماً بان "المحادثات" لم يكن لها الطابع الرسمي، وان تمت بسماح روما. وكان الجميع يأملون بمتابعتها لولا أن البابا بيوس الحادي عشر امر بوقفها وعدم نشر ما توصلت اليه. وخسر الحوار اللاهوتي فرصته التاريخية المنفتحة انذاك حين وضع بيوس الحادي عشر حداً قاطعاً عام ١٩٢٨ لأية لقاءات عقائدية في المستقبل بين الكاثوليك وغير الكاثوليك.

❊ جماعة دومب

غير ان البذرة التي القيت في مالين مدت جذورا جديدة في فرنسا بمبادرة علماني كاثوليكي من مدينة ليون يدعى فكتور كارلهين، وبتشجيع من الاب كوتيرييه، احد اوجه الحركة المسكونية الكاثوليكية المعاصرة. فنشأت "جماعة دومب" في عيد العنصرة عام١٩٣٦، نسبة الى دير سيدة دومب للرهبنة السسترسيانية حيث تعقد اللقاءات. وتتكون "جماعة دومب" من ٤٠ شخصاً، مناصفة بين الكاثوليك والبروتستنت (لا وجود في "الجماعة" للارثوذكس والانكليكان). وتعقد "الجماعة" لقاءاتها بصورة غير رسمية حول الحوار اللاهوتي

والكنائسي، ويحرص اعضاؤها على ان يعيشوا في شركة مع كنائسهم الخاصة، يقيّمون ما يتلقونه من الآخرين وما يقدمونه للآخرين.

وفيما نشأت "الجماعة" في البداية لتبادل الاراء والصلاة معاً، تطورت الى دراسة مسائل لاهوتية شائكة، وقد نشرت اعمالها في خمسة مؤلفات صدرت بين ١٩٧٢-١٩٨٦[٤]. وبالطبع لا تلزم هذه الاعمال كنائس الاعضاء الذين وقعوها، فهي محاولات لتهيئة ارضية صالحة للقاء وبدء الطريق الى الوحدة. ان الصلاة والبحث الجاد النزيه المتجرد هو خير طريق للوحدة.

✵ اسبوع الصلاة من اجل الوحدة

ابرز من وضع عنصر الصلاة في قلب الحركة المسكونية الهادفة الى تحقيق وحدة المسيحيين هو الاب كوتيرييه، وهو كاهن فرنسي من "جماعة دومب". فهو الذي اطلق مبادرة "اسبوع الصلاة من اجل وحدة المسيحيين" من ١٨-٢٥ ك٢، وبذلك انزل قضية "الوحدة المسيحية" من منابر اللاهوتيين والاختصاصيين الى صفوف القاعدة الشعبية. وفي١٩٥٨ اجتمع كاثوليك وغير كاثوليك سوية في ليون ووضعوا معاً، لاول مرة، كتيباً بعنوان "دعوا الروح القدس يقودكم" لاستخدامه في "اسبوع الصلاة" لعام١٩٥٩. وكان هذا الكتيب بمثابة نداء الى فتح عهد جديد في سياق الجهود المسكونية، مبني على الاحترام المتبادل والانقياد لعمل الروح الفاعل في الكنائس. و"اسبوع الصلاة من اجل الوحدة"، كما يدل اسمه، هو اسبوع مخصص للصلاة المكثفة، يجتمع فيه المسيحيون من كل الكنائس للصلاة معاً لكي يفتح الرب الواحد قلوبنا وضمائرنا وعقولنا على نوره الذي يلهمنا الوسائل الكفيلة لتحقيق الوحدة. وترافق هذه الصلاة عادة قراءات من الكتاب المقدس وتراتيل وحدوية، ونشاطات تتناول الوحدة المسيحية من جوانبها المختلفة، بغية التوعية وتنشيط التقارب والعودة الى الينابيع الواحدة. ولقد لقيت هذه "الصلاة" نجاحاً منقطع النظير في انحاء العالم.

✵ سكرتارية اتحاد المسيحيين

في خضم الاعداد للمجمع الفاتيكاني الثاني والحمى الوحدوية التي اجتاحت الكنيسة مع مجيء يوحنا ٢٣، ومن اجل زج الكنيسة الكاثوليكية في قلب الحركة المسكونية، بعد ان كانت هامشية وخارجية عنها، انشأ البابا يوحنا ٢٣ عام ١٩٦٠، امانة

(٤) ١. "هل نحن سائرون نحو ايمان اوخارستي واحد؟ اتفاق بين الكاثوليك والبروتستنت"، ٢. "من أجل مصالحة حول الخدمات الكهنوتية. عناصر توافق بين الكاثوليك والبروتستنت"، ٣. "الخدمة الاسقفية. افكار واقتراحات حول خدمة السهر والوحدة في الكنيسة المحلية"، ٤. "الروح القدس، الكنيسة والاسرار"، ٥. "خدمة الشركة في الكنيسة الجامعة".

سر دائمة للعمل على الوحدة بين المسيحيين باسم "سكرتارية اتحاد المسيحيين". ومهام هذه "السكرتارية" الاساس هي ضم جهود الكاثوليك الى جهود اخوانهم في البحث سوية عن سبل تسريع مسيرة الوحدة وتوظيف ثقل الكنيسة الكاثوليكية لزيادة فاعلية الحركة المسكونية العالمية، على اسس متينة وجادة وواضحة، في الامانة لوديعة الايمان والتقليد الكنسي والتعددية البناءة. وقد تعزز دور "السكرتارية"، منذ البداية، بمشاركتها الفعالة في صياغة المرسوم المجمعي "في الحركة المسكونية" وتشديدها على تجدد اعضاء الكنيسة "تجدداً روحيا، عقلاً وقلباً وعملاً... كي تزول العقبات... ويصفو الجو للاخاء الحقيقي في المحبة والامانة". وفي سبيل تحقيق الاهداف الرئيسية للمجمع الفاتيكاني الثاني الذي كان موضوع الوحدة احد اهدافه الكبرى والرئيسية، تنتدب "السكرتارية" لاهوتيين بارزين للعمل في لجان الحوار اللاهوتية المشتركة مع الاخوة الارثوذكس والبروتستنت.

❋ رودس، المجمع الارثوذكسي العام

في جزيرة رودس عقد ممثلو الكنيسة الارثوذكسية اليونانية في العالم اجتماعاً عام ١٩٦١ لاعداد مجمع عام للكنيسة اليونانية-البيزنطية. تلاه اجتماع ثان في المركز البطريركي في شمبيزي، قرب جنيف بسويسرا، في ت٢ ١٩٧٦. وكان على جدول الاعمال، اضافة الى مواضيع تتعلق بالارثوذكس المنتشرين في العالم، موضوعان هامان اخران هما: علاقة الكنائس الارثوذكسية مع بقية العالم المسيحي؛ والحركة المسكونية. وأقر مؤتمر شمبيزي الحوار بين الكنيسة الارثوذكسية وسائر الكنائس المسيحية؛ وأوضح كيف ان الحوار مفيد للارثوذكس وغير الارثوذكس. ووضع المبادئ الارثوذكسية لمتابعة الحوار حيث بدأ وأخذ يعطي ثماره، وأوصى بايقافه حيث لا جدوى منه. كما أوصى بانشاء لجنة لاهوتية للحوار مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، واخرى للحوار مع الكنيسة اللوثرية، واكد على متابعة المشاركة في عضوية ونشاطات مجلس الكنائس العالمي، بالرغم من الانتقاد الشديد الذي كان قد وجهه اليه البطريرك المسكوني عام١٩٧٣. فهذا المجلس، في الحقيقة، لولا المشاركة الارثوذكسية، لأصبح مجلس اتحاد الكنائس البروتستنتية فقط، سيما ان الكنيسة الكاثوليكية ليست عضواً اصيلاً فيه.

هكذا، اذن، يكون اجتماع شمبيزي قد اعطى دفقاً جديدا للحركة المسكونية.

❋ مجلس كنائس الشرق الاوسط

من اجل "مساعدة الكنائس الاعضاء على التواصل في ما بينها والنمو نحو رابطة مسكونية حقيقية وتعاون امثل في الشهادة والخدمة وتسهيل الحوار مع الكنائس غير الاعضاء والهيئات او المجموعات المسيحية، في سبيل تعزيز التحرك نحو الوحدة المسيحية والشهادة المشتركة".. من اجل هذا كله نشأ "مجلس كنائس الشرق الاوسط" عام ١٩٧٤.

وقد نشأ اثر مفاوضات كثيفة بدأت عام ١٩٦٤ بين الكنائس الارثوذكسية والانجيلية، وبجهود شاب علماني لبناني، يدعى كابي حبيب، من كنيسة انطاكية للروم الارثوذكس، هو سكرتيره العام حتى اليوم. وبقي المجلس مقتصراً على الكنائس الارثوذكسية والبرتستنتية حتى الجمعية العامة الخامسة للمجلس المنعقدة في نيقوسيا عاصمة قبرص في ك٢ ١٩٩٠. ففي مؤتمر قبرص، ولاول مرة، شارك الكاثوليك كأعضاء اصيلين في المجلس، بعد ان كانوا مراقبين فقط وبصورة فردية وهامشية. ومما يسر جدا ان معظم البطاركة الشرقيين الكاثوليك شاركوا شخصياً في مؤتمر قبرص الى جانب البطاركة الارثوذكس في المنطقة. وكانت تلك هي المرة الاولى في التاريخ منذ مجمع خلقيدونية (٤٥١) يلتقي فيها بطاركة الشرق(٥).

* خلاصة: نظرة شاملة على الحركة المسكونية

ان قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني، وخاصة المرسوم "في الحركة المسكونية" الصادر في ٢٠ ت٢ ١٩٦٤، تشكل منعطفاً تاريخياً في عملية الحوار وتسريع خطى الوحدة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس والجماعات المسيحية كلها.

فلقد طرأ تعديل جوهري على النظرة التقليدية لروما والقائلة ان كنيسة المسيح الحقة هي الكنيسة الرومانية. فجاء في الدستور العقائدي في الكنيسة، رقم ٨، اعترافها الواضح "ان عناصر عديدة من القداسة والحق توجد خارج هيكلها، (هيكل الكنيسة الكاثوليكية)، عناصر ان هي إلا هبات خاصة بكنيسة المسيح تدفع الى الوحدة الجامعة". لقد اعترفت روما بان عناصر القداسة والحق هذه توجد في الكنائس الاخرى ايضا. كما ان المجمع سمى "كنائس"، ليس الكنائس الارثوذكسية حسب، بل "الجماعات المسيحية" التي نشأت عن حركة الاصلاح في القرن ١٦ ايضا؛ وغابت صفة "الهراطقة" او "المنشقين"، وحلت محلها عبارة "الاخوة المنفصلين"؛ كما اقر بان هناك ترتيباً وتسلسلاً في حقائق المعتقد الكاثوليكي تختلف صلتها باصول الايمان المسيحي"(٦). "الاقرار بوجود "تسلسل" في حقائق المعتقد الكاثوليكي وان العقائد ليست على المستوى ذاته من الاهمية، يتطلب تحديد ما هو اساسي وجوهري وما يمكن التعبير عنه بطرق مختلفة وفقاً لتقاليد كل كنيسة. وان الوحدة ليست ذوبان الواحد في الاخر، بل هي لقاء عميق حول شخص المسيح؛ لذا اكد المجمع "انه يجب، من اجل اقرار الشركة والوحدة او الحفاظ عليهما، ألا يفرض شيء ما لم يكن ضرورياً"(٧). واعترف المجمع بان ليس ثمة كنيسة كاثوليكية من دون خطأ او خطيئة(٨). وقد

(٥) لمزيد من المعلومات عن "مجلس كنائس الشرق الاوسط" انظر ف. م. اذار ١٩٩٠ (ص٥١-٥٤).
(٦) "في الحركة المسكونية" رقم ١١.
(٧) المصدر ذاته رقم ١٨.
(٨) المصدر ذاته رقم ٣.

فعلت الكنيسة الارثوذكسية الشيء ذاته بالنسبة اليها في مؤتمر شمبيزي.

هذه التغييرات اثمرت حواراً مفيدا متقدما بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الارثوذكسية والانكليكانية واللوثرية ومجلس الكنائس العالمي. ومن هذه الثمار اصدار ترجمة مسكونية للكتاب المقدس (*TOB*)، ودراسات مشتركة عديدة، وتبادل طلبة واساتذة في الجامعات والمعاهد الكنسية، واعلانات وبيانات مهمة على صعيد العقائد الايمانية والاسرار، وهيكلية الكنيسة، وتعاوناً وثيقاً في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والدفاع عن حقوق الانسان والتنديد بالتفرقة العنصرية وبالظلم، والعمل من اجل العدل والحرية والسلام... ومع ذلك بقيت مواضيع لاهوتية صعبة وشائكة منها: بعض الاسرار، دور البابا في الكنيسة، رسامة نساء قسيسات ومطارنة في الكنيسة الانكليكانية، بنية الكنيسة ودورها الخلاصي في العالم...

ان العمل من اجل الوحدة يبقى مستمراً طالما بقي جرح الانشقاق مفتوحاً. الحركة المسكونية ولدت بفعل الروح القدس، والروح القدس يروحن اللقاءات، ويلهم الطريق الصحيح لتحقيق الوحدة. فكلنا امل ان يأتي اليوم الذي تضم كنيسة المسيح الواحدة الجامعة المقدسة الرسولية، كل المؤمنين بالمسيح حول العقائد الاساسية، مع احترام وتقدير الخصائص الذاتية وتوجهات كل كنيسة في المجالات اللاهوتية والراعوية والفلسفية والاجتماعية التي لا تخالف المبادئ الجوهرية للايمان.

الأب جوزيف القزي

من رواد الحركة المسكونية

كانت الوحدة المسيحية همًّا كبيرا لدى رجال سحرهم حب المسيح وانجيله، فاخذوا يسعون بكل طاقاتهم لتحطيم الحواجز وازالة العقبات في وجه الوحدة المنشودة.

هم بحق رواد الحركة المسكونية في النصف الثاني من القرن العشرين.

قطب من الغرب: هو يوحنا ٢٣ (١٨٨١-١٩٦٤) الذي انتخب بابا عام ١٩٥٨ وهو في السابعة والسبعين، فكان ملهم المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الذي شرع أبواب الكنيسة الكاثوليكية.

قطب من الشرق: هو البطريرك المسكوني اثيناغوراس الاول (١٨٨٦-١٩٧٢) جلس على كرسي القسطنطينية عام ١٩٤٨، وهو بحق "نبي الوحدة في المحبة"، ويبقى لقاؤه مع البابا بولس السادس في القدس عام ١٩٦٤ لقاء مصالحة وحوار بين روما والقسطنطينية.

قطب من الكنائس البروتستنتية: الدكتور فيسرتهوفت (١٩٠٠-١٩٨٥) ويعتبر اول امين عام لمجلس الكنائس العالمي في مرحلة تكوينه في نهاية الثلاثينات. وفي سنة تاسيسه عام ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٦.

قطب من القاعدة: الاخ روجيه شوتز (١٩١٥-٢٠٠٥) وقد اشتهر بتأسيسه جمعية تيزيه الرهبانية عام ١٩٤٠ لتكون مكاناً للتلاقي والمصالحة بن الكنائس. ومنذئذ اصبحت تيزيه مركزاً عالمياً يستقطب الشباب للحوار والصلاة، واصبحت تجمعات الشباب، كل عام، في بلد ما، تقليداً رائعاً ينقل الفرح والسلام حيث البشر منقسمون ... وقد أغتيل على يد فتاة هوجاء عام ٢٠٠٥ اثناء الصلاة في معبد تيزيه ...

الاخت سانت التيين التي أعدت هذا المقال، من الراهبات الدومينيكيات للقديسة كاترينة كانت مديرة لروضة سيدة النجاة، لسنين عديدة، وشاركت في الكثير من النشاطات الكنسية وفي لجان عدة... وهي عضو في هيئة تحرير "الفكر المسيحي" التي كان لها فيها ٣٢ مساهمة -بما فيها صفحة "شخصيات" على مدى عام ١٩٧٧ والعديد من التحقيقات والاستفتاءات- فضلاً عن مشاركتها في تحرير "ركن الاسرة".

ان الوحدة التي تسعى اليها الحركة المسكونية المعاصرة لهي نعمة كبرى تغمر الكنيسة الجامعة منذ اوائل هذا القرن تقريبا. وقد كانت في قلب رواد غزاهم حب المسيح وانجيله لشق الجداول والترع لينساب الينبوع. هؤلاء هم الفعلة الغيارى الذين اخذوا على عاتقهم تحطيم الحواجز وازالة العقبات، وصولا الى الينبوع الواحد، "المسيح"، والوحدة معه وفيه.

فان قلنا ان الله هو الذي يقود التاريخ، يبقى جهدنا البشري هو الطريق الذي يسلكه الله لذلك، وليست الكنيسة الكاثوليكية وحدها التي تسعى الى الوحدة، فالحركة "مسكونية" أي شاملة، والنداءات اليها تنطلق من كل جانب.

اجل، ان الحركة لقيت دعما متميزا في المجمع الفاتيكاني الثاني، قد زج الكنيسة الكاثوليكية فيها بكل ثقلها. ألم يكن يصبو، كما قال البابا يوحنا الثالث والعشرون، "الى التقارب اولاً، فاللقاء ثانياً، والى الوحدة اخيراً". وهكذا فقد جاء الفاتيكاني الثاني ليصب بقوة وثراء في جهود مجلس الكنائس العالمي الذي كان المرجع الفاعل الاكبر للحركة المسكونية منذ الاربعينات، اذ كان يضم عددا واسعا من الكنائس البروتستنتية والارثوذكسية.

قطب من الغرب

يوحنا الثالث والعشرون (١٨٨١-١٩٦٤)

ابن عائلة فلاحية من بيرغام (ايطاليا). ابصر النور عام ١٨٨١. امتاز بطبع هادئ وديع، يغمره حب التفهم للغير وحب الموسيقى. شغل مهام دبلوماسية كنسية في الشرق والغرب قبل ان يصبح بطريرك البندقية عام ١٩٥٣، ثم بابا عام ١٩٥٨.

صبيحة ٢٨ من ت١ ١٩٥٨ دوى صوت المذياع: "ابشركم بفرح عظيم، لقد صار لنا بابا، هو انجيلو رونكالي، باسم يوحنا الثالث والعشرين". ومنذ ذلك اليوم ملأ الاسم دنيا المسيحية، بل العالم، شرقاً وغرباً، وبعثت كلمته الطيبة املا جديدا سرى كالرعشة السعيدة في جسم الكنيسة وحرك طاقاتها المخزونة للتجدد والوحدة.

باب المجمع والوحدة

شيخ في ٧٧ من عمره يصبح بابا، ماذا بوسعه ان يفعل؟ قيل انه انتخب بسبب كبر سنه "بابا انتقالياً". وبالفعل لم تدم حبريته اكثر من خمس سنوات. ومع ذلك صنع عظائم وسخر من انبياء الشؤم، وخضّ الكنيسة من اقصاها الى اقصاها، اذ دعا الى مجمع مسكوني ووضع الكنيسة الكاثوليكية في حالة مراجعة عميقة لذاتها؛ وبطريقته الخاصة بدل دور ذاك الذي على عاتقه تقع مسؤولية الشركة، فوضع الكنيسة في مغامرة غنية بالرجاء، وبدأ بتجديد "الرأس" الذي يقود الى "تجديد الجسم كله"، فكان حدث الفاتيكاني الثاني، سعياً نحو الوحدة المنشودة -وقد أكد انها في طليعة اهتماماته منذ رسالته العامة الاولى. على انه رأى ان الوحدة لن تكون ثمرة الابحاث والمناقشات بقدر ما هي ثمرة المحبة والقداسة والتواضع. فقد صرح في خطاب له في٢٩ ك٢ ١٩٥٩: "ان مسؤوليات انقسام المسيحيين مشتركة بينهم، وان جزءا كبيرا منها يقع على الكاثوليك". مثل هذا الاقرار الصريح الصادر عن اكبر سلطة في الكنيسة الكاثوليكية، لَيشقّ طريقا جديدا في عمل الوحدة العظيم. فلكم إن مفعوله عميق لدى اخوتنا الارثوذكس والبروتستنت الذين بقينا زمنا طويلا لا نفهمهم بسبب تجمد المواقف.

من قلب يوحنا ٢٣ ايضا خرجت امانة سر اتحاد المسيحيين يوم اعلان اللجان المجمعية لتصبح اداة الحوار المسكوني الدائمة والرسمية في الكنيسة الكاثوليكية، وقد حققت فعلا الكثير في سبيل التقارب المسيحي. وهي التي قامت بدعوة المراقبين المنتدبين من الكنائس الشقيقة الى جلسات المجمع، وساهمت في صوغ المسودات عن الحركة المسكونية، وتابعت بعد المجمع مهمة الحوار مع الاخوة غير الكاثوليك، ووضعت دليلاً في التطبيقات العملية للقرار "في الحركة المسكونية".

هكذا اضفت شخصية يوحنا ٢٣ على الحركة المسكونية طابعا خاصا هو طابع

المحبة والالفة التي تجمع الكنائس الموحدة في قديسيها وشهدائها ومجامعها الاولى المشتركة.

فبوسعنا ان نقول ان عبقرية يوحنا ٢٣ هي التي اخرجت الكنيسة من "حالة الحصار"، وهو الذي رمى بها في تيار العالم المعاصر برفق وتفاؤل، مقتنعا من ان الكنيسة تصل الى غايتها بالحري عن طريق اللقاء الحر والحوار مع الناس ذوي الارادة الصالحة، وان الوحدة المسيحية تصبح ممكنة اذا ما تجددت روما من الداخل.

قطب من الشرق

البطريرك اثيناغوراس (١٨٨٦-١٩٧٢)

ولد في اليونان عام ١٨٨٦. بدأ حياته الكنسية راهبا. وفي عام ١٩٣٠ أصبح رئيسا لاساقفة الروم الارثوذكس في الاميركتين قبل ان ينتخب بطريركا مسكونيا للقسطنطينية عام ١٩٤٨.

نبي الوحدة والمحبة

منذ توليه كرسي بطريركية القسطنطينية الارثوذكسية اليونانية، وجه البطريرك اثيناغوراس اهتمامه الى عقد رباطات اخوية بين الارثوذكس وسائر الكنائس المسيحية. فقد ادخل الكنيسة اليونانية الارثوذكسية في مجلس الكنائس العالمي، ورحب بالدعوة التي اعلنها البابا يوحنا ٢٣ الى عقد مجمع يهدف الى اعادة شمل المسيحيين قاطبة في الوحدة. كما اعلن عن رغبته في زيارة روما واللقاء بالبابا: "لقد حان الوقت لننتقل الى مرحلة الحوار.. فاذا كانت المسيحية منقسمة، فذلك لانعدام المحبة: هي المحبة التي ستمهد الطرق الى الوحدة، لذا صار لزاما علينا ان ننمي المحبة بالتعارف وتبادل الممثلين وباتصالات شخصية وكسر الخبز على المائدة الواحدة". واضاف: "اننا اذا اعتبرنا جزئي الكنيسة، الروماني والشرقي، فلا شيء يفصلنا، فالانجيل واحد والايمان واحد والتقاليد هي عينها". اما الاختلافات، فأمر طبيعي، وعلى اللاهوتيين ان يزيلوها، غير انه ليس من الضروري ان تزول كلها كي تتحقق الوحدة، برأي قداسته.

وقد دعا الى اقامة "حوار المحبة" وحوار العمل المشترك بين جميع الكنائس، ووضع هذا النداء موضع التنفيذ حين انشأ مع سينودسه لجنة دعيت "اللجنة الكبرى" مهمتها درس السبل الممهدة للتقارب بين الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية. كما ان مؤتمر رودس (١٩٦٣) كان اكبر خطوة ايجابية قامت بها الارثوذكسية في سبيل الوحدة، والفضل في ذلك لشيخ القسطنطينية الذي جعل من الوحدة هدف حياته الكبير. ويمكننا ان نعتبر بحق اللقاء التاريخي بين البابا بولس السادس والبطريرك المسكوني اثيناغوراس في القدس عام ١٩٦٤ اولى ثمار هذا المؤتمر حيث بدأ الحوار الفعلي بين الشرق والغرب.

قليلون اتيح لهم عبر التاريخ ان يكونوا البادئين. بولس السادس واثيناغوراس الاول كانا من هؤلاء: "لقد ذاب الجليد". وعندما قيل لأثيناغوراس بأنه صاحب قلب كبير أجاب: "اذا كنتم تظنون ان قلبي كبير، فما ذلك الا لأن قلب البابا اكبر"!

فطاب من الكنائس البروتستنتية

فيسرتموفت (١٩٠٠-١٩٨٥)

ولد في هولندا عام ١٩٠٠. في عام ١٩٢٤ صار سكرتيرا للاتحادات المسيحية للشباب. في ١٩٣١ اصبح سكرتيرا عاما للاتحاد العالمي للرابطات الطلابية المسيحية. منذ ١٩٣٨ كان سكرتيرا لمجلس الكنائس العالمي في مرحلة تكوينه، ولدى قيام المجلس في مؤتمر امستردام التأسيسي، عام ١٩٤٨، عين سكرتيرا عاما له وبقي في هذا المنصب حتى ١٩٦٦.

اول سكرتير عام لمجلس الكنائس العالمي

في ٤ تموز ١٩٨٥ فقدت الحركة المسكونية احد اقطابها الكبار وروادها الاوائل الدكتور فيسرتموفت، اول سكرتير عام لمجلس الكنائس العالمي.

فلقد تميز الراعي فيسر تموفت -وهو هولندي الجنسية عاش معظم حياته في سويسرا- منذ البداية، في الحركة المسكونية المعاصرة بهمة ونشاط مدهشين. ففي عام ١٩٢٥ كان اصغر المشاركين سنا في مؤتمر ستوكهولم "من اجل مسيحية واقعية". وقد زها مجلس الكنائس العالمي الذي واكب ولادته ونشأته ونفث فيه من روحه المعطاء طيلة ٢٨سنة، زها بهذه الشخصية الفذة المتقدة حيوية وغيرة. واذا ما اختاره المجلس رئيسا فخريا له عام ١٩٦٨ ليستمر كذلك حتى مماته، فانما لكفاءته وسداد توجيهاته النيرة في العمل المسكوني وخبرة الكنائس على مدى خمسين سنة في خدمة الحركة المسكونية.

قال عنه الراعي لوكاس فيشر، احد معاونيه المقربين: "لقد اوتي خلال عمره الطويل ان يجتاز الحدود دوما باستمرار ويحطم الجدران". وهكذا ساهم بصورة فعالة في التمهيد لاعلان شتوتكارد الذي فتح الابواب للمصالحة بين الكنائس الالمانية والكنائس الاخرى. كما رأى فيه فيشر "رجلا متجها نحو الخطوة القادمة دوما"، وساعيا نحو "تقدم الحركة المسكونية" باحساس مسبق بالقضايا التي ستواجه الكنائس في مرحلة تالية.

كما جاءت شهادة الكردينال فيلبراند رئيس سكرتارية اتحاد المسيحيين الكاثوليكية معبرة هي الاخرى عن الدور المتميز لفيسرتموفت في دفع عجلة الحركة المسكونية نحو الامام، باصرار وقوة اقناع: "لقد كان لفيسر تموفت ايمان لا يقهر بالحركة المسكونية واهدافها، ألا وهي الوحدة المرئية الحقيقية لجميع المسيحيين، تلك الوحدة التي من

اجلها صلى السيد المسيح". وذكّر الكردينال بقول فيسرهوفت يوم دخل كنيسة القديس بطرس في روما لحضور المجمع الفاتيكاني الثاني كمراقب: "هنا تُعالَج قضية الوحدة المسيحية".

قطب من القاعدة

الاخ روجيه شوتز (١٩١٥-   )

ولد في فرنسا في١٢ ايار ١٩١٥. وقد تأثر بالكنيسة الكاثوليكية منذ طفولته، وهو ابن راع بروتستنتي. اسس جمعية رهبانية بروتستنتية في قرية تيزيه شرقي فرنسا عام ١٩٤٠ اصبحت مركزاً عالمياً للانفتاح والصلاة والحوار، ولا زال رئيساً لها.

"آه تيزيه، هذا الربيع الصغير في الكنيسة!"، آهة حنان ومودة اطلقها يوما البابا يوحنا الثالث والعشرون وهو يستقبل الاخ روجيه شوتز في مكتبه.

روجيه شوتز من طراز يوحنا الثالث والعشرين. فهو إن لم يفتح نافذة على غراره لتستنشق الكنيسة الهواء النقي، فقد وضع سراجاً في النافذة ليضيء لكل القادمين. وهكذا التقت تجربته الرائدة، واعني بها جماعة تيزيه الرهبانية، مع ما تمخضت به الكنيسة الكاثوليكية اثناء المجمع الفاتيكاني الثاني الذي حضره الاخ روجيه بنفسه كمراقب. ومنذ ذلك الحين لم تنقطع صلة تيزيه بأحبار روما.

رجل الصلاة والحركة المسكونية

منذ البداية فهم الاخ روجيه ان اول خطوة نحو الوحدة هي الصلاة معا، هذا النبع الذي يكسب المؤمن عمقا ووعيا انه بمقدار ما يقترب من الله يقترب من اخوته البشر. فاراد ان تكون حياته وحياة جماعته هي ذاتها مشروعا مسكونيا[1]، فتشع بوحدتها وصلاتها. أليست هذه الروحانية هي التي تجذب سنويا آلاف الشباب الوافدين من كل انحاء العالم الى تيزيه "لان الكلام لا يكون مصداقا الا عندما يترجم في الحياة، لاننا حين نتكلم اذ ذاك، نفسر ما عشناه قبلا" حسب قول الاخ روجيه. الحوار، المصالحة، الاقتسام، كلمات نارية لا تفارق شفتي الاخ روجيه: "اننا، بالرغم من الفراق القديم العهد، فقد التزمنا ان نعيش في شركة المحبة والثقة مع البابا اسقف روما".

كان الاخ روجيه يتساءل: ألا نستطيع ان نجعل الكنيسة مكانا، فيه تسقط الجدران التي تفصل بين الناس بسبب اجناسهم وطوائفهم ولغاتهم؟ وكانت مشاريعه

---

(١) تتكون جماعة تيزيه الرهبانية من بروتستنت لوثريين وانكليكان، وفيهم كاثوليك ايضا. وقد رسم نائب رئيس الجماعة الاخ ماكس توريان مؤخرا كاهنا في الكنيسة الكاثوليكية -وقد كان برفقة الاخ روجيه مراقبا في المجمع.

اللاحقة جوابا ايجابيا لهذا السؤال نال اعجاب العالم بأسره، والشباب بنوع خاص. ألم يقل لدى تسلمه جائزة تكريمية: "سأذهب الى نهاية العالم لاردد ثقتي بالشباب". من اجل ذلك انشأ "مجمع الشباب" عام ١٩٧٠، فكانت عنصرة رائعة. ثم صارت تجمعات الشباب مع الاخ روجيه في شتى أنحاء العالم، في نهاية وبداية كل عام، تقليدا وبمثابة "حج للصلاة" لنقل الفرح والمصالحة الى حيث البشر منقسمون ومتباعدون.

هكذا جعل الاخ روجيه من تيزيه ملتقى للصداقة حيث يستطيع الناس من مختلف الافاق الدينية والبيئات ان يتفاهموا او يبحثوا سوية عن كيفية التعبير عن ايمانهم ومحبتهم في حياة كل يوم وستبقى تيزيه منارة مسيحية حيث يولد الرجاء متجددا ابدا.

الاخت سالت اتيين

الكنائس الشرقية الكاثوليكية
عقبة أم جسر؟

كثيراً ما توجّه النقد الى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بسبب الكنائس الشرقية "المتحدة" بها. وهو الاتحاد الذي بدأ في القرن ١٦ وكان في اصل الانشطار الى شقين في قلب كل كنيسة رسولية في الشرق: كنيسة المشرق، والكنائس السريانية واليونانية والارمنية والقبطية ... وما زال هذا "الاتحاد" يشكل عقبة في طريق الحوار والتلاقي والوحدة بين الكنائس. فمن قبيل المبالغة ان تبقى الكنائس الارثوذكسية الأم تحاسب ولا تغفر للكنيسة الكاثوليكية مساعيها لدعم حركة "الاتحاد"، كما يبدو من اللامعقول ان تتخلى روما عن كنائس اتحدت بها قبل بضع مئات من السنين!

فمن منطلق الروح المسكونية، وبدافع الامانة لقراءة موضوعية لحركة "الاتحاد" وما رافقها من ملابسات، وبهدف تقليص المسافات بين مؤمنين من شطري كنيسة واحدة، سعى هذا المقال الى التساؤل: الكنائس الشرقية الكاثوليكية، عقبة ام جسر؟

من المفارقات ان تكون المناخات المسكونية التي هيأ لها المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني قد اقترنت بحملة استهدفت "الكنائس الشرقية الكاثوليكية"! ففيما كانت مبادرات الكنائس المسيحية المختلفة تسير شطر الوحدة المسيحية وترسم ملامحها وترسي اسسها... كانت الانتقادات اللاذعة، في الوقت ذاته، توجه الى "الكنائس المتحدة"، مبرزة ملابسات ماضيها، ومعتبرة وجودها حجر عثرة في طريق الوحدة المنشودة. وغني عن القول ان اصابع الاتهام انطلقت من الكنائس الارثوذكسية لتحمّل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية مسؤولية "الانشطار" الذي احدثه "الاتحاد" في القرن ١٦! "أليس هذا "الاتحاد" مع روما كان في اصل "الانقسام" الذي خلق شطرين في كل كنيسة في الشرق؟!

واذا كان لحركة "الاتحاد" التي اطلقتها روما في القرون الاخيرة باتجاه الكنائس الارثوذكسية —سواء في اوربا الشرقية ام في الشرق الاوسط— دوافع واهداف، من طرف او من آخر، اقترنت بها عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية، فان من غير المعقول ان يبقى مثل هذا "الاتحاد —الانقسام" يشكل عقبة في طريق الحوار بين الكنائس: فمن قبيل المبالغة ان تبقى الكنائس:

فمن قبيل المبالغة ان تبقى الكنائس الارثوذكسية تحاسب الكنيسة الكاثوليكية على توجهات هي رهن زمانها، ولا تغفر لها الملابسات التي رافقت حركة "الاتحاد"، او تشترط عليها حل "الكنائس المتحدة" واعادتها الى حضن الشركة الارثوذكسية! كما سيكون من قبيل اللامعقول واللامنطقي ان تتخلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عن كنائس اتّحدت بها وادت لها الولاء، سواء كان اتحادها قد تم تحت ضغوط معينة ام ابان ظروف مليئة بالمناقضات والمساومات...!

اننا، من منطلق الروح المسكونية، وبعيداً عن الطائفية الضيقة التي تُكال فيها الاتهامات المتبادلة رخيصة، وبدافع الامانة لقراءة جادة وموضوعية لحركة الاتحاد، وبهدف تقليص المسافات التي تفصل بين مؤمنين ينتسبون الى شطري كنيسة واحدة، عمدنا الى الانكباب على هذه الظاهرة في تاريخ الكنائس، في محاولة لاستجلاء انعكاساتها ومردوداتها السلبية والايجابية، وتجاوزها الى ما يدعم مسيرة التقارب والالتحام والتضامن... وما يخدم بالتالي قضية الشهادة لانجيل المحبة.

❊ شيء من التاريخ

ان تسمية "كنائس متحدة" تشمل اليوم مجموعة كنائس شرقية كاثوليكية انسلخت عن كنائسها الارثوذكسية في ظروف تاريخية متباينة، وفق مفهوم "كاثوليكي" للوحدة المسيحية يوحي بان لا وحدة خارجا عن الشركة الكنسية الكاملة مع كرسي القديس بطرس. فمن خلال هذا المنطلق اصبحنا ازاء موزائيك من "الكنائس الشرقية الكاثوليكية"، من اوكرانيا ورومانيا إلى اليونان، ومن الهند إلى العراق وسوريا ولبنان ومصر...، كنائس تنتمي إلى حضارات ولغات مختلفة وتتميز بطقوس وممارسات متنوعة: القبطية والحبشية والسريانية والكلدانية والارمنية والبيزنطية، والسلافية والاوكرانية....

وتجدر الاشارة الى ان مآخذ الكنائس الام بشأن هذه الكنائس "الفرعية" تكمن في كون المؤمنين "المتحدين" الذين أُنتزعوا من كنائسهم الاصلية اصبحوا يشكلون في نظرها مجموعة من "المنشقين" هم أشبه بشوكة في عيون آبائهم في الايمان، سيما حين تكون لديهم مساع "توسعية"! ولعل المشكلة الكبرى تكمن في عدم استيعاب الكنائس الارثوذكسية امكانية التزواج بين التقليد الاصيل (مع ما يحمله من بنية لاهوتية وروحية ومسلكية...) وبين الاتحاد مع روما (مع ما ينتج عنه، اقله في نظرها، من ضياع التقاليد الشرقية وتلاشي استقلالية كنائسها وفقدان خصوصياتها...). ولنقلها، تبديداً لكل التباس، بان الكنائس الارثوذكسية التي لا تعترف بطيب الخاطر، بالكنائس الشرقية الكاثوليكية، تقف موقفاً معتدلاً تجاه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية (اللاتينية)، وانما لولا ذكريات "حركة الاتحاد" المريرة ومردوداتها السلبية عليه، لظلت تعترف لكرسي روما –وللبابا بصفته اسقف روما وبطريرك الغرب– بالاولوية بين الكراسي البطريركية جمعاء، ولاستمرت معه علاقات

الشركة والاخوة... ومن هنا نفهم لماذا يرفض الجانب الارثوذكسي عضوية "الكنائس المتحدة" في لجان الحوار اللاهوتي المشتركة، كما نفهم اصرار بعض الكنائس الارثوذكسية (البيزنطية) المتشدّدة على ادراج قضية "المتحدين" في مقدمة جدول اعمال لجان الحوار، ان لم تشترط احيانا تسويتها قبل البدء بالحوار!

ان تركة "الاتحاد" ثقيلة جداً، وتختلف وطأته من بلد إلى آخر بحسب الظروف والعوامل التي رافقته هنا او هناك. ولن نخطيء اذا قلنا بان جذور الاتحاد البعيدة ترقى الى القرنين ١٢-١٣ ابان الحروب الصليبية وما اقترن بها من غزو لاتيني للشرق! ولقد أصاب الاب ديمونت حين ذكر بالاثار السيئة التي تركتها تلك الحروب في ذاكرة الارثوذكس الذين "ما زالوا يذكرون مرارة خيانة الصليبيين واخطائهم المؤسفة، ولا سيما حصار القسطنطينية ابان الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٣)، وانشاء بطريركية لاتينية فيها، واقامة امبراطورية لاتينية في الشرق" (راجع *ARM*: ١٥ ك٢ ١٩٨٨). ويبدو ان البابا انوشنسيوس الثالث الذي احتج على تعدّيات الصليبيين آنذاك، رأى في هذا الاحتلال فرصة لاعادة المسيحيين اليونان الى "الحظيرة الرومانية"! —ولم تكن التوجهات الرومانية آنذاك تحرص على صيانة الخصوصيات الحضارية والثقافية والمسلكية...! ألا يرجع اصل الانشقاق الكبير بين روما والقسطنطينية عام ١٠٥٤ الى خلافات ومحاججات لا طائل تحتها؟

ومع مجمع ليون الثاني (١٢٧٤) ولا سيما مع مجمع فلورنسا (١٤٣٨-١٤٤٥) —حين كان الخطر التركي محدقاً بالامبراطورية البيزنطية— تجسدت مساعي روما في الوحدة مع الشرق عبر مفهوم للمركزية لم يكن بوسع الكنائس الشرقية ان تقبل وطأته لفترة طويلة. فلئن تم :اتحاد"وقعت عليه، في ٦تموز ١٤٣٩، كنائس شرقية عديدة عبر ممثليها (الروم والارمن والاقباط السريان...)، إلا انه سرعان ما انفرط هذا الاتحاد حين شعرت هذه الكنائس بانه ينفي عنها استقلاليتها ويهدد هويتها بالضياع ان لم يفقدها تقاليدها وطقوسها... بينما المفهوم الذي تحمله الكنائس الارثوذكسية للوحدة يقوم على لاهوت الشركة بين الكنائس "الشقيقات" بغض النظر عن حجمها ومكانتها. ومما ساعد على انهيار هذا الاتحاد السريع سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ بيد الاتراك دون ان يأتي عون الغرب المنتظر، فضلاً عن التقليص الذي فرضه المحتلون الاتراك من فرص اتصال الكنائس الشرقية بالغرب ومع روما بالذات. وقد استهدف هذا التقليص اولا بطريرك القسطنطينية، وسرى من ثم على كافة بطاركة انطاكية في اعقاب سقوطها عام ١٥١٧. وغني عن القول بان الكنائس الشرقية عامة، في كل البلدان التي خضعت للاحتلال العثماني، عانت الكثير من المضايقات والاضطهادات وعلى مختلف الاصعدة... ولسنا نغالي اذا قلنا بانها استطاعت "باعجوبة" ان تصمد الى اليوم بالرغم من اجيال الظلم والقمع تحت نير العثمانيين الثقيل والذي امتد الى عمق الامبراطورية النمساوية المجرية!

وفي اوائل القرن ١٦، وانطلاقا من اتفاقيات فلورنسا الوحدوية، وتزامنا مع

الاحتلال العثماني، عاودت روما محاولاتها "الاتحادية" مع الكنائس الشرقية عبر "اتحادات"[١] ثنائية مع فريق من هذه الكنيسة او تلك، عبر "اهتداءات" فردية أو جماعية، سعى اليها "مرسلون" من الرهبانيات اوفدتهم روما الى الشرق لهذا الغرض (عهدت الى اليسوعيين عام ١٥٤٠ مهمة "هداية" الهراطقة المنشقين! وسرعان ما انيطت بالكبوشيين والكرمليين

(١) تم اتحاد الاوكرانيين بروما عام ١٥٩٥ حين كانت اوكرانيا الغربية ملحقة بالمملكة البولونية الليتوانية. واحتفظت اوكرانيا بالكثلكة في ظل النمسا ومن ثم بولونيا حتى دخولها تحت السيطرة السوفييتية عام ١٩٣٩. وانجز ستالين عام ١٩٤٦ عملية "الغاء" الكنيسة الاوكرانية الكاثوليكية و "الحاق" مؤمنيها قسراً بالكنيسة الارثوذكسية في اوكرانيا. اما مؤمنو روثينيا في سلوفاكيا الشرقية (الحدود التشيكية الجرية)، فيرقى اتحادهم بروما الى عام ١٦٤٦ هرباً من محاولات الكسب البروتستنتي. وفي اعقاب سقوط الامبراطورية النمساوية، عاد بعضهم عام ١٩٢٠ الى الارثوذكسية، بينما الحق البعض الآخر بتشيكوسلوفاكيا... وللرومانيين الكاثوليك من الطقس البيزنطي قصة مماثلة، هم الذين اتحدوا بالكرسي الرسولي عام ١٧٠٣ عبر سينودس ألبا يوليا (ترانسلفانيا) بضغوط سياسية دينية ابان حكم النمسا، وكانوا يعدون مليون ونصف حين الحقوا قسرا بالكنيسة الارثوذكسية عبر سينودس كلوج عام ١٩٤٨ حين قرر ٣٦ كاهنا من مجموع ٢٠٠٠ العودة الى الكنيسة الام!

إلى جانب هذه النماذج من "الاتحادات" في اوربا الشرقية، امتدت حركة الاتحاد الى الكنائس الشرقية القديمة، ونخص بالذكر كنيسة المشرق (النسطورية) والكنيسة السريانية الانطاكية: فالكنيسة الكلدانية نشأت في اعقاب انشطار السلالة البطريركية عام ١٥٥١ وتكللت مساعي الاتحاد مع روما عام ١٥٥٣ حين وقع يوحنا سولاقا صك الاتحاد ورسمه البابا يوليوس الثالث اسقفا واعلنه "بطريك بابل للكلدان" —واسم الكلدان اطلقه البابا اوجين الرابع عام ١٤٤٥ على "المتحدين" من كنيسة المشرق في قبرص. ولم تنتظم سلسلة البطاركة الكلدان إلا عام ١٨٣٠ حين استقرت البطريركية في الموصل (راجع: الكنيسة الكلدانية، ف. م. ايار ١٩٨٣). اما الكنيسة السريانية الكاثوليكية، فلقد نشأت هي الاخرى ابان تضعضع البطريركية السريانية تحت حكم العثمانيين، حين اخذ بعض المؤمنين بتحريض ومساندة الرهبان المرسلين، ينضمون الى الكثلكة، بدءاً من ماردين وديار بكر وحلب.. ومن ثم العراق. وكانت اولى مبادرات الاتحاد تنصيب البطريرك اندراوس اخيجان عام ١٦٦٢، وانتظمت السلالة البطريركية حين نقل البطريرك ميخائيل جروة كرسيه الى دير الشرفة (لبنان) عام ١٧٨٤.

ولا يسعنا ان نستعرض هنا تاريخ حركة الاتحاد التي افرزت كافة "الكنائس الشرقية الكاثوليكية" مع ما رافقتها من ظلال وملابسات لم تكن في صالح الشهادة المسيحية —ونتمنى ذلك على مؤرخين نزيهين—، انما يكفي ان نشير إلى نشأة كنائس متحدة للروم الملكيين الكاثوليك (١٧٢٤) والارمن الكاثوليك (١٧٤٢) في حدود بطريركية كيليكيا والاقباط الكاثوليك (١٨٩٥)، والاحباش الكاثوليك (١٩٣٠). ونضرب صفحا عن كنائس الهند المتحدة بالكرسي الرسولي: الملبارية (١٥٩٩) والملنكارية (١٩٣٠) اللتين تسوسهما روما مباشرة.

وتجدر الاشارة ايضا الى ان اتحاد الموارنة بالكرسي الرسولي يرقى الى عام ١١٨٢، وهم سريان ظلوا امناء على عقيدة المجمع الخلقيدوني (٤٥١)، وكانوا قد هاجروا الى لبنان هربا من الاضطهادات، وتوثق اتحادهم بروما في عهد الصليبيين.

مما رسخ الحذر لدى العالم الارثوذكسي من محاولات التقارب التي كانت روما تقوم بها.

وتصاعدت مخاوف الارثوذكس وهم يشاهدون في "الكنائس المتحدة" نموذجاً للوحدة لم يكن بوسعهم الا ان يرفضوه من اساسه. وكان ينبغي ان يمر قرن اتسم بالجفاء المتبادل قبل ان تشرّع الكنيسة الكاثوليكية ابوابها ونوافذها عبر المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) الذي شارك فيه اكثر من ١٠٠ من الاساقفة الشرقيين، وعلى رأسهم البطاركة السبعة، وكان لمشاركتهم البارزة اثر فعال في العديد من توجهاته[٤]. وكانت المحصلة ان خص المجمع بمرسومين كلا من الحركة المسكونية[٥] (٢١ ت٢ ١٩٦٤) و"الكنائس الشرقية الكاثوليكية"[٦] (٢٨ ت٢ ١٩٦٥)، اكتنفتهما ولا شك نواقص كثيرة، وكان بوسعهما ان يكونا اكثر احاطة بملابسات "الاتحاد" التاريخية، واكثر انفتاحاً ومرونة، بما يخدم الحركة المسكونية بشكل اكثر جدوى.

ان الامال الوحدوية التي انبتها المجمع في قلب المسيحيين من مختلف الكنائس عبر المبادرات الجريئة التي اتخذها يوحنا ٢٣ (١٩٥٨-١٩٦٣) والتوجهات المسكونية التي قادها بولس السادس (١٩٦٣-١٩٧٨) ابان المجمع وما بعده، اذابت الجليد المتراكم على

(٤) لعب عدد من البطاركة والاساقفة الشرقيين دوراً متميزاً في المجمع وعبر لجانه بنوع خاص. ولقد لفتت الانظار مداخلاتهم في القضايا المسكونية والراعوية والليتورجية، ونخص بالذكر البطريرك مكسيموس الرابع للروم الكاثوليك والكردينال جبرائيل تبوني بطريرك السريان الكاثوليك وأحد اعضاء مجلس الرئاسة العشرة في المجمع. ألم يقل البطريرك المسكوني اثيناغوراس للبطريرك مكسيموس الرابع: "في المجمع تكلمتم باسمنا!" مشيراً الى القضايا التي دافع عنها الشرقيون الكاثوليك وعكست انتظارات الكنائس الارثوذكسية.

(٥) اقرأ المقال حول مرسوم المجمع "في الحركة المسكونية" في مكان آخر من هذا العدد.

(٦) لم ينج المرسوم من مفهوم "تبعية" الكنائس الشرقية تجاه الكرسي الرسولي، بالرغم من تأكيده على اهمية التنوع في اطار الوحدة الكنسية، واعتبارها "كنائس خاصة" يحق لها بل "من واجبها ان تحكم نفسها وفقاً لانظمتها الخاصة الذاتية"، وتأتي الطقوس في المقدمة. وفيما اعترف بالمؤسسة البطريركية وحقوق البطاركة وامتيازاتهم (عقد سينودس وانتخاب اساقفة وانشاء ابرشيات جديدة...)، عاد فأكد على "حق الحبر الروماني الذي لا يتغير في التدخل في بعض القضايا". واوصى المرسوم بالحفاظ على نظام الاسرار والليتورجيا مع التجديدات المناسبة. ووسع من الصلاحيات المحدودة (في ما يتعلق بسرّي الميرون والتوبة والشماسية الانجيلية والزواجات المختلطة، وقد تم الاعتراف بصحتها وابطل قانون عام ١٩٤٩ السيء الصيت الخ...) وحث البطاركة على السعي الى "الاحتفال بعيد الفصح في ذات الاحد، باجماع الرأي، وبعد الاتفاق مع من يهمهم الامر". ومن قبيل المبادرات التي تسهم في دعم حركة الوحدة المسيحية سمح المرسوم بتبادل منح الاسرار والمشاركة في الاحتفالات الكنسية بين الكاثوليك "والاخوة المنفصلين".

ويسرنا ان تكون الوثائق الزمانية اللاحقة قد تجاوزت التعابير والمصطلحات المخدشة للحساسية الارثوذكسية. ويظهر هذا التحول بشكل خاص في البيانات المشتركة في اعقاب لقاءات القمة (ونخص بالذكر لقاء بولس السادس -شنودة الثالث عام ١٩٧٣، ولقاء يوحنا بولس الثاني- زكا الاول عيواص ١٩٨٤).

العلاقات، وازالت الكثير من العقد في المواقف، واسقطت العديد من الظنون والمخاوف والاحكام المسبقة... وفي غمرة التفاؤل الذي اجتاح الكنائس الارثوذكسية بوجه عام، ابتسمت لديها فكرة "عودة المتحدين" الى حضن كنائسهم الام كدليل على حسن النوايا من جانب الكثلكة، وكخطوة اولى على طريق الحوار المثمر باتجاه استعادة الوحدة المسيحية الشاملة.

لقد كان لهذه الفكرة ولا زال مؤيدون ومعارضون، ولكل فئة منهم براهين وادلة ومبررات[٧]... الا اننا نابى الدخول في مثل هذه المناقشات التي تفتح الجروح وقد توقظ المشاحنات الماضية التي سئمناها جميعا.

لذا كانت قصوى غايتنا ان نطرح المشكلة على شطري الكنيسة الواحدة عبر هذا السؤال ذي الوجهين: الى أي مدى تستطيع الكنائس الارثوذكسية، على اختلافها، التعامل والتعاون مع الكنائس الكاثوليكية الشرقية بصفتها كنائس محلية تربطها بها وشائج تاريخية وحضارية ولغوية وطقسية وروحية واجتماعية...؟ والى أي مقدار تستطيع الكنائس الكاثوليكية الشرقية ان تعكس استقلالها الذاتي وتثبت هويتها المتميزة ازاء الكنيسة اللاتينية، ضمن الشركة مع الكرسي الرسولي، وذلك على صعيد اللاهوت والليتورجيا والحق القانوني والقضايا الادارية والمسلكية...!

---

(٧) في مقابلة اجرتها مجلة *I.C.I.* الفرنسية (١٥ ك٢ ١٩٦٦) مع المتربوليت كريزوزتوموس من البطريركية المسكونية في الفنار، اكد بان قضية "المتحدين" تشكل عائقا في العلاقات الارثوذكسية—الكاثوليكية، ويجب ان تحتل مكان الصدارة في اعمال لجنة الحوار المقترحة. واعرب سيادته عن امله بايجاد حل مرضي لهذه المشكلة. لا باتجاه "عودة". وكان مؤتمر رودس (١٩٦١) للكنائس الارثوذكسية البيزنطية قد تمنى "حل" الجماعات المتحدة وانما عبر "اندماج" المتحدين بكنائسهم الاصلية دون ان يلحق بهم أي ضرر وعلى أي صعيد. ولم يتردد من الاشارة الى ما سيحملونه من غنى للكنائس الارثوذكسية.

وقد اجاب المطران الياس زغبي للروم الكاثوليك المعروف بمواقفه المسكونية الجريئة في المجلة ذاتها (تموز ١٩٦٦) مؤيدا بعض طروحات متروبوليت الفنار، وموضحا بان قضية "المتحدين" ستزول من ذاتها في حالة الوحدة بين الكنيستين الكبريين... ألا انه رفض "تصفية" المتحدين شرطا للحوار. إذ ليس من المعقول ان تُصفّى بقرار يتجاهل اربعة قرون من "الاتحاد"!

وكان ينبغي ان تمر سنوات على اللقاءات التاريخية بين روما والقسطنطينية، قبل ان تنشأ لجنة الحوار اللاهوتي المشتركة بين الكنيستين والتي باشرت اعمالها عام ١٩٨٠. ففي جلستها العامة الخامسة (فنلندا ١٩٨٨) انشئت لجنة فرعية لدراسة ملف "الكنائس المتحدة". وفي الجلسة العامة السادسة الاخيرة (المانيا، حزيران ١٩٩٠) صدر، وللمرة الاولى، تصريح من ١٠ نقاط جاء فيه شجب لحركة "الاتحاد" بصفتها "اسلوبا للوحدة يتعارض مع تقليد كنائسنا المشترك"، طالما انه اسفر عن "انقسامات جديدة"، وينبغي من ثم نبذه فيما بعد. وفيما دعا التصريح الى احترام حرية المؤمنين ودعم مساعي المصالحة بينهم، شجب اسلوب "الكسب" او الاقتناص كونه تبديداً للطاقات وشهادة مضادة للمحبة... (عن نشرة *S.O.P.* العدد ١٤٩).

هذا السؤال في شطره الاول يطرح المواقف التي تتخذها الكنائس الارثوذكسية تجاه الوثائق والتصريحات التي تصدر عن الكنيسة الكاثوليكية وتعكس توجهاتها بشأن العلاقات المسكونية، ولا سيما تلك التي صدرت في عهد يوحنا برلس الثاني(٨). كما يطرح السؤال في شطره الثاني مشكلة قدرة "الكنائس المتحدة" على عيش "اتحادها"(٩) مع روما، بسيادة واستقلال يعكسان صورة لوحدة في التعددية تجد فيها مكاناً كافة الكنائس "الشقيقات".

✵ نحو مشروع طويل الأمد!

ان الجواب على هذا السؤال ذي الشقين يجب ان تقدمه "الكنائس المتحدة" بأولى حجة، ليتسنى للكنائس الارثوذكسية، على ضوئه، ان تحدد موقفها منها بشكل خاص، ومن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بشكل عام. ويطيب لنا ان نعرب هنا، ومن وجهة نظر شخصية، عن امنيات نظنها تعكس آمال الكنائس الشرقية بشقيها الارثوذكسي، عبر النقاط التالية:

---

(٨) لقد اثارت التساؤلات، من جديد، الرسالة التي وجهها البابا يوحنا الثاني في اذار ١٩٧٩ إلى الاوكرانيين الكاثوليك بمناسبة الذكرى الالفية لتنصر روسيا، حيث اكد فيها بشكل خاص على أهمية اتحادهم بالكرسي الرسولي.. مما حمل بطريركية موسكو على التساؤل بشأن مستقبل الحركة المسكونية في عهد البابا الجديد! هو الذي منذ بدء حبريته احتضن السينودس الاوكراني في المنفى والذي اصبح يعقد في روما. وجاء في ٢٢ ايلول ١٩٧٩ جواب سكرتارية اتحاد المسيحيين، بلسان رئيسها الكردينال فيلليبراند، مُطَمئنًا وجريئا في الوقت ذاته، حيث اكد على تصميم البابا على مواصلة الالتزام المسكوني الذي لا رجعة فيه، وانطلق من فكرة "الكنائس الشقيقات" ليعلن بان "الوحدة التي نبحث عنها ليست ابتلاع كنيسة لاخرى او سيطرة كنيسة على اخرى، وانما شركة بين الكنائس...". وفيما نفى الكردينال ان يكون "اتحاد" الاوكرانيين "نموذجاً" للوحدة المنشودة، لم يتردد من نقد لاهوت تم بموجبه الاتحاد مع روما في الماضي، مخلصا الى القول بان وجود الكنائس المتحدة –مع كونه يذكّر الكنيسه الكاثوليكية بان التقليد اللاتيني ليس وحده تقليدا اصيلاً– هو في اصل "انشطار الشركة مع الكنائس الارثوذكسية..." (عن *Pro mundi vita, No.86-87*).

(٩) في مقابلة اجرتها مجلة *A.R.M.* الفرنسية (١٥ ك٢ ١٩٨٨) مع الاب عمانوئيل لان البندكتي (دير شفتون–بلجيكا) احد محرري القرار المجمعي في "الحركة المسكونية" وعضو لجنة الحوار اللاهوتي الارثوذكسية الكاثوليكية، قال فيها بان تعددية ظروف الاتحاد بحسب البلدان تفرض معالجة خاصة بكل وضع (وضع الاوكرانيين الكاثوليك مع ملابساته الدينية والسياسية يختلف كليا عن وضع السريان او الارمن الكاثوليك..). وفي معرض حديثه عن "الكنائس المتحدة"، لم يتردد الاب لان من التعبير عن شكوكه في علاقة "اتحاد" سليمة بين الكنائس الارثوذكسية والكرسي الرسولي، في ضوء العلاقة القائمة بين روما والكنائس الشرقية القديمة! وبعد ان اشاد بالحيوية التي تمتاز بها بعض الكنائس المتحدة. اخذ عليها "تغربها" وانحسار طابعها الشرقي المميز، اقلّه في بعض مظاهر الحياة المسيحية (مشيراً الى ديناميكية الاقباط الكاثوليك بمصر الذين يمارسون نشاطا رسوليا "توسعّيا" جعل الاقباط الارثوذكس يحذرونهم بما يفوق حذرهم من الاقباط البروتستنت!)، وخلص الى القول بان المشكلة تكمن في كون حركة "الاتحاد" تضعنا امام واقع تاريخي وكنسي يقتضي تحديات جديدة!

١. اعتراف متواضع تقوم به الكنائس الشرقية الكاثوليكية بشأن الملابسات التي رافقت عملية "الاتحاد—الانقسام"، واستغفار متبادل عما نتج عن هذا الاتحاد، من طرف او من آخر، من اخطاء وتعديات ضد المحبة.

٢. شجب اسلوب "الكسب" الذي تمارسه كنيسة لدى مؤمنين من كنائس اخرى، ورفض عملية "انتقال" مؤمنين من كنيسة الى اخرى، سواء كان على شكل "عودة" ام على شكل انتماء جديد.

٣. حق الكنائس الشرقية الكاثوليكية في ان تتمتع باستقلال ذاتي ضمن الشركة مع الكرسي الرسولي، استقلال يحملها على صياغة لاهوت يمد جذوره في التقليد الشرقي العريق، ويرسو على تعاليم آباء الكنيسة الشرقية، دون ان يتجاهل الطروحات اللاهوتية والكتابية المعاصرة. واذا كانت الضرورة تقضي باجراء تحديدات في العديد من المجالات، وفي مجال الليتورجيا بنوع خاص، فعليها ان تحرص كي تتم بالاتفاق مع الكنيسة الأم، وتتجنب توسيع حجم الاختلافات دون مبرر.

٤. سعي الكنائس الشرقية الكاثوليكية للحصول على السيادة التامة في ما يتعلق بالادارة الكنسية دون تدخلات المجامع الرومانية (نظام "المجالس الملّية"، استفتاء المؤمنين في اختيار الكهنة والاساقفة، استقلالية السينودس البطريركي، "حق قانوني"" شرقي لا يكون نسخة شرقية للحق القانوني اللاتيني الخ...).

٥. ضرورة تمتع البطاركة بالسيادة الكاملة على تراث كنائسهم وتقاليدها، فلا يبدون "تابعين"، وانما رؤساء كنائس في شركة مع الكرسي الرسولي؛ ولا تبدو كنائسهم "متغربة" عن اصالتها الشرقية، وانما كنائس ذات تقليد رسولي اصيل، ولا يكون من قبيل الانعام وانما من قبيل الحق ان يشاركوا في انتخاب اسقف روما، من دون ان يصبحوا "كرادلة"!

٦. مضاعفة الجهود لابراز غنى التراث الشرقي، لاهوتا وروحانية وطقوسا وسلوكية وادارة وقوانين... وحمل الكنيسة اللاتينية على اكتشاف هذا الثراء واستلهامه في توجهاتها وممارساتها، دون التنكر لما اكتسبته هي منها من غنى كبير وعلى مختلف الاصعدة، وما اتسمت به من ديناميكية كانت لها مردوداتها على صعيد الشهادة المسيحية والعمل الرسولي.

ففي ضوء هذه الافكار—التطلعات سيكون بوسع الكنائس الارثوذكسية "الأم" ان تتعامل مع "الكنائس المتحدة" من منطلق الامومة والأخوة معاً، معترفة بشرقيتها وارثوذكسيتها وكثلكتها، ومرتضية السير معها يداً بيد في مجالات التلاحم والتضامن. وغني عن القول ان هذه النقاط هي باتجاه مشروع —على مدى نتمنى ألا يكون طويلاً— يرسم ملامح وحدة تكون شركة بين الكنائس الشقيقة، وليس انصهاراً في بوتقة تضيع فيها الخصوصيات: وحدة في التعددية. أليس الى مثل هذه الوحدة يلمح يوحنا بولس الثاني حين

يقول بان "على الكنيسة الجامعة ان تتنفس بكلتا رئتيها" (الشرقية والغربية)؟

ولنقلها بصراحة: اذا تمت مثل هذه الوحدة في التعددية الكنائسية، فلن تكون ثمة ضرورة من بقاء "الكنائس المتحدة" في كيانها الحالي، وانما يتم حينذاك توحيد السلطة على اساس جغرافي، فلا يكون لطقس واحد (وحتى لطقوس مختلفة!) في مدينة واحدة سوى اسقف واحد —وغني عن القول ان في ذلك عودة الى تقليد كنسي عريق لا يكون بموجبه في منطقة ما سوى اسقف واحد. وفي اطار هذا المشروع الطويل الأمد ولا شك، سيتحتّم على الكنائس الشرقية الكاثوليكية ان تمارس دوراً نبوياً داخل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية —وعلى مشهد من الكنائس الارثوذكسية الأم التي ستدع ذكرياتها المريرة ومآخذها وتحفظاتها تسقط وتتلاشى— اذا ما تمكنت من فرض هويتها الشرقية الاصيلة وانتزاع مكانتها في الكنيسة الجامعة، وحينذاك تصبح حقاً "جسراً" للوحدة المسيحية المنشودة لا بل اداتها الرئيسة!

الأب بيوس عفاص

القيامة

عيد نحتفل به سوية

كان المسيحيون في كل احد، لدى كسر الخبز، يحتفلون بقيامة الرب؛ ومع الايام اصبح عيداً يحتفلون به سنوياً، أسوة بعيد الفصح لدى اليهود، بعد ان اصبح يسوع هو فصحنا الجديد! ولكنهم ومنذ القرن ١٦، وبفعل تصحيح في التقويم اليولياني، على يد البابا غريغوريوس ١٣ —واصبح يدعى التقويم الغريغوري، بفارق ١٣ يوماً!- لم يعودوا يحتفلون به في أحد واحد، وإن كانت قاعدة الاحتفال التي ثبتها مجمع نيقية (٣٢٥) هي ذاتها في الحسابين! لماذا هذا الاختلاف؟ ما هي اسبابه؟ عقائدية ام حسابية؟ ما هي الحلول المقترحة لتوحيد العيد؟ اسئلة طالما طرحها القراء على مجلتهم وعلى مدى سنين طويلة، منذ ايام "السلسلة" (رقم ١٥) وفي سنوات المجلة منذ عام ١٩٧١! وما زالوا يطرحونها!!

نجيب قاقو —وقد تطرق هو ذاته كثيراً الى هذا الموضوع- يحيط به بشكل متكامل، مذيَّلاً بايضاحات هامة بقلم التحرير، ليخلص الى القول باننا ازاء حلول آن للمسؤولين الكنسيين ان يتبنوها!

كان عيد القيامة ولا يزال "اعظم واقدم عيد" احتفل به المسيحيون تخليدا لذكرى يسوع الذي "اقامه الله من بين الاموات... وجعله رباً ومسيحاً". ويبدو ان المسيحيين الاولين كانوا يحتفلون بقيامة الرب، كل احد لدى "كسرهم الخبز"، ومع الايام اصبح عيدا يحتفل به سنويا، يسبقه الصوم الاربعيني واسبوع الآلام استعدادا لهذا "العيد الكبير".

وازاء هذا العيد الكبير الذي يحيي ذكرى الحدث الاساس في الايمان المسيحي يسوءنا الا يحتفل به المسيحيون —وفي الشرق بنوع خاص— في يوم واحد! فتنتصب التساؤلات الكثيرة، ترافقها اتهامات نتراشق بها، وتقترن الآمال بالمطاليب الملحة لتوحيد العيد: لماذا هذا الاختلاف؟ وما هي مسبباته؟ وما هي الحلول؟ اما حان لنا ان نتجاوز كل الصعاب لنحتفل بالعيد سوية؟[1].

❋ عيد القيامة: قضية حسابية

عندما اخذت الكنيسة الاولى تحتفل بعيد القيامة في يوم معين من السنة، قام نقاش

(١) سبق للفكر المسيحي ان انكبت على هذا الموضوع مرارا: راجع افتتاحيات شباط/ اذار ١٩٨٨، ايار ١٩٨٥، نيسان ١٩٨٣، نسان ١٩٧٧ الخ... وزاوية "سؤال وجواب": ايار ١٩٨٥، ايار١٩٨٢، نيسان ١٩٧١، فضلا عن مقال في عدد نيسان ١٩٧٥ والعدد ١٥ من "السلسة" (قلم التحرير).

❋ عيد القيامة: قضية حسابية

عندما اخذت الكنيسة الاولى تحتفل بعيد القيامة في يوم معين من السنة، قام نقاش حول ما اذا وجب ان يكون ذلك في يوم فصح اليهود ام في الاحد الذي يليه؟ وفي حوالي عام ١٨٠م اصبح الرأي الاخير هو المعمول به بشكل عام. الا ان مسيحيي اسيا الصغرى ظلوا يعيّدونه مع اليهود حتى جاء البابا فكتور الاول (١٨٩-١٩٨) فسعى الى توحيد العيد، مهددا كنائس اسيا الصغرى بالحرم ان هي بقيت على موقفها. وكان مسيحيو الغرب قد اعتادوا الاحتفال بعيد القيامة في الاحد الذي يلي اول بدر سواء وقع في يوم الاعتدال الربيعي (٢١ اذار) ام بعده: فان كان البدر يوم احد يكون عيد الفصح في الاحد الذي يليه. وتكرست هذه الممارسة في مجمع نيقية[٢] المسكوني (٣٢٥) حيث حددت قاعدة الاحتفال بالعيد مع هذا الشرط: "الا يكون مع فصح اليهود"!

وسارت الكنائس في الشرق والغرب وفقا لهذه القاعدة حتى عام ١٥٨٢، عام الاصلاح الغريغوري على التقويم اليولياني الذي كانت الكنائس بموجبه تحدد اعيادها –وهو التقويم الذي وضعه الامبراطور يوليوس قيصر عام ٤٦ ق. م. حيث اضاف شهرا واحدا لتحقيق المطابقة بين السنة الرومانية والسنة القمرية. فكانت السنة وفقا لهذا الحساب تتألف من ٣٦٥ يوما وربع واضافة يوم في السنة الكبيسة (٣٦٦ يوما).

ويرجع الاصلاح الغريغوري الى البابا غريغوريوس ١٣ الذي اكتشف ان السنة الشمسية تقل عن المدة المحددة لها في التقويم اليولياني بمقدار ٠.٠١ من اليوم (بمعدل ٣ أيام كل ٤٠٠ سنة)، ونتج عن ذلك ان الزمن في القرن السادس عشر يكون قد فقد ١٠ أيام. فعمد البابا المذكور عام ١٥٨٢ الى اقتطاعها: وهكذا تقرر ان يقفز يوم ٥ ت١ ١٥٨٢ الى يوم ١٥ ت١! وقد اصبح الفرق في بداية القرن العشرين ١٣ يوماً[٣].

وفيما بقي عيد القيامة بعد الاصلاح الغريغوري يعتمد القاعدة ذاتها التي حددها المجمع النيقاوي عام٣٢٥، ولكن من دون التقيد بفصح اليهود، الا ان الاختلاف في تحديد يوم العيد نشأ من احتساب الفارق في يوم الاعتدال الربيعي لدى الكنائس التي قبلت بالاصلاح الغريغوري او التي لم تقبل به. وهذا الاختلاف في التقويم بين حسابين (اليولياني قبل الاصلاح والمسمى خطأ بالشرقي واليولياني بعد الاصلاح والمسمى بالغريغوري او الغربي) جعل عيد القيامة يتروح في احد من الاحاد الواقعة بين٢١ اذار و ٢٥نيسان، في

---

(٢) دعا الى عقده الامبراطور قسطنطين لحسم النزاعات اللاهوتية في اعقاب بدعة اريوس حول البنوة الالهية. وتقع نيقية في بلاد الاناضول وتدعى اليوم "إسنك".

(٣) اخذت بهذا الاصلاح كافة البلدان الكاثوليكية، بدءا بفرنسا التي تبنته في ك١ من عام ١٥٨٢ ذاته. وفي ازمنة متأخرة اخذت به تباعا سائر البلدان (بريطانيا عام ١٧٥٢، روسيا عام ١٩١٨ –ومن هنا جاء التفاوت، مثلاً، ثورة ٢٥ اكتوبر التي اصبح يحتفل بها في ٧ نوفمبر، أي بزيادة ١٣ يوماً! لذا ظلت تدعى "ثورة اكتوبر").

الحساب الغريغوري، مع اعتبار فارق الـ١٣ يوما لدى الكنائس التي احتفظت بالتقويم اليولياني قبل الاصلاح. وغني عن القول ان العيد يتأخر دوما لدى هذه الكنائس باسبوع او اسبوعين او خمسة اسابيع، فيما يلتقي الحسابان مرة كل بضعة اعوام.

وهكذا يتضح بان الاختلاف ليس اختلافا عقائديا او لاهوتيا، خاصة اذا ما استبعدنا قضية "التقيد بفصح اليهود" بعد ان ابطل المسيح بفصحه فصح اليهود! لذا فان توحيد العيد كان ولا يزال من الامور الادارية والتنظيمية التي بوسع المسؤولين الكنسيين ان يجدوا لها حلا.

* موجبات توحيد عيد القيامة

من النافل ان نبرهن على ضرورة توحيد عيد القيامة بين جميع المسيحيين، وان كنا ندرك بأن هذا التوحيد ان هو الا جزء ضئيل من عملية الوحدة المسيحية الشاملة، ولعلنا افرطنا في اعطائه الاولوية في تفكيرنا واحاديثنا...! ولكننا اذا كنا نرغب بعمق في الاحتفال بعيد القيامة في يوم واحد، فلاننا نؤمن بان قيامة المسيح من بين الاموات تشكل الركيزة الاساسية في ايماننا المسيحي ولاننا نريد ان نشهد لقيامة الرب "بقلب واحد ونفس واحدة". أليس التفاوت في الاحتفال بها، بحسب انتماءاتنا الطائفية، يشكل شهادة مضادة للمحبة التي ارادها المسيح علامتنا الفارقة؟ ومما لا شك فيه ان المطاليب الملحة لتوحيد العيد والتي يعبر عنها بقوة المسيحيون في الشرق –وعندنا في العراق بنوع خاص– تعكس رغبتهم العميقة في الشهادة للوحدة تجاه الذين يحيطون بهم، سيما وان هذا الاختلاف يحمل بعضهم على الاستهزاء او التندر. لذا كان التوحيد مطلبا مشروعا يجيب الى امال المسيحيين كافة، وضرورة يفرضها واقع الوجود المسيحي في الشرق.

لقد بدأت في الغرب، في بدايات هذا القرن فكرة تحديد يوم ثابت لعيد القيامة بدوافع اجتماعية، اخصها جعل فصول السنة الدراسية والتجارية متقاربة في مددها. واقترح في حينه ان يكون العيد في الاحد الاول او الثاني من شهر نيسان. وفي بلدان اوربا الشرقية لم تلق هذه الفكرة قبولا، لا سيما وان الكنائس الارثوذكسية فيها كانت ولا تزال تتبع التقويم اليولياني قبل الاصلاح الغريغوري وتعلن تمسكها الشديد بقاعدة المجمع النيقاوي. اما في الشرق الاوسط حيث تتعدد الكنائس المسيحية، فان فكرة توحيد العيد، بأية صيغة وعلى أي شكل، كانت وما زالت موضوع اجماع في الرأي العام لدى المسيحيين من مختلف الكنائس، ولا سيما وقد ادركوا ان الاختلاف يرجع الى قضية حسابية ليس للعقيدة فيها شأن. وقد حملهم على التفاؤل باقتراب هذا التوحيد ما خرج به المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني من توصيات في هذا الشأن(٤). ولا نكشف سرا اذا قلنا بأن الامال التي ابتسمت

(٤) في ذيل الدستور "في الليتورجيا المقدسة"، وفي اطار مشروع تقويم مدني جديد، جاء هذا التصريح:

سرعان ما ضعفت وتضاءلت، ومُنيَ بعضهم بخيبة امل حين لم يلمس بوادر تنبيء بالخير، فيما بقي الجميع يتساءلون: الى متى يوضع حد لهذه المأساة؟!

✲ مقترحات آن لها ان تتحقق

نحن لا ننكر ولا نتجاهل ما يحيط بقضية توحيد عيد القيامة من ملابسات ومضاعفات تجعل منها احيانا امرا مستعصياً، سيما وان الجميع يؤكدون على ضرورة توحيد يشمل كافة الكنائس في العالم، دون استثناء، اذ اية منفعة تجنى من توحيد يخلق انقسامات جديدة؟!

ولكن لما كنا في الشرق نعاني بشكل خاص من هذا الاختلاف بين الحسابين، ففي انتظار توحيد عالمي شامل، اصبح مطلبا مشروعا ان تسعى كنائسنا الى توحيد مؤقت على صعيد الشرق الاوسط، كما اصبح من المشروع ايضا التفكير بتوحيد مؤقت على صعيد قطري اذا ما توفرت الفرص لذلك..

وليسمح لي ان اصوغ مقترحات تعكس امنيات المسيحيين العراقيين:

- قيام لقاءات دورية جادة بين كافة رؤساء الطوائف المسيحية في العراق، تدرس خلالها الطرق العملية الكفيلة بالتوصل الى اتفاق على يوم واحد للاحتفال بعيد القيامة على صعيد القطر، سواء كان بالرجوع الى التقويم اليولياني قبل الاصلاح، ام تبني الاصلاح الغريغوري، ام بالتناوب على الحسابين، ام بتثبيت احد من نيسان[ه]..

"ان المجمع المقدس لا يعارض ان يحدد عيد الفصح في احد معين في التقويم الغريغوري، مع موافقة من يهمهم الامر، سيما الاخوة المنفصلين عن الشركة مع الكرسي الرسولي". وفي مرسوم "الكنائس الشرقية الكاثوليكية" شددت الفقرة ٢٠ منه على ضرورة التوصل الى اتفاق بين كل المسيحيين على يوم واحد للاحتفال بعيد الفصح، وخلصت الى القول: "في انتظار ذلك وتعزيزا للوحدة بين المسيحيين الذين يسكنون في عين المنطقة وعين البلد، يطلب الى البطاركة او الى السلطات الكنسية المحلية العليا ان تتفق لتحتفل بعيد الفصح في ذات الاحد، وذلك باجماع الرأي، وبعد الاتفاق مع من يهمهم الامر". مثل هذه الصلاحية استخدمتها الكنائس الكاثوليكية في مصر حين قررت الاحتفال بالعيد مع الكنيسة الارثوذكسية القبطية التي ينتمي اليها حوالي ١٠ ملايين مؤمن.

(ه) منعاً للاتهامات المتبادلة التي يوجهها بعضنا الى بعض فيما يتعلق بتوحيد العيد على صعيد القطر، وتبديدا للمغالطات التي قد نساق اليها، وبدافع احاطة القراء بملابسات التوحيد في اطار الواقع الكنسي العراقي نقول:

حين يضع بعضنا المسؤولية على هذه الكنيسة او تلك، او على هذا البطريرك او ذاك، فأقل ما يقال انا نتجاهل الملابسات المحيطة بمشروع التوحيد.

فلقد بات واضحاً ان في العراق كنائس تحتفل سوية بالعيد بحسب التقويم اليولياني المصلح (الغريغوري) وهي: الكنائس الكاثوليكية كافة (الكلدان والسريان والارمن والروم واللاتين) والكنيسة الارمنية الارثوذكسية (التي عمدت الى اصلاح التقويم منذ ١٩٢٢) والكنيسة الشرقية (التي يرئسها البطريرك مار دنخا الرابع والتي تبنّت الحساب الغريغوري منذ عام ١٩٦٤)، فضلا عن الكنيسة الانجيلية.. اما الكنائس التي احتفظت بالتقويم اليولياني قبل الاصلاح الغريغوري فهي: الكنيسة السريانية الارثوذكسية (وقد تبنت الاصلاح

- قيام بطاركة كنائسنا الاعضاء في مجلس كنائس الشرق الاوسط بتكثيف المساعي الرامية الى تعجيل القرار بتوحيد العيد في الشرق الاوسط، وباتجاه تثبيت العيد في احد من نيسان يكون المنطلق لتوحيد يشمل فيما بعد كافة الكنائس في العالم.

نجيب قاقو

المصادر:

- Encyclopedia International, Grolier, New York, 1963.
- Encyclopedia Britannica (Ready reference and index, vol II, 15th ed. p.757.
- Encyclopedia Universalis, vol III, 1985.

عام ١٩٥٤ بالنسبة الى الاعياد الثابتة –كعيد الميلاد والدنح الخ... ولم تعتمده بالنسبة الى الاعياد المتحركة كعيد القيامة وما يتبعه من اعياد) والكنيسة الجاثليقية القديمة (وهي الكنيسة التي نشأت عام ١٩٦٤ اثر رفضها قرار مار ايشاي شمعون باصلاح التقويم للاعياد الثابتة والمتحركة على السواء. لذا فهي على سبيل المثال، تحتفل بعيد الميلاد يوم ٧ ك٢). وهكذا اصبحنا في العراق امام خيارات يصطدم كل منها بعقبات:

– ان تتخلى الكنائس المذكورة اعلاه عن الحساب الغريغوري. هذا الخيار قد تقبله الكنائس الكاثوليكية، ولكنه يواجه ولا شك رفضا من قبل الكنيستين الشرقية الآثورية والارمنية الارثوذكسية ولاسباب لا تخفى.

– ان تتبنى الحساب الغريغوري الكنيستان السريانية الارثوذكسية والجاثليقية القديمة. وهذا الخيار يصطدم هو الاخر بعقبات من طرف او من اخر، ولاسباب شتى.

– ان تستحصل الكنائس في العراق موافقة بطاركتها على الاحتفال بالعيد بالتناوب على الحسابين بين عام وعام. وهذا الخيار قد يكون سليما اذا تم عليه اجماع.

– او ان تستحصل الموافقة على تثبيت الاحد الثاني او الثالث من نيسان عيدا للقيامة، ريثما يتم مثل هذا التوحيد على نطاق كنائس الشرق الاوسط. هذا الخيار، على معقوليته، يصطدم –كالخيار السابق– بصعوبة الحصول على موافقة كافة البطاركة عليه في الوقت الحاضر، بحجة الحفاظ على وحدة العيد بين ابناء الطائفة الواحدة اينما كانوا...

وغني عن القول ان كل خيار لا يهدف الى توحيد يشمل كافة الطوائف هو خيار مرفوض من اساسه، كونه يعرّض لانقسامات جديدة قد تكون اكثر مرارة من حالة الانقسام التي نحن فيها الان! (قلم التحرير).

١٧ كشاف ١٩٨٠-١٩٩٠

السنة السابعة والعشرون: أيلول ١٩٩١

الفهرس

- افتتاحية: كشاف العقد الثاني
- فهرس المواضيع
- لاهوت
- الكتاب المقدس
- الكنيسة
- الحركة المسكونية
- وثائق
- الكنيسة والمجتمع
- الكنيسة في العالم
- الكنيسة في العراق
- تراجم
- تربية
- فنون وآداب
- تاريخ
- سياسة
- مقابلات/لقاءات
- قبل ان تصلك المجلة
- من نتاج القراء
- استفتاءات/طاولات/اسئلة للمناقشة
- خواطر وشذرات
- سؤال وجواب
- ركن الاسرة
- من جعبتي
- افتتاحيات
- همسات
- ابت هذه مشكلتي
- ملفات
- لقاءات مع مشاهير
- هل تعلم؟
- فهرس الكتاب
- هيئة التحرير

كشاف العقد الثاني (١٩٨١-١٩٩٠)!

هذا العنوان، حملته افتتاحية العدد الخاص/الكشاف (ايلول ١٩٩١) لتجعل منه قلادة ثانية من عشر سنوات في صدر "الفكر المسيحي"، بعد ان اصبحت واحدة من اقدم المجلات العراقية واكثرها ثباتا واستمرارية -وسبق أن احتفلت، عام ١٩٨٩، باليوبيل الفضي، واقامت في حينه معرضا متميزا احاط بمسيرة ٢٥ عاماً من العمل الصحافي الدؤوب عبر "جداريات" و"ارشيف" اصبحت بالتالي نواة لجناح "**الفكر المسيحي**" في متحف مار توما!

وفيما تضمنت الافتتاحية عرضا لوتيرة الاشتراكات وبدلاتها على مر السنين، وللتطور في الطباعة والاخراج الذي شهدته المجلة عاماً بعد عام، وفي مطابع عدة الى ان استقرت في رعاية مطبعة الاديب... خلصت الى القول بان الكشاف رقم ٢ ابقى على التبويب المعتمد في الكشاف رقم ١، عبر تصنيف الموضوعات في ابواب رئيسة، مذيل بفهرس بـ "الكتّاب".

(...) فاذا كنتم من بين أولئك الذين واكبوا "الفكر المسيحي" منذ سنواتها الأولى، فستجدون ولا شك في هذا الكشاف متعة، طالما انه سيذكركم بما سبق لكم أن قرأتموه، وقد يجدد لديكم القناعة بأن "في الإعادة إفادة"! أما اذا كنتم من الذين لحقوا بها في سنواتها الأخيرة، فستجدون فيه ما فاتكم من المعارف والمعلومات، قد تكونون في أمس الحاجة إليها، أليست قراءة العناوين حافزا لكم إلى استعارة أو اقتناء ما فاتكم من اعداد؟!

فلئن كان هذا الكشاف قد جعلنا جميعا، قدامى وجددا، نحيط بكل ما دبجته أقلام المحررين في شتى الحقول والميادين التي لها صلة بالايمان المسيحي في كل مظاهره وأبعاده، ولئن بدا لنا لأول وهلة أننا نقرأ عناوين وأسماء تحمل على الملل، إلا انه سيصيب الهدف إن هو حملنا على العودة إلى الأعداد التي وثق مضامينها ومحتوياتها! أليس الكشاف مرجعا نعود إليه كلما دعت الحاجة! وكفاه أن يكون مرجعاً! -ومرجعاً ثميناً ولا شك!

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٤٣٤)

١٨ الاوخارستيا... شركة واقتسام

السنة الثامنة والعشرون: آب-ت١ ١٩٩٢

الفهرس

- افتتاحية: الاوخارستيا... خبز مكسور للجائعين — رئيس التحرير

المحور الاول: الاوخارستيا ... جسد مبذول وخبز مقتسم

- الاوخارستيا في الكتاب المقدس: خبز للعالم — أ. منصور المخلصي
- الاوخارستيا في نصوص العهد الجديد — أ. يونس عفاص
- الاوخارستيا في الجماعة المسيحية — أ. لويس ساكو
- المنظور الانتروبولوجي لسر الاوخارستيا — القس لوسيان جميل
- المسيح في الاوخارستيا — أ. فرانسوا فاريون
- في الاوخارستيا: المسيح الممجد حاضر حقاً — أ. ري ميميه
- دليل الى رموز القداس — أ. نعمان أوريدة

المحور الثاني: الاوخارستيا... ذكرى عشاء الرب

- حضور المسيح الحقيقي في سر الاوخارستيا — أ. سليم بسترس
- تطور القداس في الطقوس واللاهوت — أ. يوسف حبي
- الاوخارستيا سر الوحدة — م. صليبا شمعون
- الاوخارستيا مركز الحياة المسيحية — أ. يوحنا عيسى
- القداس: احتفال الجماعة المسيحية — دلال احسان نعمان
- مناولة: القداس... شهادة ايمان وحياة — حنان حداد وعبدالاحد يوحنا ...

- قالوا في الاوخارستيا
- خبز للحياة — أ. ف. فاريون

... وكانت المغامرة حين خاضت "**الفكر المسيحي**" غمار الاوخارستيا! وهي في العمق "خبز مكسور للجائعين"! فكان بالتالي عدداً مكثفاً يحيط بالسر ويمسك بمفاتيحه، عبر محورين:

الاوخارستيا... جسد مبذول وخبز مقتسم

ضم المحور الاول مقالات دسمة تناولت الاوخارستيا في عمق الكتاب المقدس والعهد الجديد بنوع خاص، كما في عمق خبرة الجماعة المسيحية الاولى...

الاوخارستيا ... ذكرى عشاء الرب

في المحور الثاني، انكب الكتّاب على فكر اللاهوتيين المعاصرين بشأن "حضور" المسيح في الاوخارستيا، وما عرفه القداس من تطور في الطقوس واللاهوت... وهو في القلب من الحياة المسيحية. وضمّت "طاولة مستديرة" -كما في معظم الاعداد الخاصة- كوكبة من العلمانيين أدلوا بآراهم فادّوا "شهادة ايمان وحياة"!

(...) كما انهم كانوا على يقين من أن "كسر الخبز" ورفع "الصلوات" إلى الله، باسم يسوع، لا يحدان كل غناهما الا عبر "شركة" عميقة في ما بينهم، تقوم على قيم الحب والمصالحة والتعاون والتضامن الخ...

وسرعان ما أيقنوا أن المحبة تعني الخدمة على مثال "السيد"، وتعني البذل بكل أوجهه... وان عليها أن تمتد لتشمل البشرية جمعاء! أليس إلى هذه الخدمة دعا يسوع تلاميذه من خلال علامة "تغسيل الأرجل"، حتى ان انجيل يوحنا جعل هذا الحدث في قلب العشاء الأخير، فأغفل رواية تأسيس الاوخارستيا؟! ألم يدعُ القديس بولس القورنثيين -وقد تحول لديهم عشاء الرب إلى فوضى وانقسام (١ قورنتس ١١-١٢)- إلى المشاركة الفعلية والتضامن الملموس مع المحتاجين، طالما أن "خبز الحياة" هو طعام الجائعين إلى الخبز وإلى الحب، وطالما أنهم جميعا يؤلفون "جسد المسيح" الواحد؟ (...)

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٤٥٠-٤٥١)

الاوخارستيا في الكتاب المقدس:
خبز للعالم

الاوخارستيا... خبز للعالم! تحت هذا العنوان، انبرى الاب منصور المخلصي، في قسم أول، يستعرض ما في الكتاب المقدس من اشارات الى معاني الخبز: انه اولا خبز الله للجائعين والسائرين في الطريق وللجميع؛ وهو بالتالي "خبز العهد" الذي خُتم، مع موسى ابان الخروج، بالعشاء الفصحي وبدم الحمل الذي رُشّت به الابواب والقلوب... الى ان "صار الله خبزاً": كلمة صار بشراً، خبزاً نازلاً من السماء، الهاً متجسداً في لحم انسان... ففي هذا الانسان، يسوع، أعطى الله ذاته خبز رحمة ومحبة، وفيه جعل الله ذاته خبزاً مكسوراً للناس...

وفي قسم ثانٍ بعنوان "خبز الانسان"، تناول الاب منصور ثلاثة محاور: الخبز والحياة –وهو الخبز الذي يعبّر عن حياة الانسان في كل ظروفه، وفي المقدمة الخبز المقتسَم الذي يُكسر للآخرين. وخبز الكنيسة –عبر "كسر الخبز" في الليتورجيا وما يعنيه من تضحية المسيح على الصليب، وكل ذلك في صلة مباشرة مع المعايشة اليومية. والخبز الجسد –حين تكون البشرية جسداً واحداً بفعل ذاك الذي كان خبزاً (كلمة) فصار جسداً مبذولاً من اجل الجميع.

اولا: خبز الله

١. **خبز للجائعين:** سنة ٨٦٠ قبل الميلاد حدثت مجاعة في فلسطين. ومضى ايليا النبي نفسه جائعاً وشكى امره الى ارملة في احدى القرى: "ان الله لا ينسى الفقراء الجائعين، وخاصة الارامل والاطفال. انه يدعى "مُقيت الكل": فالذي أقات آباءكم سيقيتكم انتم ايضا. انما عليكم ان تتعاونوا وتتقاسموا الخيرات...". اما الارملة فقالت: "لم يبق لي الا حفنة من الدقيق ويسيرا من الزيت. سأعد لك منهما خبزاً، ثم نموت انا وابني". ولكن النبي أجاب: "آمني بالله وسيطعمك". وفعلا، بعد أن أعدت الخبز للنبي، بقي دقيقها على ما هو طيلة ايام المجاعة. (اقرأ ١ملوك ١٧:٧-١٦).

٢. **خبز للاجئين والهاربين والسائرين "في الطريق":** لقد أعلن ايليا كلام الله وكان هذا الكلام كالخبز، خبز الحق، للشعب وللقادة ايضا. فلقد كان الملك، والملكة خاصة، يحقدان على ايليا ويضطهدانه. وارادت الملكة قتله، فأفلت ايليا، وهام على وجهه في الصحراء، فأعياه التعب حتى سقط خائر القوى، فاقد الوعي في الشمس. ولكن الله اشعره ليلاً بانه معه ولن يتركه. فأرسل اليه غراباً في الصباح وفي منقاره كسرة خبز ابيض ليقيت النبي المسكين (١ملوك ١٧:٤-٦).

وهكذا شدد الرب عزيمة ايليا مرتين، فانتصب واستأنف السير اربعين يوماً واربعين ليلة. وكان في سيره يفكر في الشعب، شعب موسى في البرية، كيف سار مدة اربعين سنة والرب يقيته بالمن، هذا الخبز النازل من السماء، يوماً فيوماً. ان الله لم يدع شعبه يموت في الطريق، فكان الخبز وصخرة الماء يرافقانه (خروج ١٦:٤-١٦و١٧:٦).

٣. خبز للجميع: في حادثة اخرى كثّر اليشاع النبي، تلميذ ايليا، الخبز لمئة رجل جائع اذ صلى على الخبز قائلا: "انهم يأكلون ويفضل عنهم" (٢ملوك ٤:٤٢-٤٤):

"**مبارك انت**، ايها الرب الهنا، يا ملك الكون، انت الذي تقيت العالم أجمع بجودك ونعمتك ورحمتك. مبارك انت ايها الرب، انت الذي تعطي القوت للجميع.

"**اننا نشكرك**، ايها الرب الهنا، لانك أعطيتنا ميراثاً ارضاً صالحة وطيبة، أعطيتنا العهد والشريعة والحياة والقوت". (البركة بعد الاكل).

مثل هذه المزامير تلاها الانبياء والمؤمنون حتى في اوقات غير المجاعة ليعبروا عن حمدهم لله الخالق الذي يهب الحياة ويحفظها بمنحه الخبز، خبز الحياة، للخليقة كلها. لقد آمن ايليا بالله الذي يبسط مائدته، كل يوم، للخليقة كلها؛ والانسان الذي يعي ذلك يبارك الله ويشكره ويلتمس منه ان يواصل حفظه لهذه الخليقة بسلام وبوفرة الحياة. وللتعبير عن هذه المشاعر، كانوا يصلون قبل الطعام وبعده، وكانوا يقدمون، من وقت لآخر، قرابين من بواكير الغلال او الحيوانات.

٤. خبز العهد: الخبز والدم، دم الذبيحة: ايليا يرتقي جبل اللقاء، حوريب العهد. فعلى هذا الجبل كان الله قد تراءى لموسى وكلّمه قائلا: انا الهكم، انتم شعبي. لقد استمعت الى صراخكم ورأيت بؤسكم وحررتكم من العبودية. لقد دخلت في تاريخكم وقُدتكم وكلّمتكم وألهمتكم. والان اعطيكم عشر كلمات، هي كلمات الحياة التي ينبغي ان تحفظوها، لانها كلماتي التي اوجهها الى شعبي، من اجل خلاصه وسلامه (تثنية الاشتراع ١:٥-٣٣).

وهكذا، على هذا الجبل، تسلم موسى خبز العهد باسم الشعب. وكما كانت العادة عند القدماء ان لا يتم عهد إلا بذبيحة وعشاء، فقد ختم الله عهده مع ابراهيم بالنار التي أحرقت ذبائح الحيوانات؛ ومع موسى ختم عهده بالعشاء الفصحي والحمل الذي بدمه رُشّت الابواب والقلوب. وبعد العهد الذي عقد على جبل سيناء كان موسى يأخذ دم الذبائح ويرش بنصفه المذبح وبالنصف الاخر يرش الشعب، وهو يقول: "هذا هو دم العهد الذي قطعه الله معكم". وبينما كان الله قد تراءى لموسى في النار والرعود، تراءى لايليا في النسمة اللطيفة وكلّمه برقة قائلا: "سأرسل اليكم نبياً اعظم من موسى، اكلمه فماً لفم ووجهاً لوجه، هو سيقول لكم الكلام الحق وسيخلصكم بخلاصي". سيعطيكم خبزي، خبز الحياة.

٥. الله يصير خبزاً: الخبز الحي النازل من السماء: أخيراً جعل الله حضوره متعلقاً

بمادة الخبز. فلقد ظهر اولاً في انسان، إلاهاً متجسداً في لحم انسان، مولوداً في بيت لحم (بيت الخبز): في هذا الانسان يعطي الله ذاته كالخبز، خبز الرحمة. تأملوه كيف يلتزم جانب الفقراء، فيعلمهم الحق، ويقول لهم بان الله يحبهم بصورة خاصة، هم والمرضى والمهّمشين، فيعيدهم الى مكانتهم في المجتمع. انه يجلس في بيوتهم ليتقاسم الخبز معهم ("انه يأكل مع الخطأة")، ومن ثم يحاول ان يطرد الشر من قلوبهم، فينجح احياناً، ويُرفض احيانا، ولكنه لا يحيد عن موقفه، فيعطي ذاته كالخبز، خبز الله، لجميع الناس وحتى للارامل وللاطفال.. الى اليوم الذي سيُكسَر فيه كرغيف خبز، ويُسكَب كالخمر من اجل خلاص الفقراء. فيه جعل الله ذاته خبزاً، خبزاً مكسوراً للناس. ففي جسده "المكسور" ودمه المهراق، في كأس الخمر والخبز المكسور، تّم العهد الجديد، وصارت ذكراه الحية متصلة بهذه العلامة. أي بهذا السر الايماني العميق الذي لا نستطيع سبر غوره إلا اذا عشناه.

العشاء والذبيحة صارا شيئاً واحداً، البذر أُلقي، وحّبات القمح صارت خبزاً، والكلمة أُعطيت، ولكن الكرامين قتلوا الابن على الجلجلة. وعوض ان يقدموا له عناقيد الخمر، ويستقبلوه كرسول رحمة، ظفروا على رأسه اكليلاً من شوك، وعوض ان يعصروا عنبهم له، عصروا الابن ذاته في نوبه الثاني من الدم، دم حب الله الذي وهبهم اياه حتى النهاية، حتى القطرة الاخيرة، اذ طعنوا قلبه، قلب الله. فعندما يصير الله خبزاً، فانه يعطي ذاته حتى النهاية، ويعطيها كاملة. هكذا جعل ذكرى عطائه ذاته متصلة بالخبز ايضا.

ثانيا: خبز الانسان

١. **الخبز والحياة:** هناك انواع كثيرة من الخبز، هيئةً ولوناً. فالخبز في ذاته تاريخ. ان ايادي بشرية عديدة ساهمت في إعداده. فهذا الزارع الذي يزرع ويحصد؛ والطحان الذي يكسر الحّبات ويطحنها لتصير دقيقاً. ثم يأتي الخباز ليعجن ويغيّر هيئة العجين، قبل ان يضعه في التنور. قصة طويلة ذات مراحل عديدة، وفي كل منها تجري تغييرات ينالها بعد ألم ومشقة. فعلى حبّة الحنطة أن تموت اولاً في الارض، ثم تذبل وتتكسر مرة اخرى بعد الحصاد، قبل ان تصبح طحيناً، ومن ثم تشويها نار التنور لتصير خبزاً.

ان الخبز يعبّر عن حياة الانسان على الارض. فهناك خبز السلام، وهناك خبز الحروب؛ خبز الفرح وخبز البكاء؛ خبز الحب وخبز الموت. هناك خبز لكل عهود الحياة. هناك خبز السجين وخبز الحرية. ولكن، قبل كل شيء هناك الخبز المقتسم الذي نكسره مع الآخرين. فالخبز الذي يعطيه الاباء لأبنائهم، هو حياتهم التي يهبونها لهم؛ انه جهدهم واهتمامهم الدائم بهم؛ انه خبز فكرهم، وكلامهم؛ انه خبز حياة الانسان.

ان الكتاب المقدس مليء بالحديث عن هذا الخبز، ليصير أفضل فافضل، وتتقاسمه الاجيال المتعاقبة. وعندما تتقاسم الاسرة الخبز ويبارك رب العائلة الله، فانه يذكّر الله على ما

يديه من اهتمام بالانسان. فخبز الانسان يعكس مراحم الله دائماً: "اننا نباركك يا خالق السماء والارض.. ونشكرك لانك خلّصتنا، وتدعونا الى الحرية. أعنا لنتقاسم خبز الارض".

٢. **خبز الكنيسة**: يذكر كتاب اعمال الرسل عبارة "كسر الخبز" عدة مرات. فلقد اصبحت حركة الطعام الاعتيادية هذه فعلاً ليتورجياً، ألحقت به قراءات وتلاوة "ذكريات" وصلوات، حيث كان المسيحيون الاولون يكسرون الخبز في البيوت. كما ان هذه العبارة تتردد في الانجيل مشيرة الى حركة يسوع عندما كان يكسر الخبز، وهكذا اصبحت حركة المقاسمة هذه وكسر الخبز فعلاً رمزياً لذكرى ذلك الذي بذل ذاته من اجلنا. ولكن اعمال الرسل تجعل الاحتفاال بهذه الليتورجيا في صلة مباشرة مع المعايشة اليومية، اذ تذكر ان المسيحيين كانوا يصلون سوية ويضعون كل شيء مشتركاً في ما بينهم، ليحملوا سوية حمل الفقراء والارامل. ان حبهم المتبادل هذا "احبوا بعضكم بعضاً كما احببتكم انا" هو الخبز الذي يتقاسمونه في ليتورجياتهم في البيوت.

اما مار بولس، فيستخدم عبارة اخرى هي "عشاء الرب" التي تعكس فكرة "ذكرى" الرب بصورة أفصح، ويذكر بايضاح اكبر الكلمات القدسية التي تلفظ بها يسوع في العشاء الاخير، ذلك العشاء—التضحية لاتصاله بالصليب. فما حدث على الجلجلة، سبق ان تحقق رمزياً في العلية، بحيث اصبحت عبارة "كسر الخبز" تعني "تضحية المسيح ذاته على الصليب من اجل فداء الجميع"، ومرادفاً لعبارتي "جسدي المبذول لكم"، "دمي المهراق من اجلكم". وعندما دأب المسيحيون على اعادة ذلك العشاء "لذكره"، صار السر الكبير، السر الكامل والتام، لحياة يسوع وموته حاضراً من جديد عبر رموز وعلامات إيحائية كبرى. ولكن العلامة الاساسية هي حياة الجماعة ذاتها حيث يستمر قائماً حضور يسوع الممجّد. فينبغي ان نعيش العهد اولاً، لئلا تغدو العبارات كذباً.

٣. **الخبز والجسد**: ان كلمات البشر ليست كلمات نهائية ابداً، وانما هي محاولات وبحث ومداخل للتقرب من الحقيقة...

ففي زماننا تسير البشرية نحو وضع يجعل منها جسداً واحداً، ولهذا الجسد الكبير وجه: انه وجه الحب الذي نحاول عيشه ضمن جسد الكنيسة الذي يمتد نحو اكتماله. وهذا الوجه في اخر المطاف، هو وجه يسوع خبز الله المقتسم، الخبز الذي صار جسداً، الخبز الذي صار عهداً، الخبز الذي هو الحب المبذول من اجل كثيرين: "هذا هو جسدي المبذول من اجل الجميع". ان هذه الكلمات هي كلمات حياة وحق، وهي تعبير عن خبرة معاشة، ولا يمكننا التلفظ بها من دون هذه الخبرة وتلك الحياة، وإلا وقعنا في الكذب.

وختاماً، استشهد بهذه العبارات الواردة في كتاب "التعليم المسيحي الجديد" الصادر حديثاً عن الكنيسة الكاثوليكية: "كل عهد من تاريخ الكنيسة يكتشف قيماً جديدة في هذه "الحركة" الالهية التي قام بها يسوع على الخبز. ففيما كانوا يرون فيها تعبيراً عن

وحدة الجماعة، رأوا فيها، في عهد آخر، فعل تمجيد وشكر للاب.. بينما ركزوا، في زمنٍ آخر، على جانب الذبيحة او الحضور الحقيقي... ولكن هذه "الحركة" ستبقى تحوي كنوزا اخرى مخفية لم نكتشفها بعد. فيسوع في سره العظيم سيبقى دائم الجدّة".

فمن دون ان ننتقص من واقع الحضور الحقيقي في الخبز، ومع بقائنا امناء لنصوص العهد الجديد، بوسعنا ان نفهم ايضا ان حضور الرب في الاوخارستيا، اكثر اتساعاً وعمقاً في الجماعة اثناء الاحتفال كله، وان هذا الحضور ثري بالمعاني: ان كسر الخبز في الجماعة الاولى كان يعني المقاسمة وعطاء الذات للآخرين. بهذه العلامة كانوا يعرفون يسوع، وكان تلاميذه يُعرَفون. هناك كلمات تعبر عن الحياة: انا خبزكم، انا قوّتكم ووحيكم، انا خبز حياتكم.

من جانب آخر، هذا الخبز نأكله سوية، كما نحياه سوية، فحيث تناول يسوع الطعام مع الخطأة، هناك وضع الشركة في الحياة وحقق الملكوت فعلاً. ان يسوع هو الضيف الذي يقيت الانسان، كل الانسان، وكل انسان، ويقيته بثمن حياته ومن ذاته. هذا كان حلم يسوع: ان يأكل الجميع يوماً على مائدة واحدة، كاخوة واخوات، من دون استبعاد احد: "انا خبز الحياة، من يأتي إليّ لن يجوع، ومن يؤمن بي لن يعطش ابداً" (يوحنا ٦:٣٥).

الاب منصور المخلصي

الاوخارستيا
في الجماعة المسيحية الاولى

"كانوا يكسرون الخبز في البيوت ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب"! هكذا وصف لوقا، في سفر اعمال الرسل، لقاء الجماعة المسيحية حول مائدة الاوخارستيا في جو مليء بالمحبة والفرح... ويرجّع صدى اجتماعات "كسر الخبز" وماجرياته، كتاب الديداكيه (اوائل القرن ٢) من جهة، ونص دفاعي للقديس يوستينس (منتصف القرن ٢) من جهة اخرى. بعد هذه المقدمة يتطرق المقال الى الابعاد اللاهوتية التي برّزها آباء الكنيسة الذين فهموا الاوخارستيا ضمن منظور "التدبير الخلاصي"، بصفتها تحقق وحدة البشرية الجديدة... ليفضي الى تحديد معنى ذبيحة الشكر وطبيعة حضور المسيح في الاوخارستيا والذي لا يمكن فهمه خارجاً عن اطار الحدث الفصحي...

الاب لويس ساكو، في هذا المقال، يدخلنا الى الاجواء الايمانية التي كانت تهيمن على الجماعات المسيحية الاولى، بشهادة العديد من آباء الكنيسة العظام.

✻احتفال مفعم بالعيد والمحبة والمواهب

عاش المسيحيون الاولون الاوخارستيا (الشكران) بعمق وفرح القيامة ومحبة متناهية الى درجة اقتسام كل شيء بينهم كما ورد في اعمال الرسل (٢:٤٢-٤٧)، وفي كتابات اباء اكنيسة الاولين. ولم يكن احتفالهم بذكرى وليمة المسيح وعمله، قياماً بطقوس جاهزة وثابتة كما هي الحال اليوم في كنائسنا، بل كان احتفالاً اخوياً حاراً، يتم في جو مفعم بالعاطفة الدينية والشعور بان الكل اخوة واخوات، متساوون في نفس كرامة ابناء الله، وكان الجميع يشتركون في "الكلمة" والترانيم ومزامير الشكر والطلبات والتناول. وكانت الحركات والتعابير متروكة للالهام الشخصي، مما كان يؤثر في حياتهم، ويُدخل الحبور والانتعاش الى القلوب. وسمّوا احتفالهم "كسر الخبز" والاوخارستيا وباليونانية (*Eucharistein*) والذبيحة والقربان و"عشاء الرب". وكان الاحتفال يتم مع وجبة طعام حقيقية "عشاءالاخوة"، تُعدّه العائلة المضيفة او عدة عوائل لتعزيز روابط الاخوّة والخدمة بين الجماعة الواحدة.

هناك نصان مهمان بين نصوص اخرى كثيرة ينقلان الينا خبرة المسيحيين الاولين واحتفالهم بالاوخالارستيا في هذا الجو المفعم بالحماس والفرح: النص الاول من

كتاب "ديداكيه" (كتب نحو سنة ١٠٠)، والنص الثاني للقديس يوستينس (استشهد نحو سنة ١٦٥).

جاء في كتاب ديداكيه (٩/١٠/١٤): "اما عن سرّ الشكر. فاشكروا هكذا. اولاً على الكأس: نشكرك يا ابانا لكرمة داود فتاك المقدسة التي عرّفتْنا بابنك يسوع، فلك المجد ابدّ الدهور. وعلى كسر الخبز: نشكرك يا ابانا على الحياة والمعرفة، اللتين منحتهما ايانا بيسوع ابنك، فلك المجد ابد الدهور. وكما ان هذا الخبز كان منثورا فوق الجبال، ثم جُمع فصار خبزاً واحداً، هكذا اجمع كنيستك من اقاصي المسكونة في ملكوتك لان لك المجد والقدرة بيسوع المسيح. لا يأكلنّ أحد من سر شكركم الا المعمّدون باسم الرب.. بعد ان تشبعوا، اشكروا هكذا: نشكرك ايها الاب القدوس من اجل اسمك المقدس الذي سكن قلوبنا ومن اجل المعرفة والايمان والخلود التي عرفتنا اياها بواسطة يسوع ابنك؛ فلك المجد الى الابد.. لقد وهبت لنا غذاءً روحياً وشرابا روحيا وحياة ابدية بابنك يسوع. من كان قديسا فليُقبل، ومن لم يكن فليَتُب. اجتمعوا نهار احد الرب واكسروا الخبز وقدموا الشكر لله بعد ان تكونوا قد اعترفتم بخطاياكم، لتكون تقدمتكم نقية. ومن كان على خلاف مع رفيقه، فلا يشترك في جمعيتكم قبل ان يتصالح، لئلا تُدنّس ذبيحتكم".

اما نص القديس يوستينس، فيعطينا بعض التفاصيل الدقيقة للاحتفال: كقراءة نصوص من العهد القديم والجديد والموعظة والطلبات وجمع الهبات لتوزيعها على المحتاجين، والصلاة على الخبز، والخمر الممزوجة بالماء، والتناول ونقل حصة المرضى بواسطة شمامسة: "وفي اليوم المدعو بيوم الشمس (الاحد) يجتمع في مكان واحد، سكان المدينة والريف، وتُقرأ مذكرات الرسل (الاناجيل) وكتب الانبياء، بقدر ما يتسع من الوقت. وعندما ينتهي القارئ، يوجه المترئس موعظة ينبه فيها الحضور، ويحثهم على عيش تلك التعاليم الجميلة. بعد ذلك نقف جميعاً ونرفع تضراعات، وفي نهايتها، يقدَّم خبز وخمر وماء، كما اسلفنا. فيرفع المترئس، بحرارة صلوات وشكراً (افخارستيات)، ما استطاع، ويُجيب الجميع امين. ويجري توزيع الافخارستيا على المشتركين واحداً فواحداً، وينقل الشمامسة منها الى الغائبين" (الدفاع الاول ٦٧/٣-٧).

كانت الجماعات المسيحية، في بادئ الامر، تجتمع نهار الاحد في احد البيوت لعدم وجود كنائس خاصة بها: فيقوم المتقدم (القسيس *presbyteros* اليي) يكسر الخبز في عشاء اخوي، وتُقرأ نصوص من العهد القديم على ضوء حوادث العهد الجديد تتخللها ترانيم ومزامير وصلوات تلقائية.. وعلى مر الزمن تطوّر الاحتفال، بحكم العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية، الى رتب خاصة وطقوس ثابتة.. كما تطور المفهوم اللاهوتي للاحتفال والحضور القرباني والرموز.

❋ الابعاد اللاهوتية

عاشت الكنيسة الاولى الاوخارستيا في القرنين الاولين من دون أن تتطرق بعمق

الى الناحيتين اللاهوتية والعقائدية، لاهتمامها بنقل الانجيل بامانة بالرغم من المضايقات السياسية. ولكن مع استتباب السلام واقبال عدد كبير من الاشخاص الى المسيحية، واهتمام اباء الكنيسة باعدادهم للمعموذية، كان لا بد من محاولات لاهوتية، ضمن الاطر الثقافية والاجتماعية والحضارية، لتقديم مبادئ الايمان وشرح الممارسات الدينية وخاصة الاوخارستيا التي كانت محور احتفالاتهم وصلاتهم. ان آباء القرون الاولى: اغناطيوس (١٠٧) ويوستينس (١٦٥) وايريناوس (٢٠٠) واقليمس الاسكندري (٢٢٠) وافرام (٣٧٣) وكيرلس الاورشليمي (٣٨٧) كانوا اكثر واقعية وفطنة في فهم الرباط القائم بين جسد المسيح والخبز الاوخارستي من اباء القرون اللاحقة. فقد ركزوا على ربط الاوخارستيا بتدبير الخلاص، وعلى الشخص بدلاً من الموضوع "الخبز". وقد اعطى اثنان منهم مبادئ اساسية لعمل لاهوتي، هما: اوغسطينس (٤٣٠) الذي الح على البعد الاسراري للجسد الاوخارستي وثيودورس المصيصي (٤٢٨) الذي ركز على دور الروح القدس.

✵ البعد التدبيري الخلاصي

فهم اباء الكنيسة الاولون الاوخارستيا ضمن منظور "تدبير الخلاص" أي التدبير الهادف الى جمع البشرية في الله الاب بالمحبة، من خلال بكره يسوع. ففي الاوخارستيا حاضر كل سر المسيح الذي يبذل ذاته في الموت والقيامة، ويحقق لنا "الخلاص". لذلك فالاحتفال بالاوخارستيا ليس تكرارا لذبيحة المسيح، انما هو امتداد لكل عمله فينا وبيننا. يقول مار افرام: "جسده، بطريقة جديدة، قد اختلط بجسدنا، ودمه النقي قد امتزج بدمنا، وصوته ولج آذاننا، وبهاؤه في عيوننا؛ هو كله صار بحنانه في وجودنا (البتولية ٢/٢٧). واقليمس الاسكندري في كتابه المربي٤٢/٣٠" يقول: "ان اتحاد الجسد والدم ينشئ لنا المسيح، الروح والكلمة، حياة للصغار والكبار". ومن هذا المنطلق التدبيري، رأى الاباء الاولون ان الاوخارستيا تحقق وحدة البشرية الجديدة. يقول كتاب ديداكيه: "كما ان هذا الخبز كان منثورا فوق الجبال قد جمع ليصير خبزاً واحداً؛ هكذا اجمع كنيستك من اقاصي الارض في ملكوتك" (٤/٩). والتقليد الرسولي (رومية نحو ٢٥٠): "نسألك ان ترسل روحك القدوس على قربان كنيستك المقدسة ليجمع في الوحدة الذين يتناولون" (رقم ٤). ويؤكد كيرلس الاسكندري هذا المفهوم قائلا: "نحن منقسمون الى اشخاص متميزين... لكننا جميعنا نُسبَك في جسد واحد في المسيح عندما نتغذّى من جسده الواحد" (الباترولوجيا اليونانية ٥٦٠/٧٤).

وجاء في ليتورجية القديس باسيليوس الكبير (٣٧٩): "اما نحن جميعا المشتركين في الخبز الواحد والكأس الواحدة، فاجعلنا متحدين ببعضنا البعض في شركة الروح القدس". وقد ذهب اغناطيوس الانطاكي الشهيد الى ابعد في مفهوم الاوخارستيا التدبيري، لـئلا تفهم كطقس سحري؛ فالايمان والمحبة هما اللذان يوحداننا في جسد المسيح ودمه: "اجعلوا

من نفوسكم مخلوقات جديدة، بالايمان الذي هو جسد مخلصنا، وبالمحبة التي هي دم يسوع المسيح" (ترالیان ۱/۸). وفي رسالته الى رومية (۳/۷) يكرر المفهوم ذاته: "اني اريد شرابي دمه الذي هو المحبة غير البالية". وهكذا يؤكد الاباء على ضرورة وجود صلة متينة بين العلامة القربانية (الاوخارستيا) وما نعيشه في الاخوّة البشرية، كما كتب القديس اوغسطينس: "حين نأكل جسد المسيح، نضّم الى أنفسنا البشرية كلها" (الباترولوجيا اللاتينية ۲۳/۱۱۰۲).

✵ الذبيحة

الذبيحة في مفهوم عامة الناس تعني الحرمان ولكن في المعنى الانجيلي الاصيل هي اعمق بكثير: فهي توجيه الكيان كله نحو الله الذي نحبه، وبالنتيجة نحو الاخوة، بحيث يصبح هو نقطة الارتكاز وليس نحن؛ الامر الذي يتطلب تضحيات.. المسيح اخلى ذاته وبذلها على الصليب حبّاً بابيه وبنا نحن اخوته. ولا يمكن فهم الاوخارستيا خارج هذا الاطار. فالاحتفال بالذكرى يهدف الى جعله حاضرا بيننا بعطائه "ذبيحته". وما تناولنا جسده ودمه الا الدخول في الشركة معه والصيرورة مثله قربان محبة. يقول افذيمس الاسكندري. "واذ نمجد المسيح الذي قدم ذبيحته لاجلنا، نقرب بدورنا ذواتنا ذبيحة لمن لا يسره الا خلاصنا" (متنوعات ۳/۷). ونجد منذ البدايات لفظة الذبيحة *Thisia* تطلق على الاوخارستيا في كتاب ديداكيه: "لا يأكل ولا يشرب احد من ذبيحة شكركم الا الذين تعمدوا باسم الرب" (۵/۹). وهذا البعد واضح في رسائل اغناطيوس الانطاكي الذي يؤكد ان منه تنبثق القيامة والحياة: "انكم تكسرون الخبزة الواحدة التي هي دواء الخلود؛ تقدمة معدّة لتحفظنا من الموت وتؤمّن لنا الحياة الدائمة في المسيح.. اني على استعداد لان ابذل نفسي من اجلكم ومن اجل الذين ارسلتم الى ازمير لمجد الله" (افسس ۲:۲۰ و۱:۲۱). وايريناوس: "هكذا اجسادنا، عندما تشترك في القربان المقدس لا تبقى قابلة للفساد، لان لها رجاء القيامة" (ضد البدع ۱۸/٤).

طبيعة حضور المسيح في الاوخارستيا

ان الحضور الاوخارسي لا يمكن فهمه خارجا عن اطار الحدث الفصحي السائد في الاحتفال، بمعنى ان المسيح بكر البشرية الجديدة يبذل ذاته من دون حدود لابيه واخوته. والجماعة المسيحية الاولى رأت في هذا الحدث معنى احتفالها بالاوخارستيا وفاعليته. فقوة الخلاص وكثافته وديناميكية سر الاوخارستيا كلها تتجه نحو ثمرة الحدث الخلاصي، في الجماعة وفي الاشخاص، بحيث يمكنهم من الدخول الى حقيقة المسيح الباذل ذاته. والاباء الاولون اهتموا بهذا الجانب واكدوا على حضوره في الاوخارستيا حضوراً حقيقياً سرياً *sacramental* وليس حضورا ماديا. يقول مار افرام: "الذي يتناوله بشكل جسدي

(مادي) يتناوله عبثا ولا يستفيد منه (الميلاد ٩٨/٤). وكيرلس الاورشليمي يوضح هذا الحضور الروحي: "والان وقد تعلمت واقتنعت ان ما يبدو خبزا ليس خبزا، وإن كان له طعم خبز، ولكن جسد الرب؛ وان ما تبدو خمرا ليست خمرا، وإن كان طعمها كذلك، ولكن دم المسيح.. ثبت اذن قلبك بتناولك هذا الخبز من انه خبز روحاني" (العظة ٩/٢٢). وثيودورس المصيصي يبين دور الايمان في قبول هذا التحوّل: "انه اعطانا الخبز و لم يقل هذا هو شكل (طوبسا) جسدي، بل هذا هو جسدي. ونفس الشيء بالنسبة الى الكأس؛ لم يقل هذه شكل (طوبسا) دمي، بل هذا هو دمي، لانه يريد من خلال هذا الخبز وهذه الكأس، بحصولهما على النعمة وبمجيء الروح القدس، ألاّ ننظر الى طبيعتهما ولكن نعتبرهما بمثابة (أخْ) جسد الرب ودمه" (المواعظ التعليمية رقم ١٠/١٥). وفي هذا المنظور يلزم ان نفهم كلام القديس اوغسطينس: "عندما تسمع قول (الكاهن) جسد المسيح، تجيب: آمين. كن اذن عضوا في جسد المسيح، حتى يكون جوابك (امين) حقيقيا" (الباترولوجيا اللاتينية ١١٠٣/٢٣). وايريناوس: "ان الخبز الاوخارستي، باستدعاء الروح القدس، لا يحجب حضوراً آخر بل يوحد الطعام السماوي وطعام الارض، اذ يجعلهما الشيء نفسه" (ضد البدع٣٤/٤). ويوحنا الدمشقي: "ان استدعاء الروح القدس يحقق ما لا يمكن ان يقبله الا الايمان وحده" (المئة مقالة ١٣/٢).

ومن الواضح ان هذا التحول يتم بفعل الروح القدس. يقول ثيودورس المصيصي: "عندما يحل الروح القدس، انما على شكل مسحة يحل بالنعمة كما نظن، يستقبلها الخبز والخمر المقرّبان، ومنذئذ نؤمن انهما جسد المسيح ودمه.." (الموعظة ٢/١٦). ويؤكد اقليمس الاسكندري: "ان جسده رمز للروح القدس، لان الروح كوّنه، والدم رمز للكلمة،

"وعند اختتام الصلوات: نعانق بعضنا بعضا بقبلة مقدسة؛ ثم يقدم الى رئيس الاخوة خبز وخمر، فيقبلهما شاكرا، مسبحا اب الجميع باسم ابنه يسوع المسيح والروح القدس؛ وكل الحاضرين يرددون: آمين.. وبعد ان يتلو صلاة التقديس ويجيب الشعب آمين، يوزع الشمامسة على الحضور الخبز والخمر المقدسين؛ ويحملون معهم بعض الاعراض المصلى عليها الى المرضى الغائبين. وندعو هذا الغذاء الاوخارستيا أي وليمة الشكر".

القديس يوستينس، الدفاع الاول٦٥

"وعندما تقترب، لا تتقدم باسط اليدين والاصابع منفردة؛ ولكن اجعل يدك اليسرى عرشا ليدك اليمنى؛ لان هذه تتقبل الملك؛ وفي راحة يدك تقبل جسد المسيح قائلا: امين. وتتقدس عيناك بلمس هذا الجسد المقدس؛ ثم تناول"

كيرلس الاورشليمي (العظة ٢١:٢٣)

لانها تسري في الروح كدم غزير" (المربي ٣٠/٤٢). وهكذا نرى ان الابـاء الاولـين لم يستعملوا التعبير الفلسفي الارسطوطاليسي "الاستحالة الجوهرية" التي تعود الى القرن الثالث عشر وتبنّاها المجمع التريدنتيني (١٥٤٥-١٥٦٣) كتعبير اوحد عن سّر حضور المسيح! وانما استعملوا تعابير متعددة للتعبير عن حقيقة الحضور: صورة و رمز؛ حقيقة؛ مادة... وركزوا على شخص المسيح اكثر منه على الموضوع أي على الخبز؛ وانحصر جهدهم في الوصول الى المعاني التي يقدمها هذا السر، لتسير على اسسه حياتهم.. لذا جاءت طروحاتهم قوية وعميقة بمضمونها وقدرتها على الاستقطاب والتغيير والدفع نحو الافضل.

الاب لويس ساكو

تطور القداس

في الطقوس واللاهوت

عشاء الرب، كسر الخبز، الاوخارستيا، فعل الشكر، المائدة المقدسة... عبارات مختلفة للاشارة الى ما نسميه "القداس" —من قدسية الفعل الذي نحتفل به؛ و"القربان" —وهو امتداد للقرابين والتقادم؛ و"السر" (رازا) في التقليد المشرقي. ذلك ان القداس يدخلنا في سر المسيح المصلوب/الناهض وفي سر الكنيسة التي تحتفل بموته وتجاهر بقيامته في انتظار مجيئه الثاني ...

هذا "القداس" عرف تطوراً بحسب الثقافات واللغات، وسرعان ما اصبح رتباً وممارسة ليتورجية تعكس بيئات جغرافية وحضارية ولاهوتية ذات الوان مختلفة، ولكن الجوهر واحد: "ايمان وحياة يتجددان وينموان كل مرة تتم المشاركة في سر المحبة العظيم"، على حد تعبير الاب يوسف حبي.

وكانت الرتب الاولى في هيكليتها المتجذرة في عمق الفصح القديم —بعد ان أضفي عليه بُعدٌ قرباني جديد— والمتّسمة بالاصالة والعفوية، والتي سرعان ما توضحت سماتها انطلاقاً من عنصرين: رتبة كلام الله (او قداس الموعوظين) ورتبة القداس (قداس المؤمنين). وفيما ادلى الاب حبي بمقارنة بين طقوس اربعة، لم يَخفَ ما تعرضت له رتب القداس من خلل او تشويه عبر التاريخ، فخرج بتوصيات عملية، من وحي المجمع المسكوني، في التجديد الليتورجي الذي كانت طقوسنا الشرقية وما زالت بحاجة ماسة اليه.

القداس نواة اصيلة، نمت بسرعة مذهلة، وعرفت الوانا ورتبا ولاهوتا ونماذج حياة وممارسات. القداس محور لقاء المسيحيين، قمة الاسرار، سر التقوى، علامة الوحدة، رباط المحبة والشركة الاسمى... انه: "وليمة الرب" و "العشاء الاخير"، كما نستدل من الانجيل، وهو "كسر الخبز" وفعل "الشكر" بحسب اعمال الرسل والرسائل، وهو "القداس" من قدسية الفعل، و "القربان" امتدادا للقرابين والتقادم، و "السر" او الاسرار المقدسة في تقليدنا المشرقي وغيره، بمعنى الافعال الروحية المقدسة وسريتها، تدخلنا في سر المسيح والكنيسة. لان الحدث الفصحي وذروته في قيامة الرب يسوع، وهو عمق سر المسيح وقلب الحياة المسيحية (اعمال الرسل ٢:٢٣-٢٤، ١٣:٢٨-٣٠، ١قورنتس ١٥:٣-٤، فيلبي ٢:٨-٩، ١ بطرس ٣:١٨، رؤيا ١:١٨).

✵ الفصح الجديد قداس الرسل

كان لفصح العهد القديم بُعدٌ تاريخي يجدد لطف الله تجاه شعبه وتخليصه اياه من نير العبودية، كما كان للقرابين والذبائح الدموية معنى تكفيري وفعل حمد... اما وليمة العهد الجديد فعشاء محبة، سرعان ما احتل المكانة

الاولى في حياة المؤمنين بالمسيح، بحيث غدا "كسر الخبز" الفعل الاهم، فيه يتم تعليم الرسل، وخلاله ترفع الصلوات، وبه تتحقق وحدة الجماعة المؤمنة (اعمال الرسل ٢: ٤٢).

لم يكن للجماعة الاولى رتب خاصة وطقوس ثابتة، بادئ الامر، لكنها لدى قيامها بما صنع الرب والتلاميذ في العشاء الاخير، كانت حريصة على استعادة ما حدث، بارشاد الرسل شهود العيان، مع التأثر بما يجري في الهياكل والمحافل، ولا سيما هيكل اورشليم، مع الفارق الذي الحنا اليه. ولقد حرص المسيحيون، مع مر الاجيال، على حفظ الوديعة واقامة "القداديس" حتى في أقسى الظروف وابان الاضطهادات، مشاركين في سر لا يحق لغير المعمّدين الاشتراك فيه، معتبرين الرتبة، بحركاتها ورموزها والفاظها، اطرا ووسائل؛ اما المعنى والبعد، فايمان وحياة يتجددان وينموان كل مرة تتم المشاركة في سر المحبة العظيم، بالمواظبة، كالرسل ومريم والنسوة في العلية، على الصلاة بقلب واحد، راجين الامتلاء من الروح، ليحدثوا بآيات الله، اذ انه اليوم العظيم، يوم الرب، ومن يذكر اسمه يخلص (يوئيل ٣: ١-٥)، هو الذي يهدي الى سبل الحياة، ويفعم القلوب سرورا بمشاهدة وجهه.

واحتفظت المسيحية باهم العناصر التي كانت تصاحب الفصح القديم، واعطت فصحها الجديد بعدا قربانيا؛ فالقداس ذبيحة ووليمة، تتخللها صلوات وتراتيل، ومزامير وقراءات وتفاسير. واعتبرت العشاية كلها فعل حمد لله على تدبيره العظيم، وكسر خبز يطعم الجياع والعطاش الى البر، ويجمع شمل الاخوة في وحدة الجسد المبذول حبا.

❋ الرتب الاولى

تلك كانت بنية القداس الاولى. وقد كان المسيحيون الاولون يجتمعون في العلية، ثم ما لبثوا، بعد أن ازداد عددهم، ان حوّلوا بعض الهياكل (المجامع) الى كنائس، كانت عائدة لاشخاص آمنوا بالبشرى، أو استخدموا البيوت (اعمال الرسل ٥: ٤٢)، إلى ان اخذت ترتفع الكنائس والكاتدرائيات الرائعة عاليا في العالم كله. والكنيسة من فعل "كنش" أي جمع، فهي المجمع.

وكانت الاحتفالات تفتتح بوجبة طعام يتقاسمه الاخوة بفرح وشفافية روح (اعمال الرسل ٢: ٤٦)، ثم يقوم احد الرسل بكسر الخبز ويبارك الكأس، فيأكل الجميع ويشربون باتحاد فكر وانسجام قلب ونقاء حياة. والمشتركون اعضاء في الجسد الواحد، راسه المسيح. وحين اخذ البعض يفرطون في الاكل والشرب، حذرهم بولس، واعاد الممارسة الاوخارستية الى اصالتها (١قورنتس ١١: ١٧-٣٤). وابتدات عادة حمل الخبز المقدس الى المرضى والعاجزين، ثم عادة حفظ شيء منه للشفاء والزاد الاخير، إذ لم يكن القداس يقام يوميا! ودعيت لقاءات المؤمنين و "عشاءاتهم"، ولائم محبة "اغابي"، يصفها ترتلياس باسهاب؛ وتميز "الديداكيه" بينها وبين صلاة الشكر (الاوخارستيا) شارحة بنية

الاخيرة هكذا: اولا على الكأس، ثم على الخبز المكسور: "كما جمع الخبز المكسور الذي كان مبعثرا في الجبال ليصير خبزا واحدا، كذلك اجمع كنيستك من اقاصي الارض في ملكوتك". وتقول: لا يأكل ولا يشرب احد من ذبيحة الشكر الا الذين عُمِّدوا، وبعدئذ الشكر، ودعاء "تعال يا رب" (مارانا تا) —وثمة اشارة الى البخور في النسخة القبطية. وتحدد الديداكيه يوم الرب للاجتماع، بعد الاعتراف بالخطايا، وتسمي الفعل "تقدمة طاهرة" و"ذبيحة طاهرة" (الارقام ٩، ١٠، ١٤).

ومعلوم ان السبت المقدس في العهد القديم انقلب يوم الاحد في الجديد، فهو اليوم الاول من الاسبوع، يوم الشمس. وتؤكد ذلك معطيات الكتاب المقدس والكتابات الاولى (انظر: كتاب السبت والاحد، الكلسيك ١٩٨٢).

❋ فعل دائم ومنتظم

آمن الرسل والتلاميذ ومن اعتمد على ايديهم بكلام الرب، واخذوا يقيمون القداديس في كل مكان، باكثر من لغة، متمسكين بالتقليد، ومستوحين ايضا عادات البلاد، مكملين وصية المعلم "اصنعوا هذا لذكري"... ونتجاوز مرحلة التطور الاولى ونقول: ان "القداس" اتخذ ملامح واضحة منذ السنوات الاولى للمسيحية، ولعله الاشد وضوحا بين سائر الاسس والركائز والممارسات؛ وسرعان ما عرف ضوابط وانظمة ورتبا وتقاليد. فان اقليمندس الروماني يقول: "لقد أُمرنا بان نفي ما علينا من قرابين وعبادة، لا كيفما يكون وبغير نظام، ولكن في مواعيد واوقات معينة".. ويضيف بان المسيح حدد بنفسه اين وبواسطة أي خدام يجب ان نفي ما علينا، لكي يتم كل شيء بقداسة وفقا لارادته، فيكون العمل مرضيا، ويتبارك الجميع... (رقم ٤٠ من رسالته الى القورنثيين، سنة ٩٢-١٠٢).

ثم كان التركيز على الوحدة، بحيث اصبح شائعا القول انه كما ان لنا ابا واحدا، هكذا ليس لنا سوى جسد واحد وكأس واحدة، ومذبح واحد (اغناطيوس الانطاكي، رسالته الى الفيلادلفيين، سنة ١٠٧). قداس واحد اذا على المذبح الواحد في كل كنيسة.

ويؤكد يوستينوس وغيره ان قراءات من العهدين القديم والجديد تتخلل القداس، والوعظ لمن يترأس الاحتفال، وان ثمة صلاة المؤمنين، وقبلة السلام، وافعال شكر على الخبز والخمر والماء، والكسر، والتوزيع أي المناولة (الدفاع الاول، ٨٦). وقد حفظت لنا تشريعات الرسل، وأنافورا (قداس) أدي وماري، وقداس مار يعقوب، وعهد الرب، والتقليد الرسولي لهيبوليت، اهم العناصر التي كانت الكنائس تستخدمها منذ اقدم العصور: وهذه ابرزها:

١. رتبة كلام الله، فيها صلوات وتطواف (دخول احتفالي)، تراتيل، قراءات من العهدين، وعظ، مناداة (طلبات).

٢. رتبة القداس، وفيها التقادمة، يسبقها السلام او يتأخر قبل التناول، والتقديس (الأنافورا)، والكسر والرسم، التناول، صلوات شكر وتوبة وبخور.

جميع الطقوس تلتقي في هذه العناصر المشتركة القديمة جدا، مع اختلافات في التفاصيل، كتسبيق بعض العناصر على غيرها، وعدد القراءات، وتنوع الصلوات والتراتيل، والحركات والرموز والثياب... وتتعدد في الطقس الواحد ايضا الانافورات وعناصر المناسبات، لذا كانت الطقوس متعددة، تلتقي جميعا في ركائز ثابتة توحدها في ما يسمى بالقداس.

مقارنة سريعة بين الطقوس الاربعة: الكلداني، السرياني، اللاتيني والبيزنطي، توقفنا على جلية الامر:

١. صلوات واناشيد استعدادية، في جميع الطقوس، لأعداد القرابين، سقطت مع الزمن، وما تزال في السرياني والبيزنطي، ويقيمها الاخير على مذبح صغير وراء جدار الايقونات (ايكوناستاسيس).

٢. كان الكلدان والآثوريون يدخلون الهيكل بتطواف، بعد صلاة الصباح، بنشيد (لا خومارا= اياك يا رب الكل نشكر) وبخور، والا فبالبسملة ونشيد الملائكة (المجد لله في العلى) -وقد كان هذا النشيد مستعملا في القداس السرياني التكريتي، ونلقاه لدى الموارنة في صلوات المساء والليل والصباح. ويشترك نشيد (قدوس الله= قديشا) بين الكلدان والسريان، وهو بصيغة المخاطب لدى الآخرين. وبينما اولاه الكلدان والسريان معنى مسيحانيا، اعطاه البيزنطيون معنى ثالوثيا، واكتفى اللاتين بذكرها باليونانية واللاتينية مساء الجمعة العظيمة.

٣. تستمد جميع الطقوس قراءاتها من اسفار العهدين القديم والجديد. ويحافظ الطقس الكلداني على ترتيب قراءات العهد القديم كما لدى اليهود: فالاولى من التوراة، والثانية من الانبياء، اما الرسالة فمن رسائل مار بولس عادة، فنص من الانجيل وفقا لتوزيع طقسي يتناول مدار السنة حسب سوابيع (شاووعي)؛ واستعيض بترجام أي شرح عن الوعظ الذي للاسقف او الكاهن. وفي الطقس السرياني ستة قراءات، ثلاثة من العهد القديم وثلاثة من العهد الجديد، مع مقدمة مطولة للرسالة والانجيل بينما يرتكز الطقس اللاتيني على رتبة التوبة في مطلع القداس، وتسبحة الملائكة متطورة، وردّات ومزامير تتخلل القراءات. وقد استوحى التجديد اللاتيني، في القداديس الاحتفالية، الاحتفاء بالانجيل بتطواف وشموع وبخور وتجويد، كما في الطقسين السرياني والبيزنطي.

٤. قد تسبق التقادمة أو تتأخر، وفقا للطقوس، وترتبط بقانون الايمان، ورتبة السلام والبخور، وقد يجري تطواف هو قديم في الطقوس.

٥. نادرا ما كان الطقس الواحد أنافورا واحدة، وهو دليل تنويع وغنى طقسي. تبدأ

الأنّافورا بفعل ثالوثي يبرز فيه التدبير حتى يكتمل التقديس. وقد حجب اللاتين دور الروح القدس، وركزوا على سرد العشاء.

٦. ذكر الاحياء والاموات، وذكر العذراء مريم والرسل والشهداء والقديسين، والرؤساء الكنسيين والمدنيين، والمعوزين والمرضى والخطاة، وذلك في جميع الطقوس.

٧. رتبة الكسر والرسم تبرزها الطقوس كالكلداني والبيزنطي والارمني والقبطي، بينما يجريها السرياني بسرية، ويختزلها اللاتيني.

٨. صلاة (ابانا) عامة في جميع الطقوس، كنشيد (قدوس)، وقد تأتي اكثر من مرة في بعض الطقوس.

٩. تعرض الاشكال المقدسة بشكل او بآخر وفقا للرتب، تصاحبها اقوال او الحان تعدّ المؤمنين للتناول؛ ويتناول الكاهن أولا، ثم الآخرون، إما تحت الشكلين، او تحت شكل الخبز وحده. ويستعمل الخمير لدى الشرقيين، والفطير لدى الغربيين، ويختلف شكل الخبز بحسب الطقوس.

١٠. يختم القداس في الطقوس كلها بصلوات شكر وبركة.

ولا بد من ان نقول بان لريازة الكنائس ووضع المذابح واشكال الثياب الطقسية خصوصيات من طقس لاخر، وهي حصيلة تفاعل حضاري.

* في كل العصور

وخشية الانفلات والتلاعب، حاولت الكنائس ضبط رتبة القداس بقوانين واحكام دقيقة، اظهرت ايضا جمودا لم يخدم دوما حيوية الطقس، كالتركيز المفرط على كلمات التقديس بحرفية خانقة، واخضاع القداس لفلسفة الاسرار ولاهوته بمنحى تقليدي مدرسي، واستخدام الصورة والمادة، والجوهر والعرض، بحيث تضاءل دور الثالوث، ولا سيما الروح القدس، ونشبت مشادة طويلة بين اللاتين والبيزنطيين حول عمل الروح (ايبكليزيس). وحصل تأكيد مبالغ على "القربان الاقدس"، على حساب المشاركة في القداس، الى حد احلال السجود للقربان محل كسر الخبز ومقاسمته بين الاخوة، فكان بيت القربان، وعرض القربان في شعاعات محاطا بالشموع والبخور، واقامة تطوافات بل مؤتمرات قربانية لم تعط دوما المكانة الصحيحة للقداس، وصولا الى تناول روحي متواتر، والاكتفاء بتناول يتيم في السنة اتماما للوصية...

* نفحة الروح

وازاء الكثير من التحجيمات والتشويهات التي لحقت بالقداس ولا سيما في

الكنائس التي تأثرت بالكنيسة اللاتينية، كان لا بد من تجديد يعيد الى القداس بنيته الاصيلة. وتحرك الكثيرون هنا وهناك، وفي سائر الطقوس، لخلق تجديد يلائم الزمن والتطور الحاصل في الفكر والحياة. فقامت مبادرات تَوَّجَها المجمع الفاتيكاني رسميا، فكانت نقلة حقيقية من عهد طقوسي جامد الى عهد حياة طقسية متفاعلة ومؤثرة، لان ميزة الجماعة الكهنوتية، بمعنى الكهنوت العام، تتجسد بقدسيتها ونظاميتها في الاسرار والفضائل، ذلك لان المؤمنين، "باشتراكهم في ذبيحة الاوخارستيا، ينبوع وقمة كل حياة مسيحية (...) يتجددون بجسد المسيح، بالمائدة المقدسة، ويظهرون بشكل جلي وحدة شعب الله التي يعنيها ويحققها، تماما وبنوع عجيب، هذا السر العظيم" (دستور الكنيسة ١١). وجاء دستور الليتورجيا ليؤكد ان الطقوس عمل الخلاص، هي ذروة حياة الكنيسة وينبوعها، ولا سيما الاوخارستيا، وأن العمل الطقسي ليس عملا فرديا، بل عمل الكنيسة جمعاء. ويحدد المجمع اهم المبادئ التي ينبغي ان يسير بموجبها أي تجديد من شأنه ان يمكّن المؤمنين من مشاركة واعية وفعالة:

١. اعادة النظر في رتبة القداس، فتوجز، مع الحفاظ على الجوهر، بعد دراسة لاهوتية تاريخية راعوية متقنة.

٢. اسناد القداس بقراءات غنية من الكتاب المقدس، اذ ينبغي ان يحتل كلام الله المكان الاول.

٣. الزامية الوعظ وشرح اسرار الايمان للمؤمنين.

٤. استعمال اللغة الام المحكية في الطقوس.

٥. امكانية اقامة القداديس، عصر الاحد بل عصر السبت ايضا.

٦. اشتراك المؤمنين في التناول كجزء متمم للمشاركة.

٧. تحبيذ الصيغة الجماعية بتقديس مشترك.

وانطلق هذا التجديد من نضوج فكر لاهوتي اعتبر قسم سماع (شامع) كلمة الله اساسيا، فيه يتحقق تجسد الكلمة في المسيح الوسيط والشفيع الاوحد، دخولا الى قسم اكتمال التدبير الالهي والخلاصي، ثمرته غفران ومصالحة، فلقاء حب واتحاد بالمسيح الحي، وبروحية روح ينفح الانسان بنّوة الهية بفضل اشتراكه بالذبيحة العظمى، محققا اتحادا انسانيا شاملا بالجسد الواحد، ومانحا نشوة سماوية عميقة بالمشاركة والتقاسم، فيمتد المؤمنون في ملء قامة المسيح نحو حياة ابدية في ملكوت الله الدائم السعيد.

افاد اللاتين من بعث التجديد، فاعتبروا القداس وليمة محبة، فأدار الكاهن وجهه الى الشعب، وعملوا على تقريب المذبح، وخفف الكثير من الصور والتماثيل مع التركيز على الصليب والانجيل، ووزعت اسفار الكتاب المقدس على مدار اكثر من سنة، ووضعت ثلاث انافورات جديدة، وعشرات طلبات عامة، وعدلت صلوات كثيرة، واعطي دور اكبر لمشاركة الشعب، مع التأكيد على التناول، وبُسِّطت الحركات والرموز والثياب، وحُبذت

الجماعية، فكانت الانتعاشة.. ليتها تسري على طقوسنا الشرقية، انطلاقا من اصالة خاصة بنا، ووصولا الى حداثة نفتقر اليها، فتتحقق غاية القداس: حضور المسيح الذي يقدسنا ويشركنا في تمجيد الله، كشعب مقدس في ملكوت روحي؛ فنصبح ذبيحة حية مقدسة مرضية لله، ونشهد للرجاء والحب الذي نكسره خبزا ونتقاسمه اخويا في شركة جسد واحد، بفضل حبرنا ورأسنا واخينا البكر يسوع المسيح تحت خيمة الاب الشامل رب الكل، فيتحول العالم، بل الكون، متجددا ومتناميا في الكمال، الى خليقة جديدة، مجسدا روعة الاتحاد بين الله والانسان، وشاهدا لآية الحب العظيم.

الاب يوسف حبي

١٩ المسيحي والمعاصرة

السنة الثلاثون: تموز - ت١ ١٩٩٤

الفهرس

• افتتاحية: في البحث عن ايمان لعصرنا	رئيس التحرير
– من وحي الانجيل: الام في مجد الله	أ. لويس قصاب
– ش.ز.: ندوة "الكنيسة في خدمة السلام والانسانية"	أ. لويس ساكو
– ابت هذه مشكلتي: الاغتراب والدعوة	أ. يوسف توما
• آفاق المعاصرة في اللاهوت	أ. لوسيان جميل
• من اجل قراءة جديدة للكتاب المقدس	أ. يوسف عفاص
• منتدى الآراء: الايمان في الحياة المعاصرة	(...)
• الكنيسة وتحديات العالم المعاصر	أ. جرجس القس موسى
– من عام الى عام... كتبت "الفكر المسيحي"	(...)
– كلمة التحرير: من اجل ديمومة "الفكر المسيحي"	الفكر المسيحي
– هيئة التحرير حول طاولة "الفكر المسيحي": تقييم وآفاق	جورج ياقين جدولا وطلال وديع عجم
– مغامرة عمرها ٣٠ عاماً!	أ. يوسف عفاص
– "الفكر المسيحي" مدرسة فكرية في كنيسة العراق	أ. جرجس القس موسى
• طقوس حية معاصرة	أ. يوسف حبي
• البشرى الانجيلية لعالم اليوم	أ. يوحنا عيسى
• الانسان المعاصر والخلقية المسيحية	أ. لويس ساكو
• الى مناصري "الفكر المسيحي": شكر وتتييم	(...)
• طاولة الشباب: حياة الايمان في عالم متحول/قيم الحب والجنس	عبد الأحد يوحنا
– السحبة السنوية/المسابقة	(...)
– من نتاج القراء: – الاسطورة الاخيرة	فياض صايوه يوسف (منقول)
– حنين الى الوطن	سناء ناصر
– صلاة من الاعماق	امل ميخا جبو
– مناجاة صوت المحبة	
– انباء	ابو فادي
– همسات	
– تعليقات وآراء	(...)
– والذكريات ـ لدى المسن	الفكر المسيحي

(...) قصة "برج بابل" في سفر التكوين تطرح مشكلة "بلبلة الألسنة" حين لم يعد الناس قادرين على التخاطب والتفاهم وليست المشكلة في الأساس سوى مشكلة فقدان لغة مشتركة! وفي سفر أعمال الرسل، تبرز رواية "العنصرة" التضاد بين ما جرى في بابل وما يجري في أورشليم! فلقد امتلأ الرسل من الروح القدس وأخذوا يتكلمون بلغات مختلفة "على ما وهب لهم الروح أن يتكلموا"، فكانت هناك لغة مشتركة! أولسنا ازاء معجزة "بشرى" خاطبت الناس وحققت بينهم شركة تمخض عنها شعب جديد "بقلب واحد ونفس واحدة"؟!

هذه "البشرى" تبدو اليوم وكأنها فقدت ديناميكيتها –كي لا نقول مصداقيتها– ولاسيما حين نلمس أنها لم تعد تستهوي بني عصرنا... وبالأكثر حين نتحقق اننا لم نعد نتخاطب بلغة واحدة مشتركة! (...)

انها مسألة "البحث عن ايمان لعصرنا"!

(راجع كتاب "الافتتاحيات"/ص ٤٧٤)

أي اله؟ أي كتاب؟ أي مسيح؟ اية كنيسة؟ أية طقوس؟ اية خلقية؟ ستة اوجه سلطت عليها الاضواء من زاوية "المعاصرة"، وطرحت بشأنها تساؤلات جوهرية، بدافع البحث عن "رؤية" للايمان تكون قادرة ان تخاطب المسيحيين اليوم، بشكل تصبح معها المسيرة الايمانية برمتها مغامرة باتجاه بشرى تأسرهم وتأخذ بمجامع قلبهم...

والجديد في هذا العدد الخاص الاخير انه ادى وظائف عدة: ففيما احتفظ بأبواب المجلة الثابتة (١٦ص)، ادرج ملزمة وسطية (١٨ص) خلدت ذكرى "مغامرة عمرها ٣٠ عاماً" –وقد أصدت لتقييم هيئة التحرير آنذاك– متزامنة مع تسليم تحريرها وادارتها الى الاباء الدومينيكيين –وتلك مبادرة فريدة كان هدفها الوحيد "ديمومة **الفكر المسيحي**"، وهي عروس متألقة في اوج مجدها! وذلك حرصاً على استمرار هذا الصوت النبوي في كنيسة العراق! لذا أدرج في عددها الاخير (رقم ٣٠٠/ك١ ١٩٩٤) كشاف صغير غطى السنوات الاربع الاخيرة (١٩٩١-١٩٩٤) من مسيرة "الفكر المسيحي" في عهدة روادها الاوائل.

افاق المعاصرة في اللاهوت

لم يكد عدد خاص يخلو من مقال للاب لوسيان جميل، يدلي فيه بدلوه من وجهة نظر انترويولوجية! وتلك طريقته في التعبير عن الايمان من منطلق سعي الانسان الى السعادة وشوقه الى الافضل ورفضه أية استلابات تُمارَس على حريته...

وحين يجري الحديث عن اللاهوت المعاصر، او بالاحرى عن نظرة معاصرة الى اللاهوت، فتلك فرصته ليقول كلمة في لاهوت يتجاوز الاجوبة التي اعطاها الانسان للاسئلة الجوهرية -وكانت احياناً ممتزجة بالاساطير والمعتقدات الغيبية- سيراً الى الحقيقة التي تتكشف له، مرحلة بعد اخرى. فاذا كانت البشرى الانجيلية هي هي، الا ان الكلام عنها اتخذ مسارات متعددة عبر الحضارات والاجيال. لذا وجب ان يبحث اللاهوت عن لغة ومضمون يكونان في خدمة الايمان، وان يعاد النظر في المنهجية التي اعتمدها اللاهوت التقليدي عبر الاجيال، بلوغاً الى لاهوت يعتمد الانتروبولوجية، أي لاهوت يتصف بالجذرية العلمية الواقعية، وتنطلق قاعدته من خبرة الانسان وتطلعاته...

اللاهوت، او علم اللاهوت، ترجمة لكلمة (*Theologia*) التي تعني الكلام عن الله، سواء كان هذا الكلام عفويا بسيطا، ام كان كلاما يستند الى فكر ومنهجية. وبما ان اللاهوت كلام انسان، فهو يتصف بكل صفات الكلام البشري ويحمل كل سماته، ومنها انه كلام خاضع للتطور، بحسب تطور فكر المتكلم ورؤيته الحضارية والشخصية للامور، وكذلك بحسب وجهة النظر التي يتكلم منها والغاية التي يتوخاها من كلامه عن الله.

والتطور الذي يخضع له الفكر اللاهوتي، شأنه شأن أي فكر آخر، ليس تطورا عشوائيا، ولكنه تطور يتبع قوانين وقواعد خاصة نستطيع دراستها بمنهجية مناسبة لمعرفة شكل هذا التطور ومعانيه واتجاهاته. ذلك ان هذا التطور ناتج عن مسيرة الانسان الحضارية نفسها، وهي مسيرة تاريخية جدلية تنقل الانسان من مرحلة حضارية الى اخرى، فتتغير حياته وفكره وصورة الهه ايضا، كما تتغير بالفعل ذاته كلامه عن هذا الاله. لذلك نجد الانسان، في بداية عهده، يعطي اجوبة اسطورية بدائية عن الاسئلة التي كان يلقيها على نفسه. ثم تحولت هذه الاجوبة الى اجوبة عقلانية فلسفية في

في فترة لاحقة، حتى وصل الانسان الى الجواب العلمي البرهاني في كل المجالات المعرفية، ومنها مجال كلامه عن الله.

❋ طبيعة المعاصرة اللاهوتية

وهكذا يمكننا ان نصف المعاصرة اللاهوتية بانها تجاوز مستمر لكل الاجوبة "ما قبل العلمية"، من اساطير ومعتقدات غيبية وفلسفات وايديولوجيات مختلفة، لكي يصل اللاهوتي الى الحقيقة المجردة والجواب العلمي الموحد، رغم قبول المعاصرة بالتعددية المؤقتة.

ويقودنا هذا التعريف الى ان نعتبر المعاصرة اللاهوتية مواكبة للحقيقة التي تتكشف للانسان مرحلة بعد اخرى. وهذه المواكبة ملزمة في اللاهوت، كما هي ملزمة في الشؤون المعرفية الاخرى. فكما ان دوران الارض حول نفسها اصبح حقيقة ملزمة بعد ان ثبتت حقيقته، كذلك يصير أي اكتشاف لاهوتي ملزما بعد ان يثبت بالدليل البرهاني؛ ولذلك فان أي كلام متقدم عن الله يلغي كل ما سبقه من كلام حتما، لان الكلام القديم يصبح مخالفا للحقيقة التي ينشدها الانسان، ليس من اجل الحقيقة المجردة بحد ذاتها فقط، ولكن من اجل الانسان نفسه الذي تحرره هذه الحقيقة وتطور حياته، لان "الحق يحرر" دائما، كما يقول انجيل يوحنا.

من هنا نفهم كيف يكون الايمان المسيحي "معاصرة" بالنسبة الى الايمان الذي سبقه. كما نفهم ان عملية التكميل التي تكلم عنها يسوع المسيح: "لم آت لانقض بل لاكمل"، كانت قفزة نوعية في معرفة الانسان لالهه، فغيرت مجرى تاريخ البشر. غير ان ما يهمنا هنا بالاكثر انما هو كلامنا اللاهوتي عن هذا الاله الذي ظهر بيسوع المسيح. فالبشرى الالهية نفسها لم تتغير، ولكن الكلام، عن هذه البشرى هو الذي تغير وأخذ مسارات متعددة عبر الاجيال والحضارات. اما هذا الكلام فلا زال معرضا للتغيير والتطوير، سواء كان ذلك بتعميق اكتشافنا للبشرى الالهية ام عبر دقة التعبير عنها.

❋ المعاصرة والايمان

وقد نتساءل: ترى ما اهمية صحة التعبير اللاهوتي ودقته، ونحن نعرف ان الايمان هو العامل الاساسي الفاعل في اية علاقة حقيقية مع الله. ويكون الجواب واضحا عندما نعرف ان اللاهوت خدمة اساسية للايمان، وان المعرفة اللاهوتية تمهد الطريق امام فعل الايمان الذي هو فعل حب وثقة واستسلام، لا يصدر عن العقل بل عن القلب. فاذا كان العقل اللاهوتي كفوءا في معرفته لله بطريقته الخاصة، يصير ايضا قادرا على تقريب الله من الانسان، لان العقل يعطي المصداقية للقلب ويدعمه في ايمانه، اضافة الى فعل البشرى الالهية وتأثيرها على القلب. اما اذا لم يكن العقل اللاهوتي كفوءا في اداء وظيفته الخاصة، فان القلب يتأرجح بين

الشك واليقين ويصبح الانسان معرضا للضلال الايماني. فاللاهوت المعاصر يبعد عن الانسان مخاطر الالتباس الكثيرة، مثل مخاطر الخلط بين المعنى والمبنى في القصص والمعطيات الكتابية اللاهوتية، او مخاطر الخلط بين الايمان والمعتقدات اللاهوتية الكثيرة. كما ان اللاهوت الرصين يتحاشى الخلط بين العوامل التي تتركب منها العقائد: فهناك عامل البشرى الايمانية، الى جانب عامل التعبير الحضاري الانتروبولوجي والفلسفي الذي يؤطر البشرى ويحملها دون ان يمتزج او يتساوى معها، تماما كما تحمل الموجة الراديوية المسماة "بالموجة الحاملة" الموجة الممثلة للصوت والتي تسمى بـــ "الموجة المحمولة" التي تبقى في الجهاز وتصل الى المستمع؛ بينما تتلاشى الموجة الحاملة بعد ان تؤدي دورها الاساسي في ايصال الموجة المحمولة الى جهاز الاستقبال. غير ان اللاهوت العلمي يشخص وجود عامل اخر في تركيبة العقيدة قد يؤدي تجاهله الى نقص كبير في فهم العقيدة، الا وهو السبب والغاية التي من اجلها تكونت تلك العقيدة بشكلها المعروف! ولذلك يمكننا ان نسميه بالعامل الايديولوجي الخفي لانه يقع في البنية التحتية للعقيدة.

ويمكننا بشكل عام ان نقول بان تجاهل أحد هذه العوامل الثلاثة او الخلط بينها قد يؤدي الى كارثة لاهوتية وايمانية كبيرة. فالمنهج اللاهوتي العقيداني قد يرسم لنا صورة عن الله تكون من ابتكار حضارته الخاصة، او لتلبية حاجة حضارية. وقد يشوه هذا المنهج حقيقة يسوع المسيح الانسانية عن طريق المعاني الاونطولوجية التي يعطيها لنا بدلا من المعاني الانسانية السامية التي تقدمها لنا الاناجيل. وهكذا يضعنا اللاهوت العقيداني امام اله غريب عنا، ويفرض علينا، باسم الايمان، صورة ليسوع لا تغري احدا. اما نتيجة كل ذلك فمعروفة: ضعف ايمان عام، وروحانية سطحية ليس فيها غير الظاهر والقشور، واخلاقية شريعانية اساسها الخوف، لا الحب؛ ولهذا يصير الايمان شيئا هامشيا في حياة الافراد والمجتمعات. ولن نغالي اذا قلنا بان هذا اللاهوت العقيداني، منذ نشأته، خلّف المتاعب والانشقاقات: ففي غياب الايمان الحقيقي الحي، يكون المجال مفتوحا لكل اشكال الانحرافات والاجتهادات الفكرية المتناقضة.

✻ المعاصرة في المناهج اللاهوتية المنظمة

بعد هذا التعريف الاولي بالمعاصرة اللاهوتية وطبيعتها وضرورتها، ابدأ من حيث انتهى اللاهوت التقليدي الذي ظل مسيطرا على فكر الكنيسة اللاهوتي ما يقارب الثمانية قرون. فاذا كانت المعاصرة تجاوزا للاسطورة وللمعتقدات الغيبية والفلسفية باشكالها، فبعد ان نستعرض منهجية لاهوتنا التقليدي، لا بد لنا حينذاك ان نفهم سبب الدعوة المعاصرة الى تجاوز مثل هذا اللاهوت.

لاهوتنا التقليدي: ولكي نفهم لاهوتنا التقليدي جيدا، يجب ان نحيط باولياته. فقد كان هذا اللاهوت، كما نجده في العهد الجديد، ولا سيما في الاناجيل، لغة دينية فريدة

تبشرنا بيسوع المسيح وبتعاليمه الجديدة في ابوّة الله للانسان، واخوّة البشر جميعا. علما بان الاناجيل تخاطب قلوبنا اكثر مما تخاطب عقولنا. ثم صار هذا اللاهوت اجتهادا عقليا بسيطا يخدم التبشير والمناظرة والمجاهدة مع خصوم الايمان. بعد ذلك دخل اللاهوت مرحلة جديدة مع حقبة المجامع الكبرى بين القرن الثالث والسابع، وهي حقبة سعت الكنيسة فيها الى تحديد ايمانها تحديدا لاهوتيا دقيقاً، عن طريق الفكر الفلسفي الشائع انذاك في المدارس اللاهوتية وقد كانت جميعها، بحكم الحضارة السائدة، ورغم اختلاف اتجاهاتها، متفقة مع بعضها فيما يخص رؤيتها الاونطولوجية الثنائية الغيبية. الامر الذي حوّل هذا اللاهوت الى عقائد مفروضة على المؤمنين باسم الايمان، على اساس ان هذه العقائد هي التعبير الحقيقي الوحيد عن الحقيقة الالهية.

وهكذا نلاحظ كيف قام لاهوتنا التقليدي، وهو بعد في دوره الاول، على التباس حقيقي: يبيع للمؤمنين الحصان والبردعة بصفقة واحدة! ذلك ان هذا اللاهوت قد خلط حقا بين الايمان المسيحي والفكر الحضاري الذي حمل هذا الايمان وحاول ان يعبر عنه. علما بان الايمان من عمل القلب وليس من عمل الفكر. ولذلك الايمان لا يخطأ، بينما يتعرض الفكر الى الخطأ والتصحيح المستمرين.

المدارس الافلاطونية: لقد اتصف الفكر اللاهوتي، في حقبة العقائد، بنظرته الافلاطونية الثنائية الغيبية التي كانت تعتقد بان عالم السماء هو عالم الحقيقة الاولى التي منها جاء عالم الارض. ولذلك كان لاهوت هذه المدارس لاهوتا افلاطونيا جعلها تتكلم عن المعطيات الانجيلية بشكل اونطولوجي يحوّل القصة الدينية الانسانية الى حدث وكأنه وقع بالفعل، كما ترويه القصة حرفيتها! وسرعان ما تصير هذه القصة اساسا لاستنتاجات لاهوتية منطقية صارمة تشكل مجموعها العمل اللاهوتي الذي سمي بعقائد الايمان!

مدرسة توما الاكويني: غير ان لاهوتنا المسيحي قد طرأ عليه تغيير كبير مع القديس توما الاكويني (١٢٢٥-١٢٧٤)، لاهوتي الكنيسة الكبير، الذي بمجهود كبير، حوّله من لاهوت افلاطوني الى لاهوت ارسطوي، فنشأ ما يدعى باللاهوت التوماوي *(Le thomisme)* الذي صار اكثر معاصرة من اللاهوت الافلاطوني التقليدي.

وقد لا يعود ما نعتبره اليوم ضعفا في المنهج التوماوي الى منطق توما الفلسفي اللاهوتي، وانما بالتاكيد الى اسسه ومنطلقاته اللاهوتية. فتوما، كما نعلم، لم يكن يرى بُدا من اعتماد العقائد اسسا ومنطلقات للاهوته. وقد قبل هذه العقائد كما هي، على علاتها، على انها تعابير ايمانية عن الحقيقة الالهية، ولا مجال للخطأ او للاجتهاد فيها. ولذلك راى ان مسؤوليته اللاهوتية تنحصر باستخدام الفلسفة الارسطوية لتبيان معقولية هذه العقائد، وهكذا سمي الفلسفة بخادمة الايمان!

غير ان توما الاكويني يبقى افلاطونيا في لاهوته، رغم الفلسفة الارسطوية التي

يتبناها، طالما انه يضع العقائد اساسا ومنطلقا للاهوته، وطالما انه يقبل بحرفية تعبير العقائد، ويوحد بين جوهر الايمان وبين صيغته التعبيرية الحضارية والفلسفية، ولهذا يبقى لاهوته لاهوتاً ثنائياً مثل سابقه اللاهوت الافلاطوني.

وقد حاول توما الاكويني، مستعينا بالفلسفة الارسطوية، ان يفلسف الثنائية الاونطولوجية (ثنائية الكينونة) ليحولها الى لاهوت مقبول فكريا، رغم ما نجد فيها اليوم من المشابهة الانتروبولوجية (*Anthropomorphisme*) حيث يميل الانسان الى تشبيه الله بالانسان. فاعتمد توما لذلك مبدأ فلسفيا هو مبدأ تماثل الوجود (*Analogie de L'être*) الذي يسمح بمعرفة الكائن غير المنظور عن طريق الكائن المنظور، بسبب اشتراكهما بصفة الوجود.

ولكننا نتساءل اليوم: كيف يقدر توما ان يفترض مثل هذه المقدمة الغيبية التي تقول بان الله كائن سماوي، وهي نفسها تحتاج الى اثبات لاهوتي: هل يجب ان يكون الله كائنا لكي يكون موجوداً؟ لا شك ان ايمان توما العقائدي حمله على ان يقبل حقيقة كينونة الله، ويتكلم من ثم عن هذا الاله عن طريق مبدا التماثل المذكور. وبسبب هذا الخلط بين الكينونة والوجود وقعت منهجيته اللاهوتية في التباس شديد! فتوما هنا لا يعرف ان العقيدة تتركب من ابعاد وبنى متعددة متفاوتة القيمة والمعنى، ولذلك فهو يخلط بين الايمان وبين ما يعبر عنه، ويخطئ عندما يحسب ان كينونة الله السماوية مسألة ايمانية لا جدال فيها، مع انها مسألة معتقد لا غير، وشتان بين المعتقد والايمان.

المنهج البديل: لقد حاول كثير من اللاهوتيين منذ منتصف قرننا الحالي ايجاد منهج بديل للمنهج العقيداني التقليدي، يقدر ان يتجاوب مع متطلبات الفكر الحضاري المعاصر ويلاقي اللاهوت الغيبي الذي يعرّض الانسان لمخاطر الضلال والاستلاب. غير ان اغلب هؤلاء اللاهوتيين بقوا لاهوتيين توفيقيين لم يقدروا ان يتجاوزوا الفكر الثنائي بشكل جذري، ولذلك لم يفعلوا شيئا غير تبديل ايديولوجية بايديولوجية اخرى، رغم التوجه الانساني الذي نجده عند جميعهم.

✻ من اجل لاهوت يعتمد الانتروبولوجية

من هنا كانت حاجتنا الماسة الى لاهوت يتصف بالجذرية العلمية الواقعية، وهذه الجذرية لا نحصل عليها الا من خلال لاهوت يعتبر الله ظاهرة انتروبولوجية يمكن ان نتكلم عنها بيقين، لان الله يكون فيها موضوعا لخبرة الانسان الذاتية والشخصية التي تجعل الكلام اللاهوتي عنه اكثر صحة وواقعية، في الوقت الذي لا يمكننا ان نتكلم عن الله الكائن، طالما انه لا يقع ضمن نطاق العقل. وفي الواقع نحن نفضل ان نتكلم عن ظاهرة الانسان بدلا من ظاهرة الله، لاننا في الانسان نجد الله كما نجد الظواهر الاخرى. ولهذا فنحن لا نكتفي بان

نقول بان الله يسكن في قلب الانسان او في نفسه او في عالمه. لان مثل هذه التعابير لا زالت تحمل فكرة ثنائية، رغم روعتها. فاذا كان الله اقرب الينا من حبل الوريد، واذا كنا "به نحيا ونتحرك ونوجد" (اعمال الرسل ١٧:٢٨)، مع كل ما نعرفه من علاقة حبية صميمية بين البشر والهم، فذلك ما لا يمكن تفسيره علميا الا عندما يكون الله ظاهرة انتروبولوجية، وليس كائنا غريبا يأتي ويسكن في عالم الانسان.

فاذا كان الله ظاهرة انتروبولوجية في الانسان، مثل ظاهرة العقل والارادة، فهذا يعني علميا ان الله "بُعد" في الانسان، حيث لا توجد ظاهرة انتربولوجية في الانسان الا وتشكل احد الابعاد فيه. وبما ان أي بُعد في الانسان هو وظيفة وخدمة تشكلان بشرى تملأ حياته، فان الله يكون هو الاخر وظيفة وخدمة تشكلان بشرى جوهرية للانسان فردا وجماعة. اما وان تتصف هذه الوظيفة او الخدمة بالقدسية المعروفة لدينا، فلأن هذه الوظيفة او هذه الخدمة هي من نوع فريد يشمل الذات الانسانية كلها، ليس فقط الذات الراهنة بل الذات المستقبلية ايضا، اذ هكذا فقط نفهم كيف يكون الله امل الانسان ومرتجاه، في طريق تحقيق اعمق امنياته واكثرها شمولا. وهذا لا يحصل الا عندما يكون الله بمثابة المرآة التي يرى فيها الانسان كماله الذاتي المنشود (أي ذاته المستقبلية)، الامر الذي لا يتحقق الا عندما يكون الله بُعدا في الانسان -يمثله رمز او لقب او كلمة (لوغوس)- فيكون بشرى تمم الانسان في ذاته الحاضرة والمستقبلية. وهنا لا تتعارض محبة الانسان لذاته مع محبته لله والقريب، لان هذه المحبة لا تنفصل عن محبته للغير، بل تتكامل معها في فعل انتروبولوجي موحّد يعود في النهاية الى ذات الانسان، وان كان يتجه نحو الله او الآخرين. وهكذا نفهم لماذا يكون الله محبوبا ومقدسا لدى البشر بشكل تلقائي، بينما يبقى حب الانسان لله، مع فكرة الاله التقليدي، حقيقة غير مفهومة وغير مبّررة علميا، بسبب بعد هذا الاله عن الانسان وغيبيته.

فاهمية لاهوتنا الانتروبولوجي هي انه لاهوت علمي حلري، يفسر الامور باسبابها الحقيقية. ولذلك له القدرة على التمييز بين ما هو من الايمان وما ليس منه، فيصبح بذلك ضمانة تقي الانسان من تعسف التعليم المفروض باسم الايمان ومن تأثيرات المعتقدات الغيبية التي تقود الى الوهم وتؤدي بالتالي الى استلاب حياة المؤمنين. فالضلال، حتى وان كان ضلالا لاهوتيا، يساعد على استعباد الانسان، اما الحقيقة، حتى وان كانت حقيقة على المستوى اللاهوتي العلمي، فتقود الى تحريره.

الاب لوسيان جميل

من اجل قراءة جديدة للكتاب المقدس

ليست ديانتنا "ديانة كتاب"! ذلك ان المكانة الاولى فيها هي للخبرة الايمانية المتأصلة في تاريخ: خبرة ايمان بني اسرائيل بالله محرر ابان الخروج، وخبرة ايمان المسيحيين الاولين الذين، في ضوء القيامة، شخّصوا في يسوع "المسيح الرب". فمع الكتاب المقدس بعهديه، نحن بازاء مجموعة "روايات" شفهية تحولت الى نصوص، كتبها مؤمنون وفسروها في ضوء ايمانهم واضفوا عليها معاني تعكس خبرتهم ... من هنا كانت اصالة الكتاب وقدسيته ومصداقيته ... ومن هنا كانت ايضاً قيمة تلك النصوص التي اصبحت بمثابة نداء يوجهه الله الينا، بحيث اصبح بوسعنا ان نقول بان الكتاب المقدس هو "كلام الله"، اله يكلمنا عبر مؤمنين وجدوه في عمق مغامرتهم وعبر احداث كبرى اكتشفوا فيها معنى حياتهم.

من هذا المنطلق كشف المقال عن المسافة بين الحدث وتدوينه، وتناول ما قطعه علم التفسير من مراحل قبل ان يصل الى ما خرجت به الدراسات الكتابية من طروحات أسهمت في فهم الكتاب المقدس فهماً مستنيراً، إلى ان قالت فيها الكنيسة كلمتها بفم بيوس ١٢ اولاً، ومن ثم من خلال الدستور العقائدي "في الوحي الالهي" الصادر عن الفاتيكاني الثاني.

الكتاب المقدس هو "عالم" في حد ذاته! وتدخلنا قراءته للحال في "عالم" اولئك اليهود والمسيحيين الاولين الذين عاشوا مغامرة إيمان عكستها اسفار الكتاب المقدس، وكانت لا تزال مصدر الهام ونور وحياة لاجيال من المؤمنين الذين يقرأون فـ ـ قصة تدخل الله في تاريخ بني اسرائيل، وقد تكللت بتدخله الفريد في اخر الازمنة حين "صار الكلمة بشراً وسكن في ما بيننا"!

"كتاب مقدس"! ولعل اول سؤال نطرحه: هل ديانتنا هي "ديانة كتاب"؟ وهل نحن من "اهل الكتاب"؟ واول ما نجيب هو اننا بازاء "مكتبة" طالما ان الكتاب المقدس، بعهديه، هو مجموعة كتب ليست قبل كل شيء "كتبا منزلة" او "قاعدة ثابتة للسلوك"، وانما المكانة الاولى فيها هي للخبرة الايمانية المتأصلة في تاريخ: خبرة ايمان بني اسرائيل في الخروج —وهو الحدث المؤسس— بالنسبة الى العهد القديم، وخبرة ايمان المسيحيين الاولين الذين شخّصوا في يسوع "المسيح الرب"، القائم من بين الاموات، بالنسبة الى العهد الجديد... خبرة عبر عنها كاتب الرسالة الى العبرانيين قائلاً: "بانواع كثيرة وطرق شتى كلّم الله أباءنا على لسان الانبياء منذ القديم، وفي الايام الاخيرة كلّمنا بابنه.." (١:١-٢).

* كتاب متأصل في التاريخ

أمام الكتاب المقدس، لسنا بازاء نصوص وصايا الهية، بقدر ما نحن بازاء "تاريخ مقدس" يعكس خبرة مؤمنين باله حاضر في التاريخ، لا بل هو سيده وهدفه. واذا بدا هذا الكتاب للبعض وكأنه مجموعة قواعد ونصوص وتوجيهات خلقية بشأن ما ينبغي للمؤمن ان يعرف ويفعل، فما ذلك الا بسبب حاجة مؤمنين، على مر العصور، شددوا على البحث عن قاعدة ثابتة تحمل الطمأنينة الى ضميرهم. ومن هنا كانت تلك المطلقية التي علقت بالكتاب المقدس والتي سرعان ما جعلت منه "كتاب الله" واكسبته سلطة فوقية، على حساب مؤلفين عكسوا، وبالهام من الروح القدس، خبرة اصيلة عاشها مؤمنون مع اله العهد ودونت من ثم على مدى اكثر من الف سنة. كما عاشها مؤمنون مع المسيح الحي "وسيط عهد جديد"، ودونت من ثم خلال القرن الاول الميلادي.

نحن، اذن، بازاء مجموعة "قصص" او "روايات" تحولت الى نصوص كتبها مؤمنون وفسروها في ضوء ايمانهم. واضفوا عليها معنى تعكس خبرتهم الفريدة التي نحن مدعوون الى اكتشافها بالايمان، لنشاركهم اياها من ثم؛ فمن هنا تنبع اصالة الكتاب المقدس وقدسيته وصحته ومصداقية شهادته... لذا لاينبغي ان تستوقفنا بعض النصوص التشريعية والاخلاقية والحكمية في العهد القديم، ولا بعض نصوص رسائل بولس او انجيل يوحنا التي نجد فيها احيانا قواعد لسلوكنا، على حساب "الروايات" -وهي تروي مغامرة ايمان وتشكل غالبية نصوص الكتاب- التي من خلالها نتعرف على شهود عاشوا خبرة ايمانية قبل ان يدونوها، فاكتسبت بذلك قيمة كبرى واصبحت من ثم نداء يوجهه الله الينا من خلالهم! اليس هذا ما نعنيه حين نعلن ان الكتاب المقدس هو "كلام الله"، طالما ان الله يكلمنا من خلال مؤمنين وجدوه في عمق مغامرتهم البشرية وفي احداث كبرى اكتشفوا فيها المعنى العميق لحياتهم؟

* خبرة.. يرويها مؤمنون

من هذا المنطلق يصبح الكتاب المقدس "قصة" يرويها مؤمنون او "تاريخا" يفسرونه؛ وسيكون من قبيل التحجيم ان نبحث فيه عن قاعدة للايمان والاخلاق، كما سيكون من الباطل ان نبحث فيه عن تحقيق مباشر لاحداث التي جرت، فنطرح تساؤلات لا طائل تحتها: ماذا جرى بالضبط يوم الخروج من مصر، وكيف تم عبور البحر؟ ماذا قال الله بالتحديد لابراهيم او لموسى او لصموئيل او لارميا..؟ ماذا قال يسوع بالضبط، وماذا صنع؟ كيف جرت احداث ميلاده وطفولته؟ وكيف تمت احداث قيامته ومن هم شهودها العيان؟.. في حين يصبح التساؤل الاول والاخير الذي يجب ان نطرحه هو: ماذا يقول المؤمنون عن هذه الاحداث؟ ما هو تفسيرهم لها؟ ما هي الكلمات التي استخدموها للتعبير عن خبرتهم الايمانية باله العهد، وقد تكللت بفعل لا نظير له حين "اقام يسوع من بين

الاموات وجعله ربا ومسيحاً" (راجع اعمال الرسل ٢:٢٢-٣٦، ٣:١٢-٣٦، ١٣:١٦-٤١..).

فأن يكون الله قد كشف ذاته لشعب العهد طيلة تاريخه الطويل... وان يكون، بالنسبة للمسيحي، قد "تجسّد" في شخص يسوع، فذلك يؤدي الى نتيجتين في ما يتعلق بالتدوين: الاولى ان تدوين هذه الخبرة لا يمكن ان يتم الا عبر "الرواية التاريخية"، والثانية انتفاء الطابع المطلق والنهائي عن النصوص التشريعية او الحكمية. وهكذا يتضح ان التاريخ، بمعناه الواسع، سيكون في قلب الصراع الذي يواجهه المؤمن اليوم: ان يلتزم اوامر ووصايا كما وردت في الكتاب، ام يعيش خبرة ايمانية من وحي الكتاب؟ فأن يكون المؤمن مدعوا الى عيش خبرة في ضوء الكتاب، فذلك يجعل من الكتاب المقدس "كتابا مفتوحا" أبداً، ويجعل المؤمن في حالة استعداد دائم للاصغاء الى "كلمة الله" والاهتداء اليها والتجاوب مع متطلباتها... وبكلمة اخرى، انه مدعو الى "تأوينها" (جعلها تخاطبه الآن) في حياته اليومية! وكل ذلك يتم بنور الروح القدس الذي لا يزال يلهم ويكشف وينادي، "مرشد الى الحقيقة كلها" (يوحنا ١٦:١٣).

❋ بين الاحداث والتدوين مسافة

وازاء هذا الكتاب الضخم، بأسفاره الـ ٧٣ (٢٧ منها تكوّن العهد الجديد) -ونجهل معظم مؤلفيها، وتفصلنا عنهم مسافة طويلة- كان لا بد ان تطرح نفسها مسألة "تاريخية" النصوص وصحتها ومصداقيتها؛ وكان لا بد ان تطرح نفسها ايضا مسالة الاصول الشفهية والتقاليد الاولى للنصوص. لقد اسهمت الدراسات الكتابية، منذ منتصف القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠، في القاء الاضواء على المراحل التي سبقت الانشاء النهائي للنصوص؛ وكان على هذا الاكتشاف الهام ان يتجنب الوقوع في خطر اعتبار الكتابة نقلا ماديا للمقولات الشفهية! وهذا ما حدا ولا زال يحدو بالبعض الى التصور الخاطئ بان موسى كتب بنفسه التوراة (الاسفار الخمسة الاولى)، وبان الاناجيل تنقل مباشرة، وبشكل شبه حرفي، اقوال يسوع وافعاله المحفوظة في ذاكرة الرسل... فكانت من ثم محاولات باتجاه تقريب تاريخ الكتابة الى الاحداث لضمان صحتها ومصداقيتها! فيما كشفت الدراسات عن المسافة التي تفصل اناجيلنا عن الاحداث (في حدود عام٧٠ لانجيل مرقس، وما بين ٨٠-٩٠ لانجيلي متى ولوقا، وفي حوالي العام١٠٠ لانجيل يوحنا)، ومن دون ان تصاب باذى صحتها! ولنقلها للحال: ان اناجيلنا كتبت في ضوء قيامة المسيح، وهي تعكس في ان واحد وجه يسوع الذي عاش في الثلاثينات كما تعكس وجه القائم من بين الاموات، يسوع الحي، في الجماعات المسيحية المؤمنة، في السبعينات او الثمانينات.

لنبقَ في اطار الاناجيل كي نتبين ان التاريخ، وان كان ذاكرة الماضي المدوَّنة، الا انه في الوقت ذاته محاولة استقصاء وفهم لهذا الماضي. ومن هنا كانت الاهمية المعطاة للمسافة

التي تفصل التدوين عن مجرى الاحداث والتي كثيرا ما لأنفهم في مضامينها العميقة الا بفضل الزمن. ولنا في انجيل يوحنا، في مشهد طرد الباعة من الهيكل، خير شاهد: ".. ولما قام من بين الاموات تذكر تلاميذه انه قال ذلك. فآمنوا بالكتاب وبالكلام الذي قاله يسوع" (٢:٢٢).

❋ كل شيء في ضوء القيامة

يتكلم اهل الاختصاص، بشأن الاناجيل، عن مجموعات من اقواله واعماله وامثاله ومعجزاته، —وفي مقدمتها رواية الالام والقيامة التي نشأت في وقت مبكر عبر لقاءات "كسر الخبز"— تكونت وتبلورت طيلة سنوات من حياة الجماعات المسيحية الناشئة، ونشاطاتها الرسولية والتعليمية والليتورجية[١]، فاصبحت من ثم اشبه بمصادر استقى منها الانجيليون حين عمدوا الى الكتابة... وغني عن القول بان فكرة التدوين المتأخرة لم تكن بدافع التوثيق، وانما بدافع رسم خيط يبرز معنى الاحداث ويكشف عن التماسك الذي يربط بينها، الا وهو حقيقة القيامة التي كانت الحدث المؤسس للايمان المسيحي والدعامة التي يرتكز عليها كل البناء. ففي ضوء الايمان بقيامة المسيح اخذت الاحداث والتعاليم والمعجزات.. تستنير لتصبح بشرى تعلن ويُنادي بها وتدوّن من ثم، بعد ان اكسبتها سنوات التبشير، في العالمين اليهودي والوثني، غنى وعمقا واتساعا..

وهكذا اصبحت اناجيلنا تستقي مصداقيتها الكبرى من الشهادة الايمانية المعلنة في قلب الجماعات المسيحية والتي من اجلها دُوّنت. ومن هنا كانت اهمية التمييز بين الاناجيل الاربعة في اسلوبها وطروحاتها ومضامينها، لا بل ومعالجاتها التي استهدفت قراء كُتبت لهم لتثبيتهم في الايمان؛ وفي هذا الاطار نفهم ان للانجيليين هدفا تعليميا، وقد كتبوا —وهم شهود ايمان او بالاحرى "مؤرخون مؤمنون"— في ازمنة متفاوتة ولجماعات مختلفة. ولنا في خاتمة انجيل يوحنا تأكيد واضح على هذا الهدف: "وصنع يسوع امام تلاميذه آيات اخرى كثيرة لم تدوّن في هذا الكتاب، وانما كتبت هذه لتؤمنوا بان يسوع هو المسيح ابن الله، ولتكون لكم، اذا آمنتم، الحياة باسمه" (٢٠:٣١). كما لنا شاهد بليغ في فاتحة انجيل لوقا، وقد وجهه الى تيوفيلس —ومن خلاله الى مسيحيين قادمين من الوثنية— قائلا: "لتتيقن صحة ما تلقيت من تعليم" (١:٤).

وهكذا يتضح ان ما يدعم الاصالة والمصداقية في الاسفار المقدسة، بشكل عام وفي العهد الجديد بشكل خاص، ليس هو التصاق الكتابة بالاحداث، وانما تلك "الرواية التاريخية" التي تعكس خبرة ايمانية عاشها مؤمنون وحاول مؤلفون —هم بالاحرى

(١) اقرأ "تكوين الاناجيل": سلسلة دراسات في الكتاب المقدس/ رقم ١٨؛ "من الاناجيل والى الانجيل"/ رقم ٢١؛ "المسيح قام" / رقم ٤ (دار المشرق، بيروت).

لاهوتيون— ان يبرزوا معانيها العميقة المتناغمة. وسيكون بوسعنا ان نُأوّلها اليوم فنجعلها تخاطبنا وتنادينا..

* العلم التفسير تاريخ!

ها نحن في قلب الدراسات الكتابية التي تدخلنا الى عمق النصوص وتساعدنا على استجلاء ما اراد الكتّاب ان يقولوه.. واول ما نقوله بشأنها ان لها تاريخا[٢] طويلاً. فاذا كانت هناك مخاوف تجاهها، اذ يُخشى انها تمس "قدسية" الكتاب، فما ذلك الا بسبب سوء فهم او تجاهل للبعد التاريخي للنصوص التي كثيراً ما كان يُهمَل لحساب "اصالة" مزعومة خارج الزمن والتاريخ.

لا يسعنا ان نتوقف، في هذه العجالة، لدى المراحل الكبرى من تاريخ علم التفسير في الكنيسة والذي يمتد على ٢٠ قرنا، بدءاً بالتوجهات المجازية او "الرمزية" في التعامل مع النصوص التي ألهمها اباء الكنيسة وظلت سائدة قرابة ١٥ قرنا، وانتهاء بفترة النصف الثاني من القرن ٢٠ التي شهدت نتاجا علميا دسما في الابحاث الكتابية في ضوء العلوم الانسانية. ولقد كان لهذا النتاج مردودات ايجابية لا تحصى على قراءة الكتاب المقدس قراءة مستنيرة وغنية، وعلى تعميق وتوسيع الرؤية حول الرسالة التي يحملها الى مؤمني اليوم.

ويمكننا ان نرّجع بوادر التوجه العلمي في التعامل مع الكتاب المقدس —اعني بدايات علم "التفسير النقدي"— الى القرن ١٧ حين ارسى الفيلسوف اليهودي باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) والقس ريتشارد سيمون (١٦٣٨-١٧١٢) اسس قراءة موضوعية وغير موجهة للنصوص. ومنذئذ انطلقت ابحاث "تاريخية نقدية" حول نص الكتاب المقدس، ولعل اولاها وابرزها محاولة جان استريك عام ١٧٥٣، حين كشفت ان وراء التوارة تقاليد مختلفة تنتمي الى ازمنة متفاوتة.. وكان على هذه المحاولات التاريخية النقدية ان تمر بمخاضات وتصطدم بعقبات قبل ان تفرض نفسها.

ويهدف النهج "التاريخي النقدي" في مجمله —وليس هو اسلوبا او طريقة— الى وضع النص في سياق تاريخه، والى تحليله انطلاقا من المعنى الحرفي، للكشف عن المعاني التي ارادها المؤلف، وذلك باستخدام وسائل التحليل العلمية المختلفة. فكان البحث عن وضع المؤلف في التاريخ واداب العصر والاثار.. علما بان هناك مسافة زمنية وحضارية ولغوية تفصلنا عن النص، الى جانب التنوع الكبير في الاسفار واجناسها الادبية ومضامينها.. والتي غالبا ما تكشف عن تكرارات وتناقضات، فضلا عن عدم التماسك والفجوات،

---

(٢) نشير الى كتاب يرسم هذا التاريخ ويتوقف عند محطاته الكبرى، وقد استلهمناه في مقالنا:
Pierre Gibert: Petite histoire de L'exégèse biblique, 272p. Ed. du Cerf, Paris 1992.

مبنى ومعنى..».(٣)

ونشأ في السنوات الاخيرة اسلوب جديد للتحليل يركز على البقاء في النص ويسمى بـ "التحليل البنيوي" الذي بدأ تطبيقه على الكتاب المقدس حوالي عام ١٩٦٨، ومن حسناته انه حمل اهل الاختصاص على ايجاد معنى للنص عبر تحليله في بنيته وقواعده واسلوبه.. ولا سيما في كونه نتاجا ادبيا يفترض كاتبا له مقاصده. وبكلمة انه تحليل يسعى الى الكشف عن البنى الخفية للنص.

وبهدف الايجاز نقول بأن مجموعة كبيرة من الاساليب وطرق البحث والتحليل -- بما فيها التحليل المادي الذي يضع النص في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي— تضافرت وتتضافر لاستجلاء ما تنطوي عليه النصوص من معان واتجاهات. كما ينبغي ان نضيف بان علماء التفسير يكمل بعضهم بعضا ويبني بعضهم على اساس بعض، وان وسائلهم واساليبهم تتنادى وتتكامل، فلا يصح من ثم ان نبدي مخاوف او تحفظات تجاه نتائج ابحاثهم التي ستذهب صعدا يوما بعد يوم..

❊ الكنيسة والدراسات الكتابية

لا نكشف سرا اذا قلنا بان الكنيسة الكاثوليكية ظلت شبه صامتة تجاه الدراسات الكتابية حتى وقت متأخر، ولم يكن صمتها دوما دليلا على الرضى! سيما حين نعلم انها اسكتت، بفم احبارها، بعض علماء التفسير في القرنين الماضيين.. واذا سجّل الدستور العقائدي "في الوحي الالهي" (١٥ت٢ ١٩٦٥) منعطفاً كُرس فيه التوجّه الكتابي الحديث، فان رسالة عامة للبابا بيوس١٢ بعنوان "بفيض الروح" (٣٠ ايلول ١٩٤٣) كانت قد وضعت، وبجرأة نادرة، الخطوط العريضة لعلم التفسير، متجاوزة رسالة البابا لاون ١٣ عام ١٨٩٣ التي كانت قد ابدت دعمها لعلم الآثار الناشيء.

١. **بفيض الروح:** لقد حررت رسالة بيوس١٢ المؤمنين من "رهبة" الدخول الى عالم الدراسات العلمية بشأن الكتاب المقدس، وكان لها الفضل الكبير في تدعيم عملية تمييز

(٣) تجدر الاشارة الى ان استقرار نص الكتاب المقدس، بفضل مقارنة جادة للمخطوطات القديمة، استغرق قرونا، وان الدراسات الكتابية احرزت تقدما في القرن ١٩ بفضل علم الآثار الذي كشف عن تجذر العهد القديم في بيئات الشرق الاوسط الحضارية والثقافية واللغوية.. وفي مطلع القرن ٢٠ انكبت الدراسات على بحث الخلفية الثقافية للاناجيل بما سمي "تاريخ الصيغ" والذي اولى اهتماما للبيئة الاصلية التي نشأت فيها التقاليد ومن ثم نقلها الانجيليون او غرفوا منها.

الا ان الخطوة الكبرى في هذا الاتجاه تمت بين ١٩٥٥-١٩٦٠ حين ادرك اهل الاختصاص ان الانجيليين هم مؤلفون بالمعنى الكامل، ومنذئذ انكبوا على دراسة "تاريخ التأليف" الذي اسفر عن كشف ما يختفي وراء الروايات الانجيلية من لاهوت، فتحققت بذلك نقلة نوعية في علم التفسير (راجع: من الاناجيل الى الانجيل).

"الاجناس الادبية" المختلفة في الاسفار، بحيث بات واضحا ان هناك فرقا بين الرواية التاريخية والامثولة، وبين القصيدة الغزلية والمزامير، او بين الاقوال النبوية والاناجيل.. وهكذا اصبح بيد المؤمن "مفتاح للقراءة" قضى على الكثير من الشكوك والعقبات ولا سيما تلك التي كانت تصطدم مع العلم، بدءا بقصة الخلقة في ستة ايام وملحمة الخروج وايقاف الشمس.. مرورا بسفر يونان —وهو امثولة، ذات مغزى لاهوتي— وانتهاء بسفر الرؤيا الذي يسبح في اسلوب تكتنفه الصور والارقام والظاهرات الكونية الخارقة..

لقد كان لرسالة بيوس ١٢ مردودات ايجابية لا تحصى على مسيرة البحوث والدراسات الكتابية، سيما حين لم تحمل الوثائق اللاحقة المزيد، بما فيها الدستور المجمعي! فكان من الضروري ان نتوقف عند بعض اضاءاتها الكبرى.

ففي قسمها الثاني وضعت الرسالة البابوية شبه نظرية لقراءة مسيحية للكتاب المقدس في ضوء القرون الثلاثة الاخيرة من تلمس الطريق في مضمار التفسير النقدي: فحين يدعو البابا الى استخدام مختلف العلوم في الدراسات الكتابية، وفي مقدمتها العودة الى اللغات القديمة، فمعناه أنه ارسى مبدأ التدرج التاريخي في فهم الكتاب من جهة، واعلن ان طرق البحث ستزيد من هذا الفهم من جهة اخرى. وهذا يعني بالتالي انه دعا الى تجاوز ما بلغه هذا الفهم في القرون الماضية، كما دعا المفسرين الجدد الى التوصل الى اقرب ما يمكن من المعنى الاصيل! وتجدر الاشارة الى ان الدعوة الى دراسة المعنى الحرفي للنصوص —وكانت قد انطلقت منذ منتصف القرن ١٦ هي الخطوة الاولى لاستخراج المعنى اللاهوتي والروحي من وراء النصوص. لذا حذّرت الرسالة من تقديم "معان مجازية" وكأنها المعاني الاصيلة(٤).

٢. **"الوحي الالهي"**: ولعل فضل الدستور العقائدي الذي اصدره المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، هو انه تناول القطبين اللذين يقوم عليهما الوحي الالهي الذي يحتويه العهدان القديم والجديد: تقليد عقائدي من جهة، وتقليد عكسته شهادات وكتابات من جهة اخرى. وقد

---

(٤) في الذكرى "الخمسين للرسالة، اصدرت اللجنة الكتابية الحبرية (خريف ١٩٩٣) وثيقة حول "تفسير الكتاب المقدس في الكنيسة" استعرضت فيها كل طرق التفسير وقيّمتها، فاعتبرت "الاسلوب التاريخي النقدي" منهجا اساسيا للدراسات الكتابية، ووضعت الى جانبه طرقا عديدة للتحليل استجدّت بفضل العلوم الانسانية. ولكنها رفعت احتجاجا حادا بوجه القراءة "الاصولية" التي تنفي عن النص كل بُعد تاريخي.. وفيما تمنت الوثيقة ان تتضافر طرق التحليل "لتقليص المسافة بين المؤلفين وعصرنا"، فيتسنى "تأوين" النصوص لفائدة المؤمنين، لم تهمل التمييز التقليدي بين المعاني الثلاثة للنص الكتابي: المعنى الحرفي الذي يعبر عن قصد المؤلف ويفتح السبيل لاعادة قراءة، والمعنى الروحي الذي يقوم بقراءة في ضوء القيامة، والمعنى الاصلي الذي اراده الله وان لم يعبر عنه الكاتب.. ولقد شددت الوثيقة الجديدة على دور المفسر في "تأوين" كلام الله الذي تحتويه النصوص، فتقوى على مخاطبة الكنيسة والعالم بلغة جديدة. وغني عن القول ان هذا التأوين يفترض فهما اصيلا للمعنى الحرفي، كما دعت ايضا الى "تجذير" الكتاب المقدس في قلب الحضارات المختلفة. وتنتهي وثيقة اللجنة الحبرية بالتاكيد على اهمية الدراسات الكتابية التي تسعى الى استجلاء "كلام الله المتجسد في حقبة من التاريخ وفي بيئة حضارية واجتماعية محددة" (عن صحيفة لاكروا: ٧ ك١ ١٩٩٣).

جاء فيه (فصل ٣:١٢): "لما كان الله قد تكلم في الكتاب المقدس بواسطة البشر وباسلوب البشر، فلا بد للمفسر، كي يرى بوضوح ما اراد الله ذاته ان يبلغنا اياه، ان يبحث بانتباه عما اراد المؤلفون ان يقولوه حقا، وعما حسن لدى الله ان يبلّغه عبر كلماتهم". وهكذا يكون المجمع قد شدد على البعد التاريخي للكتاب المقدس، مستخرجا نتائجه في ما يتعلق بالتفسير واستخدام اساليب التحليل والبحث، كما يكون قد اصطف في خط رسالة بيوس١٢. ويؤخذ على الدستور انه اثار قضية الوحي والالهام ولم يقو على اقامة سبيل للتوفيق بين مقولتين "ان يُقرأ الكتاب ويفسر في ضوء الروح القدس الذي اهم كتابته" وبين "ما اراد المؤلفون ان يقولوه حقاً"!

وليسمح لي في ختام هذا المقال ان اعبر عن ضرورة لحاقنا بركاب الدراسات الكتابية الحديثة، ليس لعملية طروحاتها ومصداقية معالجاتها حسب، وانما ايضا لما تحمله هذه القراءة الجديدة من نور وثراء في خدمة ايمان مسيحي اصيل يَصِلُنا بخبرة ايمان المسيحيين الاولين
–عبر عنها بامانة كُتّاب العهد الجديد– ايمان يمكننا من ان نؤوّن رسالة الكتاب ونجعلها حية، ناطقة، بليغة، تتوجه الى انسان اليوم فتحمل اليه "النور والحياة". الا ان ما نخشاه تجاه هذه الدراسات التي قد تثير لدى البعض التساؤلات والمخاوف، هي ردود الفعل السلبية التي تعلن رفضا مبدئيا ومعارضة مسبقة، وقد تتحول الى مقاومة انفعالية يلفها الجهل ويدفع اليها عجز عن الاستيعاب والمواكبة.

واني اتطلع بأمل كبير الى توجّه مسكوني اصيل سينتج عن انكباب مؤمني الكنائس المسيحية المختلفة على هذه "القراءة الجديدة" للكتاب المقدس –وقد برز فيها علماء من مختلف الكنائس– ويسؤنا ان نلقى هنا وهناك توجهات تنادي بالتزام حرف الكتاب، فتبغي ترداد المقولات التقليدية التي كثيرا ما تحجّم النصوص، إن لم نقل تشوّهها، وتنسى انها بذلك تنغمس في شبه "اصولية" مسيحية يضحي بموجبها الكتاب المقدس حرفا جامدا ينافس الروح، ونحن نعلم اننا في نظام الروح الجديد، لا في نظام الحرف القديم" (رومية ٧:٦).
ومثل هذا التوجه سيكون خطرا يهدد مستقبل الايمان، فضلا عن انه ينزع الرفقة التي ينبغي للكتاب المقدس ان ينتزعها من جذورها، وقد دُوّن ليوحّدنا في الايمان بذاك الذي مات وقام "ليجمع شمل ابناء الله المشتتين" (يوحنا ١١:٥٢)!

الأب بيوس عفاص

مصادر ومراجع للقراءة:

- دليل الى قراءة الكتاب المقدس/ أ. شربنتييه، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.
- سلسلة "دراسات في الكتاب المقدس" (٢٦ جزءاً)، دار المشرق، بيروت، ونشير بنوع خاص الى الرقم ٩، "تعرف الى الكتاب المقدس" بقلم أ. شربنتييه.
- الفكر المسيحي: عدد خاص "الكتاب المقدس" (ت١ و ت٢ ١٩٨٢)، فضلا عن العديد من المقالات الكتابية ولا سيما في السنوات العشر الاخيرة (راجع الكشاف).

الكنيسة وتحديات العالم المعاصر

"يبدو ضرورياً ان نعلن اختلافنا التام مع انبياء الشؤم الذين ينادون دوماً بالكوارث، كما لو ان العالم على وشك الانهيار" بهذه العبارة للبابا يوحنا ٢٣ -وبها افتتح المجمع- افتتح الاب جرجس القس موسى مقاله ليعبّر عن التحديات التي كان على الكنيسة ان تواجهها، منذ ان شرّع البابا الطيب نوافذ الكنيسة المطلة على العالم، كنيسة لا وجود لها ولا معنى إلاّ بصفتها في العالم ومن اجل العالم -والعالم هو هذا الانسان الواقعي، بكل طموحاته وتطلعاته، بكل تناقضاته وصغاراته، بكل قدراته وحدوده...

كانت الوثيقة المجمعية "الكنيسة في عالم اليوم" الجواب لاولئك "المحافظين" الذين رفعوا راية الخطر من تبعات انفتاح الكنيسة -في الوقت الذي، في ضوئها، ادركت الكنيسة عمق رسالتها في قلب العالم. أليس الروح هو الذي زج بها الى العمق، وسيَقيها من الغرق اذا ما وضعت ثقتها فيه وفي العالم؟!

ومن هنا كان على الكنيسة ان تنظر الى العالم نظرة ايجابية وتبني معه حواراً. تلك هي "المعاصرة" المنشودة: حين تجعل الكنيسة من الانجيل بشرى لعصرنا، وتقبل، انطلاقاً من هذا الهدف، ان تعيد النظر في بُنيتها وتُحدّث لغتها واسلوب ممارسة رسالتها... ويصحّ ذلك في كنائسنا المحلية التي يُنتظر منها الكثير في مجال العصرنة.

"غالبا ما يحدث في اثناء ممارستنا خدمتنا الرسولية اليومية ان تتخدش اذاننا مما يقوله البعض، ممن، وان اشتعلوا بالغيرة الدينية، يفتقدون الحكم الصائب والرؤية في نظرهم الى الامور. ففي الاوضاع الراهنة للمجتمع يرون الا خرابا ومصائب، وقد تعوّدوا ان يقولوا بان زماننا ساءت اموره جداً، مقارنة بالعصور السابقة. انهم يسلكون وكأن التاريخ الذي هو معلم الحياة لم يعلمهم شيئاً، وكأن في عهود المجامع السابقة كان كل شيء كاملاً في ما يخص العقيدة المسيحية والاخلاق والحرية الحقة في الكنيسة.

"انه يبدو ضروريا ان نعلن اختلافنا التام مع انبياء الشؤم هؤلاء الذين ينادون دوما بالكوارث، كما لو كان العالم على وشك الانهيار".

بهذه الكلمات المتفائلة والمحمَّلة بالامل افتتح يوحنا ٢٣ المجمع الفاتيكاني الثاني قبل ٣٠ عاماً، وبها فتح نوافذ الكنيسة لرياح العالم الخارجي. وفي هذه الرياح كان النسيم الهادئ الذي يمر فيه الله، وكان الريح العاصف الذي يصفق الابواب والنوافذ العتيقة؛ كان الهواء النقي الذي ينعش الرئتين بعد طول احتصار، وكان التيار الصاخب الذي يجلب معه اصوات العالم ونداءاته. اصوات

ونداءات كان في بعضها أنين الاستغاثة، وفي بعضها الاخر هدير التحدي.

يوحنا ٢٣ لم يكن ساذجاً الى الحد الذي يجهل فيه انه بفتح نوافذ الكنيسة يلقي فيها عاصفة الثورة الداخلية، بمعنى الانقلاب الجذري في تأملها ذاتها وتحديد موقعها وطبيعة رسالتها الحقيقية في العالم وللعالم. ذلك انه لا وجود للكنيسة الا في العالم وللعالم.. وقد قبل يوحنا٢٣ التحدي، اذ انه لا يمكن للكنيسة هو ان تسائل نفسها عن ذاتها كما لو كانت جزيرة معزولة وحدها. والعالم الذي تتوجه اليه الكنيسة هو عالم تحبه وتقبله، كما هو، في تركيبته المعقدة.. في اضاءاته وظلاله، في طاقاته ونزعاته. وقد عبر عن ذلك بولس٦ في خطابه الختامي للمجمع في٧ كانون الاول١٩٦٥، وقد صار "العالم"، على لسانه، هو "الانسان" بكل تناقضاته: "لم تكتف كنيسة المجمع بان تدرس طبيعتها الذاتية والعلاقات التي تربطها بالله، بل انها اهتمت كثيراً بالانسان، الانسان كما هو اليوم في واقعه: (...) الانسان الذي لا يرضى عن ذاته ابدا، الذي يضحك ويبكي؛ الانسان المتقلب، المستعد ابداً للعب أي دور، المتصلب الذي لا يؤمن الا بالواقع العلمي، الانسان كما هو، الذي يفكر ويحب، الذي يشتغل وينتظر شيئا جديداً دائماً، الانسان الاجتماعي المتشح ببرارة طفولته والحامل سر فقره وألمه المشفق؛ الانسان الانفرادي، والانسان الاجتماعي، الانسان الذي "يمجد الماضي"، والانسان الذي يحلم بالمستقبل؛ الانسان الخاطئ، والانسان البار....".

ويستطرد بولس ٦ قائلاً: "ان تياراً من التعاطف والاعجاب سرى من المجمع إلى العالم المعاصر.. فعوض التنبؤات المشؤومة، انطلقت نداءات ثقة من المجمع نحو العالم المعاصر، وقيمه لم تلاق الاحترام حسب، بل احيطت بالتكريم، وجهوده نالت الدعم، وطموحاته كانت موضع تطهير وبركة".

لا احد يشكك في اهداف المجمع، او يجسر ان يشجب ما قاله البابا يوحنا ٢٣ او بولس ٦. ولكن عندما تُطلَقُ ثورة ما، قد لا يجري كل شيء فيها على هوى مخططيها. فلقد طرحت "المراجعة" الواسعة، والشمولية التي تلت، على بساط البحث والمحاججة -ان لم نقل زعزعت- مفاهيم وقواعد، تقليدية ثابتة حتى الان، ضمن الكنيسة وفي بنى العلائق والاخلاق وحتى في صيغ التعبير العقائدي. كما حركت بعض الشيء، بما حملته على مدى٣٠ سنة من بُعد نقدي وصدامي احياناً، موازين القوى بين المركز والاطراف، بين القمة والقاعدة. فبدت "كنيسة ما بعد المجمع" للبعض من "انبياء الشؤم" الذين تحدث عنهم يوحنا٢٣ عرضة للرياح المبيدة، بعد ان كانت قلعة حصينة حتى الان. وفيما رأت الاكثرية -لا سيما في القاعدة- في تيار التجدد المجمعي عمل الروح الذي يطهر ويحيي ويجدد شباب الكنيسة -وان رافق الالم كل عملية تطهير ونمو- هرع الخائفون، لا سيما في السنوات الاخيرة، وفي شبه "ردّة" تسندها القمة، بل تنطلق منها احيانا كثيرة- يتحمسون من جديد "لكنيسة يُعاد بناؤها بشكل اكثر إحكاماً في سلطتها الادارية، وببنية اكثر هرمية، كنيسة اكثر مركزية من أي وقت مضى، بحجة ان كل المصائب وقعت- في اعينهم- من جراء

اللامركزية التي ارادها الفاتيكاني الثاني.. هذا المجمع الذي أعاد الى الاذهان بان الكنيسة هي شعب الله، والذي اراد كنيسة في عالم اليوم"[١].

* الكنيسة في عالم اليوم

لعل الوثيقة المجمعية المعنونة "الكنيسة في عالم اليوم" هي اكثر وثائق الفاتيكاني الثاني عصرية، لما تحمله من انفتاح واتساع افاق وحركة تجاه العالم وقيمه. ليس للحاق به او "الركوع امامه"، كما يتخوف "المحافظون" فيتشكون ويحذرون ويدينون، وانما لأن الكنيسة في هذا النص الرسمي —وهو ذو طبيعة راعوية عميقة[٢]— تجدد وعيها ومسؤوليتها الرسولية والتزاماتها تجاه العالم: باعلان تضامنها معه في منجزاته وتركيبته وفي حدوده من جهة، ولحمل البشرى الانجيلية اليه، من جهة اخرى. في هذا التوجه نجد ابعاد المجازفة الانجيلية المدعو اليها المسيحي المعاصر خارج حدوده التقليدية، للارتماء في المستقبل بثقة كبيرة بالله وبنفسه؛ وهذا عمل من اعمال الروح شبيه بما فعله بالرسل الاثني عشر صباح العنصرة عندما زجهم وسط العالم، خارج حدودهم الجغرافية والقومية والفكرية.

للعالم وجهان في الكتاب المقدس، وخاصة عند الانجيلي يوحنا: عالم "شرير" فاسد هو مرادف للخطيئة والعبودية وموطن لكل انحراف. ازاء هذا العالم وسلبياته —وهي سلبيات لا تنكر ولا تخفى— قد يقع المسيحي في خطر الانعزال والانطواء كوقاية من التلوث، وقد تكون اكبر تجربة تتعرض لها الجماعة الكنسية هي الاكتفاء بتقوية الصفوف الداخلية والتأكيد على الهوية الذاتية، كما لو كان لهذه الهوية شأن خارج حدود صلتها بالعالم. وقد يدفع مثل هذا الجو الدفاعي بالكنيسة المؤسسة، اما الى التمترس وراء مبادئ لا تريد لها ان تتزعزع لخلق الامان، واما الى الانسحاب من المعركة بفزع. والحالتان لا تفتحان بابا للمستقبل، ولا تشجعان سوى على عملية التحجر والاغتراب. اما الاحتماء بدفء جماعة حميمة متجانسة وراء الابواب المغلقة، فلا ينسجم البتة مع الطبيعة الرسولية للكنيسة.

يقول اللاهوتي جان ريغال في كتابه "أعدوا مستقبل الكنيسة": "ان ما يعرّض الكنيسة للخطر ليس هو النقص في العدد او ضعف مؤسستها، وانما ثقل مخاوفها.. والتجهّم العقائدي فيها لا يعبّر عن حرصها على الامانة لرسالتها، على ما يبدو، بقدر ما يعبّر عن قلق خفي عميق امام تحديات مجتمع في حالة تطور دائم"[٣].

ان جل ما يطلبه يسوع لتلاميذه من ابيه ازاء هذا "العالم/المجتمع"، في وجهه

---

(١) جورج مونشارون في: *Lève – toi et marche, p. 11*

(٢) انظر السلسلة رقم٣٥ و ٣٦ لعام١٩٦٧؛ ف. م. حزيران؛ تشرين الاول١٩٧٩؛ وتشرين الاول وتشرين الثاني١٩٨٠.

(٣) *Jean RIGAL: Préparer l'avenir de l'Eglise, p.61, 76*

السلبي، هو "ان يحفظهم من الشرير، لا أن يخرجهم من العالم" (يوحنا ١٧:١٥).

اما الوجه الاخر للعالم، فهو هذا العالم الذي احبه الله حتى انه جاد بابنه الوحيد لتكون له به الحياة، العالم الذي لم يرسل الله اليه ابنه ليدينه، بل ليخلصه (يوحنا ٩:١٦-١٧). فالعالم الذي تتوجه اليه الكنيسة، اذن، هو العالم موضوع الخلاص، العالم موضوع البشرى. العالم الذي أقام الله معه عهده الابدي والذي يضعنا فيه ويعطينا اياه حقل رسالة وحدمة، وكمشروع بناء غير مكتمل، نساهم في كماله وخلاصه مع سائر ذوي الارادة الصالحة. وهكذا يصبح الذهاب الى للقاء هذا العالم هو بمثابة اللقاء مع الله بيسوع المسيح. لذا نقول بان هذه النظرة الى العالم ليست مجرد نظرة اجتماعية تحليلية لعناصر القوة والضعف فيه، وانما هي نظرة ايمانية تندرج في صلب سر التجسد والفداء: حين انضم الله الى الانسان حيث هو، في بيئته الطبيعية. أفتُرى تنتظر كنيسة اليوم ان يأتي العالم حتى عتبتها ويقول لها: "هلمي وخلصيني"؟

* الكنيسة والمعاصرة

ولكن كلمة الكنيسة لن يسمعها عالم اليوم الا اذا خلت من كل اقتحامية كسب او شك في النوايا، لتتقدم بحب وتقدير، وثقة بقدرات هذا الزمن الراهن من جهة، وبطاقاته على تجاوز ذاته نحو الافضل من جهة اخرى. اليست هذه هي المعاصرة بالذات؟ أن لا تدين الكنيسة العالم -وخاصة ان لا تكتفي بذلك- بل ان تنظر اليه نظرة ايجابية وحب، فتبني معه حواراً، وتصغي الى انتظاراته، ولا تتردد من التفاعل مع قيمه الايجابية الخاصة، وتستثمر اضافاته واكتشافاته في ميادين العلم والبحوث، وفي الخبرات الانسانية الهادفة الى نماء الانسان وتحرره وكرامته، فرداً ومجتمعات ودولاً. أوليست رسالتها الخاصة ان ترقى بكل ذلك الى تحقيق ملكوت الله بين البشر، والرقي بالانسان المخلّص الى مرتبة ابناء الله؟!

كما ان المعاصرة للكنيسة تعني ان اعلان الانجيل لن يصبح بشرى على لسانها الا اذا اتخذ لغة هذا العصر قناةً للعبور والتعبير. واللغة هنا، لا نقصد بها مجرد كلمات ومفردات، وانما نمطاً من التفكير والحضور ايضا، والسماع، والاتصال يتيح الوصول الى الاسئلة الصحيحة للناس، الى مراكز اهتماماتهم. وبعبارة اخرى: الا اذا اصبحت جسر حوار مع الوجود في حركيته وطموحاته. هذا الوجود الذي يتخذ اشكالا مختلفة باختلاف الحضارات والجذور الثقافية والخصوصيات التاريخية والزمن الراهن. اليس هذا هو "التجذر الثقافي" للايمان والانجيل الذي طالما يدعو اليه يوحنا بولس الثاني؟

التاريخ وحده يشهد كم ان الكنيسة "اخذت" من التراث البشري وحضاراته -منذ بداياتها- لنقل البشرى الانجيلية وصياغة تعابيرها اللاهوتية والليتورجية والروحية، وحتى لتنظيم هيكليتها كمؤسسة ضمن المجتمعات. فلقد استعارت افكاراً وفلسفات ولغات

عبر العصور من شعوب كثيرة، وبعضها كان وثنياً، او يدين بغير عقيدتها... أفتُراها تتنكر اليوم لهذا التقليد العريق في ورود كل خبرة بشرية و "توظيفها"، اذا صح القول، لحمل الكلمة بحيوية وفصاحة وتقبّل افضل؟ اليس هذا ما نشعر به اليوم كل مرة تُدان خبرة لاهوتية او راعوية تستند الى تحليل جديد للواقع، هنا وهناك؟

ان المجمع وضع الكنيسة في شبه مسيرة حج متفائلة نحو.. العالم! لسماعه، للانصات اليه، للوصول الى اسئلته الصحيحة.. ولمحاولة الاجابة اليها؛ اجل، ولكن هل للكنيسة اجوبة على كل الاسئلة؟

هذا وجه آخر مما يطرحه روح المعاصرة على الكنيسة.

ولعل الخطيئة الرئيسة تكمن في مثل هذا الادعاء الذي غالبا ما يجر الى مواقف قاطعة وقطعية، ويعطي الانطباع لدى بعض رجال الكنيسة –وليس في المراتب العليا حسب– ان لهم اجوبة جاهزة وأدوية سارية المفعول ولكل العلل، لا تنتهي مدتها ابداً...!

أليست الكنيسة هي ايضاً في حالة بحث عن بعض الاجوبة؟ ام من العيب ان تبدو انها لا تملك اجوبة نهائية لكل شئ؟ ولعل مسألة الاخلاقية الاسرية والعلاقات (الانجاب، الجنس..) ومفهوم ممارسة السلطة والرسالة (طريقة تعيين الاساقفة واستقلالية الكنائس المحلية، موقع العلماني في الكنيسة..)، وحرية البحث اللاهوتي (اللاهوت الاساسي، لاهوت التحرير..)، وعلاقة المرأة بالكهنوت (الكهنة المتزوجون، القسيسات..)... لعل هذه المسائل هي من القضايا الكبرى التي عرّضت مصداقية المؤسسة الكنسية للاهتزاز في السنوات الاخيرة، لانها اعطت الحكم القاطع، من زاويتها الخاصة، في مسائل لا يمكن ان يغلق باب البحث فيها بمجرد قرار يصدر من فوق! ألا يمكننا ان نرى في هذه "المواجهات" نقصا حقيقيا في شروط الحوار، والاكتفاء باتخاذ القرار الجازم، من طرف واحد، عوضاً عن المؤمنين في القاعدة، وكأنهم مجرد قاصرين او مستَلَبين؟ أليس أن اول شروط الحوار هو الاستماع واعطاء حق ممارسة الكلمة للطرف الاخر، حتى اذا لم يكن هذا "الاخر" نداً خارجياً مناوئاً؛ وبكلمة اوضح، حتى اذا كان هذا الحوار بين السلطة الكنسية "المعلمة" والمؤمنين، او فئة منهم؟

في الكنيسة–المؤسسة عقدة قديمة مستفحلة، وهي الادعاء بامتلاك الحقيقة كلها، وحدها، لذا تعطي لنفسها حق الجزم القاطع متى ما شاءت. وعلم النفس والاجتماع يقولان –وقولهما يستند الى الواقع الخاضع للاختبار– ان كل شعور بالضعف او النقص او قصر الحجة، في الفكر او اسلوب الحكم، يُعوَّض عنه بالادعاء، او الجزم القاطع السلطوي، او بالتموقع فوق الآخرين... وهذا موقف دفاعي صرف، أي تحفز وقائي وانفصال عن الآخرين يأتيان نتيجة عجز عن بناء صلة متكافئة معهم. ان العبور من كنيسة مؤسسة تظن انها تعرف كل شئ وتنفرد بحكمها، الى كنيسة تسمع وتستنير وتبحث عن الحاجات

الحقيقية لابنائها ضمن الحقبة التاريخية التي يعيشونها، هذا العبور هو اهتداء حقيقي معروض على كنيسة اليوم، وعلى مختلف مستوياتها، كنداء وكتحدّ.

فما تطالب به المعاصرة في النهاية كنيسة اليوم هو ان تكون كنيسة: تسمع قبل ان تتكلم، تستقبل عوض ان تحكم؛ تحب العالم قبل ان تتقي شرّه؛ تشجع اكثر مما تدين؛ تدفع الى الابداع، لا الى الخوف؛ تدعو الى التعبير عن الذات، لا الى الصمت؛ تنادي بالبشرى، لا تشكك"[٤].

* الكنيسة المحلية

ان نداء "المعاصرة والتحديث" الذي اطلقه البابا يوحنا ٢٣ في الكنيسة بعبارته الشهيرة (*Aggiornamento*) أراده "حالة جديدة" تعيشها الكنيسة المعاصرة في العالم المعاصر، بروح عنصرة جديدة، وبثقة لا حدّ لها بعمل الروح القدس الحاضر والفاعل في اعماقها. واذا كانت هذه "الحالة الجديدة"، نداء المجمع بنصوصه وحركيته الى الكنيسة الجامعة بشموليتها، فهي نداء موجه ايضا وبديهيا الى الكنائس المحلية —اذن الى كنائسنا الشرقية ايضا التي، كشقيقاتها، وقعت بشخص بطاركتها واساقفتها على وثائق المجمع: فجميعها، من دون استثناء، معنية بسلوك طريق التجدد والمعاصرة، بكل ما في الكلمة من ايجابية وجدة الجيلية، والا بقيت متخلفة ومتغربة تجر نفسها كعربة خيل هرمة لا تصلح لاكثر من نقل القش؛ علمًا بان التجدد والمعاصرة لا يتنافيان ابدا مع اصالة الهوية الذاتية ولا مع الامانة لتراث الاباء، بل ان هذه الامانة وتلك الاصالة تستدعيان التحديث، اذا اردنا للهوية الذاتية الا تكون مجرد بطاقة صفراء من الماضي، أو لتراث الاباء الا يكون متحجراً في متحف التاريخ الطبيعي.. وانما ان يستمر هذا التراث وتلك الخصوصية يرفدان حاضرنا بالابداع والحياة. أليس هذا هو سر الدينامية التاريخية للانجيل وتجسده الفعلي عبر حركة الحياة مع بقائه هو هو؟ وذهب الى القول بان الكنيسة المحلية، حتى آخر حلقاتها الفاعلة، أي الخورنة بمختلف انشطتها الراعوية والثقافية والاجتماعية، هي موضوع عيش وممارسة هذا التجدد وتطبيقاته الفعلية اليومية.

اننا نشهد اليوم في الكنيسة، بالرغم من كل شئ —اي بالرغم ممن يحبذون البقاء في اماكنهم او العودة الى الوراء— نشهد امورا كثيرة تتحرك او تفقد مواقعها السابقة. اشياء تموت واخرى تولد: هذه هي سنّة الحياة. ولانها كذلك، فهي ظاهرة صحية. السؤال الذي ينبغي ان يطرح هو: ما الذي يموت وما الذي يولد؟ اليس في الموت سر الحياة؟ فاذا كانت القشرة الخارجية وحدها تموت أو تتشقق، فلا بأس، طالما ان الحياة تتجدد في عروق الصنوبرة واغصانها!

---

(٤) المرجع السابق ذاته.

لنأخذ مثال ولادة الجماعات الصغيرة في الكنيسة. لقد شعر المؤمن، ولا سيما جيل الشباب، بالضياع في القطيع الكبير —والقطيع الكبير بطيء الحركة طبعاً، تسوقه غريزة البقاء بأمان ضمن جدران الحظيرة— فصار يبحث عن فضاء حيوي في جماعات صغيرة يشعر فيها اولا: بانه شخص معترف به ضمن جماعة دافئة من الاصدقاء ذوي الاحساس المماثل، وثانيا: حيث يمكنه ان يعبر عن ايمانه، بحرية وعفوية لا يجدها في الانقيادية التقليدية، وثالثا: حيث يجد حقلا للتطبيق وللشهادة الفعلية لايمانه الملتزم.

هذه الجماعات الصغيرة التي دعيت "بجماعات القاعدة" في اميركا اللاتينية وافريقيا[٥] كان لها دور كبير في التجدد الكنسي والوعي الرسولي والروحي لدى القاعدة هناك. وقد برزت في اوربا في هيئة عدد من الجماعات الرهبانية والعلمانية المكرسة الصغيرة الجديدة.

وعندنا في كنيسة العراق اليوم عدد غير يسير مما ندعوه "بالكروبات الصغيرة"[٦]. اننا لسنا هنا في سياق تحليل متكامل لطبيعة كل من هذه الكروبات التي تأتي لتحل محل الاخويات التقوية القديمة، والاخويات الرسولية التي توارت لاسبابها في اواسط السبعينات... ولكن بوسعنا القول ان المنتمين اليها يشكلون جمهوراً واسعاً من هؤلاء العلمانيين الشباب والفتيات والخريجين الذين يبحثون، في الواقع، الا يكونوا مجرد مستهلكين في كنائسهم، والعطاش الى ثقافة مسيحية ودينية ناضجة ومنفتحة تغذي ايمانهم بالحيوية والاشعاع. ومن هذا الباب نقول بان هذه المجموعات القاعدية —مضافة الى الطاقات الاخرى الكامنة في اعداد اخرى من اليافعين والشباب الذين لا ينتظرون سوى من يلتفت اليهم ويستنفرهم— يمكن ان تشكل طاقة علمانية واسعة للتحديد الروحي والفكري والرسولي لكنيستنا، وبالتالي لعصرنتها، لو توفرت فيها الشروط التالية:

١. ان لا تكون مجرد "فريق خدمة" قوي، ملحق لدعم انشطة خوري الرعية.
٢. ان تخرج عن طابع الحلقات المقتصرة على بنائها الذاتي، لتصبح مدارس تنشئة روحية ولاهوتية وكتابية جادة، تقرن الثقافة النظرية الرصينة مع الحس الرسولي والكنسي الملتزم، أي ان ترسخ فيهم الوعي اولاً: بانهم والكنيسة حالة واحدة، وبانهم بُناتها اليوم وكوادرها غدا، وثانياً: بانهم منذ اليوم رسل الانجيل حقا في كنيستهم وبلدهم؛ وبقدر اعتناقهم هذين الالتزامين، معا وفعليا، بقدر ذلك يمكننا ان نتفاءل حول مستقبل كنيستنا في العراق.

لا شك ان هذا التفاؤل يبقى مبتوراً، بل افتراضيا، اذا لم ننظر اليه ضمن سياق

---

(٥) انظر ف. م. حزيران٧٧ و كانون الاول١٩٨٤.

(٦) دورات لاهوتية، ودورات كتابية، ندوات، كوادر التعليم المسيحي، حلقات مختصة بدراسات روحانية او كتابية او منهجية معمقة، كروبات صلاة، فرق سهرات انجيلية، جوقات التراتيل الكنسية، المجالس الخورنية او لجان الخدمة، وعدد كبير مما يدعى بالاخويات الملحقة بالخورنات الخ...

اوسع، سياق كافة القوى الفاعلة الحية في كنيسة العراق. ومن هذه القوى، لا اذكر فقط الكهنة والرهبان والراهبات والتيار الحيوي والتجددي الذي يمكن ان يبعثوه في القاعدة الكنسية، بانشطتهم المختلفة وروحانيتهم المعاصرة المتدفقة وافكارهم وكتاباتهم ومواعظهم -ولربما يقال بان ذلك منتظر منهم اصلاً- بل اذكر ايضا وخاصة كل هذه الشريحة العلمانية المسيحية التي تعنى بالثقافة عموما: بالكتابة والتأليف والفكر والادب والبحث والتاريخ والفنون على اشكالها، احترافا وهواية.. كل هذه القوى، لو تعانقت كفاءاتها بايمان واع وملتزم، وساهمت مباشرة في رفد كنيستنا بابداعاتها المستلهمة من التراث المسيحي او تصب فيه، لشكلت قاعدة مسيحية متقدمة ومبدعة، وادخلت كنيستنا العراقية في عهد جديد.. هل أحلم؟ من لا يحلم ليس له ما يحققه! ولكنني اعود فاقول : ان هذه الجماعات كلها لن تلعب دورها في كنيستنا الا اذا وجدت لها فيها "موطناً": ففي مجتمع كمجتمعنا، تعطى القيادة فيه والقرار بيد السلطة والمؤسسة، لا يمكن لها ان تلعب دوراً نبوياً حقيقيا ما لم تنل ضمان الكنيسة المؤسسة: وهذا "الضمان" يعني ويستدعي في واقع حالنا، تغييرا عميقا -إن لم اقل اهتداء جذريا- في طبيعة العلاقة بين القمة والقاعدة في كنيستنا: بين الاساقفة وكهنتهم، بين هؤلاء والعلمانيين، بين الاكليروس والكوادر الفكرية او الاجتماعية الاخرى، بين المرشدين وكروباتهم، بين السلطة الكنسية ووسائل النشر والاعلام ومنها الصحافة بالذات، بين عملية التعليم المسيحي ذاتها ونوعية المادة التي تعطى، بين موقع الكاهن الاجتماعي والديني ونوعية التنشئة التي ينالها.. والاعتراف من ثم بدور كل فريق او نشاط في حياة الكنيسة ورسالتها: ولكي يتم ذلك بصورة متناغمة، ينبغي احترام خصوصية وتمايز كل دور ضمن سياسة راعوية منسقة وتخطيط.

اعرف ان ما ادعو اليه يشكل تحديا كبيرا لكنيستنا في وضعها الحالي، ولكن جزءاً كبيرا من مستقبل كنيستنا في العراق يعتمد على الجواب الذي نعطيه لهذا التحدي؛ كما اعرف ان ذلك لا يتحقق بين ليلة وضحاها، وانما هو مشروع طويل الامد، يتطلب تخطيطا وآلية تنفيذ دؤوب في منظور انجيلي وكنسي شمولي ومستقبلي، يتفاعل ايجابيا مع واقعنا الاجتماعي والثقافي، الكنسي والقومي.

الأب جرجس القس موسى

طقوس حية معاصرة

في هذا المقال، كما في العديد من مقالاته، تبرز موهبة الاب يوسف حبي في وضع الاصبع على الجرح عبر طروحاته ومعالجاته للعديد من القضايا والمسائل التي تتعلق بحياة الكنيسة وليتورجيتها ونشاطاتها الثقافية والرسولية... ومقاله عن الطقوس الكنسية في هذا العدد الخاص بالذات، يأتي بمثابة تتويج للتحديث الذي ما زالت تحتاج اليه طقوسنا، وقد ظلت تُراوح في مكانها وكأن رياح المجمع لم تهبّ فيها فقط!

- لماذا التمسك بطقوس تراثية فقدت معانيها؟

- كيف الوصول الى ممارسات دينية تتجاوب مع تطلعات انسان الالف الثالث؟

ويوضح المقال، بادئ بدء، ما للرمز من قيمة شمولية طالما ان الطقوس تقوم عليه، ومن خلالة يتجلى السر الذي تحتفل به. وسنبقى دوماً بحاجة الى طقوس هي بالتالي تعبير حسّي عن ايمان الجماعة، ويجب من ثم أن تتجدد دوماً لتعَني وتجسّد ما تحتفل به... وحذار من طقوس جامدة لم تعد تعني الكثير لمؤمني اليوم، لا سيما اذا كان ذلك الجمود بسبب اللغة الطقسية التي لم تعد مفهومة، او بسبب الرموز التي يجب تحديثها... ودعا الاب حبي الى محاولة السعي لجعل الاسرار اكثر حيوية ولا سيما العماذ والافخارستيا، عبر مقترحات عملية ساقها في الختام.

* السر والرمز في الحياة

سيظل الكون وما فيه لغزا رغم انكشافات ملامحه وانجلاء ابعاده، والا فحدثوني عن كل ما في الكون وتفاصيله من خفايا؟ لست اقصد الماديات وحدها، بل عالم الفكر والقلب والحس، وكلنا ادرى بما في عالم الروح من اسرار. انما لا يعني السر العماذ. وليس المخفي هو الجانب الوحيد في السر، اذ في السر جانب خفي، وآخر معلوم، كالرمز تماما، تحاول كشفه، كمن يقشر البصلة طبقة طبقة. لكنك حتى بعد ان تعد اصابع رجليك لن تمشي اسرع، لان الرمز لا يكشف حقيقته الا لمن يتعنى الاستقصاء ويسلك دروب الاختبار الوعرة، ويلتزم وجدانيا في الغوص في ما يسميه اخرون متاهات، وهو العمق والجوهر والصمت، تحدّيا للصخب والمغريات والشكليات.

ان الحقيقة هي في السر والرمز، وعلينا اكتشافها، وبالكشف عنها يحقق المرء هدفه في الحياة.

ولا بد من اشارة عابرة الى ان حصر الرموز في امور دون غيرها، واعتبار الاسرار دينية وندرة، ينافي الحقيقة، لان كل ما في الكون رمز يتطلب تفسيرا، وقد أكد تراثنا الكنسي والمشرقي ان الرمزية تعم الكون

كله. ولئن كانت الطقوس(الليتورجيا) اسراراً ورموزا، فهي لا تحصر الممارسات الدينية كلها؛ فالليتورجيا، بالمعنى الاوسع، غائية الكون باسره، أي تمجيد الله.

لا يعني اطلاقا ان الطقوس يجب ان تكون غير مفهومة، لانها اسرار ورموز، وليست بحاجة الى شروح مسهبة ليُفهم القصد منها، بل على العكس، ينبغي ان تكون هي نفسها شارحة الرموز والاسرار. هذه هي وظيفة الطقوس في الاساس: ان انتفت، اصبحت جامدة، عتيقة، ميتة، وينبغي استبدالها بطقوس حية ملائمة، لان الرمز هو افضل شكل لايضاح شيء مجهول نسبيا، او هو صلة محسوسة تستحضر شيئا غائبا لا يمكن ادراكه بسهولة، بل الرمز ثراء وجودي يوحي بافكار جديدة. والا..

ولنأخذ مثل الماء الذي لا غنى لنا عنه. بدونه لا ينبت زرع، ولا يعيش حي، واذ ينقطع يوما عن بيوتنا، تتعالى الاحتجاجات، فالماء ضروري للحياة والنظافة. كما له اخطار: الطوفان، الفيضانات، العواصف التي قد تسبب كوارث وخيمة، بل الموت. وبين جدلية الحياة والموت، عليك ان تعطي معنى للماء الذي يستخدمه طقس العماد. فهل نقول فورا ان المعتمد في الماء يدخل ظلمة الموت ليخرج حيا، وقد عبر من الشر والخطيئة الى البرارة والخلاص؟ ام ان العماد بالتغطيس يعني ايضا الغطس في بحر الحب الالهي حيث لا تيه ولا عماء، بل نجاة وسعادة؟

لن نتعجل الامور. فالحب بحاجة الى علامة (خاتم..) غير ان اولى العلامات: الكلام. لذا جاءت لفظة "أحبك" صادرة عن قلب المحب أجمل من كل الرموز والهدايا. ولاننا بشر، فاننا نحتاج الى توثيق لئلا يبقى الامر فكرة او كلمة عابرة، فيأتي مسك اليد، والمعانقة، وحفلة الزواج، وثياب العرس الخ... وهكذا في الطقوس.

✲ الاسرار والطقوس الدينية

لم تخل الديانات والعبادات، منذ اقدم العصور، من اسرار وطقوس، وكانت الاسرار موضوعات ايمان وتعبد، والطقوس رتبا ودلائل. وسواء في ديانات البدائيين، كما في ديانات الحضارات القديمة، كما لدى البابليين والمصريين والهنود، وسواء لدى العبرانيين في العهد القديم، كانت الطقوس (الليتورجيا) تعبيرا حضاريا وثقافيا عن ايمان الجماعة وتعبّدها. وما اختلاف الطقوس الا بسبب الزمن والحدث، لان العلاقة القائمة بين الليتورجيا وبين الانتروبولوجيا (علم الانسان بطريقة كلية شاملة) علاقة جوهرية، بحيث ان حياتنا هي ليتورجيا، أي طقوسية شعبية يتجلى فيها موضع الزمن والاحداث وحضور الاشخاص والمعتقدات. وبديهي ان تكون طقوسا دينية من حيث البعد الديني للانسان.

لذا فمن الخطأ الفادح القول: لا حاجة بنا اليوم الى طقوس، ويكفينا كلام الله، والكتاب.. او القول ان الطقوس هي السبب في اختلافاتنا، فلنوحدها برتب بسيطة، ولنلغ

كل ما يفرقنا طقسيا. انه حديث ساذج، لان الحقيقة، الفكرية والواقعية والمسكونية، أعمق بكثير، ولكنك قد تقول بحق: لا ذكر للاسرار في الانجيل، بل ان المسيح حارب الطقوسية وكل من يتمسك بالرتب بتزمت، فبكّت الفريسيين على تمسكهم بعادات وتقاليد، واطلق القاعدة الذهبية: السبت لاجل الانسان، لا العكس.

ان أي تمسك بالقشور على حساب الجوهر مرفوض، وفي الطقوس مظاهر وتقاليد خاضعة لتبدل الازمنة والامكنة والاشخاص. ويلحق التزمت فيها ضررا بالانسان والجماعة، لذا ندّد المسيح بها.

مهما يكن، سواء كانت الطقوس مشخصة في الاسفار المقدسة، ام ان الكنيسة (جماعة المؤمنين في كل زمان ومكان) ارادتها للتعبير عن الاسرار المسيحية الكبرى، فهي قائمة، ومقبولة، شرط ان تعبر عن موضوعات الايمان، وتنشئ علامات حب، والا غدت المسيحية بدونها، مؤسسةاجتماعية او منظمة ثقافية او جمعية خيرية او مذهبا روحانيا محضا، ولو ان هذه ايضا بحاجة الى تقاليد طقوسية تعبر بها عن حقائق وجودها.

صحيح ان لفظة "سر" بالمعنى الطقوسي، غير واردة في الكتاب المقدس، ولا نلقى مفهوم الاسرر كمصطلح كنسي قانوني قبل القرن الثاني عشر، الا ان المفهوم الديني يدلل على حقائق الايمان؛ لذا حين كرست الكنيسة "الاسرار السبعة" في القرن ١٦، لم تخترع شيئا جديدا، بل عبّرت بصياغة رسمية عما عاشه المسيحيون منذ السنوات الاولى. وبعد ان كان كل شئ "سرا"، أي علامة من الله، كالعالم، الكنيسة، الكتاب المقدس، القريب (لا سيما الفقير)، اصبح التركيز على علامات محددة، ولعلها خسارة في اهمال العلامات الاخرى.

* معاني الاسرار الكنسية

ينبغي البحث عن امورثلاثة في الاسرار الكنسية وطقوسها:

١. حدث يسوع المسيح الفريد

٢. التراث الذي به عبرت الجماعة المسيحية منذ البدء عن حدث المسيح (البدايات)

٣. الايمان التعبيري للجماعات المسيحية عبر الزمن وفي ايامنا (التحديث المستمر)

كل ما في الكون يحمل بعدين، الواحد باد للعيان، والاخر خفي لا يمكن بلوغه الا بالتأمل. والله هو السر الاكبر، يعتلن في الكائنات، لا سيما في المسيح، كلمته، صورته، قصده وتحققه في العالم. والسر لقاء الله بالانسان، من خلال علامات ورموز وطقوس، المسيح سر الاب، والكنيسة سر المسيح. ويتجسد سرا المسيح والكنيسة عمليا في العماد والقربان، لان علامة اللقاء عهد يقطعه الله مع البشر (هو الاب)، ويتجسد حبا وخلاصا

وحياة (بكلمته وروحه)، هادفا سعد الانسان، مقتضيا جوابا بثقة بنوية، ومسيرة فداء نحو حياة افضل.

ويأتي الحدث الفريد من ان الله اعطى ابنه الوحيد للعالم اجمع (يوحنا ٣:١٦)، بتدبير ابوي فائق، بحيث غدا المسيح سر خلاص فصحي (يوحنا ١٢:٣٢)، بعبور الله نحونا والتفاته الينا (فهو الاب والراعي)، فتمكنّا بالمسيح ان نعبر نحو الله، لان المسيح هو من يجذبنا نحو الاب، هو الطريق والحق والحياة (يوحنا ١٤:٦)، لكي نؤلف واياه جسدا واحدا (١قورنتس ١٢:٢٧)؛ والدعوة هذه هي شاملة، لان الله اب للجميع، والخلاص لكل ذي جسد، وان كان ثمة اختيار فهي رسالة لا امتياز، ودعوة الى حرية ابناء الله، باقتفاء آثار الروح بحب خالص، اذ لا فرق بين انسان وانسان، ولا بد من ولادة جديدة بالروح، وامانة للعهد. والولادة بالروح هي بالايمان والاسرار، اذ لا يكفي فعل ايمان مجرداً من الافعال، ولا انفراديا منعزلا، بل انه التجسيد الايماني في واقع الانسان الاجتماعي والمرتبط عضواً في جسد هو العالم دنيويا، والكنيسة ايمانيا، بحيث يصبح تجسيد الايمان في الاسرار ضرورة انجيلية.

وما الاسرار سوى علامات الحضور الالهي والكشف المسيحاني والتجسد الكنسي: انها اعتلان الله. فالمسيح هو تجسد الله، ومحبته تجسيد بشري لمحبة الله الخلاصية ومجيء الله الينا بصورة منظورة. ولان هذه الاعمال البشرية هي في الوقت عينه اعمال الله، فهي تملك في جوهرها قدرة الهية للخلاص، بل تمنح الخلاص؛ ولان قدرة الله تظهر في صورة ارضية منظورة، كانت اعمال المسيح الخلاصية من نوع السر، أي عطية خلاص تأتي الينا مرئية في قلب التاريخ، بحيث يمكن تحديد السر انه: عمل مقدس يُمنَح فيه المؤمن نعمة الله غير المرئية بعلامة منظورة. ولان في التجلي عنصر حضور وعنصر غياب، اقتضى الامر ايمانا (١قورنتس ١٢:١٣-١٣) لا يمكن ان يكون معزولا عن جسد الكنيسة (يوحنا ٢٠:٢١-٢٢).

والاسرار استمرار للتجسد. (فالعماذ) مرتبط بمجيء المسيح، يأتي الى حياتنا ويجعلنا اعضاء في جسده لنحيا على مثاله حياة ايمان، تمنحها الكنيسة، فيتواصل عمل المسيح، ويُختم بالروح القدس بفضل التثبيت (الميرون)، وتغدو الحياة كلها محبة بالقربان (الاوخارستيا)، ويتجلى الحنان والغفران في (التوبة)، ويُمسح خدام للتبشير (الكهنوت)، بينما تسكب المحبة في قلبين لاتحاد خصب (الزواج)، ويتخذ الاهتمام بالمرضى طابعا متميزا (مسحة المرضى) تجسيدا لحب الله للبشر.

✲ عفوية الطقوس وملاءمتها عقليات الازمنة

ونأتي الى السؤال الصعب: هل طقوس اسرارنا مفهومة اليوم؟ هل كانت دوما هكذا؟ وهل في الامكان اجراء تغييرات لكي تتلائم وعقلية انسان اليوم وكل عصر؟

نبدأ بمقولة، قد يظنها البعض مبالغة وهي حقيقة: ان الطقس الجيد لا يحتاج الى شرح وايضاحات. لذا، فان أي طقس يحتاج الى ذلك هو غير صالح، الا اذا كانت الشروح والتفاسير من باب التعميق للتقرب الى السر الذي يقدمه الطقس بعلامات.

لنأخذ مثالا المسح بالزيت. انه يعبر ببداهة ووضوح عما يعني، في تقليد وحضارة وازمنة يعرف انسانها ما وظيفة الزيت طبيعيا، اجتماعيا، وروحيا. فان انتفت هذه المعاني لدى شعب معين، او في زمن ما، كان من الضروري ابدال العلامة. وهكذا قبلة السلام، ينبغي التعبير عنها كما في كل بلد وعصر. لذا قال المجمع: "في الليتورجيا قسم لا يقبل التغيير، من وضع الهي، واقسام تقبل التغيير، يمكن بل يجب اجراء التغيير فيها مع تقلب الزمان.. فيجب ان تنظم بحيث تعبر اكثر عن الحقائق المقدسة، ويتمكن الشعب المسيحي ان يدركها بسهولة، وان يشترك فيها اشتراكا كاملا وفعالا وجماعيا (الليتورجيا المقدسة٢١).

والعلامات، اما طبيعية او اجتماعية او حضارية، ومن البديهي ان تتشابك، لان الطبيعيات ليست فينا الا "انسانيا"، والفردية لا تقوم الا جماعيا. واجمل الطقوس هي التي تحكي، سواء بالكلمة ام بالرمز، تكون مفهومة الكلمات، واضحة الرموز، عميقة المعاني، وتكون علاماتها تعبيرا انسانيا مؤثرا، ورتبها احتفالات بل تظاهرات اجتماعية تتفجر من خلالها انوار الحقيقة المقصودة.

فعليك، اذ تود التعبير عن حبك ان تطلق من اعماقك كلاما يفصح بوضوح عما يجيش في داخلك، فتقول "احبك"، وتشهد لحبك بعلامة، فتقوم بفعل حب، او تقدم هدية، او توثّق الحب برتبة لديمومته. وكثيرون يسيرون في الشارع والساحات. انما مسيرة الاحتفال الديني غير السير العادي او التظاهرة. وبوسعك استخدام العناصر كلها بشكل وبآخر: فالماء والهواء والنار والنور والخبز والملح والزيت والخمر اكثر من معنى، انما تكتسب المعنى المقصود في الطقوس من:

١. التعامل البشري، في النظام والترتيب والاحتفال.
٢. الوضع الذي يتخذه الانسان وهو يستخدم احد هذه العناصر، وقوفا، ركوعا..
٣. نوعية العمل الذي يقوم به وهو يستخدم العناصر، كالتغطيس في الماء، والدهن بالزيت، ووضع اليد، واشعال شمعة، وكسر الخبز.

ولا بد هنا من ابداء ملاحظة مهمة هي: ان الثورة الصناعية والتطور التقني ومتطلبات الزمان ومشاكله ووسائل الاعلام السمعية والبصرية قد عملت على تضييع الكثير من معاني العلامات والرموز، وخنق قوة الكلمة العفوية... فحذار من الاستسلام لسيطرتها واغراءاتها، وليت المرء يظل "بسيطا" في هذه الامور، فيحكي له صوت بلبل قصة، ويدهش امام بهاء وردة او فراشة او شروق، ويستكين في هدوء بحيرة وخرير شلال، ويسعد في عيني طفل وحضن أم، ولا يتيه في خضم اجواء مصطنعة... لان جمالية الوجود في الايحاءات

الطبيعية اولاً، والا فقدنا الحضور الذي لن يكون عميقا الا اذا ابتدأ صحيحا، فيدل على ما يعنيه، بعفوية وبساطة ووضوح وعمق، والا فيجب ابداله بما يراد من معان عبر دلائل ورموز يستوعبها من يحتفلون بالاسرار.

وبعد ان قامت الكنيسة اللاتينية بخطوة جريئة في تجديد طقوسها، على الكنائس الشرقية ايضا ان تفعل ذلك، اذ جاء في قرار المجمع الخاص بها وجوب الحفاظ على الطقوس والتقاليد والنظام، انما مع ادخال التغيير الذي تقتضيه معرفة النمو الذاتي العضوي، والزيادة لبلوغ أعمق، والممارسة بكمال اوفر (رقم ٦).

٭ مثالان: العماذ والطقس

ان تمضي العمة او الخالة وربما الام ايضا، مع بعض انفار لتعميد الولد شيء. وان يتم العماذ وسط احتفال كنسي جميل وبعد تميؤ واستعداد، امر يختلف تماما. وان ينفرد الكاهن والشماس بتلحين صلوات غير مفهومة، فيما يقبع المؤمنون متفرجين شيء، وان ينقلب القداس لقاء اخوّة وفرح ومشاركة حقيقية شيء اخر تماما. لماذا الحالة الاولى في المثالين، ولماذا الثانية؟ السبب هو فقدان العماذ والقداس وضوح المدلولات والرموز، والتمسك المتزمت بالشكليات بعد ضياع العمق الاصيل. لذا نستعرض باسطر اهم مراحل تكوين هذين السرين، لنخلص الى مقترحات عملية نجدد بها ما هو في الاساس من حياتنا المسيحية.

(١) المعموذية:

الاغتسال والاستحمام والوضوء والنضح بالماء امور استخدمتها معظم الديانات القديمة، للتطهير، والتجدد، وغفران الخطايا. ومعروف هو دور التعميد المنداتي لدى الصابئة، كما كان الاسينيون (في قمران حول البحر الميت) يتهيأون سنة لغسل طقوسي يرافقه خلع الملابس وارتداء اخرى مع القيام بافعال توبوية. وامتد ذلك في المسيحية، انما بينما يتكرر عماذ الآخرين، لا يتكرر العماذ المسيحي لانه مرتبط كيانيا بحدث تاريخي، الهي وخلاصي، كما يؤكد قانون مجمع نيقية (عام ٣٢٥). وبينما الطهارة الخارجية هي مؤشرة في طقوس الديانات الاخرى، يتخذ العماد المسيحي بعدا نهائيا، اذ يدخل المعتمذ ملكوت الله، وله دور جماعي. وبينما معموذية يوحنا مؤقتة ونبوية وعماذ وماء، تركز معموذية المسيح على الروح وعلى المعاني التالية: الولادة الجديدة والاشتراك في حياة الله، ومشاركة المسيح في موته وقيامته، والانضمام الى الكنيسة جسد المسيح؛ فينعم المعتمذ بخلق جديد، ونعمة التبني الالهي، واستعادة البرارة، وحرية البنوة الالهية. وتتم رتبتها باعلان الايمان، وتقديس الماء والزيت، والتغطيس بالماء، وارتداء الثوب الجديد، والتثبيت في الايمان بالروح بختم الميرون، والمشاركة في كهنوت المسيح ورسالته... ومن المؤسف ان لا تبرز هذه الحقائق في عماذاتنا السريعة والرتيبة.

(٢) الاوخارستيا:

سر الشكر لله. والشكر من العواطف الانسانية، يُخرج الانسان من ذاته ويحمله على الانفتاح على الاخر لقبول ما يقوم به من حسنات بحرية وسخاء، فتنشأ علاقة بناءة تسهم في تكوين الذات والكون. وجوهر كل دين صلاة شكر، عبرت عنه الديانات قديما بذبائح وقرابين: بتقدمة تجعل الله حاضرا في العالم المنظور، اذ يدخل البشر مع الله في عهد توثقه الذبيحة التي تتخذ طابعا دمويا لتتكرس المعاهدة، ثم يتم تناول القربان لتحقيق الشركة على الصعيدين الافقي والعمودي. وفي العهد القديم قرابين شكر، وتكفير عن الخطايا، وسلام ومصالحة، والفصح سهر (ليلة خلق العالم)، وظهور الله لابراهيم، وللمصريين، ونهاية العالم. ورتبة الفصح اليهودي: كاس، وغسل الايدي، واكل حَمل مع اعشاب مرة وخبز فطير، وتفسير للنص الكتابي. نلقى هذه العناصر في العشاء الاخير، طورّها التقليد الكنسي فكان عشاء الرب: قراءات وتفسير، تقدمة، ذكرا واستدعاء للروح، شكراً وتمجيداً، تناولاً. فالاوخارستيا سر حضور كلمة الله بتدبير الهي وخلاصي، وسر حضور الروح القدس لتكوين جسد المسيح، بالاشتراك في ذبيحة المسيح، موته وقيامته، لمشاركته حياته وعيش الملكوت بمحبة حقيقية تتطلب المقاسمة بين الاخوة والاهتمام بالاضعف. وكم هي بعيدة قداديسنا عن هذه الحقائق السامية...

وهنا أسوق مقترحات تشمل سائر الطقوس، بهدف جعلها حية تواكب الازمنة والامكنة لتلبي تطلعات الانسان المعاصر، دون تزمت ولا انفلات، مواجهين واقعنا الصعب بشجاعة، لكي تبدو الرموز آيات تنطق بالحضور الالهي والخلاصي، الحي والجديد والمبدع. واكتفي بركائز وقواعد يمكن منها استخلاص الكثير.

١. امتحان كلام الاسرار والطقوس، والتخلص من المعطيات الحضارية السلبية او التي تجاوزتها الحياة (كالتركيز على المعطيات الزراعية)، وادخال مفاهيم معاصرة. وأود التاكيد على سلامة اللغة (العربية في اوساطنا) سواء بالنسبة للنصوص ام بالنسبة للاناشيد والصلوات غير الطقسية.

٢. يسري هذا على وجوب اعادة النظر في الرموز عينها، لترك ما لم يعد يعني شيئا لانسان اليوم، وادخال رموز اكثر ملاءمة، مع التنبه الى عدم تجريد الطقوس والصلوات من رموز ورتب وحركات بحجة العصرنة، واخذ الاعمار والظروف بنظر الاعتبار.

٣. ولا بد من استحداث رتب وطقوس جديدة تتناول موضوعات عالمنا، كالوحدة والالتزام والتضامن، وللشباب والاطفال والعائلات والاخويات والرياضات الروحية، حتى لو بنيت على هيكلية الطقوس التقليدية نفسها (للقداس، والعماذ، والتوبة، والزواج، والكهنوت...).

٤. ترتيب صلاة طقسية جديدة مستوحاة من التراث الطقسي والاباء ونصوص الكتاب المقدس، والتمييز بين صلوات الرهبان، والكهنة، والمؤمنين العلمانيين.

٥. طبع الكتب الطقسية المجددة، ووضع شروح وتفاسير، وتوفير كتب للمؤمنين لمتابعة الطقوس والصلوات والاناشيد، والاستعانة بالوسائل السمعية والبصرية لخلق نهضة طقسية شاملة، مع التأكيد على تدريس مادة الطقس في كلية اللاهوت والدورات والحلقات اللاهوتية، واقامة ندوات متخصصة، بل معهد ومركز بحوث لليتورجيا.

لا يكفي ان يعمل ذوو الاختصاص، ولا المسؤولون الكنسيون وحدهم، على انعاش الطقوس وتجديدها، بل على القاعدة ان تتحسس هذه الحاجة الضرورية لحياة مسيحية متكاملة. فان الليتورجيا هي "الينبوع الاول والضروري الذي يستقي منه المؤمنون الروح المسيحي الحقيقي" (الليتورجيا١٤).

الأب يوسف حبي

البشرى الانجيلية لعالم اليوم

في مقدمة الامور التي يجب ان يطالها روح التجديد هي البشرى الانجيلية، لا بمعنى ان هذه البشرى عتقت وشاخت، بل بمعنى ان عليها ان تشق طريقها الى عالم اليوم لتكون فيه حياة ونوراً وملحاً ... ذلك لان بشرى الانجيل هي البشرى بملكوت الله الذي افتتحه يسوع بقيامته، وهو العالم الجديد الذي تسوده الشركة والاخوّة والحرية والمحبة والعدالة ...

بشرى لعالم الامس! تحت هذا العنوان، راح الاب يوحنا عيسى يبرز بشارة يسوع، لا بصفته حامل بشرى الملكوت حسب، وانما بصفته محققها في ذاته، وقد دعا الى الايمان والتوبة والولادة الجديدة، وبكلمة: الى جدّة الحياة. إلا ان هذه الدعوة للدخول في العالم الجديد رهن بحرية الانسان وقدرته على التجاوب مع متطلباتها، وهي مفتوحة امام جميع الناس من كل الشعوب.

بشرى لعالم اليوم! مهما اتسم به عالم اليوم من رفض وتنكر ولا مبالاة ازاء البشرى الانجيلية، بسبب التحولات الاجتماعية والثقافية والحضارية ... الا ان حاجته الى بشرى تبدو اليوم اكثر الحاحاً مما مضى، شريطة ان يعرف حاملوها من المسيحيين، من اعلى السلم الى ادناه، كيف يبلغونها وبأية لغة واية اساليب ... ولعل افضل طريقة لحمل البشرى الى عالم اليوم هي الشهادة لانجيل العدل والمحبة والتضامن ... شهادة تجسدها الكنيسة عبر مواقفها الى جانب الانسان في معاناياته وتطلعاته.

لا يمكن لأي انسان اليوم الادعاء بان العالم والانسان قد تجددا بما فيه الكفاية، وذلك على الرغم من كل التقدم والرقي والتطور الذي حصل لهما.

فالبعد البشري، او لنقل الانسان القديم لا زال كامناً ونائماً فينا، هذا الانسان الذي يترع الى القوة والحسد والغيرة وحب الثأر والسيطرة والاستغلال والاستبداد، وهناك تماثل وتطابق بين الاوضاع الانسانية السائدة في زمن يسوع وفي زماننا، وما زلنا نعيش النزاعات والخصومات والحروب، ونرى الظلم والتفاوت والعنصرية في العالم، والامراض والعاهات تفتك بالبشر.

ازاء هذا الوضع يتساءل المرء: ترى هل من سبيل الى معالجة ذلك؟

١. البشرى لعالم الامس

منذ الفي عام كانت البشرى. وليس في العهد الجديد وفي الكنيسة كلمة ترددت كعبارة "البشرى" التي بدأت في زمان ومكان محددين ولاناس معينين.

الا ان هذه البشرى اتخذت معاني عديدة ومختلفة. فهي قد تعني حقيقة ما سابقة للكلمة، كحقيقة ابوة الله او حقيقة اقتراب الملكوت وحضوره في قلب العالم. وقد

تعني، الكلمة التي تتضمنها هذه البشرى بالذات وتعبر عنها. من هنا نفهم كلام يسوع للمجرب اذ قال: "ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله"، أي ان الانسان لا يحيا من الحقائق المادية والحسية حسب، وانما ايضا واكثر من الحقائق الروحية التي تتضمنها هذه الكلمة. فالتركيز يتوجه، كما نرى، الى المقطع الثاني من الجملة. بهذين المعنيين، اذن، سوف نستخدم هذه الكلمة.

اما الهدف الذي كانت وما زالت تنشده البشرى وتتوخاه وتسعى اليه، فهو تحقيق بناء عالم جديد وانسان جديد على انقاض العالم والانسان القديمين، وهذا ما يسميه الانجيل "ملكوت الله" او "ملكوت السماوات".

ان هذا "الملكوت" هو عالم جديد تسود فيه الشركة والاخوة والحرية والمحبة والعدالة والصحة والقبول، عوضا عن الاضطهاد والحرم والظلم والتفاوت والتمييز والاستبداد والاستغلال والالم والمرض. يقول اللاهوتي الاب ادوارد شيلبكس: "ان ملكوت الله هو عالم جديد من حيث قد زال الالم، عالم من البشر هم بشر تماماً، يعيشون في مجتمع لم تعد قائمة فيه علاقات السيد والعبد، خلافا لما كان سائدا تحت الاحتلال الروماني تماما[1]. واما حامل هذه البشرى ومحققها فقد كان يسوع المسيح، "انجيل الله" (مرقس ١:١، و رومية ١:١-٣)، أي بشراه.

ثمة علاقة وثيقة بين عماد يسوع واعلان البشرى من جهة، و "الرياضة الروحية" التي قام بها يسوع في البرية، قبل البدء برسالته من جهة اخرى. ففي العماد تلقى يسوع دعوته ورسالته كونه النبي الاخير للازمنة الاخيرة؛ ومن اجل الاستعداد لهذه الرسالة، انسحب يسوع الى البرية في ما اسميناه "الرياضة الروحية". بعد ذلك يشرع يسوع برسالته، فيبشر "سائر المدن بملكوت الله" (لوقا ٤:٤٣)، في وعي تام بان الله قد كلفه بهذه الرسالة: "لهذا ارسلني" (لوقا ٤:١٨؛ اشعيا ٦١:١).

الا ان يسوع ليس حامل البشرى بالملكوت حسب، وانما محققها. فلقد جعل هذا الملكوت حقيقة راهنة باقواله وامثاله واعماله، كل مرة حرّر من المرض والخطيئة والالم والموت، وحيثما عقدت شركة بين الله والبشر وقبلت توبة خاطئ. هذا الملكوت موجود حيثما سادت العدالة والمحبة، وكلما سقطت العلاقات التي تستعبد الانسان.

الا ان مجيء هذا العالم الجديد رهن حرية الانسان المدعو الى ان يدخله بوعيه وقناعته وارادته، ومن ثم يشارك في بنائه؛ لذا دعا يسوع كل الشعب اليهودي الى الدخول فيه، ومن ثم دعا السامريين والكنعانيين، الرجال والنساء، الشبان والشابات، بل الاولاد والاطفال الصغار.

---

(١) مرافعة من اجل شعب الله ص٢٩.

ولقد استخدم يسوع في دعوته هذه ثلاث عبارات وهي: "الايمان" و"التوبة" و"الولادة الجديدة". يقول يسوع في بداية رسالته الى اهل الجليل: "توبوا" (متى ٤:١٧)، وبحسب القديس مرقس: "توبوا وآمنوا بالبشارة" (١:٥). ويؤكد لضيفه نيقوديموس بوجوب الولادة الجديدة شرطاً للدخول في هذا الملكوت او العالم الجديد، اذ يقول: "ما من احد يمكنه ان يدخل ملكوت الله الا اذا ولد من علُ.. ما من أحد يمكنه ان يدخل ملكوت الله الا اذا ولد من الماء والروح". وهكذا تتعاقب هنا فكرتان: فكرة الولادة بقبول الكلمة بالايمان، وفكرة الولادة بالماء والروح، أي بالعماذ المقدس.

الا ان هذه المفردات الثلاث المختلفة قريبة من بعضها اذ تعبّر كلها عن مضمون واحد، وهو جدّة الانسان، وبالتالي جدّة الحياة. والدليل على ذلك ان يسوع نفسه قرّب بين التوبة والايمان.

فالايمان بالبشرى ينقل الانسان من حالة الى حالة. وبالتالي يجعله انساناً جديدا ومختلفا، وكذا الشأن مع التوبة التي تستهدف اجراء تغيير عميق وجذري في القلب والفكر لما بينهما من ارتباط وثيق. وهذا هو الهدف من الولادة الجديدة ايضا.

وفيما استجاب البعض لهذه الدعوة رفضها اخرون. ولا شك ان لكل فريق اسبابه ودوافعه: فاذا قبلها الفريق الاول، فلانها تستجيب الى حاجاته وتطلعاته في الكرامة والمساواة والعدل والحرية وغيرها، مما جعل هذا الفريق يقبل بها بفرح؛ ولما رفضها الفريق الاخر، فلانها تتنافى ومصالحه الجوهرية، كمصالح رؤساء الكهنة والاغنياء والاقوياء عصرئذ.

ولما كانت هذه البشرى ببزوغ فجر جديد للبشرية من الاهمية بمكان لحياة كل الناس، فلا عجب ان نرى يسوع يأمر –كما امر بالقاء الشبكة في البحر– بحمل هذه البشرى الى العالم اجمع، وذلك كامتداد لرسالته هو نفسه.

ويأتي هذا الامر على اثر قيامته التي جعلته ربا ومسيحا. فلكونه "الرب"، بوسعه ان يأمرهم، وبهذا الامر جعلهم رسلا مسؤولين عن رسالته بعد غيابه الحسي والمادي، لان التلميذ لا يظل تلميذا ما لم يُرسَل.

وهذه البشرى ليست موجهة الى زاوية او رقعة او بقعة محددة من العالم، او الى شعب او جماعة او فريق معين، وانما الى العالم بأسره والى الخلق اجمعين، ومن هنا نرى الطابع الشمولي لبشرى المسيح.

واما العماذ، فهو دخول في الايمان الذي عليه يتقرر مصير الانسان. وهكذا فان المرسِل يسبق الرسول، كما تسبق البشرى الايمان، والايمان يسبق العماذ، والعماذ يقود الى الخلاص. واذا ما لاقت البشرى معارضة من قبل اوساط يهودية ووثنية، فلأن هذه الاوساط رأت فيها خطرا، وقد ظهرت هذه المقاومة في المضَايقات والاضطهادات التي شنّتها على هذه البشرى. ولكن البشرى، بالرغم من ذلك، سرت كالنار في الهشيم، ولا سيما في

الاوساط الفقيرة، المستَلَبة والمستعبَدة من اليهود والوثنيين الذين رأوا فيها الامل في التحرر من العبودية والاستغلال والتبعية والفقر والهامشية. فلقد كانت البشرى التي تتوجه اليهم تسعى الى ردّ انسانيتهم المستلبة. فهل ترى بشرى اعظم واكبر من ان يكون الانسان انسانا، وان يكون موضوع تقدير ومحبة وثقة!

٢. البشرى لعالم اليوم

اذا توجهت البشرى الانجيلية الى عالم الامس، فهي موجهة ايضا لعالم اليوم والغد. بيد ان هذه البشرى تواجه اليوم عالما مختلفا عن عالم الامس في جانب، ومشابها في جانب اخر.

عالم اليوم يتسم بالاختلاف والتغيير والتعددية. فهناك اختلاف في الحضارات واللغات والتحديات والمعضلات المطروحة، مما يولّد صراعات وتوترات ونزاعات وحروباً عرقية وعنصرية، كما ان هناك تغييرات عميقة وجذرية احذت تطرأ على عالم اليوم، على كل صعيد: السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي وحتى الديني، ولا سيما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي؛ كما ان هناك التعددية في التعبير والاديان والاعراف والثقافات: ونأخذ العالم هنا بمعناه الواسع، أي الافراد في "الداخل" و "الخارج" والشعوب والحكومات والدول؛ وكل البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة.

ولئن كان العالم مختلفا بهذا المعنى، فهو شبيه بعالم الامس في جانبه الاساسي؛ الا وهو الجانب البشري، على الرغم مما وصل اليه من علم وتقنية ورقي وتطور. فلا تزال الغيرة والحسد والانانية وحب الثأر والسيطرة متسلطة وسائدة فيه، بكلمة واحدة لا يزال الانسان القديم يعيش فيه، هذا الانسان الذي يرفض احيانا ان "يصير مسيحيا" اعني ان يقبل بشرى التجدد والخلاص والحركة نحو تجاوز ذاته.

فمن الخطأ اذن الاعتقاد بان عالم اليوم ليس بحاجة الى البشرى الانجيلية، بل ان حاجته اليها اليوم اكثر من أي يوم مضى. ان البشرى الانجيلية طاقة داخلية تعمل على تغيير العالم، وهي قادرة على ذلك؛ يكتب القديس بطرس قائلاً: "فانكم ولدتم ولادة ثانية، لا من زرع فاسد، بل من زرع غير فاسد، وهو كلام الله الحي الباقي" (١بطرس ١:٢٣).

الا ان مثالية البشرى رهن بمدى قبولها كمنهج عمل للافراد والشعوب والحكومات بحيث تمس الحياة، هذا القبول الذي يرتبط بارادة الانسان واستعداده؛ وبقدر ما تُقبل البشرى، بقدر ذلك تكون فعالة ومؤثرة في حياة العالم. وفي الواقع تلقى البشرى ردود فعل مختلفة تبعا للاستعدادات، ففيما يرفضها البعض، يقبلها اخرون. اما اذا قبلت، فمن شأنها ان تحدث تغييرا وتجديدا ضروريا في الداخل في القلب والفكر، فتحرر العالم وتخلص من الخطيئة التي هي في اصل كل اشكال الاستعباد والاستغلال، القديمة والجديدة، والظلم والعنصرية والتفاوت التي يتعرض لها العالم اليوم، وتحرره من كل اصنامه وآلهته الصغيرة التي يصنعها

نيتشه بالتعويض عن الاله الحقيقي. هذه التجربة وقع فيها الانسان عبر العصور.

من هنا ضرورة نقل البشرى وحملها الى العالم كله؛ وعلى هذه البشرى ان تخاطب الجميع، مؤمنين وغير مؤمنين، قريبين وبعيدين، اولئك الذين اغتربوا عنها وفقدوها، إذ عليها يتوقف امر خلاص العالم او هلاكه (مرقس ١٦:١٧).

اما مهمة حمل هذه البشرى، فتقع على عاتق الكنيسة جمعاء، افرادا وجماعات، رؤساء وشعباً. وهذا حق وواجب عليها: "الويل لي إن لم ابشر"! قالها القديس بولس. واذ تقوم الكنيسة بهذه المهمة، فليس ذلك اختيارا او اكراهاً، وانما ضرورة والتزاما نابعين من الايمان الحي، وبتكليف من المسيح: "اذهبوا وبشروا وعلموا". هذا الامر الذي اصدره يسوع لتلاميذه السبعة عندما كانوا ذاهبين الى الصيد، وهم يرمزون الى كل تلاميذه في كل زمان ومكان: "القوا الشبكة".

وفي الوقت الذي على الكنيسة ان تقبل البشرى وتحملها، عليها ان تعيشها وتجسدها في واقع الحياة، لبناء هذا العالم الجديد في جسم العالم القديم؛ ويأتي هذا العالم الجديد كل مرة تعيش الكنيسة هذه القيم التي نوهنا اليها، وهو يأتي كل مرة تحارب الظلم والعنصرية والتفرقة والجهل والتفاوت والمرض والموت. واخيراً يأتي هذا العالم الجديد كل مرة تساعد فقيرا او محتاجا او تأوي شريدا او طريدا، هؤلاء الذين يتماثل يسوع معهم كما يتماثل مع تلاميذه المضطَهَدين (متى ٢٥:٣١-٤٠، اعمال الرسل ٤:٩).

اضافة الى ذلك كله، ينبغي ان تكون طرق نقل البشرى ملائمة مع عالم اليوم، ذلك ان لكل عصر طرقه. وفيما تبقى الطرق التقليدية ملائمة وصالحة، لا بد من استبدال ما اصبح عاجزا. وما يبقى صالحا دوما هي الكرازة الحية، ودور الكلمة اثناء الخدمة الطقسية، التعليم المسيحي، وسائل التعبير الاجتماعي، الاتصال الشخصي، الاسرار المقدسة، التقوى الشعبية.. وتبقى شهادة الحياة المعززة بشهادة الكلام هي الطريقة الاولى لحمل البشارة ببلاغة وتأثير وفعالية.

الاب يوحنا عيسى

الانسان المعاصر والخلقية المسيحية!

ما هي الخلقية؟ خلقيتنا الحاضرة، من اين والى اين؟ ما هي منابع الخلقية المسيحية؟ وماذا عن الوصايا العشر؟ وما معنى الخطيئة؟

اسئلة هي عناوين بنى عليها الاب لويس ساكو طرحه لهذا الموضوع الحيوي والدقيق، في عصر تبدو فيه الخلقية المسيحية قيوداً صارمة وسلسلة مفرطة من الاوامر والنواهي! ولكن حين تكون الخلقية اداة لحب اكبر وافضل -عملاً بكلمة القديس اغسطينوس: احبب وافعل ما تشاء!- فحينذاك تصبح الاخلاق سمة الحرية الحقة والمسؤولية الرفيعة.

بعيداً عن مفهوم ضيّق للموروث الاخلاقي، وسعياً الى خلقية تضع الانسان، اولاً وآخراً، في الصدارة، يجد المسيحي منبع خلقيته في بنوّته لله وفي دعوته للعيش في حرية الابن. بحيث تصبح هي المقياس لكل مواقفه وسلوكيته. ومَن مثل يسوع عاش بنوّته لله، في الحب والثقة والطاعة، فكان الانسان الكامل؟ وها نحن مدعوون الى "البلوغ الى ملء قامته"! من هذا المنطلق ليست "الكلمات العشر" سوى نعمة وبشرى، لا بل، هي "الحريات العشر الكبرى" التي يقوم عليها "العهد" بين الله وشعبه ... وما الخطيئة سوى رفض للبنوّة، وتخلّ عن العهد، وبالتالي انتهاك للحريات!

✵ معنى الخُلقية

ان الخُلقية او الاخلاق، مشتقة من فعل "خلق"، فهي إذن خُلقية خلاقة "على صورة الله ومثاله"، تعمل على اكتمال تأنس الشخص البشري.

والاخلاق في المصطلح اللاهوتي، هي الوعي بالخير والشر، والذي يَملكه كلّ انسان بالغ ليقوم بخياراته بين ما هو حسن او سيء، له وللآخرين. وفي هذا الحالة يحس نفسه حراً ومسؤولاً ويكون بوسعه ان يصدر احكاماً تقييمية: هذا حسن وهذا قبيح. ان الاخلاق ليست قواعد سلوكية ثابتة، مفصلة، ذات قيمة مطلقة لكل زمان ومكان! انما هي معرفة متوازنة للقيم تتطلب حكمة وحرية وشجاعة، لتزن صلاحية هذه القيم في مفردات الحياة اليومية في توجيهها صوب الخير وصوب الحب الافضل.. انها وعي دائم وحس باطني وتوافق متجدد مع الحياة. يقول الاب ري مرميه: "لا توجد خلقية الا لكي نحّب افضل ما يمكن ونوفر، السعادة للناس ولمجتمعات محيطنا وزماننا. ان ذلك يقتضي بحثاً يُصحَّح كلّ يوم، فلا يكون نوره في الكتب بل في الاصغاء الى روح الحب"[(١)]. اما

(١) تيودور ري مرميه، نؤمن جزء٣ (الخلقية)، ترجمة امين مرعي، بيروت١٩٩٣، ص٩٤.

الشريعانية او النظم الخلقية، فهي التعلق الصوري المفرط بخلقية ما، يحسب فيها المرء حساباً للمبادئ او التقاليد اكثر من الاشخاص، كما في موقف الكاهن واللاوي في مثل السامري الصالح (لوقا فصل ١٠). وهنا يأتي تصحيح المسيح: "السبت من اجل الانسان وليس الانسان لاجل السبت" (مرقس ٢:٢٧).

ان الانتروبولوجيا (علم الانسان) تثبت انطلاق البشر صوب العقل في تمييز ما هو حسن وما هو سيء، له وللآخرين، وان التنظيم الخلقي متأصل في تراث البشرية منذ ان وجدت: فهو يهذبها ويوحدها. كما لا يجب فهم الحرية او الاستقلالية بمعنى غياب الشريعة —فالقول الشائع: "احبب وافعل ما تشاء" مع عمقه، يحمل التباسات كثيرة— بل هي القانون الداخلي الذي يعرف الانسان الحرّ ان يلزم نفسه به في سبيل سعادته وسعادة اخوته... والله نفسه الذي خلقنا يدعونا الى المسؤولية الشخصية والجماعية، وبهذا المعنى تقول الرسالة الى رومية: "ان كلاً منا سيؤدي عن نفسه حساباً لله" (رومية ١٤:١٢). فاذا كان هذا الوعي ضالاً فينبغي انارته، او كان فظاً فيجب تلطيفه..

* خلقيتنا الحاضرة من اين والى اين؟

ان الاخلاقية هي اليوم في صميم مشكلاتنا الراهنة على انواعها، روحياً واجتماعيا ونفسيا واقتصاديا وسياسيا. فالمقاييس والمفاهيم والاعراف تغيرت على مدى السنين، في مجالات العلوم الانسانية، كالطب وعلم النفس وعلم الاجتماع ومسائل الحب والزواج والجنس والحمل والحياة والمرض والحرب والتسلح والعدالة والسلام والاقتصاد والالتزام السياسي.. في الماضي لم يكن يعرف المرء سوى قريته او مدينته وما يحصل فيهما من افراح او اتراح، اما اليوم فالتلفاز او المذياع والصحف تنقل لنا ما يحدث في اصغر بقعة من العالم.. العالم كبر وافاقنا اتسعت ومفاهيمنا تغيرت، الا اننا في مجال الاخلاق لا نزال نسير، في معظم الاحيان، وفق نسق ديني خلقي واحد، اقله من حيث المبدأ، يعود ولا شك الى الاخلاق القبلية والوسط الحياتي الزراعي، إن لم نقل انه متأثر بروحانية رهبانية صارمة! وهذه بعض امثلة: الفائدة! كانت الكنيسة سابقا تحرم المسيحي الذي "يقرض" بالفائدة، جملة وتفصيلاً، عملاً بوصية سفر الخروج: "للفقير لا تقرض عليه فائدة" (خروج ٢٢:٢٤). ولم تكن تاخذ بنظر الاعتبار بأن المال المستثمر جيداً يجلب ربحاً كبيراً —كما هي الحالة اليوم— فمن العدالة ان يشترك في الربح الدائن والمدين معاً! الرّق، لقد اجيز لسنين عديدة ولقد اقتضى انتظار القرن الثامن عشر حتى يحرر المسيحيون عبيدهم!! والمدارس المختلطة كانت ممنوعة ومعتبرة غير لائقة بسبب العقلية القبلية التي تنظر الى الذكور غير نظرتها الى الاناث! اما اليوم فقد اصبحت ملائمة ومُحبّذة كونها تخلق توازناً عند الجنسين... اما هدف الزواج، فكان الى زمن غير بعيد، الانجاب، اما اليوم فالاولوية للحبّ والشركة بين الزوجين!

لقد تعود الناس على مفهوم محدود للخلقية ويتصورونها مجموعة مبادئ صارمة ثابتة للجميع وملزمة في كل الحالات، تذكرهم بالمحرمات والنواهي، بالعقاب والثواب، وقلما ينتبهون الى النواحي الايجابية التي تتطلبها انسانيتهم ويدعوهم اليها ايمانهم. مثلاً: عندما يلقي الحصار عندنا، في الذل والبؤس، رجالا ونساء وعائلات برمتها ولا يفعل احد شيئا لكي يغيّر من هذا الوضع الرهيب! الا يفرض السؤال حينذاك: الى اية اخلاقية ننتمي؟ وهل يمكن للخلقية ان تكون اسيرة قواعد وضوابط جامدة؟ اني لا اقول باننا لا نملك اطلاقا معالم ثابتة للتفكير والعمل في المجال الخلقي، بل ان الانسان المعاصر يتجاوز كل هذه الممارسات التي تبقى موروثة وشكلية، وقد تكون غير خلقية احيانا، بحيث يكون بريء الامس مجرماً اليوم! المهم هو ان انسان اليوم ينشد الوصول الى الحقيقة والى توجيه صحيح يرضي ضميره ويلائم ايمانه وواقع حياته، ويود الالتزام به. انه امام خيارات صعبة قد تكون مأسوية احيانا، ولكن عليه ان يتدرب عليها ويدرب حبّه وانفعالاته.. فبهذا الصدد يقول المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني: "ان من واجب الكنيسة ان تتفحص في كل آن علامات الازمنة وتفسرها على ضوء الانجيل، فتستطيع ان تجيب بصورة ملائمة لكل جيل، على اسئلة الناس الدائمة حول معنى الحياة الحاضرة والمستقبلة وحول العلاقات القائمة بينهما، فانه من الاهمية بمكان ان نطّلع على العالم الذي نعيش فيه ونفهمه مع ما يحمل من اشواق ورغبات وما يتميز به في اغلب الاحيان من المآسي" (فرح ورجاء ٤).

وهكذا تتغير الخلقية، لان ضمير الناس وضمير الكنيسة ينموان اكثر في محبة الاشخاص واحترامهم. وبقدر ما تتوسع الافاق، تتوسع ايضا المجالات لممارسة خلقية تمليها المعضلات والمعانيات الراهنة وتفرضها الحاجات والمتطلبات الحاضرة والمستقبلة..

✵ منبع خلقيتنا المسيحية

ان المسيحي مدعو الى الفرح بانه المحبة.. الله هو أبٌ له ولجميع البشر. هذا هو ايمانه، وما خلقيته سوى طريقته في عيش هذه البنوة[٢]. انه يعرف ان الله خلقه على صورته ومثاله، وان عقله انعكاس لفكر الله وحكمته؛ وانه ابن الله، ينعم بملء حرية الابناء في الحب والمسؤولية. لذلك فهو مدعو الى ان يكوّن بوضوح مقاييس خلقية مبنية على هذه النبوة. وضميره كابن يوقظ فيه خلقية خلاّقة ناضجة، حرة ومسؤولة.

ان الخلقية ليست غاية بحد ذاتها، انما قيمتها تبقى في مدى قدرتها على تحقيق سعادة اخوتنا، وليس القيام بتنفيذ خارجي لشروط ١ و٢ و٣. وفي هذه العملية يبقى المسيح النموذج المطلق لهذه البنوة الالهية، هو الذي عاشها في اقصى درجاتها. يقول الاب ري مرميه: "ان يكون المرء كامل الخلقية، فذلك يعني بكل بساطة بلوغه ملء انسانيته،

(٢) لويس ساكو، اؤمن وأعيش، بغداد ١٩٩٤، ص٦٤.

والحال، ان الانسان الكامل هو المسيح، هذا ما يفترض في المسيحي معرفته. فبه ومعه وفيه نصبح شركاء في الطبيعة الالهية كما يقول القديس بطرس (١:٢-٤)... "وان اساس كل خلقية هو أولاً الانجيل، اعني الانسان الكامل يسوع الذي، بعد موته وقيامته، سيجذب اليه كل البشر (يوحنا ١٢:٣٢)" (نؤمن ٣: ص٤٠ و٨٥).

وبوسع الخطيئة ان تشوه هذه البنوة والابوة، الا انها لا تزيلها! ذلك لان الانسان مهما عمل ومهما ابتعد، فسيبقى في جذوره ابنا وسيكون بامكانه دوما ان يعود الى الاب وكله ثقة ويقين من ان اباه في انتظاره، وعلى اتم الاستعداد للعفو عنه واعادته الى البيت الابوي. (مثل الابن الشاطر: لوقا ١٥).

* صورة المسيحي هي صورة المسيح الحي فيه

"فالصورة التي تجعل من المسيحي مسيحيا، يجب ان تعتلن في كل اعماله، وان توحد مختلف احداث حياته، وان تتجلى في كل ما هو منه، فانما هي المسيح الحي فيه.. وفعلها يختلف تبعا للظروف والاحقاب، للفرح والعذاب، للشغل او اللقاءات. ولكنها دائما هي. فمن خلال كل التغيرات، يوجد خط واحد للمصير والتنامي، حيث يستعيد المسيح حياته ليعيشها مجددا في كل مسيحي".

رومانو كوارديني: قيامة المسيح؛ بيروت ١٩٨٨ ص ٨٩

* المسيح والوصايا العشر

لقد أُهملت الوصايا العشر خلال القرون الاربعة الاولى في تعليم الجماعة المسيحية، بسبب التأكيد على انفصال الكنيسة عن الهيكل وعن "شرعة الشعب اليهودي". ولما غالى المانويون في القرن الرابع في اعتبارهم العهد القديم من صنع الشرير، حاربهم القديس اوغسطينوس وادخل، كردّ فعل، الوصايا في التعليم المسيحي الخلقي وظلت الحالة الى يومنا! ولكن لنعد الى الجذور، الى المسيح، ولنر موقفه من الوصايا.

لم يعلم المسيح اخلاقا تختلف عن الوصايا العشر -والتسمية الكتابية الاصح هي "الكلمات العشر"- التي كانت تقود اليهود، لكنه ذهب بها الى كمالها (طالع التطويبات في متى). وقد دعا الى ان ننظر الى ابعد من الممارسات الخارجية، وان نتجدد من الداخل ونمتلئ من روح الله نفسه حتى نشترك بسعادة في وليمة الفرح وليمة الملكوت.

لقد اظهر المسيح، باقواله واعماله، كم ان الله رحوم ومحب (طالع موقفه من المرأة الزانية: "من منكم بلا خطيئة فليكن اول من يرميها بحجر"، يوحنا ٨:٨)، وطلب منا ان نتشبه به في المغفرة والمحبة وفعل الخير حتى مع اعدائنا: "كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل" (متى ٥:٤٨). ولقد أزال الفوارق بين الاشخاص لكون جميع البشر متساوين في نفس كرامة الابناء: "انتم جميعا اخوة" (متى ٢٣:٨)، واهتم خصوصا بالفقراء والهامشيين... وفي متطلبات العدالة والاخوة، لا نزال نسمع نداءه: "كلما فعلتم باحد اخوتي هؤلاء الصغار في قد فعلتموه" (متى ٢٥:٤٠). ولطالما حذّر من التعلق المفرط بالمال

ودعا الى الاقتسام، كما حذر من روح التسلط والكبرياء واعتبر السلطة خدمة وبذلاً للذات: "الاكبر فيكم يكون لكم خادما" (متى ٢٣:١٢). وبكلمة، دعانا الى ان نحب بعضنا البعض وان نعمق اواصر الاخوة والشركة..

وفي سياق صلاحية الوصايا العشر اليوم، يقول الاب كوب المخلصي: "عصرنا يكره كل ما هو قانوني وينفر من كل ما هو واجب. ولكن الكلمات العشر ليست قانونا او شريعة بل هي قبل كل شيء كلمات نعمة وبشرى من قبل الله لشعبه.. واذا جردناها من سياقها الاصلي هذا للنعمة والاختبار وجعلناها واجبا مطلقا قانونياً، نكون قد شوهناها وافسدنا جوهرها"(٣). اما الاب ري مرميه، فيؤكد بان الوصايا العشر يجب ان تفهم على انها "الحريات العشر الكبرى": "فقضية الحرية الحقيقية ليست، حسبما اعرف، قضية بطلت اليوم؛ فالوصايا التي انشئت بدراية، تقدم للعالم الحديث، معنى لا ينضب، لم يكن الانجيل الا ليعكسه ويتوسع فيه" (نؤمن ٣؛ ص١٠٦).

والكنيسة خلال مسيرتها تدعو الى الامانة تجاه روحية المسيح في مجال الحياة الشخصية والزوجية والعائلية والمهنية بكل اوجهها: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية... وهي تعمق الوعي لدى المؤمنين ببنوتهم الالهية وتربي ضمائرهم بحرية للمشاركة في بناء ملكوت الله، بدلاً من محاولتها لضبطهم في قواعد اخلاقية مطلقة او نسبية!

✻ الخطيئة: رفض للبنوّة والاخوّة

ليست الخطيئة شانا فرديا حسب، وانما هي عمل جماعي من ارهاب وسرقة وقتل وقمع الخ.. وهي ايضا عدم بناء العالم الذي جعله الله في خدمتنا وسعادتنا.. ان مفهوم الخطيئة واسع جدا: انها ما نقوم به من شر وما لم نقم به من خير. فليست الخطيئة افعالا معزولة نقوم بها، انما سيرورة.. انها حرية وهبها الحب الالهي لنا، وهي، في نور الايمان، رفض لهذا الحب، ولو استثنينا التحديف، لاصبحت كل الخطايا موجهة ضد البشر ابنائه. فالخطيئة تكمن في فصم علاقة البنوة الرائعة لله وعلاقة الاخوّة الانسانية وما تتضمنه من ارتباط حياتي وحب –فصم يتم عن ادراك وتصميم وخبث!! وهكذا لا بد، لتحديد مسؤولية الخاطئ، من ان تتوفر المعرفة والارادة والحرية. فان عملا ما شريرا لا يعتبر خطيئة ما لم يكن فاعله حرا ومدركا ان ما يقوم به، هو رفض لحب الله الاب ورفض للانسان الاخ وتعدٍّ عليه.

وبكلمة، ان مضمون "الخلقية المسيحية" يتجلى من خلال قدرتنا على طرح بعض الاسئلة الجوهرية على ضميرنا والاجابة عنها:

- ما هو هدفي في الحياة؟
- ما هي القيم التي توجه حياتي؟
- ما هو المستقبل الذي اود ان ابنيه لذاتي ولاخوتي؟

الأب لويس ساكو

---

(٣) الاب كوب المخلصي: الكلمات العشر–سلسلة محاضرات للكهنة (بالالة الطابعة).

الفهرس

١	**المسيحي في مجتمعه**	(ت١/ت٢ ١٩٧٤-١٠٠ص)	(١٣-٣٩)
	١. هل من مفهوم جديد للايمان	الاب يوسف حبي	١٤
	٢. حول الخطيئة وحرية ابناء الله	الاب البير ابونا	٢٠
	٣. مفهوم السلطة الكنسية	الاب لوسيان جميل	٢٤
	٤. الصحافة المسيحية رسالتها ومقوماتها	الاب بيوس عفاص	٣٣
٢	**قضايا الجيل الجديد**	(ت١/ت٢ ١٩٧٦-١٠٨ص)	(٤٠-٥٨)
	١. المسيحية وتطلعات الشباب	الأب لوسيان جميل	٤١
	٢. آفاق انجيلية في الالتزام السياسي	الأب عبد السلام حلوة	٤٩
	٣. المرأة في الفكر المسيحي: واقع وطموح	جان ماري اوبيرت	٥٤
٣	**كنيسة العراق**	(ايلول ١٩٧٧-٨٢ص)	(٥٩-٧٩)
	١. كنيسة ما بعد المجمع	الأب خليل قوجحصارلي	٦٠
	٢. هل سيكون لنا كهنة بعد اليوم؟	الأب جرجس القس موسى	٦٧
	٣. الكنيسة في الواقع العربي	الأب ميخائيل جميل	٧٦
٤	**بولس السادس**	(ايلول ١٩٧٨-٤٨ص)	(٨٠-٩١)
	١. بولس السادس، رجل الرجاء في عصرنا	الأب لويس ساكو	٨١
	٢. الحركة المسكونية في مفهوم البابا بولس السادس	رنيه بوبير	٨٦
٥	**كهنة. لمن؟ ولماذا؟**	(آب/ايلول ١٩٧٩-٦٤ص)	(٩٢-١١٩)
	١. مفهوم الكهنوت في الكنيسة الاولى	الأب بهنام كجو	٩٣
	٢. الكاهن كما يراه عالم الاجتماع	الأب بيوس عفاص	٩٩
	٣. مستقبل الدعوات الكهنوتية في العراق	نجيب قاقو	١٠٧
	٤. الكاهن "موزع" اسرار؟	الأب يوسف عتيشا	١١٤
٦	**شخصية يسوع المسيح**	(ك١ ١٩٨٠-٨٠ص)	(١٢٠-١٤٠)
	١. يسوع، بشرى الله الجديدة	الأب خليل قوجحصارلي	١٢١
	٢. انسانية يسوع	الأب جرجس القس موسى	١٢٦
	٣. هل كان يسوع الناصري رجل سياسة؟	الأب عبد السلام حلوة	١٣١
	٤. وجه يسوع من خلال الايقونات	الاخت ماريان ابراهيم	١٣٧
٧	**كشاف ١ (١٩٧١-١٩٨٠)**	(ايلول ١٩٨١-٥٦ص)	١٤١

٨ الكتاب المقدس (ت١/ت٢ ١٩٨٢-٩٦ص) (١٤٢-١٩٥)

١. الاساليب الادبية — الأب خليل قوجحصارلي — ١٤٣
٢. الوحي والالهام في الكتاب المقدس — الأب افرام سقط — ١٤٩
٣. العهد القديم في العهد الجديد — الأب يوسف توما — ١٦١
٤. قراءة في الكتاب المقدس على ضوء القيامة — الأب فرنسيس المخلصي — ١٧٠
٥. قراءة في كتاب اعمال الرسل — الأب جرجس القس موسى — ١٧٧
٦. القديس بولس في رسائله — الأب بيوس عفاص — ١٨٦

٩ الاسرة المسيحية (ت١/ت٢ ١٩٨٣-٨٠ص) (١٩٦-٢٣٥)

١. الاسرة رابطة حب وشركة حياة — الأب بيوس عفاص — ١٩٧
٢. العلاقة بين الوالدين والاولاد — الأب يوحنا عيسى — ٢٠٨
٣. اين نحن من التربية الجنسية؟ — صباح حنا بشي — ٢١٥
٤. مفهوم الانسان على ضوء سر الزواج — الأب عبد السلام حلوة — ٢٢١
٥. الاسرة خلية الكنيسة — الأب جرجس القس موسى — ٢٢٧

١٠ الانسان... على صورته ومثاله (ت١/ت٢ ١٩٨٤-٩٦ص) (٢٣٦-٢٧٤)

١. صورة الله والانسان عبر التاريخ — الأب يوسف توما — ٢٣٧
٢. الانسان، مركز فكر المسيح من خلال الانجيل — الأب افرام سقط — ٢٤٦
٣. نظرة لاهوتية معاصرة للانسان — الأب لوسيان جميل — ٢٥٢
٤. الله وقيصر او البعد الاخر للانسان — أوليفييه كليمان — ٢٦٠
٥. الاسرار من اجل الانسان — الأب يوسف عتيشا — ٢٦٨

١١ الشباب... وعي وطموح (ت١/ت٢ ١٩٨٥-٩٦ص) (٢٧٥-٣١٢)

١. دور الثقافة في بناء الشخصية — الأب يوسف توما — ٢٧٦
٢. الشباب ازاء مغامرة الحب — الأب بيوس عفاص — ٢٨٥
٣. الشباب والايمان — الأب افرام سقط — ٢٩٤
٤. الشباب ازاء وصايا الله — الأب نعمان اوريدة — ٣٠١
٥. الشباب والكنيسة — الأب يوحنا عيسى — ٣٠٥

١٢ كنيسة العراق، ٢٠ عاما بعد المجمع (ت١/ت٢ ١٩٨٦-٩٦ص) (٣١٣-٣٥٩)

١. المجمع المسكوني بعد ٢٠ عاما — الأب جرجس القس موسى — ٣١٤
٢. خصوصية الفكر اللاهوتي في كنيسة ما بين النهرين — الأب لويس ساكو — ٣٢٤
٣. التعليم المسيحي بين جيلين — الأب يوسف حبي — ٣٣٣
٤. كهنة وعلمانيون لبناء كنيسة واحدة — الأب يوحنا عيسى — ٣٤٢
٥. نظرة الى موقع كنيسة العراق من الحركة المسكونية — الأب أفرام سقط — ٣٥٠

١٣ أم الفادي

رسالة للبابا يوحنا بولس الثاني
بمناسبة السنة المريمية (ت١ ١٩٨٧-٥٦ص) ٣٦٠

١٤	**الأطفال...امل المستقبل**	(ت١/ت٢ ١٩٨٨-٩٦ص)	(٣٦١-٣٨٠)
	١. الطفل هدف وامل	الأب يوسف حبي	٣٦٢
	٢. اخلاقية الطفل	يوسف حنا للو	٣٧١
	٣. الفن في الصغر، اهمية الفن في حياة الطفل	ماهر حربي	٣٧٦
١٥	**الفكر المسيحي، ربع قرن في خدمة الكلمة**	(ت١/ت٢ ١٩٨٩-٩٦ص)	(٣٨١-٣٩٤)
	١. مسيرة الفكر المسيحي خلال ٢٥ عاما	الأب جرجس القس موسى	٣٨٢
	٢. "الفكر المسيحي" مبادرة من كهنة يسوع الملك	ماهر حربي	٣٨٩
١٦	**الحركة المسكونية: ٢٥ عاما بعد المجمع**	(ت١/ت٢ ١٩٩٠-١٠٠ص)	(٣٩٥-٤٣٧)
	١. الافاق المسكونية لدى القديس بولس	الأب منصور المخلصي	٣٩٦
	٢. الوحدة المسيحية مشروع للتحقيق	الأب يوسف حبي	٤٠١
	٣. نشأة الحركة المسكونية المعاصرة	الأب جودت القزي	٤٠٨
	٤. من رواد الحركة المسكونية	الاخت سانت اتيين	٤١٧
	٥. الكنائس الشرقية الكاثوليكة، عقبة ام جسر؟	الأب بيوس عفاص	٤٢٣
	٦. القيامة عيد نحتفل به سوية	نجيب فاقو	٤٣٣
١٧	**كشاف ٢ (١٩٨٠-١٩٩٠)**	(ايلول ١٩٩١-٦٤ص)	٤٣٨
١٨	**الاوخارستيا... شركة واقتسام**	(آب/ت١ ١٩٩٢-٤٨ص)	(٤٣٩-٤٥٧)
	١. الاوخارستيا في الكتاب المقدس: خبز للعالم	الأب منصور المخلصي	٤٤٠
	٢. الاوخارستيا في الجماعة المسيحية الاولى	الأب لويس ساكو	٤٤٥
	٣. تطور القداس في الطقوس واللاهوت	الأب يوسف حبي	٤٥١
١٩	**المسيحي والمعاصرة**	(تموز/ت١ ١٩٩٤-٨٠ص)	(٤٥٨-٤٩٨)
	١. آفاق المعاصرة في اللاهوت	الأب لوسيان جميل	٤٥٩
	٢. من اجل قراءة جديدة للكتاب المقدس	الأب بيوس عفاص	٤٦٥
	٣. الكنيسة وتحديات العالم المعاصر	الأب جرجس القس موسى	٤٧٣
	٤. طقوس حية معاصرة	الأب يوسف حبي	٤٨١
	٥. البشرى الانجيلية لعالم اليوم	الأب يوحنا عيسى	٤٨٩
	٦. الانسان المعاصر والخلقية المسيحية	الأب لويس ساكو	٤٩٤
	كشاف ٣ (١٩٩١-١٩٩٤)	(العدد ٣٠٠/ ت١-ك١ ١٩٩٤)	

فهرس المؤلفين

• **الأب أفرام سقط** (٤ مساهمات من أصل ٥)

الوحي والالهام في الكتاب المقدس	ت١/ت٢ ١٩٨٢	١٤٩
الانسان، مركز فكر المسيح من خلال الانجيل	ت١/ت٢ ١٩٨٤	٢٤٦
الشباب والايمان	ت١/ت٢ ١٩٨٥	٢٩٤
نظرة الى موقع كنيسة العراق من الحركة المسكونية	ت١/ت٢ ١٩٨٦	٣٥٠

• **اوليفيه كليمان**

الله وقيصر او البعد الاخر للانسان	ت١/ت٢ ١٩٨٤	٢٦٠

• **الأب بهنام كجو** (+)

مفهوم الكهنوت في الكنيسة الاولى	آب/ايلول ١٩٧٩	٩٣

• **الأب ألبير أبونا** (مساهمة ١ من اصل ٢)

حول الخطيئة وحرية ابناء الله	ت١/ت٢ ١٩٧٤	٢٠

• **الأب بيوس عفاص** (٧ مساهمات من أصل ١٤)

الصحافة المسيحية رسالتها ومقوماتها	ت١/ت٢ ١٩٧٤	٣٣
الكاهن كما يراه عالم الاجتماع	آب/ايلول ١٩٧٩	١٠٧
القديس بولس في رسائله	ت١/ت٢ ١٩٨٢	١٨٦
الاسرة رابطة حب وشركة حياة	ت١/ت٢ ١٩٨٣	١٩٧
الشباب ازاء مغامرة الحب	ت١/ت٢ ١٩٨٥	٢٨٥
الكنائس الشرقية الكاثوليكة، عقبة ام جسر؟	ت١/ت٢ ١٩٩٠	٤٢٣
من اجل قراءة جديدة للكتاب المقدس	تموز/ت١ ١٩٩٤	٤٦٥

• **جان ماري أوبيرت**

المرأة في الفكر المسيحي: واقع وطموح	ت١/ت٢ ١٩٧٦	٥٤

• **الأب (المطران) جرجس القس موسى** (٧ مساهمات من أصل ١٢)

هل سيكون لنا كهنة بعد اليوم؟	ايلول ١٩٧٧	٦٧
انسانية يسوع	ك١ ١٩٨٠	١٢٦
قراءة في كتاب اعمال الرسل	ت١/ت٢ ١٩٨٢	١٧٧
الاسرة خلية الكنيسة	ت١/ت٢ ١٩٨٣	٢٢٧
المجمع المسكوني بعد ٢٠ عاما	ت١/ت٢ ١٩٨٦	٣١٤
مسيرة الفكر المسيحي خلال ٢٥ عاما	ت١/ت٢ ١٩٨٩	٣٢٨
الكنيسة وتحديات العالم المعاصر	تموز/ت١ ١٩٩٤	٤٢٧

• **الأب جوزيف القزي**

نشأة الحركة المسكونية المعاصرة	ت١/ت٢ ١٩٩٠	٤٠٨

• **الأب خليل قوجحصارلي** (+)

كنيسة ما بعد المجمع	ايلول ١٩٧٧	٦٠
يسوع، بشرى الله الجديدة	ك١ ١٩٨٠	١٣١
الاساليب الادبية	ت١/ت٢ ١٩٨٢	١٤٣

• **رنيه بوبير**

الحركة المسكونية في مفهوم البابا بولس السادس	ايلول ١٩٧٨	٨٦

• **الاخت هانت اتيين** (مساهمة ١ من أصل ٥)

من رواد الحركة المسكونية	ت١/ت٢ ١٩٩٠	٤١٧

• **صباح حنا بهشي** (مساهمة ١ من أصل ٣)

اين نحن من التربية الجنسية؟	ت١/ت٢ ١٩٨٣	٢١٥

• **الأب عبد الصلام حلوة** (+) (٣ مساهمات من أصل ٤)

آفاق انجيلية في الالتزام السياسي	ت١/ت٢ ١٩٧٦	٤٩
هل كان يسوع الناصري رجل سياسة؟	ك١ ١٩٨٠	١٣١
مفهوم الانسان على ضوء سر الزواج	ت١/ت٢ ١٩٨٣	٢٢١

• **الأب فرنسيس المخلصي** (+)

قراءة في الكتاب المقدس على ضوء القيامة	ت١/ت٢ ١٩٨٢	١٧٠

• **الأب لوصيان جميل** (٤ مساهمات من أصل ١٢)

مفهوم السلطة الكنسية	ت١/ت٢ ١٩٧٤	٢٤
المسيحية وتطلعات الشباب	ت١/ت٢ ١٩٧٦	٤١
نظرة لاهوتية معاصرة للانسان	ت١/ت٢ ١٩٨٤	٢٥٣
آفاق المعاصرة في اللاهوت	تموز/ت١ ١٩٩٢	٤٥٩

• **الأب (المطران) لويس ساكو** (٤ مساهمات من أصل ٩)

بولس السادس، رجل الرجاء في عصرنا	ايلول ١٩٧٨	٨١
خصوصية الفكر اللاهوتي في كنيسة ما بين النهرين	ت١/ت٢ ١٩٨٦	٣٢٤
الاوخارستيا في الجماعة المسيحية الاولى	آب/ت١ ١٩٩٢	٤٤٥
الانسان المعاصر والخلقية المسيحية	تموز/ت١ ١٩٩٤	٤٩٤

• **الاخت ماريان ابراهيم** (مساهمة ١ من أصل ٢)

وجه يسوع من خلال الايقونات	ك١ ١٩٨٠	١٣٧

• **ماهر حربي** (مساهمتان من أصل ٧)

الفن في الصغر، اهمية الفن في حياة الطفل	ت١/ت٢ ١٩٨٨	٣٧٦
"الفكر المسيحي" مبادرة من كهنة يسوع الملك	ت١/ت٢ ١٩٨٩	٣٨٩

- **الأب منصور المخلصي** (مساهمتان من أصل ٣)

الافاق المسكونية لدى القديس بولس — ت١/ت٢ ١٩٩٠ — ٣٩٦
الاوخارستيا في الكتاب المقدس: خبز للعالم — آب/ت١ ١٩٩٢ — ٤٤٠

- **الأب (المطران) ميخائيل جميل** (مساهمة ١ من أصل ٢)

الكنيسة في الواقع العربي — ايلول ١٩٧٧ — ٧٦

- **نجيب قاقو** (مساهمتان من أصل ٩)

مستقبل الدعوات الكهنوتية في العراق — آب/ايلول ١٩٧٩ — ١٠٩
القيامة عيد نحتفل به سوية — ت١/ت٢ ١٩٩٠ — ٤٣٣

- **الأب نعمان اوريدة** (+) (مساهمة من أصل ٣)

الشباب ازاء وصايا الله — ت١/ت٢ ١٩٨٥ — ٣٠١

- **الأب يوحنا عيسى** (٤ مساهمات من أصل ٩)

العلاقة بين الوالدين والاولاد — ت١/ت٢ ١٩٨٣ — ٢٠٨
الشباب والكنيسة — ت١/ت٢ ١٩٨٥ — ٣٠٥
كهنة وعلمانيون لبناء كنيسة واحدة — ت١/ت٢ ١٩٨٦ — ٣٤٣
البشرى الانجيلية لعالم اليوم — تموز/ت١ ١٩٩٤ — ٤٨٩

- **الأب يوسف توما** (٣ مساهمات من أصل ٧)

العهد القديم في العهد الجديد — ت١/ت٢ ١٩٨٢ — ١٦١
صورة الله والانسان عبر التاريخ — ت١/ت٢ ١٩٨٤ — ٢٣٧
دور الثقافة في بناء الشخصية — ت١/ت٢ ١٩٨٥ — ٢٧٦

- **الأب يوسف حبي** (+) (٦ مساهمات من أصل ٧)

هل من مفهوم جديد للايمان — ت١/ت٢ ١٩٧٤ — ١٤
التعليم المسيحي بين جيلين — ت١/ت٢ ١٩٨٦ — ٣٣٣
الطفل هدف وأمل — ت١/ت٢ ١٩٨٨ — ٣٦٢
الوحدة المسيحية مشروع للتحقيق — ت١/ت٢ ١٩٩٠ — ٤٠١
تطور القداس في الطقوس واللاهوت — آب/ت١ ١٩٩٢ — ٤٥١
طقوس حية معاصرة — تموز/ت١ ١٩٩٤ — ٤٨١

- **يوسف حنا للو** (مساهمة ١ من أصل ٤)

اخلاقية الطفل — ت١/ت٢ ١٩٨٨ — ٣٧١

- **الأب يوسف عتيشا** (مساهمتان من أصل ٧)

الكاهن "موزع" اسرار؟ — آب/ايلول ١٩٧٩ — ١١٤
الاسرار من اجل الانسان — ت١/ت٢ ١٩٨٤ — ٢٦٨

من اصدارات مركز الدراسات الكتابية
دار بيبليا للنشر

ملفات الكتاب المقدس

مجلة بيبلية متخصصة مصورة، معربة عن الفرنسية *Les Dossiers de la Bible* تصدر منذ عام ٢٠٠٠ عن دار بيبليا للنشر بوتيرة اربعة ملفات في السنة.

السنة الاولى ٢٠٠٠
١- الحديث عن القيامة/أيلول
٢- الافخارستيا/ كانون الأول

السنة الثانية ٢٠٠١
٣- ايليا واليشاع/كانون الثاني
٤- امثال يسوع/نيسان
٥- ما وراء الموت/تموز
٦- عجائب يسوع/تشرين الأول

السنة الثالثة ٢٠٠٢
٧- قراءة في انجيل متى/كانون الثاني
٨- اعمال الرسل/نيسان
٩- قراءة في مؤلف لوقا/تموز
١٠- حزقيال النبي/تشرين الأول

السنة الرابعة ٢٠٠٣
١١- اناجيل الطفولة/كانون الثاني
١٢- القديس بولس/نيسان
١٣- سفر يونان/تموز
١٤- كنيسة البدايات/تشرين الأول

السنة الخامسة ٢٠٠٤
١٥- القديس مرقس/كانون الثاني
١٦- سفر المزامير/نيسان
١٧- النبي عاموس/تموز
١٨- صلاة الابانا/تشرين الأول

السنة السادسة ٢٠٠٥
١٩- انجيل يوحنا/كانون الثاني
٢٠- الروح القدس/نيسان
٢١- الاناجيل المنحولة/تموز
٢٢- اشعيا النبي/تشرين الأول

السنة السابعة ٢٠٠٦
٢٣- سفر ايوب/كانون الثاني
٢٤- ارميا النبي/نيسان
٢٥- سفر الرؤيا/تموز
٢٦- الغفران في ك. م. /تشرين الأول

السنة الثامنة ٢٠٠٧
٢٧- اشعيا الثاني وتلاميذه/كانون الثاني
٢٨- أوجه يسوع/نيسان
٢٩- الآلام بحسب يوحنا/تموز
٣٠- سفر الخروج/تشرين الأول

السنة التاسعة ٢٠٠٨
٣١- لا فقراء بعد اليوم!/كانون الثاني
٣٢- الآلام بحسب انجيل لوقا/نيسان
٣٣- روح العنصرة/تموز
٣٤- العهد: من سيناء الى يسوع/تشرين الأول

السنة العاشرة ٢٠٠٩
٣٥- العماذ في ك.م.+عدد خاص/كانون الثاني
٣٦- بولس وقورنتس/نيسان
٣٧- حين يتكلم الله/تموز
٣٨- مريم، ام يسوع/تشرين الأول

اسعار المجموعات مخفضة

- مجموعة ٧ اعوام	(١١-٣٨)	٢٥٠٠٠ د.
- مجموعة ٥ أعوام	(١٥-٣٤)	١٥٠٠٠ د.
- مجموعة عامين	(٢٣-٣٠)	٥٠٠٠ د.
- مجموعة عامين	(٣١-٣٨)	١٠٠٠٠ د.

السنة ١١/ملف ٣٩: اورشليم
السعر: ١٥٠٠ د.

سلسلة أبحاث كتابية

وبضمنها سلسلة "تفاسير"

١. قراءة مجددة للعهد الجديد	تأليف: أ. بيوس عفاص	٥٤٠ص/١٩٩٩	(٤٠٠٠ د)
٢. يسوع الذي من الناصرة، بقلم مرقس الانجيلي	تعريب: أ. بيوس عفاص	٢٣٤ص/٢٠٠٢	(١٠٠٠ د)
٣. قراءة في العهد القديم/ج١: قبل الجلاء		٢٤٠ص/٢٠٠٣	(١٥٠٠ د)
٤. قراءة في العهد القديم/ج٢: من الجلاء الى يسوع		٢٧٢ص/٢٠٠٤	(٢٠٠٠ د)
٥. قراءة في العهد الجديد/ ج١: الاناجيل الاربعة		٢٥٦ص/٢٠٠٤	(٢٠٠٠ د)
٦. قراءة في العهد الجديد/ ج٢. اعمال الرسل، الرسائل، الرؤيا		٢٥٦ص/٢٠٠٤	(٢٠٠٠ د)

(وتؤلف الاجزاء الاربعة الاخيرة من تعريب الأب بيوس عفاص [وتضمها علبة خاصة]
مدخلا متكاملا الى الكتاب المقدس بسعر ٨،٠٠٠ دينار)
سعر خاص للجزئين من "قراءة في العهد الجديد": ٣٠٠٠ د. فقط

٧. الكنيسة التي ورثناها عن الرسل	تأليف: أ. ريموند براون ت: م. جرجس القس موسى	٢٠٨ ص/٢٠٠٥	(٢٠٠٠ د)
٨. لوقا – الاعمال/ وعد التاريخ	تأليف: دونالد بوتين تعريب أ. ألبير ابونا	٢٠٠ص/٢٠٠٦	(٢٠٠٠ د)
٩-١٠. روايات الآلام والقيامة/ بحسب الأناجيلين الاربعة	تأليف: أ. بيير بنوا تعريب: أ. بيوس عفاص	٣٣٦ص/٢٠٠٦	(٣٥٠٠ د)
١١. يسوع الذي هو المسيح	تأليف: أ. برنار راي ت: م. جرجس القس موسى	١٣٦ص/٢٠٠٧	(٢٠٠٠ د)
١٢. من اجل ايمان جاد/ الايمان بحسب القديس يوحنا	تأليف: ك.كارلو مارتيني تعريب أ. ألبير أبونا	١٧٦ص/٢٠٠٨	(٢٠٠٠ د)
١٣. الانجيل بحسب القديس متى/ سلسلة تفاسير ١	تأليف: كلود تاسان تعريب أ. بيوس عفاص	٢٨٨ص/٢٠٠٨	(٣٠٠٠ د)
١٤. مذكرات مريم، فتاة الناصرة	تأليف: جاكلين هوري ت م. جرجس القس موسى	٢٨٨ص/٢٠٠٩	(٣٠٠٠ د)
١٥. الانجيل بحسب القديس يوحنا / سلسلة تفاسير ٤	تأليف: آلان مرشدور تعريب أ. بيوس عفاص	٢٨٨ص/٢٠٠٩	(٣٠٠٠ د)

سيظهر تباعا

١٦. رسائل القديس بولس/ج١ –سلسلة تفاسير ٦	يظهر في أوائل ٢٠١٠
١٧. رسائل القديس بولس /ج٢ – سلسلة تفاسير ٧	يظهر في خريف ٢٠١٠
١٨. رسائل القديس بولس / ج٣– سلسلة تفاسير ٨	يظهر في أوائل ٢٠١١
١٩. الرسائل الاخيرة– سلسلة تفاسير ٩	يظهر في خريف ٢٠١١
٢٠. سفر الرؤيا– سلسلة تفاسير ١٠	يظهر في أوائل ٢٠١٢
٢١. الانجيل بحسب القديس مرقس– سلسلة تفاسير ٢	يظهر في خريف ٢٠١٢
٢٢. الانجيل بحسب القديس لوقا– سلسلة تفاسير ٣	يظهر في أوائل ٢٠١٣
٢٣. سفر أعمال الرسل– سلسلة تفاسير ٥	يظهر في خريف ٢٠١٣

انجزت دار "بيسان للنشر"
طبع "المختار من الاعداد الخاصة"
في السادس من كانون الثاني ٢٠١٠